
جود المغمور
تأليف : توماس هاردي
ترجمة : سامي ناشد
راجعه : حسن محمود
منتديات سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

چوُدُ المغمورْ

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



چود المغمور

تأليف
توماس هاردي

ترجمه
سامي ناشد

راجعه
حسن محمود

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٩٦٤

هـــذه ترجمة كتاب :

Jude The Obscure

تأليف :

Thomas Hardy

مقدمة

توماس هاردى

(١٨٤٠ — ١٩٢٨)

(١)

عاش « هاردى » طفولة جادة اتسمت بحب القراءة والإقبال على التحصيل ، وكان لأمه الفضل الأكبر فى دفعه إلى هذا الطريق وتشجيعه على سلوكه ، ولا غرو فقد كانت سليلة أسرة عريقة امتدت جذورها فى ولاية « دورسيتشير » لأجيال عديدة وأثمرت شجرتها عدداً من أهل الثقافة والعلم . لقد دفعته أمه إلى دراسة اللاتينية والفرنسية دراسة خاصة بدأها منذ نعومة أظفاره بعيداً عن مدرسة القرية ، وشجعها على ذلك ما لمسته فيه من رغبة ملحة فى التحصيل ، وقدرة على تحمل مشاقه . كانت ترى فيه صورة شبابها الذى أمضته فى بيت يقدر الثقافة ويشجع التعليم ، كما كان «هاردى» يرى فيها « السيدة الجادة والنتاج الطبيعى لريف « دورسيتشير » بكل عمقه ، ومهابته وسماحته » . وأغلب الظن أنه كان يتخيل أمه وهو يرسم شخصية « السيدة يوبرايت » فى قصته العظيمة « عودة ابن البلدة » . على أن السنوات التى قضاها فى مدرسة القرية لم تكد تنتهى حتى طلب منه أبوه أن يسلك الطريق الذى يوصله إلى مهنة الهندسة المعمارية ، وبذلك انتقل « هاردى » إلى مكتب المهندس « جون هيكس » فى دورسيتشير ، وكان متخصصاً فى بناء الكنائس وترميمها . بعد ذلك رحل « هاردى » إلى لندن ليستزيد من العلم وهناك التحق بمكتب مهندس آخر يدعى سير « أرثر بلومفيلد » . ومن السهل علينا أن نلمس آثار دراساته المعمارية وخبرته التى اكتسبها فى مطلع شبابه فى مجالات البناء والهندسة المعمارية فى كثير من كتبه وفى وصفه الدقيق الحى للأبنية الكثيرة

والآثار العديدة التي جاء ذكرها في كتبه . وفي قصته « جود المغمور » استخدم « هاردي » علمه الهندسي على نطاق واسع وبخاصة عنـــد ما يصف الكنائس والكليات الجامعية وهو يتحدث عن هـذه الأماكن في إسهاب حديث العالم الخبير . كذلك يستخدم « هاردي » الكثير من العلم الذي تلقاه في مكتب أستاذه « بلومفيلد » عند ما يتحدث عن أبنية عصر « استعادة الملكية » في إنجلترا وهو الطراز المعماري الذي تخصص فيه هـــذا الأخير . وبمرور الزمن أصبح هيام « هاردي » بالهندسة المعمارية اتجاها نفسيا أصيلا ملك عليه حاسته الفنية في الكتابة القصصية وفي البناء الشعري الملاحم التي ظهر بها على العالم في أوائل القرن العشرين ، ومنها ملحمته الخالدة « الحكام » التي تميزت بالبناء الرصين والتكامل الدقيق لعناصر عديدة متداخلة من خلال فرشة واسعة تضم العديد من الأحداث والشخصيات . على أن حب «هاردي» للهندسة لم يكن هو الحب الوحيد الذي ملك عليه حياته إذ أن الهزة الأولى التي أحس بها في مطلع العمر عندما أقبل على دراسة الفرنسية واللاتينيـة لم تفارقه رغم تفوقه في الهندسة وإحرازه الكثير من جوائزها . وعلى الرغم من نجاحه في الهندسة المعمارية أخذ يعد نفسه إعداداً جديداً يمكنه من الكتابة ومن اتخاذها حرفة حياته التي امتدت حتى عام ١٩٢٨ . ومما يلفت النظر أنه ، عند ما هجر الهندسة إلى الكتابة ، أقبل على التأليف في ثقة كبيرة مما كان يبشر بأن كاتباً عظيما وشاعراً فذاً أصبح في طريقه إلى الظهور . وهو وإن كانت كتاباته الأولى تبشر بخير عميم فقد رفض أن تغرر به إلتماعة النجاح الأولى ، فأكب من جديد على الدراسة المتعمقة في فصول ليلية ملحقة بكلية الملك في لندن لاستكمال الناحية الأكاديمية التي عجز عن استكمالها في صدر حياته . وفي الفصول الليلية استطاع أن يتعمق دراسة اليونانية بجانب اللاتينية التي درسها في طفولته . وفي تلك الفصول درس أيضا اللاهوت والأدب القديم ، والفلك ، والتاريخ ، وكل هذه الدراسات كانت المعين الذي لا ينضب ، والمنبع الذي اغترف منه عند ما شرع يكتب الشعر أولا ، ثم القصة ثانيا ، ثم عند ما عاد مرة أخرى إلى الشعر ، بعد أن انقطع عن الكتابة القصصية .

(٣)

وبظهور قصة « جود المغمور » ، وما أثارته من ضجة ونقاش بين النقاد ورجال الدين ، انتهت مرحلة الكتابة القصصية فى حياة «هاردى» ، ولعله رضى فى أعماق نفسه عن هذه الضجة التى أثارتها القصة فى كل من انجلترا والولايات المتحدة ، بل لقد سر بها إذ جعلته يهجر الكتابة القصصية ويتحول كلية إلى الشعر وكان يعتبر أنه الأداة الطبيعية للتعبير الفنى . وقبل أن يتوقف عن الكتابة القصصية كان قد أمضى من حياته الأدبية ما يقرب من عشرين عاما أنتج خلالها عدداً كبيراً من القصص منها المجموعة التى يطلق عليها « روايات وسكس » نسبة إلى « إقليم وسكس » التى اتخذه مسرحا لحوادثها ، كما أطلق النقاد على خمس من هذه المجموعة اسم « روايات الشخصيات والبيئة » وهى « عودة ابن البلدة » عام ١٨٧٨ و « عمدة كاستربريدج » عام ١٨٨٦ و « الحطابون » عام ١٨٨٧ و « تس سليلة آل دوبرفيل » عام ١٨٩١ و « جود المغمور » عام ١٨٩٦ . لقد اتسمت هذه المجموعة بطابع الخشونة وفيها مرارة غير عادية وقسوة فى بعض أجزائها وبخاصة القصتان الأخيرتان منها وهما « تس » و « جود » ولقد هوجمتا بشدة من عدد كبير من الناس كما اختلف النقاد فى الحكم عليهما ، بل إن أحد رجال الدين فى انجلترا قال عن قصة « جود المغمور » إنها تحض الناس على الكفر لأنها تخلو من روح المسيحية الداعية إلى التفاؤل بالحياة والرجاء فى الله ، وإن كان البعض أيضاً اعتبرها قصة دينية من الطراز الأول وتدعو إلى مكارم الأخلاق . ومهما يكن من أمر الاتهامات التى وجهها النقاد لهذه القصة ورأى الناس فيها فى أوربا وأمريكا فقد تحمس لها « هاردى » واعتبرها شيئاً جديداً فى عالم القصة وقال عنها إنها « قصة يحكيها إنسان لإخوانه فى البشرية من الرجال والنساء المكتملى العمر ، كما أنها محاولة للتصدى الأمين للجنون والحمى التى يصاب بها البشر وللهزء والكوارث التى تترى فى أعقاب أقوى العواطف التى عرفتها البشرية . إنها تحكى دون مواربة الحرب المريرة المستعرة بين الجسد والروح وتتحدث عن الأمانى التى لم تتحقق » .

(٢)

على أن «هاردى» ، على الرغم من موهبته فى كتابة القصة إلى الحد الذى يمكن القول معه إنه قصاص بالسليقة ، فإن كتابته القصة جاءت على الرغم منه إذ أن عاطفته الأولى اتجهت أولا إلى الشعر وبالشعر انتهت . و«هاردى» كشاعر يعتبر علما من أعلام الدراما الشعرية فى الإنجليزية فإنتاجه الشعرى فى مراحل حياته كشف عن عبقرية أصيلة ، وإن كان إنتاجه فى المرحلة الأولى من القلة بحيث لم يحظ بما يستحقه من الدراسة كتلك التى حظى بها إنتاجه فى المرحلة الثانية وهى التى أعقبت انقطاعه عن كتابة القصة . فى هـــذه المرحلة كان إنتاجه الشعرى من الغزارة والقوة والتنوع ما أكسبه مركزا متميزا بين شعراء أوائل القرن العشرين ، كما كان شعره من الأصالة بحيث يمكن القول إنه أتى بجديد فى الكتابة الشعرية . والواقع أن ملحمته « الحكام » تميزت ببراعة خاصة فى البناء الفنى ووضوح فى الفكرة وأصالة فى التعبير وهى دراسة متعمقة للمفاهيم العامة للإرادة الواحدة الشاملة وهى فى نواح عديدة تعتبر استكمالا للملحمة الشعرية التى كتبها شوبنهور وسماها « العالم فكرة وإرادة » . وعن المجموعات الشعرية العديدة التى ظهرت بعد ذلك ، ومنها «أشعار وسكس فى الماضى والحاضر» و « سخريات الأيام » و «هجاء المناسبات» ، وعلى الرغم من النغمة القانطة الكئيبة التى تتخلل سطورها وكلماتها ، يقول النقاد إن « هاردى » استطاع أن يكتب شعرا جديدا لا هو بالغنائى ولا هو بالدرامى بل مزيج من النوعين ، كما أنه جديد فى مرارته وموسيقاه المقيدة . وإن روحه فى أشعار هذه الفترة لتتسم بميل واضح نحو الرومانسيين الذين كتبوا الشعر فى إنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر ومن أظهرهم الشاعر « شيللى » كما يدل على ذلك هيام « هاردى » بالأطفال والحيوانات والطبيعة بصفة عامة . بل إن صفات الرومانسيين وأفكارهم وأحاسيسهم لتتضح كثيرا فى مجموعاته التى منها « قصائد قديمة وحديثة » و « صور من الناس » و « أغان وتفاهات » و « أوهام بعيدة » وكل هذه قد أضافت ثروة جديدة للأدب الإنجليزى بصفة خاصة والأدب العالمى على وجه العموم .

« ومأساة الأمانى التى لم تتحقق ، لأن قوى قدرية غاشمة هائلة غامضة عمياء تسيطر على مصائر البشر وتعمل فى قسوة شريرة على هدم ما يبنيه الإنسان بكده وعرقه وإفساد خططه هى الفكرة الأولى التى خرج بها « هاردى » من دراساته للآداب القديمة ، ومن قراءاته للشعر اليونانى القديم والمقالات اللاتينية التى امتلأت بها طفولته الأولى . من هذه الفكرة ذات الصلة بمأساة « بروميثيوس طليقاً » و « بروميثيوس مقيداً » صاغ المحاور التى تدور حولها قصصه وبخاصة قصص «الشخصيات والبيئة » وجميعها تعكس هذه الفلسفة القديمة التى تعلق بها «هاردى» وصاغها شعراً ونثراً . ولعل قصة « عودة ابن البلدة » وكذلك قصة « تس سليلة دبرفيل » توضحان هذه الفلسفة أكمل توضيح . أما قصة « جود المغمور » فإنها تتحلل قليلا من قيود هـذه الفكرة إذ أنه يخرج بموضوعها إلى مجال جديد مبتكر هو مجال القصة الفلسفية الاجتماعية التى تعالج موضوعاً خطيراً هو الزواج وعلاقته الوثيقة بالتكوين النفسى للناس وحقوق البشر فى الحرية . وعلى الرغم من صعوبة علاج مثل هذا الموضوع الشائك علاجاً فنيـاً صحيحاً ، فإن « هاردى » نجح فى أن يجعل من القصة أداة سهلة لعلاج موضوع الزواج فى إطار اجتماعى وإن كان يبدو غريباً بعض الشىء إلا أن ملامحه كانت معروفة لمن عاش فى انجلترا فى تلك الحقبة التى يتحدث عنها . كذلك استطاع « هاردى » أن يجعل القصة تستوعب كثيراً من آرائه فى الدين والسلوك الاجتماعى ، كما اتسعت لمحاورات دينية طويلة تدور حول موضوعات كثيرة كانت محل بحث ونقاش بين الناس فى أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر . لقد اتسعت القصة أيضاً لآراء جماعات كان يطلق عليها « العجاليون » نسبة إلى العجالات التى كانوا يكتبونها ويوزعونها على المحافل المختلفة ولعل فى التسمية شىء من الهزء بهذه الجماعة . ومن هذه الجماعات أيضاً « الانشقاقيون » الذين خرجوا على كنيسة انجلترا ، و « المعمدانيون » ، و « الميثوديون » .

(٤)

وقصة « جود المغمور » تدور حول الحياة الفاجعة التى عاشها بناء فقير يدعى « جود فاولى » ، وكان يطمح إلى أن يحظى بتعليم جامعى . غير أن آماله فى هذا النوع من التعليم تحطمت فى قسوة بسبب غرور المسئولين فى « كرايستمينستر » ، مدينة الجامعة ، وتقاعسهم عن مساعدته ونفورهم منه مما حز فى نفسه وملأ حياته حزناً وألما . على أن هذا البرود الذى صادفه من رجال العلم بالجامعة لم يقعده عن مواصلة الدراسة التى هام بها حباً ، وإن كان حبه للعلم قد اصطدم اصطداماً رهيباً بالقدر وألاعيبه . لم تكن روحه فقط هى التى خسرها فى هذا الصراع ، وإن كانت خسارة الروح لا تترك مكاناً لخسارة أخرى ، بل إن حياته أيضاً حطمتها أنانية امرأتين اعترضتا سبيله بحيلة من حيل القدر . إحدى هاتين المرأتين اسمها « أرابيلا دون » ويقول عنها « هاردى » : « أنثى سميكة الجلد ، حيوانية النزعة » . لقد استطاعت أن تسرقه من نفسه وتقوده إلى الزواج منها معصوب العينين ، وسرعان ما يتحول الزواج إلى قيد يترك آثارا أليمة فى نفس كل منهما ، وأخيرا تنتهى العلاقة الزوجية بهروب الزوجة . أما المرأة الأخرى فهى « سو برايتهيد » ، مخلوق أثيرى تهوى الحياة الذهنية وتتذبذب كثيرا فى آرائها ومعتقداتها وتقف أمام الحب حائرة كطفل ، وهى الوجه الآخر لشخصية « أرابيلا دون » .

وفى جزء كبير من الكتاب تلعب قوانين الزواج دورا أساسيا فى رسم خطوط المأساة التى عاشها البطلان كما تتأثر بها الحوادث التى خاضتها شخصيات القصة . لقد راح « هاردى » يدلل على أن القانون المدنى ينبغى أن يكون ، كما قال « ديدرو » ، إشهارا علينا لقانون الطبيعة ، ولا شىء غير هذا . على ذلك لا بد أن يلغى الزواج ويصبح كأنه لم يكن بمجرد أن يتحول إلى قيد ينوء به أحد الطرفين . واستمرار الزواج هو الذى يفتح الطريق هنا أمام عناصر المأساة لكى تظهر ووراءها سيل من الكوارث استخدمها «هاردى» فى براعة كبيرة لكى يقيم

بها الشكل الدرامى للقصة . هذه العناصر ذاتها تفيد فى ما يذكره « أرسطو طاليس » عن وظيفة المأساة فى تطهير النفس البشرية وإزالة ما بها من أدران .

وبالإضافة إلى قوانين الزواج فى رسم خطوط المأساة . نجد أيضا الصعوبات التى توجد فى كثير من المجتمعات ، والتى يعانى منها كل من يطلب العلم دون الاعتماد على العون المادى الذى ييسر سبيل الدرس والتحصيل . لقد ارتد « جود » عن أسوار الجامعة لفقره وعاش طوال حياته يرنو ببصره إليها يكفيه منها النظر والسمع ، والخيال دون الحقيقة ، والأوهام الحلوة الجميلة التى تسرى فى أوصاله كخمر إلهية وتبتعد به عن واقعه الأليم .

أما شخصية « سو برايتهيد » فهى فى رأى بعض النقاد أول تصوير روائى للمرأة الحديثة وليدة التطورات الاجتماعية والاقتصادية التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر . بل هى نفسها المرأة التى تزعمت الحركات النسوية ، « المرأة العزباء ذات اللون المصفر والبدن الرقيق والكيان الضئيل ، والتى تهتم بالأمور العقلية وتدعو إلى التحرر من التقاليد وتخرج إلى ميدان العمل معتمدة على عقلها ولا ترى داعياً يدعو بنات جنسها إلى اتخاذ الزواج وسيلة لكسب العيش » . و « سو برايتهيد » صورة حية لنساء المدن الجديدة اللائى خرجن لاكتشاف الحياة وبعضهن أفاد من التجربة ، غير أن « سو » عندما عادت كانت التجربة قد تركت فى نفسها جراحا عميقة دامية .

س . ن

البَابُ الأَوَّلُ

في

ميريجرين

« كثيرون حقاً هم الذين أضاعوا عقولهم بسبب النساء حتى أصبحوا عبيداً لهن . كثيرون حقا هم الذين ذهبت ريحهم وتنكبوا طريق الصواب وارتكبوا المعاصي من أجل المرأة . فيا أيها الرجال كيف لا تأنس بنات حواء في نفوسهن القوة وهن يشاهدن ما يستطعن أن يفعلنه بكم ! » .

(ازدراس)

(١)

كان المعلم على أهبة الرحيل ، فخيم الحزن لفراقه على القرية ، وجثم على صدر الجميع ثقل هائل . أعاره الطحان فى « كريسكومب » عربته الصغيرة وجوادها لينقل عليها حاجاته القليلة إلى المدينة التى اعتزم أن يرحل إليها . لم تكن هذه المدينة لتبعد غير عشرين ميلا وكانت العربة مناسبة تماماً لما يملك من أمتعة قليلة ، فسكنه مؤجر له بفرشه من قبل أصحاب المدرسة . أما قطعة الأثاث الوحيدة الكبيرة التى يملكها بالإضافة إلى حقيبة كتبه فكان البيانو الذى سبق أن اشتراه فى سوق عامة خلال العام الذى راودته فيه فكرة تعلم العزف على آلة موسيقية . غير أنه بمجرد أن ضعفت حماسته لهذه الفكرة ، انقطع عن العزف وعن القيام بتدريباته اليومية ، وسرعان ما أصبح المعزف مصدراً دائماً للمتاعب ، وبخاصة عندما ينتقل المعلم من منزل إلى آخر .

وفى ذلك اليوم كان قسيس الناحية قد غادر القرية ، إذ أنه يكره مناظر التغيير والتوديع ، لهذا اعتزم الابتعاد عن المكان حتى يصل المعلم الجديد ، ويتخذ مقامه ويعود كل شيء إلى هدوئه .

وأمام المعزف الرابض فى بهو المنزل ، وقف حداد القرية ومعاون المزرعة ، كما وقف المعلم نفسه ، وقد استبدت الحيرة بهم جميعاً ، قال المعلم إنه حتى لو نجحوا فى نقل البيانو إلى العربة ، فماذا يصنع به عندما يصل إلى مدينة « كرايستمينستر » حيث تكون إقامته مؤقتة فى مبدأ الأمر .

وبينما كانوا يفكرون بحثاً عن حل ، جاءهم غلام فى الحادية عشرة من عمره وأخذ يعاونهم فى حماسة وأقبل يشترك فى عمليات الحزم والنقل . فتح الغلام فمه بالكلام فخرج صوته يقطر خجلا وهو يقول : « أيها السيد ، تملك عمتى مخزناً كبيراً للوقود ، وفى مقدورك أن تحتفظ بمعزفك فيه فترة من الزمان حتى تجد لنفسك مكاناً تقيم فيه » . وقال الحداد : « يا لها من فكرة صائبة ! » .

وسرعان ما استقر رأى الجميع على أن يذهب الحاضرون فى وفد إلى عمـــة الغلام وهى عجوز لم تتزوج ـــ كى يسألوها عما إذا كانت توافق على أن يترك المعلم معزفه فى مخزنها فترة من الزمان . وفى نفس الوقت توجه الحداد ومعاون المزرعه إلى المخزن ليتأكدوا من مدى ملاءمته للغرض. وبقى الغلام والمعلم وحدهما.

قال المعلم فى نغمة رقيقة : « هل أنت آسف لرحيلى يا « جود » ؟ » . واغرورقت عينا الغلام بالدموع فلم يكن من التلاميذ النظاميين الذين يلتقون بالمعلم يومياً وليس فى نفوسهم من عاطفة خاصة سوى ما يصحب التلاقى اليومى من شعور العادة والتكرار ، ولكنه كان تلميذاً بالمدرسة الليلية قد قبله المعلم بين تلاميذ فصله متفضلا فى ذلك عليه . أما التلاميذ النظاميون فوقفوا فى تلك اللحظة عن بعد يتطلعون إلى ما يجرى أمامهم ولا يفعلون شيئاً كأنهم بعض حوارى التاريخ العازفين عن الإقبال على أى عمل يتطلب منهم المبادرة إلى بذل المعونة .

وبحركة سريعة فتح الغلام الكتاب الذى منحه إياه السيد « فيلوتسون » على سبيل الذكرى ، وأبدى أسفه على هذا الفراق . قال السيد « فيلوتسون » : « وأنا أيضاً أشعر بالأسف لفراقك » .

قال الغلام متسائلا : « ولم أنت راحل يا سيدى ؟ » .

ـــ آه ، يالها من قصة طويلة . إنك لن تفهم وجهة نظرى فى هذا يا «جود» ومن المحتمل أن تدركها عندما تتقدم بك السن قليلا » .

ـــ « أظن أننى قادر على ذلك الآن يا سيدى » .

ـــ « حسناً . لا تتحدث عن هـــذا الموضوع فى كل مكان . أنت تدرى ما الجامعة ، وما الدرجة الجامعية . إنها الشىء الذى لا بد منه لكل من يريد أن يتخذ من التعليم مهنة . وخطتى ، أو قل حلم حياتى ، أن أصبح جامعياً ، وبعد ذلك أصير قسيساً . وأنا إذ أذهب إلى مدينة « كرايستمينستر » لأعيش هناك ، أصبح قريباً من مركز النشاط العلمى . ولو كنت أنوى أن أحقق مشروعى على

صورة ما ، فإنى أعتبر وجودى بالقرب من الجامعة لا بد أن يهيء لى فرصة العمل على تحقيق مبتغاى وهذا أفضل بالنسبة لى مما لو كنت فى أى مكان آخر » .

وعاد الحداد ورفيقه . كان مخزن الوقود الذى تملكه الآنسة « فاولى » يمتاز بالجفاف فأصبح لذلك مناسباً للغرض الذى ذهبوا من أجله ، كما كانت هى على استعداد لأن تخصص للبيانو مكاناً فيه ، وعلى ذلك ترك المعزف فى المدرسة حتى يعود الرجال من أعمالهم فى المساء فيتعاونوا جميعاً على نقله ، وبذلك اطمأن المعلم على مصير معزفه .

وأخذ الغلام «جود» يعاون فى نقل أمتعة المعلم الخفيفة إلى العربة . وفى الساعة التاسعة ، صعد السيد « فيلوتسون » إلى ظهر العربة وجلس بجوار حقيبة الكتب وغيرها من الأمتعة وتحركت العربة بعد أن ودع أصدقاءه .

وبينما كانت العربة على أهبة السير قال المعلم والابتسامة تعلو وجهه : « لن أنساك يا « جود » . كن عاقلا ولا تقسو على الحيوانات والطيور ولا تكف عن القراءة أبداً . إذا حدث وجئت إلى « كرايستمينيستر » لا تنس أن تفتش عنى حتى تعثر علىّ وهذا حق من حقوق الصداقة القديمة » .

ودلفت العربة خلال المزارع الخضراء ، واختفت وراء بيت القسيس ، وعاد الغلام إلى مكانه من حافة البئر حيث كان يقوم برفع المياه قبل أن يذهب إلى صديقه ومعلمه ليعاونه فى نقل أمتعته إلى العربة . كانت شفتاه ترتجفان . وعندما رفع غطاء البئر لينزل الدلو إلى القاع ، توقف قليلا ومال بجسمه إلى الأمام وقد اكتسى وجهه بمسحة من الجد كتلك التى تعلو وجه طفل يحس بهموم الحياة قبل الأوان . كان البئر الذى ينظر فيه قديماً كقدم القرية نفسها . ومن مكانه بدا للغلام كخط دائرى طويل ينتهى بقرص لامع من المياه الرقراقة على عمق مائة قدم . وبالقرب من فتحة البئر نمت طبقة من الطحلب الأخضر يحيط بها نبات السرخس العريض الوريقات . أخذ الطفل يحدث نفسه فى نبرات تمثيلية كتلك التى تصدر عن غلام هوائى النزعات قائلا لنفسه : « سبق أن وقف المعلم فى نفس هذا المكان وكان يسحب

الماء من قاع البئر فى أوقات شبيهة بهذه . إنه لن يأتى إلى هذا المكان مرة أخرى. لقد رأينه ينظر إلى قاع البئر عندما يستولى عليه التعب ، تماماً كما أفعل أنا الآن ، وعندما يقف قليلا ليستريح قبل أن يحمل المياه إلى البيت ! ولكنه كان من الذكاء بحيث أسرع بالرحيل ولم يقبل أن يعيش فى مكان صغير خامل الذكر كهذا المكان!

وطفرت من عينى الغلام دمعـــه سقطت فى أعماق البئر . كان الصباح مضباً ونشرت أنفاس الغلام نفسها على الهواء الساكن كأنها غلالة سميكة ، وقطعت حبل تفكيره صرخة مفاجئة تقول : « إلىّ بالماء أيها الماجن الغر الكسول » .

صدرت الصرخة من عجوز ظهرت عند باب الحديقة الموصل إلى كوخ صغير قريب . وفى سرعة أشار الغلام بيده إشارة تدل على الاستجابة ، وشرع يسحب الماء من بطن البئر بجهد يبدو كبيراً على طفل فى حجمه . وبعد أن أفرغ الدلو الكبير فى إناءين أصغر حجما ، توقف قليلا ليلتقط أنفاسه اللاهثة وبعدها حمل الإناءين وسار بهما وسط الممرات الخضراء الموحلة حتى وصل إلى قلب قرية « ميرىجرين » الصغيرة .

كانت القرية صغيرة المساحة ، عتيقة الطراز ، تنام فى حجر ربوة مرتفعة متصلة بمنحدرات «وسكس» الشمالية . وعلى الرغم من مسحة القدم التى تكسو القرية بأكملها ،كانت البئر بجزئها البارز فوق الأرض هى الأثر الوحيد الباقى دون أن يناله أى تغيير ، وبذلك ظل يحكى قصة القرية فى عصورها السابقة وسيظل كذلك ليحكى قصتها فيما يقبل من الأيام ، فكثير من المساكن ذات السقوف الملونة المصنوعة من القش وأغصان الأشجار ، وذات الكوات والقمرات الدائرية أزيلت فى السنوات الأخيرة ،كما اجتث عدد كبير من الأشجار وظل ملقى على الأرض الخضراء . وفضلا عن ذلك ، فإن الكنيسة الأولى فى القرية ، تلك التى كانت فى الأصل محدودبة الجوانب ، مبرجة القمة ، مسنمة السقف، هدمت جوانبها وأصبحت الآن إما كومة من صخور الرصف وحجارة الطريق ، وإما شواهد تستخدم فى بناء حظائر الماشية ، أو تدخل فى بناء مقاعد الحديقة والأسوار الصخرية

للأفنية والمهرات المقامة وسط أحواض الزهر المنتشرة فى كل مكان . وحل محل تلك الكنيسة المغرقة فى القدم بناء جديد عال من طراز قوطى حديث غريب على الذوق الإنجليزى ، بناء أقامه فوق قطعة جديدة من الأرض مهندس من بين أولئك الذين ناصبوا التاريخ العداء فأعملوا يد التخريب فى آثاره وكان ذلك المهندس قد جاء من لندن وقفل راجعا إليها فى نفس اليوم . إن قطعة الأرض التى أقيمت فوقها الكنيسة ، وهى معبد المسيحيين فى تلك الناحية والتى ظلت مأوى دائماً لرهبان المسيحية ، لم يكن لها أثر واضح وسط المروج الخضراء التى كانت من قديم الأزل جزءاً لا يتجزأ من المقبرة الملحقة بالكنيسة . أما المقابر التى عفت آثارها فلم يعد يدل عليها سوى عدد قليل من الصلبان الحديدية الرخيصة التى ضمن صانعوها أن تعيش خمس سنوات .

(٢)

وعلى الرغم مما فى جسد « جود فاولى » من ضعف ، فإنه حمل الإناءين المليئين بالماء إلى الكوخ دون توقف إلى أن بلغ بابه الذى وضعت عليه لوحة صغيرة زرقاء مستطيلة كتب عليها بحروف صفراء « دروزيلا فاولى — خبازة » . وفى داخل النافذة الصغيرة ذات الإطار الاردوازى علامة تدل على أن المنزل من بين البيوت القليلة القديمة الباقية وشوهدت خمس أوان زجاجية بداخلها قطع من الحلوى وبجوار الأوانى صحاف من خشب الصفصاف تحوى قطعا من الكعك .

وبينما كان الغلام فى الجزء الخلفى من المنزل يفرغ الإناءين مما فيهما من ماء ، التقطت أذناه مناقشة حامية تدور داخل المنزل بين عمته « دروزيلا فاولى » من جهة ، وبين عدد من أهل القرية راحوا ، عقب رحيل المعلم ، يتحدثون عن هذا الحادث وما يتصل به من تفاصيل ، كما أخذوا يخوضون فيما يحمل له المستقبل متنبئين .

وعندما دخل عليهم الغلام . قالت امرأة من بين المجتمعين ، ولم تكن من أهل « ومن يكون هذا الغلام ؟ » .

لك أن تسألى هذا السؤال أيتها السيدة « وليامز » إنه حفيد أخى جاء إلى هنا أخيراً فى أثناء تغيبك عن القرية . « أما العجوز التى تطوعت بهذه الإجابة فكانت امرأة طويلة نحيلة ، من عادتها أن تتحدث عن التافه من الأمور فى لهجة مسرحية وكانت تمنح السامعين فقرات من حديثها كل فى دوره فتتجه يميناً وتقول : جاء من « فلستوك » فى جنوب « وسكس » منذ عام مضى وكان هذا من سوء حظه يا « بلينذا » . ثم تتجه برأسها إلى اليسار وتكمل حديثها قائلة : وفى « فلستوك » كان يعيش مع والده الذى قضت عليه الحمى فى يومين اثنين كما تعلمين يا « كارولين » ليت العناية الربانية لحقتك وأخذتك إلى جوارها مع أمك وأبيك ! لو حدث هذا لكان من النعم الكبرى عليك أيها الغلام التعس ! ولكنى استقدمته ليعيش معى هنا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وإن كنت مضطرة إلى تركه يكسب عيشه بعرق الجبين ، فهو الآن يعمل فى مزرعة المواطن « تراوتام » حيث يقوم بدفع العصافير عن زراعته ، وفى العمل منجاة له من الفساد . ما الذى يجعلك تشيح بوجهك عنا يا « جود » ؟ قالت ذلك للغلام عندما رأته يتجه إلى الجانب الآخر من الغرفة حتى يتحاشى نظراتهم التى ألهبت وجهه كسياط من نار .

قالت غسالة القرية : « أحسنت الآنسة » فاولى « صـــنعاً عندما استدعت الغلام ليقيم معها » وأضافت تقول : « ليهون عليك وحدتك ، وليجلب لك الماء من البئر ، وليغلق لك الردادات الخشبية عندما يحين الليل ، وليعاونك فى أعمال الخبز » .

أما الآنسة « فاولى » فلم تؤمن على كلام غسالة الملابس ولكنها التفتت إلى الغلام وقالت : لم لم تجعل المعلم يأخذك معه إلى « كريستمينيستر » حيث يجعل منك طالب علم ؟ ثم راحت تقول فى نغمة ساخرة : أؤكد لكم ما من غلام آخر يفوق هذا الغلام فى حب العلم فهو مصاب بجنون الكتب ، وليس هـذا بالشىء الغريب فأفراد عائلتنا يعانون كثيراً من هـذا المرض ، فابنة عمته « سو » مثله تماما كما سمعت إذ أننى لم أرها منذ سنوات عديدة ، وإن ولدت فى هذا المكان وفى نفس هذه الغرفة . إن ابنة أخى وزوجها لم يستأجرا منزلا لسكناهما عقب

زواجهما لفترة عام أو أكثر ، ولم يصبح لهما سكن إلا ... حسناً ، أفضل ألا أخوض فى هـذا الأمر الآن . « جود » ، عزيزى ، أنصحك بألا تتزوج طول حياتك ، فليس لفرد من أسرة « فاولى » أن يقدم على هـــذا الأمر . كانت وحيدتهما « سو » ما زالت طفلة صغيرة يا « بليندا » حتى وقعت القطيعة بينهما ! واحسرتاه على الفتاة الصغيرة عند ما علمت بما اعترى علاقتنا من تغيير ! .

وعند ما أدرك « جود » أن الاهتمام العام أصبح موجها نحوه مرة أخرى ، غادر الغرفة إلى المخبز حيث أكل الفطيرة المخصصة لإفطاره . وعند ما حانت اللحظة التى يعود فيها إلى عمله ، سار فى الحديقة ثم قفز فوق السياج ومشى فى الممر الواقع خلف الكوخ متجهاً نحو الشمال حتى وصل إلى منخفض واسع مهجور يقع وسط أحد المرتفعات المزروعة بالقمح ، وكانت هذه البقعة المترامية الأطراف هى ميدان عمله الذى يخدم فيه السيد « تراوتام » المزارع . وفى الحـــال سار متجها إلى وسط الحقل .

كانت الحافة البعيدة للحقل ذى اللون الأسمر تتجه نحو السماء فى كافة اتجاهاتها وتتلاشى شيئاً فشيئاً فى غمار الضباب الذى أحاط بكل شىء فزاد من تأثير الوحشة الضاربة فى المكان على سعته . أما الأثر الوحيد الذى شاب تجانس المنظر العـام فكان كومة باقية من العـام الماضى قائمة وسط الأرض المزرعة ، بينما رفرفت الغربان السود بأجنحتها فى الهواء عند ما أحست به يسير على جانبى الطريق الذى يمشى فيه الآن قوم لا يعرفون أين جاءوا وإن سار فيـه فى الماضى عدد كبير من أفراد أسرته التى عدا عليها الموت .

قال يحادث نفسه : « يا لقبح هذا المكان ! » .

ظهرت الخطوط الحديثة التكوين الناتجة عن عزق الأرض وشقها كأنهـا خطوط بارزة فى قطعة من قماش سميك ، فأضفت على المكان جواً من الواقعية الجامدة بحيث أزالت ما كان عالقا به من سعة الخيال وحرمته من مسحة القدم التى كانت رانية عليه فبدت هـذه البقعة جديدة فى كل شىء . صغيرة لا يتعدى عمرها

بضعة أشهر . هذا وإن كانت كل ذرة من ذرات المكان وكل حفنة من طينة تحمل في أعطافها قدراً كبيراً من الذكريات كما ترتبط بها أصداء أغنيات انطلقت في عهود خوالٍ في أيام حصاد، كما انطلقت على الهواء كلمات تعبر عن أفعال تدل على الشجاعة والإقدام . كل جزء من الأرض التي يقف عليها الآن ، كانت في يوم من الأيام مسرحا للنشاط وحلبة للبهجة وسباق الخيل ، وملعبا للمشاحنات والمراهنات . وجماعات من جامعي بقايا الحصاد جلسوا القرفصاء في ضوء الشمس وامتلأ المكان بأعدادهم . ومواثيق حب تبادلها أفراد من القرية القريبة بين حصاد القمح . وفي أسفل السياج الذي يفصل هذا الحقل عن مزرعة نائية كثيراً ما وهبت الفتيات أنفسهن لعشاق كانوا يضنون عليهن بنظرة عند ما يأتي الحصاد التالي . وفي هذا الحقل القديم، كم من رجل سعى إلى امرأة يبثها غرامه ويعقد معها عهود الحب ، وفي الحصاد التالي ارتعش جسده لسماع صوتها بعد أن أوفى بعهده في كنيسة القرية المجاورة . كل هذا لم يكن موضع اهتمام « جود » كما لم يكن موضع اهتمام الغربان السود التي حوّمت حول المكان . فبالنسبة إليهم جميعاً ، كانت البقعة لا تعدو أن تكون مكانا منعزلا ، وهي في نظر « جود » ميدان صالح لأن يعمل فيه ، وفي نظر الغربان مخزن للحبوب صالح للأكل فيه .

وتحت الكومة سابقة الذكر ، وقف الغلام ممسكا بجرسه الذي يحدث به صليلا عاليا متكررا . وعند كل صلصلة صـــادرة عن الجرس تفزع الغربان فتكف عن نقر السنابل والتقاط الحب وتحوم في السماء ضاربة جوانبها بأجنحتها النحيلة المصقولة كرقائق من معدن قوي ثم تعود لترمقه بنظرات تنم عن القلق وتحط بعيدا عنه مواصلة أكلها .

ظل « جود » يهز الجرس هزا سريعا متواصلا حتى كل ذراعه وأخيرا تملكته الشفقة على الطيور المسكينة التي تعرضت للحرمان بسبب ما يقوم به من عمل ضار بها . كانت هذه الطيور مثله من حيث إنها تعيش في عالم لا يريدها فلم يزعجها ولم يخفها ؛ وشيئا فشيئا أخذ ينظر إليها على اعتبار أنها كائنات صديقة لا حول لها ولا قوة ، وأخيرا أصبحت بالنسبة إليه كائنات تحس نحوه بشيء من الاهتمام

الذى افتقده فى البشر جميعا . فعمته كثيراً ما كانت تقول له إنها لا تأبه له ولا تهتم به . هنا توقف عن الصلصلة فعادت الغربان إلى مكانها على الأرض .

قال « جود » فى صوت عال : « يالك من كائنات صغيرة جميلة ! سأعطيك بعض الطعام . لا تخافى فنه ما يكفينا جميعا والمزارع « تراوتام » لا يمانع فى أن يمنحك شيئا من هذه الحبات العزيزة . كلى واشبعى إذن يا صغيراتى العزيزات ! » وحطت الطيور على الأرض وبقيت لحظة تأكل تاركة خلفها بقعا سوداء على صفحة الأرض السمراء . وأحس « جود » بالسعادة تغمره لما لا حظه عليها من شهية قوية كما أحس بالخيط الرقيق السحرى الذى يجمع بين هذه الطيور وبينه فقد كانت أرواحها ضئيلة حزينة كما كانت روحه ضئيلة حزينة فألقى بجرسه بعيدا عنه فقد أصبح فى نظره شيئا حقيرا مهينا للطيور ولنفسه على اعتبار أنه صديق هذه الطيور . وفجأة أحس بضربة قوية على ظهره تتبعها صلصلة عالية فأدرك لدهشته أنها صادرة عن الجرس ففزع فى مكانه وفزعت الطيور هى الأخرى وتحولت عيونها المبهورة نحو المزارع وكان يقف أمامها بكيانه الهائل ، وهنا ترنح جسد « جود » الضئيل تحت وطأة نظرات « تراوتام » النارية وهو يهز الجرس بيده ويقول فى سخرية مرة :

« كلى واشربى يا صغيراتى العزيزات . أليس كذلك أيها الغر ؟ كلى واشربى حقا ! سأعاقبك عقابا لم تر مثله من قبل لأرى إذا ما كنت تستطيع أن تقول مرة أخرى « كلى واشربى يا صغيراتى العزيزات ! » وكنت أيضا تتسكع عند المعلم بدلا من أن تسرع بالمجىء إلى هنا أليس كذلك ؟ هل هذه هى طريقتك فى الكسب الحلال ؟ إنى أمنحك ستة بنسات فى اليوم مقابل حماية قمحى من الغربان !

وبينما كان « تراوتام » يشنف أسماع « جود » بهذا المنطق القوى كان يقبض على ذراع الغلام بيده اليسرى ويهز جسده النحيل هزاً عنيفاً . ومن حين لآخر أخذ يضربه على ظهره بالجرس فيتردد صدى الضربات فى جوانب الحقل كله .

صاح الغلام وهو يلف حول نفسه ويدور دورات سريعة كما تلف السمكة حول

نفسها عندما يخرجها صيادها من الماء . كان كل ما حوله يلف ويدور فى حركة دائرية . التلال المحيطة ، الكومة أمامه ، المزروعات الممتدة ، الممرات المستطيلة ، الغربان السود :

« لا تضربنى ياسـيدى ، أتوسل إليك ألا تضربنى ! إنى ، إنى ياسيدى ، قصدت فقط أن أقول فى الأرض حب كثير . لقد رأيتهم وهم يبذرونه وتستطيع الغربان المسكينة أن تقتات بالقليل منه ولن يضيرك أن فعلت هذا أيها السيد . لقد أمرنى السيد « فيلوتسون » بأن أكون بارا بهذه الطيور . آه ، آه . آه ! »

وأثار هذا التفسير الصادق ثائرة المزارع ربما أكثر مما لو لم يفتح « جود » فاه . واستمر صاحب الأرض يضرب الغلام الذى لم يتوقف عن الدوران بينما ظل صدى الضربات يتردد فى جوانب الحقل حتى وصل إلى أسماع العمال الذين كانوا يعملون فى الحقول المجاورة فخيل إليهم أن « جود » يقوم بمهمته فى طرد الطيور والعصافير عن حقل « تراوتام » بنشاط وهمة ، كما ظلت الضربات تتردد أيضا من أعلى برج الكنيسة الجديدة ، تلك التى ساهم المزارع بأمواله فى إقامتها ليثبت للملأ تفانيه فى حبه لله وللإنسان .

وأخيرا تعب « تراوتام » من القيام بواجبه التأديبى فترك الغلام يرتجف ويحاول الوقوف على قدميه . وعندما رآه هكذا أخرج من جيبه درهما وناوله للغلام كأجر على عمل اليوم ثم أمره بأن يرحل إلى بيته دون رجعة .

وفى سرعة كبيرة ابتعد « جود » عن صاحب الأرض وأخذ يسير فى أحد الطرق التى تخترق الحقل وهو يبكى . لم يكن بكاؤه لمجرد شعوره بالألم ، وإن كان ألمه مبرحا ، كما لم يكن بكاؤه لإدراكه ما فى المجتمع البشرى من عيوب ، ذلك المجتمع الذى يرى أن ما يصلح للطير لا يصلح للإنسان ، بينما الطير والإنسان من مخلوقات الله . لكن بكاءه كان لشعوره بأنه امتهن نفسه وأصاب كرامته بالخزى ولم يمض عليه فى تلك الناحية سوى عام واحد ، وعلى ذلك فمن المحتمل أن يصبح عالة على عمته وعبئا ثقيلا عليها مدى حياته .

لم يرد أن يظهر فى القرية أمام الناس وهو على هذه الصورة الفكرية المضطربة ففضل أن يعود إلى حيث يقيم مخترقا طريقا جانبيا يمر خلف سياج عال ، ويخترق برية مغطاة بالكلأ وهنا رأى عشرات من حشرات الأرض تتلوى على سطح التربة الرطب كما هى عادتها فى مثل هذا الجو فى ذلك الوقت من العام . لم يكن من السهل عليه أن يسير قدما دون أن يسحق بقدميه بعضاً منها فى كل خطوة يخطوها .

وإن كان « جود » قد عانى كثيرا من تعذيب « تراوتام » له ، إلا أنه كان غلاما لا يقوى على الإساءة إلى أى شىء . فما من مرة جلب إلى البيت معه عشا من العصافير إلا وبات فى فراشه ساهراً . وكثيرا ما يعود بالعش ومابه من مخلوقات صغيرة عاجزة إلى المكان الذى انتزعه منه . وقلما كان يقوى على مشاهدة الأشجار وهى تقطع من مكانها فكان يحس أنها تتألم ، كما أن تشذيب أغصانها فى المراحل المتقدمة من عمرها عندما تكون جذوعها مترعة بالعصارة فتفيض منها ، كان دائما مصدر حزن له فى طفولته الباكرة . هذا الضعف فى شخصيته ، كما يحلو للبعض أن يسميه ، يدل على أنه من الأشخاص الذين خلقوا ليتألموا كثيرا قبل أن يسدل الستار الأخير على حياة لا نفع فيها ولا ضرر . الآن هو أفاق لنفسه فأخذ يسير بحذر على أطراف قدميه وسط الحشرات المنتشرة أمامه دون أن يطأ واحدة منها .

وعندما دخل إلى الكوخ وجد العجوز تبيع رغيفاً لصبية . وعندما ذهبت الصبية إلى حال سبيلها قالت العمة : « لم عدت الآن فى هذه الساعة المبكرة ؟ » .

— « فصلت من العمل » .

— « ماذا تقول ؟ »

— « طردنى السيد « تراوتام » لأننى سمحت للغربان أن تأكل قليلا من حبوبه ، وها هو ما تبقى لى من أجر وهو آخر ما لى عنده ! »

وبحركة مسرحية ألقى بقطعة النقود على المائدة .

قالت العمة وهى تحبس أنفاسها : « آه . . . »

ثم انطلقت تلقى عليه محاضرة فى أن حملة سينوء بها طيلة الشهور التالية وهو عاطل لا يفعل شيئا وتقول :

— « إذا كنت لا تستطيع أن تطرد الطيور من الحقل فما الذى يمكنك أن تفعله ؟ والآن لا تنظر إلى هكذا أيها الغلام المدلل ! إن المزارع « تراوتام » لا يفضلنى كثيرا وعليك أن تدرك ذلك جيدا ولكن الأمر كما قال أيوب : « وأما الآن فقد ضحكت على أصاغرى أياما ، الذين كنت أستنكف أن أجعل آباءهم كلاب غنمى . » .

كان أبوه على كل حال أجيراً عند أبى ، وكان جنوناً منى أن أدعك تذهب إليه لتعمل عنده ، وما كان ينبغى لى أن أفعل ذلك ، بل كان يجدر بى أن أنأى بك عن هذا المصير . كانت العجوز غاضبة على « جود » لا لأنه أهمل واجبه فحسب ، بل لأنه عرض كرامتها للمهانة بذهابه إليه . لقد سلقته بألسنة حداد لهذا السبب بالذات وهو الأصل ، أما العامل الأخلاقى فيأتى بعد ذلك

— « ما كان ينبغى لك أن تدع الطيور تأكل نبات المزارع « تراوتام » . لا شك أنك مخطىء فى ذلك . « جود » ، « جود » ، لم لم ترحل من هنا فى صحبة صديقك المعلم إلى « كرايستمينيستر » أو إلى أى مكان آخر ؟ ولكن لا أيها الطفل المسكين فما حدث قط أن وجد فى أسرتك شخص طفيلى ولن يوجد واحد من هذا النوع قط ! » .

وبعد أن ظل الغلام صامتا قليلا يفكر قال : وأين توجد هذه المدينة الجميلة يا عمتى ؟ هذا المكان الذى ذهب إليه السيد « فيلوتسون » ؟ .

يا لله ! . يجدر بك أن تعرف أين توجد مدينة « كرايستمينيستر » . إنها تقع على مسيرة بضعة أميال من هذا المكان . وهى بقعة لن تحلم بالذهاب إليها لأنها تفوق كل ما تقدر عليه أيها المسكين . هذا هو رأيى .

— وهل سيبقى السيد « فيلوتسون » هناك بصفة دائمة ؟ .

— وكيف لى أن أعرف ذلك ؟ .

— ألا أستطيع أن أذهب إلى هناك لأراه ؟ .

لا ، أبداً ! كأنى بك لم تعش وتكبر فى هذا المكان ، وإلا ما سألت سؤالا كهذا . لم يكن لنا صلة قط بالقوم فى « كرايستمينيستر » ، كما لم يكن للقوم هناك صلة بنا هنا .

وخرج من البيت وقد زاد ما فى نفسه من شعور بأن وجوده أمر غير مرغوب فيه . وفاق شعوره هذا ما كان يحس به فى الماضى من شعور مماثل ، فاضطجع على ظهره فوق كومة من القش بالقرب من حظيرة الخنازير وكان الضباب فى تلك اللحظة قد خفت كثافته حتى بانت معالم الشمس من ثناياه . وفوق وجهه جذب قبعته المصنوعة من القش وأخذ ينظر من خلال فرجاتها الضيقة ويتأمل فى أشعة الشمس اللامعة وهى تتكسر فى ثنايا الضباب . لقد اكتشف أنه كلما تقدمت به السن زادت مسئولياته ، وأن الحوادث لا تسير وفقا لما توقعه . أدرك أن الطبيعة بمنطقها فى تناول الأمور بغيضة إلى نفسه بغضا يجعله يسقطها من حسابه وأن فكرة الرحمة بنوع من الخلائق عن طريق القسوة على نوع آخر منها قد ملأت نفسه اشمئزازا وأخلت بروح التناسق والانسجام عنده . وكلما كبرت بك السن ، وشعرت بأنك فى المركز من عمرك ولم تعد نقطة من محيطها كما كنت تشعر وأنت لم تزل بعد طفلا ، تملكتك رعشة ، كما شاهد لدى نفسه فى تلك اللحظة . كل ما حوله يظهر أمامه كأنه براق متعب وزاه مجلجل وبرزت الأصوات والأضواء كأنها تضرب هذا المحبس الانفرادى الصغير المسمى بالحياة وتهز كيانه هزا عنيفا وتثنيه ثنيا .

ليته يستطيع فقط أن يحول بين نفسه وبين التقدم فى السن ! ليته يستطيع . فهو لا يريد أن يكبر حتى يصبح رجلا .

وكأى غلام آخر . بدأ ينسى ما هو فيه من تعاسة وما يحس به من هزيمة

وأستسلام فقفز واقفاً . أخذ يعاون عمته بقية الصباح . وفى المساء ، عنـد ما لم يعد ثمة ما يعمله ، ذهب إلى القرية حيث سأل أحد المارة عن الطريق المؤدى إلى « كرايستمينيستر » .

« كرايستمينيستر » ! أوه ، حسنا . إنها تقع بعيدة هناك وإن كنت لم أذهب إليها قط . لا ، لست أنا الذى أذهب إلى « كرايستمينيستر » . ما حدث أن كان لدى ما أفعله فى مكان كهذا .

لقد أشار الرجل إلى اتجاه شمالى شرقى ، وكان هذا هو نفس الاتجاه الذى يقع فيه الحقل حيث لحقت « جود » المهـــانة وأصابته الذلة فى ذلك الصباح ، فأحس بالضيق لهذه المصادفة ، حيث إن خوفه مما وقع له فى ذلك الحقل زاد من رغبته فى الاستزادة من المعلومات المتعلقة بهذه المدينة .

لقد أخبره المزارع من قبل بأنه لا يريد أن يراه فى حقله مرة أخرى . إلا أن « كرايستمينيستر » تقع عبر هذا الحقل والطريق الذى يخترقه ليصل إليهـا طريق عام وعلى ذلك خرج من القرية فى هدوء ، ونزل إلى المنخفض نفسه الذى كان مسرحا لعقابه وشاهد إذلاله فى ذلك الصباح . سار فى طريقه لا يلوى على شىء وأخذ ينقل قدميه فى صعوبة وسط الممر الطويل الصاعد على الجانب الآخر من التل إلى نقطة يلتقى عندها هذا الممر بالطريق العام . كانت هذه النقطة مجموعة صغيرة من الأشجار تنتهى عندها الأرض المفلحة ، ولم يبق أمامه سوى برية كثيفة مقبضة تمتد على مدى البصر .

(٣)

ما من مخلوق يرى وسط الطريق الكبير الأبيض المنبسط ، أى على كلا جانبيه وهو يمتد صعداً ويتلاشى تدريجياً حتى يختلط بالسماء عند خط الأفق البعيد .

وعند القمة تماما تقطعه ممرات مغطاة بالحشائش الخضر وتتعامد عليه . من هذه الممرات ممر « أكنلد » وهو الطريق الرومانى الوحيد فى الناحية كلها . سارت

هذه الجادة القديمة تمتد أمامه وتمتد أميالا عدة ، تنثنى نحو الشرق والغرب . وإلى وقت قريب ما زال كثير من الأحياء يذكرونه ، كانت قطعان الأغنام والمواشى تقطع هذه الجادة وهى فى طريقها إلى الأسواق . أما الآن فما من أحد يطرقها ولذا غطاها الكلأ وكستها الحشائش .

لم يسبق لغلامنا أن سار شمالا وابتعد كثيرا عن القرية التى أحضره إليها حمال جاء به ذات مساء مظلم قبل الآن ببضعة أشهر . وحتى هذه اللحظة لم يدر بخلده أن مثل هذه البقعة من الأرض الواسعة المنبسطة يمكن أن تمتد أسفل المرتفع الذى تربض عليه قريته ، وأن نصف الدائرة الشمالية بأكملها الواقعة بين الشرق والغرب والممتدة أربعين أو خمسين ميلا نشرت نفسها الآن أمامه وانبعث منها جو رقيق وهواء صاف لم يسبق له أن رأى مثله من قبل .

وعلى مسيرة من الطريق شاهد مخزنا للحبوب قديم البناء ، حائل اللون من تأثير الجو ، مبنيا من الطوب الأحمر والقرميد يطلق عليه أهل الناحية اسم « البيت الأسمر » . كان على وشك أن يمر به تاركا إياه خلفه عند ما لاحظ سلما خشبيا يتدلى من حافة السقف فوقف يتأمله ويفكر فى أنه كلما ارتفع عن سطح الأرض اتسعت أمامه دائرة الرؤية . وفوق الجزء المنحدر من السقف وقف رجلان يصلحان من ألواح القرميد فانعطف فى سيره متجها نحو البناء .

وعند ما فرغ من التطلع فى شوق إلى الرجلين ، جمع أطراف شجاعته وصعد السلم حتى أصبح بجوارهما .

— « حسنا أيها الغلام . وماذا ترمى من وراء صعودك إلى هنا ؟» .

— « أردت فقط أن أعرف أين تقع مدينة « كرايستمينيستر » من هـــذا المكان » .

« كرايستمينيستر » ! إنها هناك بالقرب من ذلك المرتفع . فى مقدورك أن تراها من هنا وخاصة فى يوم رائق وما يومنا بالذى يناسب ذلك .

والتفت العامل الآخر ونظر إلى الناحية المشار إليها وبدا عليه أنه يرحب بأية فرصة يمكن أن تخرجه من سياق عمله الرتيب وقال : « فى العادة ، لا يستطيع المرء أن يراها فى جو كهذا . أما الوقت الذى يمكنك أن تراها فيه فلحظة الغروب عندما تغوص الشمس فى لهب متوهج وحينئذ تبدو المدينة ولا أدرى كيف تبدو » .

قال الغلام فى لهجة جادة : « تبدو كأورشليم فى عليائها » .

— ومع ذلك أنا ما فكرت فيها على هـــذه الصورة قبل الآن قط ... ولكننى لا أستطيع أن أرى أثرا « لكرايستمينيستر » اليوم .

وشرع الغلام هو الآخر يمد بصره فى اتجاه المدينة ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا فنزل من مكانه فوق البناء . وبعد أن أسقط من تفكيره « كرايستمينيستر » وموقعها — وذلك بالنظر إلى صغر سنه وحبه للتنقل من موضع إلى آخر — سار فى طريقه وهو يفتش بعينيه فى الجرف القريب منه عن أشياء طبيعية يمكن أن تثير انتباهه . وعندما مر بمخزن الحبوب وهو فى طريق عودته إلى « ميريجرين » ، لاحظ أن السلم ما زال فى مكانه وأن العاملين أنهيا عمـــل اليوم وذهبا من حيث أتيا .

كانت الشمس قد أشرفت على المغيب وفى السماء ضباب خفيف لم يختف بعد وإن خف كثيراً عن ذى قبل ، إلا فى المناطق المجاورة من الأرض وعلى طول مجرى النهر حيث ترتفع نسبة الرطوبة فى الهواء . ومرة أخرى اتجه تفكيره إلى « كرايستمينيستر » وود أن يرى عن بعد ، ولو مرة واحدة ، هذه المدينة الجميلة التى كثيراً ما سمع عنها ، طالما أنه سار نحوها وقطع فى طريقها هـــذه المسافة الطويلة . غير أنه حتى لو بقى هنا ، فلا شىء يضمن له أن الهواء سوف يرق ويصفو ما به من ضباب قبل مجىء الليـل . ومع ذلك أحس برغبة فى البقاء حيث بدأت تختفى عن نظره الرقعة الشمالية من الأرض الممتدة أمامه وهى تميل فى اتجاه القرية التى لا تبعد سوى بضع مئات من الياردات .

وارتقى السلم ليلقى نظرة أخيرة على البقعة التى سبق أن حدد موقعها العاملان .

ثم صعد إلى أعلى جزء من السقف؛ وهو الجزء المحدودب الذى يعلو طبقة القرميد ، وقد لا يستطيع لأيام عدة قادمة أن يعثر على مكان له مميزات هذا المكان . ومن المحتمل أن تهبه المقادير طلبته فى أن يرى « كرايستمينيستر » لو أنه صلى لله مبتهلا . يقول الناس إنك إذا صليت لله أقبلت عليك الدنيا طواعية ، حتى لو أن مثل هذا الأمر قد لا يحدث فى بعض الأحايين . لقد قرأ فى كتاب من الكتب أن رجلا شرع يبنى كنيسة ، ولما لم يكن لديه المال اللازم لإتمامها ، خر ساجداً على ركبتيه وأخذ يصلى إلى الله وهنا جاءته النقود فى البريد التالى ، ورجل آخر حاول نفس التجربة ولم يأته المال ، ولكنه اكتشف بعد ذلك أن السروال الذى يلبسه فى أثناء صلاته صنعه يهودى خبيث . ولم يكن هذا بالشىء الذى يثبط همة « جود » إذ أنه استدار على السلم وجثا على إحدى درجه مبتهلا إلى الله كى يزول الضباب .

وبعد أن انتهى من صلاته جلس ثانية وظل ينتظر وبعد انقضاء خمس عشرة دقيقة خف الضباب وارتفع حتى خلا منه الأفق الشمالى تماما ، كما خف وارتفع فى كل مكان آخر . وقبل الغروب بربع ساعة تحركت السحب الغربية من مكانها . ولما كانت الشمس قد تعرت الآن فقد انسابت أشعتها فى خطوط واضحة تمرق من خلال طبقتين من السحب ذات الألوان الزرقاء والخضراء . وسرعان ما أدار الغلام رأسه فى الاتجاه القديم .

وفى إطار المنظر الطبيعى الممتد أمامه اجتمعت عدة دوائر من نور كانت تشبه الياقوت الأصفر . وبانصرام الدقائق زادت شفوفية الهواء فتكشفت دوائر الياقوت الأصفر عن دوّارات للريح ونوافذ وأسطح للمنازل مصنوعة من القرميد المصقول علاه البلل ، وغيرها من البقع المضيئة التى تشاهد فوق السلالم الحلزونية والقباب والتماثيل وغيرها من المعالم التى أخذت تبرز تدريجياً من خلال الضباب .

كانت هذه « كرايستمينيستر » على التحقيق ، سواء أكانت مكشوفة المعالم أو متدثرة بغلالات رقيقة من السحب والضباب .

أخذ « جود » يحملق فى المنظر أمامه بعينين مبهورتين حتى فقدت النوافذ ودوارات الرياح لمعانها واختفى وهجها فجأة كأنها شموع تنطفىء ، وأصبحت المدينة الغامضة وقد دثرها الضباب . وعندما التفت « جود » إلى الغرب وجد أن الشمس هى أيضا اختفت وتحول المنظر إلى ظلام مقبض للنفس و بدأت الأشياء القريبة منه تتشكل بأشكال المخلوقات الخرافية الغريبة وتتلون بألوانها .

وفى اضطراب شديد نزل السلم وقفل عائداً إلى البيت وهو يركض فى الطريق محاولا أن يبعد عن خياله صور المردة والعفاريت والمخلوقات الأسطورية التى سمع بها وقرأ عنها . كان يدرك جيدا أن عمره لا يناسب هذه المخاوف الصبيانية ومع ذلك أحس بموجة من الفرح تغمره عند ما شاهد برج الكنيسة والأنوار المنبعثة من نوافذ الكوخ ، وإن لم يكن هو المكان الذى ولد فيه ، كما أن عمته التى تقيم فيه لم تكن لتأبه كثيرا لشخصه .

وفى داخل هذا الكوخ الذى تملكه العمة العجوز والذى جعلت منه متجرها ذا النافذة المكونة من أربعة وعشرين لوحا زجاجيا صغيرا داخل إطار من رصاص ، بعض هذه الألواح تأكسد من طول الزمن إلى الحد الذى تصعب معه رؤية الأشياء الصغيرة الرخيصة الثمن المعروضة بداخله . فى داخل هذا الكوخ وفى الأماكن المحيطة به ترك « جود » كيانه الخارجى فترة طويلة من الزمن بينما نمت أحلامه حتى أصبحت ذات حجم هائل بقدرما تضاءلت الأشياء المحيطة به .

ومن خلال الحاجز الصلد المكون من نجاد طباشيرية باردة ؛ ممتدة فى ارتفاع إلى الشمال كان « جود » يرى دائماً بعين خيالة مدينة رائعة الجمال تذكره بأورشليم الجديدة . كان فى أحلامه هذه قدر من خيال للرسام يفوق ما يحويه خيال كاتب من كتاب سفر الرؤيا الغامضين ، ويقل عما لدى بائعى الجوهرات منه . لقد استوت المدينة فى خياله كيانا محسوسا وبرزت فيه بروزا واضحا كما فرضت نفسها على حياته فرضا . قد يكون مصدر كل هذا شعوره بأن الرجل الذى يهبه هو احترامه ويقدر فيه علمه وأهدافه فى الحياة يعيش فعلا فى تلك المدينة حياة عادية وإن كان يختلط بعلمائها ومفكريها .

وفى فصول المطر والرعد والشتاء المقبض لم يدر بخلده أن « كرايستمينيستر » هى الأخرى تتعرض لمثل ما تتعرض له بقية الأماكن وإن كان يعرف أن المطر ينزل هناك . وكلما استطاع أن يتخلص من أعباء العمل فى القرية فترة من الزمان — وقلما يستطيع ذلك — كان يذهب سراً إلى البناء الأسمر القائم فوق التل ويطيل النظر فى صبر وعناد فى اتجاه « كرايستمينيستر » فكان يوفق أحياناً إلى رؤية قبة أو منارة ، وفى أحيان أخرى يرى عاموداً ضئيلا من الدخان له فى تقديره قدسية تشبه قدسية البخور .

ثم جاء وقت خيل إليه أنه لو صعد إلى سطح البناء عقب حلول الظلام — أو لو أنه سار قليلا بعد هذا البناء — فلا بد أن يرى عن بعد أضواء المدينة . غير أن هذا الإجراء لا بد أن يترتب عليه أن يعود فى الطريق وحيدا . حتى هذا الاعتبار لم يثنه عن عزمه فهو بلا شك يستطيع أن يضع فى نفسه قليلا من الرجولة .

وفى اللحظة المناسبة قام ينوى تنفيذ ما عزم عليه ، ولم يكن الوقت متأخرا عندما وصل إلى مكان المراقبة وكان ذلك عقب الغروب مباشرة . ولكن سحبا سوداء قادمة من السماء الشمالية الشرقية تصحبها رياح من نفس الجهة نشرت ألوية الظلام قبل موعدها ولكنه كوفىء على مجهوده فرأى شيئاً ، لم يكن ما رآه صفوفا من المصابيح كما توقع ، ولكنه رأى هالة من النور أوضباباً متوهجا ينتشر أمامه ويغطى السماء السوداء خلفه فظهرت المدينة أمامه وكأنها لا تبعد سوى مسافة قصيرة لا تعدو ميلا أو ميلين .

وأخذ يسائل نفسه عن المكان الذى يقيم فيه المعلم فى تلك اللحظة وسط هذا الضياء المتوهج . وإنه ليتساءل عن ذلك وهو الذى يحس بحائل يحول بينه وبين التفكير فى أحد من سكان « ميريجرين » وكأنه بالنسبة إليهم لا وجود له فى دنيا الأحياء . خيل إليه أنه يرى « فيلوتسون » وسط الضياء المتوهج يسير على مهل كصورة من بين الصور المرسومة على قاعدة تمثال « نبوخذ نصر » . لقد

ترامى إلى سمعه أن النسمات تعبر الفضاء بسرعة عشرة أميال فى الساعة والآن تقفز الفكرة إلى رأسه فتنفرج شفتاه عن ابتسامة وهو يدير رأسه إلى الجهة الشمالية الشرقية ويستنشق الهواء فى حماسة كما لو كان يعب من شراب طهور .

وصاح يقول وهو يخاطب النسيم فى حنان ورقة : ويحك أيها النسيم ... ! منذ ساعة واحدة كنت فى « كرايستمينيستر » تجوب طرقاتها ، وتداعب دوارات الرياح فيها ، وتمسح بكيانك الرقيق وجه السيد « فيلوتسون » ، وتتسرب إلى خياشيمه فيستنشقك دون أن يدرى ، وها أنت الآن فى هـذا المكان أستنشقك وأحس بك وأنت تملأ صدرى ! .

وفجأة هبت على وجه « جود » ريح قادمة من بعيد وكأنها رسالة آتية من قبل روح من الأرواح . كانت الرسالة على صورة نغمات موسيقية تعكس رنين أجراس تعلن للدنيا : « نحن هنا فى سعادة كاملة ! » .

وفى أثناء هذه اليقظة العقلية أصبح لا يعى شيئاً عن وجوده المادى ، ولم ينبهه إلى هذا الوجود سوى قطيع من الخيول فى أسفل التل الذى يقف فوقه . وظهر أفراد هذا القطيع فى مكانهم هـذا بعد مسيرة نصف ساعة فى طريق متعرج صاعد من بطن منخفض هائل . كانت الخيول محملة بالفحم وهى عادة تأتى إلى هذا المكان المرتفع سائرة فى الطريق الذى تسلكه الآن وهى تجر وراءها عربة يسير بجوارها حمال ومساعده وغلام صغير . أخذ الغلام يضع قطعة كبيرة من الحجارة خلف إحدى العجلات ليحول دون اندفاع العربة إلى الخلف وليسمح للخيول المتعبة اللاهثة بلحظة من الراحة ، بينما تناول الحمال ومساعده من فوق الحمل قنينة شراب أخذا يصبان منها ويشربان . كان الرجلان متقدمين فى السن ، وكان صوتاهما يدخلان البشر على نفس حائرة وحيدة كنفس « جود » فأقبل عليهما وسألهما إذا ما كانا قادمين من « كرايستمينيستر » . أجاب الرجلان : حاشا لله ! كيف نأتى ومعنا هذا الحمل الثقيل ؟ .

— إن المكان الذى أسألكما عنه هو تلك البقعة هناك . لقد أصبح « جود »

الآن مرتبطاً « بكرايستمينيستر » ارتباطا عاطفيا حتى أصبح الخجل يعقد لسانه عند ما يذكر اسم ذلك المكان كما لو كان عاشقاً يكتفى بالتلميح دون التصريح عند ما يتحدث عن محبوبته . كان فى حديثه معهما يشير إلى مصدر الضوء فى السماء بينما لا تلحظ عيونهما الكليلة شيئا مما يشير إليه .

قال أحد الرجلين . « حقا أكاد أرى بقعة بعيدة تقع إلى الشمال الشرقى من السماء وهى تفوق غيرها لمعانا . يؤسفنى أننى لم ألحظها قبل الآن . لا بد أن تكون هذه البقعة هى « كرايستمينيستر » . فى تلك اللحظة سقط من « جود » كتاب صغير كان قد أحضره ليتسلى بقراءته وهو فى طريقه الى هذا المكان . وعند ما انحنى على الأرض ليلتقط الكتاب ، رمقه الحمال بنظرة فاحصة وهو يقول . « واها لك أيها الشاب لا بد لك من أن تعمل على اعادة بناء عقلك وتنظيم تفكيرك قبل أن تصبح قادرا على قراءة ما يقرأون هناك . »

قال الغلام ، « وكيف ذلك ؟ »

وشرع الحمال يتكلم وكان كلامه من قبيل التسلى بالحديث . « إنهم لا يهتمون هناك بما نهتم به نحن معشر العاديين من الناس . إنهم لا يتحدثون سوى اللغات الغريبة عنا كما لو كانوا يعيشون فى عهد برج بابل عند ما كانت كل جماعة تتكلم لغة تختلف عن لغة الجماعة الأخرى . إنهم يقرءون ما يقرءون بنفس السرعة التى تطير بها الصقور الليلية وتحوم فى السماء . جميع أوقاتهم مخصصة للدراسة ، وما من شىء سوى الدراسة والتأمل فى أمور الدين ، وهذا أيضا فى حد ذاته دراسة ، فأنا لا أستطيع أن أفهم أبدا موضوعات الدين . نعم إنه مكان كل ما فيه جد فى جد . ومع ذلك فالطرقات لا تخلو من قطط الليل . ألا تدرى أن القوم فى تلك المدينة يصنعون القسس بنفس السهولة التى يزرعون بها رءوس الفجل ؟ ومع ذلك فاعداد قس واحد يحتاج إلى وقت — كم من السنوات يا « بوب » ؟ . هل تكفى خمس سنوات لتحويل الجلف المهزار الثرثار إلى واعظ جاد رصين يخلو من الانحراف العاطفى ؟ لو كان فى الإمكان فعل هذا فالقوم هناك يفعلونه ، ويفعلونه بمهارة تضاهى

مهارة الصناع الحاذقين فهم يصنعون من الأشخاص العاديين قسيسين لهم لحى طويلة ويرتدون أردية سوداء فضفاضة وصدريات وقبعات وياقات بيضاء وهى نفس الملابس التى جاء ذكرها فى الكتاب المقدس . وكل من يرتدى هذه الملابس يتغير شكله حتى يتعذر على أمه فى بعض الأحايين أن تتعرف عليه . هذا هو عملهم هناك ، وهذه صنعتهم . »

— « ولكن ، كيف عرفت أن ... »

— « لا تقاطعنى يا ولدى ، لا تقاطع من هم أكبر منك سنا . ادفع الحصان الأمامى جانبا يا « بوب » حتى ينفسح الطريق أمام القادم . اعلم أننى مشغول الآن بالحديث عن الحياة فى الجامعة ، وأنها الحياة رفيعة المستوى ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك وإن كنت أنا نفسى لا أهتم كثيرا بأولئك الذين يعيشون فى ذلك المكان . وكما أننا نقف هنا الآن بأجسامنا الضعيفة على هذه الهضبة ، كذلك هم يقفون هناك بعقولهم الجبارة ولا شك أن البعض منهم يستطيع أن يكسب الكثير من المال عن طريق الكتابة . بعضهم قوى البنية صغير السن يستطيع أن يربح الكثير عن طريق التفوق فى المباريات الرياضية . أما عن الموسيقى ، فهنالك موسيقى رائعة تملأ كل مكان فى « كرايستمينيستر » والمرء قد يكون متدينا وقد لا يكون كذلك ، ولكنه لا بد أن يشترك مع الآخرين لمجرد أن يسمعهم ينشدون أناشيدهم الدينية . وفى المدينة طريق ضخم هائل وهو الطريق الرئيسى فيها وليس فى العالم طريق آخر يشبهه . هذا ما أعرفه عن « كرايستمينيستر » وإنه لشىء يسير .

عند هذه اللحظة كانت الخيول قد استراحت وعادت إلى حالتها الطبيعية . وبعد أن ألقى « جود » على الضوء البعيد نظرة أخيرة ، استدار على عقبيه وسار بجوار رفيقه العليم ببواطن الأمور والمستعد دائما لأن يزوده أثناء المسير بقدر أكبر من المعلومات عن المدينة وأبراجها وقاعاتها وكنائسها ومحافلها الزاخرة . وعندما وصلت العربة إلى نقطة تفترق عندها الطرق ، شكر « جود » صاحبها فى حرارة على ما زوده به من معلومات قيمـــة وأخبره أنه يود لو استطاع أن يتحدث عن « كرايستمينيستر » بتلك البراعة وذلك الذكاء .

قال الحمال فى تواضع : هذا كل ما أمكننى أن أحصل عليه من معلومات خلال تجوالى فى هذه المنطقة . لم يسبق لى أن ذهبت إلى هناك غير أننى جمعت معلوماتى من هنا . ومن هناك وكلها رهن إشارتك . إن رجلا مثلى يتجول كثيرا ويختلط بالناس من شتى الطبقات ، لا بد أن يكون على علم بالكثير من الأمور . زد على ذلك أنه كان لى صديق يقوم بتنظيف أحذية النزلاء فى فندق « كرويتزر » فى « كرايستمينيستر » . هذا الصديق كان لى بمنزلة الأخ طيلة السنوات الأخيرة .

واستمر « جود » يسير وحيدا فى اتجاه بيته وكان غارقا فى التفكير فلم يشعر بالخوف وفجأة أحس بأن سنى حياته زادت سنوات إذ كانت أمنيته الكبرى أن يعثر على شيء يتشبث به ويلقى عليه أثقال همومه ، كان حلم حياته أن يجد مكانا يستحوذ على إعجابه الكامل فهل تكون تلك المدينة هى ضالته وهل يجد فيها ما يهوى لو ذهب إليها ؟ أتكون تلك المدينة هى المكان الذى يود أن يستقر فيه ليرقب ما يدور بين جوانبه من أعمال تخلب لبه ؟ أيمكن له أن يبقى هناك ويتخذ لنفسه مهنة نبيلة فيصبح كأحد شخصيات التاريخ التى قرأ عنها دون أن يخاف الزراية ودون أن يلقى العقبات التى قد يضعها فى طريقه الأوغاد والسفلة ؟ وبقدر ما كانت هالة النور المنبعث من المدينة قبلة عينيه وهو يحملق فيها ، بقدر ما أضحت المدينة ذاتها قبلة عقله وموضع تفكيره الآن وهو يتلمس طريقه فى الظلام .

قال يحادث نفسه : « يالها من مدينة كلها ضياء » . وأضاف أيضا يقول بعد أن قطع بضع خطوات فى الطريق الطويل : « فى مثل هذه المدينة تنمو بذور المعرفة وتترعرع شجرة وارفة الظلال » .

« يا لها من بقعة يسكون فيها معلمو الرجال وتتجمع مواكبهم . »

« إنها قلعة كبيرة جنودها من رجال العلم والدين » .

وبعد أن هدأت هذه الأفكار واستقرت فى خياله خيم عليه السكون فترة من الزمان أخذ يقول : « حقا . يا لها من بقعة من بقاع الدنيا أجد فيها ضالتى وهى تلائمنى تمام الملاءمة » .

(٤)

سار الغلام فى طريقه ثقيل الخطى تائه الفكر مستغرقا فى تفكير عميق . بعض هذا التفكير ما كان ليصدر إلا عن عجوز مجرب ، وبعضه الآخر يتسم بطابع البساطة والسذاجة اللتين يتسم بهما تفكير من هم أصغر منه سناً . فى تلك الأثناء أدركه عابر سبيل سريع الخطو يضع على رأسه قبعة واسعة وسترة ذات ذيل طويل مستدق وساعة تتدلى منها سلسلة تهتز اهتزازاً عنيفاً وتصدر عنها ومضات سريعة كلما سار صاحبها متبختراً فى مشيته . كان هذا العابر يسير على ساقين رفيعتين فيهما حذاء خفيف . ولما كان « جود » قد بدأ يشعر بالوحدة أثناء سيره حاول أن يلحق به ويفاتحه الحديث .

ــ حسناً أيها الشاب . إنى انى عجلة ولا بد لك من أن تسير أسرع من ذلك لو أردت أن تجارينى فى مشيتى . أتعلم من أكون ؟

ــ « نعم أظن ذلك ، أنت الطبيب « فيلبرت » .

ــ « عجباً . أمعروف أنا إلى هذه الدرجة فى كل مكان ؟ نعم . هذا ناشىء عن كونى شخصية عامة محبة للخير » .

كان « فيلبرت » من أدعياء الطب الجوالين يعرف جيداً العامة من الريفيين ، بينما لا يعرفه أحد خارج نطاقهم وهو يتعمد ذلك كى يتحاشى الأبحاث عن حقيقته . كان مرضاه جميعاً من سكان الأكواخ وكانت شهرته الواسعة فى أنحاء وسكس قائمة على هؤلاء المرضى وحدهم . وكانت مكانته فى عالم الطب أضعف من مكانة غيره من أدعياء هذه المهنة الأثرياء الذين يعتمدون فى عملهم على نظام دقيق للإعلان ، فهو بقية باقية من أدعياء الطب القدماء . كانت المسافات التى يقطعها على قدميه هائلة فهى تشمل إقليم « وسكس » كله تقريباً . وفى يوم من الأيام شاهده « جود » يبيع لعجوز من عجائز القرى القريبة قنينة بها دهن الخنزير كعلاج لساقها المريضة وذلك فى مقابل جنيه تؤديه له على أقساط صغيرة تدفعه كل أسبوعين كثمن لهذا العقار

العجيب . المستخرج ، حسب قوله ، من حيوان نادر الوجود يعيش فى جبل سينا ويتطلب صيده جهداً جهيداً ومغامرات قد تودى بحياة من يتعرض لها . و « جود » ، على رغم عدم اطمئنانه للأدوية التى يصنعها هذا الطبيب ويقدمها للناس ، أحس أنه لا بد أن يكون شخصاً أفاد كثيراً من تجواله وتعدد أسفاره ، كما لا بد أن يكون مصدراً لا يرقى إليه الشك من مصادر المعلومات التى لا تمت بصلة للمهنة نفسها .

— « أعتقد أنك لا بد أن تكون قد ذهبت يوماً إلى « كرايستمينستر » أيها الطبيب ؟

أجاب الرجل الطويل النحيل : نعم ذهبت إلى هناك مرات عديدة ، « فكرايستمينستر » هى أحد الأماكن التى أتردد عليها .

— إنها مدينة رائعة لكل من يطلب العلم أو الدين . أليس كذلك ؟

— فى مقدورك أن تقول ذلك يا ولدى ، وهذا إذا كنت قد رأيتها . عجبا ، إن أولاد العاملات العجائز اللاتى يغسلن الثياب ويعملن فى الكلية يستطعون التحدث باللاتينية ! حقيقة إنهم لا يتحدثون اللاتينية الصحيحة بل لاتينية ركيكة تعودنا أن نسمعها أيام التلمذة وكنا نسميها حينئذ لاتينية الكلاب والقطط .

— وهل يتحدث القوم هناك اللغة اليونانية ؟

— على أى حال تدرس اليونانية لطلاب اللاهوت الذين يعدون لأن يكونوا أساقفة أو مطارنة ، وذلك حتى يتمكنوا من قراءة « العهد الجديد » فى لغته الأصلية .

— تتوق نفسى إلى تعلم اللاتينية واليونانية .

— أمنية نبيلة . ولكنك لو أردت ذلك فلا بد من أن تقرأ كتابين فى القواعد اللغوية الخاصة بهما .

— فى نيتى أن أذهب إلى « كرايستمينستر » فى يوم من الأيام .

ـ وعندما تقرر ذلك لا بد أن تقول لكل من ستقابله هناك إن الطبيب « فيلبرت » هو صاحب الدواء الشهير الذى يشفى المصارين وبقية أجزاء الجهاز الهضمى شفاء مؤكداً من كافة الأمراض . كما يشفى أمراض أخرى كالربو وضيق التنفس ، وثمن العلبة منه شلنان ونصف ، وقد أجازت الحكومة بيعه .

ـ وهل تستطيع أيها الطبيب أن تزودنى بكتابى قواعد هاتين اللغتين إذا وعدتك بأن أنشر هذا الذى تقول على كل من يسكن فى هذه النواحى ؟

ـ إنى على استعداد لأن أبيعك كتبى التى كنت أستعملها أيام الدراسة .

ـ شكراً لك يا سيدى شكراً جزيلا . قال « جود » ذلك بلهجة العارف بالجميل ، المقدر للإحسان ، ولكنه قالها وهو يلهث إذ أن السرعة الهائلة التى كان يسير بها الطبيب جعلت « جود » يقفز بجواره كالكلب كما سببت له ألماً فى جنبه .

ـ من الأفضل لك أيها الشاب ألا تتبعنى أكثر من ذلك . والآن سأقول لك عما سوف أفعله . سأزودك بكتابى القواعد وسأعطيك دروسا مبدئية شريطة أن توصى كل من ستقابله فى القرية بأن يستعمل المرهم الذهبى للدكتور « فيلبرت » كما يستعمل حبوب الحياة وأقراص النساء .

ـ وأين أقابلك لأتسلم منك كتابى القواعد ؟

ـ بعد أسبوعين من الآن سأمر بهذا المكان فى الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة . إن حركاتى تشبه فى دقتها حركات الكواكب فى أفلاكها .

قال « جود » : سوف أقابلك فى نفس هذا المكان وفى نفس هذا الوقت .

ـ أحضر معك بعض الطلبات لشراء أدويتى .

ـ نعم أيها الطبيب ، سأفعل ذلك .

عند ذلك توقف « جود » عن السير بجوار الطبيب وانتظر بضع دقائق حتى

يستعيد أنفاسه اللاهثة ثم عاد إلى بيته يخالجه شعور بأنه أنجز عملا هاما لا بد أن يقربه من « كرايستميدنستر » .

وفى الأسبوعين التاليين أخذ « جود » يتجول فى المنطقة وعلى فمه ابتسامة تدل على مايجول فى داخل نفسه من أفكار كانت بالنسبة إليه كأنها أشخاص تعترض طريقه وتومىء إليه برءوسها . كان يبتسم وعلى وجهه ذلك الإشعاع الفريد فى جماله الذى كثيراً ما يغمر الوجوه الشابة عند ميلاد إحدى الأفكار الرائعة كأن مصباحا عاويا أخذ يضىء داخل نفوسهم الشفافة ويوحى بأن السماء أصبحت قريبة منهم .

وفى أمانة وإخلاص وفىّ « جود » بوعده للطبيب الذى أصبح الآن موضع ثقته الزائدة وتقديره العظيم ، فأخذ « جود » يجوب القرى القريبة سيراً على الأقدام يدعو له قبل مجيئه . وفى المساء المتفق عليه وقف « جود » ينتظره على الهضبة فى نفس المكان الذى افترقا عنده وكان فى وقفته لا يبدى حراكا .

وفى الموعد المحدد جاء المتجول وأصبح على قيد أنملة منه . وعندما سار « جود » إلى جواره ظل الطبيب يسير بنفس الخطوات السريعة دون أن يبطىء قليلا ، وخيل إلى « جود » لدهشته انه لا يعرف صديقه الصغير ، وإن كان مرور الأيام الأربعة عشر قد زاد فى طول النهار وجعل الأمسيات تبدو أكثر ضياء . خيل إليه أن السبب فى أن الطبيب لم يتعرفه يعود إلى أنه يرتدى قبعة جديدة . وأخيراً حيا « جود » الطبيب الذى قال وهو يتطلع بعينيه إلى الأمام : نعم يا ولدى ؟.

— لقد جئت .

— أنت ؟ ومن تكون ؟ نعم ، حقا . هل جئت ومعك طلبات للشراء أيها الغلام ؟ »

— « نعم » وأخبره « جود » بالأسماء وعناوين القرويين الذين رغبوا فى أن يجربوا حبوب الطبيب وعقاره ذا الشهرة الواسعة ، وفى عناية كبيرة استودع الطبيب هذه الأسماء مفكرته

وارتعش صوت « جود » وهو يقول : وكتابا بالقواعد الخاصة باللغتين اليونانية واللاتينية ؟ .

— « وماذا عنهما ؟ »

— وعـــدت بأن تعطيني كتابيك اللذين كنت تستعملهما وأنت لم تزل طالباً صغيرا .

آه ، نعم . نعم . نسيت كل شيء عنهما . كان اهتمامي موجها إلى أولئك الذين يعتمدون فى حياتهم علىّ . وها أنت ترى أيها الصديق أننى لا أستطيع أن أنشغل بأشياء أخرى كما أحب وأشتهى .

وتجمل « جود » بالصبر حتى يصل إلى حقيقة أمر هذا الطبيب . وأخيرا قال فى صوت يقطر حزنا : ألم تحضرهما معك ؟ .

— لا ، ولا بد أن تجيئنى بطلبات أكثر من ذلك ويجب أن تكون هـذه الطلبات من أناس فى حاجة إلى أدويتى ، وفى المرة القادمة سآتيك بالكتابين حسب طلبك .

وتوقف « جود » عن المسير . كان غلاما بسيطا ولكن نعمة البصيرة المفاجئة التى تمنحها السماء فى بعض الأحايين للصغار أرته لجأة من أى طينة رخيصة صنع منها دعى الطب هذا . وأدرك « جود » لتوه أن هذا الدعى لن يكون أبدا مصدر إشعاع عقلى . وعندما تساقطت الأوراق عن تاج الغار الذى صنعه فى خياله لهذا الرجل انتحى ناحيـــة من الطريق واتكأ على إحدى البوابات وأخذ يبكى بكاء مرا .

وأعقب الشعور بخيبة الأمل فترة همدت فيها نفسه وركد تفكيره . كان من الميسور له أن يحصل على كتب القواعد من « الفردستون » غير أن هذا كان لا بد أن يتطلب منه مالا كثيرا ومعرفة بالكتب ، وهو وإن كان لا ينقصه شيء من ضروريات الحياة إلا أنه لم يكن يملك مالا خاصا يستخدمه فى قضاء حاجياته . فى ذلك الوقت أرسل السيد « فيلوتسون » يطلب البيانو فأوحت هـذه المناسبة له بفكرة : لم لا يكتب للمعلم راجيا إياه أن يتفضل فيرسل كتب القواعد هـذه

من « كرايستمينيستر » ؟ لم لا يضع خفية المعلم خطابا داخل البيانو ؟ لم لا يطلب منه أن يرسل إليه نسخا قديمة مستعملة عليها سحر الجو الجامعى ؟ إنه لو أخبر عمته بنيته هذه فقد يعرض الموضوع كله للضياع ، لذا كان من الواجب عليه أن يعمل بمفرده ولا يخبر إنسانا بما ينوى أن يفعله .

وبعد أن فكر فى الأمر بضعة أيام أخرى شرع يعمل . وفى اليوم المقرر لنقل البيانو وضع الخطاب سرا داخل الصندوق الخشبى للعزف وكتب عليه اسم صديقه وموضع إعجابه . وخشى أن يكشف لعمته « دروزيلا » عن سره الدفين لئلا تدرك الدافع له فترغمه على أن يتخلى عن مشروعه . أخيرا أرسل البيانو إلى صاحبه وبقى « جود » ينتظر على أحر من الجمر ، وظل يتردد على مكتب البريد كل صباح قبل استيقاظ عمته . بعد ذلك وصلت إلى القرية ربطة صغيرة ، وعند ما نظر إلى جوانبها وجد أنها تحوى كتابين صغيرين ، فأخذ الربطة إلى مكان بعيد وجلس على جذع شجرة وشرع يفتحها ليعرف ما بداخلها .

ومنذ اللحظة الأولى التى أحس فيها بالنشوة التى تصاحب تفكيره ، كلما فكر فى « كرايستمينستر » وما يتصل بها من أحلام وآمال ، ظل يقدح زناد فكره فى صبر وجلد كى يصل إلى معرفة كنه الطريقة المؤدية إلى نقل أصول لغة من اللغات إلى لغة أخرى . وأنتهى به التفكير إلى أن القواعد الخاصة باللغة الأجنبية لا بد أن تتضمن فى المقام الأول قانونا ، أو نظاما ، أو مجموعة دلالات لها طبيعة التعبير الرمزى التى لو توصل إلى معرفتها مرة لاستطاع بمجرد تطبيقها أن يحول حسب هواه كل كلمة فى حديثه إلى ما يقابلها فى اللغة الأجنبية . إن فكرته الفجة هذه كانت فى الواقع خطوة نحو الدقة الرياضية المعروفة فى كل مكان باسم قانون « جريم » ، وهى لا تعدو أن تكون صورة مبالغا فيها للقوانين البدائية حتى لا تبدو فى مظهر الكمال المثالى .

وهكذا أفترض أن كلمات اللغة الأجنبية لا بد أن توجد دون استثناء فتخفيه

تحت كلمات لغة الفرد ، ولن يستطيع أن يكشف سرها سوى أولئك الذين يملكون ناصية هذا الفن . وهذا الفن تضمنه الكتابان سابقا الذكر .

وعند ما لاحظ أن الربطة تحمل طابع « كرايستمينيستر » شرع فى تمزيق أربطتها ، ثم فتحها وتناول كتاب القواعد اللاتينية وكان فى الصدر مباشرة عند ذلك كاد لا يصدق عينيه .

كان الكتاب قديما لا يقل عمره عن ثلاثين عاما امتلأت صفحاته بالبقع وبكتابات لا معنى لها وبحروف لا تمت بصلة لحروف المطبعة ، كما اكتست جوانبه بتواريخ تعود إلى عشرين عاما مضت ، غير أن هذا الأمر لم يكن هو السبب الذى من أجله عرته الدهشة إذ أنه أدرك لأول مرة فى حياته حقيقة معينة هى أنه لا قانون للنقل من لغة إلى لغة كما سبق أن أوحت له سذاجته ، بل إن كل كلمة فى كل من اللغتين اللاتينية واليونانية لا بد أن تعيها ذاكرته ، ولن يتم ذلك إلا بعد عناء السنين .

ألقى بالكتابين جانبا ، ثم اضطجع على جذع الشجرة ، وفى هذه الأثناء تحول إلى إنسان تملكته التعاسة . وكما تعود أن يفعل فى مثل هذه المواقف ، جذب قبعته على وجهه وأخذ يرقب الشمس بينما أشعتها تتسلل إليه خلال فرجاتها الضيقة : إذن هذه هى اللغة اللاتينية . وهذه هى اللغة اليونانية . يا للخدعة الكبرى . إن السحر الذى توقع أن يجده بمجرد وصول هذين الكتابين أصبح بالنسبة إليه عناء كعناء بنى اسرائيل فى أرض مصر .

أى عقول تلك التى تحتويها رءوس الناس فى « كرايستمينيستر » وفى معاهدها العظيمة فيحفظون عن ظهر قلب كلمات لا عد لها ولا حصر ! إنه لا يملك عقلا كهذه العقول حتى يستطيع أن يضطلع بهذه المهمة الشاقة . وبينما أخذت الأشعة الضعيفة للشمس الغاربة تتسلل إليه من خلال فرجات قبعته ، تمنى لو أنه لم ير كتابا ، وتمنى ألا يرى كتابا آخر ، كما تمنى لو أنه لم يولد إلى هذه الحياة . كان من

الممكن أن يمر به عابر سبيل فيسأله عن خطبه ومن ثم يخبره بأن أفكاره أكثر تقدما من أفكار واضعي تلك الكتب ، وبذلك ينزل كلامه على نفسه برداً وسلاماً ، غير أنه لم يقترب منه أحد ، ففي تلك اللحظة لا يفعل أحد ذلك عادة . وبينما هو على هذه الحال يعانى من وطأة إدراكه للخطأ الهائل الذى وقع فيه ، أخذ يتمنى من صميم فؤاده لو أنه يستطيع أن يفر من هذا العالم الكئيب .

(٥)

وخلال الأعوام الثلاثة أو الأربعة التى تلت ، كان الناس فى تلك النواحى يرون عربة قديمة غريبة تسير فى الأزقة الضيقة والممرات الجانبية الواقعة قريبا من « ميرجرين » بطريقة غير مألوفة .

فبعد شهر أو شهرين من تسلمه الكتابين استطاع أن يتغلب على ما أثاره تعلم اللغات القديمة من عقبات وأصبح قادرا على اعتياد ما يجره تعلم هذه اللغات عليه من مشاق . والواقع أن خيبة الأمل التى أحس بها فى مطلع الأمر إزاء محاولته لتفهم طبيعة اللغات القديمة تحولت بعد فترة وجيزة إلى أن تكون وسيلة من الوسائل التى لجأ إليها لتعظيم رسالة « كرايستمينيستر » فى نظره . وإن تعلم اللغات ، سواء كانت لغات قديمة أو حديثة ، رغم كل الحوائل والعقبات التى أصبح الآن يحس بها فى نفسه والتى أصبحت تحول بينه وبين تعلمها ، كان بالنسبة إليه عملا بطوليا وهو لذلك ازداد حبا لهذه اللغات حتى فاق حبه لها حبه لطريقة تعلمها . إن المادة التى تحاكى الجبل فى ضخامتها والتى تتضمن الأفكار التى تضمها بطون هـــذه المتون المغطاة بطبقات من التراب والمسماة بعيون الآداب القديمة ، كانت بالنسبة إليه حافزا على العمل الدائب والجهد الصابر لاستيعابها وتمثل جوانبها كلها .

لقد بذل من نفسه الشيء الكثير حتى يجعل من حياته مع عمته العجوز العانس شيئا مفيداً لها وذلك بمعاونتها بكل ما يستطيع من قوة ، فنما المخبز الصغير واتسعت أعماله نتيجة لهذه الجهود مما جعل العمة تشترى فى مزاد حصانا كبير السن متدلى الرأس بمبلغ ثمانية جنيهات ، كما اشترت بجنيهات قليلة عربة متداعية يسمع لعجلاتها

عند السير صرير وكان فوقها خيمة حائلة اللون وكان على « جود » أن يخرج بعربة الخبز ثلاث مرات أسبوعيا فيمر على أصحاب الأكواخ والسكان الذين يعيشون حول « ميرجرين » فى عزلة عن الناس .

أما الغرابة التى نوهنا عنها سابقاً فكانت تكمن فى المقام الأول فى الطريقة التى يسوق بها « جود » العربة أكثر مما تكمن فى العربة نفسها . لقد حول « جود » الجزء الداخلى من العربة إلى مكان للمذاكرة يزاول فيه الجزء الأكبر من عملية تربية ذاته وتعليمها . وبمجرد أن عرف الحصان معالم الطريق وتعلم مواقع البيوت التى لا بد من أن يتوقف عندها لحظة ، كان « جود » يترك العنان معلقا بذراعه ثم يفتح الكتاب بطريقة بارعة مستخدما فى ذلك قطعة من الجلد مدلاة من الخيمة المنصوبة فوق العربة كما يضع على ركبتيه معجما للكلمات الصعبة ومن ثم ينهمك فى قراءة مقطوعات بادئا بأسهلها « لقيصر » و « فرجيل » و « هوراس » حسب الحال ، متبعا فى دراساته طريقة بدائية تستغرق منه وقتا وجهداً كبيرين وتجعل قلب رجل التربية ذى الشعور الرقيق يكاد ينفطر عليه حزنا وألما . وعلى الرغم من كل ذلك كان « جود » يفهم ما يقرأ دون أن تخطىء عيناه روح الأصل الذى يقرأ له بل يستشفها من ثنايا السطور ، وهذا فى ذاته نصر كبير له . ومن الكتب التى استطاع أن يحصل عليها طبعات قديمة تحمل اسم « دلفن » . ولما كانت هذه الطبعات بطل استعمالها فقد أصبح ثمنها قليلا وكانت لهذا السبب مناسبة له وإن لم تكن كذلك لطلاب المدارس . وهكذا استطاع هذا الطالب الوحيد المتجول ، رغم ما يعترض سبيله من صعاب ، أن يقرأ المتون الأساسية والتعليقات عليها والملخصات التى تعاون على فهمها ، كما استطاع أن يفيد منها جميعا فى تعليم نفسه كما لو كان يفيد من معاونة زميل له أو أستاذ يمر به . وعلى الرغم من أن تلك الأساليب المرتجلة ما كانت لتصنع منه شخصا متعمقا فى الآداب اللاتينية واليونانية إلا أنها كانت كافية لتدفعه إلى السير فى الطريق الذى اختطه لنفسه .

وبينما كانت هذه الصفحات القديمة ، التى طالما عبثت بها أيدى أناس ربما أصبحوا فى القبور ، تظفر باهتمامه وتملك عليه لبه ، وبينما هو يفتش فى تلك

الصفحات عن بنات أفكار من كتبوها ، أفكار عفا عليها الزمن ، قام الحصان الأعجف العجوز بمتابعة سيره وإنجاز جولته . فى تلك الأثناء كان توقف العربة يقطع عليه حبل تفكيره ، وكثيراً ما كان يعود إلى نفسه على صوت عجوز وهى تصيح : « أريد اليوم رغيفين أيها الخباز وأعيد رغيفا من أمس » .

وفى أثناء مروره فى الحوارى كان كثيرا ما يمر بجمهرة من المشاة دون أن يراهم . وشيئا فشيئا بدأ الناس يتحدثون عن طريقته فى ربط العمل باللعب (إذ هكذا كانوا ينظرون إلى شغفه بالقراءة) . وهى طريقة إن كانت مقبولة لديه إلا أنها ليست مأمونة لدى أولئك المارة الذين يمرون فى نفس الطريق . وبدأ التذمر ثم أبلغ أحد سكان الأماكن المجاورة رجل الشرطة بأنه لا يجوز لصبى الخباز أن يقرأ فى أثناء ركوبه العربة وأصر على أنه من واجب الشرطى أن يفاجئه متلبسا بجرمه ثم يقوده إلى المركز فى « الفردستون » كى يغرّم لارتكابه أمورا خطيرة فى الطريق العام وعلى ذلك كمن له رجل الشرطة على الطريق .

وذات يوم أوقفه وحذره من نتيجة عمله . ولما كان من واجبات « جود » أن يستيقظ فى الثالثة صباحا كى يشعل النار فى فرن الخبز ويخلط العجين ويسوى الخبز الذى يقوم بتوزيعه أثناء اليوم ،كان عليه أن يأوى إلى فراشه مباشرة بعد العجين . وعلى ذلك ، لو أنه عجز عن قراءة تلك الآداب القديمة وهو فى الطريق إلى زبائنه ، لتعذر عليه أن يؤدى هذا الواجب إطلاقا ، أما الشىء الوحيد الذى يستطيع أن يفعله فى هذه الظروف فهو أن يقرأ أثناء سير العربة بينما يرقب الطريق بنظرة حادة ويتلفت بانتباه حوله وبمجرد أن يقع بصره على إنسان قادم نحوه من بعيد ، وبخاصة رجل الشرطة ، يسرع بإخفاء كتبه ، أما رجل الشرطة ، فالحق يقال إنه لم يتعرض كثيرا لعربة « جود » على اعتبار أنه فى مثل هذه المنطقة النائية عن العمران يصبح « جود » نفسه هو الذى يتعرض للخطر . وكثيرا ما كان الشرطى يبتعد عن طريق العربة لمجرد أن يلمح خيمتها البيضاء من وراء أسيجة المنازل .

وذات يوم ، وكان قد تقدم فى السن كثيرا وقارب عامه السادس عشر ، كان فى طريق عودته إلى البيت يجالد متعثرا فى قراءة أحد الكتب اللاتينية الصعبة وهو كتاب «كارمن سيكيولارى» .

فى تلك اللحظة شعر أنه يمر فوق الحافة العلوية للهضبة أمام (البيت الأسمر) وهو مخزن الحبوب المعروف لديه جيدا ، وكان الضوء قد تغير وكان شعوره بهذا هو الذى دفعه إلى أن يتطلع إلى السماء فوجد أن الشمس فى طريقها إلى المغيب . فى تلك اللحظة بدأ القمر يحتل مكانه فى كبد السماء ويبدو من وراء الأشجار بدرا كاملا . هنا قفزت إلى رأسه ذكرى قصيدة شعرية وفجأة غزت روحها عقله إلى درجة أن شعوره القديم العارم الذى دفعه ذات مرة ، منذ سنوات خلت ، إلى أن يجثو على ركبتيه ويلتصق بالسلم قد عاوده الآن فأوقف الحصان ونزل من العربة وبعد أن تلفت حوله ليتأكد من أنه وحيد فى المكان ، وما من أحد يرقبه ، جثا على حافة الطريق والكتاب مفتوح فى يده وأدار وجهه إلى القمر ، ذلك الآله المشرق الذى بدا كأنه يرقب تصرفاته فى ذكاء صامت ، بعد ذلك أدار وجهه نحو موكب الضياء المتراجع فى الناحية الأخرى من السماء وأنشد يقول :

(يا (أبولو) العظيم ، يا (ديانا) القوية ، يا آلهة الغابات ، لكم جميعا أخر ساجداً) .

ووقف الحصان فى مكانه لا يبدى حراكا حتى انتهى من تلاوة القصيدةالعصماء ثم عاد يرتلها مرة أخرى بتأثير دافع وثنى خفى لم يدر بخلده قط أنه يستطيع أن يجعله يخضع لسلطانه فى وضح النهار .

وبعد أن عاد إلى البيت أخذ يمعن النظر فى تطيره الغريب ، وأخذ يسأل نفسه أكان ذلك التطير أصيلا فيه أو شيئا عابرا . كما أخذ يفكر فى قصور ذاكرته ، ذلك القصور العجيب الذى تسبب فى أن يخرج عن الطريق السوى ويأتى من الأفعال ما لا يتفق مع طبيعته وعاداته ، هو الذى كان يعد نفسه ليكون كاهنا متدينا وذلك بالإضافة إلى أن يكون دارسا من دارسي الآداب القديمة . لقد حدث ذلك نتيجة

لإقباله الشديد على المطالعة فى الأسفار الوثنية وتعمقه فى استيعاب أصولها . وكلما أمعن النظر فى نفسه وفيما يأتى من أعمال ازداد إقتناعه بتناقض سلوكه واختلاط تفكيره . بدأ يسأل نفسه هل الكتب التى يقرؤها هى التى تتفق وهدفه فى الحياة حقاً ؟ لم يجـــد ثمة توافقا كبيرا بين الآداب الوثنية القديمـــة وبين كليات «كرايستمينيستر» التى أنشئت فى العصر الوسيط والتى تمثل قصة كنيسة فى بديع البناء .

وفى النهاية استقر رأيه على أن هيامه بالقراءة جعله ينفعل بانفعالات لا تتناسب وتربية شاب مسيحى ، إذ أضاع وقته فى قراءة شعر «هوميروس» دون أن يهتم بقراءة العهد القديم باللغة اليونانية ، هذا وإن كان يملك نسخة منه قديمة ابتاعها بالمراسلة من أحد باعة الكتب المستعملة ، وعلى أثر ذلك هجر اللهجة الأيونية المعروفة لديه إلى لهجة أخرى جديدة ، ولفترة طويلة اقتصر فى قراءاته تقريبا على الأناجيل وأعمال الرسل فى طبعة «جرايس باخ» ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه تعرف على أدب آباء الكنيسة الأول عن طريق عثوره فى «الفردستون» ذات يوم عند أحد باعة الكتب القديمة هناك على بعض الأسفار سبق أن تركها لديه أحد القساوسة وفاء لدين وكانت هذه تدور حول حياة أولئك الآباء القديسين .

وكنتيجة أخرى لذلك التغيير فى الاتجاه شرع يزور فى أيام الآحاد كل الكنائس القريبة وهناك يقرأ الكتابات اللاتينية من القرن الخامس عشر . وفى إحدى هـذه الزيارات قابل عجوزا محدودبة الظهر على درجة عظيمة من الذكاء قرأت كل ما استطاعت أن تحصل عليه من الكتب فأمدته بمزيد من القصص والحكايات المترعة بالخيال الساحر الجميل عن مدينة النور والحكمة . على هذا صمم تصميما على أن يذهب إلى هناك . ولـكن كيف السبيل إلى أن يعيش فى هذه المدينة الغريبة ؟ إنه حاليا لا يملك دخلا ثابتا ، ليست له صناعة أو عمل يعيش من ورائه ، بينما هو يـكرس وقته جميعه للدراسة وتحصيل العلم وقد يمتد به الحال سنوات عدة .

وما الذى يحتاج إليه الناس أكثر من غيره ! الطعام ! اللباس ! المأوى ! وهو وإن عمل فى ميدان تزويد الناس بالطعام فلن يكون دخله من وراء ذلك سوى شىء ضئيل هزيل ، وهو يحس بكره شديد للعمل فى تزويد الناس بالملبس . أما العمل الثالث فهو شىء يحبه وتميل نفسه إليه والناس يبنون فى المدينة فليتعلم فن البناء ؟ وهنا أخذ يفكر فى عمه المغمور ، والد « سوزان » وهو نقاش للمعادن يعمل فى الكنائس وله ولع بفن العصور الوسطى فى شتى مجالات هذا الفن . ان يكون مخطئا إن اقتفى خطوات عمه وعمل فترة فى فنون هى من بقايا النفس الجياشة إلى الدراسة والبحث .

وكمقدمة لعمله الجديد جلب عدداً من الأحجار السهلة القطع ، فالمعدن لا يسهل الحصول عليه ، وبعد أن توقف عن الدراسة فترة ، أخذ يستغل أويقات فراغه فى تقليد الأعمدة ورءوسها الموجودة فى كنيسة الحى .

وفى « ألفردستون » كان يوجد بناء من نوع بسيط . وبمجرد أن وجد بديلا له يقبل العمل عند عمته فى مخبزها الصغير ، تقدم لتوه إلى هذا البناء وعرض عليه مساعدته مقابل أجر تافه فكانت أمامه بذلك الفرصة لتعلم مبادىء العمل على الحجارة . وبعد فترة من الزمان ، ذهب أيضا إلى بناء من بنائى الكنائس يقيم فى نفس الجهة وتعلم على يديه أصول ترميم الأبنية المتهدمة لعديد من كنائس القرى القريبة . لم يغرب عن باله قط أنه كان يزاول هذه الحرفة كوسيلة للعيش فى أثناء متابعته لدراسته التى اعتبرها أكثر الأمور مناسبة له .

ومع ذلك فقد كان محبا لهذه الحرفة لذاتها ، واتخذ له الآن مسكنا فى المدينة الصغيرة يقيم فيه أثناء الأسبوع ويغادره فى أمسيات السبت عائدا إلى قرية « ميريجرين » . هكذا بلغ « جود » التاسعة عشرة من عمره وجاوزها بقليل .

(٦)

وفى يوم من أيام السبت ، أثناء هذه الفترة الهامة من حياته ، كان عائدا من

« الفردستون » إلى « ميريجرين » ، والساعة قد شارفت على الثالثة بعد الظهر : كان الطقس رائقا ، دافئا ، والجو من أجواء الصيف البديعة فسار يحمل أدواته على ظهره وفى سلته أزاميله الصغيرة تصطدم بالكتب فتحدث صلصلة مكتومة . كان اليوم من أيام نهاية الأسبوع فترك عمله مبكرا وغادر المدينة سالكا طريقا طويلا لم يعتد أن يسلكه فى بقية الأيام وذلك لأنه كان ينوى أن يمر على مطحن للغلال بالقرب من « كريسكومب » ليقوم بمهمة سبق أن وعد عمته بقضائها من أجلها .

كان فى حالة نفسية بديعة ويبدو عليه أنه اهتدى إلى طريقة للعيش الهادئ فى (كرايستمينيستر) لمدة عام أو عامين مع الالتحاق بإحدى هذه القلاع للعلم تحقيقا لحلم حياته الأوحد .

كان فى مقدوره طبعاً أن يذهب إلى تلك المدينة منتحلا لنفسه أية صفة غير أنه فضل أن يدخلها وهو أكثر اطمئناناً وأشد وثوقا من ناحية المصدر الذى يعتمد عليه فى معاشه . وعندما رجع بذاكرته إلى ما قام بعمله فى هذا الشأن امتلأ صدره بشعور مريح وأحس بالرضا والاطمئنان . ومن وقت إلى آخر ، وهو فى طريقه يسير حثيثاً ، أخذ يلتفت يمنة ويسرة متأملا ما حوله من صور الطبيعة ، غير أنه لم يكن ليرى شيئاً ، فحركته هذه لم تزد على أن تكون مجرد تكرار آلى لما اعتاد أن يفعله فى أوقات فراغه . أما الشيء الوحيد الذى سيطر على حواسه فى تلك اللحظة فكان مدى نموه الفكرى .

— « لقد بلغت مبلغ أوساط الطلاب فى القدرة على قراءة العادى من النصوص فى الأدبين اللاتينى واليونانى ، وبخاصة فى الأول » .

كان هذا هو الواقع بالنسبة له فقد بلغ فى هذه اللغة من المهارة مبلغاً جعله يملأ لحظات تجواله المنفردة بأحاديث لاتينية متخيلة .

— « قرأت قسمين من الإلياذة ؛ هذا بالإضافة إلى بلوغ قدر لا بأس به من

الدراسة لمقطوعات معينة من الكتاب التاسع مثل « أحاديث فيونكس » فى القسم التاسع والصراع بين « هكتور » و « أجاكس » فى القسم الرابع عشر ، وظهور « أخيل » وهو أعزل من السلاح فى القسم الثامن عشر ، والحركات الجنائزية فى القسم الثالث والعشرين ، وقرأت أيضا شيئا من شعر الشاعر اليونانى القديم «هزيود» وشيئا من كتابات المؤرخ « ثيوسوديدس » ، كما قرأت كثيرا فى العهد الجديد باللغة اليونانية . وددت لو لم يكن هناك سوى لهجة يونانية واحدة » .

— « ودرست شيئا من الرياضيات بما فى ذلك الكتاب الأول والسادس والحادى عشر والثانى عشر للرياضى السكندرى العظيم « اقليدس » ، كما درست شيئا من علم الجبر ، شيئا يسيرا لا يعدو المعادلات البسيطة » .

— « وعرفت شيئا من تاريخ آباء الكنيسة ، كما عرفت شيئا من التاريخ الرومانى والانجليزى » .

— « ليست هذه الأشياء سوى بداية متواضعة ، ولكننى لن أتمكن من إحراز شىء من التقدم فى الدراسة هنا ، وذلك لما ألاقيه من صعاب فى الحصول على الكتب ، على ذلك لابد لى من أن أسعى جهد طاقتى كى أستقر فى « كرايستمينيستر » . وبمجرد أن يتم هذا ، وبفضل المساعدة التى سأحصل عليها هناك ، لابد أن أحرز تقدما كبيرا إلى درجة تبدو معها معرفتى الحالية عبث أطفال لابد لى من أن أقتصد بعض المال ، وسأفعل ذلك بالتأكيد ، وستفتح هذه الكليات أبوابها وتستقبلنى ، أنا الذى لا يمكن أن تستقبلنى الآن بغير الازدراء ولسوف يأتى هذا الترحيب لو انتظرت عشرين عاما . سوف أحصل على درجة الدكتوراه فى اللاهوت قبل أن تخمد همتى » .

وهكذا ظل فى أحلامه وخيالاته وأخذ يتصور نفسه وقد أصبح أسقفا بعد أن عاش حياة نقية طاهرة عاقلة ، حياة مسيحية حقيقية ، وياله من مثال سيضربه لغيره من الناس . وإذا أصبح دخله خمسة آلاف جنيه فى السنة فسيتبرع منها بأربعة آلاف وخمسمائة جنيه بطريقة ما ، ويعيش حياة رغدة بالمبلغ الباقى . ولكنه بعد

مزيد من التفكير اكتشف أن عمل الأسقف شيء سخيف ، لذا سوف يكتفى بأن يصبح كبيرا للشمامسة ، وقد يكون المرء مفيدا صالحا فى وظيفة كبير الشمامسة كما هو كذلك فى وظيفة الأسقف . مع ذلك عاد إلى فكرة الأسقف مرة ثانية .

— « وحتى يتم ذلك ، وبمجرد أن يستقر بى المقام فى « كرايستمينيستر » ، سوف أقرأ جميع الكتب التى لم أستطع الحصول عليها هنا : « ليفوس » ، و « تاسيتوس » و « هيرودوتس » و « اسكيلوس » و « سوفوكليس » و « أريستوفانيس » .

— « ها ها ها . ياللغرور ويااللطيش » .

وانطلقت الأصداء قادمة من الناحية الأخرى من السياج متقمصة أصواتا رقيقة ، لكنه لم يلحظ شيئا فقد كانت أفكاره جميعها تسير فى مجراها الذى اتخذه لها .

— « يوربيدس » و « أفلاطون » و « أرسطوطاليس » و « لوكريتيس » ، و « ابكيتيتس » و « سينكا » و « أنطونينوس » . بعد ذلك لا بد لى من أن أتقن أمورا أخرى . على أن أقرأ « آباء الكنيسة » ، قراءة دقيقة شاملة . على أن أقرأ « بيد » و « تاريخ الكنيسة » ، قراءة عامة . على أن ألم باللغة العبرية إلماما عاما . حتى هذه اللحظة لم استطع أن أتعلم سوى الحروف الأبجدية لهذه اللغة ! » .

— يا للغرور ويا للطيش .

— « ولكننى استطيع أن أعمل فى جد إذ لدى قدرة هائلة على تحمل المشاق وإنى لأشكر الله على ذلك . نعم ستصبح « كرايستمينيستر » أمى الحنون ، وأصبح أبنها المحبوب الذى تقر بها عينا » .

وفى أثناء استغراقه العميق فى هذه المشروعات التى يرسمها للمستقبل أخذ يبطىء تدريجيا فى سيره حتى توقف تماما وأخذ ينظر إلى الأرض كما لو أن مصباحا سحريا

يعكس صـــــور المستقبل . وفجأة اخترق سمعه صوت حاد وأحس بشىء بارد ناعم الملمس يسقط عليه ثم يتدحرج عند قدميه .

وبنظرة واحدة أدرك ماهية هذا الشىء . إنها قطعة من كراع الخنزير يستعمله الريفيون عادة لدهان أحذيتهم ولا يصلح لأى شىء آخر سوى هذا . والخنازير كثيرة فى هذا الجزء من شمال « وسكس » حيث تربى وتسمن فى أعداد كبيرة .

وعلى الجانب الآخر من السياج الممتد أمامه رأى مجرى مائيا صغيرا ، فأدرك للمرة الأولى أن الأصوات الضعيفة والضحكات المكتومة التى اقتحمت نطاق أحلامه واختلطت بها لابد أن يكون مصدرها هناك ، فارتقى الجسر وأخذ ينظر من فوق السياج فرأى على الجانب البعيد من القناة بيتا ريفيا صغيرا تتصل به حديقة وحظائر للخنازير . وعلى حافة القناة أمامه رأى ثلاث فتيات صغيرات جاثيات على الأرض وبجوارهن دلاء وصحاف مملوءة بأمعاء الخنازير وهن يغسلنها فى المياه الجارية فى القناة . وفى خبث تطلعت إليه واحدة منهن . وعندما لاحظت الفتيات أنهن جذبن انتباهه وأنه شرع يطيل النظر إليهن تحشمن فى جلستهن وأطبقن شفاههن واستأنفن ما يقمن به من عمل فى جد واجتهاد .

قال « جود » فى عنف : « شكراً » .

قالت إحدى الفتيات لجارتها كما لو كانت لاتشعر بوجود الشاب الغريب : « لم ألق بها . أؤكد لك ذلك » .

أجابت الثانية : « ولا أنا » .

قالت الثالثة : « كيف تفعلين ذلك يا آنى » .

— « لو ألقيت شيئا لكان ما ألقيته غير هذا » .

— « أف . إنى لا أهتم له » . ثم أغرقت الفتيات الثلاث فى الضحك واستأنفن عملهن دون أن يرفعن عيونهن إليه . ولم ينقطعن عن تبادل التهمة فيما بينهن . وزادت سخريته وهو يمسح وجهه بعد استماعه إلى ملاحظتهن .

وقال موجها الحديث إلى الفتاة التي تجلس فى المقدمة :

— « حقا . لست أنت التى ألقيتها ! لا لست أنت » .

أما الفتاة التي وجه إليها الحديث فكانت نحيلة ذات عينين سوداوين ، ولم تكن على درجة كبيرة من الاناقة وان بدت كذلك من بعد بالرغم مما اتسمت بها بشرتها من خشونة . كان لها صدر مستدير بارز وشفتان ممتلئتان وأسنان منتظمة ، أما وجهها فكان كله نضارة . كانت أنثى بكل ما فى هـــذه الكلمة من معنى فهى الدوافع الحيوانية مجسمة لا أكثر ولا أقل . وأحس بأنها مكلفة من قبل قوة خفية كى تقوم بتحويل اهتمامه من الآداب الإنسانية الرفيعة وما تبعثه فى نفسه من رؤى سامية ، إلى وقائع الحياة وأحداثها التى تصطرع فى عقول من حوله .

قالت الفتاة فى جرأة : « لن تجد هنا من يخبرك شيئا » .

— « ومهما تكن طبيعة تلك الفعلة فهى مفسدة لمال الغير » .

— « ليس هذا بالأمر الهام » .

— « ولكنك ترغبين فى التحدث إلى على ما أظن » ؟ .

— « نعم ، لو رغبت أنت فى ذلك » .

— « وهل أصعد أنا إليك ، أم تأتين أنت إلى » ؟ .

ومن المحتمل أن الفتاة أحست بفرصة فى الأفق . التقت عيناها بعينيه وهو يتحدث إليها فأحست بأن ومضة ذكاء خاطف انطلقت فكانت إعلانا صامتا عن مولد تجاوب بينها وبينه ولم يكن هو بالشخص المسئول عن ذلك التجاوب . لقد اكتشفت اختياره لها من بين ثلاثتهن ولم يكن اختياره لمجرد تصميمه على التعارف ، بل إطاعة لأوامر صادرة عن سلطة عليا تقف عادة فى طريق سيئى الحظ من الرجال أمثاله فيتلقون أوامرها دون أن يحسوا بذلك وخاصة عندما يمتزج هدف حياتهم الأكبر بجنس النساء .

قالت وهى تنهض واقفة : « إلى بما هو ملقى هناك » .

وأدرك أن إشارتها هذه لم تصدر عن شعور متعلق بأبيها وما يقوم به من عمل فوضع على الأرض سلته التى تحوى أدواته والتقط قطعة اللحم الملقاة فى الطريق ، وبمعاونة عصاته ارتقى السياج حيث كانت الفتاة تقف فى مواجهته على الجانب الآخر منه وسار الاثنان فى اتجاه الجسر الخشبي الصغير وكانت القناة تفصل بينهما . وعندما اقتربت الفتاة من الجسر أخذت تمتص الهواء بفمها بطريقة لم يلحظها من قبل وصارت تنقل ما بداخل فمها من هواء من ناحية إلى أخرى وراء صدغيها وبذلك برزت على سطح خدها الأملس المستدير ، كأنما نشأت بسحر ساحر ، هزمة كاملة التكوين استطاعت أن تبقيها فى مكانها على خدها طالما ظلت هى على ابتسامتها . لم تكن هذه العملية ، عملية إنتاج الهزمات حسب الطلب ، بالشيء الجديد إذ عرف سرها كثير من النساء . هذا وبالرغم من أن كثيرات منهن حاولن القيام بهذا العمل ، إلا أن عدداً قليلا استطاع أن ينجح فيه .

وهكذا تقابل الإثنان وسط الجسر الصغير وألقى « جود » بقطعة الكراع جانبا وكأنه ينتظر منها أن تفسر له السبب الذى من أجله أوقفت من سيره بهذه الطريقة التى تخلو من الرقة والتى اعتبرها فتحا جديدا فى عالم الحرب والقتال .

غير أن الفتاة أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى فى دلال وفخر ، وأخذت تهتز إلى الأمام وإلى الخلف ويدها على حديد الجسر ، وظلت على هذه الحال حتى دعاها داعى الفضول لحولت عينيها اليه وأخذت تفحصه فى اهتمام كبير .

— « من المحتمل أنك تفكر الآن فى انني لا يمكن ان اقذفك بشيء » .

— « لا . بالتأكيد » .

— « اننا نقوم بهذا العمل مساعدة منا لوالدى وهو بالطبع يريد منا ألا نلقى بأى شيء منه إذ انه يقوم بتحويل هذه الأجزاء إلى شحم يستخدم فى طلاء الأحذية » .

وكانت الفتاة تقول ذلك وهى تشير إلى القطعة الملقاة على الأرض المغطاة بالحشائش .

سألها فى لهجة مؤدبة تنم عن قبوله لكلامها وإن كان رأيه فيما قالت لا يخلو من الريبة : « وما الذى يجعل إحدى الفتاتين الأخريين تقوم بإلقاء هذه القطعة على ؟ إنى أعجب لذلك » .

— « الطيش — فلا تخبر إنسانا بأننى أنا التى فعلت ذلك . أرجوك » .

— « وكيف أستطيع ! إنى لا أعرف » .

— « حقا إلا . وهل أخبرك بأسمى » ؟

— « ارجو » .

— « ادعى ارابيلادون » واسكن هنا .

— « كان لابد أن أعرف هذا الاسم جيداً لو أننى كنت أتردد كثيراً على هذه الناحية ، غير أنى أسير عادة فى هذا الطريق العام دون أن أتوقف فى اى جزء منه » .

— « يعمل أبى فى تربية الخنازير وتساعدنى هاتان الفتاتان فى تنظيف الأمعاء وإعدادها لصنع السجق » .

ظل « جود » والفتاة يتحدثان لحظة ، ثم لحظة أخرى وهما فى مكانهما يتطلع كل منهما إلى الآخر ، وكل منهما متكىء على سياج الجسر . هذا النداء الصامت ، نداء المرأة للرجل الذى عبرت عنه فى وضوح شخصية « أرابيلا » ضيق عليه الخناق وشد عليه بقوة واحتجزه فى هذا المكان ضد نيته ، بل بالأحرى ضـــد إرادته وبطريقة جديدة على تجربته .

قد لا يكون من المبالغة فى شىء أن يقال إن « جود » حتى هذه اللحظة لم ينظر إلى امرأة على اعتبار أنها امرأة فحسب ولكنه كان دائما ينظر إلى النساء على اعتبار أنهن كائنات خارجات عن نطاق حياته وأغراضه . وأخذ يطيل النظر إلى عينيها ثم فمها ثم صـــدرها ثم ذراعيها المكشوفتين الممتلئتين البضتين وكانتا مبتلتين متأثرتين ببرودة الماء فتعددت ألوانهما كما بدتا كعامودين قويين مصنوعين من رخام .

— « يالك من فتاة جميلة الطلعة » . غمغم « جود » بذلك القول وإن لم يكن بحاجة إلى الكلمات ليعبر بها عما يحسه من تأثير سحرها وقوة جاذبيتها .

قالت الفتاة فى نبرة حادة : « ليتنا نتلاقى أيام الآحاد » .

أجابها يقول : « لا أظن أن ذلك فى مقدورى » .

— « أقول لك هذا وتستطيع أن تضعه فى موضع التفكير . وحتى هذه اللحظة لا يوجد شخص بالذات يسعى للتقرب منى وقد يظهر واحد فى مدى أسبوع أو أسبوعين » .

قالت ذلك دون أن تعلو الابتسامة وجهها فاختفت، منه الهزمات .

وأحس أنه مغلوب على أمره . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا وقال :

— « هلا سمحت لى بأن أقابلك » .

— « إننى لا أمانع فى ذلك » .

وعند هذه اللحظة نجحت فى أن تستعيد هزمة واحدة وذلك عندما أدارت وجهها جانبا وقامت بعملية امتصاص الهواء ، تلك الحركة الصغيرة العجيبة التى سبق ذكرها .

ولما لم يكن « جود » ، حتى تلك اللحظة ، يدرك وجودها أمامه تمام الإدراك فإنه خاطر وقال : « الأحد القادم وهذا يعنى باكر . أليس كذلك ؟ » .

— نعم .

— وهل أمر عليك .

— نعم .

واستضاء وجهها بومضة صغيرة من ومضات البشر الذى يخلقه النجاح . وبينما كانت تدير له ظهرها لتنزل حافة القناة المعشوشبة لتذهب حيث تقف صديقتاها نظرت إليه بعينيها الناعستين نظرة رقيقة حالمة .

وحمل « جود » على كتفه سلة الأدوات ثم استأنف سيره فى غمرة من نشاط مفاجىء لم يعرف له مصدرا . والتقط أنفاسا من جو جديد عليه ظل عبيره عالقا به أينما ذهب بعدها وظل كذلك لفترة لم يستطع تحديد مداها بالضبط وإن كان يحس أنه منعزل عن ذلك الجو وكأنه محجوب عنه بلوح من زجاج . أما نواياه فى القراءة وخططه فى العمل والدراسة ، تلك الخطط التى انتهى إليها قبل ذلك بوقت قصير فإنها انهارت الآن انهيارا عجيبا وتراجعت إلى ركن من نفسه تراجعا لا يدرك كنهه .

ــ « لا بأس من ذلك فما هذا سوى أمر بسيط لا يخرج عن كونه مناسبة للتسلية والترويح عن النفس . » قال ذلك محدثا نفسه وهو يحس إحساسا غامضا بأن هنالك نقصا ، أو بالأحرى زيادة فى مجال التكوين الطبيعى لهذه الفتاة ذات التأثير العميق عليه مما ترتب عليه التجاؤه إلى التماس أسباب اللهو والتسلية كمبرر يفسر اهتمامه بها . وأدرك أن ثمة شيئا فيها يتعارض تماما مع ذلك الجانب من نفسه الذى سبق أن وهبه للدراسات الأدبية و « لكرايستمينيستر » حلم حياته الأعظم . لم يكن مصدر هذا الاعتراض شعوره بأصول العفة ومستلزماتها . غير أنه رأى هذا الاعتراض بعقله رأى العين وظل يحس به لحظة قصيرة عابرة كما يحدث أن يلمح المرء فى ضوء مصباح ضعيف بعض الكتابات منقوشة على حائط فى نفس اللحظة التى تسبق انطفاء المصباح وقبل أن يلف الظلام كل شىء . غير أنه سرعان ما اختفى من تفكيره هذا الخاطر الملىء بمصيره ، كما تاهت منه حقائق الأشياء وذلك بمجرد أن أحس ببداية تلك المتعة الجديدة الغامرة ، متعة اكتشافه لمنفذ تخرج منه إنفعالاته العاطفية ، منفذ لم يكن له عهد به من قبل وان كان على قيد أنملة منه فكان عليه أن يذهب لمقابلة ذلك المخلوق المثير من الجنس الآخر فى يوم الأحد التالى .

وفى هذه الأثناء انضمت الفتاة إلى رفيقتيها وانكبت فى صمت على عملها الذى تضمن عمليات الوكز والتكميخ لأمعاء الخنازير فى المياه الجارية للقناة الصغيرة .

وقالت المدعوة « آنى » وكان قولها مقتضبا : « هل وقع فى شباكك صيد أيتها العزيزة ؟ » .

وغمغمت « أرابيلا » تقول فى أسى : « لا أدرى . ليتنى ألقيت عليه شيئا آخر غير ذلك الذى ألقيته . »

— « رباه . إنه ليس بالشخصية الهامة . وان كان من المحتمل أنك تظنين غير ذلك . كان يعمل فى « ميريجرين » على عربة الخبز التى تملكها العجوز « دروزيلا فاولى » وظل هناك إلى أن انتقل إلى « الفردستون » ، ومنذ ذلك الوقت أصبح منهمكا فى القراءة وانشغل بها بصورة دائمة وهو يود أن يلتحق بالجامعة ، إذ هكذا يقولون . »

— « لا يهمنى من يكون أو ما ذا يكون فلا تتركى نفسك نهبا للأفكار يا صغيرتى . »

— « أوه ، حقا ما تقولين ؟ خلى عنك خداعنا . لم إذن ظللت تتحدثين إليه إذا كنت لا تنوين أن توقعيه فى شراكك ؟ وسواء أردت أن تقتنصيه أولم تريدى فإنه بسيط كطفل . رأيت ذلك بعينى رأسى وأنتما تتناجيان على الجسر وظل يتطلع إليك كأنما لم يسبق له أن رأى امرأة فى حياته قط . على أية حال ، فى مقدور أية امرأة أن تستولى عليه بمجرد أن تسلك الطريق الصحيح . »

(٧)

وفى اليوم التالى كان « جود فاولى » يجلس فى غرفة نومه ذات السقف المنحدر وينظر إلى كتبه المكدسة على المائدة أمامه ثم ينقل بصره منها إلى الدائرة السوداء على ملاط الحائط فوقها ، تلك الدائرة التى رسمها لهب المصباح فى الشهور الأخيرة.

كان الوقت بعد ظهر يوم من أيام الآحاد وقد مر على التقائه « بارابيلادون » أربع وعشرون ساعة وخلال الأسبوع المنصرم كله كانت نيته معقودة على

تخصيص هذا الأصيل لغرض معين ألا وهو قراءة الإنجيل باللغة اليونانية مرة أخرى بعد أن حصل على نسخة جديدة تفضل نسخته القديمة طبعا وإخراجا وتسير وفقا لنصوص « جرايس باخ » المعدلة ذات التعليقات والهوامش المحققة . كانت هذه النسخة تملأه زهوا إذ حصل عليها بعد اتصالات متعددة بالناشر فى لندن ، وهى المرة الأولى التى يفعل فيها ذلك .

كان يتوقع متعة كبيرة من وراء قراءته التى خصص لها هذا الأصيل فى بيت عمته تحت سقفه الهادىء كما كان يفعل من قبل وحيث ينام حاليا ليلتين كل أسبوع غير أن شيئا جديدا حدث بالأمس ، شيئا اعترض مجرى حياته المنساب فى هدوء فأحس كما لا بد أن يحس الثعبان عندما ينسلخ عن جسده جلد الشتاء فلا يدرك ما يتميز به جلده الجديد من نضارة وقوة ،

لقد رفض « جود » أن يخرج لملاقاة « أرابيلا » وجلس متكئا على مرفقيه وكتابه مفتوح أمامه ويداه تحيطان بعارضتيه وشرع يقرأ بادئا بأول صحيفة فى الكتاب : « العهد الجديد » .

وهل وعدها بالمرور عليها فى منزلها ؟ وعدها بكل تأكيد . ولسوف تبقى المسكينة فى البيت تنتظره وبذلك يضيع عليها الأصيل كله بسببه هو . إنه يحس أن بها شيئا ما ، يجذبه إليها وذلك غير الوعود فلا ينبغى أن يخسر ثقتها به . وهو وإن كان قد خصص للقراءة أيام الآحاد بطولها وكافة أمسيات الأسبوع عدا مساء الأحد إلا أنه لا شك يستطيع أن يستغنى عن أصيل واحد يخصصه للرياضة والاستمتاع ، وإن كان غيره من الشباب لا يكتفون فى رياضتهم واستمتاعهم بيوم واحد . ثم إنه عقب هذه المرة قد لا يراها ثانية إذ بالتأكيد سيصبح لقاؤهما أمرا متعذرا لو أخذت فى اعتبارها مشروعاته للدراسة .

وباختصار أحس كأن ذراعا هائلة ذات قوة عاتية جبارة أطبقت عليه وحاصرته من كل جانب ، وهو شعور لا يمت بصلة للدوافع والمؤثرات التى اعتاد قبلا أن يستجيب لندائها ويخضع لسلطانها . وبدا له أن هذا الشعور لا يقيم وزنا

كبيرا لعقله وإرادته ولا يأبه لمراميه السامية بل ساقه أمامه كما يسوق المعلم تلميذه الحرون ، ودفعه فى طريق أوصله إلى أحضان امرأة لم يحس نحوها بشىء من الاحترام ، كما خلت حياتها من أى عنصر مشترك مع حياته اللهم إلا وحدة المكان.

لم يعد يهتم « بالعهد الجديد » وما هو مكتوب عنه بل قفز واقفا وعبر الغرفة إلى حيث توجد ملابسه فارتدى أفضلها وسرعان ما غادر البيت وسار فى ممر جانبى يقطع الوادى الوسيع المزروع بالحنطة الذى يقع بين القرية وبيت « أرابيلا » القائم وحده وسط منخفض وراء الهضبة .

وفى أثناء سيره نظر إلى ساعته وقرر أنه يستطيع أن يعود بعد ساعتين على أكثر تقدير وبذلك سيبقى أمامه وقت كاف للقراءة عقب تناوله الشاى .

وبمجرد أن وصل إلى الكوخ الواقع بجوار المجموعة الضعيفة من شجيرات السرخس حيث يلتقى الممر الجانبى بالطريق العام أخذ يسرع الخطى منحرفا إلى اليسار ثم نزل الجانب المنحدر من الوادى متجها إلى الغرب من «البيت الأسمر» .

هنا ، عند بداية الطبقة الطباشيرية ، اقترب من الغدير الذى ينبثق منها وظل يعبر بحذائه المجرى حيث وصل إلى مسكن « أرابيلا » فهبت فى وجهه قادمة من وراء البيت روائح الخنازير وأصواتها المنكرة . ودخل الحديقة وقرع الباب بمقبض عصاه .

لا بد أن شخصا ما لمحه من خلال النافذة إذ أن صوتا يشبه صوت الرجال ارتفع من داخل المنزل يقول :

— « ها قد أتى صديقك ليتودد إليك يا « أرابيلا » فاذهبى إليه يا بنيتى . » واقشعر جسد « جود » لسماعه هذه الكلمات فالتودد فى سبيل الزواج لا يوحى به مظهره ، كما لم يدر بخلده قط أن يأتى وفى نيته أن يتودد لأحد . كل ما كان ينوى عمله هو أن يتمشى معها قليلا ويقبلها . أما التودد فكان بالنسبة إليه أمراً ينطوى على غرض يتعارض وآراءه . وفتح الباب فدخل إلى البيت ، وفى هذه اللحظة

نفسها نزلت « أرابيلا » من أعلى المنزل وهى ترتدى ثوبا جديدا للخروج .

قال الأب وكان رجلا يتفجر حيوية وله سوالف سوداء طويلة :

— « تفضل بالجلوس أيها السيد . ما اسمك ؟ » أما نغمته فى الحديث فكانت النغمة الحادة القوية نفسها التى طرقت سمع « جود » أثناء وقوفه خارج المنزل .

همست « أرابيلا » فى أذن « جود » قائلة : « أرى أن نخرج فى الحال . أليس كذلك ؟ »

قال : « نعم . لنمش سويا حتى نصل إلى «البيت الأسمر» ، ثم نعود، ولن يستغرق ذلك منا أكثر من نصف ساعة » . وبدت « أرابيلا » وسط محيطها المضطرب الخالى من النظام غاية فى الأناقة حتى أن « جود » أحس بالراحة لأنه جاء وفاء لوعـــده .

وهكذا اختفت من نفسه جميع الشكوك التى كانت حتى هذه اللحظة تحاصره وتضيق عليه الخناق .

وبدأ الاثنان سيرهما بالارتقاء إلى الحافة العليا للمنخفض العظيم ، وفى هـذه الأثناء كان يأخذ بيدها معاونا إياها على الصعود ، ثم بعد ذلك اتجها إلى اليسار فى الطريق المحازى لقمة الربوة وســـارا فيه حتى نقطة تقاطعه مع الطريق العام بالقرب من « البيت الأسمر » السابق الذكر ، وهو المكان الذى سبق أن كان شاهدا على ما اختلج فى نفسه من شوقعات لرؤية « كرايستمينيستر » غير أن «جود» نسى كل ذلك الآن وشرع لسانه يشقشق أمام « أرابيلا » بالهذر الرخيص فى حماسة فاقت كل ما كان يحس به لو أنه دخل فى نقاش فلسفى مع أقطاب الفكر فى الجامعة التى خلبت لبه واستحوذت على إعجابه فى الفترة الأخيرة . وفى غضون حديثه المتحمس مع « أرابيلا » جاوز البقعة التى سبق أن جثا فيها على ركبتيه احتراما « لديانا » و « فينوس » دون أن يذكر أن ثمة أناسا كهؤلاء فى الأسطورة القديمة وأن الشمس ليست إلا مصباحا نافعا يستخدم فى إزالة طبقات الظلام عن وجه « أرابيلا » .

سار فى صحبة « أرابيلا » وساعده على السير خفة فى جسده لا يمكن وصفها .
هكذا أحس طالب العلم الناشىء وعالم اللاهوت المرجى وأستاذ المستقبل المرتقب، ذلك الذى كان يعد نفسه ليكون أسقفا وغير ذلك من مناصب العلم والدين .
أحس بأن شرفا عظيما لحقه ومجدا مؤثلا أصابه من جراء ما أبدته تلك الفتاة الريفية الجميلة من موافقة على أن تصحبه فى مسيرة قصيرة ترتدى فى أثنائها ثياب الأحد ، على ما لهذه الموافقة من تفضل كبير وتنازل ما بعده تنازل .

وفى أثناء سيرهما بلغا مخزن الحبوب الملحق « بالبيت الأسمر » ، وهنا كان ينوى أن يعود أدراجه ولكنهما ، بينما كانا يتطلعان من تلك البقعة إلى الوادى العلوى المنبسط أمامهما ، استرعى انتباههما عامود من الدخان الأسود الكثيف صادر عن محيط المدينة الصغيرة التى تقع تحتهما على بعد ميلين تقريبا .

قالت « أرابيلا » : هذا حريق فلنجر لنتفرج . هيا بنا فالمكان ليس ببعيد . »

وكان الحنان الذى نما الآن فجأة بين ضلوعه لم يترك له أية إرادة تمكنه من الوقوف فى وجه رغبتها التى ارتاح إليها لأنها أمدته بسبب البقاء معها مدة أطول فقاما فى سرعة وأخذا ينزلان المنحدر جريا ولكنهما عندما وصلا إلى الأرض المستوية فى قاع الوادى وقطعا فى سيرهما مسافة ليست بالقصيرة اكتشفا أن البقعة التى بها الحريق تقع على مسافة أبعد مما تراءى لهما .

ومع ذلك ، استمرا فى سيرهما ولكنهما لم يصلا إلى البقعة المرجوة إلا قبيل الخامسة إذ أوفت المسافة على ستة أميال من « ميريجرين » وثلاثة من بيت « أرابيلا » . وفى اللحظة التى وصلا فيها إلى مكان الحريق كانت النار قد اخمدت . وبعد أن أمضيا وقتا قصيرا فى مكان الحادث عادا من حيث أتيا وكان طريقهما هذه المرة وسط مدينة « الفردستون » .

قالت « أرابيلا » إنها تريد أن تشرب شيئا من الشاى فدخلا إلى نزل شعبي

على الطريق وطلبا ما أرادا . ولما كان ما طلباه هو الشاى وليس البيرة — كان عليهما أن ينتظرا وقتا طويلا ، وفى غضون ذلك تعرفت خادمة النزل على «جود» وهمست بذلك إلى سيدتها الواقفة إلى الخلف مبدية دهشتها إذ أن شخصا «كجود» معروفا بحب العلم والدراسة ، شخصا ظل على حد قولها فى «مستوى عال من الامتياز» يمكن أن يهبط فجأة إلى مستوى « أرابيلا » فيخرج معها ويجالسها . أدركت « أرابيلا » ما يدور أمامها فعندما وقعت عيناها على النظرة الجادة المفعمة بالميل والانعطاف فى عينى رفيقها أطلقت ضحكة منخفضة تدل على فرحة الانتصار الذى يملأ قلب المرأة المستهترة عندما ترى أنها تلعب لعبتها بنجاح .

جلس الاثنان سويا وأخذا يتلفتان حولهما فى الغرفة ويتطلعان إلى صورة شمشون ودليلة المعلقة أمامهما على الجدار ، ويتأملان الدوائر الواضحة على غطاء المائدة من أثر أكواب البيرة ، وينظران إلى المباصق أسفل الموائد وإلى ما يملأ هذه المباصق من نشارة الخشب . كان للمنظر بكلياته وجزئياته أثر مقبض وهو الأثر الذى يخلفه فى نفسه عدد قليل من الأماكن من بينها الحانات وخاصة فى أمسيات الآحاد عندما تتسلل إليها أشعة الشمس الغاربة ويتوقف فيها تقديم الخمر فيضطر عابر السبيل المسكين إلى الجلوس فيها دون أن يفعل شيئا فما من ملجأ آخر يأوى إليه .

وبدأ النهار ينصرم والظلام ينتشر ولم يستطيعا أن ينتظرا الشاى أكثر من ذلك وقال « جود » : « ما الذى يمكن أن نعمله الآن وأمامنا مسيرة ثلاثة أميال ؟ . »

قالت « أرابيلا » : « فى مقدورنا أن نطلب قليلا من البيرة على ما أظن . »

— « بيرة ! أوه ، حقا . لقد نسيت ذلك تماماً . إنه لمن غير اللائق أن نجىء إلى مشرب عام مخصص للبيرة فى مساء يوم من أيام الآحاد . »

— « ولكننا لم نفعل ذلك ، »

— « لا . إننا لم نفعل ذلك . »

وفى هذه اللحظة تمنى لو أنه ابتعد عن هذا المكان غير المناسب ولكنه مع ذلك صاح يطلب البيرة وفى الحال أحضرت إليه .

رفعت « أرابيلا » كوب الشراب وذاقت ما بداخله فبدا عليها التأفف . عندئذ . شرب « جود » قليلا وقال : « ما خطبها ؟ ما عدت أفهم فى أنواع البيرة كثيرا . أحبها حقاً ولكنى لا أشربها ذ أثناء القراءة بل أفضل عليها القهوة . على أى حال لا بأس بها على الإطلاق . . »

— « هذه البيرة مغشوشة . لا أستطيع أن أقربها » ، ثم ذكرت « أرابيلا » أسماء ثلاثة أو أربعة عناصر تضاف عادة إلى شعير البيرة وحشيشة الدينار مما أثار دهشته وعجبه الشديد .

قال « جود » فى لهجة مرحة : « ما أكثر ما تعرفين . » وعلى الرغم من ذلك ، عادت « أرابيلا » إلى كأس الشراب وشربته عن آخره وبعدها استأنفا السير . كان الظلام قد خيم على كل شيء ، وبمجرد أن خرجا عن نطاق المدينة أخذا يسيران وزاد التصاقهما ببعضهما ، وعجبت « أرابيلا » فى نفسها لأنه لم يحط خصرها بذراعه ، ولكنه لم يفعل بل قال ما خيل إليه أنه أمر ينطوى على كثير من الجرأة والإقدام . قال : « امسكى بذراعى . . »

تناولت « أرابيلا » ذراع « جود » وأمسكت به إمساكا كاملا حتى نهاية الكتف ، وأحس « جود » بحرارة جسدها وبعد أن وضع عصاته تحت ذراعه الأخرى ، أمسك بيمينه يمناها مسكة طبيعية .

قال : « إننا الآن على خير ما يرام أيتها العزيزة . أليس الأمر كذلك ؟ »

قالت : « نعم . » ثم أضافت وكأنها تقول هذه المرة لنفسها : « ولكنك لين بعض الشيء . . »

فى تلك اللحظة كان « جود » يقول فى نفسه : « كم كنت متعجلا ! » هكذا سار الاثنان حتى وصلا إلى سفح الهضبة حيث استطاعا أن يشاهدا معالم الطريق

الأبيض وهو يمتد أمامهما خلال الظلام المتكاثف . من هذه البقعة كان الطريق الوحيد الموصل إلى بيت « أرابيلا » يمر بأعلى المنحدر ثم ينزل ثانيـــة إلى قاع الوادى . وقبل أن يسير الاثنان فى الطريق صعدا وكادا يصطدمان برجلين يسيران فوق الحشائش دون أن يراهما أحد . قال أحد الرجلين وهما ينزلان التل : « أف لهؤلاء العشاق . إن المرء ليقابلهم هائمين على وجوههم فى العراء فى كافة فصول السنة وكل الأجواء فليس غير العشاق والكلاب الضالة . »

ابتسمت « أرابيلا » ابتسامة باهتة .

قال « جود » : « وهل نحن عشاق ؟ »

— « أنت الذى تعرف . »

— « ولكن هل يمكنك أن تخبرنى ؟ »

ومالت «أرابيلا» برأسها على كتفه كأنها تمنحه الجواب على سؤاله. واستجاب « جود » لاشارتها فوضع ذراعه حول خصرها ثم جذبها نحوه وقبلها .

سار الاثنان سويا ولم يكن سيرهما ذراعا بذراع بل وفقا لرغبتها عناقا فى عناق. قال « جود » فى نفسه : « على أية حال ، ما الذى يهم طالما أن الظلام يسود المكان. » وعندما أصبح الاثنان فى منتصف الطريق الصاعد إلى قمة التل توقفا عن السير كما لو أنهما اتفقا على ذلك وشرع يقبلها ثانية . أخيرا وصل إلى القمة وهنا قبلها مرة أخرى .

قالت فى رقة : « فى مقدورك أن تترك ذراعك كما هو لو كان هذا يعجبك . »

وفعل ذلك وهو يفكر فى مدى ثقتها به .

على هذا المنوال سار الاثنان متجهين إلى حيث تسكن ، وكان هو قد ترك مسكنه فى الثالثة والنصف وفى عزمه أن يعود إلى بيته فى الخامسة والنصف حيث يستأنف قراءة « العهد الجديد » .

وعندما وقف أمام بيتها يودعها بقبلة ، كانت الساعة قد أشرفت على التاسعة. دعته إلى الدخول ولو لدقيقة واحدة إذ بدون ذلك كان الأمر لا بد أن يبدو شاذا غريبا ، كما لو كانت قد خرجت فى الظلام وحيدة ، فنزل على إرادتها ودخل المنزل وراءها . وبمجرد أن فتحت الباب وجدت ، بالإضافة إلى والديها ، عددا من أهل الحى يجلسون فى الغرفة فتحدث الجميع إليهما فى لهجة تنم عن التهنئة والتبريك فقد اعتبر الموجودون « جود » خطيبا « لأرابيلا » .

ولما لم يكن الحاضرون من الذين يمتون بصلة إلى مجتمعه وطبقته ، فقد أحس بالضيق لأنه غريب عنهم . لم يكن هذا فى حسبانه بل كان كل ما قصد إليه أن يمضى مع « أرابيلا » أصيلا يمتع النفس فيه بلذة السير معها ومصاحبتها .

لم يطل البقاء معهم أكثر مما يستغرقه الحديث القصير مع زوجة أبيها ، وكانت امرأة هادئة المظهر لا يبدو عليها أن لها قدرا من الشخصية كما لا يبدو عليها أن لها ملامح تكشف عن طبيعتها وتبين اتجاهاتها فى الحياة . وبعد أن ألقى على الجميع تحية المساء ، خرج إلى الطريق الموصل إلى المنحدر ، وهو يحس بالراحة لمغادرته المكان . غير أن هذا الإحساس بالراحة الذى غمر نفسه منذ لحظة لم يلبث أن زايلها إذ سرعان ما استعادت سلطانها عليه ، ومشى فى الطريق وهو يحس كما لو كان شخصا آخر ، يختلف تمام الاختلاف عن « جود » الأمس ، هو الذى يسير الآن . ماذا كانت كتبه بالنسبة إليه ؟ ماذا كانت نواياه وخططه التى ظل أمينا عليها حريصا على تنفيذها حتى هذه اللحظة بالنسبة إليه ؟ كانت جميعها مضيعة للوقت . والأمر على كل حال يتوقف على رأيك فى تحديد ذلك . وأحس للمرة الأولى فى حياته أنه يعيش فى الدنيا وأنه لا يضيع حياته سدى . من الأفضل له أن يحب امرأة لا أن يتخرج فى جامعة أو يصبح قسيسا حتى ولا بطريقا .

وعندما عاد إلى البيت كانت عمته قد آوت إلى فراشها وأحس كأن شعورا عاما بتفريطه وإهماله ارتسم على جميع الأشياء التى واجهته فصعد إلى أعلى المنزل دون أن يحمل معه نورا ، وعندما دخل إلى غرفته انقبضت نفسه وزادها الظلام

حزنا إذ رأى كتابه ملقى فى مكانه مفتوحا كما تركه قبل مغادرة البيت ، وخيل إليه أن الحروف الكبيرة التى يتكون منها عنوان الكتاب تنظر إليه فى الضوء الضعيف الذى ترسله النجوم إلى داخل الغرفة عاتبة ومؤنبة . كانت الكلمات كعينى جسد دب فيه الموت ولاتزالان مفتوحتين .

« العهـــد الجديد »

كان عليه أن يرحل فى الصباح التالى مبكرا ليبقى أسبوعا بعيدا عن منزل عمته كما تعود أن يفعل . لقد كان الشعور الذى راوده عندما ألقى بالكتاب الذى لم يتم قراءته داخل سلة أدواته هو شعور التفاهة ، شعور الضياع والعدم .

لقد أبقى « جود » مغامراته العاطفية سرا حتى على نفسه ، بينما على العكس من ذلك أخذت « أرابيلا » تذيع تفاصيلها على كل أصدقائها ومعارفها .

وفى ضوء الفجر أخذ يسير فى نفس الطريق الذى قطعه فى الظلام قبل ذلك ببضع ساعات وبجانبه محبوبته . سار حتى وصل إلى التل وهنا أخذ يمشى فى بطء ثم توقف عن المسير .

فى هذه البقعة بالذات قبلها القبلة الأولى . ولما كانت الشمس لم يمض على بزوغها وقت طويل ، فمن المحتمل أنه ما من أحد مر فى ذلك الطريق منذ أن سارا فيه سويا . نظر إلى الأرض عند قدميه ثم أخرج من صدره آهة طويلة . وعندما أمعن النظر استطاع أن يميز فى التراب المبتل بندى الصباح آثار أقدامهما عندما احتضن كل منهما الآخر فى قوة ورغبة . أما هى فلم تكن هناك الآن فتولى خياله رسم صورتها على أديم الأرض بدقة تحاكى دقة المطرزات . وبرز وجودها السابق أمامه بينما أحس هو بفراغ هائل فى قلبه لايقوى أى شىء على أن يملأه . وبالقرب من المكان رأى صفصافة مبتورة الرأس تختلف عن كافة الصفصافات فى العالم . قد تكون أحب رغباته إلى نفسه فى تلك الساعة وأقواها تأثيرا عليه ، هى أن تزول من الوجود وتتلاشى كلية الأيام الستة التى لا بد أن تمضى قبل أن يراها مرة أخرى لو قدر له أن يعيش حتى الأسبوع التالى .

وعقب هذا بساعة ونصف أقبلت « أرابيلا » فى صحبة زميلتيها اللتين شوهدتا معها يوم السبت السابق على المقابلة . مرت الفتيات الثلاث بمسرح القبلة وبالصفصافة التى كانت الشاهد الوحيد على ما حدث بينهما دون أن تعير «أرابيلا» أيا منهما التفاتا ، وإن كان لسانها لم يكف لحظة عن التحدث إلى زميلتيها فى نفس هذا الموضوع .

« وماذا قال لك بعد ذلك ؟ »

« بعد ذلك قال — وأخذت « أرابيلا » تعيد أمامهما كلمة كلمة كل ما قاله « جود » لها وهو فى غمرة انفعالاته العاطفية ولو كان فى هذه اللحظة يسترق السمع من وراء السياج لاستولت عليه الدهشة وملأه العجب لأن قدرا قليلا للغاية مما فعل وقال فى تلك الليلة اعتبرته «أرابيلا» من أموره الخاصة التى ينبغى أن تحجبها عن الآخرين .

قالت « آنى » فى بهجة غير مفهومة : « نجحت فى أن تجعليه يهتم بك ولو بقدر ضئيل . كنت ألعنك لو لم تحققى هذا القدر من النجاح . ما أجمل أن يكون المرء مثلك » .

وبعد لحظة قالت « أرابيلا » فى صوت خفيض تنم نغماته عن أحاسيس جنسية مستورة: « نعم . نجحت فى أن أجعله يهتم بى . ولكننى أريد منه أكثر من ذلك. أريد منه أن يتزوجنى . لابد أن أمتلكه ولا يمكن أن أعيش بدونه إذ أنه من الرجال الذين يحظون بإعجابى وأتطلع إليهم فى اشتياق . سأفقد عقلى لو لم أهبه نفسى . عندما رأيته لأول مرة أحسست بأننى لا بد أن أفعل ذلك »

— « لو كان كما تقولين شابا مستقيما أمينا فلا بد لك من أن تستولى عليه وتتخذى منه زوجا لك ، ويتحقق ذلك لو شرعت فى اصطياده بالطريقة السليمة . »

وبقيت « أرابيلا » تفكر لحظة ثم قالت : « وما هى تلك الطريقه السليمة ؟ »

قالت سارة ، الفتاة الثالثة : « عجبا . لست على علم ؟ » .

— « أؤكد لك أننى لا أعلم . — غاية على فى هذا الشأن أن الفتيات عادة يسمحن بقدر بسيط من الملاعبة والغزل ولا يتركن فتيانهن يتمادون فى ذلك . »

نظرت الفتاة الثالثة إلى الثانية وقالت : « ياللعجب . إنها لا تعلم ! »

— « وهذا علما بأنك ولدت ودرجت فى مدينة كبيرة . حسنا . لا بأس من أن نعلمك شيئا ولو قليلا ، و نأمل أن تفعلى أنت نفس الشىء معنا . »

— « وما الذى تقصدانه بقولكما الطريقة الفعالة للظفر برجل ؟ هل تظنان أننى من السذاجة بحيث لا أعرف ما ترميان إليه ؟ » .

— « أقصد أن تظفرى بزوج » .

— « إن شخصا مثله ذا شخصية متزنة وعقل كبير ، ما هو بالجندى وما هو بالبحار وما هو بالعامل البسيط ، وما هو بالشخص الذى يستغل ضعف النساء لا يستحق أن يعامل بالطريقة التى تفكران بها ، حاشا لى أن أكون سببا فى الإضرار بمثل هذا الصديق » .

— « حسنا . ولكن مع شخص كهذا طبعا لا . . . »

نظرت الفتاتان كل منهما إلى الأخرى وأخذتا تتبادلان الضحك وتديران عيونهما فى حركات مازحة لاعبة ثم اقتربت أحداهما من « أرابيلا » وأسرت إليها بشىء وإن لم يكن بالقرب منهما غريب ، بينما ظلت الفتاة الأخرى ترقب فى لهفة وجه « أرابيلا » وما يبدو عليه من تعبير .

قالت « أرابيلا » فى ضعف وتراخ : « آه ... من المحتمل أننى لم أنظر إلى المسألة من هذه الزاوية . ولكن لنفرض أنه ليس جادا فى نواياه ؟ ألا يجدر بالمرأة أن تنأى بنفسها عن مثل هذا المصير ؟ »

— « لو أردت أن تفوزى بشىء ذى قيمة لا بد لك من المغامرة . وبالإضافة

إلى ذلك لا بد لك قبل أن تفعلى شيئاً أن تتحقق من أنه جاد فى مطلبه ومن أنه على خلق . اعتقد أنك فى صحبة مثل هذا الرجل ستكونين فى مأمن من كل ضرر . ليت الفرصة واتتنى ! إن عدداً كبيراً من الفتيات يفعلن ذلك وإلا ما تزوجن على الإطلاق . »

وسارت « أرابيلا » فى طريقها وهى غارقة فى تفكير صامت وهمست تقول لنفسها : « سأجرب معه هذه الطريقة . »

(٨)

وفى عطلة نهاية الأسبوع كان « جود » كعادته يسير فى الطريق الموصل إلى بيت عمته فى « ميريجرين » وكان قادماً من مسكنه فى « الفردستون » . لقد أصبح لهذه الرحلة الآن سحرها الخاص بالنسبة إليه إذ لم تقتصر أغراضها على مجرد رؤية قريبته العجوز العابسة . وقبل أن يرتقى التل انحرف جهة اليمين آملاً أن يحظى من « أرابيلا » بنظرة قد لا تدخل فى حساب المقابلات والمواعيد المتفق عليها . وقبل أن يصل إلى حيث تقيم لاحظت عيناه اليقظتان قمة رأسها وهى تتمشى خلف سياج حديقة بيتها . وعندما دخل إلى البيت وجد أن ثلاثة خنازير صغيرة قفزت من فوق الحظيرة وهربت بينما وقفت « أرابيلا » تحاول وحدها أن تعيدها إلى مكانها الأول بعد أن فتحت باب الحظيرة على مصراعيه . وعندما وقع نظر أرابيلا » على « جود » رقت ملامح وجهها ولانت خطوطه وتراخت عيناها أمامه فى رقة ودلال ، وفى أثناء لحظة السكون التى أعقبت ذلك شقت الخنازير الثلاثة طريقها وخرجت من الحديقة .

قالت « أرابيلا » فى صوت عال وهى تتظاهر بالهدوء والسكينة على الرغم من وجود من تحب : « أدخلت هذه الخنازير إلى الحظيرة هذا الصباح فقط إذ جاءوا بها من مزرعة « سبادلهولت » بالأمس حيث اشتراها أبى بثمن مرتفع وهى تود العودة إلى هناك . يالها من مخلوقات غبية ! هلا أغلقت باب الحديقة وساعدتنى على

إعادتها إلى مكانها ؟ ما من أحد فى البيت خلاف أمى العجوز وسنفقد هذه الخنازير لو لم نبذل مجهودا كبيرا كى نعيدها إلى مكانها فى الحظيرة ».

تقدم « جود » للمعاونة فى إعادة الخنازير إلى مكانها وأخذ يركض هنا وهناك وسط حقول البطاطس والكرمب ، وأحيانا كان هو و « أرابيلا » يتلاقيان أثناء الركض . وبعد جهد جهيد تمكن الاثنان من إعادة الخنزير الأول ، ثم نجحا فى إعادة الثانى بعد جهد أكبر . أما الخنزير الثالث ، وكان ذا ساقين طويلين كما كان عنيد الطبع ، سريع الحركة فإنه تسلل من فتحة فى سياج الحديقة وخرج إلى الطريق .

قالت « أرابيلا » : «سيضيع حتما لو لم نركض وراءه . تعال معى لنلحق به».

اندفعت « أرابيلا » بقوة خارج الحديقة وبجوارها « جود » وبذلت جهداً كبيرا حتى لا يختفى الخنزير عن أبصارهما وأخذ الاثنان يصرخان على نفر من المارة لوقف الحيوان الشارد ، ولكنه كان دائما يتخلص من مطارديه .

قال « جود » : «دعينى آخذ بيدك ياعزيزتى فقد تعبت من الجرى ».

وفى رضاء كامل مدت إليه يدها ، وكانت الآن حارة بتأثير ما بذلت من جهد فى أثناء الركض .

سار الاثنان سويا وكان سيرهما خببا .

قالت « أرابيلا » ، « تعرف هذه الحيوانات الطريق الذى جاءت منه ، وهى تفعل ذلك كلما سنحت لها الفرصة ، لذا ينبغى أن تنقل بواسطة العربات » .

فى هذه اللحظة كان الخنزير قد وصل إلى الوادى المفتوح حيث راح يركض بكل ما وهبته ساقاه الصغيرتان من خفة وسرعة . وبمجرد أن وصل « جود » و « أرابيلا » إلى قمة الهضبة ، أصبح من الواضح أمامها أنه لامناص من أن يقطعا الطريق ركضا إلى بيت المزارع الذى جاء منه هذا الحيوان . هذا لو أرادا أن يظفرا به مرة أخرى . ومن مكانهما العالى شاهدا الخنزير فى بطن الوادى وكان

يشبه نقطة صغيرة تتحرك فى خط مستقيم وتتجه إلى بيت صغير قديم يقع فى أقصى الوادى .

صاحت « أرابيلا » تقول : « لافائدة من الركض الآن إذ سيصل إلى هناك قبلنا وعلى ذلك فلننصرف النظر عنه طالما تأكدنا من أنه لم يسرق ولم يفقد فى الطريق إلى هناك . سيعرف القوم هناك ماحدث ، وبالتالى سوف يرسلونه إلينا. أوه يا عزيزى « جود » كم أشعر بحرارة الجو » .

وبدون أن تخفف قبضتها على يده استدارت جانبا وألقت بنفسها على الأرض المغطاة بالشوك وفى نفس اللحظة جذبته إليها فسقط على ركبتيه .

— « أستميحك العذر فقد كدت أن ألقى بك إلى الأرض . أليس كذلك؟ إننى فى غاية التعب . »

تمددت « أرابيلا » بجسدها المستقيم كسهم على أديم التل المنحدر وهى تطيل النظر إلى السماء المنبسطة فوقها وكانت يدها الحارة تقبض على يد « جود » فمال على مرفقيه بجوارها .

استمرت « أرابيلا » تقول : « ركضنا كل هذا الطريق دون جدوى . » قالت ذلك بينما جسدها يخفق فى نبضات سريعـــة متلاحقة واحتقن وجهها وانفرجت شفتاها الحمراوان الممتلئتان وتغطى جلدها بقطرات صغيرة من العرق .

قال « جود » : والآن ، لم لا تتحدثين يا عزيزتى ؟ »

— « نقطعت أنفاسى من الجرى . إننا قطعنا الطريق إلى أعلى التل ركضا . »

كان الاثنان فى خلوة كاملة ، خلوة تتميز بالوضوح التام وتتسم بالفراغ الشامل ولا يمكن أن يقترب منهما مخلوق دون أن يرياه وهو ما زال منهما على مسافة . كانا فوق قمة من القمم العاليـــة فى المنطقة والمروج الفسيحة البعيدة المحيطة « بسكرايستمينيستر » تلوح لهما عن بعد ، وما كان « جود » يفكر فى ذلك فى تلك اللحظة .

قالت « أرابيلا » : « أرى فوق هذه الشجرة شيئا صغيرا لطيفا . إنها حشرة زاحفة ذات ألوان خضراء وصفراء من أجمل ما يرى . »

نهض جالسا وقال : « أين هى ؟ » .

— قالت : « لا تستطيع أن تراها » من مكانك . يجب أن تأتى إلى هنا .

انحنى « « جود » ومد رقبته إلى الأمام ثم قال : « لا أستطيع أن أراها » ، وجذبته « أرابيلا » إلى جوارها فى رفق وهى تقول : « انظر إلى غصن الشجرة حيث يتفرع . إنها هناك بالقرب من الأوراق المهتزة . »

قال والجزء الخلفى من رأسه ملتصق بخدها :

« إننى لا أراها الآن . ولكننى سأراها حتما لو وقفت على قدمى » . وفى الحال نهض على قدميه ووضع نفسه فى خط مستقيم مع اتجاه بصرها .

قالت « أرابيلا » فى غضب وقد أشاحت بوجهها عنه : « يالك من غبى . »

قال وهو ينظر إليها من عل : لا يهمنى كثيراً أن أراها أيتها العزيزة ، وليست بى حاجة إلى ذلك . هيا انهضى . »

— « ولم ؟ »

— « أود أن أقبلك ولقد انتظرت ذلك طويلا . »

استدارت « أرابيلا » بوجهها إلى ناحيته وظلت لحظة ترمقه من طرف خفى، ثم همت واقفة وعلى شفتيها غضبة خفيفة وقالت فى اقتضاب :

« لابد أن أعود الآن » .

ومضت مسرعة فى الطريق إلى بيتها ومن ورائها « جود » .

قال الفتى متوسلا : « قبلة واحدة فقط . »

قالت : « لا . لن أسمح لك بذلك . »

قال « جود » فى دهشة : « ما الذى حدث ؟ »

ظلت شفتاها متقوستين من الغضب وسار « جود » وراءها كحمل أليف إلى أن أبطأت فى سيرها فمشت بجواره وهى تتحدث إليه فى هدوء فى موضوعات مختلفة وتنهره كلما حاول الإمساك بيدها أو التشبث بخصرها . هكذا نزل الاثنان التل وسارا فى الفضاء المجاور لمنزل أبيها فدخلت بعد أن أومأت له برأسها مودعة إياه فى حركة تدل على تعال مهين له .

قال « جود » يحدث نفسه وهو ينسحب من حضرتها فى حزن متجها نحو الطريق المؤدى إلى « ميريجرين » : « أعتقد أننى تصرفت معها بحرية أكثر مما ينبغى . »

وفى صباح الأحد التالى كان بيت « أرابيلا » ، كما هو العادة مسرحا لحفل كبير يعقد كل أسبوع ويعد فيه عشاء خاص . فى تلك اللحظة كان أبوها أمام مرآة صغيرة مدلاة من سياج النافذة يقوم بحلق عارضيه بينما تجلس « أرابيلا » وأمها على مقربة منه وهما يقومان بإعداد نبات الفول وتجهيزه للطهو . فى تلك اللحظة مرت جارة للأسرة وكانت فى طريقها إلى بيتها عائدة من قداس الصباح . وعندما رأت تلك الجارة السيد «دون» بجوار النافذة أومأت إليه برأسها محيية ثم دخلت المنزل.

وسرعان ما تحدثت الضيفة مع « أرابيلا » فى لهجة مرحة فقالت :

« رأيتك تركضين مع أحد الفتيان . هيء — هيء — هل ثمة أمل فى أن ينتهى هذا إلى شيء ؟ » .

ودون أن ترفع « أرابيلا » رأسها ، رمقتها بنظرة تنم عن إدراكها لما قصدت إليه تلك المرأة .

— « بلغنى أنه سيقصد « كرايستمينيستر » بمجرد سنوح الفرصة . »

قالت « أرابيلا » وهى تتنفس كالنمرة الغاضبة : وهل سمعت ذلك مؤخرا ؟ »

— « أوه ، لا . ولكن الجميع يعرفون عنه ذلك وتلك خطته . إنه هنا باق

حتى يجد الوسيلة التى توصله إلى هناك . وإلى أن يتحقق له هذا لابد له من أن يتجول فى صحبة شخص ما . إن شباب اليوم لا يوثق بهم كثيرا وهم يفضلون أن يكونوا كالطيور التى تنتقل من غصن إلى غصن . ما كانت الأمور كذلك فى أيام شبابى » .

وعندما رحلت الثرثارة قالت « أرابيلا » لأمها فجأة « أريد منك أن تذهبى مع أبى هذا المساء عقب تناول الشاى لزيارة أسرة « ادلين » والسؤال عن الأحوال هناك . ولكن ، لا ، هناك قداس المساء فى كنيسة « فينزوورث » ويمكنكما أن تذهبا إليه . »

— « حقا ؟ وماذا تخبئين لهذا المساء . »

— « لاشىء ، لاشىء . كل ما فى الأمر أننى أود أن أكون وحدى فى البيت ، فهو خجول ولا يمكن أن أدعوه للدخول وأنتما هنا . سيفلت من بين أصابعى لولم أصطنع الحذر فى معاملته وإنى لأحس نحوه باهتمام كبير . »

— « سنذهب طالما أن هذه رغبتك . هذا لو كان الطقس جميلا . »

وعند الأصيل التقت « أرابيلا » « بجود » وتمشت معه وكان قد مضت عليه الآن أسابيع دون أن يفتح كتابا فى اللغة اليونانية أو اللاتينية أو فى أية لغة أخرى . وأخذ الاثنان يتجولان ويجوبان المنحدرات حتى وصلا إلى الممر المغطى بالعشب الأخضر الواقع بحذاء الجرف فسارا فيه إلى السد الدائرى الذى بناه البريتون القدماء . فأخذ « جود » يفكر فى السنين التى مرت على هذا السد وفى الرعاة الذين مروا به منذ إنشائه ، وقد يكون ذلك قد حدث قبل مجىء الرومان إلى هذه البلاد ، ومن الوديان المنبسطة تحتهما ارتفعت إليهما أصوات أجراس الكنائس وسرعان ما توحدت هذه الأصوات جميعها فى نغمة واحدة سريعة ولم تلبث أن توقفت .

قالت « أرابيلا » بعد أن أصغت إلى دقات الأجراس : « والآن لابد أن نعود أدراجنا . » .

وافق « جود » على ذلك إذ طالما أنه قريب منها لا يأبه كثيرا للمكان الذى هو

فيه ، وعندما وصلا إلى حيث تسكن قال : « لا لن أدخل . لم أنت فى عجلة للدخول هذه الليلة ولم يخيم الظلام بعد ؟ »

قالت « انتظر لحظة » . ثم حاولت أن تفتح الباب ولكنها وجدته موصدا بالمفتاح .

قالت : « آه لقد ذهبا إلى الكنيسة . » وبعد أن فتشت عن المفتاح خلف ممسحة الأحذية عثرت عليه وقامت بفتح الباب وهى تسأله فى رقة :

— « والآن ، هلا دخلت لحظة ؟ سنكون وحدنا تماما ، »

قال فى ابتهاج : « سأدخل بكل تأكيد . »

كان الموقف الآن قد تغير تغيراً غير متوقع .

دخل الاثنان المنزل وسألته «أرابيلا» عما إذا كان فى حاجة إلى قليل من الشاى واعتذر عن ذلك لتأخر الوقت وقال إنه يفضل أن يجلس ويتحدث إليها . خلعت «أرابيلا» سترتها وقبعتها وجلس الاثنان بجوار بعضهما البعض جلسة طبيعية تماما .

قالت فى صوت ناعم : « لا تمسنى أرجوك . فإنى أخشى على قشرة البيض . الأفضل أن أضعها فى مكان أمين . » وبدأت تحل رباط ياقة ثوبها .

قال الفتى المحب : « ماذا عندك ؟ »

— « معى بيضة . إنها بيضة دجاجة من نوع ممتاز . إننى أقوم بتفريخ نوع من الدجاج نادر للغاية وإنى أحمل البيضة معى فى كل مكان وستفرخ فى أقل من ثلاثة أسابيع .

— « وأين تحملينها ؟ »

— « هنا » قالت ذلك وهى تضع يدها على صدرها وتخرج البيضة وكانت ملفوفة فى قطعة من الصوف ومن فوقها قطعة من جلد الخنزير وقاية لها من الكسر .

وبعد أن أرتها له أعادتها إلى مكانها من صدرها وهى تقول : « والآن احذر الاقتراب منى إذ أننى لا أريد أن أعرضها للكسر وعند ذلك أبدأ هذا الأمر مرة أخرى .

— ولم تقومين بهذه الأفعال الغريبة ؟

— « هذه عادة قديمة وأعتقد أنه من الأمور الطبيعية للمرأة أن تخرج إلى الدنيا أشياء حية . »

قال وهو يضحك : « هذا شىء يحرجنى كثيرا » .

— « هذا ما تستحقه ، والآن ، لن تنال منى أكثر من ذلك » .

استدارت حول مقعدها ثم قدمت له خدها فى رفق وحذر .

— « ليس هذا بالشىء الجميل » .

— « كان يجدر بك أن تظفر بى منذ لحظة عندما كنت لا أحمل البيضة » .
ثم أردفت تقول فى تحد : « إنى بدونها الآن » . سحبت البيضة من صدرها مرة أخرى وقبل أن يصل إليها أرجعتها إلى صدرها وهى تضحك فرحة بهذه اللعبة الجديدة . لقد نشب بين الاثنين صراع قصير انتهى بأن دس يده فى صدرها وأخرج البيضة فاحمر وجهها خجلا ، وهنا أحس هو الآخر بحرج الموقف فاضطرب لذلك أشد الاضطراب .

ظل الاثنان ينظران إلى بعضهما البعض وهما يلهثان ثم وقف وهو يقول : — « أعطنى قبلة واحدة » . أستطيع الآن أن أقبلك دون أن أسبب إتلافا لممتلكات الغير . « أعطنى قبلة ثم أذهب » .

ولكنها قفزت واقفة هى الأخرى وصاحت تقول : « عليك أن تمسك بى أولا » ، جرى وراءها وكان الجانب الداخلى من الغرفة مظلما . ولما كانت النافذة صغيرة ولا تسمح بدخول ضوء كاف لم يستطع أن يكتشف ماذا حل « بأرابيلا » حتى سمع ضحكها وهنا أدرك أنها ارتقت السلم فاندفع وراءها .

(٩)

مضى شهران فى اثنائهما تقابل الاثنان بانتظام ولم تكن ارابيلا راضية تماماً عما يجرى بينهما فهى دائماً فريسة لخيالات تتوقع وتتعجب .

وذات يوم قابلت « ارابيلا » الطبيب المتجول « فلبرت » وكغيرها من سكان الأكواخ القاطنين فى تلك المنطقة ، كان « فلبرت » معروفا لديها جيدا فبدأت تحدثه عن تجاربها وهى منقبضة النفس . ولكنها سرعان ما أصبحت منشرحة الصدر وكان ذلك عقب رحيله عنها مباشرة . فى ذلك المساء كانت « ارابيلا » على موعد مع « جود » الذى جاء وكان يبدو مهموماً .

قال لها : « إنى راحل . أظن أنه ينبغى على أن أرحل الآن . من الخير لكلينا أن ننفصل . ليت ما حدث بيننا لم يكن ! أعرف أنى المسئول عما حدث ولكن إصلاح ما فسد لا تزال فرصته باقية . »

وبدأت « ارابيلا » تجهش بالبكاء وتقول : « من أين لك العلم بأن فرصة إصلاح ما فسد لم تضع نهائيا ؟ الكلام سهل والفعل أصعب . إننى لم أخبرك بكل شىء بعد . » قالت ذلك وهى تنظر فى وجهه والدموع تترقرق فى عينيها .

قال « جود » وقد اصفر وجهه : « ماذا ؟ لا . لا تقولى هذا . »

— « نعم . ماذا أفعل لو هجرتنى الآن . »

— اوه « ارابيلا » ، كيف تقولين ذلك ياحبيبتى . إنك تعرفين أنى لن أهجرك مهما حدث .

— حسنا إذن .

— ليس لى من موارد الرزق ما يمكننى أن أعتمد عليه كما تعلمين وإلا فمن المحتمل أننى كنت أفكر فى الزواج منك قبل الآن . أما والحال هكذا فلا بد أن نتزوج وما من شىء آخر أتمنى أن أقوم به الآن . »

— « ظننت أيها العزيز أنك قد ترحل لهذا السبب بالذات وتتركنى أجابه الموقف وحدى . »

— « إنك تدركين أحسن من أى إنسان آخر أننى منذ شهور مضت لم أكن أحلم بالزواج لأنه يقضى على خططى قضاء تاما – أقصد خططى قبل أن أتعرف بك أيتها العزيزة . ولكن ، ماهى هذه الخطط على كل حال . إنها لا تزيد على أن تكون أحلاما عن الكتب ، وخيالات عن الدرجات العلمية ، وأوهاما عن المناصب العليا وكلها بعيدة المنال . إننا سنتزوج بكل تأكيد وسنتزوج مهما يكن الأمر . »

فى تلك الليلة خرج «جود» يتمشى وحده فى الظلام وهو يحادث نفسه ويحاورها كان يدرك فى أعماق عقله الواعى إدراكا لا يرقى إليه الشك أن «أرابيلا» لاتساوى فى عالم النساء شيئا كثيرا . ومع ذلك ، فالعادات الشائعة بين شباب المناطق الريفية تقضى بأن من يتورط منهم فى علاقة عاطفية مع امرأة فلا بد له من أن ينفذما وعد به احتراما لكلمته مهما ترتب على هذا الفعل من نتائج . ولكى يريح ضميره أعطى « أرابيلا » قيمة لا تتفق والواقع فى شىء ، قيمة رمزية ففكرته عن « أرابيلا » وليست « أرابيلا » نفسها – هى بالنسبة إليه فى المقام الأول وهـــذا ما يجول بخاطره .

وفى يوم الأحد التالى قامت الكنيسة بإعلان مواثيق الزواج على أهل المنطقة وقال الناس جميعا إن الشاب « فاولى » غر أحمق ، فما أتعس ما انتهت إليه قراءاته ولا بد أنه سيلجأ إلى بيع كتبه ليشترى بثمنها أدوات للطبخ .

أما الذين قدروا ما كان ، ومن بين هؤلاء والدا « أرابيلا » فقد أعلنوا أن ماقرره « جود » يتفق تماما وما يتوقعه الناس من شاب قويم الخلق صادق الطوية مثله كى يصلح ما ارتكبه من خطأ فى حق حبيبة قلبه البريئة . والقسيس الذى قام بزواجهما كان يبدو عليه الرضا أيضا بهذا الزواج .

وهكذا وقف الاثنان أمام القسيس وأقسم كل منهما يمينا مغلظة بأن يظل

طول حياته على نفس الاعتقاد و بنفس الشعور و بنفس الأمانى التى انطوى عليها صدره خلال الأسابيع القليلة التى سبقت زواجهما .

ومما لوحظ أن الدهشة لم تأخذ أحدا ممن حضروا هذا الزواج لما سمعوه من مواثيق وعهود نطق بها كل من العروسين بقدر عدم دهشتهم للزواج .

ولما كانت عمة « جود » تملك مخبزا ، فقد صنعت له كعكة العرس وقالت له فى مرارة إن هذه الكعكة هى آخر ما تصنعه لشخص خليق بالرثاء عديم القيمة مثله كما تمنت على الله لو أنه قضى نحبه من سنين مضت ودفن فى قبر واحد مع أبيه وأمه بدلا من أن يعيش ويريها المتاعب ألواناً . من هذه الكعكة تناولت « أرابيلا » بعض الشرائح صانعة منها لفتين أرسلتهما الى رفيقتيها « أنى وسارة » اللتين عاونتاها فى تجهيز لحم الخنزير ولم يفتها أن تكتب على كل من اللفتين « لذكرى نصيحة مفيدة . »

لم يكن مستقبل العروسين بالذى يوحى بالثقة حتى لأكثر الناس تفاؤلا حيث لم يزد « جود » عن كونه واحدا من عمال البناء فى التاسعة عشرة من عمره يعمل بنصف أجر إلى أن يمضى الزمن المناسب فى المهنة بينما زوجته عاطلة تماماً تعيش معه فى سكنهما الجديد بالمدينة حيث فكر « جود » أولا أن من الصالح أن يبقيا فيها . غير أن حاجته الملحة إلى أن يزيد من دخله الضئيل دفعته إلى أن يسكن كوخا صغيرا منعزلا يقوم على جانب الطريق بين « البيت الأسمر » و « ميريجرين » حيث يستطيع أن يفيد من بعض الخضروات التى تنمو فى الحديقة الصغيرة ، كما يستطيع أن يفيد من خبرة زوجته فى تربية الخنازير . ولكن هذه الحياة لم تكن هى التى توقعها عندما أقبل على الزواج ، كما أن سكنه الجديد اقتضى أن يسير مسافة طويلة من « الفردستون » وإليها يوميا ، أما « أرابيلا » فأحست على أية حال أن هذه الأشياء لا تعدو أن تكون إجراءات مؤقتة للتغلب على موقف صعب . ومهما يكن من الأمر فإنها حصلت على زوج وهذا بالنسبة إليها هو الشىء الهام فى الموضوع كله . زوج له قدرة كبيرة على الكسب ويستطيع أن يزودها بما تحتاج من ملبس وبما تحب من قبعات، وذلك بمجرد تخويفه ودفعه فيقبل على مزاولة مهنته ،

وأيضا بمجرد أن يعطى الأمور العملية اهتمامه بدلا من الانكباب على كتبه التى لا نفع فيها .

وهكذا فى ليلة زفافهما قاد « جود » « أرابيلا » إلى الكوخ الصغير تاركا وراءه غرفته القديمة فى بيت عمته حيث أنجز فيها قدرا كبيرا من دراساته الشاقة فى الأدبين اليونانى واللاتينى .

وعندما خلعت « أرابيلا » ملابسها أمامه لأول مرة سرت فى جسده رعدة خفيفة وخاصة عندما شرعت تحل ضفيرة صناعية طويلة كان من عادتها أن تعقصها فى عقدة كبيرة خلف رأسها . لقد فضت ضفيرتها ثم علقتها فوق المرآة التى اشتراها « جود » بمناسبة زواجهما .

قال فى اشمئزاز لجانى : « ماذا . أليس هذا شعرك الطبيعى ؟ »

— « أوه ، لا . فلدى الطبقات العالية ان تكون طبيعية » .

— « هذا هراء . قد يكون صحيحا فى المدن . ولكن الأمر يختلف فى الريف. وفوق ذلك ، لديك من الشعر الطبيعى ما يكفى فيما أعتقد . أليس كذلك ؟ »

— « نعم لو قست الأمر بمقاييس أهل الريف . ولكن فى المدن ينتظر الرجال أن يروا من شعر المرأة قدراً أكبر . وعندما كنت أعمل ساقية فى حانة « بالدبركهام » .

— « تعملين ساقية فى حانة بالدبركهام » ؟

— « لم أكن بالضبط ساقية بل كنت أعمل على تجهيز الشراب فى إحدى المشارب العامة هناك ولم أبق فى هذا العمل طويلا . هذا كل مافى الأمر إذ ساعدنى بعض الناس فى الحصول على هذا العمل فقبلته للتسلية . وأنت فى « ألدبركهام » ، كلما زاد كسبك كان ذلك أفضل فأهل هــــذه المدينة أكثر حبا للترف من جميع أصدقائك الذين يقيمون فى « كرايستمينيستر » . وفى « ألدبركهام » تلبس كل سيدة من سيدات المجتمع الراقى شعرا مستعارا وهذا ما أخبرنى به صبى الحلاق » .

شرع يفكر وفى نفسه شعور بالضيق إذ على الرغم من أن ماذكرته له «أرابيلا» قد يكون إلى حد ما صحيحا ، إلا أنه كان يعلم أن الكثير من الفتيات ذوات الطوية البريئة ينتقلون كل يوم من الريف إلى المدن حيث يبقين دون أن يفقدن سمة البساطة فى كل مايتعلق بحياتهن وزينتهن ، بينما يبدى فريق آخر من أولئك الفتيات ميلا قويا نحو التصنيع فى كل ما يفعلن ويصبحن على درجة كبيرة من المهارة فى تقليد ما تقع عليه عيونهن بمجرد أن ينظرن إلى الشىء نظرة عابرة . على أية حال ، قد لا يكون ثمة جريمة فى أن تضيف امرأة إلى شعرها الطبيعى شعراً آخر صناعيا . وعلى ذلك ، صمم « جود » على ألا يفكر بعد الآن فى هذا الموضوع .

فى مقدور العروس فى العادة أن تثير اهتمام الناس بها لعدة أسابيع عقب زفافها حتى لو انتابت الصعاب المالية حياتها الزوجية وحتى لو اكتنف مستقبلها الشك فى حياة مستقرة . لقد اتسمت ظروف حياتها بالشذوذ ، كما كان أسلوبها فى تقبل واقع حياتها يتجه بها نحو التهرب من مجابهة الحقائق المرة ونحو التشبث بالأوهام الجميلة التى لابد أن تدفئ صدر العروس فى أيامها الأولى .

كانت السيدة « جود فاولى » تسير فى طرقات « ألفردستون » فى يوم من أيام السوق وفى مشيتها تتجلى هذه السمة الخاصة التى تميزت بها « أرابيلا » فى الأيام الأولى من زواجها ، عندما التقت بصديقتها « آنى » التى لم تكن قد رأتها منذ ليلة الزفاف . وقبل أن يبدأ الحديث ، أخذتهما ، كما هى العادة ، نوبة من الضحك فالعالم بالنسبة لهما شىء يثير الضحك دون أن يعرفا لذلك سببا .

قالت الفتاة للعروس الشابة : « هكذا نجحت الخطة . أليس كذلك ؟ كنت أعلم أن نجاحها محقق وخاصة مع شخص طيب القلب مثله خليق بك أن تفخرى به » .

قالت السيدة « فاولى » فى هدوء : « وإنى لكذلك » .

— « ومتى تتوقعين الحادث السعيد ؟ »

— « اسكتى . ليس هنالك حادث سعيد مطلقا » .

— « ماذا تقولين ؟ »

— « كنت مخطئة فيما ظننت . »

— « أوه ، أرابيلا » . « أرابيلا » . يالك من مخلوقة على قدر كبير من الخبث . مخطئة ! لقد فهمت الآن . يالك من عبقرية ماهرة . هذا شيء ما خطر ببالي رغم ما لدى من تجارب كثيرة . لم يذهب تفكيرى إلى أبعد من الهدف الأصلى من وراء تلاقينا . أما أنا فإن ألجأ إلى الخديعة لتحقيق الزواج . »

— « لا تتسرعى فى اتهامى بالالتجاء إلى الخديعة . ليس فيما فعلت أية خديعة كل ما فى الأمر أننى لم أكن أعلم حقيقة المسألة . »

— « دعينى أسألك ألم تنتقل إليه عدوى المخادعة فيخادعك هو الآخر كلما التقى بك فى أمسيات السبت ؟ ومهما يكن من الأمر لابد أنه كشف حيلتك وإنها لحيلة مزدوجة ورب السماء . »

— « إنى لا أنكر الحيلة الأولى أما الثانية فلا . أف لك . أما هو فلن يهتم كثيرا بل سيسر عندما يعرف أنى كنت مخطئة فى ظنى وعند ذلك سيغمرنى بدعواته الصالحة وهذه طبيعة الرجال . ما الذى فى استطاعتهم أن يفعلوا خلاف ذلك ؟ لقد تم الزواج وانتهى كل شيء . »

وعلى الرغم من هذا ، أخذت « أرابيلا » وفقا للتطور الطبيعى للأشياء تحس بالقلق كلما اقتربت اللحظة التى لابد لها من الكشف فيها عن أن الذعر الذى أثارته لم يكن على أساس . جاءت هذه اللحظة عندما كانت « أرابيلا » مع زوجها ذات مساء فى غرفة نومها فى الكوخ المنعزل على جانب الطريق حيث اعتاد « جود » أن يأوى إليه بعد عمل شاق متصل استغرق اليوم كله . كان قد آوى إلى غرفته ليستريح وعندما دخلت عليه زوجته كان يتأرجح بين النوم واليقظة فلم يكن على علم كامل بوجودها أمام المرآة الصغيرة تخلع ملابسها بينما هو مضطجع على فراشه .

حادث واحد منها أعاده إلى وعيه الكامل . كان وجهها منطبعا على صفحة المرآة أمامه فاستطاع أن يلحظ أنها تتسلى بإبراز الهزمة المنوه عنها سابقا على الخدين

ابرازا صناعيا عن طريق امتصاصها للهواء فى قدرة عجيبة . خيل إليه فى تلك اللحظة أن الهزمتين فى الفترة الأخيرة من حياتهما سويا أقل ظهورا على خديها مما كانتا فى أثناء الأسابيع الأولى من تعارفهما .

قال فجأة « لاتفعلى ذلك يا « أرابيلا » ليس فيما تفعلين من ضرر ولكننى لا أحب أن أراك تفعلين ذلك . »

استدارت إليه وهى تضحك وتقول : « رباه . لم أكن أدرى أنك ما زلت مستيقظا . يالك من ساذج . ليس هذا بالشىء الذى يستحق اهتمامك . »

— « أين تعلمت هذه الحركة ؟ »

— « لم أتعلمها فى مكان معين . عندما كنت أعمل فى المشرب العام كانت الهزمتان تظهران على وجهى دون كبير عناء إذ كنت أكثر امتلاء أما الآن فالأمر مختلف . »

— « ليس للهزمات أهمية عندى ولا اعتقد أنها ترفع من قيمة المرأة وبخاصة المتزوجة التى لها قوام ممتلىء مثل قوامك . »

— « يخالفك أكثر الرجال فى رأيك هذا . »

— « لا يهمنى رأى أكثر الرجال . وعلى أية حال ، كيف عرفت هذا الرأى ؟ »

— « كنت أسمع ما يقولون عندما كنت أعمل داخل غرفة تعبئة الشراب . »

— « أوه ، إن تجاربك السابقة التى اكتسبتيها من المشرب العام هى التى جعلتك قادرة على اكتشاف البيرة المغشوشة عندما ذهبنا إلى المشرب العام ذات يوم من أيام الآحاد ، عندما تزوجتك كنت أظن أنك لم تبتعدى عن بيت أبيك قط . »

— « كان ينبغى عليك أن تكون أكثر علما من ذلك ، وأن ترى أن بقائى حيث ولدت لم يكن ليجعلنى أتميز بهذا القدر من التهذيب ، وليس فى بيتنا من

العمل ما يدعو إلى أن أبقى فيـــه والملل يقتلنى فتركته وبقيت فى الحان ثلاثة أشهر فقط . »

— « قريبا ستجدين من الأعمال ما يشغل كل وقتك أيتها العزيزة . أليس كذلك ؟ »

— « وماذا تعنى ؟ »

— « أقصد طبعا أن أعمالا صغيرة عليك أن تعمليها » .

— « أوه . »

— « متى يحدث ما نوهت به ؟ هلا أخبرتنى بالضبط بدلا من استخدام عبارات خاصة كما فعلت ؟ »

— « تريد أن أخبرك ؟ »

— « نعم . أخبرينى عن التاريخ »

— « ليس لدى ما أخبرك به . كنت مخطئة » .

— « ماذا تقولين ! »

— « كنت مخطئة » .

جلس « جود » على السرير ناظراً إليها ثم قال : « وكيف حدث هذا ؟ » .

— « فى بعض الأحايين تتخيل النساء أشياء غير حقيقية » .

— « ولكن — إنى لم أكن مستعداً لمثل هـذا الأمر . ليست لدى قطعة واحدة من أثاث ولا أكاد أمتلك شلناً واحداً » ...

ما كان يجدر بى أن أسرع بالزواج وأقودك إلى بيت ينقصه كل شيء لولا أنك زودتينى بأخبار جعلت من واجبى أن أعمل على إنقاذك سواء كنت مستعداً للزواج أو غير مستعد . يا لله ! .

— « لا فائدة ترجى من الكلام فى هـذا الموضوع فما كان لا يمكن الرجوع فيـــه » .

— « لم يبق لدى ما أقوله الآن » .

قال ذلك فى بساطة ثم تمدد على الفراش وانقطع حبل الحديث بينهما .

وعند ما نهض فى الصباح التالى بدا عليه أنه ينظر إلى الدنيا نظرة أخرى مختلفة . أما عن الموضوع الذى أثير بينهما ، فكان مجبراً على أن يقبل كلامها . وفى موقف كهذا ما كان بمستطيع أن يفعل شيئا آخر ما دامت الأفكار التقليدية سائدة . ولكن كيف سادت هذه الأفكار ؟ .

لقد بدأ يدرك بشكل غامض أن هنالك خطأ ما فى نظام اجتماعى يتطلب تقويمه العمل على إلغاء خطط ومشروعات استغرق وضعها سنوات من العمل المتصل والتفكير الدائم كما استدعى وضعها أيضا من الإنسان أن يهمل فرصته الوحيدة التى يثبت بها أنه أرقى الحيوانات طرا ، وكى يسهم بعمله فى تيار التقدم العام الذى شمل جيله بأكمله . كل ذلك من جراء انتصار وقتى لغريزة قصيرة الأجل فانية ليس فيها شيء من طبيعة الرذائل وكل ما يمكن أن يقال عنها إنها قرينة للضعف البشرى . كان يميل إلى أن يسأل ما الذى فعله هو ، أو ما الذى فقدته هى بسبب ما هما بصدده حتى تحق عليه لعنة الوقوع فى فخ يصيبه بالشلل ، وقد يصيبها هى أيضا بالعجز الكامل مدى الحياة ! .

من المحتمل أن يكون هنالك جانب من حسن الحظ فى أن السبب المباشر لزواجه أصبح الآن لا وجود له ، وإن ظل الزواج قائما .

(١٠)

حان الوقت الذى يجب فيه على « جود » وزوجته أن يذبحا الخنزير الذى أطعماه وسمناه فى حظيرتهما أثناء أشهر الخريف . لقد عزما على أن يكون الذبح بمجرد ظهور ضوء الصباح حتى يتمكن « جود » من الذهاب إلى « ألفردستون » دون أن يتأخر عن عمله أكثر من ربع يوم .

كان الليل يبدو هادئا بشكل عجيب فأطل « جود » برأسه من النافذة قبل حلول

الفجر بفترة طويلة ، فلاحظ أن الأرض مغطاة بطبقة من الجليد لا يتفق سمكها مع جو الفصل من السنة وخيل إليه أن مزيداً من الجليد يتساقط .

قال « لأرابيلا » : « أخشى ألا يستطيع الجزار أن يأتى اليوم » .

— لا تخشى شيئاً ، فلا بد أن يحضر . ينبغى أن تنهض وتغلى الماء حتى يكون كل شىء جاهزاً عند ما يأتى « تشاللو » ليسخنه ، هذا وإن كنت أفضل حرق الجلد بالنار على سلخه .

قال جود : « سأنهض وإنى لأفضل الطريقة الشائعة بين أهل المقاطعة التى جئت منها .

نزل السلم ثم أشعل النار تحت إناء الماء وأخذ يحشد لها الكثير من سيقان الفول الجافة وظل طول الوقت يعمل من غير شمعة يستضىء بلهبها بينما وهج النار يغمر الغرفة ببريق خاطف يبهج النفس وإن كان شعور « جود » بالبهجة شابته أفكار أوجدها ما يشعل النار من أجله . كانت هذه الأفكار تدور حول تسخين المياه لانتزاع الشعر من جسد حيوان ما زال على قيد الحياة وصوته ما فتئ يتردد فى ركن من أركان الحديقة . وفى السادسة والنصف ، وهو وقت مجىء الجزار ، كانت المياه فى القدر قد وصلت إلى درجة الغليان ونزلت « أرابيلا » من أعلى المنزل وقالت : « هل وصل تشاللو ؟ » .

— « لا . »

انتظر الاثنان فترة أخرى والضوء يتزايد فى السماء وتتسع رقعته رغم ما يتسم به من وهن يصاحب الفجر عادة فى الأيام الشديدة البرودة . خرجت « أرابيلا » من البيت وأطالت النظر إلى الطريق وبعد أن عادت إلى مكانها فى الغرفة قالت : « أعتقد أنه لن يأتى اليوم . أرجح أنه أفرط أمس فى الشراب وليس الجليد قطعاً من الكثرة بحيث يعوقه عن الحضور . »

— « إذن لا مناص من أن نؤجل الذبح ، ولن نخسر سوى الماء الذى غليناه . قد يكون الجليد متراكماً فى الوادى وبذلك لن يقوى على الحضور . »

— « لا نستطيع أن نؤجل الذبح وخاصة لأن الحيوان استنفد طعامه ولم يبق منه شيء بعد أن تناول صباح أمس آخر وجبة من طحن الشعير » .

— « صباح أمس ؟ وما الذى أكله منذ ذلك الحين ؟ »

— « لا شيء . . »

— « ماذا هل تعرض لآلام الجوع ؟ »

— « نعم إننا نفعل ذلك دائما قبل ذبح الحيوان بيوم أو يومين . وفى هذا إنقاذ لنا من متاعب تنظيف الأحشاء . ألا تعرف ذلك ؟ يالك من جاهل . »

— « كان هذا إذن سبب صياحه طوال أمس . يا للمسكين ! »

— « حسنا . لابد لك من أن تقوم باختراق الجلد مستخدما فى ذلك القضيب الحديدى ، ولا مفر من ذلك . سأريك الطريقة وسأقوم بها أمامك . كنت أفضل أن يتولى « تشاللو » هذا العمل إذ أن الخنزير كبير الحجم جداً ومع ذلك سلة السكاكين والأدوات الخاصة بالجزار هنا أرسلها بالأمس وفى وسعنا أن نستخدمها . »

قال « جود » : « لن أتركك تقومين بمثل هذا العمل . سأقوم أنا به مادام لا بد منه » .

ذهب « جود » إلى الحظيرة وأخذ يزيح الجليد المتراكم بضع ياردات ووضع المقعد الصغير ذا الأرجل الثلاث وأحضر السكاكين والحبال ، فى تلك اللحظة أطل على هذه الترتيبات طائر من أقرب شجرة ولما لم يسر لمرأى هـــذا المنظر المنذر بالشؤم ابتعد عنه وإن كان جائعا . فى تلك اللحظة أقبلت «أرابيلا» وقصد «جود» الحظيرة والحبل فى يده ثم عقل الحيوان المروع الذى أخذ يصيح صياح الدهشة ثم تطور صياحه إلى صراخ متصل يعبر به عمـــا فى نفسه من غضب ، ففتحت « أرابيلا » باب الحظيرة وتعاون الاثنان فى رفع الضحية المسكينة إلى الكرسى الصغير فكانت سيقان الخنزير إلى أعلى . وبينما أخذ « جود » يشدد قبضته على

الخنزير ضغطت «أرابيلا» على صدره وعقلته بالحبل حتى لا يبدى حراكا . وتغيرت نغمة الصوت الصادر عن الخنزير فلم يكن بالصوت الدال على الغضب بل كان صوتا ينم عن اليأس ، منغما ، مستطيلا ، بطيئا ، يائسا .

قال «جود» : «والذى نفسى بيده أفضل أن أفقد هذا الخنزير على أن أذبحه لقد أطعمت هذا الحيوان بيدى . »

— «لا تكن رقيق القلب غبيا . هاك السكين اللاصقة المدببة . افعل بها ما تشاء دون أن تغرسها عميقا . »

— «سأغرسها بإحكام حتى ينتهى الأمر ، هذا هو المهم» .

صاحت «أرابيلا» : «لا تفعل ، يجب أن يكون اللحم خاليا تماما من الدم ولتحقيق ذلك لا بد أن يموت موتا بطيئا وإلا ستتعرض لخسارة كبيرة إذ يصبح اللحم أحمر مشبعا بالدم . فلتلمس الوريد فقط وهذا كل شىء . إنى أعرف هذه الأمور معرفة جيدة إذ ألفتها منذ الصغر والجزار البارع هو الذى يترك الذبيحة تدمى لفترة طويلة . ينبغى أن نترك الحيوان فترة لا تقل عن ثمانى أو عشر دقائق حتى يسلم الروح» .

— «سأجعله يسلم الروح فى أقل من نصف دقيقة لو استطعت مهما يحدث للون اللحم . » قال ذلك فى إصرار وهو يزيل الشعيرات الخشنة الثابتة فوق حنجرة الخنزير كما يفعل الجزارون . وبعد أن غرس السكين فى الطبقات العليا من الشحم دفعها بكل قوته داخل رقبة الحيوان . »

صاحت «أرابيلا» : على اللعنة إذا كنت أكرر قولى . ها أنت تغرس السكين فى لحم الحيوان أكثر مما يجب رغم كل ما قلته لك . »

— «اهدأ بالله يا «أرابيلا» وارحمى الحيوان المسكين . »

— «ارفع الدلو إلى أعلى لتتلاقى فيه الدم ثم كف عن الكلام . »

وإن كان «جود» قام بعملية الذبح بطريقة خلت من كل فن إلا أنها تمت فى

رقق وتدفقت الدماء فى فيض غزير بدلا من أن تنسكب نقطة وراء نقطة كما أرادت « درابيلا » . هنا دخل صراخ الحيوان فى مرحلته الثالثة والأخيرة وهى مرحلة حشرجة الموت وتركزت عيناه على « أرابيلا » وفيهما تعبير واضح صريح يدل على أنه أدرك أخيرا خيانة أولئك الذين كانوا يظنهم أصدقاءه الأوفياء .

قالت « أرابيلا » : « دعه يكف عن إخراج هذه الأصوات التى قد تدفع أحداً إلى المجىء هنا وإنى لا أود أن يعرف الناس أننا نقوم بمثل هذا العمل بأنفسنا » .

التقطت « أرابيلا » السكين بعد أن ألقى بها « جود » إلى الأرض ودفعتها فى فتحة العنق وشقت القصبة الهوائية نصفين وهنا صمت الخنزير لساعته وأخذت أنفاسه الأخيرة تتسرب من خلال الثقب .

قالت « أرابيلا » : « هذا أفضل . »

قال « جود » : ياله من عمل قبيح . »

— « ومع ذلك فلابد لنا من أن نذبح الخنازير » .

أخرج الحيوان حشرجة أخيرة وعلى الرغم مما فى سيقانه من قيود أخذ يحرك ساقيه بكل ما تبقى فيهما من قوة . وبعد أن توقف انسكاب الدم الأحمر فى نقط متقطعة لفظت الذبيحة كمية من الدم الأسود المتجمد .

قالت « أرابيلا : « هذا ما نريده وها هو لفظ أنفاسه الأخيرة : ياللخنزير من مخلوق خبيث . إنه دائما يحتفظ بقدر من الدم . »

وجاءت الزفرة الأخيرة على غير توقع من « جود » فجعلته يترنح فى مكانه وعندما استعاد توازنه تعثرت قدماه بالإناء الذى سبق أن وضعه ليتلقى فيه الدم . صرخت « أرابيلا » صرخة مدوية وقالت : « لن أستطيع الآن أن أجهز أى قدر من الدهن . إنك ضيعت كل شىء . »

أصلح « جود » من وضع الإناء الذى لم يبق فيه سوى القليل من السائل الحار بعد أن تناثر الجانب الأكبر منه فوق سطح الجليد مكونا منظرا كئيبا موحشا فى أعين أولئك الذين نظروا إليه على أنه شىء آخر خلاف اللحم الذى تتغذى عليه ، أصبحت الآن شفتا الحيوان وخياشيمه داكنة اللون وتراخت عضلات السيقان .

قال « جود » : « شكرا لله لقد مات . »

قالت « أرابيلا » فى سخرية : « وما دخل الله فى عمل مرهق كذبح خنزير . هلا أعلمتنى ؟ للناس المساكين أن يأكلوا ليعيشوا . »

قال « جود » : « أعرف ذلك ، أعرفه جيدا . إنى لا ألومه » وفجأة أحسا بصوت قريب منهما يقول لهما :

ـــ « أحسنتما صنعا ياشباب . ما كان فى مقدورى أن أقوم بما قمتما به على وجه أفضل ولتحل علىّ اللعنة لو كان الأمر بخلاف ذلك » وعندما رفعا رأسيهما إلى مصدر الصوت الأجش وقع بصرهما على مستر « تشاللو » بجسمه البدين وهو ينحنى على البوابة ويرمقهما بنظرات فاحصة .

قالت « أرابيلا » : أنت سعيد بوقوفك هناك حيث ترمقنا بنظراتك . لقد أصبح اللحم مشبعا بالدم ولا يصلح الأكل ولن يساوى الآن شيئا فى سوق اللحم وكل ذلك بسبب تأخرك فى المجىء . »

أبدى « تشاللو » أسفه لتأخره فى المجىء وقال وهو يهز رأسه : «كان الواجب عليكما ألا تتسرعا فتذبحا الحيوان ، وبخاصة أنت ياسيدتى فى ظرفك الدقيق الذى أنت فيه فى الوقت الحاضر » .

قالت « أرابيلا » وهى تنفجر ضاحكة : « لا تشغل نفسك بهذا الأمر كثيرا . وضحك « جود » كذلك . وكان فى ضحكه شعور واضح بالمرارة .

أظهر « تشاللو » من الحماسة والنشاط فى عمليات السلخ والتنظيف ما يمكن أن

يعتبر نوعا من التعويض عن تأخره فى الحضور للذبح . وأحس « جود » أنه غير راض عن نفسه بسبب فعلته ، وهو وإن كان على بينة مما به من نقص فى فهم المسائل العامة ، إلا أنه أدرك أن إسناد الذبح إلى شخص آخر لا يغير من الوضع شيئا . فمنظر الجليد الأبيض مضرجا بدماء حيوان مثله لا يتفق منطقيا مع آرائه . بصفته من عشاق العدالة فضلا عن كونه مسيحى . ولكنه لم يستطع أن يرى كيف يمكن لإنسان مثله أن يرأب هذا الصدع . إنه كان دون شك كما سبق أن سمته زوجته ، رقيق القلب غبيا .

إنه أصبح الآن يكره السير فى الطريق الموصل إلى « ألفردستون » إذ كان يحس أن لهذا الطريق عيونا تتطلع إليه فى استخفاف . أما معالم الطريق والآثار القائمة على جانبيه فتذكره كثيرا بما حدث بينه وبين زوجته من عشق وهيام . ولكى يقيم حاجزا بين عينيه وهذه المعالم ، انهمك فى القراءة أثناء سيره إلى عمله وعودته منه . ومع ذلك أخذ يشعر فى بعض الأحايين أنه ، على الرغم من التجائه إلى الكتب ليتلهى بقراءتها عن واقعه المرير ، لم يكن بمستطيع الهرب من تفاهات حياته أو الحصول على قيم الأفكار ونادرها ، شأنه فى ذلك شأن غيره من العاملين الكادحين . وعندما مر ذات يوم بالقرب من البقعة الواقعة بجوار القناة ، حيث تم التعارف بينه وبين « أرابيلا » سمع أصواتا كتلك التى سمعها حينذاك إذ كانت إحدى صديقات « أرابيلا » تتحدث إلى فتاة تجلس فى كوخ على الطريق ، فشعر أنه هو نفسه كان موضوع الحديث بين الفتاتين ، ومن المحتمل أن الدافع لهاتين الفتاتين على الحديث عنه أنهما لمحاه قادما من بعيد . لم تدرك الفتاتان أن حوائط الكوخ كانت من الرقة بحيث استطاع « جود » أن يسمع حديثهما عند اقترابه منهما .

ــ « على أية حال كنت أنا التى أرشدتها إلى الطريق ، من لا يغامر بشىء لا يكسب شيئا . هذا ما قلته لها حينذاك ولو لم أقل لها ذلك لما نجحت فى أن تصبح زوجته . »

ـــ « ما زلت أعتقد أنها كانت تعرف تماما أنهـا خاو من كل شيء عندما أخبرته بأنها . . . . »

أية صورة بشعة رسمتها تلك المرأة « لأرابيلا » ! أية تهمة نسبتها إليهـا وأقامت منها سببا يدفع إلى أن يجعل منها خليلة فزوجة ! كانت الأقوال التى وردت على لسان تلك المرأة غاية فى السوء وظلت تعصف به بعنف حتى أنه عندما وصل إلى الـكوخ الذى يعيش فيه دفع سلة الأدوات داخل باب حديقة واستأنف السير دون توقف وكان قد عزم على ان يتوجه إلى حيث تعيش قريبته العجوز ليتناول لديها شيئا من الطعام ، فذهب إلى هناك وبقى عندها إلى وقت متأخر من الليل . وعندما عاد إلى بيته . وجد زوجته منهمكة فى إذابة شحم الخنزير وإعداده للطعام إذ كانت طوال اليوم فى جولة خارج البيت فتأخرت فى إنجاز أعمالهـا ومنها إذابة شحم الخنزير ولما كان يخشى أن يقول شيئا يؤسف عليه بسبب ماسمعه فى الطريق فقد كان مقلا فى حديثه . غير أن « أرابيلا » لم تـكف عن الكلام وفى أثناء حديثها ذكرت أنها فى حاجة إلى نقود . وعندما لمحت طرف الـكتاب باديا من جيبه أضافت أنه فى حاجة إلى أن يزيد من كسبه فقال :

ـــ « إنى لا أربح أكثر من أجر عامل مبتدئ ، ولا يكفى مثل هذا الأجر الضئيل لإعالة زوجة ياعزيزتى » .

ـــ « إذن ما كان ينبغى لك أن تتخذ لنفسك واحدة » .

ـــ « والآن يا « أرابيلا » ، هـــذا شىء سىء للغاية إذ أنك تعلمين جيداً كيف تم هذا الزواج » .

ـــ « أعترف لك صادقة بأنى كنت أظن أننى أقول الحقيقة عندما حدثتك فى هذا الموضوع ـ كان هـذا أيضا رأى الدكتور « فيلبرت » . كم كنت سعيداً عندما وجدت أن المسألة ليست كما توقعت .

وأسرع « جود » يقول : « لا ، لا . لا أقصد هذا ، بل أقصد ما حدث قبل ذلك . أعرف أن الخطأ لم يكن مرجعه إليك . ولـكن أصدقاءك من الفتيات لم

يخاصن لك النصيحة ولو لم ينصحنك ، أو لو لم تتنصحي بنصيحتهن لكننا فى هذه اللحظة متحررين من قيد مهما قيل فيه فهو قيد يسبب لكلينا ضيقا وعنتا شديدين وقد يكون ذلك أمراً يثير الحزن فى النفس ، ولكن هذه هى الحقيقة » .

— « ومن الذى حدثك من أصدقائى ؟ أية نصيحة تقصد ؟ لا بد من أن تخبرنى » .

— « أفضل ألا أقول شيئا فى هذا الموضوع » .

— « ولكنك بالتأكيد ستفعل ، ومن واجبك أن تتكلم ولن يشرفك أن تمتنع عن الكلام » .

— حسنا جداً سأتكلم . وبدأ يتحدث ويشير فى رفق إلى ما نما إلى علمه خاصا بزواجه وأخيراً قال :

— « ولكننى لا أود أن أتحدث كثيراً عن هذا الموضوع فلنكف عن ذكره » .

وانهار أسلوبها الدفاعى وأخذت تضحك ببرود وتقول : « ليس هذا بالأمر الهام فلكل امرأة الحق فى أن تتصرف بهذه الطريقة التى تصرفت بها وهى مسئولة عما تتعرض له بسبب تصرفها » .

— « إنى لا أوافقك على ما تقولين يا « بيلا » ... قد يكون للمرأة الحق فى ذلك لو لم ينتج عن تصرفها إلحاق الأذى بالرجل مدى حياته ، أو إلحاق الأذى بها فى حالة نكوص الرجل . وقد يكون تصرفها فضولا لو أن ضعف اللحظة ينتهى بانتهاء اللحظة ، أو حتى بانتهاء العام . أما إذا كانت النتائج كبيرة الأثر على هذه الصورة فلا ينبغى للمرأة أن تأتى من الأعمال ما يوقع بالرجل إذا كان يتسم بالأمانة ، أو يوقع بها هى إذا لم يكن الرجل كذلك » .

— « وماذا كان ينبغى على أن أفعل ؟ » .

— « كان ينبغى عليك أن تمنحينى بعض الوقت . لم تشغلين نفسك الليلة كى تذيبى شحم هذا الخنزير ؟ أرجو أن تكفى عن هذا الآن ! » .

ـــ « إذن لا بد لى من أن أقوم بإذابته غدا صباحا فلن يبقى طويلا دون أن يفسد » .

ـــ « حسنا جدا ـ فلتفعلى » .

(١١)

فى الصباح التالى ، وكان يوم أحد ، استأنفت « أرابيلا » عملها حوالى العاشرة وفى استئنافه تذكرت حديث الليلة السالفة فعاد إليها نفس المزاج العنيد .

ـــ « وهل تقول القصة التى يتناولها الناس فى « مريجرين » بأننى نصبت لك فخا ثم أوقعتك فيه ؟ يالك من صيد ثمين أرسله الله لى »

وبينما كانت دماء « أرابيلا » توشك على الغليان وقع بصرها على عدد من كتب الأدب القديم ، الحبيبة لدى « جود » فوق منضدة حيث يجب ألا تكون .

تملك « أرابيلا » ضيق شديد عندما رأت تلك الكتب فتناولتها كتابا كتابا وألقت بها على أرض الغرفة وهى تصيح : « لا أستطيع أن أرى هذه الكتب فى طريقى على هذه الصورة » .

قال « جود » : « اتركى كتبى وشأنها لا تمسيها . فى استطاعتك أن تبعديها عنك إن شئت أما أن تمسكيها بيديك الملوثتين بالشحم فهذا أمر لن أقبله إذ انه يملأنى اشمئزازا . »

كانت أصابع « أرابيلا » قد تلوثت بالشحم مما ترتب عليه حدوث آثار واضحة على أغلفة الكتب التى أمسكت بها وظلت تقذف بها وتبعثرها على الأرض فى إصرار وتعمد . وعندما طفح الكيل لم يتمالك نفسه فقبض على ذراعيها بيديه كى يمنعها من الإمساك بالكتب وفى هذه الأثناء انحلت عقدة شعرها فانزلقت ضفائرها على أذنيها .

قالت « أرابيلا » : « اتركنى . »

ـــ « عدينى أولا أن تتركى كتبى وشأنها . »

ترددت « أرابيلا » قليلا ثم قالت : « اتركني » .

— « عديني أولا » .

وبعد لحظة قالت : « إني أعدك » .

وهنا تركها تذهب فعبرت الغرفة متجهة نحو الباب وخرجت منه إلى الطريق العام وقد بدا على وجهها الانقباض والتجهم ، وفي الطريق بدأت تسير ذهابا وجيئة وهي تجذب شعرها في اهتياج فتزيد من فوضاه ، كما تحل بضعة أزرار في ثوبها . كان صباحا جميلا في يوم من أيام الآحاد والجو جاف رائق كثير الصقيع وأجراس كنيسة « ألفردستون » تدق فيحمل النسيم القادم من الشمال رنينها والناس يسيرون في الطريق وقد ارتدوا خير ثيابهم — منهم العشاق الذين يسيرون اثنين اثنين تماما كما كان « جود » و « أرابيلا » يسيران في نفس الطريق قبل بضعة أشهر . وبدأ المارة يتطلعون إلى المنظر الشاذ الذي كانت « أرابيلا » تمثله وهي عارية الرأس مهوشة الشعر مختلة الثياب وأكمامها مرفوعة إلى ما بعد مرفقيها بينما تنضح يداها بالشحم السائل . تصنع أحد المـــارة الخوف منها فقال كمن يحدث نفسه :

— « يا كريم خلصنا » .

صاحت « أرابيلا » تقول : انظروا أيها الناس كيف يعاملني زوجي . إنه يرغمني على العمل أيام الآحاد بدلا من أن يدعني أذهب إلى الكنيسة كما ينبغي أن أفعل . إنه يجذبني من شعري ويشد ثوبي . « استولى الغضب على «جود» فاندفع خارجا من البيت كي يعيدها إلى الداخل بالقوة . وفجأة فقد حرارته وهدأت نفسه إذ انبثق في صدره شعور بأن كل ما بينهما زال فان يعنيه في كثير أو قليل ما يقع منها . عندئذ وقف أمامها يتأملها وهو لا يبدى حراكا .

أيقن أن حياتهما دمرت تماما ، وأيقن أن الذي دمرها هو ما ارتكباه من زلة كبرى بأقدامهما على زواج قائم على عقد دائم أوحى به شعور عابر مقطوع الصلة بالدوافع الأصلية التي من شأنها أن تجعل المرء يتحمل قيود الحياة الزوجية دون ملل أو شكوى .

قالت وفى صوتها رنة التساؤل : « أعازم أنت على أن تسىء إلى كما أساء أبوك إلى أمك وكما أساءت عمتك إلى زوجها ؟ إنك وأفراد عائلتك من أصحاب الأمزجة الشاذة وبخاصة عندما تكونون أزواجاً وزوجات » .

رمقها « جود » بنظرة تنم عن الدهشة والاستغراب لما قالت فتوقفت عن الكلام وأخذت تسير ذهاباً وجيئة حتى أحست بالتعب . عند ذلك غادر المكان ، وبعد أن تجول قليلا على غير هدى ، سار فى اتجاه « ميريجرين » قاصداً منزل عمته وكانت صحتها فى تدهور يوما بعد يوم .

قال « جود » بدون مقدمات وهو يجلس أمام النار : « أسألك ياعمتى سؤالا وأود منك أن تجيبى عليه . هل أساء أبى معاملة أمى وهل أساءت عمتى معاملة زوجها ؟ »

رفعت العمة عينيها الذابلتين ونظرت إليه من أسفل قلنسوتها القديمة التى لا تفارق رأسها وقالت : « من الذى أخبرك بهذا ؟ »

— « سمعت حديثا فوددت أن أعرف كل شىء يتعلق بهذا الموضوع . »

— « لم يكن الخطأ من صنعك على أية حال . » إنها زوجتك ، وأكاد أجزم أنها هى التى تخوض فى مثل هذه الأمور ويدفعها غباؤها إلى فعل ذلك . على أية حال ، لا أستطيع أن أخبرك بشىء ذى بال وكل ما هنالك أن أباك وأمك لم يتمكنا من العيش سوياً فافترقا . كانا عائدين من السوق فى «الفردستون» وكنت أنت طفلا صغيرا عندما تشاجرا لآخر مرة وافترقا نهائياً . وكان ذلك فوق التل بجوار البيت الأسمر » . بعد ذلك مباشرة توفيت أمك . باختصار أغرقت نفسها فأخذك أبوك إلى جنوب « وسكس » ولم يعد إلى هذا المكان بعد ذلك قط . هنا تذكر أن أباه لم يكن ليذكر شيئا عن الفترة التى قضاها فى شمال «وسكس» كما لم يذكر شيئا عن زوجته حتى لحظة مماته » .

« ونفس الشىء حدث لعمتك . فعندما أهانها زوجها كرهت أن تعيش معه ورحلت مع ابنتها الصغيرة إلى لندن . إن أفراد أسرة « فاولى » لم يخلقوا للحياة

الزوجية ، ولم يناسبنا قط هذا النمط من الحياة . إن شيئاً ما يجرى فى دمائنا ويجعلنا ننفر من القيود ونحب الانطلاق لذا كان ينبغى عليك أن تصغى لنصيحتى ولا تتزوج » .

ـ « فى أى مكان قرر أبى وأمى الانفصال ؟ هل قلت أنهما قررا الانفصال بالقرب من البيت الأسمر ؟ »

ـ « بعده بمسافة قصيرة . وعلى وجه الدقة حيث يتفرع الطريق إلى «فينوورث» وحيث يقوم النصب الدال على الطريق . فى هذه البقعة بالذات أقيمت ذات مرة مشنقة وهذه ليست عديمة الصلة تماماً بالقصة التى نحن بصددها ، ولكن لندع ذلك الآن . »

وعندما حل الظلام ترك « جود » بيت عمته العجوز كما لو كان ينوى الذهاب إلى بيته ، لكنه بمجرد أن وصل إلى المنخفض الواسع ظل يسير فيه حتى بلغ بركة كبيرة مستديرة . كان الجليد على حاله وإن لم يكن شديد البرودة بوجه خاص . وشيئاً فشيئاً طلعت النجوم الكبيرة فى السماء فوقه وأخذت فى مكانها تتألق . وضع إحدى قدميه على حافة الجليد ثم وضع الأخرى بجوارها فانهار الجليد تحت ثقل جسمه ولكن ذلك لم يمنعه من السير . بل حفزه إلى مواصلة المشى حتى وصل إلى قلب البركة بينما كان الثلج يتكسر تحت أقدامه محدثاً أصواتاً عالية . وعندما كان يقترب من قلب البركة أخذ يتلفت حوله ثم قفز إلى أعلى وهنا عاد صوت تكسر الجليد إلى سابقه . ولكن « جود » لم يسقط إلى داخل البركة . مرة أخرى قفز فى الهواء ولكن تكسر الثلج كان قد توقف وهنا عاد إلى خارج البركة وقفز منها إلى الأرض المجاورة .

إن شيئاً أدهشه . ما الذى دار فى خلده ومنعه من إتمام ما نوى عليه ؟ لقد ظن أنه عاجز عن قتل نفسه لنقص فى شعوره بالكرامة والعزة .

لقد لفظه الموت واحتقر شأنه ورفض أن يأخذه لينقذه من عذاب نفسه .

ما الذى يستطيع أن يفعله كى يذل نفسه أكثر من أن يضع حداً لحياته ويقضى على وجوده ؟

أى عمل يكون أقل نيلا من الانتحار وأكثر ملاءمة لحالته النفسية الراهنة ،

فى استطاعته أن يدمن الشراب ، وهذا قطعا ما أراد أن يفعله فى تلك اللحظة وإن كان قد غاب عن ذاكرته ، فالشراب هو الملجأ الطبيعى الذى يلجأ إليه اليائسون ممن لا وزن لهم ولاقدر . هكذا عرف لِمَ يذهب بعض الناس إلى الحانات حيث يعبون الخمر عبأ ، وهنا أسرع بالنزول من فوق التل وسار فى اتجاه شمالى حتى وصل إلى مشرب عام صغير لا يرتاده احد ، وعندما دخله وجلس إلى إحدى الموائد وقع بصره على صورة شمشون ودليلة معلقة على الحائط فتذكر أنه زار هذا المكان فى صحبة « أرابيلا » فى أول يوم أحد عقب تعارفهما ، فطلب خمراً وظل يشرب فى نشاط وخفة ساعة من الزمان وربما أكثر .

وعندما عاد إلى بيته يترنح فى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، أحس أن كل ما كان يعتمل فى نفسه من انقباض قد زال ، وأن فكره صفا ورأسه خفت فبدأ يضحك عالياً ويسأل نفسه فى دهشة كيف يمكن أن تستقبله « أرابيلا » وهو على هذه الصورة الجديدة . كان الظلام يملأ البيت عندما عاد . والتعثره فى السير أضاع وقتاً طويلا قبل أن يجد نورا يضىء به المكان ، ومن ثم وجد أن الآثار المتخلفة عن تجفيف الخنزير ومن نشر كميات الشحم وشرائح اللحم واضحة إلا أن الشحم واللحم لم يكن لهما وجود . غير أنه وجد بضع كلمات كتبتها زوجته على مظروف قديم علقته فوق نفاخة اللهب بجوار المصطلى وجرت الكتابة كالآتى :

« ذهبت إلى بعض الأصدقاء لأقيم عندهم ولن أعود . »

بقى فى البيت لا يبرحه طيلة اليوم التالى . وتخلص من بقايا الخنزير ، بإرسالها إلى « الفردستون » وقام بجهد شامل لتنظيف المكان ثم أغلق البيت بالقفل ووضع المفتاح فى مكان معروف « لأرابيلا » حتى تجده لو عادت . وذهب إلى « الفردستون » ليعمل فى أشغال البناء .

وعندما عاد إلى البيت ليلا وجد أن زوجته لم تحضر فى أثناء غيابه . ومر اليوم الثانى دون أن تحضر ، وكذلك اليوم الثالث ، وأخيرا جاءه خطاب منها

تخبره فيه أنها أصبحت لا تطيق العيش معه ، وأنه خامل الذكر عديم النشاط ، وأن أسلوب حياته لا يعنيها فى قليل أو كثير ، وأنه لا أمل لها فى أن يتحسن وضعه أو وضعها فى المستقبل القريب . واستمر الخطاب يقول إن والديها كانا يفكران فى إمكان الهجرة إلى استراليا إذ أن لحم الخنزير لم يعد بالتجارة الرابحة فى تلك الأيام وأنهما قررا أخيرا أن يسافرا وتقترح عليه أن يوافق على أن تصحبهما إلى هناك ، فامرأة مثلها لا بد أن تجد هناك من الفرص ما يفوق ما تجده الآن فى بلد ميت كبلدها .

أجاب « جود » على خطابها قائلا إنه لا يمانع بتاتا فى سفرها بل بالعكس يعتقد أن سفرها عمل ينطوى على الحكمة طالما أنها تود أن تسافر ، وطالما أن السفر قد يكون لصالح كل منهما . وبعد أن انتهى من كتابة خطابه ، وضع بداخله ماحصل عليه من بيع لحم الخنزير وأضاف إليه كل مالديه من مال ولم يكن هذا بالشيء الكثير .

من ذلك اليوم انقطعت عنه أخبارها إلا ما كان يسمعه عنها بطريق الصدفة رغم أن أباها وأفراد عائلتها لم يبادروا بالسفر بل ظلوا حتى فرغوا من بيع أمتعتهم وممتلكاتهم ، وعندما علم أن بيتا عائليا كان على وشك الانعقاد فى بيت والد « أرابيلا » ، أحضر « جود » عربة صغيرة وضع عليها أثاث بيته وممتلكاته الشخصية وأرسلها إلى هناك حيث يمكن أن تباع لحساب « أرابيلا » مع غيرها من الأشياء ، أو حيث يمكن أن يباع منها القدر الذى يتفق ورغباتها .

بعد ذلك انتقل إلى « الفرديستون » واتخذ لنفسه مسكنا هناك . وفى أثناء تجواله فى المنطقة وقع بصره فى نافذة أحد الحوانيت على الإعلان اليدوى الذى يعلن عن بيع أثاث حميه . وعندما دقق النظر فى تاريخ البيع وجده قد مضى أجله دون أن يفطن له فيذهب بالقرب من مكان البيع . وعقب ذلك ببضعة أيام دخل دكانا مظلما لأحد سماسرة المزادات وكان يقع فى الشارع الرئيسى للمدينة . ومن بين مجموعة كبيرة من الأشياء التى لا تجمعها رابطة كأوانى الطبخ والمشاجب ،

والشمعدانات النحاسية ، والمرايا المتحركة وغيرها من الأشياء المكدسة فى الجزء الخلفى من المتجر كان يبدو أنها مجلوبة لتوها من حلقة بيع ، استطاع أن يعثر على صورة صغيرة داخل إطار وكانت الصورة صورته .

كانت صورة له سبق أن صورها لنفسه وضع لها إطارا لدى صانع قريب ثم قدمها إلى « أرابيلا » للذكرى عقب زواجهما مباشرة . كانت الصورة لا تزال تحمل إهداءها له وتاريخ هذا الإهداء ، ولابد أن « أرابيلا » ألقت بها مع بقية الأشياء التى رغبت فى أن تتخلص منها عن طريق البيع العلنى .

قال الواسطة «السمسار» الذى لم يلحظ أنه صاحب الصورة إذ رآه يطيل النظر إليها وإلى الأشياء الأخرى أمامه : «هذه مجموعة صغيرة أشتريتها من حلقة بيع علنى عقدت فى الأكواخ التى تقع على الطريق إلى « ميريجرين » . إن إطار الصورة مفيد للغاية ويمكن لك أن تستخدمه بعد أن تنزع الصورة عنه وتستطيع أن تشتريه مقابل قليل من المال .

كشف هذا الحادث الصامت الذى وقع مصادفة ، الموت الكامل لكل عاطفة رقيقة فى قلب الزوجة ، كما أصبح هذا الحادث هو الضربة الصغيرة النهائية التى قضت على كل حب فى قلبه . فدفع المبلغ الصغير الذى طلبه التاجر منه وأخذ الإطار وبداخله الصورة . وعندما عاد إلى بيته ألقى بالإطار والصورة فى نار المصطلى .

وبعد بضعة أيام بلغه أن « أرابيلا » وأبويها قد رحلا عن البلدة . كان قد أرسل لها مقترحا عليها أن يأتى ليودعها قبل سفرها كاجراء شكلى على الأقل ، ولكنها رفضت الفكرة على اعتبار أنها هى التى رغبت فى السفر ، فسلم بوجهة النظر هذه ، ومن المحتمل أنها كانت على حق فى ذلك . وفى المساء التالى لسفر زوجته وعقب انتهائه من عمله ، خرج يتمشى فى ضوء النجوم وفى الطريق الذى ألفه جيدا وهو الطريق الموصل إلى أعلى الهضبة وهى التى كانت مسرحا لحياته العاطفية . كان الشعور الغالب عليه حينذاك أنه عاد أخيرا إلى حياته الطبيعية .

ولم يستطع أن يجمع شتات نفسه فبينما كان يسير فى طريقه القديم المعهود ، بدا له أنه لم يزل صبيا ، لم يضف الزمن إلى عمره يوما واحدا منذ وقف يحلم على قمة ذلك التل عندما ثارت حماسته «لكرايستمينيستر» ، وتأججت لهفته على تلقى العلم لأول مرة .

قال . « ومع ذلك ، أنا الآن رجل يافع ولى زوجة . والأكثر من ذلك أننى بلغت مرحلة النضج التى عندها يختلف الرجل عادة مع زوجته ، ثم يفقد حبه لها ؛ ثم يتعارك معها ، وأخيرا ينفصل عنها » . فى تلك اللحظة ، تذكر أنه يقف فى مكان لا يبعد كثيرا عن المكان الذى قيل عنه إنه المكان الذى تم فيه الانفصال بين أبيه وأمه .

وفى نقطة أبعد من تلك قليلا ظهرت قمة المرتفع التى خيل إليه فى وقت من الأوقات أنها تمثل مدينة « كرايستمينيستر » وعندما رأى لوحة المسافات ظاهرة على جانب الطريق أمامه ، اقترب منها وقرأ الرقم المحفور عليها وهو الرقم الذى يوضح عدد الأميال التى تفصله عن المدينة ، وهنا تذكر أنه ذات مرة ، فى أثناء عودته إلى البيت ، حفر على ظهر هذه اللوحة بأزميله ، وكان ماضى النصل ، بضع كلمات يعبر بها عما يجيش فى صدره من آمال . كان قد فعل ذلك فى الأسبوع الأول لعمله الجديد قبل أن تحوله عن أهدافه فى الحياة امرأة لا تصلح له ولا تليق به ، وسأل نفسه عما إذا كانت الكتابة لا تزال على حالها ، وعما إذا كان فى الإمكان قراءتها ، فذهب إلى اللوحة وأزاح بيده ما تراكم عليها من أعشاب . وعلى ضوء عود ثقاب استطاع أن يقرأ ما سبق أن نقشه فى حماس شديد .

إلى هنـــاك

ج. ف.

إن مرأى هذه الكلمات ، وبقاءها على وضوحها ، وسط ما يحيط بها من حشائش أشعل فى صدره شرارة من اللهب القديم . لاشك أنه يجب أن يعيش

حياته ، ويبلو حلوها ومرها طبقا للخطة التي رسمها لنفسه وأن يتحاشى أحزانه السقيمة حتى لو رأى القبح مجسما في كل ما يحيط به ، وأن يعمل الخير بنفس راضية ، وهذا ما سمع أنها الفلسفة التي اعتنقها ونادى بها فيلسوف يدعى « سبينوزا » .

لقد سمع أن فيلسوفا يدعى « سبينوزا » تتلخص فلسفته في جملة واحدة هي : « العمل الخيّر بنفس راضية » فقرر أن يصبح هو الآخر من أتباع هذه الفلسفة .

وقد يضطر إلى الدخول في صراع مع حظه السيء ويعود إلى العمل على تحقيق نواياه الأولى .

وعندما انتقل إلى بقعة أخرى تبعد قليلا عن الأولى ، ظهر الأفق أمامه ممتدا في اتجاه شمالي شرقي وأشرقت في السماء هالة من نور ضعيف ، سحابة سوداء بحجم الكف لا يمكن أن يراها سوى فرد يتمتع بنعمة الإيمان وكان ذلك كافيا له كي يشد رحاله إلى « كرايستمينيستر » بمجرد أن تنتهي فترة تلمذته الصناعية .

ومن ثم عاد إلى مسكنه وقد تحسن مزاجه فجثا يتلو صلاته .

البَابُ الثّانى

في كرايستميستر

« ليرحمه الله ، خرج إلى الدنيـا
والضياع نصيبه » .

« سوينبيرن »

« علم نفسه فارتفع شأنه بين أهل
الحى .
ونما حبه مع الزمن وكبر » .

« أوليد »

في « كرايستمينيستر »

كانت المرحلة التالية الجديرة بالذكر في حياة « جود » حين ظهر يسير قاطعا ذلك الطريق الذى أظله صغيرا ، وعرف فيه بعد ثلاث سنوات حبه وخطوبته لأرابيلا ثم قطع حياتهما الزوجية المضطربة . كان يسير في اتجـــاه مدينة « كرايستمينيستر » عند نقطة تبعد ميلا أو ميلين إلى جنوبهما الغربي .

وأخيراً وجد نفسه بعيداً عن جو « ميريجرين » و « الفرديستون » إذ أنه هجر عمله ، حاملا أدواته فوق ظهره ، وهو في طريقه إلى شيء جديد ، بداية كان يتطلع إلى تحقيقها منذ ما يقرب من عشرة أعوام ، وحالت دون ذلك خطوبته وتجربة زواجه من « أرابيلا » .

أصبح « جود » الآن شخصا يمكن وصفه بأنه شاب له ملامح قوية جادة تدل على أن صاحبها مستغرق في تفكير عميق . أما وجهه فكان كالح اللون وعيناه كالحتين كذلك . وله لحية سوداء مهذبة الشكل تبدو بالنسبة لنموها وكثافتها أنها تناسب من هو أكبر منه سنا ، كما أنها بالإضافة إلى شعره الغزير المجعد مصدر للمتاعب فيعاني منها كثيرا . وخاصة عند ما يضطر إلى تمشيطها ليزيل ما يعلق بها من الغبار الذى يتطاير من الصخور التي يقوم بنحتها . أما مقدرته في هـذا العمل فإنه اكتسبها في الريف فقط فهي تشمل ، بالإضافة إلى نحت الصخور وتهذيبها ، قطع الأحجار وإعدادها للبناء فوق المقابر ، والتجديد العادى للكنائس القديمة والنحت بصفة عامة . ولو أنه في لندن لكان من المرجح أن يصبح من الفنانين المتخصصين فيكون « بناء للنماذج » أو نحاتاً لأشكال النباتات أو أوراق الشجر ، أو ربما مثالا .

في ذلك الأصيل استقل عربة من «الفردستون» ، إلى أقرب قرية تقع في اتجاه المدينة ، وهو الآن يقطع الأميال الأربعة الباقية لرغبته في المشي لا لحاجته إليه فهو يتصور دائما أنه لا بد أن يصل المدينة هكذا سائرا على قدميه في هذا الطريق .

أما الدافع الذى دفعه للذهاب فكان غريبا ومصدره يمت بأكبر الصلة للناحية الانفعالية أكثر من الكيان العقلى كما هو الحال لمن هم فى سنه من الشباب . ففى يوم من الأيام وهو يسكن « الفردستون » توجه إلى « ميربحرين » لزيارة خالته العجوز ولاحظ بين الشمعدانات النحاسية على رف المائدة صورة لفتاة لها وجه صغير رقيق التقاطيع تضع فوق رأسها قبعة واسعة الأطراف تتدلى فوق خصل من الشعر المتألق كهالة من نور . وعندما سأل عن صاحبة الصورة أجابته الخالة العجوز فى خشونة بأنها إحدى بنات خئولته وتدعى — سو برايدهد ، وهى من الفرع المكروه فى الأسرة . وبعد أن وجه عدة أسئلة إلى العجوز فى هذا الشأن عرف منها أن قريبته هذه تسكن « كرايستمينيستر » وإن كانت الخالة لم تستطع أن تدله على المكان الذى تعيش فيه الفتاة ولا العمل الذى تقوم به .

لم تقبل الخالة أن تتنازل عن الصورة « لجود » ، ولكن الصورة ظلت تضغط على خياله فى قوة وفى النهاية أصبحت عنصراً أساسياً من مكونات عقله الباطن ودافعا خفيا يدفعه إلى أن يتبع صديقه المعلم حيث يعيش فى « كرايستمينيستر » .

توقف « جود » على قمة منحدر وعر وأخذ يمتع نظره بمنظر المدينة عن بعد فبرزت أمامه بأبنيتها الصخرية ذات السقوف المرتجلة وارتفعت برءوسها على الحدود القريبة لمقاطعة وسكس ، وكانت الأبنية يميل الواحد منها على الآخر فتتشابك أعناقها وتتعانق أطرافها كقطعة حية فى جسد حى . وإلى أقصى الشمال يتدفق نهر « التيمز » فى هدوء بين حقول تلك المملكة القديمة . أما الأبنية فكانت فى لحظة الغروب تقبع فى هدوء بينما دوارة هنا وأخرى هناك تظهر فوق الأبراج والقباب فتحول المنظر من صورة كالحة إلى أخرى ذات التماع .

وعندما وصل إلى قاع المنخفض سار على الطريق المستوى بين أشجار الصفصاف وقد تلاشى كيانها فى ضوء الغسق وسرعان ما وصل إلى أول خط المصابيح التى تضىء المدينة وبعض هذه المصابيح بالذات سبق أن أضاءت السماء بضياء بهيج كان له تأثير السحر على عينيه المتعبتين فى فترة الأحلام التى مرت به منذ سنوات .

وأصبحت المصابيح الآن تومئ إليه بصورتها الباهتة فى جو شديد الغموض كأنما تزهد فى وجوده على الرغم من انتظارها إياه كل هذه السنين وعلى الرغم مما بدا عليها من شعور بالمرارة والخيبة لتأخره عن المجىء .

كان فى سيره قريب الشبه « بديك هيننجتن » ، ذلك التاجر الفذ ذو الاتجاهات الروحانية والذى ما كان للكسب المادى تأثير على نفسه فهو يقطع طرقات الجزء الخارجى من المدينة وفى مشيته الحذر الذى تتسم به خطوات المستكشفين ولم ير شيئا يذكر من روح المدينة فى ضواحيها الواقعة على هذا الجانب منها فطلبته الأولى أن يحصل على مكان يأوى إليه وأخذ يختبر بكل عناية الأماكن التى يحتمل أن تهيء له إقامة بأقل تكاليف ممكنة . وبعد بحث استأجر غرفة فى ضاحية تسمى « بيرشيبا » وإن لم يدخل فى علمه عندئذ أنها تدعى كذلك ، وهنا نزل . وبعد أن شرب قليلا من الشاى بدأ نشاطه فى قوة .

كانت ليلته يتيمة القمر ، شديدة الريح . ولكى يستكشف طريقه وقف تحت مصباح ونشر أمامه خريطة للمدينة أحضرها معه ، وأخذت الريح تتجاذب أطراف الخريطة بشدة وتهزها بين يديه هزا . ولكنه استطاع أن يستكشف منها الطريق الذى يسلكه كى يصل إلى قلب المدينة .

وبعد أن سار مسافة طويلة ، ودار حول الأبنية دورات عديدة وصل إلى بناء قديم من العصر الوسيط واستطاع أن يدرك من واجهته أنه إحدى الكليات فدخلها وطاف خلالها ووصل إلى أركان لم يسبق أن رأت الصباح . وبجوار هذه الكلية رأى أخرى ، وعلى بعد قليل من الثانية وجد ثالثة وهكذا أحس بأنفاس المدينة الوقورة تطوقه من كل جانب . وكلما مر بآثار من أبنية أو دور لا تنسجم مع روح المكان غض بصره عنها كأنه لم يرها .

وبدأ جرس يدق فأرهف السمع حتى جاءت الدقة الواحدة بعد المائة فخيل إليه أنه أخطأ فى العد إذ لا بد أن تكون الدقات مائة لا غير .

وعندما أغلقت الأبواب ، ولم يعد فى مكنته أن يخترق المربعات الداخلية ،

ظل يتسكع تحت الأسوار وبالقرب من البوابات الضخمة ويتحسس بأصابعه أشكالها وما عليها من نقوش بارزة . ثم مرت الدقائق واختفى الناس من أمامه بعد أن كان يراهم ذاهبين قادمين يتحركون فى كل اتجاه ، ومازال يدلف وسط الظلال المنتشرة حوله . لقد أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته متأملا بعين الخيال هذه المناظر الحبيبة إلى نفسه فماذا يهم لو أنه أراح خياله المجهد ليلة واحدة فحسب وكلما أضاء مصباحه وسط الظلام المتكاثف وسقط النور فوق الأبنية والمنشآت المتراصة رأى على خط الأفق البعيد المظلم ظلال البروج المشيدة وصور الأطراف المسننة للمعاقل الضخمة . وفى بطن الممرات المظلمة التى أصبحت تخلو الآن تماما من المارة ، والتى أصبح وجودها نفسه فى تلك اللحظة نسيا منسيا ، أخذت تبرز إلى الأروقة المتراصة على الطريق صور لمشربيات وأفنية خارجية ، من طراز بهى مزركش ترجع عمارته إلى العصر الوسيط ، ويزيد من مسحة القدم التى تكسو جنباتها رائحة العفن الصادرة عن الحوائط القديمة النخرة . خيل إليه من الأمور المستبعدة تماما أن تلك الغرف المتداعية والقاعات القديمة يمكن أن تكون موطنا للفكر وموئلا للعلم وساحة للمعرفة والحكمة .

ولما كان لا يعرف مخلوقا فى هذا المكان ، بدأ يحس بانعزال كيانه عن كل ما يحيط به كما لو أنه شبح يتحرك . وجعلته هذه الفكرة يشد أنفاسه شدا ويستغرق فى تفكير عميق أسكرته فكرة أنه تقمص شبح نفسه وعند ذلك منح كل تفكيره لما حوله من آثار تبدو هى الأخرى كأنها أشباح رابضة فى زوايا الأبنية .

ففى أثناء الفترة التى قضاها فى التحضير لهذه المغامرة الكبيرة ، وهى الفترة التى اختفى فيها كل ظل لزوجته وكل أثر لأثاث بيته ، كان قد أقبل على القراءة بنهم شديد ، حتى استطاع أن يدرس ، بأكبر قدر مستطاع لمن فى مركزه وظروفه ، تاريخ حياة الأعلام الذين أمضوا شبابهم داخل هذه الأسوار الرهيبة ولم يتركوها فى سنوات النضج التى تلت ذلك . بعض هؤلاء الأعلام برزت صورهم الآن فى خياله وكانت صوراً مستمدة من قراءاته السابقة وطغت على غيرهم ممن حظوا من اهتمامه بالقدر الأقل . أما الريح وهى ترتطم بالأركان والزوايا والأعمدة وقوائم

الأبواب فكان صوتها يذكره بحركات أولئك الأعلام كما أن احتكاك أوراق الشجر وسيقان النباتات حمل إليه همس تلك النفوس الحزينة . كذلك ذكرته الظلال الهائمة حوله بالأجسام النحيلة لأولئك القوم وهم يتحركون فى عصبية ظاهرة ، ويعطفون عليه فى وحدته . ووسط طبقات الظلام المتكاثف حوله كان الأمر يبدو وكأنما اصطدم بتلك الأشباح الطليقة دون أن يحس بكيانها المادى .

أصبحت الطرقات الآن خالية تماماً من الناس ولكنه لم يجرؤ على السير فيها خوفا من تلك الأشباح ، ووسط هذه الأشباح خيل إليه أنه يرى شعراء من قديم الزمان وشعراء حديثين . شعراء فى عهد « شكسبير » وآخرين قضوا نحبهم منذ فترة طويلة . بل إنه رأى شبح ذلك الشاعر الغنائى المفرد الذى ما زال مقامه بيننا ولم يرحل . وأمام عينى « جود » مر موكب الفلاسفة من أصحاب الفكر ولم يكونوا جميعا من أصحاب الحياة المعروفة والوجوه الصارمة والشعر الأشيب كما يبدون فى الصور المدلاة على الحوائط ، ولكن كان منهم من توردت وجوههم وامتشقت قدودهم وخفت حركتهم كما لو كانوا فى شرخ الشباب . كان منهم أعلام الدين متدثرين بمسوح الكهان وأقرب هؤلاء إلى إدراك « جودفاولى » المؤسسون الحقيقيون للجماعة الدينية المسماة « بالعجالية » (وهم الذين يعتمدون على العجالة أو المقال المختصر لنشر دعوتهم ومن بينهم القس « نيومان») وكان منهم أيضا الثلاثة الكبار : الخطيب المتحمس ، والشاعر الملهم ، والأديب الرامز . الذين ما زالت أصداء تعاليمهم تتردد فى أذنيه وتؤثر فى مجرى حياته كلها . وفى فيض التأملات التى أخذت بجماع نفسه اكتشف أنه يكره الابتهـــال إلى هؤلاء الثلاثة الكبار فى نظره وذلك فى حضرة الشخصيات الأخرى من أبناء المكان حيث يبدون حوله ، منهم القاضى ذو الشعر المستعار ، والسياسى والعاشق المتبذل ، وعالم المنطق ، والمفكر المتشكك . والمؤرخ الحليق العارضين ومع ذلك يكتب عن المسيحية فى احترام شديد . منهم أمثال هذا الأخير وإن اختلطوا بكل الفئات وخيروها . ومنهم أيضا المؤمنون المخلصون . كل هؤلاء ترددوا على المكان فى حرية مطلقة وجابوا أنحاءه .

أخذ يتأمل رجال السياسة فى اتجاهاتهم المتباينة ، أولئك الذين عرف عنهم صرامة التفكير والبعد عن الخيال الحالم ويفكر فى حياة العالم والخطيب والصابر والمكافح وحياة الرجل صاحب العقل الذى نما بقدر نموه فى سنوات العمر ، والذى ضمر عقله وتوقف عن التفكير كلما زادت سنوات حياته :

رأى بعين خياله خليطا عجيبا من أقطاب العلم وأقطاب اللغة يمرون أمام عقله بوجوه مفكرة وجباه معروقة ونظرة واهية كنظرة الخفافيش ، ثم رأى شخصيات من أصحاب المناصب الرسمية كالمحافظين ونواب الملك ، ولم يكن ليهتم كثيراً بهؤلاء . ورأى أساطين القضاء وأعلام القانون وشخصيات أخرى صامتة مضمومة الشفتين لم يعرف عنها سوى أسمائها . وعندما مرت أمامه صور رجال الدين منحها من نفسه اهتماما أكبر بسبب ما سبق أن جاش فى صدره من آمال وأحلام وثيقة الصلة بهؤلاء . ومن هذه الطائفة رأى بعين خياله عدداً كبيرا يتميز بعضهم بالقلب الكبير ، وبعضهم بالعقل الكبير . رأى ذلك الذى اعتذر عن الكنيسة باللغة اللاتينية . رأى المؤمن الطاهر مؤلف « ترنيم المساء » وبالقرب منه رأى الواعظ المتجول ، ومؤلف الترانيم الغيور على الدين ، ذلك الذى شابت حياته العائلية كل أنواع الصعاب وهو فى ذلك مثله هو سواء بسواء .

ووجد نفسه يدخل مع هؤلاء جميعاً فى أحاديث بصوت عال كما لو كان ممثلا فى إحدى الفواجع القديمة يوجه الخطاب للمتفرجين ويناجيهم من أمام المسرح . وظل على هذا المنوال ثم سكت فجأة فى رعدة إذ اكتشف سخافة ما يفعل فلعل تلك الكلمات المتقطعة التى خرجت من فمه طرقت أسماع طالب أو مفكر جالس أمام المصباح خلف الحوائط فرفع رأسه من تحت المصباح متسائلا فى عجب عن الصوت وما يدل عليه وأدرك الآن أنه ، من حيث كيانه المادى أصبح منفرداً بالمدينة القديمة باستثناء مواطن هنا ومواطن هناك يسير عائداً إلى بيته فى ساعة متأخرة من الليل ، كما أدرك أنه على وشك أن يصاب بالبرد من جراء جلوسه فى العراء .

من خلال الظلام سمع صوتاً حقيقياً يستخدم اللهجة المحلية : « أيها الشاب

مضى عليك وقت طويل وأنت جالس على هذه الصخرة فماذا تريد أن تفعل؟ »

نطق بهذه الجملة شرطى ظل يرقب « جود » دون أن يفطن هذا الأخير إليه .

فعاد « جود » إلى البيت ثم آوى إلى فراشه بعد أن قرأ قليلا عن حياة أولئك الرجال وما أسدوه إلى العالم من خدمات وذلك فى كتاب أو كتابين عن رجال الجامعة . وبينما هو يقترب من النوم أخذت شفتاه تتمتمان بكلمات وجمل من الأقوال الخالدة لهؤلاء الرجال . بعض هذه الأقوال والجمل يقولها بصوت عال وبعضها لم يكن يفهم معناه كأنما أشباح عدة تتمصته ، كل شبح يتحدث حديثاً خاصاً . أحد هذه الأشباح شرع يناجى « كرايستمينيستر » ويقول : « أيتها المدينة الجميلة ! ياجمالك الوقور الحبيب إلى النفس الذى يشيع الهدوء والسلام . إنك بمنأى عن الخلافات المذهبية الحادة التى يتسم بها عصرنا هذا ! ياجلال طلعتك ! سحرك الدائم ينادينا ويقودنا إلى الهدف الأسمى ، إلى الكمال الأعلى ! »

صوت آخر كان صوت صاحب « قانون القمح » الذى خيل إليه أنه رأى شبحه فى مربع الناقوس الكبير وكأنه ينطق بالعبارات التاريخية التى نطق بها فى أهم خطاب له وقال : قد أكون على خطأ ياسيدى فيما أقول ولكن اعتقادى هو أن واجبى نحو وطنى المهدد بالمجاعة يتطلب منى أن أنادى بضرورة الالتجاء إلى العلاج العادى الذى يجب اللجوء إليه الآن فى مثل هذا الموقف وهو الحصول على الطعام الضرورى للناس من أى ركن من أركان العالم « تستطيعون إذا شئتم أن تطردونى غداً من منصبى ولكنكم لن تحرمونى من الشعور بأنى مارست الحق المخول لى وأن هذه الممارسة تمت نتيجة لدوافع شريفة بعيدة عن الطمع ، وعن الربح المادى »

بعد ذلك أتى حديث الأديب الماكر صاحب المقال الخالد عن المسـيحية : « كيف يجوز لنا أن نصفح عن عدم التفات العالم الوثنى ذى المجتمعات الفلسفية القديمة واستهتاره المقصود حيال تلك الشواهد القوية (المعجزات) على القدرة الربانية العاوية ؟ لقد أدار حكماء اليونان والرومان ظهورهم للمنظر الرهيب وغفلوا عما لحق بالقوانين الخلقية والسلطة المادية من تغيرات » .

ثم سمع الشاعر الذى يعتبره النقاد آخر المتفائلين :

هـذه الدنيـا صنعها صـانع
وصـاغها لكل فرد منـا !

* * *

وكل جهد يبذل هو لتثبيت أقدام
البشرية نتيجـة لخطة عامة .

ثم سمع عبارة أحد المتحمسين الثلاثة : مؤلف كتاب «الدفاع» : «فى اعتقادى أن اليقين المطلق بحقائق اللاهوت الطبيعى نشأ عن تجميع مقصود لسلسلة من الاحتمالات ... الاحتمالات التى لا ترقى إلى مرتبة الثبوت المنطقى قد تخلق لدى المرء نوعا من اليقين الفعلى . »

ثم تتمتم شفتاه بأمور أقل تعقيداً من سابقتها :

« لماذا نسقط مغشياً علينا ونرهب الحياة بمفردنا إذا كان الموت ديناً علينا نؤديه وحدنا ؟ »

كذلك سمع بعض الفقرات ينطقها الشبح ذو الوجه القصير على اعتبار أنه أحد المتأملين فى أمور العالم . هذه الفقرات تقول :

« عندما أتأمل قبور العظماء الفقراء يموت فى نفسى كل شعور بالحسد . وعندما اقرأ النقوش التذكارية على قبور من عرف عنهن الجمال تتطهر نفسى من الشهوات . وعندما أرى أحزان الوالدين مسجلة على شواهد القبور يذوب قلبى أسى وينفطر حزناً . وعندما أرى قبور الوالدين أنفسهم لا اجد فائدة ترجى من وراء التأسى على من سبقونا ولا بد أن نلحق بهم إن عاجلا أو آجلا »

وبعد هؤلاء جميعاً تكلم كادن ذو صوت رقيق النبرات فذكر العبارات التالية الوديعة التى أحبها منذ طفولته الباكرة .

« يا إلهى علمنى كيف أعيش حتى لا أخشى الموت وأعتاده »

كما اعتاد فراشى .

يا إلهى علمنى كيف أموت . . .

وفى أثناء ذلك استغرق فى سبات عميق ولم يفق حتى الصباح واختفى الماضى بأشباحه ولم يعد أمامه سوى الحاضر بكل شواهده فأسرع بالجلوس فى فراشه وخيل إليه أنه نام أكثر مما يجب فقال :

— « يا إلهى . نسيت كل شىء عن قريتى الجميلة ، كما نسيت طول الوقت أنها هنا ! ونسيت أيضاً صديقى القديم معلم القرية . »

وكلماته عن صديقه المعلم ربما ينقصها الحماس الذى تحدث به عن قريته .

(٢)

اضطر « جود » تحت وطأة الحياة وضروراتها أن يفكر فى نفسه ومعاشه . فشعر بالجانب الشاعرى من روحه ينهار وبقريحته المجلوة دائماً بجليل الأفكار ونبيلها يخبو بريقها وتظلم ، وكان لزاماً عليه أن ينهض للبحث عن عمل ، يعيش منه حتى لو كان عملا يدويا بسيطا فهذا النوع من العمل يكاد يكون باعتراف الجميع هو الوحيد المسمى عملا .

وعندما سار فى شوارع المدينة بحثاً عن هذا الذى ينشده ، اكتشف لدهشته أن الكليات الجامعية تغير مظهرها فى عينيه فلم تعد تبتسم له أو ترحب بمقدمه ، بل إن بعض أبنيتها بدا عليها التعالى والعظمة والبعض تبدو كمقابر الأسرات القائمة فوق الأرض كأن مسحة غريبة تشيع فى كل الأبنية . واختفت منها تماما أرواح العظماء .

وشرع يتأمل ما حوله من أبنية ويدرسها لا كناقد فنان بل كان أقرب إلى الصانع الفاحص لإنتاج زملاء له أفنوا حياتهم فى المهنة وسخروا عضلات أذرعهم للتشييد والبناء . وأخذ يتفحص النماذج المصبوبة ويتحسس جوانبها كواحد من المطلعين على سر صنعتها ثم يقول عنها إنها عسيرة الصنعة أو سهلة الأداء وإذا

ما كان إنجازها استغرق وقتاً قليلا أو كثيراً ، واحتاج إلى ذراع قوى أو أنها مناسبة الأداة التى استعملت فيها .

إن ما كان بالليل بالغاً حد الكمال بدت حقيقته بالنهار وبها ما بها من عيوب قلت أو كثرت ، رأى فى وضوح ما لحق الإنشاءات القديمة من اعتداءات غاشمة على قدسيتها ، وإهانات وإساءات ، فهاجت نفسه لحال الكثير منها وذاب حسرة وألماً كما لو كانت تلك الأبنية كائنات تمزقت أوصالها وأثخنت أجسادها بالجراح ، وتشوهت ملامحها فى أثناء اقتتالها مع الزمن وتقلبات الطقس واعتداءات الإنسان .

إن ما رآه من انهيار فى هذه الوثائق التاريخية نبهه إلى أنه لم يبدأ عملياً كما كان ينتوى . إذ جاء ليعمل ويعيش بالعمل وها هو الصباح أوشك على الانقضاء . كان من الأمور التى تبعث الأمل فى النفس إدراكه بأنه حيثما تكثر العمائر المهدمة والأبنية القديمة المتهاوية لا بد لمن كان مثله يحترف البناء أن يجد فرص العمل مهيأة لذا أخذ يفتش عن الطريق المؤدى إلى بيت البناء معتمداً فى ذلك على بيانات سبق أن أعطيت له فى « ألفردستون » وعند ما وصل إلى هناك سرعان ما وقرت سمعه الأصوات المألوفة لديه أصوات الأزاميل وحجارة السن .

كان فناء المكان مصنعاً صغيراً لتجديد حجارة الأبنية المتهدمة ، فى أنحائه عدد كبير من النماذج الصخرية المنحوتة ذات الخطوط المستقيمة والدوائر الكاملة وجميعها تشبه ما سبق أن رآه على الحوائط القديمة والأبنية المتهدمة من نماذج ورسوم . وعملية التجديد هذه كبيرة الشبه بما تلقيه الكليات الحديثة من تفسيرات حين تتكلم عن الشعر القديم ولعل بعض هذه الرسوم فى عهدها الأول كانت تعتبر نثراً وهى جديدة وما على نماذجها ورسومها من مسحة القدم توشك أن تكتسب صفة الشعر وليس هذا بالأمر اليسير التحقيق لمعظم الرجال وإن كان سهلا ميسوراً لأى بناء مهما صغر حجمه وهان شأنه .

سأل عن رئيس العمال فى المصنع الصغير وفى أثناء ذلك أخذ يتلفت حوله متطلعاً إلى المسلسلات الزخرفية والبراقع الرأسية والطرات المستعرضة والأنابيب الأسطوانية والشرفات والمشربيات والمحصنات وجميعها قائمة فوق موائد النحت الصخرية ومصاطب التشغيل بعضها أوشك على الإنجاز وبعضها أنجز فعلا وفى طريقه إلى أن يرفع من مكانه . وجميعها تتميز بدقة الصنع ورشاقة الخط وبساطة الأداء واستقامة الزوايا وتطابقها . أما الرسوم الناقصة التى تتكون منها الفكرة الأصلية فكانت مطمورة فى حوائط المبانى القديمة حيث الدوائر المتآومة والخطوط المهوشة وخلل القواعد وإهمال التنظيم .

وفى تلك الفترة أحس بفيض من النور يجلو بصيرته وأدرك لتوه أن هـــذا المكان المتواضع يشكل دائرة للجهود البشرية لا تقل أهمية عن غيرها من دوائر العلم والدراسة التى تضمها أعرق الكليات . غير أن هذه الفكرة مالبثت أن ذابت تحت تأثير فكرته القديمة فهو وإن كان على أتم الاستعداد كى يقبل أى عمل يقدم إليه بناء على توصية من رئيسه السابق ، إلا أنه لن يقبله إلا على اعتبار أنه إجراء مؤقت فقط ، هذا هو الشكل الذى اتخذته لديه رذيلة القلق السائدة فى عصرنا الحديث .

أكثر من هذا ، لاحظ أن العمليات فى خير الوجوه لم تكن غير عمليات نقل وترقيع وتقليد مما دعاه إلى أن يتخيل أن ذلك لا بد راجع إلى سبب محلى مؤقت ، وما خطر بباله فى تلك اللحظة أن طراز العصر الوسيط فى الفنون صار جثة هامدة كحفرية من الحفريات التى يعثر عليها الباحث مطمورة بين الطبقات الفحمية وأن تطورات أخرى فى العالم حوله تظهر ولم يعد فيها مكان للمعمار القوطى وكل ما يمت له بصلة ؛ ولم يكن قد اكتشف ذلك العداء المميت بين المنطق المعاصر وتلك النزعة الخيالية إلى توقير ما يراه هنا كثيرا من فن .

ولما لم يوفق إلى الحصول على عمل قرر الانتقال إلى مكان آخر وهنا تذكر قريبته . وكان إحساسه بوجودها فى مكان ما لا يبعد كثيرا عن مكانه يراوده

كثيرا ويقوى فى صدره تدريجيا حتى يكاد يصــــل إلى أن يكون شعورا طاغيا متحكما : وكم تمنى لو استطاع أن يستحوذ على تلك الصورة الجميلة لها . وأخيرا كتب لخالته كى ترسلها له فوافقت ولكنها رجته فى إلحاح ألا يجلب المتاعب على نفسه وعلى الأسرة بذهابه لزيارة الفتاة أو أقاربها . ولما كان شخصا رقيقا فإنه لم يعد العجوز بشىء بل اكتفى بأن وضع الصورة فوق رف المكتبة وقبلها دون أن يدرى لذلك سببا . شعر بالراحة ، وخيل إليه أنها من مكانها العالى ترقبه وهو جالس يتناول الشاى وكان ذلك بالشىء الذى يدخل السرور على نفسه المتلهفة على ما يربطها بانفعالات الحياة فى المدينة .

بقى عليه أن يفكر فى صديقه القديم معلم القرية ومن المحتمل أنه أصبح الآن قسيسا وقوراً . ولكنه لا يستطيع أن يبدأ فى تلك اللحظة جهوده للبحث عن شخص فى مركز محترم ، وهو فى حال غير مهندمة وطرائق حياته مازالت غير مستقرة ، وهكذا بقى فى عزلته . وعلى الرغم من أن الناس ظلوا يروحون له ويغدون ، إلا أن عينيه لم تريا أحدا منهم . ولما لم يكن قد اختلط بالمقيمين فى المكان بعد فإنه أحس كأن المكان غير قائم بالنسبة إليه . أما النقوش التى تمثل القديسين والأنبياء التى تزين النوافذ حوله ، والصور المعلقة فى الممرات والابهاء ، والنصب الضخمة ، والتماثيل النصفية . والدعائم المصورة على هيئة رءوس وتيجان . كل هذه بدت كأنها تتنفس الهواء الذى يتنفسه . وكأى غريب قادم للمرة الأولى إلى بقعة يتمثل فيها الماضى بكل صوره ، رأى ذلك الماضى يعلن عن نفسه بأسلوب قوى واضح لم يعتده السكان الأصليون لتلك البقعة ولم يألفوه .

ظل أياماً عدة يتجول فى الممرات المسقوفة والأفنية المربوعة داخل كليات الجامعة وأدهشه الأصداء العجيبة الصادرة عن وقع أقدامه على الأرض كأنها المطارق تدق دقا هادئا متتابعا . ولما كان غرامه « بكرايستمينيستر » ، فى ازدياد مضطرد فإن ذروة هذا الغرام تجسمت فى معرفته لكل ما يتعلق بتلك الأبنية والانشاءات من النواحى المادية والفنية والتاريخية معرفة فاقت ما لدى سكان تلك الأبنية .

وفى تلك اللحظة التى جرد نفسه فيها فى المكان الذى ظل يحلم به فترة طويلة أدرك أنه مازال بعيدا بعدا كبيرا عن تحقيق هدف حياته . وحائط واحد فقط يقوم حائلا بينه وبين الاتصال بالشباب السعيد من معاصريه الذين يشاركونه حياته العقلية وهم شبان لا يشتغلون بشيء طوال يومهم غير القراءة وتسجيل الملاحظات والحفظ واستيعاب ما يقرأون . حائط واحد ولكن ، ياله من حائط !

وفى كل يوم ، وفى كل ساعة ، بينما يخرج باحثا عن عمل ، يرى هؤلاء الفتية فى حضورهم وخروجهم يحتك بهم ويسمع أصواتهم ويرقب حركاتهم . وبتأثير جهوده الطويلة المتصلة فى مجال إعداد نفسه للمجيء إلى هذا المكان يجد فى حديث بعض هؤلاء الفتية وبخاصة الممتازين منهم ، اتفاقاً معهم فى الآراء والمعتقدات . ومع ذلك يبعد عنهم بعدا شاسعا كما لو أنه يعيش فى المريخ . وذلك حق فهو عامل بسيط فقير حديث عهد بالحياة ، وعندما مروا به لم يلحظوه ولم يسمعوا صوته بله أن يستضيئوا بنور عقله كما يفعلون مع أقرانهم فى الداخل . ومهما كانوا بالنسبة إليه فإنه بالنسبة إليهم لم يكن شيئا مذكورا . ومع ذلك خيل إليه أنه بمجيئه إلى هذا المكان يمكن لحياته أن تتصل بحياتهم .

على أن مستقبله مازال أمامه . ولو واتاه الحظ واستطاع أن يحصل على وظيفة مناسبة بذلك يمكن أن يتغلب على ما يعترض سبيله من صعاب . هكذا شعر بفضل الله عليه إذ وهبه الصحة الجيدة ، كما وهبه القدرة على العمل وبذلك أحس بشجاعته تنمو وبهمته تكبر . إنه فى اللحظة الراهنة يقف خارج أبواب كل الأماكن بما فى ذلك الكليات الجامعية ، وقد يصبح فى يوم من الأيام داخلها ، داخل صروح النور والمعرفة . وقد يطل فى يوم من الأيام على بقية العالم من خلال زجاج نوافذ هذه الصروح .

وبعد فترة تسلم رسالة جاءته من ورشة نحات الصخور تقول إن عملا ينتظره . وكان ذلك أول تشجيع له فقبله دون تردد .

كان « جود » صغير السن ، قوى البنيان وإلا لما استطاع أن يقوم بما أخذ على

عاتقه من أعمال ومهام منها الدراسة لفترة طويلة من الليل عقب عمل متصل يستغرق النهار بطوله . وأول شيء قام به بعد أن استقر فى مكانه هو أن اشترى مصباحاً ذا مظلة دفع فيه مبلغا كبيرا وبذلك استطاع أن يحصل على ضوء كاف يعينه على القراءة . ثم اشترى أقلاما وورقا وبعض الكتب التى هو فى حاجة إليها ولم يستطع أن يحصل عليها قبل مجيئه إلى هذا المكان . وعندما تم له ذلك قام بتعديل نظام غرفته ، وهى غرفة واحدة مخصصة لإقامته ونومه. لقد عدل أثاثها بطريقة أثارت عليه حفيظة صاحبة البيت إذ أنه شد ستاراً من قماش وبذلك أصبحت له بدل الغرفة غرفتين استطاع أن يقرأ فى إحداهما قراءة شغلت ليله .

ولما كان زواجه وما ترتب عليه من اكتراء لبيت صغير ليعيش فيه مع زوجته ، ومن شراء لأثاث تبدد واختفى فى أعقاب رحيل تلك الزوجة مما سبب له خسارة مالية فادحة . فإنه لم يستطع أن يقتصد شيئا من النقود بل ظل يرزح تحت أثقال الضائقة المالية منذ أن قام بمغامرته الجنونية فى الزواج ، وظل فى تلك الضائقة حتى بدأ يتسلم أجره . وعندما جاءت النقود اشترى كتابا أو كتابين وبعدها لم يتبق له ما يشترى به نارا يتدفأ بها . وفى الليالى الباردة ذات الرياح الثائرة القادمة من المروج القريبة كان يجلس تحت المصباح وعلى رأسه قبعة وفوق جسده معطف وفى يديه قفازن من الصوف .

ومن خلال نافذته يستطيع رؤية الأبراج العالية للكنيسة الكبيرة ويشاهد قبتها الهائلة حيث ينطلق من تحتها صوت جرس المدينة الكبير . أما برج الكلية العالى ونوافذه المستطيلة . وشرفات الكلية القريبة من الجسر ففى وسعه أن يراها بذهابه إلى السلم الخارجى للبيت الذى يسكن فيه ، وهذه المناظر يستخدمها فى شحذ همته كلما تطرق الوهن إلى إيمانه بالمستقبل .

وككل المتحمسين من أصحاب الخيال ، أقدم على تنفيذ خطته دون أن يتحرى تفاصيلها بل اكتفى بالتقاط أفكار هامة من أفواه بعض الذين يتصل بهم دون فحص أو ترو . وفى اللحظة الراهنة يقول فى نفسه إن ما يريده أولا هو أن يستعد بالمال والمعرفة ثم ينتظر بعد ذلك ما تأتى به الأيام من فرص قد تجعل منه طالبا

جامعيا ... « الحكمة وسيلة من وسائل الدفاع ، والمال كذلك . غير أن ميزة المعرفة أنها تهب الحياة لمن يمتلكها » . لقد تملكته الرغبة فى العلم والدراسة إلى الحد الذى لم يستطع معه أن يفكر فى إمكان تنفيذ ما يحلم بتحقيقه .

وفى تلك اللحظة تسلم خطابا من خالته العجوز بشأن الموضوع الذى سبق أن ضايقها وأحزنها وهو خشيتها من ألا يكون من الثبات والقوة فيعجز عن الابتعاد عن طريق قريبته « سو هوايت هيد » ، وبقية أفراد الأسرة وكانت الخالة العجوز تظن أن والد « سو » عاد إلى لندن كى يقيم هناك بينما ظلت الفتاة فى « كرايستمينيستر » ومما جعل الخالة أيضاً لا ترضى عن التقائهما أن الفتاة تعمل صانعة أو رسامة فى مخزن للسلع الدينية المستعملة فى تزيين الكنائس وفى رأى الخالة — أن هذه وثنية لا تتفق مع التعاليم الإنجيلية التى تعتنقها الخالة « دروزيلا فاولى » ، وإن اتفقت مع التعاليم الكاثوليكية .

ولما كان اهتمام « جود » بالأمور العقلية يفوق اهتمامه بالأمور الدينية ، لم يحفل كثيرا باتجاهات « سو » فى ذلك الشأن ولم يتأثر بما ذكرته خالته فى خطابها من آراء تتعلق بهذا الموضوع ، وإن نظر باهتمام خاص إلى ما ذكرته بشأن مكان إقامة الفتاة . وعندما سنحت له أول فرصة للتجوال فى المدينة ، أخذ يسير أمام الحوانيت التى تتفق مع وصف خالته واستطاع أن يرى فى أحدها شابة تجلس وراء مكتب صغير ، تشبه الصورة التى سبق أن رآها شبها كبيرا . فغامر بالدخول واشترى سلعة صغيرة وأخذ يتباطأ فى المحل فلاحظ أن الذين يعملون فيه كلهم نساء وهن يبعن الكتب الدينية الخاصة بطائفة الإنجيليين وأدوات الكتابة والمطبوعات المختلفة والهدايا من تماثيل صغيرة وصور للقديسين داخل إطارات على الطراز القوطى ، وصلبانا من الأبنوس عليها رسم مجسم للسيد المسيح . واستولى الخجل عليه حتى حال بينه وبين النظر إلى الفتاة وهى وراء مكتبها فقد كانت من الجمال والرشاقة بحيث لم يتطرق إلى ظنه أن مثل تلك الفتاة الجميلة يمكن أن تصبح فى يوم من الأيام ملكا له . وتحدثت الفتاة إلى إحدى المرأتين الجالستين فيما وراء آلة عد النقود فاكتشف فى نبرات صوتها بعض الصفات المعينة التى يتميز بها صوته .

كان الصوت رقيقا منغما ولكنه صوته هو فماذا تعمل فى تلك اللحظة ؟ استرق النظر حوله فرأى أمامها لفافة من معدن الزنك طولها ثلاث أو أربع أقدام ذات جانب مصبوغ باللون الأسود ، وهى ترسم أو تنقش عليها عدداً من الحروف المستخدمة فى الكتابة الكنسية والعبارة تقول : « لتقدس اسم الله » . قال يناجى نفسه : « يا له من عمل جميل رقيق يتفق والروح المسيحية » .

عرف الآن سبب وجودها فى ذلك المكان ، وأدرك أن مهارتها فى هذه الأعمال ورثتها عن أبيها الذى كان متخصصا فى نقش الآيات الدينية على المعادن . واللوحة مقصود بها أن تعلق لتعاون فى العبادة .

خرج من الحانوت وكان من السهل أن يتحدث إليها عندئذ هنالك ولكنه كره أن يفعل لما فى ذلك من عدم وفاء لرغبة الخالة التى عاملته حقا بخشونة غير أنها تولت تربيته . ولكونها عاجزة عن السيطرة على تصرفاته أضفى على رغبتها قوة لا تقبل فى مجال المنطق .

وعلى ذلك انسحب من أمام « سو » دون أن يلقاها وكانت لديه أسباب أخرى فهى تبدو فى غاية الأناقة إذا ما قورنت به وهو فى ثياب العمل الخشنة ، وعلى ذلك لم تطاوعه نفسه بمقابلتها الآن وهو الشعور نفسه الذى أحس به حيال السيد « فيلوتسون » . ثم من الجائز أنها متأثرة بضغائن أسرتها فتحتقره بقدر ما يسمح للمسيحى فى ذلك ، وخاصة عند ما يقص عليها ذلك الجزء المؤلم من تاريخ حياته المتعلق بزواجه من امرأة من المؤكد أنها لن تحوز إعجابها .

وهكذا ظل يرقب « سو » من بعيد ونفسه راضية لمجرد شعوره بأنها هناك إذ أن هذا الشعور ملأه حياة وأملا . غير أنها ، مع ذلك ، ظلت بالنسبة إليه مثلا أسمى وأخذ ينسج حول شخصيتها خيالات جميلة مستمدة من أحلام اليقظة .

عقب ذلك بأسبوعين أو ثلاثة ، كان « جود » فى صحبة بعض الأشخاص يقفون

أمام كلية « كرويدسر » فى شارع « الدتايم » ويتعاونون على نقل صخرة رملية كبيرة من عربة تقف بجوار طوار الطريق وذلك استعداداً لرفعها إلى أعلى الجدار الذى يقومون بإصلاحه . وعندما وقف الرجال على أهبة الاستعداد قال رئيسهم: « تكلموا عندما تبدءون فى الرفع . هيا ! » عند ذلك أخذ الرجال يرفعون الحجر إلى أعلى .

وبينما هو يشارك فى رفع الحجر حانت منه التفاتة فرأى قريبته بالقرب منه وقد توقفت عن المسير حتى تزال العقبة من طريقها . نظرت الفتاة فى وجهه بعينيها اللامعتين الغامضتين اللتين جمعتا بين الذكاء والرقة أوخيل إليه ذاك ، وشاع فيهما الغموض أما مالاح فيهما من تعبير فكان هو نفسه مارسم على شفتيها واستمد وجوده من كلمات عابرة حدث أن وجهتها إلى واحدة من بنات جلدتها فوجد هذا التعبير طريقه إلى وجهه دون أن يدرى من أين جاء . أما هى فلم تحس بوجوده أكثر مما تحس بوجود ذرات التراب التى يثيرها تحريك يديه فى الصخر فتعلق بأشعة الشمس .

كان قربه منها يملأ نفسه بشتى الأحاسيس والأفكار فسرت الرعشة فى جسده وأدار وجهه عنها بدافع من الخجل الغريزى حتى يحول بينها وبين التعرف عليه وإن كان أمر تعرفها عليه مستبعدا حيث لم يسبق أن رأته،ومن الجائز أنها لم تسمع باسمه قط . كان فى مقدوره أن يلحظ أنها وإن كانت فى أعماقها فتاة ريفية فإن سنوات الصبا التى قضتها فى « لندن » وسنوات النضج التى أمضتها فى هـــذا المكان أزالت عنها كل أثر من آثار الريفية فيها .

وعندما اختفت من أمامه استأنف عمله وهو يفكر فيها . لقد وقع تحت تأثيرها القوى الغلاب فلم يفطن إلى تكوينها العام وقوامها وشكلها . وتذكر الآن أنها ليست على بسطة من الجسم بل إنها خفيفة ونحيلة ومن النوع الذى يوصف بأنه أنيق . هذا كل ما استطاع أن يراه منها . لم يكن فيها شىء من الفخامة بل حركتها تتسم بالعصبية . وهى ممتلئة حركة وحياة ومع ذلك فما من فنان يستطيع أن يصفها

بالأناقة والجمال وهذا ما أدهشه وملأ نفسه عجبا . لقد ابتعدت كثيرا عن البساطة الريفية التى اتسم بها وها هى ، فى ذلك الجمال بزته بشكل واضح ؟ كيف أمكن لفتاة من دمه ومن سلالته التعسة المشئومة أن تبلغ تلك الدرجة من الظرف والرقة ! إنها لندن التى صنعت ذلك وإليها يرجع الفضل .

ومن تلك اللحظة ، والانفعالات العنيفة التى تراكمت فى صدره وزحمته كنتيجة حتمية للوحدة التى عاش فيها ، والجو الشاعرى الزاخر بالمعانى والمثل الذى أحاط به ، تتجمع وتستقر حول تلك الشخصية الخيالية . وأدرك فى وضوح أنه ، على الرغم من استعداده لبذل نفسه رخيصة فى سبيل إطاعة رغبة خالته ، سرعان ما أحس بالعجز عن مقاومة رغبته فى مقابلتها والتعرف بها .

فتظاهر بينه وبين نفسه بأنه لا يفكر فيها إلا على اعتبار أنها فرد من أفراد عائلته وانتحى لنفسه هذا المنحى طالما أن أسبابا قوية تحول بينه وبين التفكير فيها على صورة أخرى غير هذه الصورة .

أما السبب الأول فكان لأنه متزوج ومن الخطأ إذن أن يفكر فى هذه الفتاة وهو على هذه الحال . والسبب الثانى أنهما أبناء خؤولة وليس من الحكمة أن يقع أبناء الخؤولة فى الحب حتى لو كانت الظروف مواتية لذلك . أما السبب الثالث ، فحتى لو كان طليقا غير مرتبط بزوجة ، ففى أسرة كأسرته حيث ينتهى الزواج دائما بكارثة محزنة فإن الزواج من فتاة تجرى فى عروقها نفس الدماء التى فى عروقه من شأنه أن يزيد من تأثير الظروف المعاكسة وهنا يتحول الحادث المحزن إلى فاجعة رهيبة .

لهذه الأسباب أخذ يفكر فى « سو » على اعتبار أنها فرد فى أسرته يوليها نفس الاهتمام الذى يوليه لكل من يلوذ به من أبناء جلدته وعليه أن ينظر إليها نظرة عملية كفرد يشعر نحوه بالفخر والاعتزاز ، يحادثه ويحييه ، وفيما بعد يدعوه إلى تناول الشاى معه طالما أن العواطف والانفعالات الموجهة إلى مثل هذا الفرد لا تعدو أن تكون صادرة من قريب لقريب . يريد بها الخير فتصبح بالنسبة إليه

نجما هادياً ، وقوة دافعة ملهمة ، ورفيقة فى تعبده وفقاً المذهب الإنجيلى ا وصديقة وفية ورفيقة حانية !

(٣)

وكنتيجة للمؤثرات المختلفة المعوقة ، اتجه بغريزته نحو السعى إلى الاقتراب منها فى حذر فذهب فى الأحد التالى إلى قداس الصباح بالكنيسة الملحقة بكلية الكاردينال ليلقى عليها نظرة أخرى بعد أن اكتشف أنها كثيرا ما تذهب إلى هناك .

ولما لم تحضر انتظرها فى وقت الأصيل من نفس اليوم وكان يوما رائقا جميلا . وهو يعرف أنها لو جاءت فسيكون مجيئها من الجانب الشرقى الربع الأخضر الكبير ، وهو الطريق الوحيد الموصل إلى البناء ، لذا وقف فى ركن على الطريق ينتظر بينما جرس الكنيسة يدق . وقبل بدء القداس بدقائق رآها تسير تحت حوائط الكلية .

وعندما لمحها انتقل إلى الجانب المقابل ثم تبعها داخل البناء وقد أحس بالفرحة تملأ صدره لأنه لم يكشف لها عن نفسه حتى تلك اللحظة . كان يكفيه حينئذ أن يراها بينما هى لا تراه ولا تعرفه .

ظل يتسكع فى المشى فترة والقداس منعقد فى الكنيسة إلى أن وضع فى أحد المقاعد . كان الأصيل حزينا ساكنا يتطلب من كل فرد من العاديين الكادحين أن يشعر بأن الدين ضرورة ملحة ، وليس مجرد حلية يتحلى بها أفراد الطبقات الغنية العاطلة . وبمعاونة فيض النور المتدفق من النوافذ العليا لمحراب الكنيسة استطاع أن يرى جمهرة المصلين الجالسين فى الناحية المقابلة للجهة التى يجلس فيها وكانت الرؤية ضعيفة لقلة الضوء فى تلك الناحية ، غير أنه استطاع أن يلمح «سو» بين الجالسين . لم يمض وقت على اكتشافه لمكانها بين المصلين حتى بدأ المنشدون يرتلون النصف الثانى من الترنيمة التاسعة عشرة بعد المائة وهو النصف الذى يبدأ

بالفقرة : « أين سبيلي لإصلاح ما أفسدت ؟ » عند تلك الفقرة بدأت نغمات الأرغن تتغير فسمع نغمات أخرى حزينة وخاصة عندما أنشد المنشدون : « بماذا يستطيع الشاب أن يزيل الشوك عن طريقه ؟ »

كان هذا هو نفس السؤال الذى يدور بخلد « جود » فى تلك اللحظة . ياله من مخلوق حقير تعس إذ يترك لنفسه الحبل على الغارب فيشتهى امرأة ويسمح لتلك النفس أن تتمادى فى غيها حتى يصبح لهذا التمادى تلك النتائج المفجعة وهنا تحدثه نفسه بأن يضع حداً لحياته أو أن يلجأ إلى الشراب طلبا للعزاء ونشدانا للسلوى. كانت الموسيقى تملأ المكان حول فرقة المنشدين بنغمات دوارة كالموج المتدفق . ولما كان عقله دائم التفكير فى القوى الربانية التى تسير حياته ، لم تكن هناك غرابة فى اعتقاده أن الترنيمة أوحت بها سلطة عليا لا تغفل فساقتها إليه فى تلك اللحظة التى تطأ فيها قدماه لأول مرة ذلك البناء القدسى . ومع ذلك كانت تلك الترنيمة هى الترنيمة العادية المخصصة لليلة الرابعة والعشرين من ليالى الشهر .

أما الفتاة التى بدأ يحس نحوها عاطفة تتميز بالرقة الزائدة ، فكانت فى تلك اللحظة تسبح فى فيض النغمات نفسها التى طرقت أذنيه . إن مجرد فكرة أنه يتقاسم وإياها الإنصات إلى تلك النغمات أفعمت نفسه سروراً . ومن الجائز أنها عن يترددن كثيراً على ذلك المكان. وهو إذ يراها هكذا منغمسة جسداً وروحاً فى الكنيسة هياماو تدلها - وهذا قطعاً بتأثير العمل والعادة - لابد أن بينه وبينهما الشىء الكثير من الصفات المشتركة . وبالنسبة لشاب حساس وحيد مثله ، يكون شعوره بأنه وجد أخيراً مرسى لأفكاره المضطربة ، مما قد يزوده بإمكانيات اجتماعية وروحية كبيرة كأنها لمن كان على جبل « حرمون » ! وطوال القداس ظل هكذا وسط جو من النشوة الغامرة . .

و« جود » وإن كان ضنينا على نفسه فى الاستمتاع بهذا الشعور ، فلا يبعد أن يجد من يقول له إن الريح تهب من قبرص لا من الجليل .

وظل فى مكانه حتى غادرت مقعدها وسارت أمامه دون أن تلتفت ناحيته .

وعندما بلغ الباب كانت فى منتصف الطريق العام . ولما كان مرتديا ملابس الأحد ، أحس بالرغبة فى تعقبها والكشف لها عن نفسه . ولكنه لم يكن مستعداً تماما لمثل هذا العمل ، وهل من واجبه أن يفعل وفى نفسه ما استيقظ فيها من شعور ؟

فعلى الرغم من أنه طول الوقت يبرر شعوره بالانجذاب نحو تلك الفتاة باعتبارات دينية فى أثناء الصلاة فإنه لم يكن جاهلا تماماً بحقيقة ذلك الشعور فهى بالنسبة إليه شخص غريب والقرابة — القرابة التى يدعيها مجرد تظاهر وأخـــذ يقول : لا ، فمثل هذا العمل لن يكون ولا يجوز لرجل متزوج مثلى أن يسعى إلى التعرف بها . ومع ذلك كانت « سو » إحدى قريباته وتصلها به وشائج الدم . أما كونه متزوجا — حتى لو لم يكن لزوجته وجود فى ذلك الجزء من العالم — فمن الجائز أن يصبح ذلك الأمر فى مصلحته بكيفية ما ، فقد يكون من تأثير هذه الحقيقة أن تنزع « سو » من عقلها كل اعتقاد بأنه يسعى للتعرف بهـا لأغراض عاطفية وبذلك يصبح اتصاله بها طبيعياً حراً لا حرج فيه ولا خوف منـــه . وعندما أدرك أنه لا بأس به كثيرا إذا ما كان الاتصال بينها وبينه يتسم بالحرية والبعد عن الحرج والخوف شعر بقلبه ينفطر .

وقبل هذا القداس بأيام كانت الشابة الجميلة الرقيقة « سو برايد هيد » ذات العينين الجذابتين تقضى إجازة قصيرة بعد ظهر أحد الأيام فغادرت البناء الذى تقيم فيه وذهبت لتتريض فى ضواحى المدينة وفى يدها كتاب . وكان اليوم من الأيام الرائقة التى كثيراً ما تمر بإقليم « وسكس » وغيره من الأقاليم وتتوسط أياما باردة ممطرة كأنما دستها دعابة آلهة الطقس . وعلى ذلك أخذت « سو » تضرب فى الأرض مسافة ميل أو ميلين حتى وصلت إلى بقعة أكثر ارتفاعا من المدينة التى خلفتها . كان الطريق الذى سارت فيه يمر وسط حقول خضراء وعندما وصلت إلى صخرة بارزة توقفت عندها قليلا حتى تفرغ من قراءة صفحة فى الكتاب الذى تحمله وبعدها نظرت وراءها إلى الأبراج والقباب والشرفات القديم منهـا والحديث .

وعلى الجانب الآخر من الصخرة رأت أجنبياً أسود الشعر ، شاحب الوجه يجلس فوق الحشائش بجوار لوح عليه عدد من التماثيل المرمرية الصغيرة وبعضها من البرونز وكان يعيد تنظيمها فوق اللوح توطئة لحملها والسير بها . أما التماثيل فكانت فى أغلبها نسخاً مصغرة تمثل شخصيات أسطورية تختلف كل الاختلاف عما اعتادت الفتاة أن تراه من هذا النوع . ومن بين هذه الشخصيات «فينوس» آلهة الجمال و «ديانا» آلهة الصيد وتماثيل أخرى «لأبولو» و «باخوس» و «مارس» . والتماثيل وإن بعدت عنها مسافة طويلة فإن معالمها كانت واضحة تماما وسط الشمس المائلة إلى المغيب .

وفى غمرة الضوء اللامع المنعكس على الحشائش الخضراء استطاعت الفتاة أن تميز ملامح كل تمثال تمييزاً واضحاً ، ولما كانت التماثيل تقع على خط النظر بينها وبين أبراج الكنيسة فقد أثارت رؤيتها فى نفسها سلسلة من الآراء والخواطر المتضاربة نتيجة لما ثار فى نفسها من مقارنات . وبمجرد أن رآها الرجل هم واقفاً وخلع قبعته فى أدب وقال فى نبرة تنفق ومظهره الغريب عن المكان . « تماثيل » ! وفى رشاقة وسرعة رفع اللوح بما عليه من تماثيل مختلفة الأنواع والأشكال ، ووضعه فوق رأسه ثم سار به إليها حيث أنزله على الصخرة البارزة التى اتكأت عليها . وفى بادئ الأمر قدم إليها تماثيله الصغيرة ومن بينها تماثيل للملوك وملكات . ثم قدم إليها تمثالا لشاعر من الشعراء الغنائيين ، ثم تمثالا « لكيوبيد » الجنح إليه الحب ولكنها هزت رأسها .

قالت الفتاة وهى تلمس بأصابعها تمثالى « فينوس » و « أبولو » وهما أكبر التماثيل : « بكم تبيع هذين التمثالين ؟ » قال الرجل إنها تستطيع أن تأخذهما بعشرة شلنات . فقالت : « لا أستطيع أن أدفع مبلغاً كهذا ! . » ثم قدمت له مبلغاً أقل بكثير من المبلغ الذى طلبه ودهشت إذ مد الرجل يده إلى التمثالين وانتزعهما من مكانهما ثم سلمهما إليها فضمت يديها عليهما كأنما تمسك بشىء ثمين .

وبعد أن دفعت الثمن ورحل الرجل بدأت تفكر فيما ينبغى لها أن تفعله

بالتمثالين . لقد ظهرا لها ، وهما بين يديها ، غاية فى الضخامة وغاية فى التجرد من الملابس . ولما كانت ذات مزاج عصبى اقشعر بدنها لمجرد تفكيرها فى ذلك الذى فعلته . وعندما قبضت على التمثالين بيديها تلوث قفازاها وسترتها بتأثير الطبقة الجيرية التى تغطى سطح التمثالين . وبعد أن حملتهما بين يديها مسافة لا بأس بها خطرت لها فكرة انتزعت على أثرها بعضا من أوراق الشجر وبعض الاغصان النامية فوق السياج القريبة منها ولفت فيها حملها بقدر ما تسمح به الأغصان والأوراق وبذلك بدا ماتحمل كأنه لفة كبيرة من الأغصان والأوراق الخضراء جمعها هاو من هواة الطبيعة المتحمسين .

قالت الفتاة : « على أى حال ، أى شىء مهما صغر هو فى نظرى أفضل من تلك التماثيل الكنسية الصماء الثابتة على مدى السنين ! » ومع ذلك كانت لا تزال فى حالة من الذعر واضحة متمنية لو أنها لم تقدم على شراء تلك التماثيل العارية .

وبين لحظة وأخرى ، أخذت تسترق النظر إلى ثنايا الأوراق لتتأكد من أن ذراع « فينوس » لم ينكسر . أخيراً جاءت بحملها الذى يمت إلى الوثنية القديمة بصلة إلى أكبر مدينة مسيحية فى البلاد سالكة فى سيرها طريقا مهملا موازيا للطريق الرئيسى واتجهت إلى المنزل الذى تقيم فيه ودخلته من باب خلفى ثم صعدت لتوها إلى غرفتها حيث وضعت حملها . وفى الحال فتحت صندوقا تحتفظ فيه بأخص متعلقاتها وحاولت أن تضع فيه ما اشترته من البائع الجوال . وعندما وجدت أن الصندوق لا يتسع لهذه الأشياء كلها . أحضرت قطعا كبيرة من الورق الأسمر ولفتها فيها ثم أوقفتها على الأرض فى ركن من الغرفة .

كانت مس « مونتوفر » صاحبة المنزل سيدة متقدمة فى السن تضع على عينيها عوينات وتلبس ملابس شبيهة بملابس الراهبات وهى على درجة كبيرة من البراعة فى فهم الطقوس الدينية نظرياً وعملياً ، ومن المترددات على كنيسة القديس «سيلاس» فى ضواحى « بيرشيبا » السابقة الذكر ، وهى الكنيسة التى شرع « جود » هو الآخر يتردد عليها فى الآونة الأخيرة . كانت السيدة ابنة قسيس فقير متقاعد ؛

وعندما رحل إلى العالم الآخر منذ سنوات، خرجت الابنة إلى الحياة بكل شجاعة كى تنجو من الفاقة فاستأجرت حانوتاً صغيراً لبيع التذكارات الدينية والأدوات الكنسية ، وبفضلها تطور الحانوت حتى وصل إلى ذلك الوضع الممتاز الذى عرف به بعد ذلك ، وتضع هذه السيدة حول جيدها صليباً ومسبحة ، لا تتزين بغيرهما وتحفظ عن ظهر قلب العام المسيحى كله بما يحويه من أعياد ومناسبات دينيـــة .

جاءت الآن هنا تدعو « سو » إلى فنجان من الشاى ، وعندما وجدت أن الفتاة لا تستجيب لندائها دخلت الغرفة فى نفس اللحظة التى كانت الفتاة تهم بوضع رباط حول كل لفافة من اللفافتين اللتين تحتفظ بالتمثالين داخلهما .

قالت المرأة وهى ترمق التمثالين من ثنايا اللفافتين : « أرى أنك اشتريت بعض الأشياء الخاصة أيتها الآنسة « برايد هيد » أليس كذلك ؟ » قالت « سو » : « أجل . اشتريت أشياء بسيطة كى أزين بها غرفتى » .

— « كنت أعتقد أننى زينت لك غرفتك زينة كافية » . قالت الآنسة « فنتوفر » ذلك وهى تتلفت حولها وتنظر إلى صور القديسين داخل إطاراتها المصنوعة على النمط القوطى ، وإلى الجذاذات الحاوية للنصوص الكنسية وغير ذلك من السلع والأدوات التى لم يجد الحانوت من يشتريها لقدمها وضياع بهجتها فاستخدمتها صاحبة الحانوت فى تزيين الغرفة المتواضعة . مزقت المرأة ثقباً صغيراً فى الغلاف الأسمر محاولة أن تنفذ بنظرها إلى داخل اللفافة وهى تقول : « ماذا بداخلها ؟ يالها من لفافة كبيرة ! عجبا ! هل أرى هنا تماثيل ؟ إنى أرى اثنين منها . من أين لك بهما ؟ »

— اشتريتهما من بائع جوال » .

— « هل هما لقديسين ؟ »

— « نعم »

— « ومن هما هذان القديسان ؟ »

— « القديس بطرس .. والقديسة مريم المجدلية » .

— « حسن . انزلى الآن وتناولى الشاى ثم اذهبى لإتمام ذلك النص الموسيقى وذلك لو تبقى فى المنزل بعد ذلك ضوء كاف . »

تلك العقبات الصغيرة فى طريق استمتاع « سو » بشىء لايعدو أن يكون نزوة عابرة أوجدت لديها رغبة عميقة فى أن ترفع الأربطة عن اللفافتين وتمتع بصرها بالنظر إلى ما بداخلهما . وعندما آوت إلى فراشها وأصبحت فى مأمن من كل متطفل ، أخذت تنزع اللفائف عن التمثالين فى هدوء وبعد أن وضعتهما فوق الخزانة الجانبية ووضعت شمعتين مضيئتين على جانبى التمثالين أوت إلى فراشها وألقت بجسدها عليه وشرعت تقرأ فى كتاب أخرجته من صندوقها ولم يسبق للآنسة « فنتوفر » أن علمت بوجوده . كان الكتاب من تأليف « جيبون » وقرأت الفصل الذى يدور حول حكم الإمبراطور « جوليان » المرتد ومن حين إلى آخر أخذت ترنو ببصرها إلى التمثالين اللذين بدا عليهما أنهما غريبان عن المكان سيما وأن الغرفة تعج بالتذكارات الدينية . وأخيراً ، وكأنما الموقف يوحى بالعمل السريع ، همت واقفة وتناولت من الصندوق كتاباً آخر — وكان ديوان شعر فتحته على قصيدة مألوفة لديها تقول :

« ها قد غزوت وفتحت يأيها الجليلى الضعيف الواهن الجسد .
كما أن الدنيـــا لحقها الهرم من لمسات أنفاســـك ! »

وظلت تقرأ القصيدة حتى نهايتها ثم أطفأت الشموع ونامت .

كانت لا تزال فى العمر الذى يقبل فيه صاحبه على النوم العميق الهادئ ومع ذلك ظلت تلك الليلة ساهرة لا يغمض لها جفن ، وكلما فتحت عينيها سقط عليهـا فيض من الضياء صادر عن مصباح فى الطريق العام ، وكان الضياء كافيا لإظهار التمثالين المصنوعين من الرخام الأبيض وهما فى مكانهما فوق الخزانة الجانبيـة يمثلان التناقض بعينه ويكشفان عما بينهما وبين مايحيط بهما من تعارض كامن

فى طبيعة التذكارات الدينية وجسد المسيح المصلوب داخل إطار من الفن القوطى وقد حوّله الضوء الضعيف إلى مجرد صليب لاتبين السمات . أما الجسد فراحت معالمه فى طيات الظلال المتخلفة عن الضوء ، وفى لحظات اليقظة هذه دقت ساعة الكنيسة دقات تدل على انصرام حبل الليل وقرب انبثاق الفجر . ونفس هذه الدقات وصلت أسماع شخص آخر كان مكبا على كتبه فى بقعة من المدينة نفسها لاتبعد كثيراً عن هذا المكان . ولما كانت الليلة من ليالى السبت التى ينام فيها «جود» دون أن يضبط عقارب ساعته الدقاقة لتوقظه فى ساعة باكرة من يوم الأحد ، ظل ساهراً يقرأ لساعات أكثر مما تعود أن يفعل فى الأيام الأخرى من الأسبوع . فى تلك اللحظة كان يطالع فى جد واجتهاد ترجمة « جرايز باخ » للعهد القديم . وفى نفس اللحظة التى كانت فيها « سو » تتأمل تمثاليها وتمتع عينيها بالتطلع إليهما ، كان من الممكن لرجل الشرطة والمواطنين الذين يمرون تحت نافذة « جود » فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، لو أنهم توقفوا عن السير لحظة ، أن يسمعوا كلمات غريبة ومقاطع غير مألوفة تتردد فى حمية وحماسة وهى كلمات ومقاطع يجذب إليها « جود » انجذاباً كبيراً ويسحره رنينها رغم استعصائها على الفهم إذ كانت تشبه شيئاً كالآتى :

« لكن لنا إله واحد الأب الذى منه كل شىء ونحن إليه »

وظلت الكلمات تتدفق ويعلو رنينها على ما عداها من الأصوات . وبينما صوت غلق الكتاب وانطباق صفحاته يسمع من بعيد ، كانت الكلمات الغريبة والمقاطع المستعصية على الفهم تخرج من النافذة على الشكل التالى :

« رب واحد يسوع المسيح الذى به كل شىء ونحن به ! »

(٤)

كان « جود » بارعا فى فنه وواسع الأفق فى كل ما يتعلق بذلك الفن كعادة العمال المهرة الذين نلتقى بهم فى المدن الصغيرة الواقعة فى قلب الريف . وفى لندن

يأبى العامل الذى ينحت العقود والميازيب المتممة لأشكال الأوراق أن ينظف الحواشى الداخلة فى تكوينها كما لو أن الأمر يتضمن الحط من كرامته لو أنه حاول أن يحقق الكمال فيما ينجز . وعندما لا يجد « جود » ما يقوم به من أعمال النقش على الطريقة القوطية أو الزخرفة الاتباعية التى تتم عن طريق المسند الحجرى ، فإنه يقوم بنقش الشواهد أو بالكتابة على القبور ، وهو يجد متعة فى القيام بهـــذا البديل الذى كثيراً ما يحل محل فنه الأصيل .

وفى المرة الثانية التى رآها فيها كان معتليا إحدى السقالات يقوم بتنفيذ عمل من تلك الأعمال سابقة الذكر داخل إحدى الكنائس . وكان هناك قداس صباحى قصير وعندما أقبل القسيس ليقوم بواجبات وظيفته نزل « جود » وجلس وسط الأفراد القلائل الذين يؤلفون جمهرة المصلين ، وانتظر حتى ينتهوا من الصلاة لكى يستأنف عمله . وحتى قارب القداس على الانتهاء أوكاد لم يلحظ أن «سو» إحدى الحاضرات قد صحبت الآنسة « فنتوفر » على كره منها .

جلس يرقب كتفيها الجميلتين ولفتاتها الرشيقة وإيماءاتها المنسابة وركعاتها التى تؤديها بغير افتعال فأخذ يسأل نفسه هل من الميسور أن تصبح مثل هـذه المخلوقة الرائعة ذات التقى والورع عوناً له على تحمل أثقال الحياة وأعبائها لو حسنت الظروف ! لم تكن لهفته على استئناف عمله هى التى دفعته إلى مزاولته إياه بمجرد أن بدأ المصلون يتركون أماكنهم ويتجهون إلى خارج المكان ، بل الذى دفعه إلى ذلك هو عجزه ، فى تلك البقعة المقدسة ، عن مواجهة المرأة التى بدأت تغزو قلبه بطريقة لا يمكن وصفها ، فالأسباب الرئيسية الثلاثة التى دعته إلى الإحجام عن التعرف « بسو برايد هيد » لا تزال قائمة رغم أن اهتمامه بها كان من النوع القوى المغامر المتأصل الذى لا يضعفه شيء . ولكن كان من الواضح أيضا أنه ليس بالعمل وحده يحيا الإنسان وأن «جود» ، كإنسان من البشر ، هفا قلبه إلى الحب . وثمة رجال كانوا يدفعونه فى إسراف وتبذل نحو تلك الفتاة ملحين فى طلب الصحبة البسيطة السهلة التى ما كانت لترفض منحهم إياها ، تاركين ما تبقى بعد ذلك للقدر وتصاريفه ، وليس « جود » من هذا النوع أولا .

ولكن كلما مرت الأيام ، وبخاصة الليالى ، بما فيها من وحدة وحرمان ، زاد تفكيره فيها رغم ما يسببه له ذلك من ألم ممض، كما وجد نفسه وقد استسلم إلى كل ماهو خيال ، وإلى كل ماهو مخالف للأصول المرعية والتقاليد العامة ، وإلى كل ماهو غريب غير متوقع ، وفى أثناء النهار كان تأثيرها يحاصره ويضيق عليه الخناق فيرتاد الأماكن التى تتردد عليها وهو غارق فى التفكير فيها وأخيرا وجد أن لا مناص له من الاعتراف بينه وبين نفسه بأن ضميره قد يكون هو الخاسر فى هذه المعركة الأخلاقية .

ومما لا شك فيه أنها كانت ، بالنسبة إليه ، علما من أعلام المثالية النبيلة . وقد يكون فى التعرف عليها علاجا يبرئ روحه من تلك العاطفة المفاجئة الهوجاء ، وارتفع فى قرارة نفسه صوت يهمس بأنه وإن كان يهوى التعرف بها فإنه لا يود أن يشفى من هذا الهوى .

ومن وجهة نظره الأصيلة أصبح من المؤكد تماماً أن الموقف يتطور نحو مجافاة شريعة الأدب . فمن بين الرذائل أن تصبح فتاة « كسو » عشيقة لرجل أجبرته قوانين بلاده على أن يحب « أرابيلا » وحدها حتى الرمق الأخير . هذا الانحراف فى حد ذاته يعتبر بالنسبة إليه بداية أخرى غاية فى السوء ، ولاسيما أنه ينوى الإقدام على مشروع جديد . لقد تمكن منه هذا الاعتقاد إلى درجة أنه فى أحد الأيام ، وكان يعمل كعادته فى إحدى الكنائس القريبة وحيداً فأحس بأن من واجبه أن يصلى لله حتى يعينه على ضعفه . ولكن على الرغم من رغبته القوية فى أن يكون مثالياً فى هذه الأمور : عجز عن الاستمرار فيما عقد عليه العزم حيث وجد أنه من الشاق على المرء أن يرجو الخلاص من الإغراء عندما تكون رغبته الكامنة فى أعماق نفسه أن يصادف إغراء يأخذ بجماع نفسه . بهذه الطريقة التمس لنفسه المعاذير . وأخذ يقول لنفسه : « على أية حال ليس الأمر بالنسبة لى مجرد ضربة من ضربات الحب المفاجىء كما وقع لى فى المرة الأولى ، ولكننى أرى أنها رائعة الجمال بشكل غير مألوف . ومن جهة أخرى تبعث رؤيتها فى نفسى الرغبة فى المشاركة

العقلية كما تبعث الحنين إلى العاطفة الجياشة التى تملأ جوانب وحدتى. بهذا الأسلوب من المناجاة ظل يتعبد فى محرابها وقد داخله الشك فى أن تكون هذه العاطفة نتيجة حتمية للعناد البشرى مهما كانت فضائل « سو » ومهما كانت مواهبها وخصالها الدينية فمن المقطوع به أن تلك الفضائل والمواهب والخصال ليست السبب المباشر لهيامه بها .

وذات أصيل جاءت إلى الفناء الذى يعمل فيه فتاة صغيرة يبدو عليها الخجل والتردد . وبعد أن رفعت طرف ثوبها لكيلا تعلق به ذرات التراب توجهت إلى المكان الذى يجلس فيه صاحب الفناء .

قال أحد العمال وهو يدعى العم (جو) : « تلكم فتاة جميلة ! » . وأضاف آخر : « ومن تكون تلك الفتاة » ؟

— لا أدرى . رأيتها تتجول فى مكان قريب من هنا . عجبا ! تذكرت الآن . إنها ابنة ذلك الرجل البارع « برايد هيد » الذى قام بصنع الحديد المطروق فى كنيسة القديس « سيلاس » منذ عشر سنوات وبعدها رحل إلى « لندن » لا أدرى ماذا يعمل الآن ولا أظن أنه أصبح الآن شيئا مذكوراً طالما أنها تركت « لندن » إلى هنا » .

وفى تلك اللحظة بالذات كانت الفتاة الصغيرة قد دقت بيدها على باب المكتب مقسائلة عما إذا كان السيد « جود فاولى » موجوداً فى فناء المكان ، ولكن حدث أن « جود » كان قد غادر المكان لبعض شأنه فى ذلك الأصيل . وعندما بلغها خبر ذلك بدت على وجهها مسحة من خيبة الرجاء وغادرت المكان على عجل . وعندما عاد وأخبروه بكل ما حدث واصفين إياها له قال : « عجبا ! إنها قريبتى «سو» . »

أخذ يرنو ببصره جهة الطريق الذى سلكته فى أوبتها ولكنها كانت قد اختفت . لم تبق لديه الآن أية فكرة لتحاشيها ، بل على العكس من ذلك عقد النية على زيارتها فى نفس ذلك المساء . وعندما بلغ الغرفة التى يقيم فيها وجد خطابا

منها . وإنه أول خطاب يتلقاه منها وهو رغم بساطته يعتبر فى حد ذاته وثيقة من تلك الوثائق التى عندما يتأملها المرء يدرك لفوره ما يمكن أن تحمل فى طياتها من خطير النتائج . إن مجرد خلو الذهن من إمكان حدوث مأساة تتحدث عنها صفحات مثل هذه الرسائل الأولى التى ترسلها النساء إلى الرجال أو يرسلها الرجال إلى النساء ، رغم ما تتميز به هذه الرسائل من صفات البراءة ، يجعلها فى حالة وقوع المأساة شيئاً جديراً بالاهتمام كما يصبغ على هذه الصفحات مسحة من الصرامة قد تبلغ فى بعض الحالات حد الرعب .

كانت رسالة « سو » تتميز بالبراءة الكاملة والبساطة البالغة . خاطبته قائلة : « جود » ياقريبى العزيز ، « وذكرت أنها علمت، عن طريق المصادفة المحضة أنه يعيش بالقرب منها فى « كرايستمينيستر » لذا عتبت عليه لأنه لم يتصل بها ليخبرها بذلك وصارت تؤكد أنه كان فى الإمكان أن يقضيا معا وقتاً طيباً إذ هى وحيدة دون رفيق يؤنسها أو صديق يملأ فراغ حياتها ، ولما كانت على وشك الرحيل . فقد أسفت لضياع تلك الفرصة ضياعا قد يكون نهائيا .

وعندما علم بأخبار رحيلها عن المكان انتشر العرق البارد على صفحة وجهه ، إذ كانت المصادفة مفاجأة له مما دعاه إلى الإسراع فى الكتابة إليها ذاكراً أنه مساء اليوم نفسه ، عقب الفراغ من كتابة الخطاب بساعة واحدة ، سوف يقابلها عند الصليب الذى يخلد ذكرى الشهداء .

وبعد أن سلم الخطاب لأحد الغلمان ليحمله إليها ، ندم على أنه فى غمار لهفته على الإسراع فى الكتابة إليها طلب منها أن تقابله بعيداً عن المكان الذى تقيم فيه، بينما كان ينبغى عليه أن يخبرها بأنه سوف يزورها حيث تقيم . والواقع أن عادات البلاد اقتضت منه أن يقابلها بعيدا عن المكان الذى تقيم فيه . ولهذا السبب لم يفكر فى شىء آخر خلاف ما كان متبعاً ، ولسوء حظه سبق له أن قابل « أرابيلا » بهذه الطريقة التى بدت غير لائقة لفتاة عزيزة على نفسه مثل « سو » ومهما يكن من شىء فالأمر خرج الآن من يده لذا أخذ يسير فى اتجاه المكان الذى اقترحه

للمقابلة قبل حلولها ببضع دقائق وكانت المصابيح المشعلة حديثاً بدأت تغمر المكان بنورها الوضاء .

كان السكون يخيم على الطريق الواسع إذ خلا تقريبا من المارة على الرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً ، وعلى الجانب الآخر رأى شبحا اتضح أنه هى وفى نفس اللحظة اتجه الاثنان نحو نقطة التلاقى ، وقبل أن يصلها أحد منهما صاحت تقول: « لن آتى لمقابلتك فهذه أول مرة ألاقيك فيها ولابد أن تأتى أنت إلى هنا ! » .

كان صوتها يرتعش قليلا وإن كان فضى النبرات نافذ الأثر . سارا فى خطين متوازيين وانتظر « جود » حتى بدأت تقترب منه وعندئذ اقترب هو أيضاً منها وكان مكان تلاقيهما هو نفسه المكان الذى تقف عنده فى أثناء النهار عربات الحمالين ، وهو خلو منها الآن .

بدأ يقول فى خجل المحب : « آسف إذ طلبت منك أن تأتى لمقابلتى بدلا من أن أمر عليك . غير أنى ظننت أن تلك الطريقة قد توفر لنا الوقت وبخاصة إذا كنا ننوى السير قليلا . » قالت فى بساطة وصراحة كمن يحادث صديقاً عرفه وألفه طويلا : « أوه ، خل عنك ذلك . الحقيقة هى أنه ليس لدى مكان أستطيع أن أستقبل فيه الناس وما رميت إليه هو أن المكان الذى وقع عليه اختيارك كان غاية فى القبح ، وإن كان من الواجب ألا أستعمل كلمة القبح فى هذا المجال ، بل الأوفق أن أقول إنه مكان مقبض يوحى بالتطير لما يثيره فى النفس من تشاؤم . ولكن ، أليس هذا مدعاة للسخرية إذ تبدأ الأمور بيننا على هذه الصورة بينما لم أتعرف بك بعد ؟ وهنا أخذت تنقل عينيها فيه من أعلى إلى أسفل فى تطلع المتشوف وإن لم يطل النظر إليها .

وأضافت تقول : « يظهر أنك تعرفنى أكثر مما أعرفك » .

— « نعم ، كنت أراك من وقت إلى آخر » .

— « كنت تعرف من أنا ومع ذلك لم تقل شيئا ! أما الآن وقد بدأنا نتعارف فإنى على وشك أن أترك هذا المكان ! »

— « وهذا من سوء حظى فأنا وحيدهنا وأكاد أكون بلا صديق . الواقع أن لدى هنا صديقاً قديماً وهو يسكن بالقرب من هذا المكان ولكننى أفضل ألا أتصل به الآن وإنى لأتساءل إذا ما كنت تعرفين شيئاً عنه ؟ إنه يدعى السيد « فيلوتسون » وأظن أنه يعمل قسيساً فى مكان قريب من هنا . »

— « لا بل إنى أعرف شخصاً يدعى « فيلوتسون » وهو يسكن ريف هـذا المـكان فى بقعة تدعى « لمسدون » وهو يعمل معلماً لصبية القرية . »

— « آه ! أظن أنه هو نفس الشخص الذى أسأل عنه . ولكن مستحيل أن يظل كما كان معلم صبية ! هل لديك علم بالجزء الأول من اسمه وهل يدعى « ريتشارد » .

— « نعم ، إنه كذلك ، فقد سبق أن حولت إليه بعض المطبوعات وإن كنت لم أره » .

— « إذن عجز عن تحقيق مأربه ! » وهنا بدا الحزن على وجه « جود » إذ كيف يستطيع أن ينجح فى مشروع خاب فى تحقيقه « فيلوتسون » العظيم . كان من الممكن أن يسبب له هذا الخبر تعاسة بالغة لو لم يتلقه فى حضرة « سو » الجميلة . أدرك أن فشل « فيلوتسون » فى مشروعه العظيم ، مشروع مواصلة دراسته فى الجامعة ، لابد أن يملأ نفسه هو حسرة وكمدا بمجرد أن تذهب عنه « سو » وتتركه لنفسه .

وبلا سابق مقدمات قال : « ولما كنا نعتزم السير ما رأيك فى أن نذهب إليه ونزوره فى منزله ؟ إن الوقت مازال مبكرا . »

وعندما وافقت على ذلك سار الاثنان ثم صعدا تلا مغطى بالأشجار وسرعان ما ظهر فى السماء برج الكنيسة ذو المنارة المربعة وبعدها ظهر مبنى المدرسة وهنا سألا شخصاً يسير فى الطريق إذا ما كان السيد «فيلوتسون» فى بيته فى تلك اللحظة فعلما أنه لا يغادر بيته أبداً فدقا على بابه وعندئذ رأياه أمامهما وفى يده شمعة

مضيئة وعلى وجهه تعبير يدل على الدهشة وكان وجهه قد لحقه الضنى وأصابه الهزال منذ رآه « جود » آخر مرة .

هكذا كان اللقاء بالسيد « فيلوتسون » بعد كل هذه السنين . كان اللقاء متسما بطابع البساطة وعدم الكلفة مما تسبب عنه القضاء على هالة النور التي أحاطت — في خيال «جود» — بشخصية المعلم منذ اللحظة التي افترقا فيها . وفي نفس الوقت خلق هذا الطابع في نفسه شعورا بالعطف على « فيلوتسون » على اعتبار أنه شخص تعذب وعانى الكثير من الضيق من جراء فشله في تحقيق آماله . قدم « جود » نفسه إلى « فيلوتسون » وقال إنه جاء ليراه كصديق قديم طالما شمله بعطفه في أيام طفولته الأولى .

قال المعلم وهو غارق في التفكير : « أنا لا أذكرك على الإطلاق . أتقول إنك كنت أحد تلاميذي ؟ نعم ، لاشك في ذلك ، ولكن تلاميذي يحصون حتى هذه هذه اللحظة من حياتي بالآلاف وهم يتغيرون بالطبع كثيراً إلى درجة أني لاأذكر منهم سوى أفراد قلائل ومن بين هؤلاء من أقوم حاليا بتعليمهم . »

قال «جود» وهو يحس أنه أخطأ بمجيئه : كنت أحد تلاميذك في «ميريجرين»

— « نعم ، عملت هناك فترة قصيرة . وهل هذه أيضاً تلميذة قديمة ؟ »

— « لا ، إنها إحدى قريباتي . . وسبق أن كتبت إليك طالباً تزويدي ببعض الكتب الخاصة بقواعد اللغة فأرسلتها إلي لو كنت تذكر » .

— « آى . نعم ! أذكر هذا الحادث بعض الشيء » .

— « كان جميلا منك أن تفعل ذلك وأنت الشخص الأول الذي عاونني على سلوك سبيل الدراسة . في اليوم الذي غادرت فيه « ميريجرين » ، وبينما كانت حاجاتك محملة على العربة ودعتني وأخبرتني أنك تعتزم أن تكون من خريجي الجامعات ، وبعدها تصبح من رجال الدين ، كذلك أخبرتني أن الدرجة الجامعية ضرورية للغاية لكل من يريد أن يكون من رجال الدين أو يحترف التعليم » .

— « أذكر أنني فكرت في كل ذلك بيني وبين نفسي ولكن يدهشني كثيراً

أنى لم أحتفظ بذلك السر فى نفسى . على أى حال هجرت الفكرة من سنوات مضت . . »

— « أما أنا فما نسيتها قط فهى التى أتت بى إلى هنا وحملتنى إليك كى أراك فى هذه الليلة . . »

قال « فيلوتسون » : ادخل أنت وقريبتك .

دخل الاثنان إلى بهو المنزل وكان هناك مصباح له مظلة من الورق تعكس الضوء على عدد من الكتب فمد « فيلوتسون » يده وانتزع المظلة حتى ينتشر النور فى المكان ويستطيع كل منهما أن يرى الآخر بطريقة أفضل . هنا سقط الضوء على وجه « سو » الصغير الرقيق ، وعلى عينيها الممتلئتين نشاطاً وحياة ، وعلى شعرها ، كما سقط على ملامح « جود » الجادة . وكما سقط على وجه المعلم وقوامه مظهراً إياه شخصاً نحيل الجسد مغرقاً فى التفكير ، فى الخامسة والأربعين من العمر رقيق الشفتين أنيق الفم ، يميل بجسده إلى الأمام قليلا ويلبس معطفاً قصيراً حائل اللون ممزقا عند الوسط والمرفقين .

وسرعان ما تجددت الصداقة القديمة بين المعلم وتلميذه تجدداً لا شعوريا وأخذ المعلم يتحدث عن تجاربه كما أخذ الشاب والفتاة يتحدثان عن نفسيهما . أخبرهما المعلم أنه مازال يفكر فى الكنيسة وأنه على الرغم من فشله فى الالتحاق بها وفقاً لما أراده لنفسه فى ماضى السنين ، مازال يريد الالتحاق بها عن طريق الحصول على درجة جامعية تخول له ذلك . أخبرهما أيضاً أنه راض عن وظيفته الراهنة وإن كان فى حاجة إلى من يساعده فى أداء عمله .

اعتذر الضيفان عن البقاء لتناول العشاء إذ كانت « سو » مضطرة للعودة إلى نزلها قبل حلول الظلام وطريق العودة من « كرايستمينيستر » طويل . وعلى الرغم من أن الاثنين لم يتناولا فى حديثهما غير الموضوعات العامة ، كان « جود » فى دهشة كبيرة عندما اكتشف ما لتلك الفتاة التى تمت له بصلة القرابة من تأثير عميق عليه . إذ بلغت من الرقة مبلغاً جعل كل ماقالته أو فعلته ينم عن شعور مرهف

وإحساس فياض ، فالفكرة المثيرة تجعلها تنطلق فى سيرها ركضاً وهو من ورائها يلهث . أما سرعة تأثرها بموضوعات خاصة وحماستها لبعض النقاط فيحمل من جانب الآخرين على محمل الغرور . وبقلب مثقل بالهموم، لاحظ أنه بينما شعورها نحوه لا ينطوى إلا على صداقة خالصة بريئة كان حبه لها فى ازدياد . بدأ يحس أن أن الظلمة التى تكتنف طريق عودته إلى البيت لا تكمن فى الليل المنتشر فى كل مكان بقدر ما تكمن فى الفكرة الدائرة حول رحيلها عن المكان .

قال فى أسف واضح : لم ترحلين عن « كرايستمينيستر » ؟ وكيف تطاوعك نفسك على ترك مدينة أثر فى تاريخها رجال مثل « نيومان » و « ىوارد » و « كيبل » ؟ قالت وهى تضحك : « نعم ، إنهم حقاً فعلوا ذلك وإن كانت المسألة هى إلى أى حد أمكن لهؤلاء أن يؤثروا فى تاريخ بقية العالم ؟ ياله من سبب عجيب يتلمسه المرء للبقاء أما أنا فما كنت لأفكر فى شىء كهذا ! »

وطفقت تقول : « يجب أن أعود تواً إذ أن علاقتى بالآنسة « فونتوفر » ليست على ما يرام ومن الأفضل أن أرحل الآن . »

— « وكيف وقع الخلاف بينكما ؟ »

— « حطمت بعض التماثيل التى كنت أقتنيها . »

— « وهل فعلت ذلك عن عمد ؟ »

— « نعم . وجدت هذه التماثيل فى غرفتى وعلى الرغم من أنها كانت ملكا لى فإنها ألقت بها على الأرض ووطئتها بقدميها لأنها لم تكن من النوع الذى يتفق وذوقها الفنى . بل إنها حطمت رأس أحدها وذراعيه تحطيما كاملا وسحقته بكعب حذائها . ما أفظع ذلك ! »

— « أعتقد أنها وجدت فى هذه التماثيل شيئا موغلا فى الكاثوليكية والمبدأ الرسولى . أغلب الظن أنها دعت هذه التماثيل شخوصا بابوية وتحدثت عن الابتهالات للقديسين . »

— « لا . إنها لم تفعل شيئاً من هذا بل نظرت إلى الأمر نظرة أخرى مختلفة تماماً . »

— « إذن فأنا دهش لما فعلت ! »

— « نعم كانت هناك أسباب أخرى مختلفة حدت بها إلى الحط من شأن القديسين الذين ألوذ بهم لذا اضطررت إلى الرد عليها وصممت على عدم البقاء والانتقال إلى عمل آخر أحس فيه بأننى أكثر حرية . »

— « ولم لاتقومين بالتدريس مرة أخرى ؟ بلغنى أنك حاولت ذلك مرة . »

— « لم أفكر أبداً فى أن أعود إلى التدريس إذ أننى فضلت العمل كرسامة . »

— « دعينى أطلب من السيد « فيلوتسون » ، أن يهىء لك عملا فى مدرسته فإذا رغبت فى هذا النوع من العمل ، وإذا التحقت بكلية المعلمات وحصلت على شهادة تربوية ، لابد أن يصبح دخلك من التعليم ضعف ماتكسبين الآن من العمل كرسامة ، كما لابد أن يتضاعف وقت فراغك . »

— « اطلب منه ذلك فلست أمانع . أما الآن فلا بد لى من الدخول فوداعاً أيها العزيز « جود » ! وافرحتاه لأننا تقابلنا أخيراً ! يجب ألا نختلف لمجرد أن آباءنا فعلوا ذلك . أليس كذلك ؟ »

ورفض « جود » أن يجعلها تحس تماما بمدى اتفاقه معها فى الرأى . وفى النهاية تركها وسار وحده فى الطريق المهجور المؤدى إلى حيث يسكن .

— أصبحت رغبته ملحة فى أن يتمكن من الاحتفاظ « بسو برايدهيد » قريبة منه ، لذا هرع فى اليوم التالى إلى « لمسدون » ، ايرى بنفسه السيد « فيلوتسون » ويطلب منه أن يمنح قريبته عملا فى مدرسته ولو لم يكن المعلم ميالا لهذا .

قال المعلم : « إن ما أحتاج إليه هو معلمة أمضت عاماً واحداً فقط فى دار للمعلمات . بالطبع قريبتك صالحة للعمل فى مدرستى ولكن لم يسبق لها العمل فى التعليم . وهل حقاً لم يسبق لها أن مارست التعليم ؟ هل حقاً تود أن تتخذ التعليم مهنة لها ؟ » .

وأخبره « جود » أن « سو » مستعدة لأن تفعل ذلك . وأن حماسته فى إقناع

السيد « فيلوتسون » بمزاياها الطبيعية النادرة ، تلك المزايا التى كان « جود » يجهل عنها كل شىء ، كان لها تأثير كبير على المعلم حتى أنه قبل أن يستخدمها فى مدرسته كما شرع فى نفس الوقت يؤكد « لجود » على اعتبار أنه صديق مخلص له أنه مالم تكن عاقدة العزم على الاستمرار فى إعداد نفسها لمهنة التعليم عن طريق القيام بتدريب عملى فى إحدى دور المعلمات فإن وقتها وجهدها لابد وأن يتعرضا للضياع إذ ماسوف تحصل عليه من عملها لايعدو أن يكون مالا قليلا لاينفعها بشىء .

وفى اليوم الذى أعقب هذه الزيارة تسلم « فيلوتسون » من « جود » رسالة وضح فيها أنه قام مرة أخـــرى بسؤال « سو » والتأكد من أنها حقاً تنوى الاستمرار فى مهنة التعليم . ذكر أنها أصبحت تتقبل الفكرة فى حماسة متزايدة وأنها وافقت على الحضور ولم يدر فى خلد المعلم لحظة وهو من عاش حياته فى عزلة أن لهفة « جود » وحماسته فى تدبير الأمر « لسو » يمكن أن ينشأ عن شعور نحوها يغاير شعور التعاون الطبيعى الشائع بين أفراد الأسرة الواحدة .

(٥)

جلس معلم القرية فى مسكنه الملحق بالمدرسة ، وكان المسكن والمدرسة بناء حديثاً ، وأخذ يلقى ببصره عبر الطريق الموصل إلى البناء القديم الذى تقيم فيـــه « سو » . لقد تمت الترتيبات سريعاً وكان من المتفق عليه أن تعين طالبة من طالبات المعلمات للتدريس بمدرسة السيد « فيلوتسون » . ولما لم تتمكن الطالبة من القيام بعملها فى المدرسة حلت « سو » محلها على الفور . كل هذه الإجراءات المؤقتة وما يماثلها لم تكن لتتم إلا لحظة حضور مفتش التعليم لزيارة المدرسة فى دورته السنوية الثانية حيث كانت موافقته ضرورية للتنفيذ .

الواقع أن الآنسة « برايدهيد » لم تكن جديدة تماما على مهنة التعليم إذ سبق لها أن مارسته فى « لندن » فترة تقرب من العامين ، وإن انقطعت عنه بعد ذلك . واعتقد « فيلوتسون » أنه يستطيع أن يستخدمها لديه دون ما صعوبة ورغب فعلا فى ذلك بعد أن مضى على بقائها معه ثلاثة أو أربعة أسابيع . إذ وجدها ذكية تماماً كما

وصفها له « جود » . وأين هو صاحب العمل الذى لا يود أن يحتفظ بعامل مجد يوفر له نصف متاعبه ؟

كان الوقت صباحا والساعة جاوزت الثامنة والنصف بقليل عندما وقف « فيلوتسون » ينتظر « سو » وهى تعبر الطريق إلى المدرسة فيسير خلفها وفى التاسعة إلا ثلثاً ظهرت «سو» فعلا وعلى رأسها قبعة صغيرة فنظر إليها وأخذ يرقب حركاتها كأنها شىء غريب . جاءت اليوم يتضوع منها سحر عجيب لا يمت بصلة إلى مهارتها كعلمة تربى الأطفال . ذهب هو الآخر إلى المدرسة حيث تقف (سو) فى الناحية الأخرى من الغرفة وظلت أمام نظره النهار بطوله . حقاً إنها معلمة ممتازة !

كان جزءاً من واجبه أن يعطيها فى الأمسيات دروسا خاصة . وبمقتضى مادة من مواد القانون كان عليه أن يدعو سيدة متقدمة عليها فى السن للحضور فى أثناء الدرس الذى يجمع بين معلم وتلميذته فى مكان واحد . فكر «ريتشارد فيلوتسون» فى سخف مثل هذا الإجراء فى موقف كهذا لاسيما وأنه فى عمر يقرب من عمر والد الفتاة التى يقوم بتلقينها الدروس . غير أنه نفذ القانون بأمانة فجلس مع تلميذته فى غرفة تضم السيدة « هاوز » ، وهى أرملة تشرف على البيت الذى تقيم فيه « سو » ، وفى أثناء الدرس كانت الأرملة تشغل نفسها بالخياطة . الواقع أن تنفيذ هذه الفقرة من القانون ما كان بالشىء الذى يمكن تحاشيه إذ أن المنزل لم يحو غير غرفة جلوس واحدة فلم يكن من بقاء السيدة « هاوز » معهما من بد .

وفى بعض الأحايين ، بينما « سو » تقوم بحل مسائل الحساب تحت إشرافه ، كانت تلقى عليه نظرة عابرة مصحوبة بابتسامة خفيفة كما لو كانت تتوقع منه كأستاذها أن يدرك كل ما كان يدور فى خلدها فى تلك اللحظة من عمليات حسابية صحيحة أو خاطئة . والواقع أن « فيلوتسون » لم يكن يفكر فى الحساب على الإطلاق ولكنه يفكر فيها هى بطريقة جديدة تبدو له غريبة بعض الشىء باعتباره فى موقف المعلم . ومن الجائز أنها كانت تدرك هذا الاتجاه الجديد فى تفكيره .

ولعدة أسابيع استمر عملهما فى نظام رتيب وجد فيه «فيلوتسون» متعة لنفسه .

وبعد ذلك حدث أن أطفال المدرسة كان عليهم أن يذهبوا إلى « كرايستمينيستر» ليشاهدوا معرضا لمدينة أورشليم نظير عملة صغيرة ، تبرعا منهم لصالح التعليم . فسار الأطفال فى الطريق اثنين اثنين بينما سارت « سو » بجوار أطفال فصلها رافعة مظلتها الصغيرة وأصابعها مضمومة بقوة على مقبضها وفى الخلف يسير « فيلوتسون » مرتدياً معطفه الطويل الفضفاض وهو يتوكأ على عصاه وكان غارقا فى نوبة التفكير التى داهمته منذ أن جاءت « سو » لتعمل فى مدرسته . كان الأصيل مشمساً متربا وعندما دخل الاثنان إلى المعرض لم يكن هناك سواهما غير عدد قليل

وفى وسط القاعة ظهر رسم مجسم للمدينة القديمة بينما وقف بجانبه صاحب المعرض وعلى وجهه علامات التظاهر بالدين والإغراق فى خدمته والتضحية فى سبيله وفى يده مؤشر يشير به للأطفال ويدلهم على الأجزاء المختلفة من المدينة ويريهم الأماكن التى عرفوا أسماءها من قراءتهم للإنجيل مثل جبل « موريا » ، ووادى «يهوشافاط» ، ومدينة «صهيون» ، والأسوار والبوابات التى تقع خارجها هضبة مرتفعة فوقها صليب أبيض صغير . قال الدليل : « يدعى هذا المكان جبل « الجلجثة » .

قالت « سو » للمعلم وهى تقف بجواره خلف الأطفال : « أغلب ظنى أن هذا الرسم رغم كثرة تفصيلاته ، يعتبر بعيدا عن الواقع . وإلا كيف يستطيع أى انسان أن يقول إن « أورشليم » كانت على هذه الصورة فى الوقت الذى عاش فيه المسيح ! إننى على ثقة من أن ذلك الرجل يجهل حقيقة الأمر » .

— « هذا الرسم مصنوع وفقا لأفضل الخرائط المعتمدة على الخيال مع زيادة الآثار الباقية فى المدينة »

قالت : «أظن يكفى هذا الآن ولاسيما أننا لسنا من سلالة اليهود . لم تكن المدينة فى عهدها الغابر متميزة بشىء ولم يكن سكانها بالقوم الفضلاء كما كان الحال فى أثينا وروما والإسكندرية وغيرها من المدن العريقة » .

— « ولكن يافتاتى الغالية فكرى فى قيمة تلك المدينة لنا كمسيحيين ! »

هنا صمتت حيث كان من السهل إلحامها . بعد ذلك لمحت خلف الأطفال المتكأكئين حول الرسم شابا يرتدى سترة بيضاء خفيفة ينحنى بكل جسمه فوق الجزء الذى يمثل وادى « ياهوشافاط » ، وراح يتأمله فى اهتمام كبير وكان وجهه مختفيا تماماً وراء البروز الذى يمثل جبل الزيتون .

قال المعلم : « انظرى إلى قريبك « جود » . لعله يظن أننا لم ننل كفايتنا من التفرج على « أورشليم » ! » .

صاحت الفتاة بصوتها الناعم السريع النبرات : « آه .. إنى لم أره ! جود ما أعظم انهماكك فى تفحص ما أمامك ! »

أعاد الصوت « جود » إلى وعيه فرفع رأسه وهنا رآها فقال : « أوه ، سو » قالها فى رعشة تنم عن الفرحة والارتباك الخفيف .

— « طبعا أولئك هم تلاميذك الصغار ! رأيت تلاميذ المدارس يأتون فى أوقات الأصيل فظننت أنك قد تأتين ، ولكننى أصبحت منهمكا فى تفحص الرسم لدرجة أننى لم أدر أين أنا . يا لقدرة هذا الرسم على الرجوع بالناس إلى غابر السنين ! أليس كذلك ؟ فى مقدورى أن أتأمله لعدة ساعات ولكن لسوء الحظ ليس أمامى سوى دقائق قليلة ، إذ أننى مشغول بعمل أؤديه بالقرب من هذا المكان » .

قال « فيلوتسون » فى دعابة خفيفة : « إن قريبتك من الذكاء بحيث تستطيع أن تنقد هذا العمل نقدا مرا . إنها تشك فى صحة هذا المشروع ولا تثق بدقة تفصيلاته » .

قالت « سو » فى عصبية : « لا أيها السيد «فيلوتسون» ، لست تماما كما تقول ، أكره أن أدعى بالفتاة الذكية فثمة عدد كبير ممن يدعون بالفتيات الذكيات ، كل ما هنالك أننى قصدت — لا أدرى ماذا قصدت — هذا الرسم من الأمور التى لا يفهمها أحد ! »

قال « جود » فى حماسة : « أعرف ما تقصدينه وأظن أنك على حق »

— « هذا حسن يا « جود » . أعرف أنك تثق بى » ، ثم قبضت على يده فى حركة سريعة ، وبعد أن ألقت على المعلم نظرة عتاب . التفتت إلى « جود » وكان فى صوتها رعشة أحست أنها لا تتفق مع موقف عادى كهذا الموقف . كانت خالية الذهن تماما عن مدى تعلق قلب الاثنين بها فى تلك اللحظة العاطفية ، ومن عمق الاضطرابات التى هى على وشك أن تصيب مستقبل كل منهما بسببها .

ولما كان الرسم يمتاز بمزايا تعليمية كبيرة ظل الأطفال يتفرسون فيه لفترة طويلة . وبعد الأصيل بقليل ، عادوا كلهم إلى « لمسدون » بينما رجع « جود » إلى عمله . وفى طريقه إلى العمل ظل يرقب صف الأطفال وهم يسيرون فى ملابسهم النظيفة ومعاطفهم السميكة وبجوارهم « فيلوتسون » يسير مع « سو » واستولى على « جود » شعور بالاستياء لأنه يقف وحده خارج النطاق الدائم لحياة هذين الشخصين . لقد دعاه « فيلوتسون » لزيارتهما فى مساء الجمعة وهو الوقت الذى يخلو فيه من دروس « سو » . عند ذلك تعهد « جود » فى حماسة زائدة أن يفيد من هذه الفرصة .

أخيرا عاد التلاميذ والمعلمون إلى منازلهم . وفى اليوم التالى دهش « فيلوتسون » عندما رأى على السبورة فى الفصل الذى تدخله « سو » رسما بالطباشير يبين فى جلاء صورة عامة لمدينة « أورشليم » ، بما تحويه من معالم تفصيلية دقيقة .

قال : « ظننت أنك لم تهتمى بالرسم ولم تلحظى كل ما يحويه من تفصيلات » .

قالت : « الأمر كما تقول ولكننى تذكرت هذا القدر القليل مما رأيت » .

— « هذا يزيد كثيراً على ما استقر منه فى ذاكرتى » .

فى تلك اللحظة كان مفتش التعليم يقوم بزيارة مفاجئة لبعض مدارس المنطقة كى يقوم على طبيعة العمل فى هذه المدارس . وبعد هذا الوقت بيومين ، وفى وسط دروس الصباح ، فتح باب الفصل فى هدوء ودخل السيد المبجل ملك الرعب الذى طالما أخاف ناشئة المعلمين .

وبالنسبة للسيد « فيلوتسون » لم تكن المفاجأة بالشيء المخيف إذ أنه سبق أن عانى متاعب هذا الموقف مرات ومرات ولم يعد يعيره أقل اهتمام. لكن فصل « سو » كان في الناحية الأخرى من الغرفة وكان ظهرها للمدخل ، لذا جاء المفتش ووقف خلفها وأخذ يرقبها وهى تقوم بعملها واستمر كذلك لفترة قبل أن تتنبه إلى وجوده وأخيراً استدارت وأدركت أن اللحظة الرهيبة التى طالما ترقبتها قد حانت وكان وقعها عليها شديداً فبدرت منها صرخة تدل على الرعب . أما « فيلوتسون » فبتأثير شعور قوى لا يدرك كنهه ، وإن عرف أن مصدره هو العطف عليها ، وجد نفسه يقف بجانبها فى اللحظة التى يستطيع فيها أن يحول دون سقوطها فاقدة الوعى ولكنها سرعان ما استرجعت أنفاسها وأطلقت من فمها ضحكة . وبعد رحيل المفتش أحست برد الفعل وكان قوياً فاكتسى وجهها لوناً شديد البياض مما دعا « فيلوتسون » إلى أن يأخذها إلى غرفته ويقدم لها شراباً منعشاً . وعندما عادت إلى رشدها وجدته قابضاً على يدها .

قالت فى حنق : « كان يجدر بك أن تنبهنى إلى أنى معرضة لمثل هذه الزيارة المفاجئة ! ويلى ، ماذا أفعل ! هذا المفتش لابد أن يكتب لأصحاب الشأن بما يفيد عدم صلاحيتى للتدريس وبذلك أفقد احترامهم إلى الأبد ! »

— « لن يفعل ذلك يا فتاتى الغالية فأنت أفضل معلمة رأيتها فى هذه المهنة ! » .

وأخذ يتطلع إليها فى رقة زائدة إلى درجة أنها تأثرت بكلامه وندمت على أنها لامته . وعندما استعادت قواها عادت إلى البيت .

أما « جود » فكان فى تلك الأثناء ينتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر . وفى يومى الأربعاء والخميس السابقين على الجمعة أحس برغبة ملحة فى أن يراها مما دفعه إلى السير فى الظلام فى الطريق المؤدية إلى القرية . وبعد أن عاد إلى غرفته ليقرأ وجد نفسه عاجزاً تماما عن تركيز عقله فى الصفحة التى يقرؤها وفى يوم الجمعة المنتظر ، بمجرد أن نهض من فراشه وصنع لنفسه على عجل قليلا من الشاى ، غادر البيت

دون أن يحسب حسابا لبرودة الطقس وفى داخله شعور بأن « سو » تود أن تراه . كانت الأشجار التى يسير تحتها تعمق من ظلمة الساعة فتزيد المكان وحشة وتملأ نفسه تشاؤما وقلقا لم يكن على حق فى هذا التشاؤم وذلك القلق ، فهو وإن كان يدرك أنه يهواها فقد أدرك كذلك أنه لا يستطيع أن يكون بالنسبة لها أكثر مما هو فى تلك اللحظة .

وعندما استدار حول رأس الطريق المؤدى إلى القرية كان أول شىء وقع عليه بصره شخصين يسيران جنبا إلى جنب تحت مظلة واحدة والشخصان خارجان من من مبنى الأبروشية . ولما كان هو بعيدا عنهما بعداً كبيراً لم يستطيعا أن يرياه ولكنه أدرك لأول وهلة أنهما « سو » و « فيلوتسون » وكان ممسكا بمقبض المظلة رافعاً إياها فوق رأس « سو » وكانا على الأرجح عائدين من زيارة راعى الكنيسة ، ومن الجائز أن الزيارة لبعض الأعمال المتعلقة بالمدرسة . وفى أثناء سيرهما فى الطريق المبتل المهجور رأى « جود » « فيلوتسون » يضع ذراعه حول خصر الفتاة التى بادرت بإزاحتها فى رقة ولكنه عاد إلى هذه الحركة مرة أخرى وهنا امتثلت وهى تتلفت حولها بسرعة وبدا عليها الضيق . لم تنظر خلفها تماما وعلى ذلك لم تر « جود » الذى غاص خلف سياج الطريق كمن أصيب بضربة قاصمة ، وبقى فى مكانه متواريا حتى وصل الاثنان إلى الكوخ الذى تقطنه « سو » فدخلته بينما استأنف « فيلوتسون » سيره إلى المدرسة التى لم تكن لتبعد كثيراً عن بيت « سو » .

صاح « جود » من نبرة الألم الممض الصادر عن حب يائس وقال :

« رباه ولكنه يبدو شيخا بالنسبة لها ... شيخا طاعنا ! »

لم يستطع أن يتدخل . ألم يكن زوجا لأرابيلا ؟ ولم يستطع أن يسير أكثر مما سار ، لذا غير طريقه فى اتجاه « كرايستمينيستر » ، وكل خطوة من وقع قدميه كانت كأنها تعلن أنه لا يجوز له بحال أن يقف فى طريق المعلم وعلاقته « بسو » . كان « فيلوتسون » يكبر الفتاة بما يقرب من عشرين عاما ، ولكن ثمة زيجات سعيدة

عديدة تمت رغم هذا التفاوت الكبير فى السن . أما سمة السخرية التى أحاطت به فى حزنه فمصدرها اعتقاده بأن علاقة الود التى نشأت بين قريبته والمعلم كان هو وحده السبب فى وجودها .

(٦)

كانت العجوز راقدة على الفراش مريضة فى ماريحرين ، فذهب « جود » لرؤيتها فى يوم الأحد التالى وكانت الزيارة نتيجة لما اصطرع فى نفسه من ميل لمقاومة المرور على قرية (لمسدون) حيث يستمتع بجلسة ذليلة يقضيها مع « سو » وفى أثنائها يلجم لسانه فلا ينبس بالكلمة التى هى أقرب الكلمات إلى قلبه ولا يكشف عن حقيقة المنظر الذى يعذبه .

أصبحت العجوز الآن لا تقوى على مغادرة فراشها وانشغل فى الفترة التى أمضاها معها بالعناية براحتها . كان المخبز الصغير قد بيع لأحد الجيران فاستطاعت الخالة أن تعيش على ثمنه ، وذلك بالإضافة إلى فضلة من مال مدخر بينما عاشت معها أرملة من نفس القرية تقوم على خدمتها . وعندما اقترب موعد عودته إلى عمله صمم على أن يتحدث إلى خالته حديثاً قصيراً هادئاً يدور حول قريبته الشابة .

« هل ولدت « سو » فى هذا البيت ؟ »

« أجل وفى نفس هذه الغرفة ــ كانا يعيشان هنا فى ذلك الوقت » .

« ولكن ما الذى جعلك تسأل هذا السؤال ؟ ! »

« أردت فقط أن أعرف . »

قالت العجوز ذات المظهر الخشن : « لابد أنك تقابلها وتتحدث إليها ! ما الذى سبق أن قلته لك عنها ؟ »

ــ « قلت لى ألا أقابلها »

ــ « وهل تجاذبتما أطراف الحديث ؟ »

— « نعم »

— « إذن كف عن ذلك فقد نشأها أبوها على كراهية أسرة والدتها ، كما أنها لن تحترم عاملا بسيطا مثلك سما وأنها أصبحت الآن من فتيات المدينة المغرورات. إنى ما أحسنت الظن بها قط إذ كانت دائما ذلك المخلوق القمىء النافر الجسور ذا الأعصاب المشدودة ، ولطالما كلت لها الضربات لوقاحتها »

« حدث ذات يوم مثلا أن كانت تخوض البركة بعد أن خلعت حذاءها وجوربها وجذبت ملابسها إلى ما بعد الركبتين . وقبل أن أصرخ فى وجهها معنفة إياها على فعلتها قالت : « إلى الأمام أيتها الخالة ! ليس هذا بالمنظر الذى ينظر إليـــه المؤدبون من الناس ! »

— « كانت طفلة صغيرة حينئذ »

— « كانت بالتأكيد فى الثانية عشرة »

— « ولكنها الآن أكبر وأصبحت من النوع الوديع المفكر الخجول ، كما أنها شديدة الحساسية » .

صاحت العجوز وهى تنهض من فراشها : « العقل يا جود ! »

— « لا .. لا .. طبعا لا .. »

— « إن زواجك من تلك المرأة المدعوة « أرابيلا » لا يمكن أن يدانيه فى السوء أمر آخر ، ولكنها رحلت الآن إلى الجانب الآخر من العالم وان يقلقك شبحها مرة أخرى . ولكن سيحدث لك ما هو أسوأ لو أنك تعلقت « بسو » رغم القيود التى تغلك الآن . وإن كانت هذه الفتاة تظهر لك شيئا من الود فلا ينبغى أن تفسر هذا بأكثر مما يجب . ولو نظرت إلى رقتها على أنها أكثر من مجرد أمان طيبة صادرة من فتاة نحو قريبها ، فهذا هو الجنون المطبق ، أما إذا كانت رخيصة مبتذلة فمن الجائز أن تقودك إلى الدمار » .

ـــ « لا تتحدثى عنها بالسوء ! .. أرجوك » .

ومنح خلاصا عنـــد ما دخلت عليهما رفيقة العجوز ، وهى فى نفس الوقت ممرضتها ولا بد أنها كانت تنصت للحديث إذ أنها شرعت تسرد ذكرياتهـا عن الأعوام المنصرمة وتتعمد فى حديثها عن الماضى أن تذكر (سو برايد هيد) وتصفها على اعتبار أنها كانت فتاة صغيرة غريبة ، وهى ما زالت تلميذة فى مدرسة القرية قبل رحيل أبيها إلى لندن ، وكيف أنها ، عند ما قام القسيس بتنظيم قراءات ودروس إلقاء ، وقفت على المسرح ـــ وكانت أصغر الجميع ســـنأ ـــ وعليها معطفها الصغير الأبيض وفى قدميها حذاؤها وحول وسطها حزامها الوردى وما أعجبها عنـد ما أنشدت قصيدتى « أكسلسيور » و « الغراب » ، وكانت أثناء الإلقاء تعقص حاجبيها الصغيرين وتدور حول نفسها فى قوة وتقول وهى تحدث الفراغ حولها كأنما الواقف أمامها شخص حقيقى « وأنت أيهـا الغراب الأسود الفظيع العاتى الهارب من شطآن الظلام . خبرنى ما اسم صاحب الأمر والنهى فى مملـكة الليل ! » .

وأضافت المرأة المريضة تقول فى تراخ : « كانت تصر فى إلقائهـا على إظهار الطائر المنبوذ بطريقة واضحة ، بينما وقفت مرتدية حزامها الصغير وأدوات التمثيل الأخرى التى استطاع كل فرد أن يراها فى وضوح . وأنت أيضا يا « جود » ، كنت فى طفولتك تتظاهر برؤية أشياء فى الهواء . وأشياء أخرى كثيرة ذكرتهـا الجارة كى تبرهن بها على براعة « سو » .

قالت الجارة : « لم تـكن « سو » بالجسورة ولـكنها تستطيع أن تقوم بالأعمال التى لا يقوى على القيام بهـا سوى الغلمان ولقد سبق لى أن رأيتها وهى تضرب الأرض بقدميها ثم تنزل المنزلق الثلجى الطويل الذى ينتهى بالبركة بينما خصلات شعرها تتطاير فى الفضـاء وضفائرها تهتز خلفها وتتراقص على صفحة المـاء مكونة أشكالا تشبه الصور المرسومة على الزجاج ثم تصعد المنزلق الخلفى دون توقف وكانت الوحيدة بين الغلمان . وعند ما يهتفون لها تقول لهم : « لا تـكونوا

وقحين أيها الغلبان » . وفجأة تعود إلى البيت مسرعة فيحاول الغلمان أن يغروها بالخروج ثانية ولكنها ترفض فى إصرار » .

هذه الرؤى المسترجعة « لسو » لم يكن لها من نتيجة إلا أن تزيد من تعاسة « جود » وتقعده عن السعى فى حبها فرحل عن بيت العجوز فى ذلك اليوم وقلبه مثقل ولم تطاوعه نفسه أن يلقى نظرة عابرة كما اعتزم على المدرسة ليرى الغرفة التى نعمت بوجود « سو » فيها ، وسار فى طريقه .

كان الوقت أمسية الأحد وتجمع بعض القرويين الذين عرفوه عندما كان يقيم فى ذلك المكان ، وكانوا يرتدون أفضل ملابسهم . وحياه واحد منهم تحية مفاجئة فزع لها « جود » وخاصة عندما سمعه يقول : « ها أنت وصلت إلى هناك ! » وظهر على « جود » أنه لم يفهم شيئا .

— « أقصد أنك وصلت إلى هناك ، إلى مكان العلم والمعرفة ، إلى (مدينة النور) . فطالما حدثتنا عنها وأنت بعد صغير ! هل وجدت فيها كل ما توقعت ؟ » .

صاح « جود » نعم و« أكثر » .

— « أما أنا فذهبت إلى هناك ذات مرة وبقيت ساعة ولكننى لم أر فيها شيئا يستحق الذكر بل وجدت أبنية قديمة متهدمة وكنائس لم يتم بناؤها وملاجىء ناقصة وركودا فى كل مكان » .

— « أنت مخطىء يا « جون » ، فهناك أشياء كثيرة لا تراها عين من يسير فى الطرقات فالمدينة مركز ممتاز للفكر والدين معا وهى الدعامة الفكرية والروحية لدولتنا وكل ما لاحظته هناك من هدوء ظاهرى ، ما هو إلا الحركة الدائمة فى سكونها وهدوئها . إنه (هجوع المغزل) لو جاز لى أن استخدم تشبيه أحد الكتاب الكبار فى هذا المقام » .

— « على أى حال ، قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون . ولكننى كما قلت

لم أر شيئا مما تقوله فى اللحظة التى أمضيتها هناك . فدخلت إحدى الحانات وطلبت قدحا من البيرة ورغيفا من الخبز وقطعة من الجبن وبقيت هناك حتى حان وقت عودتى . أرجو أن تكون قد تمكنت من الالتحاق بإحدى الكليات هناك » .

قال «جود» : « آه . لا . بل ما زلت أبعد ما يكون عن إدراك هذا الهدف »

— « وكيف كان ذلك ؟ » .

وضرب « جود » بيده على جيبه .

وقال الآخر : « هذا بالضبط ما توقعناه ! مثل هذه الأماكن ليست لمن هم مثلك بل إنها لأولئك الذين يملكون المال الوفير !! » .

ومع ذلك فالملاحظة كانت كافية لتحويل انتباه « جود » عن العالم الشاعرى الذى يعيش فيه فى الحقبة الأخيرة من حياته حيث أخذت شخصية معنوية تشبهه من بعيد أوقريب تغرق عقله فى فيض من تقديس الفنون والعلوم وتدعم جهوده ، وتقوى سعيه لاكتساب مكان له فى جنة المتعلمين . فى تلك اللحظة ، أحس بأن آماله تضاءلت وتجمدت داخل نطاق صغير فى ركن من أركان نفسه . لقد أحس فى الفترة الأخيرة أنه عاجز عن القيام بما تتطلبه دراسة اللغة اليونانية من جهد وبخاصة لغة «كتاب الفواجع الشعرية» .

كان فى بعض الأحايين يحس بوطأة التعب عقب الانتهاء من عمل اليوم فلم يكن فى طاقته أن يركز انتباهه تركيزاً يمكنه من القيام بالتطبيق اللازم لما يحفظ من قواعد ونظريات لغوية . وشعر بحاجته إلى من يعاونه على الدرس ، إلى صديق قريب منه يرشده فى وقت قصير إلى ما قد يتطلب منه فى بعض الأحايين قضاء شهر كامل من العمل المضنى حتى يستخلص من بطون الكتب العتيقة التبويب ، البالية التنظيم مالا علم له به .

أصبح من الضرورات القاطعة بالنسبة له الآن أن يزن الحقائق فى دقة تفوق ما اعتاد أن يفعله فى الفترة الأخيرة وبدأ يشك فى الفائدة التى تعود عليه من قضاء

ساعات فراغه فى عمل غامض الهدف ، يدعى (دراسة خاصة) دون أن يهتم بما يمكن أن يتمخض عنه القيام بمثل هذا العمل من نتائج مفيدة له .

وفى طريق عودته قال يناجى نفسه : « كان لا بد أن أفكر فى ذلك قبل الآن . كان ينبغى ألا أبدأ المشروع على الإطلاق قبل أن أرى فى وضوح الطريق الذى أسير فيه ، أو الهدف الذى أرمى إلى تحقيقه . هذا التسكع والتحويم خارج أسوار الكليات كما لو كنت أتوقع أن يمتد منها ذراع سحرى يجذبنى إلى داخلها لن يكون من ورائه نتيجة ! لا بد لى من أن أحصل على معلومات خاصة » .

وفى الأسبوع التالى راح يبحث عن هذه المعلومات ، وجاءت الفرصة ذات أصيل عندما رأى سيداً متقدماً فى السن يبدو عليه أنه عميد لإحدى الكليات ، يسير فى الطريق العام الذى يخترق متنزهاً عاماً حيث تصادف ، أن كان « جود » جالسا . واقترب السيد المبجل ، فأخذ « جود » يتطلع إلى وجهه فى لهفة ، وكان يبدو طيبا رحبا وإن كانت عليه مسحة من التحفظ . وعندما عاد « جود » إلى نفسه أحس أنه لا يقوى على النهوض ليحادثه . ولكنه بعد هذا الحادث أصبح على درجة من الاقتناع بحيث وجد من الخير لنفسه أن يكتب لبعض هؤلاء السادة والأساتذة من ذوى المكانة والشهرة موضحا لهم حقيقة حاله . ساردا طرفاً من الصعاب التى تواجهه فى سبيل التحاقه بإحدى الكليات، طالبا النصيحة منهم .

وفى خلال الأسابيع القليلة التالية تعمد أن يجلس فى أماكن معينة من المدينة بحيث يستطيع أن يلقى نظرة عابرة على عدد من مشاهير العمداء والعلماء والأساتذة ذوى الأسماء اللامعة . ومن بين هؤلاء اختار لنفسه ، بعد تفكير طويل ، خمسة ممن يتوسم فيهم حب الخير وبعد النظر . وبعد ذلك شرع يكتب لكل من هؤلاء خطابا يشرح فيـــه بإيجاز الصعاب التى تنتاب حياته ملتمسا المشورة فيما يتعلق بموقفه الصعب .

وبعد أن أرسل خطاباته شرع عقله ينتقد محتوياتها ويتمنى لو أنه لم يرسلها وأخذ يناجى نفسه قائلا : « ليست هذه سوى رسائل رخيصة خالية من الذوق

تغلب عليها صفة التطفل والاندفاع كخطابات طلب الوظائف الكثيرة الانتشار فى أيامنا هذه . ليتنى كنت أكثر حذرا فلا أخاطب الغرباء بهذه الطريقة ! من الجائز أن يظنوا أنى غشاش أو أفاق أو منتحل الشخصية من مدى علمهم برغم أنى عكس ذلك ... من الجائز أنى بهذه الصفات . .

وبالرغم من ذلك ، وجد نفسه ما زال متشبثا بالأمل فى أن يتسلم رداً ما على محاولته الأخيرة لإنقاذ روحه فأخذ ينتظر يوما بعد يوم قائلا لنفسه من الحمق المطبق أن ينتظر ، ومع ذلك ظل ينتظر . وفى أثناء انتظاره هذا تزلزل كيانه لخبر سمعه عن « فيلوتسون » إذ سمع أن « فيلوتسون » يعتزم ترك مدرستـه بجوار « كرايستمينيستر » والانتقال إلى أخرى أكبر منها تقع إلى جنوبها فى « وسكس » الوسطى . ما معنى ذلك ؟ وما أثره على ابنة خالته ؟ هل هذه ، كما هو الواضح ، خطوة من المعلم لزيادة دخله ، حيث يدبر المعيشة لشخصين بدلا من واحد ؟ من يدرى ؟ ! . وكانت العلاقات العاطفية التى تربط « فيلوتسون » بالفتاة الصغيرة التى يهيم « جود » بها حباً ، جعلت من الأمور التى تعافها نفسه أن يسعى للمعلم طالبا المشورة فى أموره الخاصة .

وفى الوقت نفسه لم يتنازل السادة الأفاضل الذين كتب « جود » لهم بالرد على رسائله وبذلك عاد إلى وحدته بل زاد عليه الانقباض الناشئ عن ضعف الرجاء . وبالتحريات الخاصة أدرك فى وضوح أن التقدم لنيل منحة دراسية من بين المنح المفتوحة للجميع ، هو طريقه الأوحد السليم فى موقف كهذا . لكنه لو فعل ذلك فلابد من إعداد خاص وقدرة معينة على الدراسة والتعليم . ولكن من المستحيل حقاً على من كان مثله يقرأ بلا نظام ثابت ، مهما تنوع اطلاعه ودق فهمه ، ومهما كان عدد السنوات التى أمضاها فى هـذا الاطلاع وقد زادت على العشر ، من المستحيل عليه أن ينافس أولئك الذين أمضوا حياتهم تحت إشراف أساتذة مدربين وعملوا وفقا لنظم دراسية مقررة .

أما الطريق الآخر ، وهو الطريق الرسمى المعتاد ، وبه يستطيع أن يشترى

الدخول بدراهمه فكان يبدو له أنه الطريق الوحيد المفتوح أمام من هم على شاكلته . أما صعوبة سلوك هذا الطريق فترجع إلى ما يتطلبه السير فيه من مال . وشرع يدرس طبيعة هذه العقبة فتأكد لديه أنه بالمعدل الذى يستطيع بمقتضاه أن يقتصد بعض المال لا بد له ، فى أفضل الظروف ، من أن يقضى خمسة عشر عاما قبل أن يتمكن من التقدم بوثائق تثبت مقدرته المالية إلى عميد إحدى الكليات ثم أداء امتحانات القبول بعد دفع رسومها ولم يجد فى مثل هذا المشروع بارقة أمل .

على أنه رأى أية روعة عجيبة خلابة وأى أثر عميق تركه فى نفسه هذا المكان وملحقاته . أن يذهب إلى هناك ويعيش هناك ، أن يتجول وسط الكنائس وقاعات الاجتماعات حيث تمتلىء نفسه بروح المكان ، ذلك كان ، لشبابه الحالم هدفه وبخاصة كلما أحس أن البقعة كلها تناديه من وسط هالات النور التى تسبح فيها فوق الأفق ، صاح بنفس اللهفة التى أبداها « روبنسون كروزو » على قاربه الكبير : « كيف السبيل إلى الوصول إلى هناك ؟ أما الباقى فمسألة جهد ووقت » . كان من الأفضل له كثيراً لو أنه لم يقترب من هذه البقعة الخداعة هذا الاقتراب الشديد ، أو لو أنه ذهب إلى مدينة أخرى تشتهر بالحركة والنشاط التجارى بغية جمع المال معتمدا على مواهبه ومن ثم ينظر إلى مشروعه فى وضعه الطبيعى نظرة شاملة . على أى حال كلما كان واضحاً أمامه لا يتعدى الحقيقة القائلة بأن المشروع كله قد انهار من أساسه كفقاعة الصابون وذلك بمجرد أن سلط عليه شعاعا من التفكير المتزن ، وهنا نظر إلى نفسه من خلال سنى حياته التى انقضت فجاءت أفكاره قريبة من أفكار الشاعر (هاينى) : « ومن فوق عيون الشباب الملتمعة بنور الأمل والحماس رأيت قلنسوة المهرج ذات الألوان المختلطة ترتفع فى سخرية » .

ولحسن الحظ لم يؤذن له بأن يقحم خيبة أمله على حياة عزيزته « سو » بإشراكها فى هذا الانهيار . أما التفصيلات المؤلمة الخاصة بإدراكه تصوره فوجد

أن من الواجب إعفاءها منها بقدر استطاعته . وقبل كل شيء لم تعرف سوى جزء صغير من الكفاح التعس الذى خاضه وهو أعزل فقير غر .

لقد تذكر دائماً ذلك الأصيل الذى استيقظ فيه من الحلم . ولما كان لا يدرى ماذا يصنع بنفسه ، صعد إلى غرفة مثمنة الأضلاع فى أعلى جزء من منارة مسرح فريد فى طريقة إنشائه كان قد أقيم وسط هذه المدينة القديمة الفذة فى هندستها . كان للغرفة نوافذ دائرية يمكن للناظر منها أن يرى المدينة بكل مبانيها . ومرت عينا « جود » على الأبنية جميعها مستعرضا إياها واحدا بعد الآخر والعقل مشغول والنفس محزونة ومع ذلك لم تفارقه شجاعته . يا لتلك الأبنية وما تثيره فى نفسه من أفكار وما يتصل بها من امتيازات لم تكن له وليس له فيها نصيب ! ومن الأسطح العالية لدار المكتبة العظيمة حيث لم تسنح له فرصة دخولها قط انتقل ببصره إلى الأبراج المتعددة وإلى القاعات والأبنية الهرمية السقوف وإلى الشوارع والحدائق والكنائس والأفنية المسقوفة المربوعة وهى فى مجموعها تكون المنظر العام للمدينة ، وإنه لمنظر فريد فى جماله . رأى أن مصيره ليس مع هذه المناظر ولكنه مع العمال الذين يكدحون بأيديهم طول الوقت فى الجيرة الفقيرة حيث يعيش هو نفسه وحيث لا يعترف بها على الإطلاق زوار هذه المدينة ومعجبوها كجزء من أجزائها ومع ذلك فلولا هذه الطغمة الفقيرة ما استطاع قارئ مجد أن يقرأ ولا مفكر رصين أن يعيش .

وانتقل ببصره من المدينة إلى الريف خلفها ، حيث الأشجار التى حجبت وجودها الذى كان فى مبدأ الأمر الدعامة التى يتكئ عليها قلبه والتى أصبح فقدانه إياها الآن عذابا قاتلا . ولولا هذه الضربة لكان من الممكن أن يتحمل قدره . ولو كانت « سو » رفيقا له لاستطاع أن ينزل عن تطلعاته بنفس راضية . أما وهو محروم من صحبتها فلا بد من أن يضار كثيرا بتأثير ما يتعرض له من توتر شديد نتيجة لرغبته العميقة فى تحقيق ما يطمح إليه . ومما لا شك فيه أن « فيلوتسون » سبق له أن مر فى أزمة عقلية شبيهة بتلك ، غير أن الله وهبه نعمة التأسى (بسو) الرقيقة الحلوة . أما هو ، فما من معز .

وبعد أن نزل إلى الشارع ، سار فى طريقه قدما حتى وصل إلى إحدى الحانات حيث دخلها وجلس يشرب بسرعة عدة أكواب من البيرة وغادرها وكان الوقت ليلا وعلى ضوء المصابيح هرول إلى المنزل الذى يقيم فيه ليلحق العشاء وما كاد يجلس إلى مائدته حتى أحضرت له مدبرة البيت خطابا وضعته أمامه بحركة تدل على ما توليه من أهمية خاصة . وعندما نظر إليه لاحظ أنه يحمل طابع إحدى الكليات التى سبق أن راسل عمداءها وعندئذ صاح : « وأخيرا .. واحدة ! » .

كانت الرسالة قصيرة ولم تكن بالضبط ما توقع بالرغم من أنها كانت من العميد ذاته ، وكان نصها كالآتى :

سيدى :

قرأت رسالتك باهتمام واستنادا إلى وصفك لنفسك على اعتبار أنك من الطبقة العاملة أستطيع أن أقول إنك ستحظى بفرص أكبر للنجاح فى الحياة لو أنك بقيت فى محيطك والتصقت بمهنتك وذلك أفضل من تغيير طريق حياتك وهذا ما أنصحك به .

إلى السيد ج. فاولى : بناء

المخلص لك

(ت . تيتوفينى)

هذه النصيحة المغرقة فى التعقل أثارت ثائرته ، إنه أدرك كل ذلك من قبل وعرف أنه طريق الصواب ، ومع ذلك ، فهذه النصيحة كانت تبدو عقب سنوات عشر من العمل والكفاح كأنها صفعة على وجهه . أما تأثيرها على نفسه الآن فإنها جعلته ينهض من أمام المائدة فى تخاذل وينزل السلم ويخرج إلى الطريق ، وذلك بدلا من أن يخلد كعادته إلى القراءة . سار فى الطريق ثم دخل إحدى الحانات وشرب بضع كئوس من الشراب محدثا ضجة كبيرة ثم أخذ يتسكع دون أن يشعر إلى أن وصل إلى بقعة وسط المدينة تسمى « ألفورويز » حيث أخذ يحملق فى الجماهير فى ذهول كأنه فى غيبوبة . وعندما عاد إلى صوابه بدأ يتحدث

إلى رجل الشرطة المعين هناك . تثاءب الشرطى ومد ذراعيه ورفع نفسه درجة فوق أطراف قدميه وابتسم ثم نظر إلى « جود » فى دعابة وقال : « هل شربت أيها الشاب » قال « جود » فى مرارة : « لا .. كنت بدأت الشراب » . ومهما كانت درجة انتشائه بالخمر فقد كان عقله على درجة كافية من التنبه . فسمع جزءا من ملاحظات رجل الشرطة ولم يع شيئا من كلامه بعد ذلك إذ راح يفكر فى أفراد الطبقة الكادحة ، وهو منهم ، أولئك الذين تجمعوا عند تلك البقعة ولا يخطر أمرهم ببال أحد . هذه الجماعات لها تاريخ ضارب فى القدم يفوق فى عراقته أقدم كلية من كليات المدينة . لطالما زخرت البقعة بالناس وضمت كتلا متراصة حوت أنواعا من الجماعات البشرية التى تلاقت بقصد القيام بأعمال فاجعة أو تنفيذ ملهاة ، أو للمجون الساخر المنطلق ، جاءوا جميعا ثم ذهبوا بعد أن أصدروا قرارات غاية فى الخطورة . فى تلك البقعة ، وقف الناس وتحدثوا عن « نابليون » وضياع « أمريكا » وقطع رأس الملك شارل ، « وحرق الشهداء » ، « والحروب الصليبية » ، « والفتح النورماندى » . ومن الجائز أيضا أنهم تحدثوا عن وصول « قيصر » فاتحا . فى هذا المكان تقابل الجنسان للحب والبغض والزواج والافتراق . هنا انتظر بعضهم بعضا وتحدبوا وانتصروا فيما بينهم ولعن بعضهم بعضا متحاسدين وبارك بعضهم بعضا متصالحين .

بدأ يدرك أن الحياة فى المدينة هى كتاب الإنسانية وأنها أشد حيوية وأكثر تنوعا وأعمق تركيزا من الحياة فى الجامعات . أولئك الكادحون والكادحات من الرجال والنساء الذين يمرون أمامه الآن هم حقيقة « كرايستمينيستر » وهم سرها الدفين وإن لم يعرفوا سوى القليل عما يدل عليه اسم المدينة من معنى . تلك كانت واحدة من مهـــازل الأمور . فجماعات السكان المؤلفة من الطلاب والمدرسين الذين عرفوا بعضهم بعضـــا بطريقة ما لا يؤلفون فيما بينهم « كرايستمينيستر » بالمعنى الحقيقى أبدا .

نظر إلى ساعته ثم سار متأثرا بفكرته هذه حتى جاء إلى قاعة عامة تعزف فيها موسيقى راقصة . ووجد المكان مكتظا بفتيان المتاجر الصغيرة وفتياتها

وأفراد من الجند وصغار الصناع وغلمان لم يتجاوزوا الحادية عشرة يدخنون ونساء من طبقة محترمة وهى طبقة هاويات الموسيقى الراقصة . لقد عثر على الحياة الحقيقية فى (كرايستميمنيستر) . كانت الفرقة الموسيقية تعزف والجماهير تتمشى فى المكان متزاحمين ومن حين لآخر يصعد رجل إلى المنصة ويغنى أغنية هزلية .

أحس بأن روح « سو » تحوم حوله وتمنعه من الغزل والشراب والاختلاط بالفتيات اللعوبات اللائى يعابثنه طلبا المرح . وعند العاشرة غادر المكان عائدا إلى البيت واختار طريقا أطول كى يمر بأبواب الكلية التى أرسل عميدها إليه الخطاب .

كانت أبواب الكلية قد أوصدت وبدافع داخلى تناول من جيبه قطعة من الطباشير يحملها معه دائما باعتباره عاملا من عمال البناء وكتب فوق الحائط ما يلى :

« غير أن لى فهماً مثلكم . لست أنا دونكم . ومن ليس عنده مثل هذه ؟ » .

« أيوب : إصحاح ١٢ فقرة ٣ » .

(٧)

ارتاحت نفسه لصفعة الاحتقار التى وجهها لأهل العلم . وفى الصباح التالى ضحك ملء شدقيه لغروره . ولكن ضحكه لم يكن طبيعيا إذ أنه أعاد قراءة الخطاب الذى جاءه من عميد الكلية ، وأعاد التفكير فيما تضمنته سطوره من حكمة أثارته فى مبدأ الأمر ثم جمدت أوصاله بعد ذلك حزنا ، وانقباضا . حقا لقد اعتبر نفسه مجنوناً .

ولما كان قد حرم من دلائل العقل ومقومات العاطفة لم يقو على العودة إلى عمله إذ كلما أحس بالاستسلام لقدره المقسوم كطالب علم وقع ما يعكر صفو هدوئه كعلاقته الميئوس منها « بسو » ، تلك المخلوقة الرقيقة التى كان من نصيب حياته أن يلتقى بها هى بالذات دون غيرها من النساء أجمعين . أما فكرة نقده لها بتأثير

زواجه الأول فكانت دائما تلح عليه إلحاحا شديدا وها هى تعود إليه الآن بكل قوتها وتهاجمه فى إصرار قاس . وفى النهاية ، عندما عجز عن تحمل وطأة الفكرة اندفع مرة ثانية إلى حياة « كرايستمينيستر » . الحقيقية مغرقا نفسه فى خضمها طلبا للسلوى ، وهو الآن يبحث عن روح « كرايستمينيستر » فى حان مظلم منخفض السقف يقع فى نهاية ربع قديم . فى ماضى الأيام كان الحان مكانا معروفا لعدد من القوم . وفى أوقات أسعد من هذه كان يمكن أن تفرحه رؤياه لمجرد أنه قديم عتيق . هنا جلس طوال يومه مقتنعا فى قرارة نفسه بأنه شخص معطوب النفس لا يرجى منه شىء .

وفى المساء يتوافد زبائن الحان واحداً إثر واحد و « جود » فى مكانه من ركن الحان وقد جنف معين ماله فما تبلغ إلا بكسرة من البسكويت . أخذ يقلب بصره فى رفاقه المتجمعين فى المكان وبكل الثبات والتفلسف الصادرين عن رجل مضى عليه فى الشراب وعبه وقت طويل أخذ يدرس رفاق الحان المتجمعين هناك وصادف الكثيرين منهم مثل « تنكر تيلور » تاجر الحديد القديم الذى بدا عليه أنه كان فى ماضيه متدينا وهو الآن زنديق مرتد ، ومثل الدلال ذى الأنف المتورم . كذلك تعرف على عاملين من عمال البناء القوطى مثله ويدعيان « العم جيم » و « العم جو » . كان هناك أيضا بعض كتبة الدواوين ومساعد لأحد خياطى الملابس الكهنوتية وسيدتان تلهوان بالأخلاق وتظهران اتجاهات أخلاقية منوعة تختلف باختلاف الأفراد المصاحبين لها ويطلق عليهما أسماء مستعارة ، فالأولى تدعى « خميلة الرحمة » والثانية « نمش الوجه » . وكان هناك بعض المهتمين بالسباق المطلعين على مايجرى فى دوائر المراهنات ، كما كان هناك أيضا ممثل مسرحى متجول وشابان مغامران من طريدى الكليات الجامعية كانا قد تسللا إلى الحان ليقابلا شخصا فى شأن من شئون تربية الكلاب فبقيا هناك وظلا يشربان ويدخنان الغليون القصير فى صحبة أولئك السادة المهتمين بالسباق الذين سبقت الإشارة إليهم ، ولم ينقطعا عن النظر إلى الساعة . تناول الحديث موضوعات عامة وتعرض مجتمع « كرايستمينيستر » للنقد وتحدث الجميع فى عطف زائد عن النقائص المعروفة عن

أعضاء مجالس الكليات وعن القضاة وعن غيرهم من أصحاب السلطة ، بينما الآراء المتعلقة بما ينبغى عليهم أن يفعلوه فى مجال الحياة والعمل كى يكتسبوا احترام الآخرين ظلت تناقش بطريقة ذكية خالية من كل تعصب .

أما (جود فاولى) فبتأثير غروره وسلاطة لسانه وجسارته كشاب قوى الذهن ثمل من كثرة الشراب أخذ يلقى بملاحظاته دون اهتمام . ولما كانت أهدافه فى الحياة لم يعتورها أى تغيير لسنوات عدة فكل شىء قاله الآخرون تحول على لسانه بطريقة سحرية عجيبة إلى أن يكون موضوعا يدور حول المنح والدراسة الجامعية مع محاولة إظهار مدى تفوقه بالنسبة للآخرين بشكل متعمد صارخ يثير فى نفسه الحسرة والاشفاق وذلك عندما يعود إلى حالته الطبيعية .

كان يقول لنفسه : « لا أشعر بأى تقدير لأى جهبذ من جهابذة الكليات سواء أكان رئيساً أم عميداً أم زميلا أم عالما حائزا لدرجة الأستاذية اللعينة ! إن ما أعرفه جيدا هو أننى قادر على هزيمتهم فى ميدانهم لو أنهم فقط منحونى الفرصة لمنازلتهم وأظهر لهم من علمى ما لم يسمعوا به حتى الآن » . وجاء صوت طريدى الجامعة من زاوية الخان وكانا يتحدثان حديثا خاصا عن الخانات .

قال (تنكر تيلور) : « كنت دائما مغرما بالكتب . هكذا سمعت ولهذا لا أشك فيما تقول أما بالنسبة لى فالأمر مختلف إذ كنت دائما أعتقد أن الأمور التى يتعلمها المرء من خارج الكتاب أكثر من تلك التى يستمدها من القراءة واعتنقت هذا الرأى واتبعته ، وإلا لما كنت على ما أنا عليه الآن » .

قال العم « جو » : « إنك تعد نفسك كى تكون من رجال الدين . أليس كذلك ؟ وحيث أنك عالم على هذه الدرجة العالية من العلم لم لا ترينا عينة من علمك ؟ هل يمكنك أيها الشاب أن تقول لنا « قانون الإيمان » كما هو مكتوب باللغة اللاتينية ؟ هذا مافعلوه عندما أرادوا فى بلدى أن يمتحنوا شخصا مثلك » .

قال « جود » فى تعال : « فأنا إذا أستطيع أن أفعل ذلك » . صرخت إحدى السيدات تقول : « ليس هذا بالشخص الذى يستطيع ذلك . إنه لمغرور » .

قال أحد طريدى الجامعة : كل ما يطلب منك هو أن تقفل فك ، أنت يا خميرة الرحمة ، « ليصمت الجميع ! » . ثم أفرغ فى جوفه كل ما فى الكأس من شراب وأخذ يدق به على المائدة وهو يصرخ قائلا : « سيقول لنا السيد المبجل الجالس فى ركن الحان « قانون الإيمان » باللغة اللاتينية وذلك مساهمة منه فى تهذيب الجماعة وإصلاحها » .

قال « جود » : « لا . . لن أفعل » .

قال مساعد صانع الملابس الكهنوتية : « أجل . قم وحاول ! »

قال العم « جو » : إنك لن تستطيع أن تتلوه ! »

قال « تنكر تيلور » : « أؤكد لك أنه يستطيع ذلك » .

قال « جود » : « أقسم لكم أننى أستطيع ! ولإثبات ذلك أعطونى كأسا صغيرة من الوسكى المثلج وسأتلو عليكم « قانون الإيمان » باللاتينية دون توقف » .

قال طالب الجامعة وهو يخرج من جيبه ثمن الكأس : « هـــذا طلب معقول » .

سكبت الساقية الشراب فى كأس ومزجته بالطريقة المطلوبة وبدت كأنما كانت ممن قدر عليهم العيش وسط أحط المخلوقات . قدم الكأس « لجود » الذى أفرغ محتوياته فى جوفه وسرعان ما انتصب فى مكانه وأخذ يخطب بلا توقف فى لغة لاتينية فصيحة :

« بالحقيقة أومن بآله واحد . الله الأب ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى » .

صاح أحد الجامعيين : « حسن ! لاتينية رائعة ! » . ومع ذلك ، لم يكن لديه أدنى فهم لكلمة واحدة . وخيم السكون على الجميع ووقفت النادلة فى مكانها بينما صوت « جود » يرن فى القاعة الداخلية حيث كان صاحب الحان فى غفوة فقام ليرى ما الخبر ، ولكن « جود » ظل يخطب فى قوة واستمر يقول باللاتينية دون توقف :

« صلب عنا على عهد « بيلاطس البنطى » وتألم وقبر وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب » .

قال الفتى الجامعى الآخر فى استهزاء : « هذه عقيدة مجمع « نيقيا » ولكننا وددنا أن نسمع عقيدة الحواريين ! » .

« ولكنكم لم تقولوا ذلك ! كل مغفل يعرف أن عقيدة مجمع « نيقيا » هى أقدم عقيدة فى التاريخ المسيحى ! » .

قال الدلال : « ما علينا . استمر . . استمر . . ! » .

ولكن سرعان ما بدا الارتباك على « جود » واختل تفكيره ، وعجز عن الاستمرار فوضع يده فوق جبهته وظهرت على وجهه علامات الألم .

قال «تنكر تيلور» : « أعطوه كأساً أخرى وبذلك تعود إليه الكلمات الضائعة ويستمر فى إلقائه » . وألقى أحد الجالسين بثمن كأس جديدة سرعان ما جاءت ومد « جود » ذراعه ليأخذها دون أن ينظر إليها . وبعد أن تجرع ما فيها عن آخره استأنف الإلقاء باللاتينية وقد عادت الحياة إلى صوته الذى أخذت نبراته ترتفع كلما قارب النهاية كما يفعل القسيس وهو يصلى برعيته :

« نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب . نسجد له ونمجده مع الأب والابن الناطق فى الأنبياء . وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى ، آمين » .

« مرحى ! » صرخ عدد من الجالسين وقد استهوتهم الفقرة الأخيرة حيث كانت الأولى والوحيدة بين غيرها التى أمكنهم أن يتعرفوا معناها .

وهنا بدا على « جود » كأنه يزيح الضباب عن عقله وهو يحملق فى وجوه الجالسين حوله . صاح يقول : « ما أنتم إلا جماعة من المغفلين ! من منكم يستطيع أن يعرف إذا كنت قد تلوت « قانون الإيمان » أو شيئاً آخر ؟ قد أكون خدعتكم

وسخرت منكم وغررت بعقولكم الفارغة ! انظروا إلى أى درك أسفل نزلت ، وبأى طغمة من الغوغاء والسفلة التقيت ! »

أما صاحب الخان الذى كان قد أنذر لإيوائه كل عجيب شاذ من الناس فقد خاف ألا تنشب معركة فى حانه ، لذا هب واقفا ، ولكن « جود » فى يقظته العقلية المفاجئة ، أدار ظهره للجماعة وغادر الحان حانقا مشمئزا وأغلق الباب خلفه محدثا دويا مكتوما .

سار مسرعا فى الطريق الضيق ثم دلف إلى الطريق العام المتسع وسار فيه حتى وجد نفسه خارج المدينة ناسياً رفاقه بعد أن انقطعت عنه أصواتهم . وظل مندفعا فى سيره بتأثير حنين ساذج للمخلوق الوحيد فى العالم الذى يمكن أن يجعل طيرانه إليه ممكناً ، وهى رغبة لا تقوم على أساس من العقل . ولكنه لا يرى موضع الخطأ فيها الآن . وفى خلال ساعة واحدة ، وكان الوقت بين العاشرة والحادية عشرة ، دخل قرية (لمستون) . وعندما وصل إلى البيت الصغير الذى تقيم فيه (سو) رأى نوراً فى الغرفة السفلى فافترض أن الغرفة المضيئة لا بد أن تكون غرفتها وكان افتراضه صحيحاً . اقترب من الحائط ودق على زجاج النافذة وهو يقول فى ضيق : « سو ، سو ! » ولا بد أنها عرفت صوته إذ أن النور اختفى من الغرفة وبعدها فتح الباب وظهرت (سو) وفى يدها شمعة .

« هل أنت (جود) ؟ نعم هو أنت ! ما ذا دهاك يا ابن الخال ؟ » .

قال وهو يرتمى بجسده على عتبة البيت : « إنى ، إنى لم أستطع يا (سو) أن أمنع نفسى من المجىء ! إنى فى غاية التعاسة وأنا جريح الفؤاد ولا أستطيع أن أحتمل حياتى ! لذا انغمست فى الشراب وعربدت وجدفت على الله . لقد تفوهت بأمور مقدسة فى أماكن دنسة وتلفظت بكلمات قدسية لا ينبغى أن تقال إلا والمرء خاشع ! آه ياسو ، هلافعلت شيئاً لمعاونتى ! اقتلينى مثلا فلن يضيرنى أن أموت ! كل ما يهمنى ألا تكرهينى وأن تنبذينى كما كرهنى ونبذنى كل إنسان آخر » .

« أنت مريض أيها المسكين . لا لن أنبذك . بالطبع لن أفعل ذلك . ادخل

وارتج قليـــلا وازر بعد ذلك ما يمكن أن يعمل من أجلك . والآن استند إلى ذراعى دون كلفة » . وقادته إلى داخل البيت وهى تقبض على الشمعة بإحدى يديها وتسنده بالأخرى — ثم أجلسته فى المقعد الكبير الوحيد فى المنزل القليل الأثاث ومدت قدميه وخلعت له حذاءه . وعندما ثاب إلى رشده قال فى صوت يخنقه الحزن ويعبر عن الانسحاق والندامة : « (سو) يا أعز الناس » .

سألته إذا ما كان يريد أن يأكل شيئاً ولكنه هز رأسه علامة الرفض وبعدها أخبرته بأن يذهب لينام وبأنها سوف تنهض مبكرة فى اليوم التالى لتعد له الفطور ثم حيته تحية المساء وصعدت السلم .

عقب ذلك مباشرة راح فى نوم عميق ولم يستيقظ حتى الفجر . وفى البدء لم يدر أين هو ولكن شيئاً فشيئاً اتضح موقفه وأدرك بعقله الواعى ما يتضمنه هذا الموقف من شناعة تجلب عليه العار . لقد اطلعت (سو) على أسوأ ناحية فيه . على أكثر جوانبه عارا وخسة . كيف السبيل إلى أن يواجهها الآن ؟ لا بد أن تكون الآن فى طريقها إلى النزول من غرفتها فى أعلى المنزل لتعد له فطوره كما سبق أن أخبرته بذلك ، وعندئذ سيواجهها بكل عاره . لم يقو على تحمل الفكرة لذا وضع حذاءه فى قدميه وتناول قبعته من فوق المشجب وغادر البيت فى هدوء .

كانت الفكرة المتسلطة عليه أن يذهب إلى مكان مجهول حيث يتوارى عن الأنظار وقد يركن إلى الصلاة . أما البقعة الوحيدة التى خطرت بباله فكانت « ميريجرين » . وذهب إلى (كرايستمينيستر) ومر على البيت الذى يقيم فيه وهنـــاك وجد خطابا من صاحب العمل ينبئه بأنه قرر فصله . وبعد أن جمع حاجياته خرج وأدار ظهره للمدينة التى كانت شوكة فى جنبه وسار جنوبا إلى (وسكس) . لم يبق فى جيبه شىء من المال حيث كانت مدخراته الصغيرة موضوعة فى أحد البنوك فى (كرايستمينيستر) ولحسن الحظ لم يكن مسها بعد . ولكى يصل إلى « ميريجرين » كانت وسيلته الوحيدة هى أن يمشى . ولما كانت المسافة تبعد عشرين ميلا تقريبا وجد أن لديه وقتاً يستأنف فيه ما بدأه من تفكير :

وفى المساء وصل إلى (ألفردستون) حيث رهن صديريته . وبعد أن خرج من المدينة وسار ميلا أو ميلين نام بجوار كومة على الطريق وفى الفجر استيقظ وأزاح عن ملابسه ما علق بها من قشور النباتات وسيقانها ثم استأنف سيره ثانية فى الطريق الأبيض الطويل الصاعد إلى التل والمؤدى إلى المنخفضات الواقعة فى الجهة الأخرى منه وكانت تلوح له من بعد .

سار ووراءه على قمة التل علامة الطريق التى حفر عليها قبل سنوات ما يرمز إلى آماله .

وصل إلى قريته القديمة وقت الإفطار وكان متعبا غطت ذرات الوحل ملابسه ولكنه كان محتفظا بصفاء عقله . وجلس بجوار البئر يفكر فى مأساة حياته وفى الدرك الأسفل الذى انزلق إليه . وعندما شاهد حوضا قريبا منه قام وغسل وجهه ثم استأنف سيره إلى بيت خالته العجوز وهناك وجدها فى فراشها تتناول فطورها وبجانبها العجوز التى تعيش معها .

— « ماذا ؟ هل طردت من عملك ؟ » قالت الخالة وهى تتأمله من خلال عينين غائرتين تحت جفنين ثقيلين كغطائى قدرين . لم تر تلك العجوز سببا آخر لظهوره أمامها بهذا المظهر الزرى ، هى التى تقوم حياتها على الصراع الدائم للحصول على المال الذى تعيش عليه .

قال فى تثاقل : « نعم . أظن أننى فى حاجة إلى قليل من الراحة » .

وبعد أن تناول شيئا من الطعام صعد إلى غرفته القديمة وتمدد على فراشه بكامل ملابسه . وغفت عيناه لحظة وعندما استيقظ كان كمن وجد نفسه وسط الجحيم . كان حقا فى جحيم ، جحيم الخيبة المستعرة ، الخيبة فى الآمال والخيبة فى الحب . فكر فى تلك الهوة التى تردى فيها قبل أن يترك هذا الجزء من العالم وكان يخيل إليه حينئذ أن تلك الهوة أعمق الهوات جميعا وأشدها ظلاما ، ولكنها الآن لا تبدو عميقة كتلك التى تردى فيها أخيرا . كانت الأولى تعبيرا عن انهيار

الخطوط الأولى التى تحمى مكمن آماله ، أما الثانية فكانت انهيار الخطوط الثانية .

لو أنه أمرأة لصرخ تحت وطأة التوتر الذى ينوء تحت ثقله . ولما كان محروما من تلك النعمة ، نعمة الصراخ والعويل ، بتأثير ما جبله الله عليه من رجولة أخذ يصر على أسنانه فى تعاسة هائلة أبرزت حول فمه خطوطا واضحة كتلك التى شوهدت حول فم كاهن « ترواده » قبيل موته ، كما أظهرت بين حاجبيه تجاعيد عميقة .

وهبت رياح حزينة بين أغصان الشجرة ودوت خلال المدخنة كما تدوى نغمات الأرغن . وأخذت كل ورقة من أوراق اللبلاب المتسلق فوق حائط المقبرة القريبة المهجورة تميل على جارتها فى دلال . وأخذت دوارة الرياح القائمة فى أعلى الكنيسة الجديدة ذات البناء القوطى الفيكتورى تدور . مع ذلك بدا أن الرياح الخارجية ليست هى على الدوام مصدر تلك التأوهات العميقة ، بل كان هناك صوت بشرى عرف « جود » مصدره بعد لحظة . كان الكاهن يصلى مع خالته فى الغرفة المجاورة وتذكر « جود » أن حديثا كان يدور هناك وجاء فيه اسمه . وسرعان ما توقفت الأصوات وخيل إليـــه أن شخصا يعبر الممر فجلس فى فراشه وصاح : « من هنـاك ؟ » .

واتجه الخطو جهة باب غرفته التى فتحت وأطل منها رجل وكان كاهناً شاباً .

قال « جود » : « أظن أنك السيد « هاى ريدج » فقد ذكرت خالتى اسمك أكثر من مرة . هأنذا عدت تواً إلى البيت ولست أكثر من شخص ساء حاله ، وإن حدث فى وقت من الأوقات أن كنت أكن فى نفسى أفضل النوايا . أما الآن فهأنت ترانى منقبض النفس انقباضا لا بد أن يؤدى بى إلى الجنون وقد يكون السبب كثرة الشراب أو أموراً أخرى لا أذكرها الآن » .

وفى بطء كشف للكاهن عن مشروعاته الأخيرة موليا دون أن يدرى القليل من اهتمامه للجانب العقلى من أحلامه وطموحه إلى العـــلم والثقافة ، بينما حظت مشروعاته الكهنوتية بالجانب الأكبر من عنايته وإن كانت حتى الآن لم تخرج عن كونها جزءا صغيرا فى خطته العامة للتقدم والرقى .

وفى ختام حديثه مع الكاهن أضاف قائلا : « والآن أعرف جيداً أنى كنت أحمق والذنب ذنبي وأنا غير آسف على ضياع آمالى فى الدراسة والحياة الجامعية ولا أقبل أن أبدأ من جديد حتى لو كنت واثقا من النجاح ولم أعد أهتم الآن بأن أوفق اجتماعيا ولكننى أحس أن من واجبى القيام بعمل ما ، على هام وإنى حزين على الكنيسة وعلى ضياع الفرصة فى أن أكون خادما من خدامها » .

وأما الكاهن ، الذى كان حديث عهد بهذه الناحية فقدزاد اهتمامه بقصة «جود» ومأساته ، وأخيراً قال : إذا كنت تحس برغبة حقيقية فى أن تصبح قسيسا ، ويبدو ذلك واضحا من حديثك الذى يدل على أنك رجل مفكر متعلم ، ففى مقدورك أن تلتحق بالكنيسة كواحد ممن يسمح لهم بخدمتها دون أن يكونوا أعضاء فيها وكل ما أود منك أن تفعله الآن هو أن تصمم تصميما قويا على الامتناع عن الخمر » .

— « فى استطاعتى أن أمتنع عن ذلك دون كثير عناء لو تبقى لى أى قدر من الرجاء كى يعيننى على ذلك ! » .

الباب الثالث

في « هيلشستر »

« أسفي عليك أيها العريس فلن تجد
عروسا أخرى مثلها » !
سافو (هـ. ت. هوارتن)

(١)

كانت فكرة جديدة ، تلك التى تستهدف تحقيق الحياة الكنسية فى صورتها الروحية وهجر الحياة العقلية بماديات‍ها . وفى مقدور المرء أن يعظ غيره وينفع الناس دون الحصول على تقديرات الامتياز من مدارس « كرايستمينيستر » بل يكفى لذلك قدر من المعرفة المألوفة . فالحلم القديم الذى ولد فى مخيلة « جود » ثم نما حتى جعله يرى نفسه بعين الخيال أسقفا ، لم يكن الدافع إليه الحماس للأخلاق أو الدين ، بل الطموح الدنيوى متخفيا وراء الزى الكهنوتى . وخشى أن تكون خطته كلها فسدت وإن لم تولد أصلا فى هذا المجال وتحولت إلى قلق اجتماعى مقطوع الصلة بالدوافع السامية بل هو فى أساسه نتاج صناعى لانتشار المدنية ، وفى هذه اللحظة يوجد آلاف من الشباب يسيرون فى نفس الطريق المؤدى إلى تحقيق كسب ذاتى . وأن الشخص الخاضع لمطالب الحواس يأكل ويشرب ويحيا مع زوجته فى استهتار خلال أيام طيشه لأقرب إلى نفوس الناس منه .

أما أن ينضم إلى الكنيسة بهذه الطريقة التى لا تتطلب إعداداً علميا فلا يستطيع خلال حياته العملية كلها أن يرقى بمستواه عن كاهن بسيط يقضى أيامه فى قرية مجهولة أو فى حى فقير من أحياء المدينة ، فهذا مسلك قد ينطوى حقا على مسحة من الأرومة الطيبة أو عظمة التضحية ، أو يكون هو الدين الحق والطريق إلى تطهير النفس الخليق بكل تائب .

أسعده الوضع الذى برزت فيه الفكرة الجديدة وخاصة عندما قارن بينها وبين نواياه السابقة بينما جلس وحيداً كئيباً ، وقد يقال إن اتجاهه الجديد سدد ضربة قاضية لآماله فى حياة عقلية عريضة ولدت جرثومتها فى صدره ونمت فترة تقرب من اثنى عشر عاما . إن « جود » ظل على حاله ، متقاعسا عن تنفيذ رغبته الجديدة بينما شغل فى القرى المجاورة بمهام تافهة كإقامة شواهد للقبور ونقش أسماء الموتى . وللعدد القليل من فلاحى تلك القرى الذين تعطفوا وتنازلوا فهزوا له رءوسهم محيين ، بدا « جود » ظاهرة اجتماعية خاصة تنطوى على الفشل فى الحياة ، أو مجرد كم عديم القيمة .

والأهمية الإنسانية لمشروع « جود » الجديد — إذ لابد أن يكون لمعظم مشروعات التضحية وإنكار الذات أهمية إنسانية — خلقها خطاب جاءه من «سو» وحمل تاريخا حديثا ، وكان واضحا أنها قلقة مهتاجة فلم تذكر الكثير عن أحوالها وكل ماذكرته دار حول نجاحها فى مسابقة للحصول على منحة دراسية تخول لها الالتحاق بدار للمعلمات فى « ميلشستر » لتعد نفسها لمهنة التعليم التى اختارتها ويعود إليه لحدما سبب اختيارها لها . وفى «ميلشستر» كلية للاهوت . و«ميلشستر» مكان هادئ يدخل الراحة على النفس ، وجوها يكاد يكون كنسيا خالصا ، وهى بقعة ليس لعلوم الدنيا ولا للتفكير المتأنق الحديث مكان فيها . وفى مدينة كهذه الشعور بالذات ، وعنده الكثير ، قدر أعلى مما للبريق الشخصى الذى يفتقر «جود» إليـــه .

ولما كان مما لابد منه أن يظل فترة فى مزاولة صنعته ، وفى الوقت ذاته يعود إلى دروس اللاهوت التى أهملها فى « كرايستمينيستر » مستعيضا عنها بالدراسات القديمة ، فأى شىء يناسبه الآن أفضل من الحصول على عمل فى «ميلشستر» ويقرأ ما يود من كتب فى علم اللاهوت . أما اهتمامه الزائد بالمكان الجديد فكان كله من صنع « سو » فى حين أنه ، فى الوقت ذاته ، لا بد من اعتبارها فى مجال القدرة على خلق هذا الاهتمام أقل مناسبة لهذا العمل مما كانت أولا ، فتلك حقيقة حوت من التناقض فى مجال الأحكام الأخلاقية مالا يخفى عليه ، غير أنه خضع للضعف البشرى ودواعيه الرجاء فى أن يتعلم كيف يمنحها حبه باعتبارها صديقة وقريبة فقط .

وفكر فى أن يميز سنوات حياته المستقبلة عن طريق بدء خدمته الدينية فى سن الثلاثين ، وهى سن جذبت اهتمامه كثيراً إذ عندها شرع مثله الأعلى يعلم الناس فى الجليل لأول مرة . ولسوف يهيىء له ذلك من الوقت ما يمكنه من الدراســـة واكتساب المال الذى يعاونه على تحقيق أمله المنشود وهو الالتحاق بإحدى الكليات اللاهوتية .

وجاء عيد الميلاد وذهب والتحقت « سو » بدار المعلمات فى « ميلشستر » .

وكان هذا الوقت بالنسبة لجود أسوأ أوقات السنة من حيث حصوله على عمل جديد فكتب إليها مقترحا تأجيل حضوره شهراً أو نحو ذلك حتى يطول النهار. ووافقت مظهرة من التقبل ما جعله يتمنى لو لم يبد اقتراحا كهذا - ومن الواضح أنها لم تكن لتهتم به كثيراً، وإن كانت لم تؤنبه مرة واحدة على مجيئه إلى مسكنها فى تلك الليلة وما تلا ذلك من اختفائه المفاجىء. كما أنها لم تذكر كلمة واحدة عن علاقتها بالسيد « فيلوتسون ».

وفجأة، مع ذلك، وصل من « سو » خطاب ملىء بالانفعالات العنيفة. قالت إنها وحيدة بائسة وإنها تضمر المكان الذى تقيم فيه كراهية شديدة إذ كان بالنسبة لها أسوأ بكثير من المرسم الكنسى الذى عملت فيه من قبل بل أسوأ مكان فى العالم، وتحس أنها محرومة تماما من الأصدقاء لذا رجته أن يتوجه إليها على الفور وإن كانت لا تستطيع أن تراه إلا فى أوقات قليلة فنظام المؤسسة التى قادتها إليها الأقدار يتسم بالصرامة إلى حد ما. والسيد « فيلوتسون » هو الذى نصحها بالذهاب إلى ذلك المكان والالتحاق به وهى الآن تتمنى لو لم تصغ إليه.

ومن الواضح أن « فيلوتسون » لم يكن موفقا تماما فى مشروعاته فأحس « جود » بفرحة ليس لها ما يبررها. وجمع أشياءه القليلة وذهب إلى « ميلشستر » راضى النفس بشكل لم يعرف له مثيلا لعدة شهور.

ولما كان ذهابه إليها يعتبر بداية لصفحة جديدة فى حياته، فقد أخذ يبحث عن نزل متواضع حسن السمعة لا يسمح لنزلائه بشرب الخمر. وأخيراً عثر على واحد له هذه الصفات، ويقع بالقرب من المحطة. وبعد أن حصل على شىء من الطعام، خرج إلى الطريق العام وسار فى ضوء الشتاء الضعيف، مرتقيا جسر المدينة، ثم دار إلى الركن المؤدى إلى حى الكاتدرائية. وكان الضباب شديدا فى ذلك اليوم فتوقف هنيهة أسفل الأسوار ثم أخذ يتطلع إلى أجمل مجموعة من العمائر الهندسية فى انجلترا. ووضح بناء الكاتدرائية أمامه إلى المنارة وهى ترتفع فى السماء حتى اختفت قمتها العالية فى غمار السحب المحيطة بها.

فى تلك اللحظة بدأت المصابيح تضىء . وبعد أن استدار نحو الجهة الغربية من البناء مشى حوله واستبشر كثيراً عندما رأى الكتل الصخرية ملقاة فى كل مكان مما دل على أن إصلاحها على نطاق كبير يجرى فى الكاتدرائية . وأوحى له مارأى ، من خلايا ما اكتنف معتقداته من خرافات ، أن الذى رآه من صنع قوة آمرة ذات بصيرة نفاذة وهى بذلك الذى تضعه فى طريقه ، تهىء له عملا فى مجال تخصصه فى هذه اللحظة وهو ينتظر الدعوة إلى عمل آخر أرفع مقاماً .

ثم أحس بموجة دافئة تغمره وذلك عندما أدرك كم أصبح قريباً من الفتاة ذات العينين النجلاوين والجبهة العريضة يعلوها تاج من الشعر الأسود الفاحم ، فتاة ذات نظرة براقة تفيض رقة أحياناً — أشبه بالفتيات اللائى رآهن فى الصور البارزة والرسوم التى تمثل المدرسة الأسبانية . إنها تعيش هنا فى نفس هذا الحى فى أحد المساكن المواجهة للجبهة الغربية للكاتدرائية .

سار فى الطريق الواسع المغطى بالحصى واتجه إلى البناء وهو من أبنية القرن الخامس عشر ، وكان فى ماضيه قصراً وهو الآن دار للعلمات له نوافذ بعضها مربع الجوانب وبعضها مسحوب الزوايا ، وأمامه فناء يحجبه حائط عن الطريق العام . وفتح « جود » البوابة الخارجية متجها إلى الباب الداخلى ، وعند ما سأل عن قريبته « سو » خرج إليه من قاده فى رفق إلى غرفة الانتظار . وبعد فترة قصيرة جاءت . وعلى الرغم من أنه لم يمض على بقائها فى هـــذا المكان سوى وقت قصير للغاية ، إلا أنها لم تكن كما اعتاد أن يراها . لقد فارقتها حركتها الرشيقة وأصبحت انثناءاتها وإيماءاتها خطوطا ميتة ، كما غادرتها أيضاً الدقة فى الأداء ، والرقة فى الإقبال التى تميزت بها دائما . ومع ذلك ، لم تكن هى المرأة التى خطت أناملها الخطاب الذى انطوى على أمر استدعائه ، فقد كان من الواضح أنها تسرعت فى كتابته بتأثير فكرة عابرة محاها ماتلا ذلك من تفكير هادئ خلف أسفا لما بدر منها ، وربما كان لمظهرها الحالى صلة بما سبق أن بدر منه فى حق نفسه وكرامته . لقد كان « جود » مغلوباً على أمره تماماً بتأثير انفعالاته العاطفية .

— « ألا زلت تعتقدين أنني شخص بائس كسير النفس لمجيئي إلى منزلك ثم رحيلي على الصورة المهينة التي تذكرينها ؟ » .

— « أوه ، حاولت كثيراً ألا أفعل هذا ! لقد أدليت أمامي من الكلام بما يكفي لأدرك السبب فيما حدث وآمل ألا يخامرني شك في صلاحيتك الخلقية أيها المسكين ! وإني لمسرورة لمجيئك ! » .

كانت ترتدي ثوباً قاتم اللون له ياقة وبرية صغيرة ، وكان جميلا في بساطته وهو يلتف حول جسدها في انسجام واضح . أما شعرها الذي اعتادت أن تصففه وفقا لأحدث الأساليب فإنه أصبح الآن مقصوصا ومرفوعا إلى أعلى ، وكان يلوح عليها طابع الفتاة التي يتحكم في هندامها وزينتها نظام صارم ، بينما شع من أعماق نفسها إشعاع داخلي ، على أن ذلك النظام لم يقو على النفاذ إلى تلك الأعماق .

وأقبلت عليه في دلال وأدرك أنها لم تتوقع أن يقبلها — وإن كان يتحرق شوقا إلى ذلك بمقتضى اعتبارات أخرى خلاف قرابته لها . ولم يلحظ أية علامة تشير إلى أنها كانت تنظر إليه باعتبار أنه حبيبها أو أن هذا يمكن أن يحدث في يوم في الأيام ، ولاسيما أنها عرفت عنه كل ما كان من شأنه أن يشينه في نظرها ، حتى لو كان من حقه أن يعاملها على اعتبار أنه حبيبها . لقد عاونه هذا الوضع في تدعيم عزمه على الإفصاح لها بمشكلات زواجه السابق بعد أن عمل جاهداً على تأجيله المرة بعد المرة خشية أن يفقد نعمة صداقتها له .

وخرجت إلى المدينة في صحبته وسار الاثنان سوياً وتحدثا في كل شيء قال إنه يود أن يشتري لها هدية صغيرة وعندئذ اعترفت له في شيء من الخجل أنها جوعانة إذ لا تقدم المدرسة للطالبات سوى قدر ضئيل من الطعام فكان غاية ما تتمناه في الدنيا في تلك اللحظة أن تجمع بين الغذاء والشاي والعشاء في أكلة واحدة كبيرة تلتهمها التهاماً . على ذلك قادها إلى حان وطلب لها الطعام الذي يقدم هناك ولم يكن بالشيء الكثير . وعلى أية حال ، هيأ له المكان فرصة نادرة للاجتماع والتحدث في حرية حيث لم يكن هنالك أحد غيرهما.

وحدثته عن حياتهـــا فى دار المعلمات وما يكتنفها من مشاق وعن طبائع زميلاتها اللاتى قدمن من شتى أنحاء المقاطعة وكيف كان عليها أن تنهض فى الصباح الباكر لتحفظ دروسها فى ضوء مصباح غازى صغير على ما فى ذلك من حرمان يصعب على شابة مثلها حديثة العهد بالحياة أن تتحمله . وأصغى إلى كل ما قالت ولم يكن ذلك كل ما أراد أن يسمعه منها ، وخاصة ما يتعلق بعلاقتها « بفيلوتسون » الذى لم تتحدث عنه بشىء . وعنـد ما فرغا من الجلوس والأكل وضع يده على يدها فى حركة عابرة فنظرت إليـه وهى تبتسم ثم أخذت يده فى يدها الصغيرة الناعمة دون حرج و شرعت تفحص أصابعه واحداً واحداً فى عناية وتمهل كما لو كانت تعاين قفازاً ترغب فى شرائه .

قالت : ـ « يداك خشنتان يا « جود » . ألا ترى ذلك ؟ » .

ـ « نعم ولا بد أن تصبح يداى هكذا لو قدر لها أن تقبضا على الأزميل والدقاق طول النهار » .

ـ « ولـكننى لا أكره ذلك وأظن من النبل أن ترى يدا المرء مطبوعتين بطابع العمل الذى يقوم به . على أية حال ، يسرنى قبل كل شىء ، أننى التحقت بدار المعلمات هذه . انظر كم سوف أحس بالحرية والاستقلال عقب هذين العامين اللذين أقضيهما فى الدراسة ! إنى أتوقع أن أنجح بامتياز كبير وسوف يستخدم السيد « فيلوتسون » نفوذه كى يحصل لى على مدرسة كبيرة أشرف على إدارتها » .

وأخيراً ها هى تمس الموضوع مساً رقيقاً . قال « جود » : « راودتنى بعض المخاوف وشككت فى أن السيد « فيلوتسون » يهتم بك اهتماما يفوق القدر المعتاد ، ومن المحتمل أنه يرغب فى الزواج منك » .

ـ « لا تـكن غراً أحمق ! » .

ـ « أظن أنه ذكر شيئا يتعلق بهذا الموضوع » .

ـ « وما ذا يهم لو فعل ؟ أية أهمية لرجل عجوز مثله ؟ » .

ـــ « وخلى عنك ذلك يا « سو » ، ليس هو بالعجوز إلى هـــذا الحد وأعرف ذلك جيداً مما سبق أن رأيته بعينى » .

ـــ « إنك لم تره وهو يقبلنى ــ هذا ما أنا واثقة منه تماماً » .

ـــ « لا . بل رأيته يضع ذراعه حول خصرك » .

ـــ نعم . أذكر ذلك ولكننى لم أتوقعه .

ـــ « أنت تحاولين التخلص يا « سو » وذلك منك لا يدل على الشفقة ! .

وبدأت شفتها الممتلئة بالحساسية ترتعش وعينها تطرف وكانت على وشك أن تقول شيئا .

ـــ « أعرف ان الغضب لابد أن يتولاك لو أخبرتك بكل شيء وهذا هو السبب فى أنى لا أود أن أقول لك شيئا ! » . وقال وهو يحاول أن يهدئها :

ـــ « حسنا للغاية أيتها العزيزة . وليس من حقى أبدا أن أسألك ولا أرغب قط فى أن أعرف شيئا » .

قالت فى عناد كاد يصبح جزءاً من طبيعتها : « سأخبرك بكل شيء ! إليك ما فعلت :

وعدت ـ وعدت ـ أن أتزوجه عقب انتهائى من الدراسة بعد مضى عامين من الآن وبعد حصولى على الشهادة يقضى مشروعه أن نفتح سويا مدرسة فى مدينة كبيرة يتولى هو التدريس فيها للصبيان وأقوم أنا بتعليم البنات كما يفعل عادة رجال التعليم المتزوجون من نساء يعملن فى نفس الميدان ، وبذلك نحصـــل على دخل طيب .

ـــ « مرحى ، مرحى ، يا « سو » ! هذه قطعاً فكرة سليمة وما كان فى مقدورك أن تفعلى شيئا أفضل » .

وأخذ يحملق فى وجهها وتقابلت العيون وانعكس فى عينيه ما انطوت عليه

كلماته من عتاب . وهنا سحب يده بعيداً عن يدها وأدار وجهه صوب النافذة متحاشياً النظر فى وجهها فتطلعت إليه بدون اكتراث ولم تتحرك .

قالت دون أن يبدو عليها انفعال ما : « عرفت أنك ستغضب ! حسن حسن. إنى مخطئة على ما أعتقد ! ما كان ينبغى لى أن أسمح لك بالمجىء لترانى ! الأوفق ألا نتقابل الأنسب أن نتراسل فى أمور عادية وفى فترات متباعدة ! » .

كان ذلك هو الشىء الوحيد الذى لايقوى على تحمله . ومن المحتمل أنها أدركت هذا الضعف فيه . فعاد إليه رشده فى الحال وقال فى سرعة : نعم . سيكون لك ذلك . على أية حال ، خطوبتك لن تجعل الأمر مختلفا بالنسبة لى ومن حقى أن أراك كلما رغبت وسأفعل ذلك ! » .

— « إذن لا تجعلنا نطرق هذا الموضوع ثانية فهو يفسد جلستنا هذه الليلة . ماذا يهم ما سوف يفعله المرء بعد عامين من الآن ! .

وكانت بالنسبة إليه لغزا غامضا فترك الموضوع عند هذا الحد وقال لها بعد أن انتهيا من الطعام : « هل توافقين عن أن نذهب إلى الكتدرائية ونجلس فيها ؟ » قالت ومازال فى صوتها أثر للمضايقة . نذهب إلى الكتدرائية ؟ .

نعم وإن كنت أعتقد أن من الأوفق لى أن أجلس فى محطة السكة الحديد فهى مركز النشاط فى المدينة الآن وقد مضى عهد الكتدرائية وانقضى ! » .

— « يا لك من فتاة حديثة النزعة ! » .

— هكذا تكون لو أنك عشت فى العصور الوسطى كما فعلت أنا فى السنوات القليلة الماضية ! كانت الكتدرائية مكانا صالحا للجلوس منذ أربعة أوخمسة قرون، اما الآن فإنها فقدت أهميتها وما أنا بالفتاة الحديثة بل أنا قديمة قدم العصور الوسطى بل أكثر . ليتك تدرك ذلك ! .

وبدا عليه أنه حزين فصاحت تقول : لا . لن أقول أكثر من ذلك فى هذا الموضوع ! إنك لا تدرى كم أنا سيئة الخلق ، من وجهة نظرك على الأقل ،

وإلا لما اهتممت بى إلى هذا الحد ولما عنيت بمعرفة ما إذا كنت مخطوبة أم لا .

أما الآن فلدينا الوقت لكى نسير قليلا وبعد ذلك لا بد لى من العودة وإلا فلن يسمح لى بالدخول » .

وصحبها إلى الباب الخارجى ثم افترقا . ونشأ لديه اعتقاد بأن زيارته لها فى تلك الليلة المشئومة كانت السبب فى تطور العلاقة بينها وبين « فيلوتسون » وبلوغها حد الخطبة ثم الزواج ولن يكون من وراء ذلك بالنسبة له إلا الشقاء وسوء الحال . لقد أنبته على فعلته الماضية بتلك الصورة ولم يمكن تأنيبها له عن طريق الكلام ومع ذلك خرج فى اليوم التالى يبحث عن عمل ولم يكن هذا بالأمر السهل، كما هو الحال فى « كرايستمينيتر » لقلة أعمال البناء فى « ميلشستر » ، الهادئة ، وما يتبع ذلك من تراخ فى قطع الصخور وتهذيبها . وعلى الرغم من كثرة العاملين فى هذا الميدان ، حشر نفسه فى زمرة هؤلاء ، وكان أول عمل حصل عليه هو القيام ببعض أعمال النحت فى مقبرة تقع على التل ، وفى النهاية التحق بالعمل الذى كان يفضله أكثر وهو تجديد الكتدرائية بما يتضمنه ذلك من تغيير شامل للحجارة الداخلية .

مثل هذا العمل قد يحتاج إتمامه إلى سنوات . أما هو وكان على ثقة تامة فى قدرته على استخدام الدقماق والأزميل ، فقد أدرك أن أمر بقائه فى ذلك المكان ومدته يعود إليه هو .

أما السكن الذى اتخذه بالقرب من البوابة الرئيسية للحى فما كان ليشين شخصا يعد نفسه ليكون من خدام الكنيسة إذ أن إيجاره كان يمثل نسبة من أجره تزيد على مايدفعه غيره من العمال والصناع إيجارا لمساكنهم ، وكانت الغرفتان اللتان يتألف منهما مسكنه مزينتين بصور الأماكن التى سبق أن عملت فيها صاحبة المسكن وعاشت باعتبارها خادما أمينا . أما قاعة الاستقبال الكبرى فى أسفل المنزل فكان بها ساعة حائط كبيرة استقرت فوق رف المدفأة وقد نقش عليها إهداء يتضمن أنها قدمت لنفس السيدة المبجلة كهدية من زملائها فى المهنة بمناسبة

زواجها . وأضاف « جود » إلى أثاث الغرفة ماحمله معه من صور دينية وتماثيل صنعها بيديه ولذلك عد كسبا مناسبا ، باعتباره ساكنا جديدا للشقة الخالية .

وفى مكتبات بيع الكتب بالمدينة وجد عددا كبيرا من الكتب اللاهوتية وبذلك استأنف دراسته بروح أخرى واتجاه جديد مختلف عما اتبعه فى المرة السابقة .

رغب هذه المرة فى أن يريح نفسه من قراءة كتب آباء الكنيسة الأول وأعمال الكتاب المشهورين من أمثال « بالى » و « تيلور » ، فشرع يقرأ كتبا « لنيومان » و « بوتزى » وغيرهما من المؤلفين الدينيين الحديثين .

واستأجر آلة هارمنيوم للعزف الموسيقى وضعها فى مسكنه وشرع يتدرب على العزف عليها والتغنى بشتى الترانيم معها .

(٢)

ـــ « غداً يومنا العظيم . ألا تعلمين ؟ إلى أين نذهب ؟ »

ـــ « لدى إجازة من الثالثة حتى التاسعة فأى مكان نستطيع الذهاب إليه ثم العودة خلال هذه الفترة يناسبنى . أما الأبنية القديمة والآثار يا « جود » فلا تثير اهتمامى » .

ـــ « إذن قلعة « واردور » وبعدها « فونت هيل » لو رغبنا . كل ذلك فى نفس اليوم » .

ـــ « قلعة » واردور « قوطية البناء وأنا أكره الفن القوطى » .

ـــ « لا . بالعكس تماما فهى بناء كلاسيكى وكورنثى على ما أعتقد . وبداخلها عديد من الصور » .

ـــ « حسن . هذا يكفى . أحب كلمة كورنثى هذه . سنذهب » .

بعد بضعة أسابيع اتصل الحديث بينهما على هذه الصورة . وفى اليوم التالى تأهبا للرحيل وأصبح كل جزء من أجزاء الاستعداد للرحلة المرتقبة يثير خيال « جود » الذى لم يجرؤ على أن يفكر فى حقيقة الحيـــاة المتناقضة التى يحياها . أما تصرفات « سو » معه فكانت لغزاً حبيباً إلى نفسه ولم يستطع أن يزيد .

وفى الموعد جاء سحر الذهاب إلى باب الكلية لملاقاتها وسحر ظهورها فى ملابسها البسيطة الشبيهة بملابس الراهبات كزى مفروض لا مختار ، ثم سحر السير الوئيد إلى المحطة . وأخيراً أصوات الحمالين وضجيج القطارات وكل ما يرسم الحياة الجارية فى شكلها الدائم . وما من أحد نظر إلى «سو» لبساطة ملابسها فأدخل ذلك الراحة على قلب « جود » لعلمه بأنه هو وحده يعرف أسرار الجمال الذى أخفته تلك الملابس . وأن مبلغاً صغيراً لا يجاوز الجنيهات العشرة تنفقه « سو » فى دكان الأقمشة لا يمت بصلة لحياتها الحقيقية أو لذاتها الخاصـــة ، يمكن أن يجعل أهل « ميلشستر » يتطلعون إليهـا . وظن كمسارى القطار أنهما عشيقان فوضعهما وحدهما فى مقصورة .

قالت هى : « هذه منه نية طيبة وإن كانت مضيعة ! »

ولم يجب « جود » على هذه الملاحظة التى ظن أنها قاسية بلا مبرر ، كما أنهـا لم تكن صحيحة تماما .

ووصـلا إلى المتنزه الكبير والقلعة وارتادا قاعات الصور ووقف « جود » أمام بعضها وخاصة تلك التى تعبر عن نزعة دينية كصور « ديل سـارتو » ، و « ساسوفيراتو » ، و « كارلو دولشى » ، وغيرهم . وإلى جواره وقفت « سو » تتأمل صابرة . ومن لحظة إلى أخرى أخذت تسترق النظر إلى وجهه وهو يتأمل صور العذارى والعائلة المقدسة والقديسين بينما تتغير ملامحه وتكسوها مسحة من الاحترام والتسامى . وبعد أن تفرغ تماما من التطلع إليـــه تنتقل إلى صورة أخرى من صور ليلى أو رينلودز فى انتظار وصوله . وكان من الواضح أنها مهتمة

الآن بقربها ، كما يهتم المرء بشخص يجاهد للخلاص نفسه من مأزق سبق له هو أن وقع فيه ثم تخلص منه .

وعندما خرجا من قاعة الصور كان مازال أمامهما وقت طويل فاقترح «جود» بمجرد تناول شيء يأكلانه ، أن يسيرا عبر المنطقة المرتفعة ويبلغا الناحية الشمالية للمنطقة التى كانا حينئذ يقفان عليها وبذلك يستقلان القطار العائد إلى « ميلشستر » من محطة أخرى تبعد عنهما سبعة أميال . أما « سو » وكانت على استعداد للدخول فى أية مغامرة يمكن أن تعمق من احساسها بما تمتعت به من حرية فى ذلك اليوم ، فوافقت فى الحال على هذا الاقتراح وبذلك سارا فى الطريق ومن خلفهما المحطة القريبة .

وكانت الأرض أمامهما منبسطة كما كانت واسعة الجنبات عالية المستوى فانهمكا فى الحديث وسارا فى طريقهما وانتزع « جود » من وسط خميلة صغيرة عصاة طويلة استعانت بها « سو » على السير . وكانت العصاة تفوقها طولا وفى نهايتها إنثناءة كبيرة وبذلك بدت الفتاة كأنها راعية من راعيات الغنم . وبعد أن قطعا من الطريق نصفه ، عبرا طريقاً رئيسياً متجهاً نحو الشرق ، وهو الطريق القديم الموصل من لندن إلى « لاندزاند » ، فتوقفا عن السير وظلا ينظران إليه ويتحدثان عما أصابه من خراب بعد أن كان يعج بالحياة والحركة . وأخذت الريح تضرب الأرض حاملة أكواما من القش والحشائش .

وعبرا الطريق وسارا ولكن بعد نصف ميل ظهر التعب على « سو » وبدأ « جود » يقلق عليها . لقد سارا مسافة طويلة وإذا لم يتمكنا من الوصول إلى المحطة التالية ليركبا القطار فسيصبح الموقف سيئا . ولفترة طويلة لم يريا كوخا واحداً فى المنطقة الفسيحة المنزرعة وأخيرا جاءا إلى حظيرة الأغنام وبلغا الراعى وكان يقيم سياجا فى الأرض فأخبرهما أن المنزل الوحيد القريب فى المنطقة هو منزل والدته وهو منزله فى نفس الوقت . وقال ذلك وهو يشير إلى منخفض صغير أمامهما

يتصاعد منه دخان ضعيف أزرق . ودعاهما إلى مواصلة السير إلى هناك وأوصاهما بالجلوس فترة للراحة .

وفعلا هذا ودخلا البيت وصاحبته عجوز يخلو فمها من الأسنان وكانا معها مؤدبين إلى أقصى ما يمكن أن يكون عليه الغريب عندما تتوقف فرصته الوحيدة فى الحصول على المأوى والراحة على رضا صاحب البيت .

وقال « جود » : « هذا كوخ صغير جميل » .

ـ « ليس لى علم بذلك ولكننى لا بد أن أغطى سقفه سريعاً بالطين وأكسوه بالقش . أما من أين لى الطين والقش فهذا مالا أعرفه تماما إذ أن القش أصبح من فداحة الثمن بحيث يكون استخدام الصفائح اللامعة أرخص » .

وجلس الإثنان يستريحان وبعدها دخل الراعى وقال وهو يهز لهما يده فى حركة عصبية : « لا تهتما لوجودى وأبقيا هنا كيفما تريدان ولكن لا تفكرا فى الرجوع إلى « ميلشستر » بالقطار هذه الليلة فإن تستطيعا فانكما لا تعرفان طبيعة المنطقة جيداً . إنى على استعداد للسير معكما جزءا من الطريق لو أردتما ، ولكن القطار سيكون قد غادر المحطة » .

فهبا واقفين وتأهبا للسير .

ـ « فى استطاعتكما أن تقضيا الليلة هنا ، أليس كذلك يا أماه ؟ نحن نرحب بكما فى بيتنا . لن تجدا النوم مريحاً فى هذا المكان ومع ذلك فالبقاء هنا لن يكون أسوأ من السير إلى المحطة فى هذه اللحظة » . وبعد أن قال الراعى ذلك التفت إلى « جود » وقال فى صوت خفيض :

ـ « هل أنتما متزوجان ؟ » .

قال « جود » : « لا ! » .

ـ « أوه . ولكننى لا قصد بهذا السؤال شراً . لست أنا بالشخص الذى

يسيء إلى أحد ! إذن تستطيع هي أن تذهب إلى غرفة أمي بينما تنام أنت معي في الرحبة الخارجية . وباستطاعتي أن أوقظكما في الصباح الباكر لتلحقا بأول قطار يعود إلى « ميلشستر » . لقد فاتكما آخر قطار الآن . »

وبعد تفكير قرر الإثنان أن يقبلا هذا الإقتراح وجلسا يشاركان الراعي وأمه في إخلاء المائدة مما عليها من صحاف قالت « سو » : « أنا أفضل هذه الحياة . في منأى عن جميع القوانين إلا قوانين الجاذبية والتكاثر » .

قال « جود » وقد زاد من حنقه عليها ما قفز إلى ذاكرته في تلك اللحظة خاصا بارتباطها بالمعلم : « تظنين أنك تحبين هذا النمط من الحياة ! ليس هذا بصحيح فأنت من نتاج المدنية الحديثة » .

— « بل إنني لست كذلك يا « جود » . أنا حقاً أحب القراءة وما يشبهها من أنواع النشاط الفكري ولكنني أتلهف على العودة إلى أيام طفولتي الأولى وتحررها .

— « وهل ما زلت تذكرين طفولتك الأولى إلى هذا الحد ؟ بل أنت في نظري تبدين خالية من كل المعتقدات التقليدية » .

— « وهل تظن ذلك ؟ ولكنك لا تدري ما بداخل نفسي » .

— « وما هذا ؟ » .

— « إنسان إسماعيلي » .

— « إنك إحدى فتيات المدينة . هذا أنت » .

وبدا عليها إعتراض شديد وانصرفت عنه .

وفي الصباح التالي أيقظهما الراعي كوعده ، وكان الصباح رائقاً فقطعا الأميال الأربعة إلى القطار في رحلة ممتعة . وعندما وصلا إلى « ميلشستر » واتجها إلى حي الكاتدرائية وبدأت أسطح البناء القديم الذي يضم « سو » مرة أخرى تظهر أمام عينيها ، بدا عليها الفزع وتمتمت تقول : « أتوقع شراً » .

ودقا الجرس الكبير ثم انتظرا .

ـ « أوه . إشتريت لك شيئا كدت أنساه » . « قالت ذلك فى سرعة » ثم أخذت تفتش فى جيبها وتقول : « إنها صورة لى جديدة ، هل تأخذها ؟ »

ـ « وهل تسألينى ! »

وأخذ الصورة فرحا وجاء البواب . وعندما فتح الباب بدت على وجهه نظرة تنذر بالويل . ودخلت « سو » والتفتت خلفها وهزت له يدها .

(٣)

أما الشابات السبعون اللائى تراوحت أعمارهن على الأغلب بين التاسعة عشرة والواحدة والعشرين أو أكثر ، وهن اللائى ملأن فى هذا التاريخ الدار الشبيهة بالدير والمعروفة بدار المعلمات « بميلشستر » ، فقد ألفن فيما بينهن مجتمعا شديد التنوع تضمن بنات العمال الفنيين والقسيسين ، والأطباء ، وأصحاب المتاجر الصغيرة ، والمزارعين، وأصحاب معامل الألبان ، والجنود ، والبحارة، والقرويين. وفى المساء السابق على ذلك الذى وصفناه جلسن فى القاعة الكبرى للدار وانتشر بينهن خبر مؤداه أن « سو برايد هيد » لم تمض ليلتها فى الدار .

وقالت طالبة من الصف الثانى وكانت على خبرة بالشبان : « خرجت مع صديقها الشاب ورأتها الآنسة « تريزلى » فى صحبته فى المحطة ـــ لسوف تنال جزاءها عندما تعود » .

وقالت فتاة شابة حديثة الإلتحاق بالدار : « قالت عنه أنه ابن خالها » .

وفى نبرة خشنة ، قالت الطالبة المسئولة عن نظام الفصل : « ذلك العذر سبق أن ذكر فى هذه المدرسة فى مناسبات عديدة كهذه ولم يعد بالذى ينقذ نفوسنا » .

والواقع أنه منذ عام واحد فقط وقع فى الدار حادث محزن أسفر عن سقوط إحدى الطالبات فى حبائل الاغراء وكانت تنتحل نفس العذر للخروج مع صديقها

الشاب . ونتجت عن هذا الحادث فضيحة ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت إدارة الدار تضيق ذرعا بالشبان الذين يدعون القرابة للطالبات .

وفى التاسعة نودى على الأسماء ورددت الآنسة « تريزلى » اسم « سو » ثلاث مرات دون أن تسمع جوابا .

وفى التاسعة والربع وقفت الطالبات يرتلن وبعدها جثون للصلاة ، ثم ذهبن للعشاء وكل واحدة منهن تقول الأخرى أين « سو بريدهيد » ؟ أما بعض الطالبات اللائى شاهدن « جود » من النافذة فقد أحسسن باستعدادهن لتقبل العقاب الذى ينتظر « سو » مقابل حصولهن على قبلة واحدة من ذلك الشاب ذى الوجه الرقيق ولم يكن بينهن من تصدق قصة القرابة هذه .

وعقب ذلك بنصف ساعة آوت الفتيات إلى فراشهن ووجوههن الرقيقة متجهة إلى أعلى وسقط عليها ضوء المصابيح الغازية الصنبورية التى ترسل ضوءها المتقطع على طول قاعات النوم وتعكسه على الوجوه النائمة فتبدو هذه وكأنما نقش على كل منها كلمة « الجنس الأضعف » ، وهو الجزاء المفروض على النساء جميعا . ما من جهود تستطيع أن تخلق من ضعفهن قوة ، بينما قوانين الطبيعة باقية كما هى شديدة لا تلين . كن على هذه الصورة منظرا رائعا حزينا بينما هن لا يشعرن بما فى المنظر من روعة حزينة ولن يكتشفن ذلك حتى تتكشف حياتهن المقبلة عما تحمله لهن السنون من انفعالات وأزمات نفسية أشبه بما يتعرض له من ظلم ووحدة وكوارث الموت وحمل الأطفال وولادتهن . عند ذلك فقط تعود عقولهن إلى التفكير فى مأساة حياتهن ولكن بعد فوات الأوان .

وجاءت إحدى المشرفات تطفىء الأنوار ، وقبل أن تفعل ذلك تلقى بنظرة أخيرة على سرير « سو » الذى ظل خاليا . وعلى مائدة الزينة الملحقة به وكانت كغيرها ، رصت عليها أشياء صغيرة متعددة كتلك التى تهواها البنات ومن بينها صور داخل إطارات وكانت مائدة « سو » تؤلف معرضا صغيرا للصور من بينها صورتان كل منهما داخل إطار مخملى أنيق .

قالت المشرفة : « ومن يكونان هذين الرجلين ؟ ألم يسبق لها أن قالت شيئا عنهما ؟ أقول لكم صراحة إننا هنا لانسمح بعرض أية صور ماعدا صور الأقارب » .

وقالت طالبة فى الفراش التالى : « أحد هذين الشخصين ، وهو المتوسط العمر المعلم الذى عملت معه ويدعى « فيلوتسون » .

— « والآخر ، طالب الجامعة فى ردائه الجامعى وقلنسوته ، من يكون ؟ » .

— « صديق ، أو بالأحرى هكذا كان . لم يسبق أن جاء اسمه على لسانها » .

— « وهل الشخص الذى جاء يسأل عنها هو أحد هذين الشخصين ؟ »

— « لا . »

— « أواثقة أنت من ذلك ؟ »

— « تماما . ذلك كان شابا له لحية سوداء . »

ولم تلبث الأضواء أن أطفئت وظلت الفتيات حتى اللحظة التى أسلمن أنفسهن فيها للكرى يتحدثن عن « سو » ويتكهن بمصيرها ويتساءلن عما قامت به من أعمال فى « لندن » و « كرايستمينيستر » ، قبل التحاقها بدار المعلمات ، بينما غادر عدد منهن الفراش وأخرجن رؤوسهن من النوافذ الصغيرة وأخذن يتطلعن إلى الواجهة الغربية الواسعة للكاتدرائية المقابلة والبرج الحلزونى الذى يرتفع خلفها .

وعندما استيقظن فى الصباح التالى استرقن النظر إلى فراش « سو » فوجدن أنه مازال خاليا . وبعد دروس الصباح الباكر التى تلقى عادة على ضوء المصابيح الغازية ، وبعد صعودهن إلى غرفهن لارتداء ملابسهن استعداداً لتناول الفطور ، أخـــذ جرس البوابة الكبيرة يدق بشدة . وخرجت المشرفة ثم عادت مسرعة لتقول بأن أوامر مديرة الدار تقضى بالا تتحدث الفتيات مع الطالبة «سو برايدهيد» دون تصريح . وعندما جاءت « سو » إلى عنبر النوم ، يبدو عليها الإضطراب والتعب ، سارت فى صمت متجهة إلى الزاوية التى فيها فراشها ولم تقبل عليها واحدة

من زميلاتها لتحييها أو للتحرى عما حدث . وعندما نزلن إلى الدور السفلى وجدن أنها لم تتبعهن إلى قاعة الطعام لتتناول طعام الإفطار وهنا علمن أنها عوقبت عقاباً شديداً وأمرت بالتزام غرفة منعزلة لمدة أسبوع حيث تبقى سجينة تأكل وتذاكر وحدها .

عند ذلك شاع جو من التذمر المكتوم بين الفتيات إذ اعتقدن أن القرار غاية فى الشدة ، ثم وقعن على مظلمة رفعنها إلى عميدة الدار طالبن فيها بإلغاء العقوبة التى وقعت على « سو » ، ولكنهن لم يظفرن برد . وقبيل المساء ، عندما بدأت معلمة الجغرافيا تلقى دروسها ، جلست الفتيات فى قاعة الدرس وأذرعهن مكتوفة .

وأخيرا قالت المعلمة : « وهل تقصدن أن تتوقفن عن العمل ؟ بهذه المناسبة أقول لقد ثبت بالبرهان القاطع أن الشاب التى خرجت معه « سو » فى الليلة الماضية ، ليس من أقربائها لسبب واحد وهو أنها ليس لها قريب مثله ، وكتبت الدار إلى « كرايستمينيستر » لتتأكد من ذلك » . وقالت زعيمة الفتيات : « إننا نميل إلى أن نأخذها بكلمتها » .

— « ولكن هذا الشاب سبق أن فصل من عمله فى « كرايستمينيستر » ، لإدمانه على الشراب ولتلفظه فى الحانات والمقاهى بعبارات تنطوى على الكفر والإلحاد ، وجاء إلى هنا فقط لكى يكون بالقرب منها » .

ومع ذلك ، بقين ساكنات متمسكات برأيهن وغادرت المعلمة الغرفة لتستفهم من رئيساتها عما يجب عمله .

وأخيرا ، وقبيل الغسق ، سمعت الطالبات فى أثناء جلوسهن صيحات صادرة عن فتيات الصف الأول ، وكن فى فصل مجاور ، واقتحمت إحدى الفتيات المكان لتقول إن « سو برايد هيد » تسللت من النافذة الخلفية للغرفة التى احتجزت فيها وهربت فى الظلام عبر الأرض الفضاء واختفت . أما كيف تمكنت من مغادرة الحديقة ، فما من إنسان استطاع تعليل ذلك إذ كان النهر يحد الحديقة من الجنوب وباب الدار الخلفى مغلق بالمفتاح .

وذهبت الفتيات لمشاهدة الغرفة الخالية حيث كانت النافذة الواقعة بين البراقع الرأسية فى الجزء الأوسط منها مفتوحة . ومرة أخرى فتشت الأرض الفضاء بمعاونة فانوس وتم البحث داخل كل شجيرة وداخل كل دغل ولكنها لم تكن مختبئة فى أى من هذه . ثم سئل حارس البوابة الأمامية وبعد تفكير قال إنه سمع من الناحية الخلفية صوت سقوط جسم فى مياه النهر ، ولكنه لم يهتم للأمر لاعتقاده أن عددا من البط كان يسبح فى النهر قادما من ناحيته العليا .

وقالت إحدى المعلمات : « لابد أنها عبرت النهر سيراً على قدميها ! »

وقال حارس البوابة : « أو أغرقت نفسها . »

وفزعت المشرفة للفكرة ولم يكن مصدر فزعها احتمال موت « سو » بقدر تعرض الدار لحملات الصحف ، التى لو أضيفت إلى فضيحة العام السابق لا بد أن توصم الدار لفترة طويلة وصمة مشينة .

وبعد أن أحضر عدد أكبر من المصابيح . وبعد أن فتش النهر استطاعوا أخيرا أن يميزوا فى الوحل على الضفة الأخرى - وكانت متصلة بالحقول اتصالا مباشرا - بعض آثار أقدام صغيرة ، وكان هذا برهانا قاطعاً على أن الفتاة المروعة خاضت فى المياه إلى عمق يصل إلى كتفيها تقريبا إذ كان ذلك هو النهر الرئيسى فى البلاد وجاء ذكره مقرونا بالاحترام فى كافة كتب الجغرافيا . ولما كانت « سو » لم تصب المدرسة بوصمة إغراق نفسها فقد أخذت المشرفة تنظر إليها نظرة عطف وأعربت عن ارتياحها لذهاب هذه التلميذة .

وفى الليلة عينها لزم « جود » غرفته القريبة من بوابة حى الكاتدرائية . وكان من عادته فى مثل هذا الوقت من كل يوم ، وبعد حلول الظلام ، أن يدخل الحى الهادئ ويقف أمام البناء الذى يضم « سو » كى يرقب الظلال المنبعثة عن رءوس الفتيات وهن يتحركن ويلحظ صورهن تنعكس على الستائر فيتمنى لو لم يكن لديه ما يفعله سوى أن يجلس طول اليوم قارئاً متعلما لكل مايستهان بقراءته وتعلمه من قبل الكثيرات من صاحبات الرءوس الفارغة من يسكن ذلك البناء . أما فى

هذه الليلة ، فبعد أن فرغ من احتساء الشاى عكف على قراءة المجلد التاسع والعشرين من مجموعة مؤلفات « بوسى » عن آباء الكنيسة وهى مجموعة سبق أن اشتراها من بائع يتاجر فى الأشياء القـــديمة بثمن ظن « جود » حينئذ أنه رخيص رخصا لا مثيل له بالنظر إلى أن الكتاب مرجع لا يقدر بثمن . وفى أثناء انهماكه فى القراءة خيل إليه أنه يسمع نقراً خفيفاً على زجاج النافذة ، ثم تكرر النقر من بعد . ولا بد أن شخصاً ألقى بحصاة ! وهنا هب واقفا ثم رفع الردادة فى لطف فسمع صوتا آتيا من أسفل النافذة يقول : « جود » !

— « سو » !

— « نعم . إنى هى ! أيمكننى أن أصعد اليك دون أن يرانى أحد ؟ »

— « نعم ! »

— « إذن لا تنزل . اغلق النافذة . »

وبقى فى مكانه وكان يدرك أنها تستطيع أن تدخل البيت فى يسر حيث كان الباب الأمامى لا تغلقه سوى أكرة فى قدرة أى انسان أن يديرها كما هو الحال فى معظم المدن الريفية القديمة . لقد لجأت إليه فى محنتها ، تماما كما لجأ هو إليها عندما كان فى محنة ، فيالهما من مخلوقين متماثلين ! وظلت تلك الفكرة تدور فى رأسه ويده على أكرة باب غرفته ، وأخيرا سمع حفيف ثوب يتحرك فى سرعة فوق السلم المظلم ورآها أمامه فى ضوء المصباح . وأقبل عليها ليمسك بيدها فوجدها لزجة باردة كيد جنية من جنيات البحر ، ورأى ملابسها لاصقة بجسدها كالأثواب التى تكسو التماثيل التى ترى فى ردهات « البارثينون » . وقالت من خلال أسنانها المصطكة : « إنى أشعر ببرد شديد . هل يمكننى أن أقترب من النار يا «جود» ؟ »

وعبرت الغرفة إلى حيث المصطلى الصغير الذى يحوى ناراً ضعيفة ولكن ، بينما كانت قطرات المياه تتساقط منها وهى تخطر فى الغرفة ، ظهر جلياً سخافة ما كانت تنتويه من تجفيف لجسدها ولملابسها .

قال « جود » يسألها فى فزع ونبرات صوته تنم عما فى نفسه من عطف عليها :

— « ما هذا الذى فعلتيه أيتها العزيزة ؟ »

— « عبرت أكبر نهر فى البلاد . هذا ما فعلت ! سجنونى فى المدرسة لخروجى معك فظهر لى ما ينطوى عليه هذا السجن من ظلم وعجزت عن تحمله وعلى ذلك تسللت من النافذة وهربت عبر النهر » . كانت الألفاظ تخرج من فمها كما لو أنها تتحدث حديثا عاديا ولكنها ، قبيل نهاية الحديث ، أخذت شفتاها الرقيقتان القرمزيتان ترتعشان وعجزت عن مغالبة البكاء فانفجرت باكية

قال : « أيتها العزيزة « سو » لا مناص من أن تخلعى جميع ملابسك . وماذا بعد ذلك — لا بد أن نستعير بعض الملابس من صاحبة البيت . سأذهب إليها لأطلب منها ذلك »

— « لا . لا ! بالله عليك لا تدعها تعلم بوجودى . إننا أشد ما نكون قربا من المدرسة وأخشى أن يأتوا إلى هنا ليبحثوا عنى . »

— « إذن لا بد أن تلبسى ملابسى . وهل تعارضين فى ذلك أيضا ؟ »

— « أوه ، لا . » .

— « حلتى التى أرتديها أيام الآحاد ما رأيك فيها ؟ إنها قريبة منى الآن . » والواقع أن كل شىء فى غرفة «جود» كان أنيقا مرتبا . ولما لم تكن طريقة أخرى غير ذلك ، فتح درجا وأخرج منه أفضل حلله كلها وبعد أن هزها فى يده قليلا قال : « والآن كم من الوقت تحتاجين لارتدائها ؟ »

— « عشر دقائق » .

وغادر الغرفة إلى الشارع وأخذ يسير ذهابا وجيئة ، وعندما سمع الساعة تدق النصف بعد السابعة قفل راجعا وجلس فى مقعده الكبير الوحيد وعند ذلك رأى مخلوقا نحيلا متهالكا يشبهه وهو فى أيام الآحاد شبها مضحكا . فأثارت فى مظهرها الضعيف كوامن نفسه بحيث أحس بقلبه يتفطر عطفا عليها . كانت ملابسها المبتلة منشورة فوق مقعدين آخرين وعندما جلس بجوارها احمر وجهها خجلا ولكن ذلك لم يستمر سوى لحظة قصيرة .

ــ أظن يا « جود » من غير اللائق أن ترانى هكذا وملابسى منشورة هنا ومع ذلك ، أى هراء هذا الذى أتفوه به ، ليست هذه سوى ملابس امرأة ، مجرد نسيج لا حياة فيه . ليتنى لم أحس بالضعف والمرض !. هل لك أن تجفف ملابسى الآن ؟ أرجوك يا « جود » أن تفعل وسأبحث لنفسى عن مكان آوى إليه فالوقت مازال مناسبا لذلك . »

ــ « لا . لن تفعلى ذلك إذا كنت مريضة . لا بد أن تبقى هنا . « سو » ، أيتها العزيزة ، ما الذى أستطيع أن أفعله من أجلك ؟ »

ــ « لا أدرى ! لا أستطيع أن أتغلب على هذه الرجفة . ليتنى أحس بشىء من الدفء فى أوصالى ! » ووضع « جود » فوقها معطفه الكبير بالاضافة إلى ما كان عليها من ثياب ثم هرع الى أقرب حان وعاد وفى يده زجاجة صغيرة وقال « هاك زجاجة من أحسن أنواع البراندى . والآن إشربى أيتها العزيزة . إشربى الزجاجة كلها . »

ــ « لا أستطيع أن أشرب من الزجاجة . » عندئذ أحضر كوبا وسكب فيه قليلا من الخمر ثم مزجه بالماء وقدمه لها فتأففت من شربه قليلا ولكنها أفرغته فى جوفها ثم اضطجعت فى المقعد الكبير .

وعقب ذلك شرعت تروى له قصتها فى نظام منذ اللحظة التى افترقا فيها . ولكن فى وسط القصة تعثر صوتها ومالت برأسها إلى الأمام ثم توقفت عن الحديث وراحت فى سبات عميق . ولما كان قلقا عليها ، خائفا لئلا تصاب ببرد يضر بصحتها ، شعر بالفرح يملأ نفسه عندما سمع أنفاسها المنتظمة فاقترب منها فى هدوء فلاحظ أن خديها الزرقاوين بدآ يصطبغان بحمرة دافئة كما لاحظ أن يدها الممدودة لم تعد باردة وحينئذ وقف وظهره إلى النار يتأملها فرآها وبدت له كملاك من ملائكة السماء :

– ٤ –

وقطع حبل تأملاته صوت أقدام تصعد السلم فأسرع إلى الملابس المنشورة فوق المقعد لجمعها ثم دفع بها أسفل فراشه وجلس يقرأ . وسمع طرقاً على باب غرفته وبعدها مباشرة فتح الباب وأطلت منه صاحبة المنزل .

— « أوه ، لم أدر أنك فى الغرفة أيها السيد «فاولى» . رغبت فقط أن أعرف ما إذا كنت تطلب العشاء . أرى أنك تستضيف شابا هذه الليلة » .

— « نعم أيتها السيدة . ولكننى لن أنزل للعشاء هذا المساء فهل تتفضلين باحضاره ؟ أود أيضا أن أتناول بجانب الطعام قدحا من الشاى » .

كان من عادته أن ينزل إلى المطبخ حيث يتناول طعامه فى صحبة أفراد الأسرة تخفيفا من أعباء صاحبة المنزل التى بادرت باحضار عشائه فى تلك الليلة . أما هو فأخذه منها عند الباب .

وعندما نزلت المرأه ، وضع إناء الشاى بجوار المصطلى ثم أخرج ثياب «سو» من مكانها تحت السرير فوجدها لم تجف ، ووجد رداء من الصوف السميك مازال محتفظا بقدر كبير من الماء فأعاد نشر كل الثياب وزاد من النيران وعاد إلى تفكيره بينما البخار يتصاعد من قطع الملابس خارج المدخنة .

وفجأة قالت الفتاة : « جود ! »

— « نعم » الآن كيف حالك ؟ .

— « أحسن . أنا على ما يرام . عجبا ! لقد نمت . أليس كذلك ؟ كم الساعة الآن ؟ ليس الوقت متأخراً بالتأكيد » .

— « إنها الآن بعد العاشرة » .

قالت فى فزع : « حقا ؟ وماذا أفعل الآن ؟ »

— « إبقى حيث أنت » .

— « هذا ما أود أن أفعله ، ولكننى لا أدرى ماسوف يقال عنى! وما الذى ستفعله ؟ »

— « سأجلس هنا طول الليل أقرأ بجوار النار فغداً الأحد ولست مضطراً إلى الخروج من البيت . قد يكون من الجائز أنك ستنقذين نفسك من مرض خطير لو بقيت حيث أنت . لا تجزعى على فأنا على ما يرام . أنظرى ماذا أحضرت لك . إليك بعض الطعام . وعندما اعتدلت فى جلستها أخذت تتنفس فى حزن وهى تقول : « أحس أننى مازلت ضعيفة . كنت أظن أنى فى حالة طيبة وما كان ينبغى لى أن آتى إلى هنا . أليس كذلك ، ولكن العشاء منحها شيئاً من القوة . وعند ما أحتست قليلا من الشاى واستراحت أصبحت يقظة ومرحة .

أما الشاى الذى شربته ، فلا بد أنه كان قوياً ، أو أنه ظل على النار فترة طويلة إذ بدا عليها عقب تناولها إياه أن الكرى ابتعد عن جفنيها ، بينما أحس هو الذى لم يشرب شيئاً ، أن رأسه تدور حتى لفت حديثها انتباهه .

قالت وهى تقطع حبل الصمت الذى ساد بينهما لحظة : « دعونى ربيبة المدنية أو ما يشبه ذلك . أليس كذلك ؟ كان غريباً أن قلت ذلك » .

— « ولماذا ؟ » .

— « ذلك خطأ كبير فما أنا سوى الصيغة السلبية ، لهذا الذى تدعيه » .

— « أنت تتفلسفين فالصيغة السلبية ، كلام يتسم بالعمق ! » .

قالت تسأله وفى لهجتها شىء من المرح : « حقاً ؟ وهل أبدو لك أنى مثقفة ؟ » .

— « لا . لست مثقفة . غير أنك لا تتحدثين كما تتحدث البنت الصغيرة . البنت المجردة من المزايا » .

— « كان لدى بعض المزايا . أنا لا أعرف اللاتينية واليونانية وإن كنت أعرف قواعد هاتين اللغتين — ولكننى أعرف معظم الروائع اليونانيــة

واللاتينية من خلال ترجمتها إلى الإنجليزية ، كما أعرف كتبا أخرى كذلك قرأت للبربير و « كاتالوسى » و « ماريتال » و « جوفينال » و « لوسيان » و « بومونت وفلتشر » وقرأت « لبوكاتشيو » و « سوكارون » و « دى برانتوم » « وستيرن وفو » و « سموليت » و « فيلدنج » و « شكسبير » ، وقرأت الإنجيل وغيره واكتشفت أن كل جاذبية الأجزاء النابية من تلك الكتب انتهت بقراءتها » .

قال وهو يتنهد : « لقد قرأت اكثر مما قرأت أنا ! كيف حدث أن قرأت بعض تلك الكتب على غرابتها ؟ » .

قالت فى اهتمام : « كان ذلك عن طريق الصدفة . تشكلت حياتى وتحددت بسبب ما يسميه الناس بخصلة فى . أنا لا أشعر بخوف من الرجال على اعتبارأنهم رجال ولا أخشى مما يكتبون .

لقد اختلطت بهم — بواحد أو اثنين منهم على وجه خاص — وكان اختلاطى على أساس أننى أنتمى إلى جنسهم . أريد أنأقول إننى لم أحس نحوهم بذلك الاحساس الذى يتعلم النساء أن يحسسنه تجاه الرجال وهو إحساس الحذر من إعتدائهم على عفافهن فما من رجل — باستثناء المتوحشين عبيد شهواتهم — يجرؤ على التعرض لامرأة بالليل أو بالنهار فى بلادنا أو خارجها مالم يدع إلى ذلك ومالم تشر إليه المرأة بنظرة منها كأنما تقول : « تعال إلى » وبدون ذلك فهو فى خوف منها مقيم . وما لم تقل المرأة هذه الكلمة ، ومالم تفصح عنها بنظرة ، فلن يقترب الرجل من المرأة . ومهما يكن من أمر ، ما كنت على وشك أن أقوله هو أننى عندما كنت فى الثامنة عشرة من عمرى نشأت بينى وبين أحد الطلاب فى كرايستيمينيستر » علاقة صداقة حميمة . علمنى ذلك الشاب أمورا كثيرة كما أعارنى كتبا ما كان يمكن أن أحصل عليها لولاه » .

— « وهل انتهت هذه الصداقة ؟ » .

— « نعم . فالمسكين مات بعد عامين أو ثلاثة من حصوله على درجته العلمية ومغادرته الجامعة فى « كرايستمينيستر » .

— « أعتقد أنك كنت تقابلينه كثيرا ؟ » .

— « نعم . تعودنا أن نخرج سويا ونسير على الأقدام مسافات طويلة نقرأ وغير ذلك من الأعمال وكانت علاقتنا كتلك التي تنشأ بين شاب وآخر لا بين شاب وفتاة . طلب منى أن أشاركه حياته ووافقت ولكننى عندما اتصلت به فى « لندن » وجدت » أنه يضمر شيئا يختلف عما فهمت إذ أراد منى فى الواقع أن أكون خليلته ولكنى لم أكن أحبه وعند ما قلت إننى مصممة على تركه مالم يتنازل عن فكرته فعل ذلك ومن ثم تقاسمنا غرفة واحدة وعشنا سويا خمسة عشر شهرا . لقد أصبح فيما بعد كاتبا من كتاب الافتتاحيات فى صحيفة يومية من أكبر صحف « لندن » وظل كذلك حتى دهمه المرض وكان لا بد من أن يرحل خارج البلاد للاستشفاء .

قال إننى أشقيته بتمنعى وإصرارى على الابتعاد عنه بالرغم من أننا كنا نعيش تحت سقف واحد ولم يكن ليصـــدق أن شيئا كهذا يمكن أن يصدر من امرأة .

ثم عاد إلى أرض الوطن ولكنه قضى نحبه عقب عودته مباشرة . فسبب لى أزمة نفسية عنيفة وأنبنى ضميرى على قسوتى معه ، وإن كنت مازلت أرجو أنه مات بذات الرئة وليس بسبب صدى .

سافرت إلى « ساند بيرن » كى أحضر جنازته وكنت الشخص الوحيد الذى توجه للتعزية فى موته . لقد ترك لى شيئا من المال وذلك لأننى أشقيته على ما أعتقد ! هكذا الرجال دائما ، إنهم يفوقون النساء نبلا ! » .

— « يا إله السموات ! وماذا فعلت بعد ذلك ؟ » .

— « آه . هأنت الآن غاضب على ! » قالت ذلك وبدا فى نبرات صوتها الفضى نغمة مفاجئة تدل على الحزن ثم أضافت تقول : « ما كنت لأقول لك شيئا لو أننى عرفت أنك ستغضب ! » .

— « لا لست بغاضب . اخبرني بكل شيء » .

— « حسن . إستثمرت نقوده في مشروع وهمي وفقدتها . وعشت وحدي قريبا من « لندن » لفترة وبعدها عدت إلى « كرايستومينستر » إذ أن أبي ، وهو الآخر يعيش في « لندن » ويعمل نقاشا على المعادن ، رفض أن يستقبلني في متجر العاديات حيث وجدتني . قلت لك إنك لا تدري كم أنا سيئة ! » .

ونظر إلى المقعد الكبير ذي المساند وأطال النظر فيه كما لو انه يدرس من جديد تلك المخلوقة التي آواها في بيته وأخذت نبرات صوته ترجف وهو يقول : « مهما يكن نوع الحياة التي عشتها يا « سو » فإني أعتقد أنك بريئة ، كما أومن بأنك متحررة ! » .

— « لست كما تظن بريئة تماما وخاصة إذا كنت : « نزعت الغطاء عن جسد كساه خيالك السامي » .

قالت ذلك وهي تضحك وان كان من الممكن أن يكتشف انها تجهش بالبكاء وهي تقول : « ولكني لم أسلم نفسي قط لعشيق إذا كان ذلك ما تقصد . لقد ظللت دائما كما بدأت . »

— « اني اصدقك تماما ولكن بعض النساء ما كن ليظللن كما بدأن » .

— « ربما لا . إن نساء أفضل مني ما كن ليفعلن ذلك . يقول الناس عني بسبب ذلك إنني ذات طبيعة باردة ، أي أنني خالية من الشعور بالجنس ، ولكني لا أهتم بما يقولون ! بعض الشعراء من ذوي الاهتمام الخاص بشئون الجنس كانوا دائما في حياتهم اليومية بعيدين عن هذه الأمور . »

— « وهل ذكرت للسيد «فيلوتسون» شيئا عن ذلك الصديق الجامعي العالم ؟ »

— « نعم فعلت ذلك منذ مدة طويلة فما أخفيت هذه القصة عن أحد » .

— « وماذا قال ؟ » .

— « لم يقل شيئا يدل على استهجانه لما بدر مني بل قال إنني كل شيء بالنسبة له مهما فعلت ، وقال كلاما آخر غير هذا . »

وأحس بانقباض شديد . لقد بدا كأنها تبتعد عنه تدريجيا بسلوكها الغريب وعدم إحساسها بأنوثتها .

وفجأة قالت تسأله فى صوت رقيق يتعارض تماما مع ما صدر عن نفس تلك المرأة التى قصت الآن عليه قصتها فى استهتار كبير :

— « هل أنت حقاً لا تحس من نحوى بضيق أيها العزيز « جود » ؟ إنى لا أتردد عن الاساءة إلى أى فرد فى الدنيا إلاك ! »

— « لا أدرى إن كنت حانقا عليك أم لا . كل ما أدريه الآن هو أننى أهتم بك اهتماما زائدا ! »

— « وما اهتمامى بك إلا كاهتمامى بأى شخص آخر سبق أن عرفته . »

— « وليس أكثر من ذلك ؟ ويحى ، ما كان ينبغى لى أن أسألك هذا السؤال. على أية حال لست مضطرة إلى الإجابة على سؤالى ! » وحلت فترة صمت أخرى طويلة . وأحس أنها تعامله بقسوة وإن لم يستطع أن يتبين حقيقة ذلك على وجه الدقة . لقد جعلها مظهر الإستسلام الذى اتسمت به تبدو وكأنها أقوى منه . ولكى يغير مجرى الحديث طفق يقول : « إنى جاهل تماما بالأمور العامة وإن كنت عملت عملا متواصلا . تعلقت بدراسة علوم اللاهوت كما تعلمين وماذا تظنين ينبغى لى أن أفعل لو لم تكونى معى الآن ؟ كان ينبغى أن أؤدى صلاة المساء وأظن أنك لا تمانعين فى أن . . . »

قالت : « أوه . لا . لا . أفضل ألا أفعل إذا لم يضرك ذلك . لا أحب أن أكون منافقة ولا أود أن أبدو أمامك كذلك . »

— « ظننت أنك لن تشتركى معى فى الصلاة فلم أعرض عليك ذلك . يجب ألا تنسى أننى آمل أن أصبح فى أحد الأيام قسيساً أنفع الناس » .

— « أنت تعد نفسك لذلك ؟ أظن أنك سبق أن ذكرت أمامى شيئا كهذا . أليس كذلك ؟ »

— « نعم . »

— « إذن ما زلت مقيما على عزمك . ظننت أنك غيرت رأيك . »

— « طبعا لا . فى مبدأ الأمر ظننت أنك تشاركينني شعورى إزاء هـــذا الموضوع حيث أنك عشت فى « كرايستمينيستر » واختلطت بأهلها واطلعت على إتجاهاتهم الدينية ، كما أن السيد « فيلوتسون . . . »

قالت « سو برايد هيد » فى حماس زائد :

— « إنى لا أحترم « كرايستمينيستر » ولكننى أقدر بعض التقدير حياتها العقلية والمسئول عن ذلك هو صديق الذى حدثتك عنه . كان أكثر من عرفت من الرجال تساهلا فى أمور الدين بيدأنه أفضلهم خلقا . وأمور العقل فى « كرايستمينيستر » تشبه النبيذ الجديد المعبأ فى زجاجات قديمة . وفى تلك المدينة أيضا لا بد أن يزول العصر الوسيط عن كل شيء . لابد أن ينسلخ عنها كلية ذلك الطابع وإلا فستزول من الوجود « كرايستمينيستر » نفسها . طبعا فى بعض الأحايين لا يقوى المرء على مقاومة ما يحس به من ميل خفى لتقاليد الدين القديمة كما يزاول شعائره هناك فى إخلاص وتأثر فريق من المفكرين ، ولكننى عندما أعود إلى نفسى وأصبح فى تمام حواسى أقول :

« ياللجلال الرهيب المنبثق من القديسيين »

لشد ما أراه أجزاء ذاوية متساقطة — من أجساد آلهة مشنوقة ! »

— « « سو » لست بالصديقة المخلصة لى وإلا لما تفوهت بمثل هذا الكلام ! »

— « إذن أسحب هذا القول أيها العزيز « جود » . » قالت ذلك فى تأثير عاطفى وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى .

— « مازلت أعتقد أن « كرايستمينيستر » لديها الكثير مما يعد رائعا بالرغم من حنقى عليها لأننى لم أوفق فى الذهاب إلى هناك » . قال « جود » هذه الكلمات فى رقة ظاهرة وهو يقاوم فى نفسه دافعا خفيا بان يحملها على البكاء .

قالت ولم يزايلها حنقها عليه لمعارضته إياها : « إنها مكان للجهل والخمول العقلى ولا يراها كذلك سكانها من السوقة والسكيرين والشحاذين ، فجميع هؤلاء يقبلون الحياة كما هى بينما الغالبية العظمى من رجال الكليات ليسوا كذلك . أنت مثلا برهان حى على ذلك . إنك أحد الذين خلقوا لـكرايستمينيستر عندما كانت مهداً للعلم إذ أنك تحس بعاطفة قوية نحوها ولـكنك بلا مال وبلا آمال وبلا أصدقاء . زحمك أولاد الأغنياء وأزالوك عن الطريق . »

« حسن . فى مقدورى ان أضرب صفحات عن الماديات إذ أن اهتمامى موجه إلى شىء أسمى من ذلك بكثير . »

وأضافت تقول فى إصرار : « أما أنا فاهتمامى موجه إلى شىء أوسع وأصدق . فى وقتنا الحاضر يتخذ العقل فى « كرايستمينيستر » لنفسه طريقا معينا بينما يسير الدين فى طريق آخر وبذلك يصطدم الإثنان وتتعارض مصالحهما كخروفين يتناطحان » .

— « وما رأى السيد « فيلوتسون » .

— « ياله من مكان يكثر فيـــه المؤمنون بالبرود والدراويش ومؤاخو الأشباح ! » .

ولاحظ «جود» أنه كلما هم بالحديث عن المعلم حولت الكلام إلى بعض التعميمات عن تلك الجامعة وتقصيرها وكان « جود » أشد ما يكون لهفة على معرفة جانب من حياتها باعتبارها ربيبة « فيلوتسون » وخطيبته ولـكنها ما كانت تشفى غليله من هذه الناحية .

قال : « حسن . هذه بالضبط طبيعتى فأنا أخشى الحياة وأرى الدنيا دائما تعج بالأشباح . »

وتمتمت تقول : « ولـكنك عزيز على كريم معى ! » .

وانخلع قلبه لسماعه هذه الكلمات ولم تنبس شفتاه بكلمة .

وأضافت تقول فى لجاجة تقصد بها إخفاء حقيقة شعورها وهى حيلة عرفها عنها . « أرى أنك مازلت فى مرحلة (التبشير بوساطة العجالة) أليس الأمر كذلك ؟ والآن دعنى أرى فى أى عام كنت أنا فى هذه المرحلة ؟ مررت فى هذه المرحلة عام ألف وثمانمائة و . . . » .

— « إنك تهزئين بناحية من النواحى التى لا أحبها فى نفسى يا « سو » .

والآن هل تفعلين ما أطلبه منك ؟ فى اللحظة الراهنة أقرأ اصحاحا من الإنجيل وبعدها أقوم إلى الصلاة كما سبق أن أخبرتك . هل لك أن تتناولى كتابا من الكتب أمامك ثم تجلسين وظهرك إلى الناحية الأخرى تاركة أياى وشأنى ؟ هل أنت متأكدة تماما انك لا تودين أن تشاركينى الصلاة ؟ » .

— « سأمتع عينى بالتطلع إليك وأنت تصلى » .

— « لا . لاتسخرى منى يا « سو » ! .

— « حسن للغاية سأفعل ما تأمرنى به وان أضايقك . قالت ذلك وفى كلامها نبرة طفل ينوى أن يعدل من سلوكه . وتحقيقا لهذه النية من جانبها أدارت له ظهرها وكان بالقرب منها إنجيل آخر صغير . وفى أثناء قيامه بالصلاة تناولت الإنجيل وشرعت تقلب صفحاته ثم قالت فى خبث :

« هل تأذن لى بأن أصنع لك إنجيلا جديدا كذلك الذى صنعته لنفسى فى « كرايستمينيستر ؟ » .

— « نعم . وكيف صنعت ذلك ؟ » .

— « أدخلت بعض التعديلات على كتابى القديم فنزعت منه الرسائل والأناجيل وصنعت منها كتيبات صغيرة مرتبة حسب تسلسلها الزمنى بادئة برسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل « كورنثوس » ، ثم اتبعتها ببقية الرسائل ، وفى نهاية المجموعة وضعت الأناجيل وبعد أن فرغت من ذلك أرسلتها للتجليد .

وقال صديق فنى الجامعة السيد .... ، ولكن لا داعى لذكر اسمه فليرحمه الله قال إن الفكرة ممتازة وعند ما شرعت بعد ذلك فى قراءة المجموعة وجدتها أكثر إثارة للنفس ، وأكثر وضوحاً » .

وسعل « جود » تعبيراً عن شعوره بالخطيئة . وقالت وعيناها تتطلعان إلى صفحات (نشيد سليمان) : « يالها من جريمة أدبية ، ذلك الملخص المذكور فى مطلع كل إصحاح لتفسير طبيعة الملحمة الشعرية . لا تزعج فما من إنسان يدعى أن الله أوحى إليه بعناوين الاصحاحات . الواقع أن الكثيرين من علماء اللاهوت لا يحفلون لمثل هذه العناوين . ومن الأمور التى تدعو إلى السخرية حقا أن نفكر فى الأربعة والعشرين كهلا أو أسقفا جالسين متجهمى الوجوه منهمكين فى كتابة مثل هذا الكلام » .

ونظر إليهـــا « جود » وفى عينيه ألم دفين وتمتم يقول : « إنك تشبهين « فولتير » فى طريقة تفكيرك ! » .

ـــ « حقا ! إذن لن أفتح فمى بكلمة وإن كنت أود أن أقول ليس للناس أن يحرفوا الانجيل ! أنا أكره كل محتال مخادع يحاول العبث بما تنطوى عليه تلك الأنشودة العاطفية الرائعة الحاوية على حب إنسانى طبيعى يذهل العقل ، وبخاصة عند ما يكون العبث عن طريق الإستعانة بعبارات كنسية جوفاء وهكذا امتلأ حديثها بالإنفعال ، بل كان يفيض غضبا بسبب تعنيفه وتندت عيناها بالدموع وهى تقول : « وددت لو أن لى صديقا هنا يشد من أزرى ، ولكن ما من أحد بجانبى قط » .

قال وهو يتناول يدها ويعجب لإقحامها الشعور الشخصى فى مناقشة عابرة : « ولكن يا عزيزتى « سو » يا أعز الأصدقاء . أنا لست ضدك ! » .

وأخذت تصرخ وهى تدير وجهها عنه حتى لا يرى عينيها الممتلئتين بالدموع : « نعم أنت ضدى . بل أنت ضدى ! أنت فى جانب القوم فى دار المعلمات . على

الأقل يبدو لى أنك كذلك . ما زلت مصممة على أنه من السخف الزائد تفسير بعض النصوص مثل : « أين ذهب حبيبك أيتها الجميلة بين النساء » بقولنا : « الكنيسة تؤكد عقيدتها ! » .

— « حسن . إذن ليكن هذا ! إنك تجعلين من كل شيء أمراً شخصياً ! أما أنا فأميل الآن كثيراً إلى تفسير هذه الكلمات تفسيراً دنيويا . أنت تعرفين أنك بالنسبة إلى أجمل النساء وكونى واثقة من ذلك ! » .

— ولكن ليس لك أن تصرح بذلك الآن ! » قالت ذلك . وقد مالت بنبرات صوتها إلى الشدة وبعدها تقابلت العيون وتصافح الإثنان كما يتصافح أعز الأصدقاء واكتشف « جود » سخافة اختلافهما فى موضوع لا يعدو أن يكون افتراضياً محضاً كما أدركت هى حماقة البكاء على ما هو مكتوب فى كتاب قديم كالإنجيل . واستمرت تقول فى نغمة هادئة إذ كان « جود » الآن أكثر منها قابلية للإنفجار : « أنا لن أتدخل فى معتقداتك . أبداً مطلقاً ! ولكننى أود حقاً وأشتاق كثيراً إلى أن أدفع رجلا إلى تحقيق أهداف سامية ! عند ما رأيتك وعرفت أنك تود أن تصبح من أصدقائى اعتقدت ـ ودعنى أعترف لك ـ أن ذلك الرجل قد يكون أنت . ولكنك تعتنق الكثير من المعتقدات بنية طيبة بحيث لا أدرى ما ذا أقول » .

— « حسن أيتها العزيزة . ولكنى أعتقد أن على المرء أن يثق فى صدق بعض الأمور فالحياة قصيرة ولن نتمكن من البرهنة على صدق كل شيء قبل الثقة بهذا الشيء . لنأخذ المسيحية » .

— « بل خذ شيئاً آخر » .

— « أنت على حق . ومن الجائز أننى فكرت فى ذلك فعلا ! » وكان حينئذ يفكر فى علاقته بأرابيلا .

ونظرت إليه فى اطمئنان وبدا كأنما صوتها يحاول النفاذ إلى صدره ثم قالت :

« لن ألح عليك فى السؤال إذ سيعامل كل منا الآخر معاملة رقيقة ولن يسىء كل منا الآخر أو يضايقه بعد الآن . أليس كذلك ؟ » .

قال : « ستظلين دائماً موضع اهتمامى » .

— « وستظل أنت أيضاً كذلك لأنك سليم الطوية غافر لأخطاء عزيزتك الصغيرة المشاكسة « سو » .

وأشاح بوجهه عنها إذ عذبه ما بدا منها من رقة يجهل أصلها . أكانت تلك الرقة هى نفسها التى حطمت قلب الصحفى التعس ؟ هل دوره هو قادم ؟ ولكنها كانت عزيزة على قلبه ! وتمنى لو استطاع أن يتغلب على شعوره بأنها امرأة كما تغلبت هى فى سهولة على شعورها بأنه رجل . ولو نجح فى ذلك لأصبحت بالنسبة إليه رفيقا نادر المثال حيث أن اختلافهما فى الرأى حول موضوعات جدلية ليس له من نتيجة سوى التقريب فيما بينهما فى أمور الحياة . لقد كانت أقرب إليه من أى امرأة أخرى فلم يدر بخلده أن الزمن أو العقيدة أو بعد الشقة يمكن أن يفصله عنها .

غير أن حزنه على عدم إيمانها بمقدساته عاوده مرة أخرى . وظلا فى مكانهما حتى داهمها النعاس ثانية وأخذته هو الآخر سنة من النوم . وكلما استيقظ أزاح ملابسها وأخذ يحرك النار فى المدفأة من جديد . وحوالى السادسة نهض من مكانه وأشعل شمعة فوجد أن ثيابها جفت تماما . ولما كان المقعد الذى تجلس فيه مريحاً أكثر من مقعده ، فقد ظلت نائمة داخل معطفه الكبير ككعكة طازجة ساخنة أو غلام من الذين عاشوا فى بلاط الإله «زيوس» . وبعد أن وضع بجوارها ملابسها ضربها بيده على كتفها ضربة خفيفة ثم نزل السلم وأخذ يتمشى فى فناء الدار سابحاً فى ضوء النجوم .

(٥)

وعند ما عاد إلى غرفته كانت قد ارتدت ملابسها فقالت له : « هل أستطيع أن أغادر البيت الآن دون أن يرانى أحد ؟ لم تستيقظ المدينة بعد » .

— « ولكنك لم تأكلى شيئاً » .

— « لا أريد أن آكل شيئا . ليتنى لم أهرب من تلك المدرسة فالأمور فى ضوء النهار تبدو مختلفة تماماً . أما ما الذى سيقوله السيد « فيلوتسون » فهذا ما لا أعلمه إ كان التحاق بتلك الدار تحقيقاً لرغبته هو وإنه الرجل الوحيد فى العالم الذى أكن له الاحترام ، بل إنى أشعر نحوه بالخوف . أرجو أن يعفو عنى وإن كنت أتوقع منه تعنيفاً شديداً » .

وشرع « جود » يقول : « سأذهب إليه وسأشرح له » .

— « أوه لا . لا تذهب . لا يهمنى رأيه . ليظن فى ما يريد وسأفعل ما يحلو لى » .

— « ولكنك قلت الآن فقط ... » .

— « حسن . ولكننى سأفعل ما أحب مهما تكن الظروف . فكرت فيما سأفعله . سأذهب إلى شقيقة إحدى زميلاتى فى دار المعلمات وكانت قد دعتنى لزيارتها فى بيتها . لديها مدرسة فى « شاستون » التى تبعد ثمانية عشر ميلا عن هذا المكان وسأبقى هناك حتى تنتهى هذه الزوبعة ثم أعود مرة أخرى إلى دار المعلمات » .

وفى اللحظة الأخيرة نجح فى أن يجعلها تقبل منه قدحاً من القهوة صنعه لها على موقد صغير يحتفظ به فى غرفته لإستخدامه عند نهوضه فى الصباح وذهابه إلى عمله قبل أن يستيقظ أفراد البيت الذى يسكنه

قال : « والآن إليك ماتبلغين به مع القهوة وبعدها نغادر البيت . تستطيعين أن تتناولى فطوراً كاملا عندما تصلين إلى هناك » .

وغادرا المنزل فى هدوء وصحبها إلى المحطة . وبينما الإثنان يسيران فى الطريق ، برزت رأس من أحد النوافذ العليا فى البيت ثم اختفت سريعا ، كان يبدو على «سو» أنها ما زالت آسفة على ما بدر منها من تسرع كما تمنت لو أنها لم تتمرد على النظام ! وعندما انفصلا أخبرته أنها سوف تتصل به بمجرد أن يعاد قيدها ضمن دار المعلمات. وعلى رصيف المحطة وقفا سويا وعلى وجههما ارتسمت مظاهر التعاسة ، وكان من الواضح أنه أراد أن يقول لها أكثر مما قال . وعندما وصل القطار قال لها فى عجلة : « أريد أن أقول لك شيئا . بل أريد أن أقول شيئين أحدهما حسن والآخر ردىء ! »

قالت : « جود » إنى أعرف أحدهما ولا يجدر بك أن تفعل ! »

— « أفعل ماذا ؟ »

— « لا يجوز لك أن تقع فى حبى . أريد منك أن تعطف على . وهـذا يكفى ! » .

وامتلأ وجهه بشتى الإنفعالات الحزينة إلى حد أنها اضطربت وأخذتها الشفقة عليه وهى تتطلع إلى منظر وجهه من نافذة القطار مودعة . وتحرك القطار وبعد أن هزت يدها الجميلة اختفت ولم يعد يراها .

كانت « ملشستر » فى يوم الأحد الذى غادرتها فيه «سو» مدينة مقبضة بالنسبة إلى «جود» الذى عاف النظر إلى حى الكاتدرائية ولم يقصد إلى الكنيسة مرة واحدة. وفى الصباح التالى تسلم منها خطابا كتبته له بدقتها المعهودة بمجرد وصولها إلى منزل صديقتها أخبرته فيه بوصولها وبالمكان المريح الذى حلت فيه وأضافت تقول: « إن ما أكتب لك عنه أيها العزيز « جود » هو فى الواقع أمر أبلغتك إياه لحظة فراقنا . كنت معى آية فى الطيبة والإخلاص وعندما اختفيت عن ناظرى أحسست فى قرارة نفسى بمدى ما فى ذلك الذى أبلغتك به من قسوة وعقوق . ومنذ تلك اللحظة صار ذلك القول يعـذبنى فلو أردت أن تحبنى يا « جود » فلك ما تريد ولن اعترض أبداً عليه ولن أطلب منك مرة ثانية أن تكف عنه ! والآن لن

أتحدث إليك فى هذا الموضوع مرة أخرى . وكلما أطلبه منك أن تغفر لصديقتك قسوتها وغفلتها ، وألا تسبب لها التعاسة بقولك إنك لا تغفر لها . »

ومن نافلة القول أن نذكر هنا ما أجاب به « جود » على هذا الخطاب وماخيل إليه أن يفعله لو أنه كان متمتعا بحريته فلو أنه كان حراً لما تركها تعيش فى بيت صديقة لها . أحس بأن من حقه إن كان يثق بالنصر فى حالة نشوب صراع بينه وبين « فيلوتسون » حول أيهما يحق له أن يمتلكها .

على أية حال ، أوشك « جود » ان يحمل خطاب «سو» القصير الموجز أكثر مما يحتمله .

وبعد بضعة أيام وجد نفسه منساقا وراء أمل خادع هو انتظار خطاب آخر منها ولكنه ظل ينتظر دون جدوى . وبتأثير شعوره العميق بالوحدة ، أرسل إليها خطابا آخر أوضح فيه رغبته فى زيارتها فى يوم من أيام الآحاد إذ كانت المسافة التى تفصلهما لاتزيد على ثمانية عشر ميلا .

وفى اليوم التالى لليوم الذى أرسل فيه خطابه انتظر رداً ولكنه لم يتسلم شيئا . وجاء اليوم الثالث ولم يحضر موزع البريد وكان يوم سبت . ولما كان « جود » فى حالة من القلق يرثى لها ، أرسل إليها خطابا قصيرا يقول فيه إنه سوف يحضر فى اليوم التالى إذ كانت نفسه تحدثه بأن شيئا وقع . وخطر له أول ما خطر ، وهو الشىء الطبيعى فى موقف كهذا ، أنها مرضت من جراء خوضها فى مياه النهر، ولكنه سرعان ما فكر فى أن شخصا آخر لابد أن يراسلها فى ظرف كهذا . هذه التكهنات وضع حدا لها وصوله إلى مدرسة القرية فى ناحية « شاستون » ذات صباح صاف فى يوم من أيام الآحاد ، وكان وصوله بين الحادية عشرة والثانية عشرة عندما تكون الناحية خالية من الناس إذ فى تلك اللحظة يتجمع الجزء الأكبر من السكان داخل الكنيسة حيث يرتلون وينشدون .

وفتحت له فتاة صغيرة وقالت : الآنسة « برايدهيد » فى الدور العلوى من المنزل . هل تتفضل بالصعود إليها ؟

قال « جود » فى لهفة : « هل هى مريضة ؟ »

— « إنها ليست على ما يرام ولكن مرضها ليس بالخطير . »

ودخل المنزل وارتقى السلم وعند ما وصل إلى الطابق العلوى سمع صوتاً يرشده إلى الطريق وكانت « سو » هى التى نطقت باسمه . وعنـــد ما فتح أحد الأبواب وجدها ترقد على فراش صغير فى غرفة ضيقة . صاح وهو يرتمى بجانبها ويتناول يدها بين يديه : وا أسفاه « ياسو » كم حدث ذلك ! لم لم تكتبى إلى ؟ .

قالت : « أصبت بنزلة من نزلات البرد الشديدة وكان فى وسعى أن أكتب إليك غير أننى لم أرد ذلك » .

— « ولم لم تكتبى ؟ لم تخيفيننى هكذا ؟ » .

— « نعم وهذا ما كنت أخشاه ولكننى قررت ألا ، ألا أكتب إليك مرة أخرى . رفض القوم فى دار المعلمات أن يقبلونى ثانية وهذا هو السبب فى أننى لم أستطع أن أكتب إليك » .

— « وماذا بعد ذلك ؟ » .

— « رفضوا أن يقبلونى . ليس هـذا فحسب بل إنهم قبل مغادرتى للدار تعطفوا على بنصيحة » .

— « وما هى ؟ » .

ولم تجب إجابة مباشرة بل قالت : « أقسمت ألا أذكر لك شيئاً يا « جود » يا له من أمر مهين محزن » .

— « وهل الأمر متعلق بنا ؟ » .

— « نعم » .

— « ولكن لا بد أن تخبرينى » .

— « زودهم بعض الناس بأخبار عنا لا أساس لها من الصحة وعلى ذلك

اعتقدوا بأننا لابد أن نتزوج بأسرع ما نستطيع انقاذاً لسمعتى ! ها أنذا أخبرتك بكل شيء وليتنى لم أفعل ! » .

— « مسكينة أنت يا « سو » ! » .

— « ولكنى لا أفكر فيك على هذه الصورة ! خطر لى فعلا أن أنظر إليك بالطريقة التى يظنون أننى أنظر بهـا إليك . ولكننى لم أشرع فى ذلك بعد . إكتشفت أن علاقة القرابة التى بيننا لم تكن سوى علاقة صورية فقط ، طالما أننا تقابلنا وتصرفنا كما يفعل الغرباء . أما عن زواجى منك أيها العزيز « جود » فاعلم ، لو أننى كنت أفكر فى ذلك ، ما كان ينبغى لى أن ألتقى بك كثيراً . ما خطر ببالى قط أنك تفكر فى الزواج منى حتى كان ذلك المساء عند ما بدأت أظن أنك تضمر لى شيئاً من الحب . ما كان ينبغى لى أن أرفع معك الكلفة إلى ذلك الحد . الخطأ خطئى وأنا الملومة دائماً » .

وبدأ الحديث بينهما يفقد حيويته واندفاعه وشرعا ينظر كل منهما إلى الآخر نظرة فيها حزن وأسى ، واستمرت تقول : « كنت مغمضة العينين . فى مبدأ الأمر لم ألحظ شعورك أبداً نحوى . كم كنت قاسيا فى معاملتى على اعتبار أننى محبوبتك فلم تنبس بكلمة وتركتنى حتى اكتشفت ذلك بنفسى ! لقد أصبح سلوكك معى معروفا للجميع فظن الآخرون بالطبع أننا نأتى أمراً نلام عليه . إننى لن أثق بك بعد الآن ! »

وقال فى بساطة : « نعم يا « سو » إننى الملوم أكثر مما تظنين . كنت حتى قبيل مقابلتنا الأخيرة أدرك تماماً أن الشك فيما أحسه نحوك من عاطفة لم يتطرق إليك . إننى أعترف أن تلاقينا كغريبين حجب عنا الشعور بالقرابة وكانت هذه إحدى الحيل التى لجأت اليها معاك ولكن ألا تظنين اننى استحق منك العطف لاخفائى انفعالاتى الخاطئة ، الخاطئة جدا ، طالما لم يكن لى حيلة فيها ؟ » .

وأدارت له عينيها وكان نبرهما ما ينم عن الشك ثم اتجهت بوجهها بعيدا عنه كما لو أنها تخشى الصفح عنه .

ووفقا لكل قانون من قوانين الحياة والحب كانت القبلة هى الرد الوحيد الذى يتفق وحالها النفسية وطبيعة تلك اللحظة . الرد الذى . بتأثير إغرائه ، قد تغير « سو » من اهتمامها المتحفظ من نحوه . وبعض الرجال فى موقف كهذا سرعان ما يضربون بوساوسهم عرض الحائط ويقدمون على مثل هذا العمل متناسين شيئين أحدهما تصريح «سو» بشأن مشاعرها الحيادية وثانيهما التسجيلين الخطيين المحفوظين داخل خزانة الكنيسة الواقعة فى الناحية التى تعيش فيها « أرابيلا » . أما «جود» فلم يأت عملا كهذا والواقع انه جاء ليخبرها عن فاجعة حياته . كانت القصة على طرف لسانه ومع ذلك ففى لحظة هذا الشقاء لم يقو على البوح بها بل فضل أن يظل محتفظا بالحوائل المعترف بها والقائمة بينهما .

وقال فى حزن : « طبعا أعرف أنك لاتهتمين بى أى اهتمام خاص . بل ينبغى ألا تهتمى بى وأنت على حق فى ذلك . إنك تخصين السيد « فيلوتسون » ! وأظن أنه زارك أخيرا ؟ » .

وقالت فى إيجاز وقد تغير وجهها : نعم وإن كنت لم أطلب منه المجىء . طبعا أنت مسرور لذلك ولكننى ان أهتم لو أنه انقطع عن المجىء » .

وكان من الأمور المحيرة لجود ، وهو العاشق الولهان ، أن تضطرب محبوبته لاستسلامه البرىء لمنافسه ، وفى نفس الوقت تستهجن منه أن يكشف لها عن شعوره بحبها . وانتقل من ذلك إلى شىء آخر .

— « أيتها العزيزة « سو » ستمر هـذه الأزمة سراعا . إن المهيمنين على دار المعلمات ليسو هم العـــالم بأجمعه وفى مقدرك بكل تأكيد أن تلتحق بأى معهد آخر .

وقالت فى حزم : « سأطلب مشورة السيد فيلوتسون » .

وعادت من الكنيسة تلك السيدة الرحيمة التى استضافت « سو » فى منزلها وعندئذ انصرم حبل الحديث العاطفى . وعند الأصـــيل رحل « جود » وقد

امتلأت نفسه بتعاسة لاسبيل معها إلى رجاء . غير أنه رأى محبوبته وجلس معها وتحدث إليها . واتصال كهذا يمكن أن يمنحه الرضا الكامل بقية حياته أما تنازله عن حقوقه العاطفية فيها فكان درسا هاما وضروريا لمن كان قسيسا ناشئا وكان عليه أن يتعلمه .

وفى اليوم التالى عندما استيقظ من نومه شعر بالحنق عليها وقرر أنها غير محقة ، بل إنها متقلبة . وعقب ذلك مباشرة وصله منها خطاب جاءه فى حينه كمثل على نزعتها التفكيرية التى بدأ يتبين معالمها فى شخصيتها . أما الخطاب فلا بد أنها كتبته بمجرد رحيله عنها :

« إغفرلى سورة الغضب التى تملكتنى بالأمس ! كنت بالنسبة إليك شيئا غاية فى القبح . أعرف ذلك وأنا لهذا أحس بتعاسة شاملة . وكان كريما منك ألا تغضب ! .. أتوسل إليك أن تظل على صداقتك لى برغم أخطائى ونقائصى وإنى أعدك وعدا صادقا أن أعمل على تعديل سلوكى .

انى قادمة إلى « ملشستر » يوم السبت كى أستعيد حوائجى من دار المعلمات وفى استطاعتى أن أقضى معك نصف ساعة ، لو رغبت فى ذلك .

(صديقتك النادمة على مابدر منها)

أما « جود » فقد صفح عنها فى الحال وطلب منها عندما تأتى أن تمر عليه . حيث يعمل فى إصلاح أبنية الكاتدرائية .

(٦)

فى غضون ذلك ، كان رجل فى أوسط العمر يحلم حلما رائع الجمال يدور حول كاتبة الخطاب السابق . إنه « رتشارد فيلوتسون » معلم القرية الذى انتقل حديثا من المدرســـة الصغيرة المشتركة فى « لمسدون » القريبة من « كريستيمينيستر » إلى مدرسة للصبيان أكبر منها فى « شاستون » مسقط رأسه وتقع فوق تل يبعد

من « كرايستمينيستر » ستين ميلا إلى الجنوب الغربى مباشرة .

وبجرد النظرة العابرة إلى المكان وما يحويه من أدوات تكفى للدلالة على أن مشروعات المعلم واحلامه التى طالما استهوته بسحرها ، زالت وحل مكانها غيرها لا تمت بصلة للكنيسة أو الأدب . وبالرغم من أن المعلم كان يميل فى صميمه إلى البعد عن الواقع ، وأنه اتجه الآن إلى كسب المال وادخاره لغرض عملى هو البناء بزوجة قد تدير - لو ارادت - إحدى مدارس البنات القريبة من مدرسته ولمثل هذا الغرض تقدم «لسو» ناصحا إياها بالإلتحاق بالتدريب العملى ولاسيما أنها ما كانت لتتزوجه فى عجلة

وحوالى الزمن الذى انتقل فيه «جود» من «ميريجرين» إلى «ميلشستر» حيث اندفع مع « سو » فى مغامرات ، كان المعلم فى « شاستون » يستقر فى الدار الجديدة لمدرسته . وبعد أن فرغ من تنظيم الأثاث ووضع الكتب فوق الرفوف ، ودق المسامير ، بدأ يجلس فى غرفته فى ليالى الشتاء المظلمة ويحاول استئناف دراساته القديمة التى تضمن فرع منها دراسة الآثار الرومانية البريطانية . وأنها لدراسة لاجدوى منها لمعلم بالمدارس الإبتدائية ، وان كانت تحوى مادة تلذ فيلوتسون دراستها باعتبارها معينا المعرفة لم يستغل بعد ، وخاصة بعد انصرافه عن مشروعه لاستكمال دراسته الجامعية ، وباعتبارها أيضا موضوعا عمليا مناسبا لأولئك الذين عاشوا حياتهم ، وهو منهم ، فى مناطق منعزلة تكثر فيها هذه الآثار التى تكشف عن الأفكار السائدة عن مدنية ذلك العهد .

كان استئناف الدراسة فى الوقت الحاضر المظهر الخارجى الواضح لهواية « فيلوتسون » - والسبب الظاهرى لخروجه وحيدا إلى الحقول حيث تكثر السدود والخزانات والمصاطب ، كما كانت الداعى إلى سجن نفسه فى البيت مع عدد من الأوعية الفخارية والألواح القرميدية ، بدلا من التردد على منازل جيرانه الجدد الذين كثيرا ما أظهروا رغبتهم فى مصادقته . ولكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقى أو كل السبب ، على أى حال . وهكذا حدث فى أمسية من الشهر

عندما تقدم الوقت كثيرا ـ إلى مايقرب من منتصف الليل على أقل تقدير ـ كان مصباح يشع ضوءا من نافذته ويرسله على زاوية حادة مع قمة التل ناشراً إياه على مساحة واسعة من أرض الوادى الواقع إلى الغرب ، معلنا كما لو كان كلاما عن أن الشخص المنهمك فى الدراسة فى ذلك المكان لم يكن كذلك تماما .

وكانت الغرفة بما تحويه من كتب وأثاث ومعاطف وجلسة المعلم إلى المائدة ، وحتى ومضات النار فى المدفأة ، تعلن نفس القصة النبيلة التى تدور حول الدراسة الدائبة المتصلة وهى تشرف كثيرا شخصا يخلو من مزايا تفوق ما كونها بجهده ، ومع ذلك ، فتلك القصة التى ظلت حقيقية حتى وقت قريب ، لم تعد كذلك الآن . فما كان ينظر إليه باهتمام لم يكن تاريخا بل كان مذكرات تاريخية مكتوبة بخط نسائى جرىء وسبق أن أملاها قبل الآن ببضعة أشهر وهو الآن منهمك فى قراءتها ومراجعة كتابتها كلمة كلمة .

فمن أحد الأدراج تناول لفافة محزومة فى عناية زائدة وتحوى عددا من الخطابات يعد صغيرا لو قورن بما يكتبه الناس الآن . كان كل منها داخل مظروفه الذى جاءت فيه والكتابة عليه تحوى نفس الحروف النسائية التى كتبت بها المذكرات التاريخية . وتناول المظاريف واحداً بعد الآخر وقرأ ما بداخلها فى استغراق شديد . وللوهلة الأولى بدا كأن تلك الوثائق الصغيرة لا تتضمن شيئا خليقا بكل ذلك الإهتمام فكلها خطابات بسيطة صريحة ينتهى كل منهـــا بتوقيع « سو » . . . وإنها لخطابات قريبة الشبه بتلك التى يكتبها الناس من حين إلى آخر ويتوقعون لها أن تمزق عقب قراءتها مباشرة . الجزء الأكبر فى كل منها يدور حول قراءة الكتب وغيرها من أنواع النشاط الثقافى الذى يدور داخل جدران دار من دور المعلمات ، وهى معلومات سرعان ماينساها كاتبها بمجرد انتهاء اليوم الذى كتبت فيه . وفى إحدى هذه الرسائل ـ وكانت تحمل تاريخا قريبا ـ ذكرت كاتبته أنها تسلمت خطابا رقيقا منه أشارت فيه إلى نبل أخلاقه إذ قال إنه ان ايذهب لرؤيتها أكثر مما ترغب فى ذلك ... (فلم تكن دار المعلمات بالمكان الذى يجد فيه الزائر ترحيبا) ، وبذا حقق رغبتها العميقة فى ألا يذاع خبر خطبتها وهو أمر

لابد أن يحدث لو تكررت زياراته لها . وظل المعلم يطيل النظر إلى تلك الفقرات ويسأل نفسه أى أثر من آثار الرضا يمكن أن يستخلصه من عبارات الشكر والجل الدالة على عرفان الجميل التى تتشدق بها إحدى النساء بينما هى لا تسمح لحبيبها بالمجىء لرؤيتها ! ؟ لقد شغلته المشكلة كثيرا .

وفتح درجا آخر فوجد فيه مظروفا أخرج منه صورة « لسو » وهى مازالت بعد طفلة ، قبل معرفته لها بزمن طويل ، وكانت تقف تحت تكعيبة وفى يدها سلة صغيرة . ثم أخرج صورة أخرى لها وهى شابة وشعرها الناعم وعيناها السوداوان تؤلف صورة غاية فى الجمال وتفصح أيضا عما يكمن وراء مظهر الخفة البادى عليها من عقل راجح . وكانت الصورة نسخة أخرى من تلك التى أهدتها « لجود » يمكن أن تهديها إلى أى إنسان آخر . وقرب « فيلوتسون » الصورة من شفتيه ولكنه سرعان ما أبعدها عنهما عندما برزت أمام عينيه الفقرات المحيرة التى قرأها فى خطابها . غير أنه فى النهاية أخذ يقبل الصورة فى حرارة وقوة تذرى بعاطفة شاب فى الثامنة عشرة من عمره .

كان وجه المعلم ينم عن ضعف صحى وتخلف واضح عن روح العصر زادت منه طريقته فى حلاقة ذقنه وتهذيب لحيته . وكانت تبدو عليه آثار خفيفة لرقة وروئة توحى برغبة عميقة فى عمل الخير وسلوك الصراط المستقيم . وحديثه يميل إلى البطء ولكن نبرات صوته تكشفت عن براءة تنأى بالبطء عن مظنة العيوب . أما شعره الذى وخطه الشيب فى كل انحائه فكان مجعدا ينبثق منه البياض من نقطة تقع فى مركز الرأس . وكان من عادته عندما يعكف على القراءة ليلا أن يضع فوق عينيه عوينات . أما زهده فى النساء فرجعه إلى انهماكه فى الدراسة وليس كراهيته لهن ، وحال هذا الإنهماك دون أن يبنى بواحدة منهن .

بمثل تلك الاجراءات الصامتة تكرر حدوثها كثيرا فى عديد المرات عندما يكون فى منأى عن أنظار تلاميذه الصغار الذين كثيرا ما تصبح نظراتهم الخاطفة النفاذة شديدة الوطأة على المعلم الشديد الإحساس بذاته أثناء اهتمامه المحموم الراهن

«بسو» مما جعله فى ساعات النهار الأولى يرهب أن يقابل من جديد النظرات الثاقبة خشية أن يقرأوا سر الحلم فى نفسه .

وبكل شهامة نزل على ما أبدته «سو» من رغبة فى ألا يزورها فى دار المعلمات ولكنه عندما وجد أخيرا أن صبره أوشك على النفاد خرج فى أصيل أحد أيام السبت كى يفاجئها بالزيارة ، وهناك نزل عليه خبر رحيلها عن دار المعلمات نزول الصاعقة ـ وهو إجراء فسر بأنها طردت منها ـ وعندما عاد تعذرت عليه رؤية الطريق أمامه .

والواقع أن «سو» لم تكتب لخطيبها سطرا فى الموضوع بالرغم من أنه كان قد مضى عليه أربعة عشر يوما . ودله تفكير قصير على أن أمراً كهذا لايثبت شيئا بل إن حرجا طبيعيا يمكن ان يكون سببا مناسبا لصمتها إزاء موضوع كهذا فلا ملامة هناك .

وفى دار المعلمات أخبروه بالمكان الذى كانت تعيش فيه . ولما كان لايخامره الشك فى تصرفاتها ، اتجهت أفكاره ناحية أخرى هى ناحية الهيئة المشرفة على دار المعلمات فحنق على تلك الهيئة حنقا شديدا . وفى حيرته دخل «فيلوتسون» الكاتدرائية الملاصـــقة ، وكانت فى تلك اللحظة فى حالة فوضى شاملة بسبب الإصلاحات وجلس فوق قطعة كبيرة من الحجر الهش دون اعتبار لما قد يعلق بملابسه من تراب بينما عيناه الزائغتان تتبعان حركات العمال وسرعان ما أدرك أن المذنب ذائع الصيت «جود» عشيق «سو» من بين هؤلاء .

لم يكن «جود» قد تحدث إلى بطل طفولته منذ أن تقابلا بجوار نموذج أورشليم . ولما كان قد أطلع على غير قصد منه على محاولة المعلم ، فى الطريق الضيق للتودد إلى «سو» ، نمت فى نفسه كراهية عجيبة للتفكير فى شخص المعلم أو الإلتقاء به أو الإتصال به على أى صورة من الصور . ومنذ أن نجح «فيلوتسون» فى أن يجعل «سو» تعده ، وهذا أضعف الإيمان ، بالزواج منه ، ومنذ أن عرف «جود» بأمر هذا الوعد ، أدرك فيما بينه وبين نفسه انه لايرغب فى رؤية المعلم أو الإستماع

إليه أو الإطلاع على ما يعده لمستقبله من خطط ، أو حتى بمجرد التفكير فى الصفات الممتازة التى تتميز بها شخصيته . وفى نفس يوم زيارة المعلم كان «جود» يتوقع مجىء «سو» كما سبق أن وعدت . على هذا عندما وقع نظره على «فيلوتسون» وهو جالس على صخرة داخل الكنيسة ولمحه وهو يتقدم نحوه ليتحدث إليه ، أحس بشىء غير قليل من الإضطراب الذى لم يلحظه «فيلوتسون» نظرا لما أصيب به هو الآخر من ارتباك .

والتقى الإثنان ثم انسحبا من أمام العمال متجهين إلى البقعة التى سبق أن جلس فيها «فيلوتسون» ، وقدم «جود» للمعلم قطعة من قماش سميك بعد أن نصحه ألا يجلس على الصخرة مباشرة .

قال «فيلوتسون» وهو يلقى بجسده على الصخرة وعيناه مستقرتان على الأرض فى ذهول كما لو كان يحاول أن يتذكر أين هو : «نعم . نعم . لن أبقيك معى وقتاً طويلا ، كل ما فى الأمر أننى سمعت أنك شاهدت أخيراً صديقتى «سو» الصغيرة فخطر لى أن أتحدث إليك فى هذا الشأن . أود فقط أن أسأل عنها» .

قال جود فى عجلة : «أظن أننى أعرف ما تريد ! أنت تسأل عن هربها من دار المعلمات وعن التجائها إلى ؟» .

— «نعم» .

— «حسن» .

وأحس جود لفترة برغبة شديدة تتعارض وكل مبدأ شريف فى أن يدمر منافسه بأى ثمن . وعن طريق تقمصه لروح الخديعة والشر التى يلدها ، فى قلب أكثر الناس تمسكا بالفضيلة ، الحب للمرأة ذاتها التى يحبها الشخص الآخر ، يستطيع «جود» أن يلحق بفيلوتسون من ألوان العذاب والهزيمة الشىء الكثير ، لو أنه فقط قال إن الفضيحة حقيقية وإن «سو» سارت معه شوطا بعيدا يصعب عليها بعده أن تكر راجعة . ولكنه لم يستجب أبدا لهذا الدافع الغريزى ولم يزد عن أن قال : «يسرنى ما بدا منك من عطف دفعك إلى أن تأتى إلىّ متحدثا

فى صراحة عن هذا الأمر . أنت عليم بما يتقول الناس به . يقولون إنه ينبغى لى أن أتزوجها . »

— « ماذا ! »

— « وانى لأرغب فى ذلك بكل جوارحى ! » .

وارتجف « فيلوتسون » واكتسبت خطوط وجهه الأصفر صرامة كتلك التى ترتسم على وجوه الموتى وقال : « لم يخطر ببالى أن الأمر على هذه الصورة ! يا ألله ، لا تقل هـذا ! »

قال « جود » مرتاعا : « لا ـ لا ! ظننت أنك فهمت ما قصدت اليه . قصدت أننى لو كنت فى موقف يسمح لى بأن أتزوجها ـ هى أو أية امرأة أخرى ـ ثم أعيش حياة مستقرة بدلا من الحياة القلقة التى أعيشها الآن ، فان ذلك لا بد أن يدخل السعادة على نفسى » .

وكل ما قصده فى الحقيقة هو أنه بكل بساطة يحبها .

قال « فيلوتسون » فى حزم من يفضل مجابهة الموقف بكل ثقله على معاناة ما تأتى به الأيام من آلام التوقع الطويل المرير « ولـكن طالما أن هـذا الموضوع المؤلم أثير قل لى بربك ماذا حدث ؟ ثمة حالات ـ وهذه منها ـ لا بد أن تثار فيها بعض الأسئلة المحرجة حتى يمـكن التغلب على الشكوك والإدعاءات الكاذبة . وحتى يمكن القضاء على عناصر الفضيحة » .

وهنا شرع جود يفسر ماحدث ويسرد الحوادث التى وقعت لها وما صحبها من مغامرات ، ومنها الليلة التى أمضياها سويا فى كوخ الراعى ، واستقباله لها فى غرفته وقد غمر البلل جسدها ، وتوعكها بسبب سيرها فى ماء النهر فترة طويلة ، والمناقشات التى تبعت ذلك ، ثم وداعه لها فى الصباح التالى . وعندما فرغ من حديثه قال «فيلوتسون» : « حسن الآن وانى أصدقك القول فى كل شىء كما أوافق على ما تقرره من أن الشكوك التى أدت إلى ابتعادها عن دار المعلمات لا تقوم على أساس » .

قال « حود » فى لهجة قاطعة : « والأمر كما ذكرت تماما وأشهد الله على ذلك ! »

ونهض المعلم وكان كل منهما يحس بأن موضوع المقابلة لا يمكن أن يؤدى بهما إلى الدخول فى حديث آخر يتسم بالود والصداقة ويتناولان فيه ماوقع لهما أخيرا من أحداث الحياة ، كما يفعل الأصدقاء عندما يلتقون . وبعد أن صحبه « جود » إلى داخل الكاتدرائية القديمة ليريه عينات من الإصلاحات الجارية فيها ، ودع « فيلوتسون » رفيقه الشاب وتمنى له يوما طيبا ثم رحل .

وكانت هذه الزيارة حوالى الحادية عشرة صباحا ولكن «سو» لم تأت . وعندما ذهب جود للغداء فى الواحدة بعد الظهر رأى معبودته تقطع الطريق الخارج من منطقة « نورثجيت » وتسير كما لو كانت لا تنوى البحث عنه . وبعد أن لحق بها مسرعا قال لها إنه سبق أن دعاها لزيارة الكاتدرائية التى يعمل فيها ووعدت بالمجىء .

— « ذهبت إلى دار المعلمات لأستعيد بعض الأشياء الخاصة بى هناك » كان من المتوقع أن يقبل هذا الكلام على اعتبار أنه رد على تساؤله وان لم يكن كذلك . ولما وجدها راغبة فى مراوغته والتخلص من الرد على أسئلته ود أن يخبرها بما ظل يخفيه عنها حتى هذه اللحظة . أخيراً استجمع أطراف شجاعته وقال : « ألم تقابلى السيد « فيلوتسون » اليوم ؟ » .

— « لا . لم أره . ولكننى لا أقبل أن يحقق إنسان معى بسببه ، ولو وجهت إلى أسئلة أخرى فى هذا الشأن فلن تحظى منى بأية إجابة » .

— « من الغريب أنك ـ » ثم توقف عن الحديث وهو يحدجها بنظرة .

— « ماذا ؟ »

— « إنك فى مجالسك لست بالرقة التى تتسمين بها فى خطاباتك ؟ »

قالت وهى تبتسم ابتسامة تنم عن الفضول الشديد : « أحقا أبدو لك هكذا ؟ يا للغرابة ! . ولكننى أشعر نحوك بنفس الشعور إذ بمجرد أن رحلت عقب تلاقينا أحسست بشىء من خيبة الأمل . . . »

ولما كانت تعرف حقيقة شعوره نحوها رأى أنهما بدآ يسيران على أرض خطرة وخيل إليه أن الوقت حان كى يتكلم كرجل شريف . غير أنه لم يتكلم ، واستمرت تقول : « هذا الشعور بخيبة الأمل هو ما جعلنى أكتب اليك قائلة إنى لا أعارض فى أن تحبنى لو كانت هذه رغبتك ! »

إن ما قد يحس به « جود » من سرور غامر لما يتضمنه هذا الكلام أو حتى ما يبدو أنه يتضمنه ، أضاع تأثيره فى نفسه ما اتجه اليه عزمه وقر عليه قراره . لقد ظل فى مكانه ساكنا إلى أن شرع يقول :

— « لم يسبق لى أن أخبرتك قط — »

وتمتمت تقول : « نعم لقد قلت . »

— « أقصد أنى لم يسبق لى أن أخبرتك بقصة حياتى الماضية — بكل تاريخى السابق . »

— « ولكننى أستطيع أن أقرر . إنى أعرف هذه القصة على وجه التقريب »

ورفع « جود » إليها وجهه وفى عينيه تساؤل : هل يمكن حقا أن تكون على علم بزواجه من أرابيلا ذلك الحديث الذى تم فى ذلك الصباح وترتب عليه أن حال دون زواجه من « سو » بشكل يفوق ما يمكن الموت أن يفعله ؟ لقد رأى فى عينيها أنها لا يمكن أن تكون على علم بذلك .

وطفق يقول فى لهجة حزينة : « لا أستطيع أن أتحدث إليك فى شأن كهذا ونحن هكذا فى الطريق العام ويجدر بك ألا تأتى معى إلى حيث أقيم ، وعلى ذلك لندخل إلى هذا المكان » .

كان البناء الذى وقفا أمامه سوق المدينة ، وهو المكان الوحيد الذى تيسر لهما دخوله وعلى ذلك دخلا وكان السوق انفض وخلت أفنيته من الناس ، كان يفضل أن يذهب معها إلى بقعة أكثر رقة ولكن ، كما يحدث عادة ، فبدلا من أن يتوجها إلى مرج شاعرى فى أحضان طبيعة باسمة أو إلى مكان تحفه مهابة الدين وقدسية

العبادة حيث يقص عليها قصته ، أخذها إلى سوق المدينة وأخذ يسرد عليها حكاية حياته وهما يسيران فيه ذهاباً وجيئة فوق أرض مغطاة بأوراق الكرنب التالفة وبين أكوام القاذورات المتخلفة من الخضروات المتعفنة والبقايا المتحللة . وبدأ قصته القصيرة وختمها عند نهاية معينة ألا وهى أنه تزوج قبل سنوات وأن زوجته ما زالت على قيد الحياة . وقبل أن تتضح الإنفعالات على وجهها أسرعت بالكلام قائلة : « ولم لم تخبرنى قبل الآن ؟ »

— « لم أقو على ذلك إذ كان من القسوة على نفسى أن أذكر هذه القصة » .

— « كان من القسوة على نفسك أن تذكر هذه القصة لذا فضلت أن تكون قاسياً على ولا تذكرها لى ! » .

وصاح يقول فى عنف : « كلا أيتها العزيزة الحبيبة » . وهم بتناول يدها ولكنها سحبتها من بين يديه ووضح لجأة كأنما مظاهر الثقة القديمة التى سادت بينهما تلاشت وانتهى أمرها وبقيت عداوة الجنس للجنس دون فرض من فروض التخفيف المبنى على التوازن النسبي . كانت قبل تلك اللحظة زميلته وصديقته ولم تعد كذلك الآن . وأخذت عيناها ترمقانه فى صمت غريب ، واستمر يقول : « عرانى الخجل من حياتى بسبب تلك الواقعة التى أدت إلى إتمام الزواج . لا أقوى على تفسير تلك الواقعة الآن بدقة وكان فى استطاعتى أن أفعل ذلك لو أنك نظرت إليها بطريقة أخرى .

واندفعت تقول وهى تضرب الأرض بقدمها فى حركة عصبية عنيفة : « ولكن كيف أستطيع ؟ هأنذا قلت أو كتبت ما معناه إننى أسمح لك بأن تحبنى ، أو شيئاً من هذا القبيل ! — وها قد بدا لى أن مسلكك من نحوى كان من قبيل العطف على . واحسرتاه لى ! » .

— « أنت تخطئين فهمى يا « سو » ! ما اعتقدت قط أننى أكون موضع اهتمامك وظللت كذلك إلى وقت قريب ، لذا قلت لنفسى لا يهم سواء أخبرتك

بهذه الواقعة أم لا ! وهل تحسين نحوى بشيء من الإهتمام يا « سو » ؟ أنت تعرفين ما ذا أقصد بذلك ! أنا لا أحب كلمة العطف هذه ! » .

وكان هذا سؤالا لم ترد أن تجيب عليه فى موقف كهذا .

ولكنها قالت فى لهجة متسائلة سريعة : « أعتقد أنها ـ زوجتك ـ لا بد أن تكون آية فى الجمال ، حتى لو كانت شريرة ! » .

ـــ « إنها جميلة بالدرجة المألوفة » .

ـــ « أجمل منى لا شك ! » .

ـــ « لستما متشابهين فى أقل القليل وما رأيتها قط منذ سنين عديدة ولكنها لا بد أن تعود يوما وإنهن يفعلن ذلك دائماً » .

وقالت وشفتاها المرتعشتان تكشفان ، مع صوتها المتحشرج ، عما فى نفسها من مرارة : « ما أغرب أن تظل بعيداً عنها هكذا ! أنت يا من تعد نفسك لخدمة الدين . كيف يمكن إذن للآلهة التى تتعبد فى محرابها ـ أقصد تلك الشخصيات الخرافية التى تسميها بالقديسين ـ أن تتشفع لك بعد ذلك ؟ والآن لو كنت أنا التى أقدمت على عمل كهذا لكان الأمر مختلفاً تماماً وغير ملفت للنظر إذ أنى على الأقل لا أعتبر الزواج من الأسرار المقدسة للكنيسة . إن نظرياتك ليست على درجة من التطور كتطبيقاتك ! » .

ـــ « سو . أنت لاذعة القول جارحة عندما تودين أن تكونى كذلك . أنت كفولتير تماماً ! ولكن لا مناص من أن تعامليني كما تهوين ! » .

وعندما رأت كم هو تعس خففت من حنقها عليه وقالت وفى صوتها كل التأنيب الذى يصدر عن امرأة جريحة القلب : « كان ينبغى أن تخبرنى قبل أن توحى إلى بالسماح لك بأن تحبنى ! لم أحس نحوك ، قبل تلك اللحظة التى كنا فيها سوياً فى محطة السكة الحديد ، سوى ـ » ولأول مرة أحست بالتعاسة ، شأنها فى

ذلك شأن « جود » وهى فى غمار محاولاتها كى تنأى بنفسها عن الإنفعالات وقلما كللت جهودها بالنجاح .

وأخذ يتوسل إليها ويقول : « لا تبكى أيتها العزيزة ! » .

— « أنا لا أبكى لأننى قصدت أن أحبك ، ولكننى أبكى لقلة ثقتك بى ! » .

ولما كانا داخل السوق مختفين تماماً عن أنظار المارة فى الخارج ، سمح لنفسه بأن يمد ذراعه كى يضمه حول خصرها وكانت هذه الحركة منه كفيلة بأن تعيدها إلى سابق عهدها فقالت وهى تتراجع فى سرعة وتمسح عينيها : « لا ، لا . طبعا لا . من النفاق الإدعاء أن هـــذه الحركة صادرة من قريب لقريبته ولا تعنى شيئاً اخر ! » .

وسارا فى طريقهما مسافة أخرى وبدا عليها أنها استرجعت رباطة جأشها . وكان قلبه لا بد أن يتوجع بدرجة أقل لو أنها بدت أمامه شخصاً آخر . لقد عرفها راجحة العقل واســـعة الأفق برغم ما يبدو منها أحياناً من انفعالات وشطحات نسوية مفاجئة لا بد منها لتدعيم مقومات الجنس عندها .

وقالت وهى تبتسم : « إنى لا ألومك على أمور بدرت منك دون قصد إذ ما أغبانى لو فعلت ! بل إنى ألومك هوناً لإخفائك الأمر عنى . على أى حال لا يهم ذلك كثيراً فالواجب أن يبتعد كل منا عن الآخر حتى لو خلت حياتك من ذلك الأمر » .

— « لا وما ينبغى لنا أن نفعل ذلك فهذه هى عقبتنا الوحيدة ! » .

قالت « سو » فى لهجة جادة ولكنها رقيقة فلم تكشف عما يجول فى خاطرها : « أنت تنسى أنه كان لا بد لى أن أحبك وأننى أردت أن أكون زوجتك حتى لو لم تكن هناك عقبة ، ثم أدركنا أننا أبناء عمومة واحدة ومن غير المعقول أن يتزاوج هؤلاء ثم إننى مخطوبة لشخص آخر . أما عن استمرار العلاقات بيننا ،

وهى علاقات تنمو فى جو من الود والصداقة ، فالناس من حولنا لا بد أن يحولوا دون استمرارها حيث أن آراءهم بشأن العلاقات بين الرجل والمرأة لا شك قاصرة كما يدل على ذلك حادث طردى من المدرسة . إن فلسفتهم لا تعترف إلا بالعلاقات القائمة على أساس من الرغبة الحيوانية . أما ميدان الإتصالات القوية العميقة ، وهو الميدان الوسيع الذى تلعب فيه الرغبات الحيوانيـة دوراً ثانوياً ـ ما اسم هذا الدور ؟ هل نسميه دور الزهراء . آلهة الملأ الأعلى ؟ إن الناس لا يقيمون لهذا الدور وزناً ! » .

ودلت قدرتها على الحديث المتزن المثقف على أنها أصبحت سيدة نفسها مرة أخرى . وقبل أن يفترقا استعادت نظرتها الدالة على الحيوية ، ونغمتها المتأرجحة بين قطبين ، وسلوكها الرائع ، ورقتها فى نقد الآخرين الذين هم من سنها وجنسها والعطف على نقائصهم ومواضع قصورهم .

وهنا أصبح « جود » قادرا على الحديث المنطلق فقال : « هناك أســـباب عديدة حالت دون إخبارك . أول هـذه الأسباب ما سبق أن قلت . أما ثانيها فهو ما كنت أعتقده دائما من أننى ينبغى ألا أتزوج لأننى سليل أسرة غريبة فى طباعها ، شاذة فى أطوارها ، وهذا النوع من الناس لا يصلح للزواج » .

— « آه ومن علمك ذلك ؟ » .

— « قريبة عجوز وكانت تقول إن زواج أفراد أسرة « فاولى » ينتهى دائماً نهاية محزنة » .

— « هذا عجيب . كان أبى دائماً يقول نفس الشىء ! » .

ووقف الإثنان وقد تسلطت عليهما نفس الفـكرة بكل قبحها حتى على اعتبار أنها شىء مضمر لا يرقى إلى مستوى الحقائق الملموسة . وحتى لو كان من الممكن أن ينشأ بينهما زواج فلا بد أن يعنى ذلك إحداث أمر غير لائق كما هو الحال عند ما نضع المر فى الحنظل ! .

وقالت فى خفة : « أوه . ولـكن ليس هـذا بالشىء الغريب . كان أفراد

أسرتينا فى الأعوام الأخيرة سيئى الحظ فى اختيار الأزواج والزوجات وهـذا كل ما فى الأمر » .

وبعد ذلك تظاهر الإثنان بأن كل ما حدث بينهما لا أهمية له ، وأنهما ما زالا قادرين على أن يتصرفا على اعتبار أنهما من أسرة واحدة وعلى أن يكونا صديقين حميمين ، وأنهما ما زالا قادرين على قضاء أوقات سعيدة جميلة عندما يلتقيان حتى لو قلت مرات لقائهما . لقد افترقا وهما على أتم ما يكون صداقة ، ومع ذلك كانت نظرته الأخيرة إلى عينيها مشبعة بالتساؤل إذ شعر أنه ، حتى تلك اللحظة ، لم يدرك طبيعة أفكارها .

(٧)

وبعد هذا بيوم أو يومين جاءت الأخبار عن « سـو » فعصفت به كأنها إعصارات .

وقبل أن يقرأ الخطاب الذى حوى تلك الأخبار ، توقع أنه من نوع جاد نوعا عندما وقع بصره على التوقيع فى أسفله وكان باسمها كاملا ، ولم يسبق لها أن استخدمته على هذه الصورة فى مراسلاتها إليه :

عزيزى « جود » :

لدى ما أخبرك به وقد لا يدهشك سماعه وإن كان بكل تأكيد سيصدمك باعتباره « خدمة سريعـة » (وذلك كما تقول شركات السكك الحديدية عن قطاراتها) . سأتزوج من السيد « فيلوتسون » وسيتم ذلك فى موعد قريب غايته ثلاثة أو أربعة أسابيع . كانت خطتنا كما تعلم الإنتظار حتى أنتهى من دراستى فى دار المعلمات وأحصل على درجتى العلمية وبذلك يمكننى أن أعاونه فى عمله لو استدعى الأمر ذلك . غير أنه أصبح يعتقد الآن أنه ما من فائدة ترجى من الإنتظار طالما أننى لم أعد ملتحقة بدار المعلمات . إنى شاكرة له هذا الصنيع إذ أن سوء موقفى نتج عن

خطئى فى أننى عرضت نفسى للطرد من تلك الدار . فـكر فى وتمنى لى السعادة ولا تنس ذلك أبدا ولا ترفضه ... ... !

قريبتك المحبة
« سوزانا فلورانسى مارى برايدهيد »

وانهار «جود» تحت وطأة الأخبار ولم يستطع أن يتناول فطوره وظل يشرب الشاى إذ كان فمه غاية فى الجفاف وأخيرا عاد إلى عمله وراح يباو الحياة كما يبلوها من هم فى مثل موقفه مطلقا ضحكات ساخرة مرة . لقد تحول كل شىء فى عينيه إلى سخرية لاذعة ومع ذلك ، ماذا كان فى وسع الفتاة المسكينة أن تفعل غير هذا ؟ أخذ يسأل نفسه هذا السؤال ولـكنه أحس أن البكاء أفضل .

وفى أثناء عمله كان يقول : « إنك ياسوزانا فلورانس مارى ! لاتدرين للزواج معنى ! » .

أيمـكن أن يـكون ماذكره خاصا بزواجه من « أرابيلا » هو الدافع لها على سلوك هذا المسلك ، كما كانت زيارته لها وهو مخمور الدافع لها على عقد خطوبتها ؟ بكل تأكـيد هناك تلك الأسباب العملية والإجتماعية التى أدت بها إلى اتخاذ هذا القرار . غير ان « سو » لم تـكن بالإنسان ذى الميول العملية الذى يقيم للحياة حسابا تفصيليا دقيقا لذا اضطر إلى الإعتقاد بأن شعورا خفيا استولى عليها عقب اطلاعها على سره ودفعها إلى الخضوع لمحاولات « فيلوتسون » للتقرب منها ، كما دفعها إلى الإعتقاد بأن أفضل طريق تتبعه للبرهنة على مدى مجانبة شـكوك إدارة المدرسة للحقيقـة هو أن تتزوجه دون تمهل باعتبار أن عملا كـهذا هو النهاية الطبيعية لخطوبة عادية . لقد كانت فى واقع الأمر فى مأزق صعب . يا «سو» المسكينة !

وصمم على أن يـكون شهما فيتغلب على ضعفه ويقف بجوارها ولـكنه لم يقو على الـكـتابة إليها متمنيا لها السعادة كطلبها وظل كـذلك يوما او يومين وفى نفس الوقت جاءه خطاب آخر من معبودته الصغيرة القلقة :

« جود »

هل تصحبنى إلى المذبح يوم زفافى؟ لا أعرف شخصا آخر يستطيع أن يفعل ذلك على الوجه الأكمل كما تستطيعه أنت حيث أنك الشخص الوحيد من أقربائى المتزوج فى هذه الناحية ، حتى لوكان والدى على علاقة طيبة معى بحيث يقبل القيام بهذا العمل ، وهو ليس كذلك . كل ما أرجوه ألا ترى فى هذا العمل ما يضايقك فتشت فى كتاب الصلاة عن قداس الزواج ويبدو أن الأمر يبعث على الشعور بالمذلة لضرورة وجود فرد من ألصق الناس بى كى يصحبنى إلى المذبح . ينص قداس الزواج ، كما جاء فى كتاب الصلاة ، على أن عرسى اختارنى بمحض إرادته ووفقا لرغبته ولكننى لا أختاره وعلى ذلك لابد من شخص يصحبنى ويسلمنى إليه كما لو كنت حمارة أو معزة أو أى حيوان مستأنس آخر . ايرحم الله آراءك المثلى عن المرأة أنت ابن الكنيسة ورجل الدين ! ولكننى نسيت فليس من حقى الآن ان اضجرك بدعابتى .

المحبة دائما

سوزان فلورانس مارى برايد هيد

واستجمع جود قواه مستلهما كل شجاعته وكتب يقول :

عزيزتى « سو » . . .

بكل تأكيد أتمنى لك السعادة ! وبكل تأكيد أيضا سوف أصحبك إلى المذبح فى يوم زفافك ، أود أن أقترح عليك اقتراحا . لما كنت بلا دار خاصة بك لايجوز أن تخرجى إلى عرسك من دار صديقك وخطيبك والأوفق أن يكون خروجك من دارى وهذا ما أعتقد أنه أمر ضرورى طالما أننى — كما تقولين — أقرب الناس إليك فى هذا الجزء من العالم . لا أفهم لم توقعين خطاباتك بهذه الطريقة الخالية من دفء الصداقة وهى طريقة جديدة على . أنا واثق من أنك مازالت تمنحيني بعض اهتمامك !

المحب لك دائما

« جود »

أما ماضايقه وأمضه أكثر من التوقيع فكان لدغة صغيرة أحس بها تؤلمه وظل صامتا حيالها ، ألا وهى الفقرة القائلة « الشخص المتزوج الوحيد من أقربائى» أى غرابة جملته هذه الفقرة يبدو فى عينى نفسه بادعائه أنه حبيبها ! لو ذكرت هذه الفقرة على سبيل المزاح لصعب عليه الصفح عنها . ولو ذكرتها وهى تعانى حقا من شدة ، فهذا إذن شىء آخر !

لابد أن يكون اقتراحه بشأن خروجها إلى عرسها من بيته صادف هوى فى قلب « فيلوتسون » إذ أنه أرسل إليـــه يشكره فى حرارة ويعلن قبوله للفكرة وكذلك فعلت « سو » . وفى الحال انتقل إلى مكان آخر أكثر لياقة وذلك لكى يتحاشى فضول صاحبة المنزل ، وكانت كثيرة الشكوك من جهته بقدر رغبته فى أن يحصل على مكان اكثر اتساعا ولائق بالمناسبة .

وكتبت تخبره بميعاد الزواج فقرر ، بعد الإتصال بها ، أن تأتى للإقامة عنده إبتداء من السبت التالى وهذا معناه أن يكون أمامها فسحة من الوقت تقدر بعشر ايام تقضيها فى المدينة قبل الحفل المرتقب .

وفى اليوم المذكور جاءت بقطار العاشرة ولم يذهب لمقابلتها فى المحطة نزولا على رغبتها حتى لايفقد بسببها عمل الصباح وأجره . هكذا قالت (لوكان ذلك هو السبب الحقيقى) ولكنه أصبح بطبيعتها خبيرا إلى حد أنه لو أشار إلى قابليتها للتأثر أثناء الأزمات العاطفية فقد يسىء ذلك إليها إساءة بالغة . وعندما عاد إلى البيت وقت الغداء كانت قد استقرت تماما فى الجزء الخاص بها من المنزل .

وفى نفس المنزل عاشت معه ولكن فى طابق آخر . وكان الإثنان يلتقيان قليلا على العشاء ، وهو الوجبة الوحيدة التى تناولاها سويا ، وكان سلوكها معه شبيها بسلوك طفل دائم الهلع . لم يكن يعرف شيئا عن شعورها فكان حديثهما آليا برغم أنها لم تكن تبدو متوعكة أو مريضة .

وكان « فيلوتسون » يأتى من حين إلى آخر ولكن حضوره على الأغلب فى

اثناء غياب « جود » . وفى اليوم المحدد للزواج منح «جود» نفسه إجازة وتناول مع قريبته فطوره تلك هى المرة الأولى والأخيرة وخلال تلك الفترة العجيبة التى فيها يتناول الطعام معها فى غرفته وكان قد استأجر ردهتها طول الفترة التى اقامتها فى بيته . وعندما رأت . كما هى عادة النساء مدى عجزه عن جعل المكان مريحا ، نهضت وتولت الأمر بنفسها .

وقالت فجأة : ماذا بك يا « جود » ؟ « وكان يتكىء بمرفقيه على المائدة وذقنه فوق يديه متطلعا بعينيه إلى بعيد كما لو انه ينظر إلى مستقبله مرسوما على نسيج المفرش أمامه .

— « أوه لاشىء ! » .

— « أنت اليوم أب . هكذا يسمون الرجل الذى يتولى تسليم العروس إلى عريسها » .

وكان فى مقدوره ان يقول . إن عمر « فيلوتسون » قد يؤهله لاحراز هذا اللقب ! « ولكنه آثر الا يضايقها بهذا الرد الرخيص .

وظلت تتحدث دون توقف كما لو أنها تخاف ان تتركه غارقا فى تفكيره . وقبل ان ينتهيا من تناول الطعام ندم كل منهما على أنه وضع ثقته فى النظرة الجديدة للأمور وودا لو أنهما تناولا طعامهما منفردين . ان ما عذبه وملأ جوانحه هو أنه بالرغم من ارتكابه للخطأ بزواجه يأتى الآن ليعاون المرأة التى يحبها على الوقوع فى الخطأ عينه ، وذلك بدلا من ان يحذرها من هذا الخطأ ويعاونها على أن تكون بمنأى عنه . كان على وشك ان يقول :

« وهل حقا قر قرارك ؟ » .

وبعد أن فرغا من تناول الطعام غادرا المنزل فى مهمة مشتركة وسارا سويا بفكرة أن تلك هى فرصتهما الأخيرة للاستمتاع بصداقتهما البريئة ، وبينما الإثنان يسيران فى الشارع الموحل ، أخذت بذراعه وكأنما اوحت بهذه الحركة الأقدار

الساخرة وطبيعة « سو » العجيبة وقدرتها على إثارة الشجون فى اللحظات الحرجة. لم يكن سبق لها القيام بمثل هذه الحركة قط . وعندما دلفا حول زاوية الطريق وجدا نفسيهما بجوار كنيسة رمادية ذات أبراج عالية وسقوف منحدرة وكانت كنيسة القديس توما . .

قال « جود » : هذه هى الكنيسة .

— « حيث تقام طقوس زواجى ؟ »

— نعم . .

واردفت تقول فى فضول : حتما ! كم أود أن أدخل وأرى المكان الذى لن يمض وقت طول حتى أسجد فيه إتماما لتلك الطقوس :

ومرة أخرى قال فى نفسه : « إنها لاتدرك معنى الزواج ! » .

وبدون معارضة من جانبه نزل على رغبتها ودخل الإثنان الكنيسة من بابها الغربى وكان الشخص الوحيد فى داخل البناء الموحش عجوز تقوم على أعمال التنظيف و « سو » مازالت تمسك بذراعه كما لوكانت تمسك بذراع شخص تهيم به حبا . كانت بالنسبة إليه هذا الصباح مخلوقا حبيبا حلوا حلاوة جارحة ، ولكن تفكيره فيما ينتظرها من عقاب لإقدامها على أمر لاتعتقد فيه ولا تقره خفف عليه تذكره لما فى قول الشاعر من ألم :

« لا أدرى من أين تأتى ضربات كتلك التى تهوى فوق هامات الرجال ، ولا أستطيع أن أمتحن صفات الانوثة فيك »

وأخذ الإثنان يسيران على مهل فى صمت مخترقين بهو الكنيسة ومتجهين إلى حاجز المذبح حيث وقفا أمامه فى صمت ثم استدارا عائدين وما زالت يدها حول ذراعه كأنهما زوجان ، زفا حديثا .

وكاد حضورهما إلى هذا المكان ، وهى المسئولة الوحيدة عن ذلك يؤدى إلى تحطيم نفس « جود » .

فقالت فى صوت رقيق النغمات كصوت ذلك الابيقورى فى لذته وفى لهجتها دليل قاطع على صدقها : إنى أحب أن أفعل أشياء شبيهة بتلك . قال « جود » : « أعرف ذلك فيك ! »

— « مثل هذه الأفعال تفرحنى لأنها قد تكون جديدة على . سأسير فى بهو الكنيسة وبجانبى زوجى . أليس كذلك ؟ »

— « لا شك أن ذلك سيحدث ! »

— « هل كان الأمر يختلف عن ذلك عندما تزوجت ؟ »

— « رحماك يا «سو» لا تكونى قاسية لهذا الحد - اصفحى عنى أيتها العزيزة، فما قصدت إيلامك . »

قالت فى حزن وتندت عيناها بالدموع : « آه ، هأنا أراك منفعلا ولقد وعدت ألا أضايقك قط . وأعتقد أنه ما كان ينبغى لى أن أطلب منك أن تأتى معى إلى هذا المكان . قطعا ما كان ينبغى لى أن أفعل ذلك . وضح الأمر لى الآن . إن رغبتى الملحة فى الجرى وراء المثيرات الجديدة كثيرا ما تقودنى إلى هذه المآزق . سامحنى وإنى لعلى ثقة من أنك ستفعل . أليس كذلك يا « جود » ؟ »

كان رجاؤها قويا حارا إلى درجة أن عينى « جود » فاض فيهما الدمع بينما كان يضغط على يدها علامة الموافقة .

— « والآن لنبتعد عن هذا المكان سريعا وإننى لن أعود إليه مرة أخرى ! » ثم خرجا من البناء ويممت بوجهها شطر المحطة حيث تلتقى بفيلوتسون ولكن أول شخص قابلاه عند بلوغهما الطريق الرئيسى كان المعلم نفسه حيث جاء قطاره أسرع مما توقعت « سو » . لم يكن ثمة ما يعترض عليه فى اتكاء «سو» على ذراع «جود» ولكنها سحبت يدها من ذراعه بسرعة وخيل إلى « جود » أن الدهشة بانت على وجه « فيلوتسون » . قالت وهى تبتسم فى براءة : « كنا نقوم بأعمال غاية فى الظرف والإمتاع ذهبنا إلى الكنيسة حيث قمنا بتجربة لاحتفال الزواج . أليس كذلك يا « جود » ؟ » .

قال « فيلوتسون » فى دهشة : « وكيف كان ذلك ؟ »

وندم « جود » فى قرارة نفسه على ما ظنه صراحة من جانبها لا لزوم لها . غير أنها سارت فى كلامها شوطا بعيدا بحيث أصبح لزاما عليها أن تفسر كل شيء وهذا ما فعلته بالتمام حيث أخبرته كيف سارت هى وهو فى بهو الكنيسة الداخلى حتى وصلا إلى المذبح .

وعندما رأى « جود » شعور الحيرة والاضطراب على وجه « فيلوتسون » قال محاولا أن يكون ظريفا مرحا : « سأشترى لها هدية أخرى صغيرة فهل لكما أن تأتيا معى إلى حيث نبتاعها ؟ »

قالت : لا . بل إنى عائدة إلى المنزل فى صحبة « فيلوتسون » .

وبعد أن طلبت من « جود » ألا يبقى خارج البيت طويلا رحلت مع « فيلوتسون » .

وسرعان ما لحق بهما « جود » . وبعد وقت قصير أخذ ثلاثتهم يعدون العدة لحفل الزواج فشرع « فيلوتسون » يمشط شعره تمشيطا قويا شاملا واهتم بياقة قميصه بحيث بدت صلبة . بل إنها بدت أصلب مما كانت فى السنوات العشرين الماضية . وفيما عدا ذلك بدت عليه المهابة وجلال الفكر وكل ماينبىء بأنه يحب « سو » حتى العبادة فكان ذلك واضحا ، ومن الواضح أيضا أنها تحس بعدم استحقاقها لكل ذلك الحب الكبير .

وعلى الرغم من أن المسافة بين البيت والكنيسة كانت غاية فى القصر فإن « فيلوتسون » استأجر عربة صغيرة ، وتجمع أمام البيت فريق من النساء والأطفال .

وكانت « سو » وعريسها مجهولين من النساء . أما « جود » فكان معروفا لبعض ممن ظنوا أن العروسين من أقربائه جاءا من مكان بعيد ولم يخطر ببال أحد أن « سو » كانت حتى وقت قريب طالبة بدار المعلمات .

وفى العربة أخرج « جود » من جيبه هدية الصغيرة التى سبق أن وعد « سو » بها وكانت قطعة من قماش التل الأبيض ألقاها فوق قبعتها فانسدلت على وجهها وجسدها كخمار رقيق .

قالت : « تبدو هذه الغلالة وهى فوق القبعة غاية فى عدم الانسجام لذا سأخلعها » .

— « أوه كلا . لاتخلعيها » . قال « فيلوتسون » ذلك فامتثلت لكلامه .

وعندما وصل الجميع إلى الكنيسة ووقفوا فى أماكنهم وجد « جود » أن الزيارة التى قامت بها « سو » فى صحبته قللت كثيرا من رهبة الموقف ولكن بعد أن كاد قداس الزواج يصل إلى منتصفه ود من كل قلبه لو أنه لم يقبل القيام بمهمة تسليمها إلى العريس . كيف جرؤت وطلبت منه فى تهور أن يقوم بذلك العمل رغم ماينطوى عليه من قسوة على نفسها وعليه كذلك ! فى مثل هذه الأمور يختلف النساء عن الرجال اختلافا بينا .

أتكون الحقيقة أنهما ، بدلا من أن يكونا أكثر حساسية كما شاع عنهما وذاع، كانا أكثر تبلدا فى الإحساس وأقل شعورا فى مثل هذا الموقف ! أو هل كان كل منهما شديد الرغبة فى الظهور بمظهر البطولة ؟

أو هل كانت « سو » بكل بساطة على درجة من الشذوذ النفسى بحيث استمرأت إيلام نفسها وإيلامه لمجرد إشباع لذتها فى ممارسة عادة قديمة لديها وهى تعذيب ذات نفسها ؟ و هل مست شغاف قلبها الشفقة عليه فعملت على دفعه إلى ممارسة مثل هذه العادة ؟ كان فى استطاعته أن يلحظ أن ملامح وجهها أصابها التوتر وعندما حانت اللحظة الحرجة ، لحظة قيامه بتسليمها إلى « فيلوتسون » لم تقو على السيطرة على نفسها . وقد يكون السبب فيما اعتراها من ضعف مفاجىء هو إدراكها لشعور قريبها الذى مادعته للاشتراك فى مناسبة كهذه إلا بوافع من تقدير ذاتها وقد يكون مما انتوته أن تظل هكذا فى غيها الهادف إلى تعذيب

غيرها مرة بعد مرة وإلى إثخان أجساد ضحاياها بالجراح مرة بعد أخرى كنتيجة حتمية لشذوذها وتمردها .

وبدا على « فيلوتسون » أنه لا يلحظ شيئا وكأنه محاط بغمامة تحول بينه وبين رؤية انفعالات الآخرين . وبمجرد أن تم التوقيع بالأسماء ، وأشرف الموقف الحرج على غايته ، أحس « جود » بالراحة تسرى فى مسارب نفسه .

أما الطعام فى بيته فانتهى بعد فترة وجيزة ، وفى الساعة الثانية خرج العروسان وعندما عبرا إفريز الشارع إلى حيث تقف العربة التفتت « سو » خلفها وشاعت فى عينيها ومضة تدل على الذعر . أيمكن أن يكون سبب ذلك ما أقدمت عليه من تصرف ينطوى على حماقة شاذة فى نوعها ولا تدرى هى إلى أى مدى ستقودها ؟ كل ذلك لمجرد تأكيد استقلالها عن شخصه بل الانتقام منه لعدم اطلاعها على سره؟ وقد تكون بطبيعتها محبة للمغامرات مع الرجال لأنها كانت على جهل كجهل الطفلة لذلك الجانب من طبيعتهم الذى تبلى فى سبيله قلوب النساء وحياتهن !

وعندما وضعت قدمها على سلم العربة استدارت وهى تقول إنها نسيت داخل المنزل شيئا . وتطوع كل من « جود » وصاحبة المنزل لإحضار ذلك الشىء ، غير أن « سو » قالت وهى تعود ركضا : « لا إنه منديلى وأعرف أين تركته » .

وتبعها « جود » إلا أنها عادت ممسكة به . وتطلعت فى عينيه بعينيها الممتلئتين بالدموع وفجأة انفرجت شفتاها كما لو أنها توشك على أن تجاهر بشىء . ولكنها سارت فى طريقها . ومهما كان ذلك الشىء الذى تنوى أن تقوله فقد بقى فى صدرها دون أن تتلفظ به .

(٨)

تساءل « جود » فى عجب هل نسيت منديلها حقا ؟ أو أنها راغبة فى التحدث إليه عن حب ولم تتمكن فى اللحظة الأخيرة من حمل نفسها على البوح به ؟

وبعد أن رحلا عنه لم يقو على البقاء فى بيته الذى أصبح يخيم عليه السكون .

ولما كان يخاف العودة إلى إغراق همومه فى الشراب ، صعد إلى أعلى المنزل واستبدل بملابسه الداكنة ملابس أخرى بيضاء وبحذائه الخفيف آخر ثقيلا وتوجه إلى عمله كالمعتاد ليمضى فيه النصف الباقى من النهار .

ولكنه فى الكاتدرائية خيل إليه أنه يسمع صوتا خلفه واستولت عليه فكرة أنها لابد عائدة . وأوحى له خياله أنها قد لاتذهب إلى بيت « فيلوتسون » وأخذ هذا الشعور ينمو فى نفسه ويتحرك . وبمجرد أن دقت الساعة معلنة نهاية عمله ألقى بأدواته واندفع راجعا إلى منزله يسأل . « هل جاء أحد يطلبنى؟ » .

ولم يكن هناك إنسان .

ولما كان من حقه أن يستخدم غرفة الجلوس أسفل الدار حتى الثانية عشرة من ذلك المساء ، ظل فيها طول المساء . وحتى عندما دقت الساعة دقاتها الإحدى عشرة وآوى أهل المنزل إلى فراشهم ، لم يستطع أن يبعد عن نفسه الشعور بأنها لا بد عائدة لتنام فى غرفتها الصغيرة الملاصقة لغرفته والتى سبق أن نامت فيها أياما عديدة . كانت تصرفاتها دائما من النوع الذى لا يمكن التنبؤ به فلم لا تأتى ؟ كان مستعدا عن طيب خاطر أن ينزع عن عقله فكرة أنها حبيبة قلبه وزوجة رجل آخر لو أنها فقط عادت إلى بيته لتعيش فيه كشريك فى السكن وصديق دون أدنى التزام من جانبها . وكان طعام عشائه ما زال فى مكانه على المائدة لم يمس ، وبعد أن خرج إلى الباب الأمامى وفتحه فى رفق عاد إلى مكانه حيث جلس كما كان يجلس حراس الليل فى قصة : « أمسيات منتصف الصيف » فى انتظار طيف المحبوب . ولكنها لم تأت .

وبعد أن تمادى فى هذا الأمل الغريب ، صعد إلى أعلى المنزل وأطل من النافذة وأخـــذ يرى بعين الخيال فتاته وهى فى رحلة المساء إلى لندن حيث تتجه مع « فيلوتسون » لقضاء إجازة قصيرة ، وأخذ يتصورهما سائرين فى تثاقل فى سدول الليل الرطيب ميممين شطر الفندق تحت نفس السماء التى يتطلع إليها الآن وامتدت فيها الغيوم . ويرى أجزاء من القمر دون أن يتبين شكله ، بينما نجمة أو نجمتان

فقط من النجوم الكبيرة ، ظهرت له كسحابة سديمية واهنة الكيان . وأخذ يتخيل بداية جديدة لحياة « سو » وذلك لأنه أطل بعقله على المستقبل فشاهدها وهى تقف وسط عدد من الأطفال الذين يشبهونها فى كل شىء . غير أن عزاء النظر إلى أولئك الأطفال وتأملهم باعتبار أنهم تخليد دائم لشخصها هى واستمرار أكيد لمقومات وجودها حرم عليه كما حرم على جميع الخالين من أمثاله الهائمين وراء المثل الأعلى وذلك بتدبير من الطبيعة التى لارد لأحكامها فقد حكمت ألا يكون الإنجاب من جانب واحد فقط ، رجل كان أو امرأة ، بل حتمت أن يكون تخليد الجنس عن طريق الامتزاج بين كائنين عضويين ، على ما فى ذلك من اعتداء على نقاوة العنصر الواحد متمثلا فى الكائن العضوى . قال : « لو ضاعت منى حبيبتى أوطواها الردى لسعيت إلى طفلها ـ طفلها هى وحدها ـ وبهذا ترتاح نفسى ! » وبعدها رأى ثانية فى مشقة ، كما رأى أخيرا فى تواتر متزايد احتقار الطبيعة لعواطف الإنسان الرقيقة وعدم اهتمامها بأمانيه وطموحه .

وظهر حبه العاتى لسو فى الصباح والأيام التالية وازداد وضوحا . لم يعد يتحمل نور مصابيح « ميلشستر » وكان ضوء الشمس كالطلاء الباهت وزرقة السماء كمعدن الزنك . ثم سمع أنباء عن قريبته العجوز فى حالة سيئة من المرض فى « ميريجرين » ، ومع هذه أنباء أخرى حملها إليه خطاب جاءه من رئيسه السابق فى « كرايستمينيستر » يعرض عليه وظيفة دائمة لو أنه عاد للعمل عنده . وكانت الخطابات بالنسبة إليه تفريجا لكربته . وذهب ليزور «دروزيللا» العجوز ومن هناك قرر أن يرحل إلى « كرايستمينيستر » ليتحقق بنفسه من الفائدة التى تعود عليه لو أنه قبل ما عرضه عليه مخدومه السابق هناك .

وجد عمته أسوأ بكثير مما أوضحه خطاب الأرملة «إلدن» وأدرك أن هناك احتمالا كبيرا ـ وإن لم يصل الأمر إلى درجة القطع ـ أن الضعف الذى تعانى منه سيظل عدة أسابيع بل شهور . وكتب إلى « سو » يخبرها بحالة العجوز ويسألها عما إذا كانت تود أن تراها قبل موتها واقترح عليها أن تهرع لمقابلته فى مساء اليوم التالى ، وكان يوم الإثنين ، عند طريق « الفردستون » أثناء عودته من

« كرايستمينيستر » وذلك لو تمكنت من اللحاق بالقطار الذى يلتقى بقطاره فى محطة « الفردستون » . وفى الصباح التالى ذهب إلى « كرايستمينيستر » وفقا للخطة معتزما مغادرتها إلى « الفردستون » بأسرع ما يستطيع حتى يلحق بمحبوبته .

وبدت له مدينة العلم فى هذه المرة غريبة إذ شعر كأنه أضاع كل الأحاسيس التى تربطه بها . ومع ذلك ، فبينما كانت الشمس ترسل أشعة نضرة وتنسج ظلالا فوق الإنشاءات الهندسية والأشكال الزخرفية التى تزين وجهات الأبنية وترسم صورا الأبراج ونماذج للقباب فوق النيل الأخضر الجديد النامى وسط مرابع الكليات ، خيل إليه أنه لم يسبق أن رأى المكان أجمل وأبهى مما كان عليه فى تلك اللحظة .

وذهب إلى المكان الذى وقع نظره فيه على « سو » لأول مرة فرأى نفس المقعد الذى سبق أن شاهدها وهى تجلس فيه مكبة على رسومها الكنسية ، وهاهو يرى بعين خياله يدها وهى تقبض على فرشاة التلوين وقوامها الذى استحوذ على انتباهه عندما رآها لأول مرة . وكان الفراغ يحتل مكانها الآن كأنما فارقت الحياة ولم يعد ثمة من يقوم مقامها فى ذلك العمل الفنى الدقيق . أما شبحها فأصبح الآن الشبح الوحيد فى المدينة كلها ، بينما أشباح رجال الفكر والدين التى أخذت مرة بجماع نفسه لم تعد قادرة على فرض وجودها الآن هناك .

ومهما يكن من أمر فها هو هناك . وتحقيقاً لما اعتزمه ، سار إلى مسكنه القديم فى « بيرشيبا » بالقرب من كنيسة « القديس سيلاس » المعروفة بطقوسها . أما العجوز صاحبة المنزل فبدا على وجهها السرور لرؤيته . وعندما أحضرت له شيئاً من الطعام ، حيث كان الوقت ظهراً ، أبلغته أن مقاول البناء الذى سبق أن استخدمه جاء يسأل عن عنوانه .

وتوجه إلى الساحة التى عمل فيها ولكنه سرعان ما شعر أن الحظائر والموائد والأدوات أصبح شكلها بغيضاً لديه وأحس باستحالة عودته إلى المكان الذى أصبح الآن يضم بقايا أحلامه الضائعة ، واشتاقت نفسه إلى اللحظة التى يستقل فيها القطار المتجه إلى « الفردستون » علّه يقابل « سو » .

وبعد ذلك ، ولمدة نصف ساعة مشئومة من العذاب والحزن خلفته فى نفسه تلك الآثار المؤلمة ، عاوده ذلك الشعور الذى أشقاه كثيراً والذى جعله يعتقد فى قرارة نفسه أنه لا يستحق ما يبذل فى سبيله من جهود تستهدف صالحه سواء صدرت عنه أو قام بها الآخرون . وفى أثناء نصف الساعة هـذه قابل « تيلر » السمكرى المفلس الذى اقترح عليه أن يذهبا معا إلى أحد المشارب العامة لاحتساء الشراب . وسار الاثنان فى الطريق إلى أن توقفا أمام مركز من أعظم مراكز « كرايستمينتستر » الخافقة بالحياة وهو الحان حيث سبق له أن قبل ما وجه إليه من تحد دفعه إلى أن يتلو قانون الإيمان باللاتينية . ذلك الحان أصبح الآن نزلا معروفاً له مدخل واسع جميـل يؤدى إلى مشرب جدد تجديداً شاملا وأعيد تأثيثه على طراز حديث منذ كان « جود » يسكن هذه المدينة .

واحتسى « تيلر » كأسه ورحل بعد أن قال إن المكان لم يعد يناسبه لفقدانه مسحة القدم التى كانت طابعه المميز . أما « جود » فلم يفرغ من كأسه بنفس السرعة بل وقف صامتاً ينظر حوله بعينين زائغتين وكان المكان حتى تلك اللحظة يكاد يخلو من الرواد . والجزء الخاص بتقديم الشراب انتزع من مكانه وأعيد تنظيمه من كل نواحيـه وحلت قطع الماهوجنى الجديدة المصقولة محل الأجزاء القديمة المغطاة بالطلاء الكئيب ، بينما رصت الأرائك المحشوة فى مؤخرة الفسحة التى كان يقف فيهـا زبائن المكان . وكانت القاعة العامة مقسمة بالطريقة التقليدية إلى مقصورات تفصـل الواحدة عن الأخرى حواجز زجاجية داخل إطارات من الماهوجنى المصقول حتى لا يتعرض الجالسون داخلها للخجل والارتباك عندما تأتى الصدف بالمعارف فتلتقى العيون بالعيون ، وفى داخل المقصورة المخصصة لتجهيز الشراب ، مالت فتاتان من بين المكلفات بالخدمة فوق مجمعات البيرة ذات المقابض البيضاء ، وفوق صف من الصنابير الفضية الصغيرة المثبتة داخل هـذه المجمعات ، وكانت الصنابير تسكب البيرة فى أوان من الفخار .

ولشعوره بالتعب ، ولخلوه من العمل حتى اللحظة التى يقوم فيها القطار ، جلس « جود » فوق إحدى الأرائك وأمامه المرايا ذات الأحرف المشطوفة وعلى

وجهتها رفوف زجاجية تستقر فوقها أنواع الشراب الثمينة ذات الأسماء المجهولة لديه . وكانت هـذه الأشربة فى قنان مصنوعة من الياقوت الأصفر والأزرق والأحمر ومن معدن الجامشيت . ودبت الحياة فى المشرب بدخول عدد من زبائن الحان وجلوسهم فى المقصورة القريبة منه ، مع ما أثار ذلك من صخب نتيجة لتبادل النقود وما صحب ذلك من صليل فى كل مرة توضع فيها قطع النقود فوق الموائد .

وكانت الفتاة القائمة على خدمة هذه المقصورة مختفية عن نظر «جود» على الرغم من أن المرآة خلفها تعكس صوراً كاملة لظهرها ، وكان يرى هذه الصور تتراءى له بين لحظة وأخرى .

كان ينظر إلى تلك الفتاة دون اكتراث عندما أدارت وجهها إلى المرآة لترتب شعرها وهنا استولى عليه العجب إذ اكتشف أن الوجه الذى أمامه إنما هو وجه «أرابيلا» .

ولو أن هذه أتت إلى مقصورته لرأته حتما ، ولكنها لم تأت حيث كانت الفتاة الأخرى هى المكلفة بالخدمة فى المكان الذى يجلس فيه . وكانت «أرابيلا» ترتدى ثوباً أسود محلى بأساور بيضاء وياقة واسعة من نفس اللون . أما قوامها فامتلأ كثيرا وساعد على إبراز معالمه ما تضعه على الناحية اليسرى من صدرها وهو باقة صغيرة من النرجس الجبلى . وفى المقصورة التى تقوم أرابيلا على خدمة روادها ينبوع مطلى بالفضة يقوم فوق مصباح مشتعل بالكحول ، ومن فوهته العليا يخرج لهبه الأزرق سحابة من البخار . وكان ذلك كله ظاهراً له فى المرآة المثبتة خلفها والتى عكست وجوه الرجال المكلفة بخدمتهم وكان أحدهم شابا أنيق المظهر ، خليع الحركات ومن المحتمل أنه من طلاب الجامعة . وكان هو يقص عليها إحدى الحوادث ومن الواضح أنها مضحكة .

صاحت فى مرح : «أوه يا سيد «كوكان» ما خطبك الليلة ! كيف تقص على مسامعي مثل هـذه القصة الذى تخدش حيائي ! يا سيد «كوكان» ما هـذا الذى

تستعمله لتجعل شاربك مجعداً على هذا النحو الجميل ؟ .. » ولما كان الشاب حليق الذقن والشارب أثار السؤال ضحكا عالياً راح الشاب ضحيته .

وقال الشاب : « إلى حالا . أعطيني كأساً من الكيراشو وكريتاً من فضلك ! » . وصبت له الشراب من إحدى الزجاجات الجميلة كما أشعلت عود ثقاب قربته من سيجارته وهي تنحنى أمامه في دلال بينما أخذ الشاب ينفخ دخانه في الهواء . قال : « والآن خبريني أيتها الجميلة هل جاءتك أخبار جديدة عن زوجك ؟ » .

قالت : « لا شيء ! » .

— « وأين يقيم ذلك الزوج ؟ » .

— « تركته في استراليا وأعتقد أنه ما زال هناك حتى الآن » .

واستدارت عينا « جود » واتسعت مقلتاهما .

— « وما الذى جعلك تنفصلين عنه ؟ » .

— « لا تسأل كثيرا وإياك أن تصدق ما يشاع عنى من أكاذيب » .

— « إلى الآن وناوليني بقية نقودى التى حبستها عنى وقتاً طويلا وبعد ذلك سأختفى في شوارع هذه المدينة العجيبة بطريقة لا تحسين بها » .

وناولته النقود من فوق الحاجز وعندما اقترب منها أمسك بأصابعها ونشب بين الاثنين صراع بسيط مصحوب بضحكات متكلفة وأخيراً حياها وغادر المكان .

وظل « جود » ينظر إلى ما يجرى أمامه بعين الفيلسوف المشدوه . كم بدت « أرابيلا » الآن بعيدة عن حياته بعداً عجيباً ! لم يستطع أن يدرك حقيقة ما بينهما الآن من علاقة لم يبق منها سوى الاسم فقط لذا ، في حالته النفسية الراهنة ، لم بعد يقيم وزناً للحقيقة الواقعة وهي أن « أرابيلا » زوجته .

وغادر الزبائن تلك المقصورة التى تقوم «أرابيلا» على خدمتها . وبعد تفكير

قصير دخل « جون » واتجه رأسا إلى منصة الخدمة ولأول وهلة لم تتعرف عليه « أرابيلا » وعندما تقابلت نظراتهما جفلت واضطربت إلى أن أسعفتها مسكة من روح الدعابة تجلت فى عينيها ودفعتها إلى الكلام .

— « هذا أنت ؟ . ليرحمنى الله ! ظننت أنك تعيش تحت الأرض ! . . »

— « أوه ! . . »

— « لم أسمع عنك شيئا ولم يخطر ببالى أننى سآتى يوما إلى هذا المكان ! على أى حال هذا لا يهم ! ماذا أقدم لك هذا المساء ؟ هل تشرب كأساً من الوسكى بالصودا ؟ هيا اطلب أى شيء فى المشرب وسأدفع عنك ثمنه من أجل صداقتنا القديمة » .

وقال دون أن يبتسم : « شكرا يا « أرابيلا » . ولكننى لا أود أن أشرب أكثر مما شربت » . والحقيقة أن ظهورها المفاجىء قضى بضربة واحدة على قابليته لتناول الخمر بأنواعها كما لو كانت « أرابيلا » دفعت به بعنف إلى أيام طفولته الأولى عندما كان شرابه الحليب فحسب .

— « هذا لسوء الحظ إذ فى مقدورك أن تطلب ما تريد دون أن تتكلف شيئا » .

— « كم مضى عليك من الوقت هنا . ؟ »

— « حوالى ستة أسابيع ولقد عدت من « سيدنى » منذ شهور ثلاثة . وأحببت دائما هذا النوع من العمل . . »

— « وما الذى أتى بك إلى هذا المكان ؟ »

— ظننت أنك قضيت نحبك وعندما وصلت إلى لندن قرأت إعلانا عن هذه الوظيفة . لم أتوقع أن يعرفنى إنسان هنا حتى لو أردت أن أذكر الناس بنفسى فما سبق أن جئت قط إلى « كرايستمينيستر . »

— « ولم عدت من استراليا ؟ »

— « لدى من الأسباب ما جعلنى أقرر العودة . خبرنى ألم تصبح حتى الآن قطباً من أقطاب الجامعة ؟ » .

— « لا » .

— « حتى ولا موظفا من موظفى الكنيسة ؟ »

— « لا »

— « حتى ولا مجرد منشق من دعاة التجديد فى الدين ؟ »

— « ما زلت كما كنت ! »

— « هذا حق ويبدو عليك ذلك . »

وتركت أصابعها تعبث بمقبض مجمع البيرة وهى تتفحص زوجها القديم بكل دقة . لقد لاحظ أن يديها أصفر وأكثر بياضا مما كانتا وهما يعيشان معا . ولاحظ أيضا أن بأحد أصابع اليد التى تجذب بها المقبض خاتما به حجر يبدو أنه عقيق حر . لقد كان الحجر موضع إعجاب الشبان الذين ارتادوا المشرب ، وهم على حق فى ذلك .

وطفق يقول . « هكذا تعيشين كما لو كنت متزوجة وزوجك على قيد الحياة ! »

— « نعم . كنت أظن أنه قد يكون فى الأمر ما يحرج لو قلت عن نفسى إننى أرملة كما كان ينبغى أن أفعل . »

— « هذا حق فأنا لست معروفا كثيراً فى هذه النواحى ! » .

— « ما قصدت ذلك إذ كما قلت لم أتوقع أن أراك . بل إنى فعلت ذلك لأسباب أخرى . »

— « وما هى هذه الأسباب ؟ »

قالت وهى تحاول التملص من الإجابة : « لا أحب أن أخوض فى ذلك الآن . إنى أكسب عيشى ولا أظن أننى فى حاجة إلى صحبتك . »

وهنا أقبل عليها شاب صغير حليق الذقن له شارب خفيف كأنه حاجب سيدة

وطلب شرابا من عناصر غريبة فذهبت إليه وعكفت على خدمته . وقالت وهى تميل على « جود » : « ليس فى مقدورنا أن نتحدث هنا : هلا انتظرتنى حتى التاسعة ؟ قل نعم ولا تكن أحمق ! فى استطاعتى لو أردت أن أنهى عملى قبل موعدى بساعتين . إنى لا أقيم بالبيت فى الوقت الحاضر » وأخذ يفكر وأخيرا قال فى حزن . « سأعود فمن الأفضل لنا أن نفعل شيئا . »

— « لا تشغل نفسك بشىء ! أما أنا فلست مستعدة لعمل أى شىء ! »

— ولكننى أحب أن أتحقق من أمر أو أمرين . وكما تقولين ليس فى مقدورنا أن نتحدث هنا . حسن للغاية سأمر عليك هنا . »

وبعد أن ترك كأسه وما زالت مترعة ، غادر الحان وأخذ يسير فى الطريق ذهابا وجيئة . يالها من صفعة قاسية من صفعات القدر تعكر صفو الهدوء المخيم على علاقته الحزينة « بسو ! »

وعلى الرغم من أن كلام « أرابيلا » كان مما لا يوثق به إطلاقا ، اعتقد باحتمال وجود شىء من الصدق فى ادعائها بأنها لم ترد إزعاجه وفى اعتقادها بأنه فارق الحياة . ومع ذلك فثمة موقف واحد فقط يمكن أن يقفه وهو موقف الصراحة والصدق فالقانون هو القانون وهذه المرأة التى لا يوجد بينها وبينه أى انسجام أو اتصال ما زالت فى نظر الكنيسة قطعة من نفسه .

ولما كانت مقابلة « جود » لأرابيلا فى المكان الذى اقترحته لا بد أن يترتب عليه عجزه عن اللحاق بسو فى « ألفردستون » ، كما سبق أن وعدها بذلك ، أخذ يحز فى نفسه ألم ممض كلما تذكر هذا الأمر . ولم يكن المأزق بالشىء الذى يمكن تحاشيه . ويكون ظهور « أرابيلا » الآن عقابا إلهيا له على انسياقه وراء حب غير مشروع . وبعد أن أمضى المساء فى انتظار ثقيل وتسكع فى طرقات المدينة لا ضابط له إلا الابتعاد عن مداخل الكليات ومجامع العلم حتى لا يقع نظره عليها ، عاد إلى الحان وكانت الدقة الواحدة بعد المائة — للساعة الكبيرة المثبتة داخل برج

كلية الكاردينال يدوى رنينها فى الأفق حوله ، على ما فى ذلك من سخرية موجعة له جاءته من حيث لايدرى . وكانت الحان الآن مضاءة فى كافة نواحيها بأضواء لامعة وأصبح المنظر كله أكثر بهجة إذ كانت وجوه فتيات الخدمة اكتسبت احمرارا حيث اكتست خدودهن بطبقة من الأصباغ الحمراء وكن أكثر نشاطا وأكثر تحررا وأشد إثارة للغرائز ويفصحن عن انفعالاتهن ونزواتهن فى جرأة ظاهرة ويضحكن ضحكات مستوهنة دون احتشام .

وكان المشرب فى ذلك الوقت يموج بأناس من كافة الطبقات وسمع وهو مازال بالخارج الدوى المكتوم الصادر عن أصواتهم ولكن عدد المترددين على المكان أخذ يقل تدريجيا فأومأ برأسه إلى « أرابيلا » لتدرك أنه بالخارج فتلقاه بمجرد خروجها .

قالت وكان مزاجها رائقا ونفسها راضية : « ولكنك يجب أن تشرب شيئا معى أولا . هذا ما أفعله دائما كل ليلة قبل أن آوى إلى فراشى وإنى أسمى ذلك مدثرة أتدثر بها قبل أن أستقبل النوم وينبغى أن تخرج قبلى وتنتظرنى لحظة فمن الأفضل ألا يرانا أحد ونحن نسير معا . وبعد هذا تناولت كأسين من البراندى . وهى وإن كان يبدو على وجهها أنها احتست قدراً كبيراً من الشراب ، سواء عن طريق الشراب أو استنشاقها للكحول فى أثناء الساعات الطويلة التى أمضتها فى جو الحان ، إلا أنها أتت على مافى الكأسين فى سرعة خاطفة . وشرب هو الآخر كأسه ثم غادر المكان .

وبعد لحظة لحقته وقد ارتدت معطفا سميكا ووضعت على رأسها قبعة لها ريشة سوداء وقالت وهى تمسك بذراعه : « أسكن قريبا من هنا ولدى مفتاح أستخدمه للدخول فى أى وقت . ماذا تود منى أن أفعل ؟ » .

ـــ « أوه لاشىء على التحديد » . هكذا أجابها وقد تملكه شعور ممض وأحس بقواه تخور واتجهت أفكاره إلى « الفردستون » مرة أخرى . لقد تذكر القطار الذى فاته وما يمكن أن تحس به « سو » من خيبة عندما تصل إلى هناك دون

أن تجده ، كما أحزنه التفكير فى ما أضاعه من متعة السير معها فى ضوء النجوم فى الطريق الطويل الخالى من المارة والمؤدى إلى أعلى التل والموصل إلى « ميريجرين » فاندفع يقول : « كان لا بد أن أعود إذ أخاف أن تكون عمتى على فراش الموت الآن » .

ـــ « سأذهب معك غدا صباحا وأظن أنه فى استطاعتى الحصول على إجازة »

وكان فى اقتراح « أرابيلا » غرابة إذ لم يكن لديها من العطف عليه أو على ذوى قرباه أكثر مما لدى وحش كاسر ، فما بالها الآن تريد الذهاب إلى فراش عمته المحتضرة ومقابلة « سو » وعلى الرغم من ذلك قال « جود » بكل تأكيد تستطيعين المجىء معى إن رغبت » .

ـــ « حسن . سنتدبر الأمر . إلى أن نتفق على إجراء ما ، ليس من المستحب أن يرانا الناس فى هذا المكان حيث يعرفك الجميع وحيث إبدأ القوم يعرفوننى وإن كان الشك لا يداخلهم أبدا فى وجود أية صلة بينى وبينك . ولما كان طريقنا فى اتجاه المحطة ، فإنى أقترح أن نأخذ قطار التاسعة والدقيقة الأربعين ، وهو المتجه إلى « ألدبريكهام » ، وسنصل بعد نصف ساعة على الأكثر وهناك نصبح فى مأمن من عيون الناس ونفعل ما يحلو لنا إلى أن نقرر إذا ما كنا سنعمان شيئا على الملأ أم لا » .

ـــ « افعلى ما تريدين » .

ـــ « إذن انتظرنى حتى أعود فهذا هو البيت الذى أسكن فيه . وفى بعض الأحايين ، عنـــد ما أتأخر فى الخارج ، أمضى الليلة حيث أعمل حتى لا يظن الناس بى الظنون عند ما يروننى عائدة فى ساعة متأخرة ! » .

وقفلت راجعة بأسرع ما تستطيع وسار الاثنان فى اتجاه المحطة حيث استقبلا القطار المتجه إلى « ألدبريكهام » فوصلاها بعد نصف ساعة وهناك دخلا حانا شعبياً رخيصاً يقع بالقرب من المحطة وكان وقت العشاء قد حل .

(٩)

وفى الصباح التالى ، بين التاسعة والعاشرة ، عادا إلى « كرايستمينيستر » وكانا المسافرين الوحيدين فى عربة الدرجة الثالثة . ولما كانت « أرابيلا » قد اغتسلت وتزينت على وجه السرعة - وكذلك فعل « جود » - حتى تتمكن من اللحاق بالقطار ، بدا على هندامها شىء من الإهمال كما كان وجهها أبعد ما يكون عن النضارة التى كانت طابعه المميز عند ما وقفت بالمشرب فى الليلة السابقة . وعند ما خرجا من المحطة ، وكان أمام « أرابيلا » نصف ساعة لتتسلم عملها فى المشرب ، سار الاثنان فى صمت وقطعا مسافة قصيرة خارج المدينة فى اتجاه « ألفردستون » . ورفع « جود » رأسه وأخذ ينظر إلى الطريق الممتد أمامه وهو يقول فى صوت خفيض « واحسرتاه لى ! » .

قالت : « ما ذا ؟ مم تشكو ؟ » .

- « إنه نفس الطريق الذى سلكته عند ما جئت إلى « كرايستمينيستر » منذ عامين و نفسى مترعة بالآمال الكبار ! » .

- على أى حال ومهما يكن من أمر الطريق فإن وقتى حان إذ لا بد أن أكون فى المشرب قبل الحادية عشرة وكما قلت لك ، لن أسألك عن اليوم الذى أصحبك فيه لرؤية قريبتك العجوز وعلى ذلك من الأفضل لنا أن نفترق هنا ولا أحب أن أسير معك فى هذا الشارع طالما أننا لم نصل فيما بيننا إلى اتفاق ! » .

- « هذا حسن للغاية ولكنك قلت هذا الصباح إن لديك ما تودين أن تبوحى لى به قبل أن نفترق » !

- « حقا لدى شيئان أود أن أخبرك بهما . أحدهما هام بوجه خاص ولا بد أن تعدنى بالاحتفاظ به على اعتبار أنه سر خطير . وأستطيع الآن أن أخبرك بهذا السر بمجرد أن تعدنى بذلك وإنى كامرأة أمينة أرغب فى أن تكون عليما به . إنه نفس الشىء الذى بدأت أقصه عليك فى الليلة الماضية وإنه عن ذلك السيد الذى

يدير الفندق فى مدينة «سيدنى» . وهنا أسرعت «أرابيلا» فى الكلام على غير عادتها وبخاصة وهى تقول «هل تحتفظ بالأمر سراً ؟» وقال وقد فارقه حلمه : «نعم . . . نعم . أعدك بذلك . طبعا أنا لا أرغب فى أن أذيع أسرارك على الناس» .

— «فى أثناء جولاتنا الخاوية كان يقول إنه معجب بجمالى وظل يلح على كى أقبل الزواج منه . ولم أكن أفكر قط فى العودة إلى انجلترا ثانية . ولما كنت وحيدة هناك فى استراليا ولا أسرة عندى وبخاصة بعد عودة والدى إلى انجلترا ، وافقت ثم نفذت ما وافقت عليه» .

— «ماذا ! وهل تزوجته ؟ . . .»

— «نعم» .

— وهل تزوجته زواجا قانونيا شرعيا فى الكنيسة ؟» .

— «نعم وعشت معه حتى قبل أن غادرت تلك البلاد بفترة قصيرة . كان هذا منى جهالة . أعرف ذلك ، ولكن هذا مافعلت . والآن هأنذا أخبرتك فلا تغضب . إن المسكين يكتب لى ذاكرا أنه ينوى المجىء إلى انجلترا ولن يعثر علىّ لو فعل .»

ووقف «جود» خافق القلب مشدوها .

قال : «ولم لم تخبرينى بذلك فى الليلة الماضية ؟»

— «لم أفعل . هلا صالحتنى إذن ؟»

— «وعلى ذلك ففى حديثك الذى دار بينك وبين زبائن المشرب عن زوجك كنت تعنينه طبعا ولم تكونى تعنينى أنا»

— «طبعا . طبعا . والآن هيا بنا ولا تثر مشكلة من لا شىء !»

قال : «ليس لدى ما أقول أكثر من ذلك ! ليس لدى ما أقول فى شأن الجريمة التى اقترفتها واعترفت بها .»

— « جريمة ! أف لك . إن القوم هناك لا يفكرون مطلقا على هذه الصورة وأناس كثيرون يفعلون هذا . على أى حال لو نظرت إلى المسألة بهذه الطريقة فلابد أن أعود إليه إذ كان مغرما بى غراما شديدا وعشت معه حياة كريمة وكنا كأى زوجين شريفين فى المستعمرة ! كيف كنت أعرف المكان الذى كنت فيه ؟ »

— « لن أزيد فى العتب عليك . فى استطاعتى أن أذكر لك أمورا عدة ولكننى لا أريد ، فهى فى غير موضعها . وماذا تريدين منى أن أفعل الآن ؟ » .

— « لا أريد منك شيئا ولكن شيئا واحداً فقط أردت أن أخبرك به . يخيل إلىّ أننا أمضينا الآن سويا وقتا طويلا ! سأفكر طويلا فى ما ذكرت بشأن ظروفك الراهنة وسأخبرك بالنتيجة » .

وهكذا افترقا . وظل يرمقها حتى اختفت فى اتجاه الفندق وبعد ذلك دخل محطة السكة الحديدية وكانت قريبة منه . ولما كان لابد من مرور ثلاثة أرباع الساعة حتى يستطيع أن يجد قطارا يعود به إلى « الفردستون » فإنه أخذ يتسكع فى طرقات المدينة على غير هدى حتى وجد نفسه فى ميدان « الفورويز » فوقف هناك حيث اعتاد أن يقف ويتأمل شارع « شيف » وهو يمتد أمامه بكلياته الجامعية الواحدة بعد الأخرى فى روعة لا تفوقها سوى روعة المناظر التى نشاهدها فى مدن القارة الأوربية ، كمناظر شارع القصور فى مدينة جنوه إذ كانت أشكال المبانى وأبعادها فى نسيم الصباح واضحة وضوح الرسم الهندسى . ولكنه كان أبعد ما يكون الآن عن رؤية هذه الأشياء أو الحكم عليها إذ أخفاها عن عينيه شعور تبقى معه من منتصف الليلة الماضية لا يمكن وصفه ، واتصاله بأرابيلا ، وهى معه حتى الفجر أضفى ذلك على وجهه الجامد مسحة تذكر الناظر إليه بهيئة من حقت عليه اللعنة . ليته استطاع فقط أن يحس نحوها شيئا من الحنق ! إذن لأصبح أقل تعاسة مما هو الآن . غير أنه كان يشفق عليها ويزدريها فى نفس الوقت .

واستدار وعاد من حيث أتى . وبينما هو يقترب من المحطة جفل عندما سمع اسمه يردد الصدى مقاطعه ومصدر اضطرابه الصوت لا الاسم . ولدهشته الكبيرة

وجد « سو » تقف أمامه كأنها الرؤيا . وكانت حزينة مضطربة كما لو كانت فى حلم وفمها الصغير يرتعش وعيناها الزائغتان تعبر عما يجول فى نفسها من عتب وتساؤل .

— « وافرحتاه ياجود ! يسعدنى أن أراك هكذا فى أحسن حال ! » قالت ذلك فى صوت مختلط النغمات إلى النحيب أقرب . ثم تورد وجهها عندما أدركت ما يجول فى نفسه من أنهما لم يتقابلا منذ زواجها » .

كان كل منهما يشيح بوجهه جانباً كى يخفى انفعاله عن الآخر ، كما تبادل كل منهما يد الآخر دون أن ينبس بكلمة . وسـارا معا فترة إلى أن رمقته بنظرة خاطفة فيها إشفاق وهى تقول : « وصلت إلى محطة « ألفردستون » الليلة الماضية بناء على رغبتك ولم أجد أحداً ينتظرنى هناك ولكننى توجهت إلى « ميريجرين » بمفردى وأخبرنى القوم هناك أن صحة العجوز أحسن قليلا . فأمضيت الليلة معها ولما لم تأت فزعت لغيابك . ظننت أنه من المحتمل، وقد وجدت نفسك فى المدينة القديمة مرة أخرى ، أنك أحسست بشىء من اليأس بسبب زواجى ، ولأنك لا تجد من تتحدث إليه ، وخيل إلى أنك حاولت أن تغرق أحزانك ! بنفس الطريقة التى أقدمت عليها فى الماضى عندما خاب أملك فى الالتحاق بالجامعة ناسياً وعدك لى بألا تعيد الكرة . خيل إلى أن هذا هو السبب فى أنك لم تأت حسب اتفاقنا ! »

— « لهذا السبب أتيت كملاك طيب لتخرجينى من الهوة التى ترديت فيها ولتخلصينى مما أنا فيه ! »

— « ظننت أن باستطاعتى المجىء بقطار الصباح لأحاول العثور عليك لكى ... لكى . »

— « إنى أفكر دائماً فيما وعدتك به أيتها العزيزة ! ان أسقط مرة ثانية كما سقطت فى الماضى !! كونى على ثقة من ذلك . قد أكون غير موفق فيما أقوم به من أعمال ولكننى لا أقدم على هـذا الذى تظنينه . أكره مجرد التفكير فى هذا الأمر » .

— « يسرنى أن يكون تأخرك عن المجىء لا صلة له بهذا ولكنك » . . . .
وهنا تغيرت نبرات صوتها تغيراً طفيفاً وقالت : « لم لم تأت لمقابلتى فى الليلة الماضية حسب وعدك لى . ؟ » . . .

— « أنا لم آت كما وعدت ويؤسفنى أن أقول ذلك . كنت على موعد فى التاسعة وكان الوقت متأخراً فلم أستطع اللحاق بالقطار الذى يوصلنى إلى حيث كنت ، كما لم أستطع أن أعود إلى البيت » .

وأخذ يتطلع فى شوق إلى محبوبته كما بدت ماثلة أمامه وكما تخيلها بعين خياله الرقيق أرق وأخلص صديقة فى حياته وأنها مخلوقة أثيرية الكيان تبدو روحها وهى تضطرب داخل ضلوعها فأحس بالخجل الشديد من نفسه لاسفافه أثناء الفترة التى قضاها فى صحبة « أرابيلا » . ومن القسوة الشديدة ، بل من الخروج على قواعد الأخلاق أن يحاول إقحام ما استجد من وقائع على عقل مخلوقة لا ككل المخلوقات صلابة ، بل تتسم بالرقة الشفافة وتبدو فى بعض الأحايين أبعد ما تكون عن أن تصبح زوجة لرجل متوسط الحال مثله . ومع ذلك كانت زوجة لفيلوتسون ! كيف أصبحت هكذا وكيف عاشت هكذا ! كل ذلك مر بخاطره وتحدى قوى التفكير عنده وهو يتأملها فى ذلك اليوم .

وقال لها وهو يتأملها : « وهل ستعودين معى ؟ هناك قطار يتحرك الآن . لا أدرى كيف حال العجوز ! إذن ياسو أتيت حقا بسببى وتجشمت مشاق الطريق من أجـــلى ؟ لا بد أنك ركبت مبكرة للغاية كى تتمكنى من الحضور ! يالك من مسكينة ! »

— « نعم فالسهر حتى مطالع الفجر والانتظار دون أنيس ملأنى قلقا عليك . وبدلا من أن أذهب إلى الفراش عندما أشرقت الشمس جئت إلى هنا . والآن أنا أطالبك بألا تعود إلى إخاقى هكذا مرة أخرى وألا تتلاقى على كيانك الخلق بلا داع » .

ولم يكن متأكدا تماما من أنها فزعت واستولى عليها القلق على كيانه الخلق بلا داع . ولم يقبض على يدها حتى دخلا القطار . كانت العربة التى دخلاها تبدو وكأنها نفس العربة التى غادرها منذ وقت قريب عندما كان يجلس فيها مع امرأة أخرى . ها هو الآن يجلس مع « سو » جنبا إلى جنب، وهى تحتل مكانها بجوار النافذة . وأخذ يرقب عن كثب دوائر جسدها وحدوده الرقيقة وتجاويفه المشدودة ويقارن بين كل ذلك وبين انتفاخات جسد « أرابيلا » . وأدركت « سو » أنه يتطلع إليها ويرمقها بعينيه إلا أنها لم تلتفت إليه بل ظلت تنظر أمامها كما لو كانت تخشى النظر فى عينيه لئلا تثير بذلك نقاشا قد يجلب عليها المتاعب .

إنك الآن يا « سو » متزوجة مثلى وأنت تعلمين ذلك ومع هذا فقد ساقتنا الحياة أمامها ولم تمنحنا الفرصة كى نتبادل كلمة واحدة فى هذا الشأن ! » قالت فى سرعة : ليس هناك ضرورة لذلك ! » .

ـــ « على أى حال قد تكون هناك ضرورة ولكننى أرغب فى أن . . . » .

ـــ « لا تتحدث عنى باجود . ليتك تقلع عن ذلك ! إنى حزينة لما حدث وأرجوك أن تغفر لى هذا القول ! أين قضيت الليلة الماضية ؟ » .

ألقت عليه السؤال فى براءة كاملة لتغير مجرى الحديث . وعرف ذلك وقال فى بساطة : فى « حان » (وإن كان يريحه كثيرا لو أخبرها بمقابلته لشخص لم يكن يتوقعه) . ولكن اعتراف « أرابيلا » بزواجها فى استراليا أوقعه فى حيرة خشية أن يكون ما يصدر عنه من كلام مسيئا لزوجته الجاهلة .

وسار الحديث بينهما ولكنه كان سقيما حتى وصلا إلى « الفردستون » وكلما أراد أن يتقرب منها ويتبادل وإياها الحديث باعتبارها أهم شخص لديه ، استبدت به فكرة أنها لم تعد كما كانت قبلا وأنها تلوذ بشخص آخر هو « فيلوتسون » ،

ومع ذلك خيل إليه أنها لم تتغير ولم يستطع أن يجد سببا لذلك . وبقيت أمامهما الأميال الخمسة ومن السهل عليهما أن يقطعاها سيرا على الأقدام أو بالسيارة حيث كان القسم الأكبر من الطريق يقطع التل من أسفله إلى أعلاه . ولم يسبق لجود قط أن قطعه فى صحبة « سو » وإن فعل ذلك فى صحبة امرأة أخرى . لقد أصبح فى هذه اللحظة كمن يحمل مصباحا تسببت أضواؤه القوية فى طرد الذكريات الضعيفة المتبقية من عهد سابق .

وتحدثت « سو » ولاحظ « جود » أنها مازالت تحرص على ألا يمس الحديث شخصها . أخيرا سألها عما إذا كان زوجها فى صحة جيدة . قالت : « نعم إنه كذلك . من المحتم أن يظل فى المدرسة طول اليوم وإلا لكان معى الآن . إنه غاية فى الطيبة وهو شديد العطف على إلى درجة أنه لو صحبنى فلا بد أن يصرف التلاميذ ويغلق المدرسة ولو كان فى ذلك مايتعارض مع مبادئه التى درج عليها إذ أنه لا يوافق بتاتا على الإجازات العارضة . وكل ماهناك أننى لا أدعه يصحبنى . وشعرت أنه من الأفضل لى أن آتى بمفردى . أعرف أن العجوز دروزيلا غريبة الأطوار . ولما كان « فيلوتسون » يكاد يكون غريبا بالنسبة لها فقد يسبب ذهابه حرجا لكل منهما . أما وقد اتضح لى أنها مازالت على شذوذها وغرابة أطوارها ، فإننى أشكر الله على أننى لم أطلب منه المجىء ! » .

وبينما كان هذا المديح يكال لفيلوتسون كان جود يسير فى الطريق مطأطىء الرأس وأخيرا قال : « يطيعك السيد « فيلوتسون » فى كل شىء وهذا ما يجب أن يفعله . »

— « بكل تأكيد ! » .

— « لابد أنك زوجة سعيدة » .

— « بالتأكيد وإنى لكذلك . »

— « كان ينبغى لى أن أقول عروساً بدلا من زوجة فلم يمض على زفافك سوى أسابيع قليلة وإنى . . . » .

— « نعم أعرف ذلك . أعرف ذلك . » وكان يبدو على وجهها ما يتنافى وصفة التأكيد التى نطقت بها هذه الكلمات التى خرجت من بين شفتيها قصيرة قاطعة خالية من الانفعال حتى لكأنها منقولة عن قائمة الأحاديث التقليدية التى جاءت فى كتاب دليل الزوجة إلى السلوك الحسن . كان « جود » يدرك سر كل ذبذبة من ذبذبات صوتها كما استطاع أن يقرأ كل سانحة من سوانح عقلها واقتنع أنها شقية وإن لم يمض على زواجها سوى شهر واحد . ثم ماذا عن اندفاعها الشديد هذا ومغادرتها لبيتها على هذه الصورة لرؤية قريب سبق أن تعرفت عليه ولم يمض على معرفتها له وقت طويل ؟ أليس لهذا الأمر دلالة فى طبيعة « سو » أن تأتى أفعالا كهذه ! » .

— « هذا حسن أيتها السيدة « فيلوتسون » . إنى أقدم إليك تمنياتى الطيبة الآن وفى كل وقت . »

ونظرت إليه نظرة عتاب .

وتمتم يقول : « لا . أنت لست بالسيدة « فيلوتسون » بل « سو بريد هيد » العزيزة الطليقة من كل قيد . ولكنك لا تدركين ذلك لحياة الزوجية لم تطوك بعد ولم تمتص جزئياتك وتجعل منها ذرة فقدت كيانها ولم يعد لها وجود مستقل » .

وتجهم وجه « سو » وبدا عليها أنها جرحت بهذا الحديث . وأخيرا قالت : « ولا أنت بالنسبة لحياة الأزواج على حد معرفتى بالأمور ! »

قال وهو يهز رأسه فى حزن : « لقد حدث ذلك بالفعل ! » .

وعندما وصلا إلى الكوخ المنعزل الواقع تحت أشجار الشربين النامية بين البيت الأسمر وقرية « ميريجرين » ، ذلك الكوخ الذى عاش فيه مع « أرابيلا » حتى انفصلا ، أدار إليه رأسه متطلعا وكانت تسكنه فى تلك اللحظة أسرة فقيرة يكسو الغبار وجوه أفرادها ، فلم يسعه إلا أن قال : « هذا هو البيت الذى

سكنت فيه مع زوجتى طيلة الوقت الذى عشناه معا . لقد انتقلنا إليه عقب زواجنا مباشرة » .

وأخذت تتطلع إلى الكوخ وهى تقول : « كان هذا الكوخ بالنسبة لك كالبيت الصغير الملحق بالمدرسة فى « شاستون » بالنسبة لى الآن ! » .

— « نعم ولكننى لم أكن سعيدا فيه كما أنت سعيدة فى بيتك الآن » .

وزمت على شفتيها كأنما تدفع عن نفسها التهمة بالكف عن الكلام . وسارا قليلا ثم تطلعت إليه لترى وقع تصرفاتها عليه وكان يقول فى رقة : « طبعا قد أكون بالغت قليلا فى تقدير سعادتك وما يدرى المرء أين وجه الحق » .

— « إياك أن تقول ذلك لحظة « يا جود » حتى لو كنت تفوهت بذلك على سبيل النكاية بى . إنه فى غاية الطيبة معى كما أنه دائما يدعنى وشأنى ولا يحد من حريتى كما يفعل عادة كبار السن من الأزواج . أنت مخطىء لو ظننت أننى لست سعيدة لأنه يكبرنى فى السن كثيرا » .

— « لا يدور بخلدى أى شىء يشينه أيتها العزيزة . »

— « ولن تقول أشياء تغضبنى . أليس كذلك ؟ »

— « لن أقول » .

وكف عن الحديث ولكنه عرف بطريقة ما أن « سو » بعد أن اتخذت من « فيلوتسون » زوجا ، شعرت أنها أتت أمرا ما كان ينبغى أن تفعله .

وراحا ينزلان إلى الحقل وعلى الجانب الآخر منه ترتفع القرية ، وهو الحقل نفسه الذى عوقب فيه من سنوات وضرب ضربا مبرحا من مالكه المزارع . وعندما نزلا إلى القرية واقتربا من المنزل ، وجدا السيدة « إلدن » بالباب . وبمجرد أن وقع نظرها عليهما رفعت يديها وصاحت تقول : نزلت إلى الطابق السفلى من البيت وما أظن أنكما ستصدقاننى ! لقد صممت على مغادرة الفراش

وما من شيء يعيدها إليه مرة أخرى ، أما ماذا يمكن أن ينتج عن ذلك فهذا مالا علم لى به »

وعندما دخلا البيت شاهدا العجوز جالسة بقرب المصطلى وقد لفت نفسها بملاءات كثيرة وكانت تدير لهما وجها شبيها بوجه العازر كما رسمه الفنان الإيطالى « سيبا ستيانو » . ولا بد أن الدهشة كانت واضحة على وجهيهما إذ أنها قالت فى صوت أجوف : « آه . . هل أخفتكما ؟ صممت على عدم البقاء فى الدور العلوى إذ أننى لا أريد أن أبقى هناك أكثر مما بقيت وذلك لمجرد أن أرضى الآخرين ! هذا أكثر مما يستطيع المرء أن يتحمله وخاصة عندما يضطر إلى إطاعة أوامر تصدر إليه ممن لا يعلمون ! »

وأضافت تقول وهى تدير وجهها لسو : آه . . لسوف تفسدين زواجك كما أفسد هو زواجه . هكذا يفعل جميع أفراد أسرتنا وأنت منهم . وكان ينبغى عليك أن تفعلى ما فعلت . ومن يكون « فيلوتسون » هذا معلم الصبية بين الرجال ! وما الذى جعلك تتزوجينه ؟ . »

— « وما الذى يجعل كافة النساء يتزوجن أيتها الخالة ؟ » .

— « آه ! تقصدين أنك أحببت الرجل ؟ »

— « لا أقصد أن أقول أى شيء محدد » .

— « وهل تحبينه حقا ؟ » .

— « لا تسأليني هذا السؤال أيتها الخالة » .

— « فى استطاعتى أن أتذكر الرجل جيداً . إنه مخلوق مهذب محترم ، ولكن يا إلهى ! أنا لا أود أن أجرح شعورك . هناك أشخاص فى كل مكان وما من امرأة على أى قدر من الرقة تستطيع أن تهضمهم . لا أقول الآن إنه واحد من هؤلاء . إذ لا بد أن تكونى عرفته أكثر منى » .

وانتفضت « سو » واقفة وغادرت المكان وتبعها « جود » إلى الفناء الخارجي

للمنزل حيث وقفت تبكى . قال فى حزن : « لا تبكى ياعزيزتى ! إنها لا تقصد إيلامك ولكنها أصبحت الآن شاذة الطباع » .

قالت « سو » وهى تحاول أن تجفف دموعها : أوه . . لا . . ليس الأمر هكذا وليس يهمنى إطلاقا خشونة طباعها » .

— « وما الذى يبكيك إذن ؟ »

— « إن ذلك الذى تقول هو الصحيح ! » .

وقال جود متسائلا : « يا الله ! ماذا تقولين ؟ ألست تحبينه ؟ » .

قالت فى عجلة : « لا أقصد ذلك . أقصد ، كان ينبغى . . . . . . أقصد ما كان ينبغى لى أن أتزوج ! »

وسأل نفسه مندهشا هل قصدت أن تقولى ذلك فى مبدأ الأمر ! وعاد الاثنان إلى الغرفة التى تجلس فيها العجوز ولم يعد أحد إلى الموضوع مرة أخرى . ومالت العجوز إلى « سو » فى انعطاف رقيق وقالت ما من واحدة من الشابات اللائى لم يمض على زواجهن وقت طويل تقبل أن تسير كل تلك المسافة الطويلة كى تزور عجوزا مريضة مثلها . وعند الأصيل تأهبت « سو » للرحيل وكلف « جود » أحد الجيران كى يوصلها بعربته إلى « الفردستون » .

وقال « جود » : « سأصحبك إلى المحطة لو رغبت فى ذلك » .

ولكنها رفضت بشدة أن يصحبها وجاء الرجل يقود عربته وساعدها «جود» على الركوب فيها ومن الجائز أنه أظهر لها من الاهتمام أكثر مما جاز له أن يفعل إذ أنها رمقته بنظرة ذات معنى .

قال وهو يتحاشى النظر فى عينيها : « أظن أننى أستطيع أن آتى لرؤيتك فى يوم من الأيام عندما أعود من « ملشستر » .

وأحنت رأسها وقالت فى صوت رقيق : « لا أيها العزيز . مايجوز لك أن تأتى الآن ولا أظن أنك فى حالة نفسية تسمح بذلك » .

قال : « حسن للغاية والآن وداعا ! » وهزت له يدها ثم اختفت .

وتمتم يقول فى نفسه : « إنها على حق ! ان أذهب إليها ! » .

وأمضى المساء كله والأيام التالية محاولا بشتى الأساليب أن يكبت فى نفسه الرغبة فى رؤيتها وكادت أنفاسه تزهق فى محاولات الصوم لإيقاف نفسه عن حبها . لقد شرع يطالع العظات التى تتحدث عن ضبط النفس ، كما أخذ يفتش فى بطون كتب التاريخ الكنسى عن فقرات تعالج حياة النساك الذين عاشوا فى القرن الثانى المسيحى . وقبل أن يعود من « ميريجرين » إلى « ميلشستر » كان فى انتظاره خطاب من « أرابيلا » أحيت رؤيته فى نفسه شعورا بدينونة الذات لعودته القصيرة إلى الاتصال بها ، وفاق هذا الشعور فى قوته شعوره بالشىء نفسه لالتصاقه بسو .

أما الخطاب الذى رآه فكان يحمل خاتم بريد لنـــدن بدلا من بريد « كرايستمينيستر » . أخبرته « أرابيلا » فى خطابها أنها ، عقب افتراقهما فى « كرايستمينيستر » ببضعة أيام ، فوجئت بخطاب من زوجها الذى تزوجته فى استراليا وعمل مديرا للفندق فى سيدنى وكان قد جاء إلى لندن وفى نيته البحث عنها . لقد استأجر فى « لامبيث » حانا مرخصا مستكملا لجميع الشرائط ورغب فى أن تلحق به هناك لتعاونه فى إدارته . قالت إن العمل فى حد ذاته يبشر بمستقبل عظيم فالحان يقع فى منطقة كثيفة السكان يهوى أهلها تناول الخمور ، كما قالت إن الدخل الحالى للحان يقدر بمائتى جنيه فى الشهر الواحد وهو مبلغ يمكن مضاعفته بسهولة كبيرة . ولما كان هذا الزوج أخبرها بأنه يكن لها حبا كبيرا ، وبسبب إلحاحه عليها واستعطافه إياها لكى تخبره بالمكان الذى تقيم فيه ، وحيث إنهما افترقا ونفساهما خاليتان من كل ضغن إلا من توتر قليـــل ، وحيث إن عملها فى « كرايستمينيستر » لم يكن بالعمل الدائم الثابت ، لكل ذلك قررت أن تذهب إليه نزولا على رغبته . لقد كان الشعور الغالب لديها أنها تخص ذلك الزوج أكثر مما تخص شخصا آخر ، طالما أنها تزوجته زواجا صحيحا وعاشرته مدة أطول من تلك التى أمضتها مع زوجها الأول .

وهكذا ودعت « جود » بنفس صافية خالية من كل ضغن ، ودعته وهى تعتقد أنه لن ينقلب عليها – هى المخلوقة الضعيفة – وإن يشى بها فيوردها مورد الهلاك بعد أن جاءتها الفرصة لتنهض من جديد وتحيا حياة كريمة .

(١٠)

وعاد « جود » إلى « ملشستر » وقد اكتسبت فى نظره أهمية خاصة لقربها من المكان الذى تقيم فيه معبودة حياته . وفى مبدأ الأمر خيل إليه أن قربه من البقعة التى تقيم فيها « سو » يخلق سببا قويا لتشبثه بالإقامة فى تلك البقعة . ولكن لا بد له من أن يرحل . أما « كرايستمينيستر » فكانت مكانا مقبضا للنفس والإقامة فيها أصبحت عبئا لا تتحمله نفسه فى سهولة بينما أن قرب « ملشستر » من « شاستون » حيث تقيم « سو » الآن مع زوجها ، قد يكسبه فخر التغلب على العدو الذى يقاتله عن طريق الالتحام المباشر معه كما فعل قديسو ورهبان عهود الكنيسة الأولى ، أولئك الذين فى مجال إظهار احتقارهم للهرب المشين من الغواية تحولوا إلى شركاء لها دون تأنيب . ولم يتوقف لحظة كى يفكر فى « أن الطبيعة المفترى عليها تنهض أحيانا إلى الانتقام لحقها السليب » ، وكثيرا ما يحدث ذلك فى ظروف كهذه .

وها هو الآن يعود فى نشاط المحموم إلى استئناف دراسته اللاهوتية – مع أن صدق نواياه فى هذا الميدان وإخلاصه للقيم العليا التى يعتنقها فى الحياة أصبحت أخيرا من الأمور التى يهدد الشك كيانها . لقد أقلقت روحه عاطفته القوية نحو « سو » ، ومع ذلك فإن عودته الشرعية إلى صحبة « أرابيلا » لعدة ساعات كان عملا أشد سوءاً من كل شىء ، مهما كان من أمر إخفائها لحقيقة زواجها فى مدينة « سيدنى » وعدم إحاطته بوقائعه إلا أخيراً . لقد تمت له الغلبة على كل مغريات العودة إلى الشراب ، وهذا ما كان يعتقده بحق ، ذلك الشراب الذى لم يلجأ إليه فى واقع الأمر لرغبة فى حلو مذاقه ولكن هربا بما بنفسه من شقوة يعجز المرء عن تحملها . ومع ذلك لاحظ فى يأس أنه ، على وجه العموم ، كان شخصا مشبوب العاطفة جياش النفس بعديد الانفعالات فلا يصلح لأن يكون قساً مجيداً . أما

غاية ما يمكن أن يرجوه أنه فى حياة كلها صراع داخلى متصل بين الجسد والروح قد لا ينتصر الجسد على الدوام .

وكهواية متصلة بعلوم الدين ، أخذ ينمى مهارته البسيطة فى الموسيقى الكنسية والغناء بالصوت المنخفض حتى استطاع أن ينشد ويؤدى النص فى شىء من الدقة .

وعلى بعد ميل أو ميلين من « ملشستر » كانت هناك بيعة صغيرة أعيد بناؤها وقد تردد عليها فى فترة سابقة ليقيم فيها أعمدة جديدة بدلا من القديمة المتهاوية . وعن هذا الطريق تعارف مع عازف الأرغن فى الكنيسة وبذا انضم إلى فرقة المنشدين كمنشد فى الصوت المنخفض .

اعتاد أن يمشى إلى هذه الكنيسة مرتين كل أحد ومرات فى بحر الأسبوع . وذات مساء ، قبيل عيد القيامة بقليل ، اكتمل عقد المنشدين للتدريب ، وأزمعوا التدريب على إنشاد تسبيحة جديدة وإعدادها للأسبوع التالى وكان قد سمع أنها من وضع موسيقى من أهل مقاطعة « وسكس » . واتضح لجود أن اللون الغالب على بناء التسبيحة هو اللون العاطفى وكلما أنشدها المنشدون وأعادوا إنشادها تسللت أنغامها إلى أعماق نفسه وأثرت فيه تأثيرا عظيما .

وعندما انتهوا من الإنشاد توجه لتوه إلى عازف الأرغن وسأله عن التسبيحة . وكان التدوين الموسيقى مكتوبا بخط اليد وظهر اسم المؤلف فى أعلى الصحيفة وبجواره العنوان : « عند قاعدة الصليب » .

وقال عازف الأرغن : « نعم . . إنه من هذه الناحية وهو موسيقى محترف يعيش فى « كينيتبردج » بين هذا المكان « وكريستمينيستر » وهذا الموسيقى معروف للقسيس وقد نشأ وتعلم فى « كرايستمينيستر » وتربى وفقا لتقاليدها فانعكس ذلك بوضوح على التسبيحة كما طبعها بذلك الطابع الخاص ، وأظن أنه يعزف فى الكنيسة الكبرى هناك وله فرقة خاصة من المنشدين الذين يتدثرون بالملابس الكهنوتية أثناء إنشادهم . إنه يجىء إلى « ميلشستر » فى بعض الأحايين ولقد

حاول ذات مرة أن يحصل على وظيفة عازف على الأرغن فى الكاتدرائية عندما حلت الوظيفة لكنه لم يوفق وانتشرت التسبيحة وذاع صيتها فى كل الأوساط فى عيد القيامة هذا ».

وبينما كان يسير فى الطريق عائداً إلى بيته وهو يترنم بنغمات التسبيحة اتجه عقله إلى التفكير فى مؤلفها وفى الأسباب التى دفعته إلى وضع موسيقاها . يا لهذا الموسيقى من شخص تجيش نفسه بشتى العواطف ! ولما كان فى حيرة أليمة من أمره بسبب وقوعه بين نارى « سو » و « أرابيلا » ، وبسبب قلقه وعذاب ضميره من جراء تعقد موقفه : كم اشتاقت نفسه إلى معرفة ذلك الرجل ! قال يحادث نفسه : « إنه من بين جميع الناس يستطيع أن يدرك حقيقة مأساتى ! » .

ولو أن « جود » ود أن يختار من بين جميع الناس شخصاً يبوح له بدخيلة نفسه لكان هذا الموسيقى هو النجى إذ ما من شك فى أنه تعذب مثله كما أحس بقلبه ينفطر ولا بد أنه كابد لواعج الشوق .

وباختصار ، وعلى رغم عجزه عن تدبير الوقت والمال اللازمين للرحلة ، صمم على التوجه إلى « كينيتبردج » فى يوم الأحد التالى وكان فى تصميمه هذا كالطفل فى عناده . وفى اللحظة المناسبة بدأ رحلته فى ساعة مبكرة من الصباح إذ كان عليه أن يستقبل عدداً من القطارات فى أماكن متفرقة كى يصل إلى المدينة التى يقصدها فوصلها حول منتصف النهار . وبعد أن عبر الجسر إلى الضاحية القديمة ذات الأبنية العتيقة سأل عن بيت الموسيقى فأخبره الناس أنه يعيش فى بناء من الطوب الأحمر يقع على مسيرة بضع خطوات كما أخبروه أنه مر لتوه فى الطريق .

قال فى شوق : « وأى طريق ؟ » .

— « الطريق المؤدى من الكنيسة إلى البيت » .

وجد فى السير وسرعان ما لمح على مسيرة بضع خطوات منه رجلا فى رداء أسود وعلى رأسه قبعة سوداء عريضة الحافة فأسرع الخطا وراءه وهو يقول :

« ثمة روح جائعة تسعى وراء روح شبعة ! لابد لى من أتحدث إلى هذا الرجل ! » .

ولم يستطع أن يدرك الموسيقى قبل أن يدخل بيته وعند ذلك نشأت مشكلة جديدة :

« هل الوقت مناسب للزيارة ؟ أيتقدم أم يحجم وأى الشيئين يفعل فى هذه اللحظة وقد جاء إلى هنا والمسافة التى يجب أن يقطعها ليعود من حيث أتى كبيرة بحيث لا يستطيع أن ينتظر حلول المساء ؟ هذا الموسيقى ذو النفس الحية والشعور المرهف لن تتطلب مقابلته إجراءات خاصة ومن المحتمل أن يصبح له ناصحاً أميناً فى قضيته التى تنطوى على حب أرضى غير مشروع تسلل إلى شغاف قلبه فى غفلة من العقل وفى تعارض مع إعداده الدينى . وأخيراً دق جرس الباب مستأذناً فى الدخول وبعد لحظة جاء إليه الموسيقى . ولما كان « جود » حسن البزة ، مرتب الهندام ، برىء المظهر ، احتفل الموسيقى بمقدمه احتفالا خاصا ، وإن كان الضيف على بينة من دقة موقفه وما يكتنف هذا الموقف من صعوبة فى الإفصاح عن المهمة التى جاء من أجلها .

قال جود : « لقد انضممت إلى فرقة المنشدين فى كنيسة صغيرة بالقرب من « ملشستر » وفى هذا الأسبوع تدربنا على إنشاد تسبيحة « عند قاعدة الصليب » ، وهى على ما أعتقد من تأليفك . أليس كذلك ؟ » .

— « نعم فقد فعلت ذلك أو ما يقرب منه »

— « إنى أحب هذه التسبيحة وأعتقد أنها غاية فى الجمال ! » .

— « هذا حسن ... هكذا قال لى أناس كثيرون . نعم . لاشك أنها سوف تدر على مالا وفيرا . هذا إذا استطعت فقط أن أطبعها وأنشرها على الناس . لدى مقطوعات أخرى كثيرة يمكن أن تضم إليها وأحب أن أخرجها كلها فى مجلد واحد إذ أننى لم أربح من وراء هذه التسبيحة شيئاً حتى هذه اللحظة . يالأولئك الناشرين ! إنهم دائماً يبحثون عن مؤلف مغمور مثلى ويشترون منه حق التأليف فى مقابل مبلغ زهيد لا يزيد على ما أدفعه عادة للناسخ . أما التسبيحة التى تتحدث

عنها فقد أعرتها لعدد من الأصدقاء الذين يقطنون هذا المكان « ميلشستر » وهكذا قدر لها أن تجد من ينشدها ومن يسمعها . على أن الموسيقى ليست بالشيء الذى يقيم أود المرء وعلى ذلك فأنا أفكر جدياً فى هجرها . وفى أيامنا هذه لا بد لمن ينشد الغنى أن يشتغل بالتجارة وأنا أفكر فى الاشتغال بتجارة الخمور وإليك قائمة بالأنواع التى أنوى أن أبيعها للناس . هذه القائمة ، وإن لم تصبح نهائية ، إلا أننى أستطيع أن أعطيك إياها » . وأعطى الموسيقى « جود » قائمة على شكل كتيب من عدة صفحات يزينها هامش أحمر وتتضمن أسماء عدة أنواع من النبيذ والشمبانيا وأنواع من البورتو والشيرى وغير ذلك من الأنبذة التى ينوى أن يتخذ من تجارتها ميداناً لعمله الجديد . غير أن « جود » تهاوى تحت صدمة المفاجأة باكتشافه لحقيقة الرجل الذى ظن أنه من أصحاب النفوس الرقيقة الحالمة وبذلك لم يستطع أن يفتح له صدره ليدلى إليه باعترافاته .

وأخذ الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث ولكن فى تحفظ ، إذ عندما اكتشف الموسيقى أن « جود » ليس من أصحاب الجاه تغيرت طريقة معاملته له عما كانت فى بدء المقابلة وعندما ظن أنه من أصحاب المنزلة الاجتماعية الممتازة . وبعد أن تمتم ببضع كلمات متعثرة قصد بها التعبير عن شعوره نحو صاحب البيت وتهنئته على روعة إنتاجه ، غادر « جود » المكان فى حرج ظاهر .

وطوال الوقت الذى أمضاه فى قطار الأحد البطىء عائدا إلى بيته ، وفى غرف الانتظار الخالية من التدفئة ، تملكه شعور بالانقباض لسذاجته التى أوحت إليه بأن يقوم بهذه الرحلة .

وعند وصوله إلى بيته فى « ميلشستر » وجد فى انتظاره خطابا جاء عقب مغادرته البيت مباشرة وكان رسالة قصيرة كتبتها « سو » وذكرت فيها فى رقة زائدة أنها ندمت أشد الندم على منعها إياه من المجىء لرؤيتها وأنها احتقرت نفسها لموقفها هذا المتسم بالرجعية والتأخر . كما ذكرت أن باستطاعته الحضور فى نفس اليوم الذى وصل فيه الخطاب بركوبه قطار الثانية عشرة إلا ربعا

وبذلك يتمكن من تناول الطعام معها ومع زوجها فى تمام الواحدة والنصف بعد الظهر .

وكاد يمزق شعره غيظاً لأنه تسلم الخطاب بعد فوات الوقت فلم يستطع أن ينفذ ما جاء فيه . غير أنه دأب أخيرا على تهذيب نفسه والاقتصاص منها كلما دعت الظروف إلى ذلك . وفى النهاية بدت رحلته الأسطورية إلى « كينتبردج » كما لو كانت تدخلا جديدا من القدر كى يبعده عن مواطن الفتنة . أما الشعور الذى ظل يراود نفسه فى الفترة الأخيرة ، وهو الشعور المنطوى على الضيق بالقدر وأساليبه ، فقد أخذ الآن ينمو فى نفسه ويدفعه إلى الاعتقاد بتفاهة حياة الإنسان وعدم جدواها . لقد اشتاق إلى رؤية « سو » وغضب لأنه أضاع فرصة مقابلتها فقام لتوه وكتب لها موضحا حقيقة ما حدث . قال إن معين صبره نفد وان يستطيع الانتظار حتى الأحد التالى لذا لا بد أن يهرع إليها فى أى يوم من أيام الأسبوع ترغب فى تعيينه .

ولما كانت الطريقة التى كتب بها خطابه تتسم بالحماسة الزائدة ، فإن « سو » رأت كعادتها أن تؤجل كتابة ردها حتى الخميس السابق على الجمعة الحزينة . فى ذلك الرد ذكرت أن فى استطاعته زيارتها فى مساء نفس اليوم ، لو رغب فى ذلك ، وأوضحت أنها لم تستطع أن تستقبله قبل ذلك إذ كانت تعمل فى المدرسة التى يديرها زوجها . على هذا حصل على أجازة من عمله فى الكاتدرائية مضحيا فى سبيل ذلك بأجره اليومى ورحل إلى حيث يلقاها .

الباب الرابع

« في شاستون »

« والذى يفضل شريعة الزواج — أو أية شريعة أخرى — على شريعة العمل لخير الإنسانية ونشر مقتضيات الفضيلة والمحبة ، ان يفوق قدره عند الله قدر الكتبة والفريسيين مهما كان مذهبه الدينى » .

« ج ... ميلتون »

(١)

ها هى « شاستون » الوافية البريطانية القديمة التى تحمى بريطانيا من كل شر . وكما قال الشاعر « درايتون » متغنيا بجمالها :

« ومن أعماق نشأتها يقوم حديثها العجب »

وهى كانت ، وما زالت ، فى ذاتها مدينة الأحلام . فالصور الغامضة لقلعتها ولدورها الثلاث لسك النقود ، ولديرها الضخم ذى النقوش الموحدة - وهو فخر سكان وسكس الجنوبية - وأشكال كنائسها الاثنتى عشرة ، وأضرحتها ، ونصبها ، ومستشفياتها ، وقلاعها المقامة من الحجارة البيضاء ، وقد تهدمت كلها الآن وتداعت قوائمها ، من شأنها كلها أن تدفع بالزائر برغم أنفه إلى خضم عميق من الأفكار الحزينة .

كانت البقعة مقبرة لملك وملكة وعدد من رؤساء ورئيسات الأديرة ومن القديسين والأساقفة وأصحاب الألقاب وسادة الريف . وإلى هذا المكان نقلت رفات الملك إدوارد الملقب بالشهيد وحفظت بكل عناية وتقديس وهذا هو ما أكسب « شاستون » شهرة واسعة وجعل منها مزاراً للحجاج من كل أجزاء القارة الأوربية ، وبذلك طارصيتها وذاع اسمها إلى ما وراء الشواطىء البريطانية . وإن اضمحلال الآثار الدالة على العصر الوسيط والمتبقية منه ، لهو فى نظر المؤرخين بداية النهاية لمنطقة من أشهر مناطق إنجلترا ، فمع اندثار الدير العظيم تردى المكان كله فى هوة سحيقة من التلاشى إذ لقيت عظام الشهداء نفس مصير المقابر التى ضمتها فما من حجر واحد هناك يدل الباحث على مكان تلك الرفات .

ومع ذلك ما زال أثر الجمال الطبيعى لتلك المدينة باقيا هناك . وكذلك مظهرها الفذ ، وإن كان مما يثير العجب القول إن تلك الصفات التى لاحظها العديد من الكتاب الذين اشتهروا فى عهود لم يكن فيها لجمال المناظر الطبيعية وزن خاص ، قد أهملت وغدت من شأنها الآن فى تلك المدينة مما ترتب عليه أن بقعة من أقدم بقاع إنجلترا ذات الجمال الغريب أصبحت اليوم محرومة من الزائرين .

ولهذه المدينة موقع فريد فهى على قمة منحدر رهيب يعود إلى الارتفاع عند الجوانب الشمالية والجنوبية والغربية للدائرة السكنية صاعداً من أعماق وادى « بلاكمور » الطميي . وإن المتجول فى تلك المنطقة ليفاجأ بالقلعة الخضراء وما تمنحه إياه من منظر عام يضم أطراف ثلاث مقاطعات خضراء الحواشى هى جنوب ووسط وشمال وسكس ، كما يفاجأ بالهواء العليل فيعب منه عباً ويملأ به رئتيه . ولما كان الوصول إلى هذا المكان بالقطار الحديدية غير ميسور ، أصبح السير على الأقدام خير وسيلة لذلك . وبعد السير على الأقدام يأتى استعمال العربات الخفيفة ولا بد لأصحابها من المرور فوق ما يشبه البرزخ وهو يربط ذلك المكان بالهضبة الطباشيرية المرتفعة الواقعة على ذلك الجانب .

تلك هى ، وهكذا كانت ، « شاستون » التى نسيها العالم . لقد جعل موقعها من الماء مشكلة . والماء بحق مشكلة « شاستون » الأولى وطالما شوهد الناس والخيول والحمير وهم يجدون فى السير مصعدين فى المسالك الوعرة بغية الوصول إلى أعلى مكان فى المرتفع وهم محملون بالقصاع والبراميل والأوانى المترعة بالمياه المستخرجة من الآبار الواقعة عند سفح الجبل . وكثيراً أيضا ما شوهد البائعون الجائلون وهم يبيعون الماء بما قيمته نصف بنس للدلو الواحد .

هذه الصعوبة فى الحصول على المياه تضاف إلى أمرين آخرين عجيبين فى طبيعتهما . الأول أن المدفن الرئيسى للمدينة ، يقع فوق أعلى المرتفع ويؤلف ما يشبه جداراً خلفياً مطلا على الكنيسة ، والأمر الثانى أن المدينة مرت فى سالف الأيام بفترة عجيبة من الفساد الخلقى والانحلال المذهبى والاجتماعى . هذا هو الأصل فى القول إن شهرة « شاستون » تقوم على اعتبارات ثلاثة يجد فيها الإنسان عزاء له وسلوى ولا يجد مثيلا لها فى بقعة أخرى من بقاع العالم ، فشاستون مكان تجاور مدافنه السماء وتطاولها أكثر مما تطاولها منارة كنيستها . و « شاستون » مكان يزيد فيه مشروب البيرة على الماء . وأخيرا هى مكان تكثر فيه أنصاف الحرائر من النساء ويفوق عددهن عدد الزوجات والفتيات حسنات السمعة . وكذلك قيل إنه عقب انقضاء العصر الوسيط كان أهل المدينة من الفقر

بحيث عجزوا عن دفع مرتبات قسيسيهم ومن ثم اضطروا إلى هـدم كنائسهم والانصراف كلية عن عبادة الله وهو إجراء تحسروا عليه أثناء جلوسهم للشراب داخـل حاناتهم فى أصائل أيام الآحاد ففى تلك الأيام لم يكن أهل « شاستون » مجردين من روح الدعابة .

صفه أخرى تميزت بها « شاستون » وهى صفة حديثة ويبدو أنها ترجع إلى طبيعة موقعها . كانت المدينة مركزاً لأصحاب العربات الجائلة والمعارض المتنقلة وساحات ضرب النـار وغير ذلك من النشاط الدوار الذى يتخذ من المعارض والأسواق مجالا له . وبينما ترى طيور جارحة عجيبة وهى تتجمع فوق هضبة عالية حيث تهدأ فى أماكنها استعداداً لرحلاتها الطويلة أو تهيؤاً للعودة من حيث أتت ، فإنه هنـا فى هذه المدينة المعلقة تقف القوافل الصفراء والخضراء جامدة وعلى جوانبها أسماء ليست محلية كما لو أدهشها تغيير عنيف فى الأرض المنبسطة أمامها بحيث يعوقها عن مواصلة سيرها . إنها تبقى هنا عادة طوال الشتاء وفى نهايته تعود مرة أخرى إلى البحث عن مساكنها القديمة عندما يحل الربيع .

فإلى هذه البقعة الرطيبة ذات الجو المتغير صعد « جود » للمرة الأولى فى حياته قادما من أقرب محطة للسكة الحديدية وكانت الساعة أشرفت على الرابعة بعد ظهر أحد الأيام . وبعد أن اقتحم قمة الجبل عقب جهد شديد من التسلق المضنى ، أشرف على المنازل الأولى للمدينة المعلقة . ثم ترك هذه المنازل خلفه فى سيره نحو البيت الصغير الملحق بالمدرسة . ولمـا كان الوقت ما زال مبكراً وجد أن الأطفال ما زالوا بالمدرسة يلعبون فى جماعات تزوم كحشد من البعوض ، وعند ذلك مشى خطوات قليلة فى « عطفة الدير » ومن هناك نظر إلى البقعة التى جعل منهـا القدر مقاما لأعز شىء لديه فى الوجود . وأمام المدرسة — وكانت وسيعة الأرجاء صخرية البناء — نمت زانتان ضخمتان جذعاهما أملسان بلون جلود الفئران وهذا النوع من الأشجار لا ينمو إلا فوق المرتفعات الطباشيرية . وخلف النوافذ ذات المربعات والبراقع المستعرضة استطاع أن يلمح رءوس التلاميذ تكسوها تيجان من الشعر الأسود والأسمر والكستنائى وهى تبدو واضحة حول الحوافى السفلى

لتلك النوافذ . ولكي يقطع الوقت أخذ يتمشى قليلا فى الساحة المنبسطة التى كانت فى ماضى الأيام حدائق الدير وقلبه يدق على الرغم منه .

ولما لم يكن راغبا فى الدخول حتى ينصرف الأطفال ، بقى فى مكانه إلى أن سمع الأصوات الصغيرة وهى تخترق الهواء . وبعدها ظهرت البنات الصغيرات فى مرايلهن البيضاء وأثوابهن الحمراء والزرقاء يقفزن ويرقصن وسط الممرات التى خطرت فيها قبل الآن بقرون ثلاثة رئيسة الدير والكاهنة ومساعدة الكاهنة وخمسون راهبة . وعند ما عاد وجد أنه انتظر أكثر مما ينبغى إذ كانت « سو » توجهت إلى المدينة عقب انصراف آخر طفل بالمدرسة وكان ذهابها يرجع إلى تغيب السيد « فيلوتسون » طيلة أصيل ذلك اليوم حيث توجه إلى « شوتسفورد » لحضور اجتماع دورى للمدرسين .

ودخل القاعة وجلس فيها بعد أن أخبرته الخادمة أن السيدة « فيلوتسون » سوف تعود بعد فترة قصيرة . وبالقرب منه شاهد معزفا وكان هو نفس البيانو القديم الذى رآه عند « فيلوتسون » فى « ميريجرين » وعلى الرغم من أن الضوء الضعيف داخل القاعة حال دون رؤيته لمفاتيح المعزف إلا أنه قام ودق عليها بطريقته المتواضعة ولم يستطع إلا أن يعزف التسبيحة التى استولت على لبه طيلة الأسبوع السابق .

ومن خلفه تحرك شبح ولكنه لم يعره اهتماما ظناً منه أنها الخادمة وظل فى مكانه حتى اقترب الشبح منه وضغط بيده على أصابعه ضغطاً خفيفاً — أما اليد صاحبة الأصابع فكانت صغيرة وخيل إليه أنه خبير بها . عند ذلك تنبه . قالت « سو » : « لا تتوقف عن العزف فإننى أحب هـذه التسبيحة وقد تعلمتها قبل مغادرتى لميلشستر وكان من عادة القوم فى دار المعلمات أن يعزفوها كل يوم » .

— « لن أستطيع العزف وأنت أمامى . اعزفيها أنت من أجلى » .

— « حسن وإنى لا أمانع فى ذلك » .

وجلست « سو » أمام البيانو وبدأ عزفها للقطعة ، وعلى الرغم من أنها تمتاز بالبراعة الفائقة فإنه كان شيئا عاديا بالقياس إلى عزفه وكانت هى الأخرى ، لدهشته ، متأثرة بجو التسبيحة أيما تأثر . وعندما فرغت من عزفها وشرع يحرك يده فى اتجاه يدها تقابلت اليدان فى منتصف المسافة فقبض بيده على يدها تماما كما فعل قبل زواجها .

قالت فى صوت متغير تماماً : « إن نفسى لتتأثر كثيرا لهذه التسبيحة وهو شىء يثير العجب لأن ... » .

— « لأن ماذا ؟ » .

— « لأننى لست من ذلك النوع تماماً » .

— « من النوع الذى لا يتأثر بسهولة ؟ » .

— « لم أقصد ذلك تماما » .

— « ولكنك واحدة من هذا النوع إذ أن قلبك مثل قلبى تماما » .

— « ولسنا كذلك فى العقل » .

واستمرت فى العزف وفجأة استدارت وبدافع غريزى مفاجىء أمسك كل منهما يد الآخر مرة أخرى .

وأطلقت ضحكة صغيرة مغتصبة بينما كانت تستخلص يدها من يديه فى سرعة وهى تقول : « ما أعجب ذلك ، ما الذى دعانا إلى فعل هذا ؟ » .

— « إننا متشابهان كما سبق أن قلت » .

— « ولكننا لسنا كذلك فى أفكارنا ! وقد نكون متشابهين قليلا فى مشاعرنا الصغيرة » .

— وهى تتحكم فى الأفكار . ألا يكفى لكى يكفر الإنسان أن يقول إن مؤلف هذه الترنيمة هو من أتفه من قابلت من الناس .

— « ماذا ، وهل تعرفه ؟ » .

— « ذهبت إليه لأراه » .

— ويحك ! فعلت مافعلته أنا ، لماذا ؟

قال فى خشونة : « لأننا لسنا متشابهين ؟ .

قالت « سو » : « دعنا نتناول قليلا من الشاى ـ أتفضل أن تشربه هنا بدلا من المنزل ؟ من السهل على أن أحضر الغلاية وأدوات الشاى فلسنا كما تعلم نعيش فى المدرسة بل نقيم فى ذلك البيت القديم الواقع عبر الطريق والمسمى بالأيكة القديمة . يا له من بناء عتيق مقبض يملأ نفسى كآبة . مثل هذه الأبنية خليقة بالزيارة ولكنها لا تصلح مكانا يعيش فيه الإنسان ، وإنى أحس بانسحاق نفسى كلما تذكرت كم من الخلائق قضت نحبها وكم من النفوس درجت داخل ذلك البناء القديم . وفى الأماكن الجديدة الشبيهة بهذه المدرسة لن يعنى المرء بشىء سوى حياته فحسب . اجلس هنا ودعنى أكلف « إدنا » بإحضار أدوات الشاى من البناء المقابل » .

وجلس فى ضوء المصطلى وكانت « سو » قد فتحت بابها قبل مغادرتها المكان . وعندما عادت وفى أثرها خادمتها تحمل لها أدوات الشاى ، جلست و « جود » فى نفس الضوء الصادر عن المصطلى وفى هذه المرة تدعمه أشعة زرقاء صادرة عن المصباح الكحولى الذى يشتعل أسفل الغلاية النحاسية .

قالت وهى تشير إلى الغلاية النحاسية : « إنها إحدى الهدايا التى قدمتها إلى بمناسبة زواجى » .

قال : « نعم » .

وبدأت الغلاية تغنى بما فى داخلها من ماء يغلى ويفور وخيل إليه أن فى غنائها نغمة تسخر منه . ولكى يغير من الموضوع قال : « هل تدليننى على طبعة

جيدة أقرأ فيها الأسفار المحذوفة من العهد الجديد ؟ إنكم هنا فى هذه المدرسة لا تقرءون هذه الأسفار على ما أظن » .

— « لا لا . فقراءتها لا بد أن تثير الناس هنا ومع ذلك لدينا بعض أجزاء منها ولا أعرف عنها الكثير وإن كنت قد أغرمت بقراءتها عندما كان صديقى الأول على قيد الحياة واسم هذه الطبعة « الأجزاء المحذوفة لـكوبر » .

« أظن أن هذا هو ما أريد بالضبط » .

قال ذلك واهتز كيانه فى عنف عند سماعه كلمة « صديقى الأول » وكانت تعنى بذلك زميل الجامعة الذى عرفته فى شبابها الباكر . وأخذ يسأل نفسه متعجبا عما إذا كانت ذكرت شيئا عنه أمام « فيلوتسون ! » .

— « إن سفر « نيقوديموس » غاية فى الرقة » . هكذا طفقت تقول حتى تبتعد به عن أفكاره المشبعة بانفعالات الغيرة وقد قرأتها كعادتها مكتوبة على ملامح وجهه . والواقع أنهما عندما يتحدثان عن موضوع عادى كهذا لا بد أن ينشأ بينهما حديث آخر صامت يعبر عما يجول فى صدريهما من عواطف حيث كانت العلاقة الروحية بينهما غاية فى الإحكام . واستمرت تقول : « يشبه هذا السفر الكتاب الأصلى شبها دقيقا وهو مقسم إلى آيات كغيره من الأسفار بحيث يتعذر فى بعض الأحايين التفريق بينه وبين الأسفار الأخرى ولكن يا « جود » أما زلت كعهدى بك مهتما بتلك الموضوعات ؟ أما زلت تدرس كتاب « الدفاع عن المسيحية ؟ » .

— « نعم ما زلت أدرس اللاهوت أكثر من أى وقت مضى » .

وهنا أخذت ترمقه فى فضول فقال لها :

— « لم تنظرين إلى هكذا ؟ » .

— « ولم تود أن تعرف ؟ » .

— « إنى على ثقة من أنك تستطيعين أن تخبرينى بأى شىء أجهله فى هذا الموضوع إذ لا بد تعلمت أشياء عديدة عن طريق صديقك العزيز المتوفى » .

قالت فى لطف وكأنما تتقى غضبه : « دعنا من هذا الآن . هل ستذهب مرة أخرى فى الأسبوع القادم إلى تلك الكنيسة التى تعلمت فيها التسبيحة الجميلة ؟ »

— « ربما » .

— « سيكون ذلك رائعاً — هل آتى لأراك ؟ إنها تقع فى هذا الاتجاه وباستطاعتى أن أستقل القطار إليها فى أصيل أى يوم » .

— « لا . لا تأتى » .

— « ماذا ؟ وهل لن نصبح أصدقاء كما كنا دائماً ؟ » .

— « لا » .

— « ما عرفت ذلك قط بل كنت أظن أنك ستكون دائما عطوفا على » .

— « لا . لست كذلك » .

— « وما الذى فعلته . كنت أظن دائما أننا — ... » .

وهنا ارتعش صوتها فتوقفت عن الحديث .

قال فى اقتضاب : « فى بعض الأحايين يخيل إلى أنك فتاة لعوب » .

وساد بينهما صمت مؤقت وفجأة قفزت واقفة فى مكانها ، ولدهشته رأى على الضوء الضعيف المشتعل تحت الغلاية أن وجهها محتقن .

قالت وقد عادت إلى صوتها نبرته الحزينة : « ليس فى مقدورى أن أتحدث إليك بعد الآن يا « جود » ولا يجوز أن نبقى هكذا معا بعد أن تقدم بنا الوقت وازداد الظلام ، وبخاصة بعد كل هذا الذى قلناه . ينبغى ألا نجلس هنا ونتحدث بهذه الطريقة . نعم . يجب أن تذهب الآن إذ أنك تخطىء فهمى . إننى عكس ما تقول تماما وإن فى قولك لقسوة ، رحماك يا « جود » . من القسوة أن تقول ذلك . ومع هذا لا أستطيع أن أخبرك بالحقيقة بل ينبغى ألا تصدم عندما تعرف أننى لا أستطيع أن أقاوم نزواتى ولا أرى الجمال إلا كعمل يمارس وليس كشىء

يحس . بعض النساء تجيش صدورهن برغبة ملحة فى أن يحببن ويهوادن الآخرون وذلك إلى جانب شعورهن الجارف بضرورة أن يمارسن الحب بأنفسهن، وفى هذه الحال يكتشفن عجزهن عن أن يهبنه بصفة دائمة للمستحق له شرعا ودينا . ولكنك غاية فى الاستقامة وسلامة الطوية يا « جود » بحيث لا يمكنك أن تفهمنى . أما الآن فلابد أن ترحل وإنى لآسفة لأن زوجى ليس الآن بالمنزل .

— « وهل أنت آسفة حقا ؟ » .

« أظن أنى قلت ذلك وفقا للأصول المرعية . أما من جهة الواقع فلا أظن أنى حقا آسفة فوجود زوجى أو عدمه ليس بالنسبة لى بالأمر الهام وإن كان يحزننى أن أقول ذلك » .

ولما كانا قد بالغا بعض الشىء فى القبض على الأيدى وتحسسها عند بدء تلاقيهما فإن « سو » تعمدت الآن أن تلمس أصابعه لمسة خفيفة وهو يودعها استعدادا للرحيل . ولم يكد يخرج من الباب حتى قفزت من مكانها فى حركة تنم عن القلق وفتحت الردادة الحديدية للنافذة وكان هو قد أصبح الآن تحتها وهو فى طريقه إلى خارج البيت وقالت: « متى تترك هذا المكان لتستقل القطار يا « جود » ؟ . « ورفع إليها رأسه فى استغراب وقال : إن الحافلة التى تنقل المسافرين إلى المحطة تتحرك من هنا بعد ثلاثة أرباع الساعة أو ما يقرب من ذلك .

— « وما الذى تنوى عمله فى هذه الأثناء ؟ » .

— « أتجول فى المنطقة وقد أذهب إلى الكنيسة القديمة وأمضى هناك بعض الوقت » .

— « إنها لقسوة منى أن أدعك ترحل على هذه الصورة . لقد شبعت من التردد على الكنائس ولا لزوم للذهاب إلى واحدة منها فى الظلام . ابق هناك » .

— « وما تقصدين بهناك ؟ » .

— « أقصد هناك حيث أنت ، ومن الأفضل أن أتحدث إليك هكذا .

كان عطفا منك ورقة أن تضحى بأجر نصف يوم كامل كى تأتى لترانى . أنت أنت يوسف الأحلام يا « جود » ، كما أنك تشبه « دون كخوته » شبها ناجعا . فى بعض الأحايين أتخيلك القديس « اسطفانوس » الذى كان يرى السماوات مفتوحة أمام عينيه وهو يرجم بالحجارة . وا أسفاه لك أيها الصديق والرفيق المسكين . لسوف تتألم أكثر من ذلك ! »

ولما كانت النافذة بإطارها الصلب قامت حائلا بينهما الآن ، بدا على « سو » أنها لاتجد حرجا فى الإكثار من الأحاديث الصريحة التى تخشى الخوض فيها عندما كانا معا لا يفصل بينهما فاصل . وظلت تتحدث ونفسها مهتاجة : كنت أقول فى نفسى إن أوضاعنا الاجتماعية التى حددتها لنا قوانين الحياة الحديثة لاتمت بكبير صلة لما قد خلقنا عليه من طبائع وهذا لايختلف كثيرا عن الشكل الظاهرى للنجوم بالنسبة لأوضاعها الحقيقية فى المجموعة النجومية التى تنتمى إليها . يدعوننى الناس بالسيدة « ريتشارد فيلوتسون » ، ويظنون أننى أعيش حياة زوجية هادئة مع صاحب هذا الاسم ، غير أنى لست هكذا ؛ بل أنا امرأة وحيدة تتجاذبنى تيارات الحياة وتمتلىء صدرى بالعواطف الضالة والبغضاء التى لا يمكن تعليل مصدرها . والآن ينبغى ألا تنتظر أكثر مما انتظرت وألا تفوتك المركبة . تعال لترانى مرة أخرى وفى المرة القادمة انتكن وجهتك المنزل مباشرة .

قال « جود » : « نعم - ومتى آتى ؟ » .

— « مثل غد من الأسبوع القادم . والآن إلى اللقاء » .

وعندما قالت ذلك مدت يدها وربتت على جبهته مواسية وأجابها على توديعها إياه ثم اختفى فى الظلام .

وعند وصوله إلى شارع « بيمبورت » خيل إليه أنه سمع عجلات المركبة وهى تسير إلى المحطة . وعندما وصل إلى الموقف المخصص لها اكتشف أنها حقا قامت . ولما كان من المستحيل عليه أن يصل إلى المحطة سيرا على قدميه قبل وصول

القطار فإنه وطد نفسه على البقاء انتظارا للقطار التالى الأخير الذى يتجه إلى « ميلشستر » فى تلك الليلة .

وأخذ يتجول فى المدينة فترة وابتاع شيئا يأكله . ولما كان لديه نصف ساعة أخرى، قادته قدماه إلى كنيسة « الثالوث الأقدس » ومقبرتها الفخمة ذات الطرقات الواسعة المحاطة بأشجار الزيزفون . كان الظلام مخيما على كل شيء . ولما كانت أخبرته أنها تسكن فى الشارع المؤدى إلى «أولد جروف بليس» استطاع أن يكتشف البيت القديم الذى تعيش فيه مما ذكرت له من أوصاف .

وفى نافذة أمامية شاهد شمعة مشتعلة وكان لهبها يهتز ورآه من بعد إذ كانت الردادات مازالت مفتوحة . وفى مقدوره أن يرى بوضوح أرضية الغرفة حيث إنها أوطأ قليلا من الطريق الذى ارتفع فى مدى القرون العديدة التى مرت منذ بنى هذا البيت . ومن الواضح أن «سو» عادت توا إذ كانت تقف فى الردهة الخارجية للمنزل وقبعتها فوق رأسها والردهة غطيت حوائطها كلها بألواح من خشب البلوط، كما برزت من سقفها عوارض سميكة تدلت فكادت تصل إلى ماقبل الرأس بقليل .

وكان رف المدفأة من نفس النوع السميك من الخشب الممتلىء بالأعمدة المربوعة والنقوش البارزة . من الواضح أن مئات السنين تأخذ بتلابيب شابة تمضى حياتها فى هذا المكان القديم .

وفتحت « سو » صندوقا صغيرا من خشب الورد وأخذت تنظر إلى صورة بداخله ، وبعد أن تأملتها لحظة قربتها من صدرها ثم أعادتها إلى مكانها فى الصندوق . وعندما أدركت أنها لم تغلق النوافذ تقدمت والشمعة فى يدها لتفعل ذلك .

وكان الظلام حالكا فى الخارج فلم تستطع أن ترى « جود » وهو يقف فى مكانه أما هو فرأى وجهها فى وضوح ولاحظ أثر الدموع فى عينيها الداكنتين ذات الرموش الطويلة .

وأغلقت « سو » الردادات . واستدار ليقوم برحلته إلى بيته وظل يقول فى نفسه : «صورة من تلك التى كانت تنظر إليها ؟». لقد سبق أن أهداها مرة صورته ولكنه يعرف أن لديها صوراً أخرى . هل هى صورته بكل تأكيد ؟

وعرف أن عليه أن يذهب لرؤيتها مرة ثانية وذلك بناء على دعوتها له . إن ذوى الهمة من الرجال الذين قرأ عنهم والقديسين الذين دعتهم « سو » بلا احترام بأنصاف الآلهة ، كان لا بد أن يرفضوا القيام بهذه المقابلة لو لم يكونوا واثقين من مضاء عزيمتهم . أما هو فقـــد عجز عن المقاومة . كان من الممكن أن يصلى ويصوم طوال الفترة السابقة على المقابلة ، ولكن الجانب البشرى فى نفسه أقوى من الجانب الإلهى .

(٢)

ومهما يكن من أمر ، إذا لم يكن الله هو الذى يقرر مصير الأمور ، فعلى المرأة يقع عبء ذلك ، إذ مع صباح اليوم التالى جاءته هذه الرسالة القصيرة :

« لا تأت فى الأسبوع القادم ، وهذا لصالحك ! لقد أفرطنا بعض الشىء وذلك بتأثير تلك التسبيحة الحزينة بالإضافة إلى سحر الشفق . لا تفكر فىّ أكثر مما يجب » . « سوزانا فلوارنس مارى » .

كان أثر الصدمة عليه شديداً . كان يدرك طبيعة مزاجها وانفعالات وجهها عندما كتبت هذه الكلمات . ولكن ، مهما يكن من أمر مزاجها ، لم يستطع القول إنها مخطئة فيما رأت . وعلى ذلك كتب يقول :

« إنى موافق . وأنت على حق فيما ذهبت إليه . هذا درس فى الاستسلام على أن أعيه فى هذه الفترة من السنة » . « جود »

أرسل إليها هذه الرسالة ليلة عيد الفصح ، وبدا قرارهما وكأنه صار نهائيا ، ولكن قوى وقوانين أخرى كانت تعمل فى صمت . وفى صباح الاثنين التالى لعيد الفصح تسلم برقية من الأرملة « أيداين » إذ أمرها بالإبراق إليه فى حالة حدوث ما يدعو إلى ذلك . كانت البرقية تقول :

« دخلت العجوز فى غيبوبة . احضر حالا » .

وألقى « جود » بأدواته وغادر المكان . وبعد ذلك بثلاث ساعات ونصف كان يعبر الوهاد المحيطة « بميريجرين » والحقل المقفر ميمما شطر القرية من أقصر طريق فيه . وبينما هو يصعد الجانب الآخر أقبل عليه أحد العمال وكان يقف أمام الباب الخارجى يرقب مجيئه . لقد اضطرب هذا العامل قليلا وهو يهم بالكلام .

قال جود : « أدرك من وجهك أنها ماتت . يا للعجوز المسكينة ! » .

كان الأمر كما توقع ، وكانت السيدة « أيداين » هى التى أرسلت العامل ليزوده بالأخبار قبل دخول المنزل .

وقال العامل : « ما كانت لتتعرف عليك وهى ترقد كعروس من عرائس الأطفال بعينين زجاجيتين ، فلا يهم إذن إن كنت موجودا أم لا » .

ودخل المنزل . وفى الأصيل ، عندما انتهت كل الترتيبات للدفن واحتفى عمال الدفن البيرة وانصرف الجميع : جلس وحيدا وسط الصمت المخيم على المكان . وكان لا بد من أن يتصل بسو رغم أنهما اتفقا على قطع ما بينهما من صلات ، فكتب إليها يقول :

« ماتت الخالة « دروزيلا » . وكان موتها مفاجئا . ستكون الجنازة فى أصيل يوم الجمعة » .

وظل يتجول فى «ميريجرين» وفى أطرافها طيلة الأيام القليلة التى تلت ذلك . وفى

صباح الجمعة راح يتأكد من أن القبر أعد ، وأخذ يسأل نفسه عما إذا كانت «سو» تنوى الحضور . ولما لم تكتب له فى الفترة الأخيرة خيل إليه أنها لا بد آتية وأن حضورها هو الأرجح . ولأنه توقع حضورها بالقطار الوحيد الذى لا بد أن تستقله فإنه أغلق عند الظهر بابه وعبر الفضاء المزروع الموصل إلى المرتفع المحاذى للبيت الأسمر ، وهناك وقف يتطلع إلى المنظر الفسيح إلى الشمال و إلى الفضاء القريب حيث تقع « ألفردستون » . وخلفها بميلين لمح نقطة من بخار أبيض تندفع من يسار الصورة إلى يمينها .

وحتى اللحظة كان عليه أن ينتظر طويلا إلى أن يتأكد من أنها حقا وصلت . وعلى أية حال انتظر ، وأخيرا جاءت إلى أسفل التل عربة كراء صغيرة ونزل منها أحد الأشخاص ثم عادت من حيث أتت ، بينما بدأ المترجل يصعد التل . وأدرك أنها هى . ولقد بدت له غاية فى النحافة بحيث خيل إليه أنها قد تتحطم وتتلاشى من الوجود لو أنه ضمها إلى صدره ضمة قوية كتلك التى حرمت عليه ولم يعد من حقه أن يهبها لأحد . وفى الجزء الأكبر من الطريق الصاعد ارتفعت هامتها فجـــأة وأخذت مظهر الجزع المشتاق ، فأدرك لتوه أنها أحست بوجوده . وفى الحال ارتسمت على وجهها ابتسامة معبرة استمرت حتى وقف أمامها بعد أن قطع جزءا من الطريق .

وبدأت تقول فى اندفاع عصبى : « قلت فى نفسى من القسوة أن أتركك تحضر الجنازة وحدك ، وعلى ذلك أتيت فى اللحظة الأخيرة » .

غمغم يقول : « إنك العزيزة وإنك المخلصة يا « سو » ! »

وفى قلق يكشف عن خداع طبيعتها المزدوجة وضعت حدا لمزيد من التحية وأسرعت فى سيرها رغم أن وقت الدفن لم يكن تحدد بعد وأن لحظة من لحظات الانفعال المختلط الممزوج بالشجن كتلك ما كان الزمان ليسمح بمثلها ، لذا كان « جود » يفضل أن يقف ويتأمل ويتحدث . أما هى فإما أنها لم تدرك ذلك وإما أنها تدركه أكثر منه ولا تسمح لنفسها بالانسياق وراء هذه الانفعالات .

وسرعان ما انتهى الاحتفال الحزين البسيط، فقد كان سير المعزين إلى الكنيسة أقرب إلى الخطو السريع، إذ كان على منظم الدفن أن يعد بعد ساعة واحدة لجنازة أخرى أكثر أهمية وتبعد أميالا ثلاثة . وهكذا دفنت « دروزيلا » فى الأرض الجديدة بعيدا جدا عن أسلافها .

أما « سو » و « جود » فقد ذهبا إلى القبر معا ، وها هما الآن يجلسان للشاى فى البيت المألوف واتحدت حياتهما أخيرا فى هذا الواجب الأخير الذى كان عليهما أن يقوما به نحو قريبتهما المتوفاة .

وغمغمت « سو » تقول : « هل قلت إنها ظلت طول حياتها من المعارضين لنظام الزواج ؟ »

— « نعم ، وبخاصة زواج أفراد أسرتينا » .

وتقابلت عيناها مع عينيه واستقرت عليهما لحظة .

— « إن أسرتينا من الأسر التى يخيم الحزن على أفرادها . ألا تظن ذلك يا « جود » ؟ .

— « كانت المسكينة تقول إننا لا نصلح كأزواج وزوجات . نحن حقا نشيع التعاسة أينما حللنا ، وأنا على الأقل أحد هؤلاء » .

وظلت « سو » على صمتها . وأخيرا قالت فى صوت مرتعش : « ألا يجوز يا « جود » لأحد الزوجين أن يخبر ثالثا بأنه شقى فى زواجه ؟ إن كان احتفال الزواج شيئا من صميم الدين فلابد أن يكون إتيان أحد الزوجين أمرا كهذا من الأمور الخاطئة . أما إذا كان الزواج مجرد عقد تافه بين شخصين ، عقد أساسه التوافق فى شئون المنزل وأمور المادة التى تدور حول حصول الزوج على مركز فى المجتمع والتخفف من أعباء الضرائب وتوريث الأموال والعقارات الأطفال وغيرها مما يثبت وجود الزوج كما يبدو أنها الحقيقة ، ألا يكون من حق الفرد أن يقول ، بل أن يعلن على رءوس الأشهاد أن الزواج يشقيه ويسبب له الأذى والخسار ؟ » .

— « سبق أن قلت لك ذلك على صورة من الصور » .

ولكنها ظلت تقول : « أظن أن هناك حالات عديدة لزواج يكره فيه أحد الطرفين الآخر دون ما خطأ واضح ؟ » .

— « نعم أعتقد ذلك وبخاصـــة عندما يشعر أحد الطرفين بعاطفة نحو طرف ثالث » .

— «وحتى باستثناء ذلك ، ألا تعتبر الزوجة سيئة الخلق لو عافت نفسها الحياة مع زوجها لمجرد أن . . .

هنا تحشرج صوتها ، فحزر ما تود قوله . ومضت هي تقول :

— « ... لمجرد أن تحس بشعور مضاد ، تضايق طبيعى ، بعنت وشكاسة ، أو كيفما تسمى هذا ، على الرغم من أنها تحس بالاحترام والتقدير لهذا الزوج؟ إنى فقط أبسط أمامك قضية من القضايا . ألا ينبغى لمثل هذه الزوجة أن تحاول التغلب على أنفتها وتسعى للقضاء على دوافع التعنت فيها ؟ »

وهنا ألقى عليها نظرة قلقة وقال وهو يدير وجهه إلى الناحية الأخرى : « ان تكون هذه بأكثر من قضية من القضايا التى تتصارع فيها الخبرة مع المبادىء . وإذا تكلمت كرجل محب للنظام ، وآمل أن أكون كذلك ، وإن كنت أخشى أننى لست كذلك ، فينبغى لى أن أوافق على وجهة نظرك : أما إذا تحدثت من وحى الخبرة والطبيعة التى لا تنحرف يمنة أو يسرة فلابد أن أرفض الموافقة على هذا القول . « سو » . إنى أعتقد أنك لست سعيدة ؟ » .

قالت محتجة : « إنى سعيدة ، وهذا شىء مؤكد . كيف يمكن لامرأة تكون شقية ولم يمض على زواجها من الرجل الذى اختارته بمحض إرادتها أكثر من ثمانية أسابيع ؟ » .

— « محض إرادتها ! » .

— « ولم تكرر هذا القول ؟ ولكن على أن أعود بقطار السادسة . أما أنت فأظن أنك ستظلى هنا ، أليس كذلك ؟ »

ـــ « سأظل هنا أياما حتى أنجز أعمال الخالة . هذا البيت قد انتهى الآن .

ـ «هل أصحبك إلى القطار ؟ »

وهنا انطلقت منها ضحكة تعبر بها عن رفضها لما طلب ، وقالت :

« لا أظن بل قد تصحبنى جزءا من الطريق فقط » .

ـــ « ولكن لامفر لك من البقاء هنا ، إذ لن تستطيعى الرحيل هذه الليلة . لن يأخذك هذا القطار إلى « شاستون » ، فابقى حتى غد ، ولدى السيدة « أيداين » مكان لك لو كنت لا تودين البقاء هنا » .

قالت فى غموض : « ليكن . . فإنى لم أؤكد له أنى سأعود »

وتوجه جود إلى بيت الأرملة ليخبرها . وبعد فترة عاد وجلس فى مكانه ، وقال فى اقتضاب وعيناه على أرضية الغرفة :

ـــ « ما أبشع أن يتصادم مصيرنا على هذه الصورة يا سو » .

ـــ « ولم هـــذا القول ؟ »

ـــ « لا أستطيع أن أخبرك بنصيبى من المأساة . أما نصيبك فهو أنك ما كان يجدر بك أن تتزوجيه . أدركت ذلك قبل أن تنوى بما قمت به ، ولكننى قررت بينى و بين نفسى أن أبتعد ، وكان ذلك خطأ منى ، إذ كان ينبغى لى أن أتدخل . »

ـــ « ولكن ما الذى يجعلك تفترض صحة هذا الزعم أيها العزيز ؟ »

ـــ « لأنى أستطيع أن ألحظ دخيلة نفسك وأدرك حقيقة ما أنت فيه على الرغم من كل شىء ياحمامتى الصغيرة . »

ووضعت يدها على المائدة ، فمد يده ووضعها فوقها ، ولكنها أسرعت فسحبت يدها .

وصاح يقول : « سخيف منك هذا يا «سو» ، وخاصة بعد كل الذى ذكرناه . إنى أكثر منك حرصا لو أن الأمر يتعلق بالأصول ، وإن اعتراضك على مثل هذه الحركة البريئة ليدل على أنك مليئة بالمتناقضات المضحكة . »

قالت فى ندم : « ربما كان ذلك مبالغة منى فى التجشم . خيل إلى أنها إحدى حيلنا وأن لا لزوم لها الآن . هاك يدى تستطيع أن تمسك بها كما تريد . ترى هل ما أفعله الآن صحيح ؟ »

— « نعم . إنه صحيح للغاية . »

— « ولكننى لا بد أن أخبره بهذا . »

— « تخبرين من ؟ »

— « ريتشارد . »

— « أوه . طبعا . لو رأيت ضرورة لذلك . ولكنك ستضايقينه بلا مبرر لو فعلت ذلك . »

— « حسن . ولكن أمتأكد أنت أنك تفعل ذلك كأحد أقربائى ؟ »

— « بكل تأكيد . لم يبق لدى شعور بالحب أستطيع أن أمنحه لأى إنسان . »

— « هذا جديد على . وكيف حدث ذلك ؟ »

— « رأيت أرابيلا . »

وأحست بالوجيعة لهذه اللطمة وقالت فى فضول : « ومتى رأيتها ؟ »

— « عندما كنت فى كرايستمينستر » .

— « عادت إذن ولم تخبرنى بذلك . أظن أنك ستعيش معها الآن ؟ »

— « طبعا ، وسأعيش معها كما تعيشين أنت مع زوجك سواء بسواء . »

وظلت تتطلع إلى أصص الزهر الموضوعة على النافذة وتتأمل ما فيها من إبر الراعى ونبات الصبار وقد ذوت جميعها لافتقارها إلى العناية . وأخذت تلقى ببصرها إلى أبعد من ذلك حتى بدأت عيناها تمتلئان بالدموع . فقال فى نبرة ناعمة : « ما الخبر ؟ » .

— « ولم تتملكك الفرحة هكذا لعودتك إليها . لو كان ما اعتقدت أن

تقوله لى مازال هو الواقع . أقصد لو لم تكن تقول حينذاك سوى الحقيقة ؟ طبعا ليست هذه الحقيقة الآن ، وإلا كيف يمكن لقلبك أن يعود لأرابيلا هكذا سريعا ؟ »

— « أعتقد أنه وحى إلهى عاونه على سلوك هذا الطريق . »

قالت فى شىء من الغضب : « آه . ليس هذا هو الواقع . أنت تتعمد إغاظتى ، وهذا كل ما فى الأمر ، لأنك تظن أننى لست سعيدة ! » .

— « لا أعرف ، ولا أريد أن أعرف . »

— « إن كنت شقية فى زواجى فذلك خطأى بل قل ذنبى ، وليس لأن من حقى ألا أبادله حبا بحب . إنه يحترمنى دائما ، وهو شائق جدا فى حديثه لعلمه الغزير واطلاعه الواسع . ما رأيك ؟ أينبغى للرجل أن يتزوج امرأة من سنه أو أصغر منه بثمانية عشر عاما كما هو الحال معى ؟ »

— « الأمر متوقف على شعور كل من الزوجين إزاء الآخر . »

ولم يشجعها على اصطناع أسباب الرضا بالنفس . لهذا كان عليها أن تسلك هذا الطريق دون معاونة منه . وهذا ما فعلته وفى صوتها ما ينم عن الهزيمة ويشبه البكاء .

— « أظن . . . أظن من واجبى أن أكون أمينة معك كما كنت أمينا معى . من الجائز أنك أدركت ما أود أن أفصح عنه ، وهو أنى إن كنت أحب السيد « فيلوتسون » كصديق ، لا أحبه كزوج ، ومن العذاب لنفسى أن أعيش معه تحت سقف واحد . ها أنذا كشفت لك عن سرى الدفين ولم أستطع أن أمنع نفسى عن البوح لك به بعد أن تظاهرت بأنى سعيدة . أظن أنك الآن لا بد أن تحتقرنى إلى الأبد . »

وهنا أحنت رأسها ووضعت وجهها بين راحتيها وهما ممدودتان فوق مفرش المائدة وأخذت تبكى فى صمت وتزفر زفرات متقطعة اهتزت لها المائدة الصغيرة الضعيفة .

وطفقت تقول ، وهى منكفئة على المائدة تبكى وتنوح :

— « لم يمض على زواجي سوى شهر أو شهرين ، ولقد قيل إن ماتجفل المرأة منه في أثناء فترة الزواج الباكرة تعتاد تحمله ، بل لاتأبه له كثيرا بعد مرور بضعة أعوام . يشبه ذلك إلى حد كبير القول بأنه ما من خسارة تترتب على قطع عضو من أعضاء الجسد طالما في طاقة المرء أن يعتاد على ساق أو ذراع خبيثة » !

ولم يقو «جود» على الكلام . وبعد جهد قال : « ظننت أن في الأمر خطأ ما . أوه لقد ظننت ذلك حقا » .

— « ولكن ليس الأمر كما تظن . ما من خطأ إلا ما جبلت عليه من شر خبيث . وأغلب ظني أنك تسمي ذلك مني تمردا على الحياة الزوجية يعزى إلى سبب لا أستطيع الكشف عنه ولا يمكن أن يكون مقبولا لدى الناس كافة . إن مايعذبني كثيرا هو أنني لابد أن أستجيب لرغبات هذا الرجل وإن كان على خلق . يعذبني أيضا ذلك العقد المخيف الذي يربطني به والذي يرغمني على إتيان أمور في موضوع يقوم أصلا على الاختيار والطواعية . ليته يضربني أو يسيء معاملتي أو يأتي من الأعمال ما أستطيع أن أتحدث عنه كمبرر لشعوري نحوه ! غير أنه لم يفعل شيئا سوى أنه أصبح بارد العاطفة وذلك منذ اللحظة التي اكتشف فيها شعوري نحوه ! هذا هو السبب في أنه لم يحضر الجنازة ، كما أنه يحس أني غاية في التعاسة ، ولا أدري ماذا أفعل . لا تقترب مني يا « جود » لأنه ينبغي ألا تفعل ! أرجوك ألا تقترب مني . »

غير أنه كان قد قفز إلى جوارها واضعا وجهه أمام وجهها أو بالأحرى أمام أذنها إذ كان وجهها من الأشياء التي لا يمكن الاقتراب منها .

— « قلت لك لا تقترب مني يا « جود » .

— « أعرف أنك قلت ذلك . كل ما أريد هو أن أسرى عنك . إن ما بك من هم نشأ من أنني تزوجت قبل أن ألتقي بك . أليس الأمر كذلك ؟ كان من الممكن أن تصبحي زوجتي يا « سو » لو لم يحدث ذلك . أليس كذلك ؟ »

وبدلا من أن تجيب عن تساؤله نهضت من مكانها بسرعة . وبعد أن قالت

إنها تود الذهاب إلى قبر العجوز الراحلة فى ساحة الكنيسة كى تسترد هدوء نفسها غادرت البيت ، وظل هو فى مكانه . ولكنه بعد لحظة شاهدها تعبر الساحة الخضراء إلى بيت السيدة « أيدلاين » . وبعد لحظة جاءت صبية لتأخذ الحقيبة وتخبره أن « سو » غاية فى الإرهاق ولا تقوى على رؤيته ثانية فى تلك الليلة .

وفى غرفته الصغيرة المنعزلة فى بيت العجوز المتوفاة ، جلس يرقب بيت الأرملة « أيدلاين » وظلال الليل تطويه . كان يدرك أن « سو » تجلس فى داخل ذلك البيت وحيدة كسيرة الفؤاد مثله ، فتتذرع كعادته بحبل الصبر وأمل خيراً .

وآوى مبكرا إلى فراشه ليستريح . ولكنه نام نوماً متقطعاً لعلمه بأن « سو » قريبة منه . وقبيل الثانية صباحا عندما بدأ ينام نوما أكثر عمقا أيقظه صوت رفيع النبرة عالى النغمة كان يسمعه دائما فى أثناء إقامته فى « ميريجرين » . إنه صوت أرنب سقط فى كمين منصوب فأخذ يصرخ . وكما هى عادة هذه الخلوقات الضعيفة المسكينة توقف الأرنب سريعا عن الصراخ وقد لا يصرخ أكثر من مرة أو مرتين بعد ذلك بل يبقى صابرا على عذابه حتى اليوم التالى عندما يأتى الصياد فيهوى على رأسه بضربة تقضى عليه .

بدا ، وهو الذى كان فى طفولته ينقذ حياة ديدان الأرض ، يتخيل عذاب الأرنب وأوجاعه بسبب ساقه المكسورة ، فلو كانت المسكة رديئة — وذلك عندما تكون من إحدى الساقين الخلفيتين — فلا بد أن يكافح فى أثناء الساعات التالية حتى تجرّد أسنان الفخ الحديدية عظمة الساق مما يكسوها من لحم . ولو أمكن للحيوان أن يتخلص من سجنه بسبب عيب فى الفخ فسيقضى نحبه لامحالة فى الحقول القريبة وذلك بسبب ما لحق ساقه من عطب . أما إذا كانت المسكة جيدة ، وذلك عندما تكون من إحدى الساقين الأماميتين ، فلا بد أن تتكسر العظمة وتتمزق الساق بسبب ما يأتيه الحيوان من محاولات يائسة للهرب .

ومرت نصف ساعة ، وانطلقت صرخة أخرى من الأرنب . ولما كان «جود» لا يستطيع الصبر دون أن يخلص الحيوان مما به من آلام ، قام وارتدى ثيابه على

عجل ونزل السلم فى ضوء القمر وسار عبر الوادى المغطى بالعشب الأخضر فى اتجاه الصوت إلى أن بلغ السياج المحيط بحديقة الأرملة، وهناك وقف وأصاخ السمع إلى رنين الفخ وهو معلق بجسد الحيوان الذى يتلوى من الألم . وعندما رأى الأرنب أمامه ضربه بحد كفه على مؤخرة عنقه فزهقت روحه فى الحال .

وفى أثناء عودته شاهد امرأة تطل برأسها من حافة نافذة تقع فى الدور السفلى من الكوخ المجاور ، وسمع صوتا واهنا يتحدث إليه ، وكانت « سو » تقول : « إنه أنت . أليس كذلك ؟ »

— « نعم ياعزيزتى . . »

— « لم أستطع قط أن أنام ، ثم سمعت الأرنب، وأخذت رغما عنى أفكر فى سبب عذابه حتى شعرت بضرورة النزول إليه وقتله ! غير أننى فى غاية السرور لأنك ذهبت إلى هناك قبلى . ينبغى ألا يسمح للناس باستعمال هذه الفخاخ الحديثة . أليس كذلك ؟ »

وهنا كان « جود » قد بلغ النافذة ، وكانت منخفضة بحيث استطاع أن يرى النصف الأعلى لسو واضحا أمامه . ومدت يدها إليه ووضعتها فوق يده بينما كان وجهها الذى غمره ضوء القمر يتطلع إليه فى قلق ظاهر .

وقال : « وهل حال الصوت بينك وبين النوم ؟ »

— « لا : كنت يقظانة ! »

— « وكيف كان ذلك ؟ »

— « أوه ! ماذا أقول . . الآن ؟ إنى أعرف أنك بسبب معتقداتك الدينية تظن أن المرأة المتزوجة التى تعانى فى حياتها الزوجية اضطرابا من النوع الذى أعانيه الآن ترتكب ذنبا لايغتفر وخاصة لو أنها اتخذت من أحد الرجال نجيا لها كما هو حالى معك . وددت لو أننى لم أفعل ! »

قال : « لاتتمنى ذلك أيتها العزيزة . يحتمل أننى اعتقدت ذلك فى الماضى ، أما

الآن فقد دب الانفصال بين نفسي ومعتقداتي . »

— « عرفت ذلك . عرفت ذلك . هذا هو السبب في أنني أقسمت ألا أتعدى على معتقداتك، ولكنني سعيدة برؤيتك، وإنني حقا لم أقصد أن أراك مرة أخرى، وكنت عزمت على ألا أراك ثانية ، ولاسيما أن الرابطة الأخيرة التي تربطنا وهي العجوز « دروزيلا » لم يعد لها وجود الآن . »

وأمسك « جود » بيدها وأخذ يغمرها بالقبلات ويقول : « هناك رابطة أخرى أقوى من تلك . لن آبه بعد الآن بمعتقداتي وآرائي الدينية . لتذهب جميعها إلى الجحيم . دعيني أقف بجانبك حتى وإن كنت أحبك فعلا . . . وحتى إن كنت . . . »

— « لا تقلها . أعرف ما تقصد إليه. ولكنني لا أستطيع أن أسمح بكل هذا. والآن فلتظن ما يحـــلو لك . . . ولكن لا تضغط على لتضطرني للإجابة عن أسئلتك ! »

— « ليتك كنت سعيدة . هذه أمنيتي . ولا يهم بعد ذلك أمري . »

— « لن يكون هذا . فقليلون هم الذين يمكن أن يقدروا مشاعري . يقول البعض إن تعاستي مرجعها طبيعتي المتقلبة ، أو ما يشابهها من عوامل، ويدينونني تبعا لذلك . غير أن مأساتي ليست كأية مأساة أخرى تخلقها قصة حب عادية تنشأ في مجتمع متمدين ، ولكنها مأساة خاصة بغيرهم ، إذ أن ذوي الظروف العادية يجدون راحتهم في الفراق . ربما يكون من الخطأ أن أطلعك على مأساة حياتي لو أن في مقدوري أن أقصها على أي إنسان آخر . ولكنني وحيدة في العالم ، ولا مفر لي من التحدث إلى شخص ما . اسمع يا « جود » ، قبل أن يقر عزمي على الزواج منه لم أفكر طويلا في معنى الزواج ، وإن أدركت كنهه ، وكان ذلك غباء مني ، ولا ألتمس الأعذار لنفسي . لم أكن صغيرة حينئذ، وظننت أنني على درجة كبيرة من الخبرة، إلى أن اندفعت في ذلك المأزق الذي وقعت فيه بكل تهور وغباء في دار المعلمات . إنني واثقة من أن المرء لا بد أن يجازى عن الذنب الذي

يأتيه عن جهل . أعتقد أن ماحدث لى وقع لكثير من النساء ، ولكنهن استسلمن لقدرهن بينما تمردت أنا . عندما تنظر الأجيال الصاعدة إلى الوراء متأملة العادات البربرية والاتجاهات التى سادت الحقبة التى عشناها وابتلينا بها اسوء حظنا فما عسى أن يقولوا » .

ــ « يا للمرارة التى تنطوى عليها نفسك . كم أتمنى . كم أتمنى . . . » .

ــ « لا بد أن تذهب الآن » .

وفى لحظة اندفاع انحنت على حافة النافذة ووضعت وجهها فوق شعره وهى تبكى ، ثم طبعت على رأسه قبلة صغيرة لا تكاد تحس ، وبعدها مباشرة تراجعت مسرعة حتى لا يحيطها بذراعيه إذ كان لا بد له أن يفعل . وأغلقت . النافذة وعاد هو إلى كوخه .

(٣)

ترددت اعترافات « سو » فى مخيلة « جود » طول الليل وملأته حزناً . وفى الصباح التالى ، عندما حان وقت رحيلها ، رآها سكان الحى تسير فى صحبة رفيقها وتنزل التل متجهة نحو الطريق الخالى من الناس والمؤدى إلى « ألفردستون » .

ومرت ساعة قبل أن يعود « جود » فى الطريق نفسه . وعندما عاد بدت على وجهه مسحة من الابتهاج لاتخلو من التهوس والمجازفة ،ودل ذلك على أن حادثاما وقع .

وقف الاثنان فى الطريق الخالى . وكانا على وشك الافتراق . وقادتهما حالتهما النفسية المفعمة بالتوتر والانفعال إلى تساؤل حائر عن المدى الذى ينبغى أن تصل إليه صداقتهما العميقة . حتى كادا يشتبكان فى مشاجرة كلامية . وقالت له وعيناها مفعمتان بالدموع إن طالب اللاهوت مثله لايليق به أن يفكر فى تقبيلها ، حتى فى موقف الوداع كما ود فى تلك اللحظة أن يفعل . ثم سلمت بأن القبلة فى حد ذاتها لا تدل على شىء ، بل المهم هو الدافع إليها ، فلو كانت على اعتبار أنها من

صديق لصديق أو من قريب لقريب فلا اعتراض ولا ملامة . أما إذا منحت بدافع الحب فلا يمكن أن تسمح بها . لذا قالت له : « أتقسم لي أنك لن تقبلني قبلة المحبين ؟ » .

لكنه لا يرضى، فينفصل الاثنان في خصام، ويقطع كل في اتجاهه مسافة عشرين أو ثلاثين ياردة ، ثم يدير كل منهما وجهه للآخر في لحظة واحدة . وتلك النظرة تقضى على مظاهر التحفظ الذى يدعيه كل منهما لنفسه ، وسرعان ما اندفع كل منهما في اتجاه الآخر منجذباً إليه في شوق عميق ، وارتمى كل منهما في أحضان الآخر مغرقاً إياه في فيض من القبلات . وعندما راح كل منهما يسير في طريقه كان الانفعال واضحا على وجنتيهما . أما من جهته هو فكان قلبه يدق دقا عنيفاً متواصلا .

كانت القبلة نقطة تحول في خطة « جود » المستقبل . فعندما عاد إلى الكوخ وأخذ يفكر تكشفت أمامه حقيقة واحدة : فائن كانت قبلته لهذا المخلوق الأثيرى تعتبر ، وسط حياته المليئة بالذنوب ، أنقى لحظة فيها ، فإنه — ما دام يغذى في نفسه هذه العاطفة غير المشروعة — يصبح جنديا وخادما لدين يعتبر الحب الجنسى ، وهذا أضعف الإيمان ، لعنة من لعنات الحياة . كل ماتحدثت عنه « سو » في حرارة لم يعد الحقيقة مجردة عن كل شيء ، ففي استماتته في الدفاع عن حبه وتشبثه القوى بما يحمل لها من عاطفة مشوبة اتهام صريح له باعتباره أستاذاً من أساتذة الأخلاق السائدة في عصره . فهو عاجز بطبعه . هو عاجز بمركزه الاجتماعى ، عن القيام بدور الداعية لمذهب مسلم به .

ومما يثير العجب أن طموحه في المرة الأولى لتحقيق تفوق في مجال الدراسة الأكاديمية تعثر بسبب امرأة ، كما أن طموحه في المرة الثانية إلى تحقيق رسالة في مجال الدين وقف كذلك بسبب امرأة . فتساءل : « هل النساء هن الملومات أم الأوضاع المفتعلة للأشياء ؟ وهل يقع اللوم كله على ذلك النظام الذى تتحول فيه الدوافع الجنسية العادية إلى فخاخ عائلية ومصائد بيتية تحتجز الراغبين في الرقى وتعوق سيرهم ؟ » .

كانت رغبته الملحة أن يصبح ، مع شيء من التواضع ، نبيا لأقرانه المكافحين من بني البشر دون التفكير في أي نفع شخصي . وعلى الرغم من ذلك ، فبسبب وجود زوجته بعيدة عنه في عصمة رجل آخر ، بينما هو غارق في حب ضال وعاطفة شاردة ، والمحبوبة بسببه ساخطة على حياتها متمردة على مصيرها : جعله كل ذلك ينزلق إلى درك سفلي كاد يفقد فيه احترامه حسب الأوضاع المتعارف عليها .

لم يجد في نفسه القدرة على التفكير أكثر من ذلك ، ولم يبق له إلا أن يواجه الواقع ، وهو أنه يجعل نفسه مخادعا كمعلم دين يلتزم القانون .

وفي غسق ذلك اليوم ذهب إلى الحديقة حيث حفر حفرة صغيرة وضع فيها كل ما يملك من كتب دينية ومراجع ومؤلفات تبحث في علم الأخلاق . وكان يعرف أنه في بلاد المؤمنين الصادقين هذه لايباع الجانب الأكبر من تلك المراجع بثمن يزيد كثيرا على ثمن المهمل من الأوراق ، لذا رأى أن يتخلص منها على هذه الصورة حتى ولو كانت في فعلته تضحية بقليل من المال لإشباع رغبته في إتلافها . وبعد أن بدأ يشعل النار في بعض النشرات الصغيرة أخذ يمزق المجلدات الكبيرة إلى قطع صغيرة بقدر ما سمح به جهده ، وشرع ينشر القصاصات فوق اللهب مستعينا في ذلك بمذراة ذات شعب ثلاث ، فسرت النار وأضاءت المساحة الخلفية للمنزل وحظيرة الخنازير كما أضاءت وجهه ، وظلت تشتعل حتى أتت على كل ما في الحفرة .

وعلى الرغم من أن أحـــداً لم يكن يعرفه في تلك الناحية ، فإن أصحاب الأكواخ القريبة شرعوا أثناء مرورهم به يتحدثون إليه من خلال سياج الحديقة قائلين :

— « إنك تحرق مخلفات قريبتك المتوفاة » . « حقا تتراكم الأشياء في الزوايا والأركان عندما يعيش المرء ثمانين عاما في بيت واحد . »

كانت الساعة قد أشرفت على الواحدة صباحا قبل أن تتحول إلى رماد تلك الأوراق

والأغلفة السميكة لمجلدات « جيريمى تايلور » و « بتار » و « دودريدج » و « بأنى » و « بوسى » و « نيومان » وغيرهم . ولكن الليل كان هادئا ساكنا ، وكلما أدار الأوراق فى النار وقلب بالمذراة القصاصات أخذ شعوره بأنه لم يعد مخادعا لنفسه يخف ثم يتلاشى ، وبدأ السلام يعود إليه . وقد يكون من الممكن أن يستمر فى تفكيره واعتقاده ، غير أنه فى حالته الجديدة لم يكن مضطرا إلى التزام عقيدة بعينها ، وان يقيد نفسه بدين يضطره إلى ممارسته فى نفسه قبل أن يطالب الآخرين باعتناقه . والآن ستجعله عاطفته لسو يقف موقف المذنب العادى لا موقف المنافق الخادع .

فى تلك الأثناء كانت « سو » ، بعد أن تركته فى مطلع اليوم ، قد بلغت المحطة وفى عينيها دموع غزيرة ندما على ما بدر منها من عودة إليه واستسلام لقبلاته . وما كان ينبغى له أن يتظاهر أمامها بالبراءة والخلو من عواطف الحب ، وبذلك يدفعها إلى الاستسلام لشعور يجعلها تأتى ما يتعارض مع التقاليد ، إن لم يدخل فى نطاق الذنوب المقررة . كانت تميل إلى هذا الاعتبار الأخير ، إذ كان منطقها من النوع المعقد تعقداً خاصا ، فكانت تعتقد أن الشىء قبل أن يتم من الجائز أن يكون إنجازه من الأمور الصالحة . أما إذا تم فعلا فقد أصبح خطأ ، أو بمعنى آخر ما كان صحيحا نظريا يصبح عكس ذلك عمليا .

وترنح صوتها من الأسى وهى تقول لنفسها فى عجلة ودموعها تنهمر على خديها : « كنت أمامه غاية فى الضعف . كانت قبلتى له ملتهبة كقبلة الحبيب لحبيبه . كانت حقا كذلك . لن أكتب إليه بعد الآن ، أو على الأقل لن أراسله لفترة طويلة . وذلك حتى أستعيد ما ضيعت من كرامة . سيتوقع منى خطابا غدا صباحا ، وسيأتى الغد ، ثم اليوم التالى ، ثم اليوم الذى بعده ، من غير أن يتسلم الخطاب ، وآمل أن يتعذب بهذا . لسوف يعانى كثيراً وتتوتر أعصابه : وهذا ما أرجوه . سأشعر حتما بالسعادة لو حدث له هذا ! »

ثم فاضت فى عينيها دموع العطف على « جود » للآلام التى تنتظره والتى سيعانيها على يديها ، واختلطت هذه الدموع بتلك التى تذرفها حزنا على نفسها .

ثم تراءت لها صورة الزوجة الصغيرة الرقيقة المتزوجة من صاحب الشخصية المنفرة المنبوذة . صورة الفتاة الأثيرية الملائكية التي لا تصلح بحكم مزاجها الرقيق وأعصابها المرهفة للقيام بواجباتها الزوجية نحو « فيلوتسون » أو أي رجل آخر . تراءى لها ذلك وهي تسير في الطريق على غير هدى فاضطربت أنفاسها وأحست بألم في عينيها من كثرة ما حملقت أمامها في قلق يائس .

وفي محطة الوصول قابلها « فيلوتسون » وعندما رآها مبلبلة الفكر ظن أن اضطرابها لابد أن يعزى إلى الآثار الحزينة المتخلفة عن موت قريبتها وجنازتها . وشرع يحدثها عما فعله في يومه وكيف أن صديقه « جيلنجهام » ، وهو زميل قديم من زملاء المهنة ، زاره في بيته . وبينما كان « فيلوتسون » و « سو » بجواره في الحافلة المتجهة إلى المدينة ، قالت له بلا مقدمات وفي صوتها نغمة واضحة تدل على الندم والرغبة في تعذيب النفس ، وكانت في تلك اللحظة تتطلع إلى الطريق الأبيض وإلى الصفين المحيطين به من شجيرات البندق :

« ريتشارد . سمحت للسيد « فاولى » أن يمسك يدى فترة طويلة . لا أعرف رأيك في هذا وما إذا كنت تعتقد أنه عمل خاطىء » .

وأعاد كلامها إليه حواسه إذ من الواضح أنه كان غارقا في دوامة من أفكار ذات طبيعة مختلفة كل الاختلاف وأجابها دون اكتراث . « أوه . وهل فعلت هذا حقا ؟ ولم فعلت ذلك ؟ »

— « لا أدرى . كل ماهنالك أنه رغب في هذا فسمحت له . »

— « أرجو أن يكون سره ذلك . يخيل إلى أنه لم يأت بجديد . »

واعتصم كل منهما بحبل الصمت . ولو كانت هذه قضية معروضة أمام أحد القضاة من ذوى السلطة المطلقة ، لكان من الجائز أن يرى أمامه حقيقة جديرة بالملاحظة ألا وهي أن « سو » باحت بسر خطيئة صغيرة بينما تسترت على أخرى كبيرة ، إذ أنها لم تذكر كلمة عن القبلة .

ولما لم يكن فى المقصورة سرير ألقت على الأرض قطعة من السجاد وصنعت لنفسها فراشا صغيرا استلقت عليه فى أضيق ركن .

وعندما وقع بصره عليها نهضت من مكانها زائغة البصر وكانت ترتعش .

وصاحت فى وجهه تقول : « ما كان ينبغى لك أن تقتحم على المكان هكذا . لايليق بك أن تفعل ذلك . أرجوك فى حرارة أن تذهب من هنا إنى ألح عليك فى ذلك » .

وكان منظرها يثير العطف وهى فى قميصها الأبيض تقف فى الركن المظلم ضارعة متوسلة ولقد أقلقه ذلك كثيرا وملأ قلبه حزنا عليها . أما هى فظلت فى توسلاتها حاثة إياه ألا يقلقها .

قال : « عاملتك بعطف ومنحتك كل ما طلبت من حرية ومن القسوة أن يكون شعورك نحوى على هذه الصورة . »

وقالت وهى تبكى : « نعم أعرف ذلك . أعرف أننى مخطئة وأننى شريرة . إنى آسفة أشد الأسف ولكننى لست وحدى الملومة على ذلك . »

— « ومن الملوم إذن ؟ هل أكون أنا ؟ »

— « لا ! لكننى لا أعلم . قد يكون القضاء والقدر هو الملوم وقد تكون الأمور بوجه عام هى الملومة فكل شىء أصبح مخيفا قاسيا . »

— « لا فائدة ترجى من الكلام الآن ومثل هذا الحديث فى هذه الفترة من الليـــل لابد أن يسىء إلى كل منا . إذا لم نكن حريصين فى كلامنا فإليزا الخادمة ستسمع مايدور بيننا . فكرى فقط ماذا يكون موقفنا لوأن قسيسا فى هذه المنطقة رآنا ونحن على هذه الحال . إنى أكره مثل هذه المواقف النابية يا « سو » . إن عواطفك لتخلو من النظام والاتساق . ولكننى لن أفرض نفسى عليك بعدالآن وكل ما أنصحك به ألا تغلقى الباب غلقا محكما حتى لا أجدك مختنقة صباح الغد . »

وعندما نهض فى الصباح التالى أسرع بالتطلع إلى داخل المقصورة ولكن « ســـو » كانت قد نزلت إلى الدور السفلى تاركة الركن الصغير الملىء بخيوط العنكبوت وهو المكان الذى أمضت فيه ليلتها .

وقال فى مرارة : « يا المدى الذى تبلغه كراهية المرأة عندما تفوق هذه الكراهية فى قوتها الخوف من العناكب ! »

وفى الصباح وجدها جالسة على مائدة الفطور وشرع الاثنان يأكلان دون أن ينبس أحدهما بكلمة بينما يسير أهل الحى على الإفريز أمامهما ، أو بالأحرى جوانب الطريق حيث كانت الأفاريز نادرة فى تلك الناحية — وهو يعاو على أرضية الغرفة قدمين أو ثلاثة ، والمارة وهم سائرون فى طريقهم يومئون برءوسهم للزوجين السعيدين ويحيونهما بتحية الصباح .

قالت دون مقدمات : « ريتشارد ! . هل تسمح أن أعيش بعيدا عنك ؟ »

— « بعيدا عنى ؟ هذا ما كنت تفعلينه عندما تزوجتك وإلا فما معنى الزواج إذن ؟ »

— « ان تحبنى لو أخبرتك . »

— « لا أعترض على أن أعرف . »

— « لأننى ظننت أنى عاجزة عن فعل أى شىء آخر . تذكر أنك قبل ذلك بوقت طويل حصلت على وعد منى بأن أتزوجك . بعد ذلك ، وبمرور الزمن ، أسفت على أننى منحتك هذا الوعد وحاولت أن أجد وسيلة مقبولة للتحلل منه . ولما لم أستطع صرت لا أقيم وزنا كبيرا للأصول والتقاليد المرعية . أنت تذكر الفضائح التى ذاع خبرها وكيف أننى طردت من دار المعلمات بعد كل الذى تحملته من أجل إلحاقى بها . لقد فزعت أيما فزع لطردى من الدار وبدا لى أن الشىء الوحيد الذى كان فى مقدورى أن أفعله حينئذ هو أن أترك خطوبتنا تسير فى مجراها الطبيعى . طبعا أنا ، من بين جميع الناس ، ما كان ينبغى لى أن أقيم وزنا

لما قيل لأن كل ما قيل لم يتعد الأمور التى لم أعتقد أن آبه لها قط . ولكننى أحسست بالجبن ، كما هى عادة النساء ، وبذلك انهارت دعائم تحررى . ولولا ظهور هذه الاعتبارات على مسرح الحوادث لرفضت أن أتزوجك وبذلك كنت أسىء إلى شعورك مرة واحدة فقط وهــذا أفضل من أن أتزوجك فأسىء إلى شعورى طول حياتى معك . لقد كنت كريما معى غاية الكرم فلم تعر الإشاعات التى انطلقت عنى أى اهتمام . »

— « من واجبى أن أخبرك أننى فكرت فى هذه الإشاعات وسألت قريبك عن مدى صحتها . »

قالت فى دهشة ممزوجة بالألم . « حقا ! »

— « لم أشك فيك . »

— « ولكنك تحريت ! »

— « وثقت بكلامه . »

وهنا أغرورقت عيناها بالدموع وقالت : « لو أنه در ما تحرى ! »

ولكنك لم تجبنى . هل تسمح لى بالرحيل؟ أعرف كم هو شاذ أن أطلب . .

— « إنه شاذ . »

— « ولكننى أصر على طلبى ، ينبغى أن توضع قوانين الزواج وفقا لأمزجة الناس وهذه لابد أن تنصف . إذا كان الناس مختلفين فى شخصياتهم فلابد للبعض منهم أن يعانى من نفس القواعد التى تجلب الراحة للآخرين ! هلا أذنت لى ؟ »

— « ولكننا تزوجنا . . . »

وانفجرت تقول : « ما جدوى التفكير فى القوانين والشرائع إذا كانت تجلب التعاسة للإنسان فى حين أنه يدرك أنه لم يرتكب ذنبا .

— « ولكنك ترتكبين ذنبا بعدم حبك لى » .

— « إننى أحبك ! ولكننى ما كنت أظن أن الأمر سوف يكون أكثر من مجرد . . . عندما يعيش الرجل مع المرأة فى حياة زوجية بينما يحس أحدهما نحو الآخر بنفس ما لدى من إحساس فذلك معناه الزنا مهما كانت الأوضاع تتفق مع شرائع القوانين . والآن ، ها أنذا قد قلت لك كل شىء . هلا أذنت لى يا ريتشارد » ؟ .

— إنك تؤلمينى يا سوزانا بإلحاحك هذا .

— لم لا نتفق على أن يحرر كل منا الآخر ؟ كان العقد من صنعنا وعلى ذلك فى مقدورنا أن نلغيه . لا أقصد أن يكون الإلغاء قانونيا بالطبع ولكن يمكن أن يكون معنويا وخاصة أنه لم تقم بيننا مصالح جديدة كأطفال يحتاجون إلى رعايتنا . يمكننا أن نصبح صديقين كما يمكننا أن نلتقى دون أن يبعث هذا اللقاء الألم فى نفس أى منا . أتوسل إليك يا « ريتشارد » أن تكون صديقا لى وأن ترحمنى . الموت مصيرنا بعد بضع سنوات وعندئذ ماذا يهم لو أرحتنى وخففت من قيودى لحظة ؟ أكاد أجزم أنك تعتبرنى مجنونة أو مغرقة فى الحساســية أو سخيفة التفكير ! على أى حال ، لم يطلب منى أن أعانى من مصير فرض على فرضا ولا يسىء إلا لى أنا وحدى ؟ » .

— « ولكنه يسىء إلى . لقد أقسمت بأن تحبينى » .

— « نعم وهذه هى المسألة ! إنى مخطئة وهكذا كنت دائما ! من الإجرام أن يقيد المرء نفسه بحب واحد أو بعقيدة واحدة ومن الحمق أيضا أن تتعهد بحب طعام خاص أو شراب معين .

— « وهل معنى معيشتك بعيدا أنك ستعيشين بمفردك ؟ » .

— « لو صممت أقول نعم . ولكننى أقصد أن أعيش مع « جود » .

— « باعتبار أنك زوجته ؟ » .

— « بالاعتبار الذى أختاره » .

وأخذ « فيلوتسون » يتلوى فى مكانه بينما استمرت تقول : « كل من يترك الدنيا تختار له النظام الذى يسير عليه فى حياته يصبح فى غير حاجة إلى ملكاته باستثناء ملكة واحدة مستمدة من عالم القرود : القدرة على التقليد . تلك هى كلمات « جون ستيوارت ميل » قرأتها فى كتاب . لم لا نعمل بها ؟ كانت أمنيتى دائما أن أفعل ذلك » .

قال وهو يزفر من شدة الألم : « وماذا يعنينى من جون ستيوارت ميل ؟ كل ما أرجوه أن أعيش حياة هادئة . هل يضيرك أن أقول إنى حزرت مالم يخطر على بالى ، قبل زواجنا ، حزرت أنت تحبين ومازلت تحبين « جود فاولى » » .

— « تستطيع أن تظل فى حزرك طالما أنت بدأت ذلك فعلا . ولكن هل تعتقد أننى ، لو كنت حقا كما تقول ، أطلب منك أن تسمح لى بالذهاب إليه والحياة معه ؟ » .

وجاءت دقات جرس المدرسة تنقذ « فيلوتسون » من الإجابة عن سؤال ظن أنه ينطوى على استغلال صارخ لروح الخجل عنده . سؤال أطلقته فى لحظة يأس أخيرة . لقد بدأت تصبح بالنسبة إليه مخلوقا غامض الطوية يحيره ويضنيه لذا لم يتردد فى أن يضيف إلى طباعها الشاذة وشطحات خيالها المشبوب أغرب طلب يمكن لزوجة أن تتقدم به .

وفى ذلك الصباح سار الاثنان معا إلى المدرسة كعادتهما كل يوم ودخلت إلى فصلها وكان فى استطاعته أن يراها من خلال الحاجز الزجاجى كلما أدار عينيه فى اتجاهها .

وفى أثناء قيامه بما يستوجبه التدريس من حديث واستماع تقلصت جبهته وانعقد حاجباه ، من كثرة ما تجمعت الأفكار وتصارعت داخل رأسه وفى النهاية انتزع قطعة من الورق من كراسة أمامه وكتب فيها الآتى :

« ما طلبتيه يحول بيني و بين قيامي بعملي . لا أدرى » ما أقوم به الآن . هل أنت حقا جادة فيما تطلبين ؟ » .

وطوى الورقة طيات صغيرة ثم ناولها لأحد الصغار طالبا منه أن يعطيها لسو ، فانطلق الطفل فى غرفة الدرس متجها إليها . ورأى زوجته وهى تلتفت إلى الغلام ثم تتناول منه الورقة ، كما رأى رأسها الجميل منحنيا فوق الورقة ، وشفتيها الرقيقتين وهما تتقلصان قليلا لتحول دون ظهور انفعالات على وجهها تحت عيون الأطفال

ولم يستطع أن يرى يديها إذ كانت قد انتقلت من مكانها وسرعان ما عاد الغلام دون أن يحمل ردا على خطابه . وبعد دقائق جاءه غلام من غلمانها وبيده ورقة صغيرة تشبه تلك التى سبق أن بعث بها إليها . وقرأ الكلمات الآتية :

« إنى آسفة أشد الأسف إذ أقول إننى مازلت جادة فى طلبى » .

وبدا على « فيلوتسون » كأنما اضطرابه زاد فاختلج حاجباه وتقلصا مرة أخرى . وبعد لحظة استدعى نفس الغلام وسلمه رسالة أخرى تقول :

« يعلم الله أننى لا أريد أن أقف فى طريق رغبة معقولة من رغباتك . وكل ما أبغيه أن أعمل على راحتك وإسعادك ، ولكننى لا أستطيع أن أوافق على فكرة سخيفة شاذة تقول بذهابك إلى حبيبك لتعيشى معه إذ بذلك لا بد أن تفقدين احترام الناس جميعا ، كما لا بد أن يحدث لى نفس الشىء » .

وبعد لحظة حدثت فى الفصل حركة مشابهة وجاء الرد التالى :

« أعرف أنك تحب الخير لى ولكننى لا أود أن أحظى باحترام الناس .

« وإن تحقيق التنمية الإنسانية فى أرقى صورة من صور التنوع والاختلاف ، كتعبير « هامبلدت » كاتبك المفضل ، لهو فى رأيى أهم بكثير من اكتساب احترام الناس . إن ميولى واتجاهاتى لاشك متردية وأنت تراها كذلك ، بل إنك تراها

فى حالة يرثى لها ! لو حلت بينى و بين الذهاب إليه فهلا منحتنى هــذه الطلبة الوحيدة ألا وهى أن تسمح لى بالبقاء فى بيتك منفصلة عنك ؟ » .

ولما لم يرسل إليها رداً على ما طلبت كتبت مرة أخرى تقول : « أعرف ما يدور فى تفكيرك ولكن ألا تستطيع أن تكون رفيقا بى ؟ أرجوك ، بل أتوسل إليك أن تشفق على . ما كنت أطلب العون منك لو لم أكن أعانى مما لا طاقة لى به . ما من امرأة ودت أكثر منى لو أن حواء لم تقع فى المحظور وبذلك كان يمكن أن تسود الجنة « كاعتقاد بعض المسيحيين البسطاء » أنواع من المخلوقات البسيطة التى لا نفع فيها ولا ضرر . ولكننى لست الآن بهازلة . ترفق بى حتى لو لم أكن رفيقة بك . سوف أرحل . سوف أهاجر من هذه البلاد . سأذهب إلى أى مكان وبذلك لن أسبب لك أى متاعب . »

ومضت ساعة وبعدها جاءها رده :

« لا أود أن أعذبك وأنت تعلمين ذلك جيداً . امنحينى بعض الوقت وأؤكد لك أننى أوافق على هذا الرجاء الأخير الذى توجهينه إلى . » وجاءته كلمة منها أخيرة :

« أشكرك من كل قلبى يا «ريتشارد» . أنا لا أستحق منك كل هذا العطف »

وظل « فيلوتسون » طوال يومه يرمقها من خلال الحاجز الزجاجى بينما أحس أنه وحيد تائه كما كان قبل أن يعرفها . غير أنه كان أمينا على وعده فوافق على أن يعيشا فى البيت منفصلين . وفى مبدأ الأمر ، عندما تقابلا على مائدة الطعام ، بدا عليها أنها أكثر تقبلا لحياتها الجديدة وإن كانت دقة موقفها بدأت تترك أثرها على طبيعتها ومزاجها فبدت أعصابها مشدودة كأوتار القيثارة وأخذت تتحدث بألفاظ وكلمات غامضة مفككة حتى تقطع عليه سبيل الكلام .

(٤)

وكما تعود أن يفعل ، ظل « فيلوتسون » ساهرا حتى ساعة متأخرة من الليل فى محاولة لتنظيم المواد التى جمعها فى أثناء إشباع هوايته للآثار الرومانية ، وكان

قد أهملها فى الفترة الأخيرة . والمرة الأولى منذ أن استأنف العمل فى ميدان هوايته المفضلة ، أحس أن حبه القديم لها بدأ يعود فى قوة فنسى الزمان والمكان . وعندما عاد إلى نفسه وأوى إلى فراشه كانت الساعة قاربت الثانية صباحا .

لقد أصبح الآن مشغولا شاردا إلى حد أنه على الرغم من أنه صار يؤثر النوم فى الجانب الآخر من المنزل ، توجه إلى الغرفة التى كان يقطنها مع زوجته عندما استأجر البيت لأول مرة والتى أصبحت خاصة بها وحدها منذ أن دب الشقاق بينهما ، فدخلها وشرع يخلع ملابسه دون أن يشعر .

ومن الفراش المجاور صدرت صرخة مدوية تصحبها حركة سريعة . وقبل أن يدرك أين كان ، وقع بصره على « سو » وهى تنهض والنعاس يملأ جفنيها ورآها وهى تهب واقفة على أرض الغرفة فى الناحية الأخرى من السرير وهى الناحية المجاورة للنافذة . وكانت هذه مختفية بعض الشىء خلف ظلة السرير . وبعد لحظة سمعها وهى تفتح الردادة . وقبل أن يدرك أنها ترمى إلى أكثر من استنشاق بعض الهواء ، كانت قد قفزت إلى قاعدة النافذة وألقت بنفسها وسط الظلام . وبعدها سمع صوت ارتطام جسدها بالأرض .

ونزل « فيلوتسون » السلم ركضا والرعب يملأ قلبه . وبعد أن فتح الباب الخارجى صعد الدرجات القليلة المؤدية إلى سطح الطريق وللحال شاهد على الحصى أمامه كومة بيضاء . فانحنى فوقها وأخذها بين ذراعيه وبعد أن حملها إلى القاعة أجلسها على مقعد وأخذ يطيل النظر إلى وجهها على الضوء المتراقص للشمعة إذ كان قد وضعها فى مجرى الهواء وثبتها على آخر درجة من درجات السلم .

ووجد « فيلوتسون » أنها ما زالت على قيد الحياة إذ أنها نظرت إليه بعينين لا تعيان شيئا . وعلى الرغم من أن عينيها لم تكونا كبيرتين بشكل خاص ، فقد أصبحتا كذلك الآن . وأخذت تتحسس جانبها وتدعك ذراعها كما لو كانت تحس بالألم وبعدها ، نهضت واقفة وهى تتحاشى النظر فى عينيه .

— « شكراً لله فما زلت على قيد الحياة . لقد نجوت وإن كانت نجاتك بسبب خارج عن إرادتك . أرجو ألا تكونى أصبت إصابة بالغة » .

لم تكن سقطتها بالشيء الخطير ، ومن الجائز أن قرب النافذة من الأرض وارتفاع مستوى الطريق كانا السبب فى ذلك . وباستثناء خدش فى المرفق ورض فى الجنب فإن الضرر الذى لحقها لم يكن بذى بال .

وبدأت تقول وما زالت تشيح عنه بوجهها الأصفر : « كنت مستغرقة فى النوم عندما أرعبنى شيء ما ـ كان حلما مفزعا ـ أعتقد أنى رأيتك » ، وهنا بدأت تعود إلى حالتها الطبيعية فتوقفت عن الكلام .

وكان رداؤها معلقا فوق الباب فتناوله « فيلوتسون » ولفّ به جسدها ونفسه كسيرة . قال لها فى حزن إذ أن دلالات هذا الحادث جعلته ينظر إلى نفسه وإلى كل شيء نظرة عابسة : « هل أساعدك فى الصعود إلى أعلى المنزل ؟ » .

— « لا . أشكرك يا « ريتشارد » إصابتى طفيفة للغاية . أستطيع السير » .

قال لها فى لهجة آلية كما لو كان فى الفصل يلقى درسا : « ينبغى أن تغلقى باب غرفتك بالمفتاح وفى هذه الحالة لن يستطيع أى إنسان أن يفتحه حتى عن طريق المصادفة » .

— « حاولت ذلك ولم أستطع فأقفال جميع الأبواب لا تعمل » .

وكان كلامها هذا يدل على أن مظاهر الأمور ما زالت على حالها دون تحسن . ثم أخذت تصعد السلم فى بطء . وفى تلك الأثناء سقط ضوء الشمعة المهتز على قوامها . وظل « فيلوتسون » بعيداً عنها ولم يحاول الصعود حتى سمعها وهى تدخل غرفتها وبعد ذلك أوصد الباب الأمامى بالمزلاج . وعنـــد عودته جلس على الدرجات السفلى للسلم ممسكا إحدى الدرجات بإحدى يديه ومتكئا بجبهته فوق الأخرى وظل هكذا وقتا طويلا . لقد كان منظره هكذا يثير الشفقة فى قلب كل من يراه . وأخيراً رفع رأسه وزفر زفرة يعلن بها عن أن المهمة التى يعيش من أجلها لا بد أن تسير فى طريقها المرسوم سواء كان يعيش مع زوجة أو لا .

وتناول الشمعة وارتقى السلم متجها إلى غرفته الخاوية ، وكانت تقع فى الجانب الآخر من الدور العلوى .

وإلى أن جاء المساء التالى لم يقع حادث من شأنه أن يثير الموضوع مرة أخرى بينه وبين زوجته . وعقب المدرسة مباشرة خرج من « شاستون » سيراً على الأقدام بعد أن أعلن عن عدم حاجته إلى احتساء الشاى ودون أن يخبرها بالجهة التى يقصدها . ونزل منحدر المدينة مخترقا طريقا وعراً يتجه نحو الشمال الغربى وظل فى سيره إلى أن تغيرت معالم الأرض وتحولت من البياض الصخرى إلى السماد الطمى ، وشرع يسير فى الرواسب الطينية المتخلفة عن الأنهار القديمة حيث تل « دانكليف » هو العلامة للمسافر ، ونهر « ستور » يتدفق ظلاما فى ظلام .

وتلفت خلفه أكثر من مرة وحملقت عيناه وسط ظلمة المساء المتكاثفة وعلى خط الأفق وراءه ظهرت « شاستون » ظهوراً ضعيفا .

فوق الهامة البيضاء ليلا دوز والنهار ينصرم انصراما (١)

وتلألأت الأضواء الحديثة الاشتعال وخرجت من النوافذ وكان لها بريق ثابت خيل إليه أنه يتجه إليه وحده . أما إحدى النوافذ فقد كانت نافذته هو ومن ورائها استطاع أن يرى البرج ذا الشرفات لكنيسة « الثالوث الأقدس » . لقد كان الهواء مشوبا برطوبة صادرة عن التربة الطينية المتماسكة التى يقف عليها ولم يكن كالهواء فى المنطقة العليا بل كان غاية فى اللطف والرخاوة بحيث إنه بعد أن سار ميلا أو ميلين ، أحس بحاجته إلى أن يمسح وجهه بمنديله .

وبعد أن سار وتل « دانكليف » إلى يساره ، تقدم داخل الظل فى ثبات كما يفعل الرجل عندما يتجول بالليل أو بالنهار فى منطقة خبر طبيعتها منذ كان طفلا. لقد كان مجموع ما قطعه يقرب من أربعة أميال ونصف .

---

(١) من شعر « وليم بيرنز » .

« حيث يستمد نهر « ستور » قوته من ينابيع ستة صافية السلسبيل » (١)

وذلك عندما عبر رافداً من روافد نهر « ستور » . وبلغ « ليدنتون » وهى مدينة صغيرة لا يزيد سكانها على ثلاثة أو أربعة آلاف نسمة ، وهناك سار قاصداً مدرسة البنين ودق باب بيت الناظر .

فتح الباب طالب من طلاب المعلمين وكان يقضى فترة التمرين العملى عند السيد « جيلنجهام » ناظر المدرسة . وعندما سأل « فيلوتسون » عما إذا كان الناظر موجوداً بالمنزل أجابه الطالب بالإيجاب ثم تركه ومضى ، فأخذ « فيلوتسون » يتحسس وحده الطريق إلى داخل البيت . وفى النهاية وجد صديقه وكان يعيد بعض الكتب إلى أماكنها بعد أن استعان بها فى إلقاء دروس المساء . وعندما انعكس ضوء المصباح على وجه « فيلوتسون » اتضح أنه وجه أصفر كئيب بالقياس إلى وجه « جيلنجهام » الذى تميز بالهدوء والرزانة . لقد كان الاثنان فى صباهما رفيقين ، كما كانا قبل الآن بسنوات عديدة زميلين فى الدراسة بكلية المعلمين فى « ونتونسستر » .

— « إننى سعيد برؤيتك يا « ديك » . ولكنك لست على ما يرام ! هل فى الأمر شيء ؟ » .

وتقدم « فيلوتسون » دون أن يحير جوابا ، وأغلق « جيلنجهام » خزانة الكتب وتقدم نحو الزائر وهو يقول : « عجبا ! لم أرك أخيرا . منذ متى لم أرك ؟ منذ أن تزوجت ؟ ذهبت لزيارتك كما تعلم ولكنك لم تكن بالبيت . حقا يا لها من مسيرة شاقة وخاصة بعد حلول الظلام لهذا أنتظر حتى يتحسن الجو ويطلع النهار قبل محاولة القيام بهذه الرحلة الشاقة مرة أخرى . على أى حال يسعدنى كثيرا أن أراك وقد أسرعت أنت بالمجىء دون أن تنتظر تغير الجو » .

— « لقد جئت يا « جورج » لأفسر لك الأسباب التى تدعونى إلى الإقدام

---

(١) من شعر الشاعر « درايتون » .

على ما أنا على وشك أن أقدم عليه وذلك حتى تكون على بينة من دوافعى لو تشكك الناس فى صحة تصرفى ، ومن الجائز أن يفعلوا ذلك بل من المؤكد أنهم سوف يفعلون . على أننى أرى أن أى شىء ، مهما يكن ، أفضل مما أنا فيه الآن . أرجو الله أن يجنبك المحنة التى أقاسى منها هذه الأيام » .

— « استرح الآن . أنت طبعا لا تقصد أن هناك شيئا بينك و بين السيدة « فيلوتسون ؟ » .

— « بل إننى أعنى ذلك . إن ما يحزننى هو أننى أهيم حبا بزوجتى بينما هى لا تحبنى . ليس هذا فحسب و لكنها — ولكنها — على أية حال لن أقول شيئا . أنا أعرف شعورها وكنت أفضل لو تحمل لى الكراهية ؟ » .

— « اصمت يا رجل » .

— « المحزن فى قصتى هو أننى الشخص الذى يلام على كل شىء » . لقد كانت ، كما تعلم ، إحدى طالبات المعلمات وكنت أتولى تدريبها وعملت على استغلال ضعف خبرتها بأمور الحياة وأخذت أدعوها للخروج معى ، بل دفعتها للموافقة على خطبة طويلة قبل أن تدرك حقيقة عواطفها من نحوى . بعد ذلك التقت بشخص آخر و لكنها قامت بتنفيذ وعدها بالزواج تنفيذاً أعمى » .

— « وهل هى تحب الشخص الآخر ؟ » .

— « نعم وتهتم بشئونه اهتماما خاصاً وإن كانت حقيقة شعورها من نحوه ما زالت لغزاً بالنسبة لى وله أيضا على ما أعتقد ، وقد يكون الأمر كذلك بالنسبة لها . إنها مخلوقة من أعجب من قابلت فى حياتى . على أية حال صدمتنى فى أمرها حقيقتان التفاهم العميق ، بل التشابه التام بينها و بين صديقها فهو أحد أقربائها وهذا يفسر جزءاً من هــــذه الحقيقة إذ يبدو عليهما أنهما شخص واحد شطر شطرين . أما الحقيقة الثانية فتبدو فى بغضها المتأصل لشخصى باعتبارى زوجا لها وهذا على الرغم من أنها تميل إلى باعتبارى صديقاً . ما عدت أحتمل أكثر مما

احتملت . لقد كافحت بأمانة لتغيير هذا الوضع ولكن لم أحظ بأى نجاح . إننى لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك كما أنى لا أستطيع أن أجاريها فى محاوراتها فهى أكثر منى اطلاعا وأكثر ثقافة ويتألق عقلها كقطعة من ماس بينما ينطفىء عقلى كقصاصة ورق احترقت وتلاشت . إنها تفوقنى بمراحل ! » .

— « سوف تتغير فى الوقت المناسب » .

— « كلا ، مطلقا . أحب أن أقول لك — ولكننى أفضل ألا أخوض فى مثل هذه الأمور الآن — إنها لن تغير ما بنفسها وأنا أعرف أسباب ذلك . سألتنى ، وكان سؤالها فى حزم هادىء ، إذا ما كانت تستطيع أن تتركنى وتذهب إليه . لقد بلغ الأمر غايته فى الليلة الماضية عندما دخلت غرفتها مصادفة فقذفت بنفسها من النافذة . على هذا النحو القوى كان خوفها منى ! لقد تظاهرت بأنها كانت تحلم ولكن كان ذلك مجرد وسيلة لتهدئنى . وعندما تقفز امرأة من النافذة دون أن تفكر إذا كانت معرضة للموت أولا فلا يخطىء الإنسان فى اكتشاف الدافع لها على ذلك . ولما كان الوضع هكذا ، توصلت إلى قرار هو أن « من الخطأ الاستمرار فى تعذيب إنسان مثلنا ولن أكون أنا الفظ الغليظ القلب الذى يقبل مثل هذا الأمر مهما كلفنى ذلك من ثمن ! » .

— « ماذا — وهل تسمح لها بالرحيل ؟ ومع حبيبها ؟ » .

— أما مع من ترحل فهذا من شأنها هى . سأسمح لها بالرحيل معه قطعا لو كانت هذه رغبتها . أعرف أننى عندما أمنحها موافقتى لا أستطيع أن أدافع عن نفسى لا فى مجال المنطق ولا فى مجال الدين كما لا أستطيع أن أوفق بين رغبتها والمبادىء التى نشأت فيها . شىء واحد فقط أعرفه الآن جيداً . أعرف أن هناك شيئا فى أعماق نفسى يصرخ معلنا أننى أرتكب خطأ جسيما إذا لم أجبها إلى ما تطلب . إنى كغيرى من الرجال أعتقد صادقا لو أن زوجا من الأزواج طلبت منه زوجته مثل هذا الطلب المناقض للعقل فالطريق الوحيد الذى يمكن أن يكون طريق الحكمة والشرف هو أن يرفض الزوج مثل هذا الطلب وان يضع زوجته

فى حرز مغلق . وقد يقدم أيضا على قتل حبيبها . ولكن مثل هذا الإجراء أيعتبر حقا طريق الحكمة والشرف، أم أنه يشعر المرء بحقارته وأنانيته ؟ ليس فى وسعى الآن أن أجيب عن هذا السؤال ولكننى بكل بساطة أستوحى غريزتى وأترك المبادىء جانبا . لو أن شخصا قادته قدماه إلى السير وسط مستنقع وصرخ يطلب المساعدة للخروج من ورطته ألا يصبح من واجبى أن أمنحه هذه المساعدة لو كان ذلك فى مقدورى ؟ » .

— « ولكن — دعنى أقل ، هناك مشكلة الجيران . ثم المجتمع — ماذا يحدث لو أن كل فرد . . . » .

— « دعنا من ذلك فإن أنظر للأمور نظرة فلسفية بعد الآن . إنى أرى فقط ما يقع تحت عينى » .

قال « جيلنجهام » وقد تجهم وجهه : « على أى حال يا « ديك » أنا لا أوافقك على استلهام غريزتك فى مثل هذا الموقف . أقول لك الحق أنى إنى فى غاية العجب من أن شخصا وقوراً مكافحا مثلك يمكن أن يوافق لحظة واحدة على مثل هذا الجنون . قلت لى عنها عند ما زرتك فى المرة الماضية إنها غريبة ُ قلب وأعتقد الآن أنك أنت الغريب القلب ! » .

— « ألم يسبق لك أن وقفت أمام امرأة أنها فى أعماقها صالحة وتستعطفك لكى تطلق سراحها ؟ هل كنت مرة هذا الرجل الذى تتضرع إليه امرأة وتغرقه فى فيض من الابتهال ؟ » .

— « أقول بكل امتنان لم يسبق لى أن كنت ذلك الرجل . » .

— « إذن لا أظن أنك فى موقف تستطيع معه أن تدلى برأى أو تسهم بنصيحة . كنت أنا ذلكم الرجل وهنا تبدو قيمة الشهامة والرجولة حقا . ولما كنت قد عشت من حياتى عددا وفيرا من السنوات بعيدا عن النساء ، لم يكن

لدى أقل فكرة من أن مجرد اصطحاب سيدة إلى الكنيسة ووضع خاتم فى أصبعها يخلق مأساة كتلك التى أعيشها مع زوجتى الآن والتى نتقاسمها معا . »

— « على أى حال قد أعذرك فى السماح لها بهجرك على شريطة ألا تربط حياتها بحياة شخص آخر . أما أن تسير وفى أعقابها من يطارحها الغرام فذلك ما يجعل الأمر مختلفاً . »

— « ليس الأمر كما تقول . هب أنها — كأغلب الظن بها — تقبل الصبر على محنتها وتفضل ذلك على أن يدفعها إنسان إلى أن تعد بالعيش فى منأى عن الشخص الذى تحبه فما العمل ؟ هذه بالطبع قضيتها هى وهى قضية تختلف اختلافا كليا عن الخاتلة الناشئة عن العيش مع زوج تخونه . على أى حال ، لم يبد منها أنها تنوى حقا أن تعيش معه عيشة الأزواج ، وإن كنت أعتقد أنها ترمى إلى تحقيق ذلك . وبقدر ما يقودنى إليه فهمى ليس الشعور المتبادل بينهما مجرد دافع حيوانى أو انفعال شهوى وهذا أسوأ ما فى المسألة كلها إذ يدفعنى ذلك إلى الإيمان بأن عاطفتهما لابد دائمة . فاتنى أن أخبرك فى الأسابيع الأولى من الزواج ، وكان شعور الغيرة عليها أقوى ما يكون وقبل أن أعود إلى صوابى ، خبأت نفسى فى المدرسة ذات مساء وكانا يجلسان هناك معاً فسمعت كل ما قالاه . أنا الآن أشعر بالخجل لمسلكى هذا وإن كنت أعتقد أننى كنت وقتئذ أمارس حقا شرعيا . وجدت من خلال أحاديثهما أن عاطفة هائلة أو حبا عظيما تسرب إلى الرابطة الموجودة بينهما وطهرها من كل شائبة تشوبها . رغبتهما الكبرى أن يكونا معا أن يتقاسما الانفعالات والخلجات ، أن يشتركا فى الأحلام والأمانى . »

— « أحبا أفلاطونيا إذن ! »

— « أقول لا . بل هو حب على طريقة الشاعر « شيلى » وهذا إلى الواقع أقرب . إنهما يذكرانى بـ . . . . — ما اسماهما ؟ — « لاؤون وسيثنيا » . وهما أيضا يشبهان قليلا « بول وفرجينيا » . كلما فكرت أحسست أننى فى جانبهما قلبا وقالبا . »

— « لكن لو فعل كل الناس كما تريد هى أن تفعل ، فلا مناص من وقوع تفكك عام فى الحياة العائلية ولن تصبح العائلة وحدة المجتمع . »

قال « فيلوتسون » فى حزن : « نعم أغلب الظن أنى أضرب فى واد آخر . لم أكن قط ممن يحسنون التفكير المنطقى المنظم وأنت تذكر ذلك جيداً . ومع ذلك ، ألحق أقول لك ، لم لا نعتبر الأســاس فى الأسرة الزوجة والأطفال لا الزوج . »

— « يا إلهى . المرأة رأس المجتمع ! هل هذا ما تقصد إليه يا « هارى ؟ »..
وهل تبشر هى الأخرى بهذا المبدأ ؟ »

— « لا لا . . . بل إنهـا ضعيفة الاعتقاد بأنى أفوقها فى هذا النمط من التفكير ـ على أى حال ، كل ذلك حدث فى الساعات الاثنى عشرة الأخيرة . »

— « سوف يكون لهذا العمل أسوأ الأثر على الناس فى هــذه الناحية .
يا إلهى ـ ما الذى سيقوله أهل « شاستون ! » ... » .

— « لا أقول إن هذا التأثير يمكن أن يحدث . لا أدرى ـ لا أدرى تماما ـ ... وكما سبق أن قلت ، لست سوى إنسان يستلهم شعوره لا عقله . »

قال « جيلنجهام » دعنا الآن نبحث الموضوع فى هدوء ولنشرب شيئا فى أثناء حديثنا . وهنا قام إلى أسفل السلم حيث أحضر زجاجة من نبيذ التفاح وأخذ كل منهما كأسا منها وبعدها استمر « جيلنجهام » يقول :

« أعتقد أنك مشتت النفس تائه الفكر فعليك أن تعود إلى منزلك وتعد نفسك لتحمل القليل من نزواتها ولكن عليك ألا تدعها تذهب . سمعت من كل الناس أنها مخلوقة رقيقة جذابة » .

— « آه ، حقا وهذا ما يبعث المرارة فى النفس . حسن ان أبقى بعد الآن إذ أمامى مسيرة طويلة علىّ أن أقطعها » .

وفى صحبة صديقه سار « جيلنجهام » جزءا من الطريق . وعندما افترقا أفصح

عن أمله فى أن تكون الاستشارة ، على ما فيها من غرابة ، تجديدا لما كان بينهما من صداقة قديمة . أما كلماته الأخيرة التى دوت خلال الظلام فكانت ـ « عليك بها ولا تتركها . » ورد « فيلوتسون » قائلا « نعم . نعم ! »

وعندما أصبح « فيلوتسون » وحده بين أطباق الليل ، وما من صوت سوى هدير المياه فى روافد النهر قال يحادث نفسه : « وأنت أيضا أيها الصديق « جيلنجهام » . خانتك الحجة كما خانت الآخرين ! » .

أما « جيلنجهام » فكان يقول فى نفسه فى أثناء عودته : أظن أن الصفع على الوجه جدير بأن يعيدها إلى صوابها وهذا ما أعتقد أنه ضرورى فى موقف كهذا » .

وجاء الصباح التالى وفى أثناء تناول الفطور قال « فيلوتسون » لسو : « فى استطاعتك أن تذهبى ومع أى شخص تريدين وأنا أوافق على ذهابك دون قيد أو شرط » .

وبمجرد أن انتهى « فيلوتسون » إلى هذا القرار بدأ ينظر إليه على أنه القرار الحق الذى يعلو على كل شك . إن الصفاء الوادع الذى أوجده فى نفسه شعوره بأنه يقوم بواجبه حيال امرأة ألقتها المقادير تحت رحمته ـ كاد يقهر حزنه على تركها .

ومرت بضعة أيام وحل المساء الذى فيه يجلسان معا لتناول طعام العشاء لآخر مرة . وكان المساء ملبداً بالغيوم عاصف الريح ومثله لا يعد نادرا فى مثل هذه المنطقة المرتفعة . كم انطبعت فى ذاكرته البصرية صورتها وهى تخطر فى رشاقة وسط الردهة كى تشاركه الشاى ! يالها من صورة مؤثرة لمخلوق نحيل ، ضاوى البدن ، لدن العود ، له وجه كامل الاستدارة وعليه مسحة من شحوب من كثرة ما عانى من قلق الأيام والليالى ، مسحة توحى بإمكانيات فاجعة تتعارض وما يصدر عن هذا الوجه من خفة ومرح فى لحظات الصفاء والتجلى . لقد انطبعت فى ذاكرته صور محاولاتها لتناول هذه القطعة من الكعك أو تلك وعجزها عن التهام شىء منها . أما سلوكها المضطرب الذى أوجدته خشيتها من أن تحرجه تصرفاتها فكان

من الممكن أن يفسره من ليس له بالموقف خبرة بأنها مستمدة من أن «فيلوتسون» قد أقحم نفسه عليها خلال اللحظات القليلة الباقية لها فى المنزل .

— « ينبغى أن تتناولى مع الشاى شريحة من اللحم أو بيضة أو أى شىء آخر فلن تستطيعى السفر دون طعام . » وتناولت منه شريحة اللحم وبدأ الاثنان يتبادلان الحديث فى موضوعات تدور حول المنزل وشئونه مثل أن يجد مفتاح هذه الخزانة أو تلك والديون الصغيرة التى سددت والتى لم تسدد وغير ذلك من توافه الأمور .

قال وهو يحاول أن يدخل على نفسها شيئا من الهدوء : « أنا بطبيعتى أعزب كما تعلمين ياسو فلن يضيرنى أن أعيش وحيدا كما يضير بعض الرجال الذين عاشوا فترة فى صحبة زوجاتهم . ثم إنه هناك تلك الهواية العظيمة التى تشغل بالى وهو البحث المسمى : «الآثار الرومانية القديمة فى إقليم وسكس !» . لا بد أن تشغل هذه الهواية كل ساعات فراغى » .

وقالت فى رقة زائدة : « لو أنك فى أى وقت أرسلت إلى بعض المخطوطات لأنسخها كما تعودت أن تفعل فى الماضى ، أعدك أن أنجزها فى أقصر وقت ممكن. إننى مازلت راغبة فى التعاون معك كصديق » .

وفكر « فيلوتسون » لحظة ثم قال : « لا ! إذ قررنا الانفصال ينبغى أن يكون انفصالنا كاملا ولهذا السبب أود ألا أوجه إليك أية أسئلة كما أود منك ، بصفة خاصة ، ألا تزوديني بأية أخبار عن حركاتك وسكناتك أو حتى عن عنوانك . والآن كم من المال ستحتاجين إليه إذ لا بد أن يكون معك بعض النقود كما تعلمين.

— « لم يدر بخلدى يا « ريتشارد » أن أعتمد على نقودك فى محاولاتى للانفصال عنك . إنى لست فى حاجة إلى المال ولدى ما يكفينى منه لفترة طويلة كما أن « جود » لا بد أن يعاوننى » .

« أفضل ألا تذكرى عنه شيئا لو كان ذلك لا يضيرك فى شىء . أنت مطلقة السراح تماما ولك أن تختارى الطريق الذى تسلكين » .

— « هذا جميل ولكننى أود أن أقول إننى جمعت بعض الملابس الخاصة وبعض الحاجيات الشخصية وأود منك أن تلقى نظرة أخيرة على حقيبتى قبل أن أغلقها . وبالإضافة إلى ذلك لدى لفافة صغيرة سيضمها « جود » إلى حاجياته » .

— « لن أسمح لنفسى بالبحث فى حاجياتك . أود أن تأخذى الجانب الأكبر من أثاث البيت فلا أحب أن يثقل على . ثمة علاقة عاطفية بينى وبين قطع معينة من هذا الأثاث وهى التى كانت تخص أمى قبل وفاتها . أما باقى القطع فيمكنك أن ترسلى فى طلبها عندما تريدين » .

— « وهذا ما لن أفعله على الإطلاق » .

— « سترحلين بقطار السادسة والنصف أليس كذلك ؟ .

الساعة الآن السادسة إلا ربعا . »

— « لايبدو - لايبدو عليك أنك حزين لفراق يا « ريتشارد » ! .

— « أوه لا - ربما لا » .

— « أحبك كثيرا لسلككك . ومن العجيب أننى أحبك بمجرد أن أنظر إليك على اعتبار أنك معلمى القديم وليس زوجى ولن يصل بى التظاهر إلى القول إننى أحبك لأنك تعلم أننى أحبك كصديق فحسب — وهكذا تبدو لى . »

وتندت عينا « سو » بالدموع لحظة لهذه السوانح وأخيراً جاءت الحافلة الذاهبة إلى المحطة فصعدت فيها وعاون « فيلوتسون » فى وضع حاجياتها فوق سقف السيارة وبعدها تظاهر بتقبيلها فى أثناء توديعها . وعندما أدركت ما رمى إليه فعلت هى الأخرى نفس الشيء . وبتأثير ما بدا على الاثنين فى أثناء الوداع من رضا واستبشار ، استقر فى ذهن السائق أنها ذاهبة لزيارة قصيرة .

وعندما عاد « فيلوتسون » إلى البيت صعد إلى أعلى المنزل ثم فتح النافذة ونظر فى الاتجاه الذى سارت فيه الحافلة وسرعان ما غابت الضجة الناشئة عن دوى العجلات . عند ذلك نزل إلى الدور السفلى ووجهه متقلص كوجه من تطفح

نفسه بالألم فوضع قبعته على رأسه وغادر المنزل سائراً مسافة ميل فى طريق العربة ثم استدار فجأة وعاد إلى البيت مرة أخرى .

وبمجرد أن عاد سمع صوت صديقه « جيلنجهام » وكان يجلس فى الغرفة الأمامية .

— « لم أجد أحداً بالمنزل ولما كان الباب مفتوحا دخلت وجلست . لقد وعدتك بالمجىء » .

— « نعم وأشكرك كثيرا يا « جيلنجهام » لمجيئك الليلة » .

— « وكيف حال السيدة ... » .

— إنها على ما يرام . رحلت وهذا كوبها الذى احتست فيه الشاى منذ ساعة فقط وهذا طبقها الذى ... » وهنا تحشرج صوته فى حنجرته فعجز عن الكلام وأدار وجهه وهو يدفع بالأكواب والصحاف جانبا .

وقال فى صوت متجدد : « بهذه المناسبة ، هل أقدم لك قليلا من الشاى ؟ »

وقال « جيلنجهام » وهو شارد الفكر : « لا — نعم . لا يهم ذلك كثيرا . تقول رحلت ؟ » .

— « نعم — إنى لعلى استعداد لأن أموت من أجلها ولكننى لا أقبل أن أقسو عليها تحت ستار القانون . رحلت لتلحق بحبيبها . لا أدرى شيئا عن مشروعاتهما المستقبل ومهما يكن من أمر هذه المشروعات فإنى أوافق عليها كل الموافقة » .

وكان فى نبرات صوت « فيلوتسون » من العزم والتصميم ما قطع الطريق على صديقه وحال بينه وبين التعليق على كلامه وأخيرا قال : « هل أتركك الآن ؟ » .

— « لا . لا . لقد رحمتنى بمجيئك . لدى بعض الأشياء ولا بد أن أقوم بتنظيمها وإعادتها إلى أماكنها فهلا عاونتنى على ذلك ؟ » .

ووافق « جيلنجهام » . وبعد أن صعد الاثنان إلى الغرف العليا من المنزل فتح « فيلوتسون » بعض الأدراج وشرع يخرج الأشياء الخاصة بسو ثم وضعها في صندوق كبير واستمر يقول : « رفضت أن تأخذ معها ما عرضت عليها أن تأخذه من هذه الأشياء . عندما انتهيت إلى رأى بشأن رحيلها ومستقبلها قررت أن أتنازل لها عن كل شيء . »

— « بعض الرجال ما كانوا ليقبلوا غير الانفصال » .

— « فكرت في كل هذا ولم أقبل أن أضعه موضع المناقشة . كنت وما زلت أكثر الرجال تمسكا بتقاليد الزواج . والواقع لم يسبق لى أن وقفت قط حيال الزواج وما يتعلق به من نظم وأخلاق موقف الناقد ولكن حقائق معينة صدمتني وعجزت عن مقاومتها . » واستمر الاثنان يقومان في صمت بأعمال الحزم والشد والنقل وعند الانتهاء منها جميعا أغلق « فيلوتسون » الصندوق وأدار المفتاح في قفله .

قال : « والآن ها هي جميع حاجياتها ولم تعد مهمة هذه الأشياء أن تجمل « سو » في عيني بل في عيني شخص آخر ! » .

(٥)

وقبل هذا بأربع وعشرين ساعة كانت « سو » قد فرغت من كتابة الخطاب التالي لجود :

« الأمر كما أخبرتك فأنا راحلة غدا مساء . يعتقد « ريتشارد » كما أعتقد أنا ، أن سفرى يجب أن يتم بعد الظلام إذ بذلك يكون أقل إثارة لفضول الناس . أشعر بالخوف يسيطر على مشاعرى لذا أطلب منك أن تقابلني على رصيف محطة « ميلشستر » . سأصل قبل السابعة بقليل . إنى طبعا واثقة من مجيئك في الوقت المحدد ولكنني أحس بأنى خائرة وهذا ما يجعلني أتوسل إليك أن تأتى في الميعاد .

كان « فيلوتسون » رفيقا فى غاية الرفق من أول الأمر إلى نهايته ! والآن أتركك حتى نلتقى » .

وبينما كانت الحافلة تحملها ، هى المسافرة الوحيدة ، وتنزل بها الطريق المنحدر خلافة وراءها المدينة الجبلية ، أخذت « سو » تتطلع إلى الطريق خلفها والحزن يكسو وجهها وإن لم يبد عليه أثر للتردد .

ووقف القطار الذى كانت تنوى أن تستقله وكان وقوفه كما هى العادة إثر إشارة من المسافرين الراغبين فى الصعود إليه . أما بالنسبة لسو فكان من الغرابة بمكان أن شيئا كبيرا وكيانا هائلا كالقطار يمكن أن يكف عن السير ويقف بإشارة من يدها هى الهاربة من بيتها وزوجها .

وبدأت الرحلة التى استغرقت عشرين دقيقة تقترب من نهايتها وشرعت تجمع أمتعتها استعدادا للنزول . وبمجرد أن توقف القطار على رصيف « ميلشستر » شاهدت يدا تستقر على مقبض باب العربة وبعدها رأت « جود » أمامها وللحال دخل المقصورة التى تجلس فيها وكان يحمل فى يده حقيبة سوداء ويلبس حلة أيام الآحاد وأمسيات الإجازات . لقد كان فى مجموعه يبدو غض الإهاب أنيق البزة وفى عينيه يتقد لهب حبه لها .

وفى انفعال شديد تناولت يده بكلتا يديها وأخذت تتأوه وتزفر وتئن فى تتابع مستمر وتقول : « جود » ، « جود » إنى . . . إنى فى غاية الفرح . . . فى غاية السرور . هل ننزل فى هذه المحطة ؟ »

— « لا بل سنبقى معاً هنا . أحضرت معى كل أمتعتى وبالإضافة إلى حقيبتى هذه وضعت فى القطار حقيبة أخرى كبيرة . »

— « ولكن ألا ننزل هنا ؟ ألسنا مزمعين البقاء هنا ؟ »

— « ليس فى استطاعتنا أن نفعل ذلك . ألا تنظرين ! الجميع هنا يعرفوننا

وهم يعرفوننى بصفة خاصة اشتريت تذكرتين لألدبريكهام وهاك التذكرة الجديدة حيث إن تذكرتك تنتهى هنا . »

قالت : « ظننت أننا سنبقى هنا . »

— « ان يكون بقاؤنا هنا بالأمر المناسب »

— « آه . حقا . »

— « لم يكن لدى وقت حتى أكتب لك محددا المكان الذى نستقر فيه . إن مدينة « ألدبريكهام » أكبر كثيرا من هذه المدينة وعدد سكانها يربو على السبعين ألفا وما من أحد يعرف عنا شيئا هناك . »

— « وهل انقطعت عن العمل فى الكاندرائية هنا ؟ »

— « نعم فالموضوع كله جاء دون مقدمات وتسلمت رسالتك فجأة . كان الواجب يقتضى أن أعمل حتى ينتهى الأسبوع ولكننى ادعيت أن عذرا طارئا يضطرنى إلى ترك العمل وبذلك سمح لى بتركه . إنى لعلى أتم الاستعداد لأن أترك العمل فى أى يوم وفقا لما تأمرين به أيتها العزيزة « سو » . من أجلك أهجر كل شىء . »

— « يحدثنى قلبى أننى أسىء إليك إساءة كبرى فأنا هدمت مستقبلك فى أن تصبح أحد رجال الدين كما قضيت على تقدمك فى مهنتك الحالية ، بل إننى أتيت على كل شىء ! » .

— « لم تعد الكنيسة الآن شيئا بالنسبة لى . لتبق كما هى فلن أصبح « أحد القديسين المقاتلين الذين يحترقون صفوفا صفوفا إلى أن تبلغ نيران تقواهم قدسهم الأعلى » إن كان هناك حقا شىء كهذا ! أما قدسى أنا فليس فوق ولكن هنا . »

قالت وفى نبرات صوتها نفس الانفعال : « ويحى ما أسوأنى من امرأة تعمل على هدم حياة الرجال وإفساد سبلهم ! » ولكن سرعان ما استعادت هدوء نفسها ، وطفقت تقول : « كان طيبا للغاية عندما سمح لى بالرحيل . هاك خطابا وجدته على المائدة صباح اليوم وهو موجه إليك » قال وهو يلقى بنظره إلى الخطاب :

« نعم إنه ليس بالشخص المجرد من الصفات الحميدة . إنى خجل من نفسى لكراهيتى إياه لأنه تزوجك ! » .

قالت والابتسامة على شفتيها : « وفقا للقانون الذى يحكم نزوات النساء أظن لابد لى من أن أتبدله فجأة فى حبه لأنه سمح لى بالرحيل دون أن أتوقع ذلك وكان معى غاية فى النبل . ولكننى غاية فى برود العاطفة ، أو قل غاية فى نكران الجميل أو ما يشبه ذلك إذ على الرغم من كل ما أظهره نحوى من كرم، ما شعرت أننى نادمة على ما بدر منى راغبة فى البقاء معه كزوجة . ومع ذلك فأنا أحب فيه اتساع أفق التفكير ، كما أننى أحترمه أكثر من أى وقت مضى » .

وغمغم « جود » يقول : « لو كان أقل كرما مما هو الآن لتعقدت أمورنا ولاضطررت إلى أن تهربى منه رغم إرادته .

— « ما كنت لأفعل شيئا كهذا . »

واستقرت عينا « جود » بعيدا عنها وأخذ يفكر . ثم عاد يقبلها فجأة وهم بتقبيلها مرة أخرى وعندئذ قالت له : « لا ! مرة واحدة فقط . أرجوك يا « جود » . »

قال : « هذه قسوة منك . » ثم نزل على رغبتها . وبعد فترة صمت بدأ يقول : « حدث لى شىء غاية فى الغرابة . وصلنى من « أرابيلا » خطاب تطلب منى أن أطلقها وتقول إننى لابد أن أمنحها الطلاق رحمة بها ، إنها تود أن تتزوج من ذلك الرجل الذى سبق أن تزوجته على أن يكون زواجها منه فى هذه المرة بالطريقة القانونية وهى تتوسل إلى كى أعاونها على تحقيق ذلك . »

— « وماذا فعلت ؟ »

— « وافقتها . فى مبدأ الأمر ظننت أننى لو وافقتها فلا بد أن تقع فى المتاعب بسبب زواجها الثانى وأنا لا أريد أن أسىء إليها بطريقة من الطرق فما أنا بأفضل منها . غير أننى وجدت أنه ما من أحد هنا يعرف شيئا عن هذا

الزواج ، كما تحققت أن الإجراءات لن تكون صعبة على الإطلاق . لو أرادت أن تبدأ حياتها من جديد، فلدى من الأسباب القوية ما يدعونى إلى عدم الوقوف فى سبيلها . »

— « وإذن ستصبح حرا ؟ »

— « نعم سأصبح حرا . »

وقالت بنفس التشتت الذهنى الذى اتسم به سلوكها فى تلك الليلة :

« وإلى أين نحن ذاهبان ؟ »

— « إلى « ألدبريكهام » كما قلت . »

— « ولكن ألا يكون الوقت متأخرا للغاية عندما نصل إلى هناك ؟ »

— « نعم . فكرت فى ذلك ولهذا السبب أبرقت إلى « فندق الاعتدال » لحجز غرفة لنا . »

— « واحـــدة ؟ »

— « نعم واحدة . »

ونظرت إليه وقالت وهى تطأطىء رأسها وتخفيها فى ركن المقصورة : « توقعت منك أن تفعل هذا وإنى أخدعك لو لم أقل ذلك . ولكننى لم أقصد هذا الذى يدور بخلدك . »

وفى لحظة الصمت التى تلت ظل ينظر إلى المقعد المقابل بعينين جامدتين خاليتين من أى تعبير وأخيرا قال : « حسنا ، حسنا ! »

وظل صامتا ، وعندما لاحظت شعوره بالخيبة قربت وجهها من خده وهى تقول فى نبرات غير واضحة : لا تتضايق منى أيها العزيز . »

قال : « ما من ضرر وقع ولكننى فهمت شيئا آخر . هل غيرت رأيك فجأة؟»

قالت وهى تبتسم : « ليس من حقك أن تسألنى مثل هذا السؤال ولن أجيبك ! »

ـــ « يا أعز الناس إلى ، إن سعادتك بالنسبة لى تفوق كل شىء على الرغم من أننا نكاد نأخذ بتلابيب بعضنا فى كثير من الأحيان . إنى أجد فى إرادتك قانونا لا بد من طاعته . أرجو أن أكون بالنسبة إليك أكثر من مجرد مخلوق أنانى . والآن افعلى ما يحلو لك ! »

وبدأت الحيرة على وجهه وهو يقول : « ولكن من الجائز أن حقيقة الأمر هى أنك لاتحبيننى ، وليست أنك أصبحت حريصة على التقاليد . وبقدر ما أكره التقاليد ـ وفقا لتعاليمك ـ بقدر ما أرجو وأتمنى أن تكون هى العامل الأساسى فى موقفك ، وليس الاعتراض الآخر الذى يملؤنى رعبا ! »

وحتى فى هذه اللحظة التى تشجع على الصراحة ، لم تستطع أن تكون صريحة تماما فيما يتعلق بقلبها ـ ذلك اللغز الغامض . وقالت فى عجلة كمن يريد أن يتهرب من موقف مؤلم : « تستطيع أن تعزو ذلك إلى الخور الطبيعى فى نفسى ، الخور المتصل بطبيعة المرأة عندما تقع الواقعة وتتأزم الأمور . قد أشاركك الشعور فى أنه من حقى أن أعيش معك على طريقتك ابتداء من هذه اللحظة وقد أحبذ الرأى القائل إنه فى مجتمع سليم يكون والد الطفل المولود من امرأة شيئا خاصا بها وحدها بقدر مايكون شكل ثيابها الداخلية من أخص أمورها ولايجوز لمخلوق أن يوجه إليها أسئلة فى هذا الشأن ولما كنت الآن حرة وكانت حريتى نتيجة لنبل أخلاقه وكرم نفسه ، أفضل كثيرا أن أكون على شىء من التزمت . لو كان فى الأمر هروب أو لو أنه طاردنا وهددنا بإطلاق النار علينا لكان الموقف مختلفا ولتصرفت بطريقة أخرى ! ولكن يا « جود » إياك أن تضغط على أو توجه إلى نقدا . عليك أن تفترض أننى خالية من الشجاعة التى تتسم بها آرائى . أعرف أننى مخلوق تعس يملأ اليأس نفسه وطبيعتى ليست جياشة بالعواطف كطبيعتك . »

وقال فى هدوء : « لقد فكرت وكان طبيعيا ذلك الذى فكرت فيه ، ولكن إذا لم نكن حبيبين لم نكن شيئا . أنا على يقين بأن « فيلوتسون » يظن أننا حبيبان هاك انظرى ما يتضمنه خطابه لى . » وهنا فتح الخطاب الذى سبق أن أعطته له وأخذ يقرأ : « إنى أشترط شرطا واحدا فقط : أن تكون رقيقا معها رفيقا بها . أعرف أنك تهيم بها حبا ولكن حتى الحب يمكن أن ينطوى على القسوة فى بعض الأحيان . لقد خلقتما لبعضكما البعض وهذا واضح ومحسوس لكل عاقل ذى عينين . لقد ظهرت فى حياتى الزوجية القصيرة وكنت بالنسبة لكلينا الشخص الثالث « المريب » . إنى أقولها مرة ثانية : احرص على « سو » . »

وقالت والدموع تترقرق فى عينيها : « ياله من مخلوق طيب . » وبعد لحظة تفكير أضافت تقول : « كان منعنا اقتدره فلم يعترض على رحيلى - بل مستسلما ! لم يحدث قط أن كنت على وشك أن أهيم به حبا كما كنت عندما اتخذ العدة لراحتى فى أثناء رحلتى إليك ، وعندما عرض أن يزودنى بالمال ومع ذلك ، لم أكن أحمل له حبا . لو أننى فقط أحس نحوه بقليل من الحب الذى تحمله الزوجة لزوجها فما لاشك فيه أننى أعود إليه وأنى لأعود حتى فى اللحظة الراهنة ! »

— « ولكنك لا تحبينه أليس كذلك ؟ » .

— « هذا حق فيالها من حقيقة رهيبة ! » .

قال فى غضب : « أكاد أقول ولا أنا ولا أى إنسان ! فى بعض الأحيان يا « سو » عندما أتضايق منك يخيل إلى أنك عاجزة عن الشعور بالحب الحقيقى ! »

قالت وهى تنسحب من أمامه وتذهب بعيدا عنه متطلعة إلى الظلام المحيط بها : « ليس هذا بالحسن منك ولا من الأخلاص ! » .

ثم أردفت تقول فى صوت مجروح دون أن تنظر إليه : « من الجائز أن حبى لك لا يشبه حب بعض النساء ولكن يسرنى أن أكون معك وإنه لسرور يتميز برقة سامية ولا أود أن أتمادى فى هذا السرور فأخاطر بفقده فى غمار المحاولة

الاستزادة منه ! وكامرأة حيال رجـــل ، أدركت تماما ما فى مجىء من خطر . أما باعتبار أنه أنا وأنت ، فقد صممت على أن أثق فى أنك لا بد واضع رغباتى فوق شهواتك . لا تتحدث فى هذا أكثر من ذلك أيها العزيز « جود » . »

« ان أفعل وخاصة لو تسبب ذلك فى جعلك تلومين نفسك . ولكن هل تحبيننى حقا يا سو ؟ قولى إنك تحبيننى ! قولى إنك تحبيننى ربع حبى لك أو حتى أقل من ذلك وعندئذ أرضى ! » .

— « تركتنك تقبلنى أليس فى هذا ما يكفى من دلالة ؟ » .

— « مرة فقط أو حوالى ذلك » .

— « حسنا ـ لا تكن ولداً شرها » .

ومال بجسمه إلى الوراء وكف عن التطلع إليها فترة طويلة . لقد عادت إلى ذاكرته الآن تلك القصة القديمة فى ماضى حياتها التى تدور حول طالب الجامعة ، ذلك المسكين الذى عاملته بنفس الطريقة التى تعامله بها الآن ورأى نفسه ضحية ثانية فى ذلك المصير المحزن .

وغمغم يقول : « ياله من هرب عجيب . من الجائز أنك فى علاقتك بفيلوتسون جعلت منى مخلب القط ! أؤكد لك أن الأمر ليبدو كذلك وبخاصة عندما أراك هناك تجلسين هادئة هكذا . »

وقامت من مكانها واقتربت منه وهى تقول متلطفة : « والآن يجب ألا تغضب . لن أسمح لك بذلك . قبلتنى ولم يمض على ذلك وقت طويل ومع ذلك لم أحقد عليك وأعترف لك يا جود . فقط لا أريد أن تفعل ذلك مرة أخرى وبخاصة فى ظروفنا الراهنة . ألا ترى ! » .

لم يستطع أبدا أن يعارضها عندما كانت فى مقـام الدفاع عن نفسها وكانت تدرك هذه الحقيقة جيدا . وجلس الاثنان متجاورين متشابكى الأيدى وظلا كذلك حتى أيقظتها فكرة طارئة وقالت :

— « لن أستطيع أن أذهب معك إلى « فندق الاعتدال » هذا خاصة بعد تلك البرقية » .

— « ولم لا ؟ »

— « فى مقدورك أن تدرك السبب » .

— « حسن جدا . لا بد أننا سنجد آخر . خيل إلى فى بعض الأحيان أنك بسبب زواجك من « فيلوتسون » عقب فضيحة سخيفة تتظاهرين بأنك تعتنقين أفكارا متحررة بينما أنت ترسفين فى أغلال القانون الاجتماعى تماما كأية امرأة أخرى ممن أعرف ! » .

— « تعوزنى الشجاعة التى تتناسب وأفكارى المتحررة كما قلت من قبل . لم أتزوجه أبدا بسبب الفضيحة ولكن فى بعض الأحيان تتغلب على المرأة رغبتها الطبيعية فى أن تحب . وهى وإن كان الألم يعتصرها لمجرد تفكيرها فى أنها تعامل رجلا بقسوة فإنها تشجعه على حبها بينما هى لا تحبه إطلاقا ، وعندما تراه وهو يتعذب ، يستيقظ ضميرها فتبذل قصارى جهدها كى تصلح خطأها » .

— « تعنين ببساطة أنك غازلت هذا المسكين بفجور وبعدها تبت من هذا الإثم . ثم لكى تصلحى ما أفسدت تزوجته على ما فى ذلك من تعذيب قاتل لك . »

— لو نظرت إلى الموضوع على هذه الصورة القاسية أقول إن الأمر كان قريبا من ذلك . ذلك نفسه والفضيحة وإخفاؤك عنى ما كان ينبغى أن تبلغنى إياه قبل ! » .

استطاع أن يرى أنها محزونة باكية لنقده إياها فشرع يواسيها بقوله : « هونى عن نفسك أيتها الغالية . اقتلينى لو أردت . تعلمين أنك بالنسبة لى العالم كله مهما تفعلين » .

قالت وهى تمسح دموعها المتساقطة على خديها : « نعم أنا غاية فى السوء ولا مبادئ لى . أعرف أن هذا هو ما يدور بخلدك . »

— « إن مايدور بخلدى وأعرفه أنك « سو » الغالية وأنه ما من طول أو عرض وما من أمور موجودة الآن أو ستتمخض عنها الأيام يمكن أن تبعدنى عنك » .

وهى وإن كانت غاية فى السفسطائية فى أمور عديدة كانت فى نواحى أخرى بسيطة كالأطفال بحيث أرضاها كلامه ووصلا إلى نهاية الرحلة وكانا على أحسن حال . وكانت الساعة أشرفت على العاشرة عندما وصلا إلى « ألدبريكهام » عاصمة « وسكس » الشمالية .

ولما كانت ترفض الذهاب إلى « فندق الاعتدال بسبب الصيغة التى كتبت بها البرقية ، راح يبحث عن فندق آخر وتطوع أحد الشبان لحمل متاعهما إلى « فندق جورج » وكان هو نفس الفندق الذى أقام فيه «جود» فى صحبة «أرابيللا» فى المرة التى تقابلا فيها بعد انفصالها لعدة سنوات .

ولما كانا قد دخلا الفندق من باب آخر ، وبسبب انهماك « جود » ، لم يتعرف المكان فى أول الأمر . وبعد أن احتل ، كل منهما غرفته نزلا إلى قاعة الطعام حيث تناولا عشاء خفيفا . وفى اللحظة التى غاب فيها « جود » عن المكان تحدثت النادلة إلى « سو » قائلة :

— « أظن يا سيدتى أننى أذكر قريبك أو صديقك أو مهما كانت علاقته بك وقد حضر إلى هنا ذات مرة وكان الوقت متأخرا كما هو الآن وفى صحبة زوجته وكانت سيدة أخرى بكل تأكيد ويطارحها نفس الغرام » ،

قالت سو وفى قلبها ألم خاص : « أوه ، حقا ؟ وان كنت أعتقد أنك لابد أن تكونى مخطئة . كم من الوقت مضى على ذلك ؟ »

— « منذ حوالى شهر أو شهرين . كانت سيدة ممتلئة الجسم أنيقة المظهر . كانا يحتلان هذه الغرفة . »

وعندما عاد وجلس الاثنان للعشاء كان يبدو على « سو » الضعف والتعاسة . وفى تلك الليلة ، عندما افترقا ليذهب كل منهما إلى غرفته ، قالت فى نغمة حزينة : « اسمع يا « جود » . أنا لا أحس هذه المرة بنفس الأحاسيس اللطيفة المفرحة التى أشعر بها عادة عندما نكون سويا . إنى أكره هذا المكان ولا أتحمل البقاء فيه . لدى شعور بأننى لا أحبك الآن بنفس القدر الذى تعودت أن أحبك به فى الماضى ! » .

— « كم يبدو عليك القلق والملل أيتها العزيزة . لم تتغيرين هكذا ؟ » .

— لأنه كان قسوة منك أن تأتى بى إلى هنا ! » .

— « ولماذا ؟ » .

— « كنت هنا مع « ارابيلا » من فترة قصيرة — ! تبا لى ، والآن لقد قلتها ! » .

قال « جود » وهو يتلفت حوله : « يا الله . حقا ، حقا إنه نفس المكان . لم أدرك ذلك قبل الآن . على أى حال يا « سو » ليس فى مجيئك معى إلى هنا شىء من القسوة طالما جئنا باعتبار أننا من أسرة واحدة ، مجرد قريبين فى فندق واحد » .

— « متى جئتما إلى هنا ؟ خبرنى . خبرنى . »

— فى اليوم السابق مباشرة على مقابلتى لك فى « كرايستمينيستر » عندما عدنا إلى « ميريجرين » سويا . أخبرتك حينئذ بأمر هذه المقابلة » .

— « نعم . قلت لى إنك قابلتها ولكنك لم تبح لى بكل شىء . إن ما أخبرتنى به حينئذ هو أنكما تقابلتما كشخصين غريبين لم يسبق لهما أن تزوجا . لم تقل لى إنك تصالحت معها وقضيت على ما كان بينكما من خلاف .»

قال فى حزن : « لا . لم نتصالح بعد . لا أستطيع يا « سو » أن أوضح لك كل شىء الآن . »

— « لم تكن أمينا معى . أنت يا من كنت آخر أمل لى فى الحياة ! لن أنسى لك هذا . أبدا . مطلقا ! »

— « ولكن أيتها العزيزة « سو » كانت رغبتك دائما أن نكون أصدقاء وهذا هو السبب فى أننا لسنا الآن بعشيقين ! هذا السلوك منك ينطوى على كثير من التناقض وعدم الاستقرار ! »

— « قد تتسرب الغيرة إلى قلوب الأصدقاء ! »

« لا أوافقك على ذلك . إنك ترفضين التنازل لى عن أى شىء بينما تطالبيننى بأن أتنازل لك عن كل شىء ! لا تنسى أنك كنت فى ذلك الوقت على علاقة طيبة مع زوجك » .

— « لا . لم أكن كذلك « ياجود » واحسرتاه ! كيف تفكر هكذا ! »

لقد فكرت فى أن نقيم سويا فى غرفة واحدة حتى لو لم نكن نقصد شيئا من وراء ذلك » .

وهنا كان الألم قد برح بها إلى حد أن « جود » اضطر إلى أن يذهب بها إلى غرفتها ويغلق الباب لئلا يسمع الناس ما كان يدور بينهما من حديث .

— « أكانت هذه هى الغرفة ؟ إنها هى ! أرى من نظرتك أنها هى . إنى أرفض أن أقيم فى هذه الغرفة . أوه . لم يكن من الأمانة فى شىء أن تلتقى بها مرة أخرى ! أما أنا فقد قفزت من النافذة ! »

— « ولكن يا « سو » تذكرى أنها زوجتى الشرعية ولو لم ... » .

وركعت « سو » ودفنت وجهها فى الفراش وأخذت تبكى .

قال « جود » : « لم أر فيك هذه الدوافع المجنونة قبل الآن . هذا الشعور الشاذ النكد غريب على . ينبغى ألا أقربك ومن الواجب على أى إنسان آخر ألا يفعل ذلك ! »

— « عجبا . ألا تدرك حقيقة شعورى ؟ لم لا تفهمنى ؟ لم أنت غليظ القلب هكذا ؟ أقول لك إننى قفزت من النافذة ! »

— « وهل قفزت حقا من النافذة ؟ »

— « لا أستطيع التفسير . »

كان صادقا عندما قال إنه لا يدرك جيداً حقيقة شعورها . غير أنه يفهمها بعض الشىء ، ولم يغير ذلك من حبه . »

واستمرت تقول : « ظننت أنك لا تهتم بأى مخلوق آخر سواى ولا تريد أن ترى فى العالم كله شخصا إلا أنا . »

قال « جود » وقد برح به الحزن كما برح بها : « هذا حق فأنا الآن لا أهتم بأحد ، كما أننى لم أهتم بأحد ! »

— « ولكن لا بد أنك شغلت كثيرا بها وإلا — » .

— « لا . لم يحدث ذلك . أنت أيضا لا تفهميننى وهكذا الحال مع كافة النساء . لم تضعين نفسك فى هذا المأزق دون داع ؟ »

ورفعت رأسها من فوق السرير وانفجرت قائلة : « لولا ذلك لذهبت معك إلى « فندق الاعتدال » كما اقترحت على أن أفعل إذ أننى كنت على وشك الاعتقاد بأننى أخصك » .

قال فى برود : « ما من نتيجة لهذا الآن ! »

— « ظننت طبعا أنها لم تكن قط زوجتك بالمعنى الحقيقى طالما أنها هجرتك من تلقاء نفسها منذ سنوات عديدة . إن فهمى لهذا الموضوع هو أن انفصالا كانفصالك عنها وكانفصالى عنه وضع حداً للزواج » .

قال : لا أستطيع أن أستطرد فى الحديث دون أن أسىء إليها وأنا لا أريد أن أفعل ذلك . ومع هذا فمن واجبى أن أخبرك بشىء واحد سوف يضع حدا

لهذا النزاع بيننا . لقد تزوجت رجلا آخر . تزوجته زواجا حقيقيا ! لم أعرف شيئا عن هذا الموضوع إلا بعد أن تقابلنا هنا فى هذا الفندق » .

— « تزوجت آخر ؟ هذه جريمة — حسب نظر العالم وإن كان لا يؤمن بذلك » .

— « والآن ها أنت عدت إلى طبيعتك مرة أخرى . أجل إنها جريمة لا تؤمنين بها فى أعماق نفسك وإن كنت تسلمين بها مضطرة . إنى لن أشكوها ! ومن الواضح أن ضميرها هو الذى حثها على أن تطلب منى الطلاق حتى تستطيع الزواج مرة أخرى من هذا الرجل بطريقة شرعية . وهكذا يصبح من الواضح أننى لن أراها مرة أخرى » .

— قالت فى نغمة أكثر رقة وهى تهم واقفة : « وهل حقا كنت تجهل كل شىء عندما قابلتها ؟ » .

— « لا أعرف شيئاً . فإذا نظرنا إلى هذه الظروف فأعتقد أن من واجبك ألا تغضبى أيتها العزيزة ! » .

— « لست بغاضبة ولكننى لن أذهب إلى « فندق الاعتدال » .

وضحك وقال : « ما عليك ! طالما أنا بقربك فإننى سعيد نسبيا . إن الأمر عندى يعلو على أشخاصنا الفانية — إنه يتعلق بأرواحنا . أنت أيتها الروح ، أيتها المخلوق الأثيرى . أنت أيتها العزيزة الحلوة ؛ أيتها الشبح الفاتن . أكاد لا أصدق أنك من لحم ودم كالآخرين وعلى ذلك عندما أضع ذراعى حول جسدك أكاد أحس بهما وهما يخترقان كيانك كأنه من هواء ! اغفرى لى إذا كنت فظا على حد تعبيرك . تذكرى بادعائنا القرابة ونحن غرباء فخ نصبناه . وإن العداوة التى كانت بين آبائنا أضفت عليك فى عينى جاذبية أقوى وأعمق من إحساس الجدة الذى يخلقه التعارف العادى لأول مرة » .

وأخذت تستعطفه وهي تميل عليه وتقترب منه وهما يهمان بالوقوف وهى

تقول : « أسمعنى تلك الأبيات الجميلة من قصيدة «ابيبسيكيديون» للشاعر «شيللى» إذ أحس أننى المقصودة بهذه الأبيات . ألا تعرفها ؟ » .

أجابها فى حزن : « أكاد لا أحفظ شيئا من الشعر » .

— « حقا ! إذن هاك بعضا من هذه الأبيات » .

« ثمة مخلوق كثيرا ما التقت روحى به
فى هيامها الجنح فى العالم العلوى .
ملاك من السماء يذوب رقة وليس له بين البشر قرين
وتحت نقابه الشفاف يبرز قوام أنثوى يتألق نورا » .

فى هذه الأبيات إطراء لا أستحقه وعلى ذلك ان أستمر . ولكن قل إنها تتحدث عنى ! قلها ! » .

— « نعم أيتها العزيزة وإنها مثلك تماما » .

— « إنى أصفح عنك الآن . ولا بد أن تقبلنى مرة واحدة — هنا . قبلة ليست بالطويلة للغاية . »

ووضعت طرف أصبعها على خدها فى دلال . وفعل ما أمرت به .

وقالت : « إنك قطعا تهتم بى كثيرا جدا ! أليس كذلك ؟ وذلك على الرغم من أننى — أننى — أنت تعلم قصدى ! » .

قال وهو يزفر : « نعم يا صغيرتى ! » ثم ودعها وانصرف .

(٦)

وبعودته إلى بلدته «شاستون» ليعمل معلما ، حظى «فيلوتسون» باهتمام سكانها وأيقظ النائم من ذكرياتهم عنه . وهؤلاء إن لم يكرموه لصفاته المتنوعة ، كما يمكن أن يكرم فى أى مكان آخر ، إلا أنهم كانوا يكنون له شعورا بالإخلاص

والمحبة . وحين عاد بعد وصوله بينهم بقليل بزوجة جميلة جمالا يمكن أن يكون ، على حد قولهم ، ضارا به لو لم يكن حذرا إزاء أمر كهذا ، فإنهم شعروا بفرحة كبرى لمقامها بين ظهرانيهم .

ولفترة عقب فرارها من ذلك المنزل ، لم يثر غياب « سو » تعليقا فكأنها فى المدرسة أمكن شغله بعد أيام قليلة بمعلمة أخرى شابة . ومر هذا التغيير هو الآخر دون أن يتنبه إليه أحد إذ أن وظيفة « سو » كانت مؤقتة . وبعد انقضاء شهر من الزمان ، وبسبب بعض التصريحات الخاصة التى أدلى بها « فيلوتسون » عن جهله بمصير زوجته ، بدأ فضول الناس يلعب دوره فى مأساة المعلم . وفى النهاية وقر فى أذهان أهل البلدة أن « سو » خدعت زوجها وفرت . وجاءت مظاهر القلق فى حياة المعلم وفقدانه الحماسة فى عمله مصداقا لما جال فى خاطر الناس من ظنون .

« وفيلوتسون » وإن كان قد أمسك لسانه عن الكلام أطول فترة استطاعها ـ باستثناء موقفه مع صديقه جيلنجهام ـ فإن أمانته وصراحته ما كانتا لتسمحان بأن يظل على حالته هذه عندما بدأت الإشاعات تتناول بالسوء سلوك « سو » وعندما أخذت هذه الإشاعات تمتد خارج نطاق البلدة . وفى صباح يوم اثنين ، زار المدرسة رئيس الإدارة وبعد أن فتش أعمالها جذب « فيلوتسون » جانبا وقال له فى صوت خفيض حتى لا يسمعه الأطفال :

ـ « أرجو أن تغفر لى سؤالى هذا طالما أن الأمر أصبح يدور على ألسنة الجميع . هل كل ما يقال عن أحوالك العائلية صحيح ؟ هل رحيل زوجتك ليس لمجرد الزيارة بل هروب خفى مع عشيق ؟ إذا كان الأمر كذلك فإنى أعزيك » .

قال « فيلوتسون » : ليس فى الأمر سر » .

ـ « هل رحلت لزيارة بعض الأصدقاء ؟ » .

ـ « لا » .

ـ « إذن ما الذي حدث ؟ » .

— « رحلت فى ظروف من شأنها عادة أن تدعو الناس إلى أن يشاطروا الزوجة العزاء . ولكننى منحتها موافقتى » .

وبدا على الزائر الكبير أنه لم يفهم . واستمر « فيلوتسـون » يقول فى اقتضاب : « ما أقول هو الحقيقة بعينها . استأذنتنى فى الرحيل مع عشيقها فأذنت . ولم لا ؟ إنها امرأة رشيدة وهذه قضية تتعلق بضميرها وليس بشخصى . لم أكن سجانها . وليس فى طاقتى أن أفسر لك الموضوع أكثر من ذلك ولا أرغب أن يناقش تصرفاتى إنسان » .

وبدأ الأطفال فى الفصل يلحظون وجهى الرجلين وما بدا عليهما من مظاهر الجد والاهتمام . وعندما عادوا إلى بيوتهم تحدثوا إلى أهليهم مشيرين إلى وجود أنباء جـديدة فى موضوع السيدة « فيلوتسون » . ولقد قالت خادمة السيد « فيلوتسون » — وكانت فتاة صغيرة من المترددات على المدرسة — إن المعلم عاون معاونة كبيرة فى جمع متاع زوجته وشده وحزمه كما قدم لها كل ما طلبت من مال ، وكتب خطابا رقيقا لعشيقها الشاب حاثاً إياه على العناية بها والحرص على راحتها . وبعد أن درس المسئول موقف « فيلوتسون » من كافة نواحيه عاد يتحدث مع بقية أعضاء الهيئة المشرفة على المدرسة . وفى نهاية الأمر طلب هؤلاء من « فيلوتسون » أن يذهب إليهم ليجتمعوا به اجتماعا خاصا . واستمر الاجتماع فترة طويلة فى نهايته عاد المعلم إلى البيت وكان كعادته شاحب الوجه منهوك القوى فوجد « جيلنجهام » فى انتظاره .

قال « فيلوتسون » وهو يلقى بجسده المنهوك على أحد المقاعد : « الأمر كما قلت . طلبوا منى أن أستقيل من الوظيفة معللين ذلك بسلوكى الفاضح مع زوجتى لأننى منحتها حريتها اعتقادا منى بأن فى بقائها معى عذابا لها أو : كما قالوا ، لأننى تسترت على اقترافها لجريمة الزنا . ولكننى لن أستقيل ! » .

— « لو كنت فى مكانك لاستقلت » .

— « أما أنا فلا . فالموضوع لا يخصهم ولا يؤثر بأى حال على عملى . فى مقدورهم أن يفصلونى إذا ودوا ذلك » .

— « ولكنك لو خلقت مشكلة فقد يصل الموضوع كله إلى الصحافة وبعدها لن تجد مدرسة أخرى تقبل استخدامك . يجب أن تدرك أنهم ينظرون إلى ما فعلت على أنك معلم قبل كل شىء تتولى تربية الشباب وتثقيفهم . ومن واجبهم أن يتدبروا أثر تصرفاتك فى أخلاق أهل المدينة . وفى نظر عامة الناس يعتبر موقفك من المواقف التى لا يمكن الدفاع عنها . يجب أن تسمح لى بأن أقول ذلك » .

ومع ذلك فإن « فيلوتسون » ما كان لينصت لهذه النصيحة الطيبة . بل إنه قال : « لا يهمنى ما يقولون ولن أترك وظيفتى وسأبقى فيها حتى يأمروا بطردى منها والسبب هو أننى لو استقلت ففى ذلك اعتراف صريح بأننى أسأت التصرف بينما يزداد اقتناعى يوما بعد يوم بأننى فى نظر السماء ووفقا لجميع القواعد الإنسانية الطبيعية المستقيمة ، تصرفت تصرفا سليما » .

وأدرك « جيلنجهام » أن صديقه العنيد لن يتمكن من الاحتفاظ بموقف كهذا فتوقف عن الحديث . والواقع أنه فى الوقت المناسب وبعد فترة ، ربع ساعة مرت ، وصل الخطاب الرسمى المتضمن الفصل إذ ظل أعضاء الهيئة المشرفة على المدرسة مجتمعين لكتابته عقب مغادرة « فيلوتسون » الاجتماع مباشرة . أما رده فكان أنه لن يوافق على قرار الفصل ودعا إلى اجتماع عام على الرغم مما بدا عليه من انهيار دفع صديقه إلى أن يتوسل إليه ليظل فى المنزل . وعندما وقف « فيلوتسون » ليشرح للمجتمعين أسباب معارضته لقرار الهيئة ، أبدى من الحجج والبراهين كتلك التى سبق أن أبداها لصديقه « جيلنجهام » ، كما أصر على القول بأن المسألة برمتها لا تعدو أن تكون موضوعا خاصا يعنيه وحده ولا يعنى أحدا غيره . ورفض المجتمعون أن يقبلوا وجهة النظر هذه وكانوا عند رأيهم من أن الحياة الخاصة للمعلم لا بد أن تدخل فى نطاق سلطتهم حيث إن مثل هذه

التصرفات لا بد أن تمس أخلاق من يشرف على تربيتهم وتعليمهم . عند ذلك قال إنه يرفض الموافقة على أن عملا من أعمال الخير والرحمة يمكن أن يسىء إلى الأخلاق .

وهب سكان المدينة المحترمون وأفرادها من الأغنياء لمعارضة « فيلوتسون » ووقفوا ضده وقفة رجل واحد ولكن مما أدهشه أن عددا يبلغ اثنى عشر أو أكثر انبروا للانتصار لآرائه وهبوا للدفاع عنه .

ولقد بينا آنفا أن « شاستون » كانت القاعدة لجماعة غريبـــة مسلية من الوافدين الذين يترددون على المعارض والأسواق التى تقام فى أنحاء وسكس أثناء شهور الصيف والخريف . و « فيلوتسون » وإن لم يسبق له أن تحدث إلى أحد من أعضاء هذه الجماعة ، فإنه اكتشف لدهشته ، أنهم يدافعون عن موقفه بكل شجاعة وثبات مما قوى أمله الضئيل فى الانتصار . وتضمنت الجماعة اثنين من العمال الموسميين ، وصاحب إحدى حوانيت ضرب النار ، وبعض النسوة العاملات فى حشو بنادق التصويب ، واثنين من مدربى الملاكمة ، وسيدتين من صانعات المكانس ، وأحد باعة خبز الزنجبيل ، وأحد أصحاب الأراجيح ، وأحد أصحاب أجهزة القوة والشجاعة .

هذه الجماعة الكريمة من المؤيدين ، وقليل غيرهم من ذوى الآراء المستقلة الذين لم تخل حياتهم العائلية من أزمات طارئة ، أقبلوا على « فيلوتسون » وشدوا على يده فى قوة ، وبعدها عبروا فى الاجتماع عن آرائهم فى شجاعة مما تمخض عنه نشوب معركة عامة انشطرت فيها إحدى السبورات وتحطم زجاج ثلاث نوافذ وانسكب الحبر على قميص أحد أعضاء مجلس المدينة وأصيب أحد رجال الدين فى رأسه إصابة جاءته من طرف خريطة لفلسطين بل إن الرأس اخترقت الخريطة عند المنطقة التى فيها مدينة « السامرة » ، وانقشع غبار المعركة عن كدمات فوق العيون وأنوف دامية . ومما زاد فى فزع الجميع أن أنف رجل الكنيسة لم ينج هو أيضا من هذا المصير بسبب لكمة جاءته من إحدى العاملات فى تنظيف المداخن

وكانت متحمسة لمبدأ تحرير المرأة مما دعاها إلى الانضمام إلى جماعة «فيلوتسون». وعندما رأى هذا الأخير الدماء تسيل على وجه رجل الدين أخذ يتوجع أسفا على ما وصلت إليه الأمور وندم على رفضه الاستقالة عندما طلب منه ذلك. وأخيرا عاد إلى بيته منهوك القوى، عليل الجسد إلى حد أنه فى اليوم التالى لم يستطع أن يغادر فراشه.

وكان هذا الحادث المضحك المبكى فاتحة مرض خطير له فرقد فى فراشه وحيدا كسير النفس وكان فى حالته مثلا للرجل فى منتصف العمر الذى اكتشف بعد فوات الأوان أن حياته بنواحيها العائلية والعقلية معرضة للفشل والأحزان. وفى بعض الأمسيات جاء «جيلنجهام» لزيارته. وجرى ذكر «سو» على لسانه فى مناسبة من المناسبات.

فقال «فيلوتسون»: إنها لاتهتم بى أقل الاهتمام! ولماذا تهتم بى؟»

— «إنها لاتعلم أنك مريض.»

— «هذا أفضل لكلينا.»

— «وأين تعيش الآن مع عشيقها؟»

— «فى ميلشستر» على ما أعتقد. على الأقل كان يعيش هناك من وقت ليس ببعيد.»

وعندما عاد «جيلنجهام» إلى بيته أخذ يفكر فيما سمعه من «فيلوتسون» وأخيرا كتب إلى «سو» رسالة قصيرة خالية من الإمضاء وكان الأمل فى تسلمها لها ضئيلا إذ كانت موجهة إلى «جود» بعنوان قسيس الناحية.

وعندما وصلت الرسالة إلى ذلك المكان أعيد إرسالها إلى «ميريجرين» فى شمال وسكس ومنها إلى «ألدوبريكهام» عن طريق الشخص الوحيد الذى كان يعرف عنوانه وهو الأرملة التى عنيت بقريبته العجوز أثناء مرضها.

ومرت أيام ثلاثة وذات مساء، وكانت الشمس على وشك المغيب وأشعتها

الذاهبة تكسو منخفضات «بلاكور» فى فخامة وروعة وتجعل نوافذ «شاستون» تبدو لأعين الفلاحين العاملين فى ذلك الوادى كأنها شواظ من نار ، خيل للمريض أنه يسمع وقع أقدام تدخل المنزل . وبعد لحظة جاءه صوت دق هادئ على باب المخدع ، ولم ينبس بكلمة وهو يرى الباب يفتح فى حرص وتدخل « سو » .

كانت ترتدى ثوبا من أثواب الربيع الخفيفة وكانت فى دخولها لطيفة سريعة كشبح يتنقل من مكان إلى آخر ، بل كفراشة تطير ثم تحط حطا رقيقا هينا .

وأدار لها عينيه وبعدها اندفع الدم إلى وجهه وبدا عليه أنه يحاول أن يكبح دوافعه الأولى للكلام .

وقالت وهى تنحنى فوقه وفى عينيها علامات الخوف والرهبة : « ليس لدى ما أفعله هنا ولكننى سمعت أنك مريض وأن حالتك خطيرة . ولما كنت أدرك أنك تعترف بوجود عواطف أخرى بين الرجل والمرأة خلاف الحب الجسدى لذا جئت لأراك » .

— « لست فى حالة خطيرة أيتها الصديقة العزيزة . إنى فقط أشكو توعكا بسيطا » .

— « لم أعرف ذلك وأخشى ان المرض الخطير يجب أن يكون المبرر الوحيد لحضورى » .

— « نعم نعم . وكنت أود ألا تأتى . لم يمض على فراقنا وقت طويل — هذا كل ما قصدت إليه . على أى حال لنفيد من لحظتنا الراهنة . أنت لم تسمعى عن المدرسة على ما اعتقد ؟ » .

— « لا — وماذا عنها ؟ » .

— « إننى فقط راحل من هنا إلى مكان آخر إذ لست على وفاق مع المسئولين عن إدارة المدرسة — وعلى ذلك سوف نفترق — هذا كل ما فى الأمر » .

ما كانت « سو » تشك لحظة واحدة ، سواء فى اللحظة الراهنة أو مستقبلا ،

فى وجود المتاعب التى لحقت بفيلوتسون من جراء سماحه لها بالرحيل ، ولم يبد عليها قط أنها تفكر فى مثل هذا الأمر أو توليه شيئا من عنايتها إذ لم تصلها أية أخبار من « شاستون » ، وظل الاثنان يتحدثان فى موضوعات بسيطة عابرة وعندما حل موعد الشاى وجاءت الخادمة تحمل أدواته ذهلت الصغيرة عندما وجدت أن فنجانا آخر لابد أن يعد لسو إذكان اهتمام الصغيرة بقصة حياتهما يفوق كل ما توقعنا من فتاة مثلها . وبينما هى تنزل السلم رفعت عينيها ويديها فى استغراب مضحك . وفى أثناء احتسائهما للشاى ذهبت « سو » إلى النافذة وقالت وهى غارقة فى تفكير عميق :

— « يا له من غروب بديع يا « ريتشارد » » .

— « فى أغلب الأمسيات يبدو الغروب من هذا المكان آية فى الإبداع الإلهى وذلك لأن أشعة الشمس تخترق طبقات الضباب المتكاثفة فى الوادى . ولكننى أخسر كل هذه الأشعة ولا أفيد منها شيئا إذ أنها لا تدخل إلى هذا الركن الضيق المقبض الذى أنام فيه » .

— « ألا تود أن ترى هذا الغروب بالذات ؟ إنه يشبه السماوات وقد فتحت » .

— « نعم . ولكننى لا أستطيع » ،

— « سأساعدك » .

— « لا ، فالسرير لا يتحرك » .

— « ولكن سترى ما أرمى إليه » .

وذهبت « سو » إلى حيث توجد مرآة متحركة وبعد أن أمسكتها بيدها . رفعتها إلى مكان قريب من النافذة حيث تلتقط أشعة الشمس . وأخذت تحرك المرآة حتى انعكست حزم الضوء على وجه « فيلوتسون » .

قالت : « تستطيع الآن أن ترى الشمس العظيمة الحمراء ! إنى متأكدة من أنها ستسعدك وآمل كثيرا أن يحدث ذلك » .

ـــ كانت تتحدث فى حنان كطفل يستغفر والديه وكما لو كانت على استعداد للقيام بأى شىء فى سبيله .

وابتسم « فيلوتسون » فى مرارة وهو يقول : « يالك من مخلوق عجيب » .

واستمر يغمغم والشمس تتضوأ فى مقلتيه وهو يقول :

« ما أعجب مجيئك لرؤيتى بعد كل الذى حدث بيننا ! » .

وقالت فى عجلة : « لا تجعلنا نعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى . يجب أن أركب الحافلة حتى ألحق القطار إذ لا يعلم « جود » بمجيئى إلى هنا . لم يكن بالمنزل عندما بدأت هذه الرحلة لذا يجب أن أعود الآن وأن أعود دون تمهل . إننى يا « ريتشارد » فى غاية الفرح لأن صحتك تتحسن . أنت لا تكرهنى . أليس كذلك ؟ كم كنت معى غاية فى اللطف والرقة ! » .

وقال فى صوت أجش : « يسعدنى أنك تعتقدين ذلك ، لا . مطلقا . أنا لا أكرهك » .

وانتشر الظلام بسرعة فى الغرفة المقبضة فى أثناء حديثهما المتقطع . وعندما جاءت الشموع وحل وقت رحيل « سو » وضعت يدها فى يده ، أو قل سمحت ليدها بأن تنزلق بين يديه إذ كانت بطبيعتها تميل فى حركتها إلى الخفة الواضحة . وبمجرد أن أغلقت الباب خلفها صرخ يقول : « سو » إذ لاحظ فى اللحظة نفسها أن الدموع تغطى وجهها وعلى شفتيها رعشة .

لم يكن من الصواب استرجاعها ـ وأدرك ذلك وهو يتتبعها بنظره ولكنه عجز عن فعل أى شىء . أخيرا عادت .

أخذ يغمغم قائلا : « سو . ألا تودين أن تنسى فتبقين ؟ سأصفح عنك وأغض البصر عن كل شىء » .

قالت فى تعجل : « لا تستطيع ، لا تستطيع ! لا تستطيع الآن أن تفعل ذلك ! » .

— « إنه زوجك الآن . تقصدين طبعا أنه أصبح كذلك ؟ » .

— « لك أن تفترض ما تريد . إنه على وشك أن يحصل على الطلاق من زوجته « أرابيلا » .

— « تقولين زوجته . لم أسمع قبل الآن أن لديه زوجة » .

— « كان زواجا فاشلا » .

— « مثل زواجك ؟ » .

— « مثل زواجى . إنه يسعى للطلاق منها وذلك لخيرها بقدر ما هو لخيره. كتبت إليه راجية أن يطلقها إشفاقا عليها حتى تستطيع أن تتزوج من جديد وتحيا حياة شريفة ووافق على ذلك » .

— « أمتزوج هو ، وهل تقولين إنه يتركها بدافع من مصلحتها ؟ آه ، نعم من الخير لها أن يطلق سراحها . ولكننى لا أحب أن أسمع هذه النغمة . فى مقدورى أن أعفو يا « سو » .

— « لا . لا . لا تستطيع أن تستعيدنى الآن بعد ما بدر منى من نذالة يدل عليها ما فعلت ! » .

فى تلك اللحظة بدا على وجهها ذلك الرعب المتأصل الذى كثيراً ما ظهر كلما تحول « فيلوتسون » من الصديق إلى الزوج والذى جعلها تصطنع أى دفاع يحميها من ظهور عواطف الزوجية فيه .

أخيراً قالت : « يجب أن أعود الآن وسآتى مرة أخرى. هل تسمح بذلك! » .

— « لا أطلب منك أن تذهبى حتى فى هذه اللحظة بل إنى أطلب منك أن تبقى » .

— « أشكرك لك ماصنعت يا « ريتشار » ولكن لا بد أن أعود . لا أستطيع أن أبقى طالما أنك لا تشكو مرضا خطيرا بعكس ما كنت أظن » .

— « إنها تخصه هو . تخصه من قمة رأسها إلى أخمص قدميها » . قال ذلك فى نبرة ضعيفة فلم تسمعه وهى تغلق الباب خلفها . إن خوفها من ارتداده إلى سابق انفعالاته العاطفية مضافا إلى ذلك خجلها من نفسها لتصرفها المنطوى على الاستهتار بالأصول . كل ذلك طبع سلوكها بطابع الولاء المتغير وحال بينها وبين الكشف أمامه عما وصلت إليه حتى تلك اللحظة العلاقة الناقصة بينها وبين « جود » .

ورقد « فيلوتسون » فى فراشه يتلوى من الألم كراقد وسط نار مستعرة . كان يتوجع وهو يتأمل تلك المخلوقة الأنيقة التى تمثل مزيجا من الإقبال والإدبار والتى تحمل اسمه . يتأملها وهى تعود نافرة إلى بيت عشيقها .

وكان « جيلنجهام » يبدى من الاهتمام بأمور « فيلوتسون » واللهفة على أحواله ما دعاه إلى ارتقاء التل والذهاب إلى « شاستون » مرتين أو ثلاثا كل أسبوع على الرغم من أن الرحلة فى الذهاب والإياب تؤلف مسيرة تسعة أميال كاملة لابد من إنجازها فى الفترة بين تناول الشاى والعشاء عقب عمل يوم شاق فى المدرسة . وعندما جاء فى المرة الثانية عقب زيارة « ســـو » ، كان « فيلوتسون » فى الدور السفلى من المنزل ولاحظ « جيلنجهام » أن ما كان يبدو على صديقه من قلق قد حل محله من الاتزان والثبات ما أثلج صدره .

قال « فيلوتسون » : « جاءت إلى هنا بعد آخر زيارة لك » .

— « لا تقل إن التى جاءت هى السيدة « فيلوتسون » ! » .

— « نعم . إنها هى » .

— « حسن . لقد تصالحتما إذن ؟ » .

— « لا . جاءت فقط للزيارة وربتت على وسادتى بيدها البيضاء الصغيرة ومثلت دور الحاضنة الأريبة لنصف ساعة ثم عادت من حيث أتت » .

— « حقا ؟ خسئت إن لم تكن فارغة العقل تافهة ! » .

— « ماذا تقول ؟ » .

— « لا شىء . لا شىء » .

— « ماذا تقصد ؟ » .

— « أقصـــد أنها امرأة طائشة متقلبة ذات نزوات جامحة . لو لم تكن زوجتك ـــ » .

ـــ « إنها ليست كذلك . إنها تخص رجلا آخر بالاسم والقانون » . كنت أفكر ـ والفكرة نبتت فى حديث جرى بينى وبينها إشفاقا عليها ـ أنه يجدر فض العلاقة القانونية القائمة بينى وبينها فضا حاسما ولاسيما أنى أستطيع الآن ذلك بعد أن عادت إلى ورفضت رجائى بالبقاء مع أنى أوضحت لها أنى قد صفحت عنها . وفى اعتقادى أن هذه الحقيقة يمكن أن تمنحنى الفرصة لعمل ذلك وإن كنت لا أود أن أقدم على شىء من هذا الآن . ما جدوى الاحتفاظ بها مقيدة إلىّ إذا لم تكن تخصنى ؟ . أعرف ـ وأنا واثق مما أقول ـ أنها ستزحب بهذه الخطوة من جانبى وستعتبرها نافعة لها إلى أقصى الحدود إذ على الرغم من أنها تعطف على وتشفق على آلامى ، بل وتبكى بالدمع حزنا على مأساتى ، وذلك باعتبارى مجرد صديق ورفيق ، فإنها لا تقوى على مجرد النظر إلى على اعتبار أنى زوجها . إنها تمقتنى . إنها تكرهنى ولا فائدة من إنكار هذه الحقيقة . إنها تمقتنى والطريق الوحيد الذى يتفق مع الكرامة والرجولة ، بل والرحمة أيضا ، أن أتمم ما بدأت . كذلك من صالحها لأسباب عملية كثيرة أن تستقل عنى . لقد حطمت مستقبلى تحطيما بسبب القرار الذى اتخذته لصالحنا وإن كانت لا تعرف عن ذلك شيئا . إنى ألمح فى الأفق فقرا شاملا سوف يلازمنى حتى مماتى فلن يقبل أحد على استخدامى وان أكون معلما بعد اليوم . ومن المحتمل أننى وقد فقدت وظيفتى ، سأجد عملا يمكننى من أن أعيش الجزء الباقى من حياتى على أبسط مستوى ومن الأوفق أن أتحمل مصيرى وحدى . وينبغى إخبارك الآن أن ماجعلنى أفكر فى طلاقها هو ماسمعته من أن « جود فاولى » على وشك القيام بالشىء نفسه » .

ـــ « حقا . وهل هو أيضا متزوج ؟ يا لها من عاشقين على درجة كبيرة من الغرابة » .

— « حسن ما تقول . لست فى حاجة إلى رأيك فى هذا بل أود أن أقول إن موافقتى على طلاقها لن يسيىء إليها فى شىء ، بل إن هذا قد يهيىء لها سعادة لم تكن تحلم بها حتى هذه اللحظة إذ يصبحان قادرين على الزواج كما كان ينبغى أن يفعلا فى أول الأمر » .

ولم يتسرع « جيلنجهام » فى التعليق على ما سمع ولكنه بعد لحظة قال فى هدوء إذ كان من عادته أن يحترم الآراء التى لا تحظى بموافقته :

— « قد أختلف معك فى الدافع لك على هذا التصرف ولكننى أظن أنك على حق فى قرارك هذا إذا كان فى وسعك أن تضعه موضع التنفيذ . على أنى أشك مع هذا فى أنك مستطيع ذلك » .

الباب الخامس

فى آلدبركهام وأماكن أخرى

« جانبك الأثيرى ، وكل الجزائب
النارية المختلطة فيك ، وإن كانت
بطبيعتها لها ميل علوى ، ما زالت
بطبيعة السكون مغلوبة على أمرها ـ
هنا فى الكتلة المختلطة المسماة بالجسد » .

« ماركوس أنتونينوس »

فى ألدبركهام وأماكن أخرى

(١)

أما عن الشكوك التى أبداها « جيلنجهام » فسيظهر ما كان من أمرها سريعا لو مررنا بالأشهر الكئيبة والأحداث التى تلت وقائع الفصل السابق وبلغنا أحدا من آحاد فبراير من العام التالى .

كانت « سو » تعيش مع « جود » فى «ألدبركهام» فى نطاق العلاقات نفسها التى نشأت بين الاثنين منذ لحقت به عقب رحيلها عن « شاستون » فى العام السابق . وكانت أخبار المحاكم وقضاياها لا تصل إليهما إلا كالصوت القادم من بعيد . ومن حين إلى آخر يتسلمان رسالة لايفهمان مضمونها .

وكعادتهما ، اجتمعا على إمائدة الفطور فى المنزل الصغير الذى يحمل اسم «جود» وكان قد استأجره بخمسة عشر جنيها فى السنة يضاف عليها ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات أخرى نظير أجور وعوائد إضافية وأثثه بما آل إليه من أشياء قديمة بالية تخص قريبته المتوفاة . ومع ذلك كلفه نقل هذه الأشياء إلى بيته الجديد من (ميريجرين) مايفوق ثمنها . أما « سو » ، فأدارت المنزل وتولت أموره .

ودخل الغرفة ذلك الصباح وكانت « سو » تمسك خطابا تسلمته لتوها . وبعد أن قبلها قال : « حسن وماذا فيه ؟ » .

— « أصبح الآن نهائيا ذلك الحكم الأولى الصادر فى قضية « فيلوتسون » والذى نطق به القاضى قبل ستة أشهر » .

قال « جود » وهو يهم بالجلوس : حقا ! » .

وكانت قضية « جود » التى أقامها ضد أرابيلا » انتهت نفس النهاية منذ شهر أو شهرين وصدر فيها الحكم لصالح «جود» والقضيتان من قلة الأهمية بحيث لم تشر إليهما الصحف وإن نشرت الأسماء وسط قائمة طويلة من القضايا .

قال « جود » وهو يتطلع إلى وجه محبوبته فى لهفـــة : والآن يا « سو » قد أصبح لك مطلق الحرية فى أن تتصرفى كما تشائين » .

— « وهل لنا الآن أن نتصرف كما لو أن كلا منا لم يتزوج من قبل قط ؟ »

— « ها ، أصبح كل منا حراً من كل قيـد باستثناء شىء واحد وهو أن القسيس قد يرفض القيام بمراسيم الزواج مرة أخرى » .

— « ولـكننى دهشة ! هل تظن حقا أن هذا هو موقفنا الآن ؟ إن الأمر يكون عادة هكذا ولـكن ينتابنى شعور مؤلم بأنى حصلت على حريتى تحت ستار من الادعاءات الكاذبة ! » .

— « وكيف ؟ » .

— « لو عرفت حقيقة موقفنا لما صدر الحكم على هذه الصورة . أليس عدم دفاعنا هو الذى جعل المحكمة تفترض فروضا خاطئة ؟ وعلى ذلك ، هل حريتى قانونية مهما كانت كاملة ؟ »

قال فى خبث : « ولم سمحت لهذه الحرية أن تتحقق عن طريق الادعاءات الكاذبة ؟ ليس أمامك سوى نفسك فلوميها لو أردت » .

— « أتوسل إليك ألا تـكون سريع الغضب هكذا فى مثل هذه الأمور . أرجوك أن تقبلنى كما أنا . »

— « حسن جداً أيتها العزيزة سأفعل ، ربما كنت على صواب . أما عن سؤالك فلم نـكن ملزمين بأثبات أى شىء بل هو شأن المحكمة . على أى حال ، نحن الآن نعيش معا » .

— « نعم . ولـكن ليس كما يعتقدون » .

— « هناك أمر واحد مؤكد وهو أنه ، بصرف النظر عن القرار ، يبطل الزواج عندما يبطل . هذه هى فائدة كوننا من الفقراء المغمورين فإن هذه الأمور

تتم من أجلنا بطريقة تقليدية سريعة وهذا نفس ما حدث معى أنا « وأرابيلا »
فكم خشيت أن يكتشف زواجها الثانى فتعاقب ! ولكن لما لم يكن من يهتم بنا،
فلم يتحر أحد عنها ولم يشك فيها إنسان . أما لوكنا من عليه القوم لعانينا متاعب
لاتنتهى ولضاعت أيام وأسابيع فى البحث والتحرى » .

وشيئا فشيئا اكتسبت « سو » بهجة حبيبها النابعة من الاحساس بالحرية
واقترحت أن يذهبا للتجوال بين الحقول حتى لو كلفهما ذلك حرمانهما من غذائهما
الساخن . ووافق «جود» وصعدت «سو» إلى الطابق العلوى من المنزل وارتدت
ثوبا زاهى اللون احتفالا بحريتها . وبمجرد أن رأى « جود » ذلك ارتدى هو
الآخر رباط عنق زاهى اللون » .

قال : « لنسر الآن متشابكى الأذرع كأى خطيبين فلنا الحق الشرعى فى
ذلك » .

وظل الاثنان يتجولان بلاهدف خارج المدينة ويضربان فى الطريق الذى يعلو
الأراضى المنخفضة المحيطة بالبلدة على الرغم من أن تلك الأراضى كانت تكسوها
الثلوج فى ذلك الوقت من السنة . وامتدت أمامهما الحقول عارية من كل لون وزرع
وإن لم يشعر العاشقان بما حولهما لانشغالهما التام بموقفهما الجديد .

.... « والآن يا عزيزتى لسوف نتمكن من الزواج بعد فترة معقولة » .

قالت « سو » فى تراخ : « نعم أظن أنه أصبح ذلك الآن فى مقدورنا » .

.... « وهل تنوى الزواج فعلا ؟ »

ــ « أكره أن أقول لا أيها العزيز « جود » غير أنى فى هذا الموضوع أحس
بنفس الشعور الذى ما انفك يحاصرنى دائما . مازلت أشعر بالخوف من أن الرباط
الدائم قد يطفىء جذوة حبك لى ، ويقلل من حدة حبى لك كما كان الحال دائما بين
آبائنا الراحلين » .

— « ولكن ما العمل الآن ؟ إننى مغرم بك كما تعلمين يا « سو » .

— أعلم ذلك تماما ، غير أننى أفضل أن نظل نعيش حبيبين كما نحن الآن ولا نتقابل إلا أثناء النهار . إنى على يقين أن ذلك أفضل بالنسبة للمرأة على الأقل وخاصة عندما تكون واثقة من عواطف الرجل نحوها . ومن الآن فصاعدا لا داعى لأن نهتم كثيرا بالمظاهر . »

قال « جود » فى شىء من الكآبة : « أعترف بأن تجربة كل منا فى الزواج لم تكن ناجحة ولا مشجعة وقد يعود ذلك إلى طبيعة كل منا أو إلى حظنا السىء . أما عنا نحن الاثنان . . . »

— « وكيف يكون الحال لو اجتمع اثنان كل منهما غير راض . أظن أن الحال لا بد أن يصبح أسوأ مما كان . أعتقد أننى بدأت أخشاك يا « جود » وذلك بعد أن أصبح لك الحق فى أن تصل حياتك بحياتى عن طريق إجراء حكومى رسمى . يا إلهى ! إنه لأمر فظيع وحقير ! وهذا على الرغم من أننى أثق بك أكثر من أى رجل آخر فى العالم طالما أننا لم نتقيد بقيد كما نحن الآن » .

قال معاتبا : « لا ، لا تقولى إننى سوف أتغير » . ومع ذلك كان فى صوته أيضا ما ينم عن الريبة .

— « وبدون النظر إلى كلينا وما فينا من شذوذ مؤسف ، ليس من طبيعة الرجل أن يشعر بالحب نحو إنسان ما لو قيل له إنه مجبر على حب ذلك الإنسان بل يصبح احتمال حبه لذلك الإنسان أكبر لو طلب منه أن يكف عن حبه له . فمثلا لو تضمنت مراسيم الزواج يمينا يقسمه الرجل على ألا يحب زوجته ويوقع الطرفان على اتفاق بألا يحب أحدهما الآخر ابتداء من لحظة التوقيع وذلك تمشيا مع مبدأ احتفاظ كل منهما بحقه فى الحب ، وطلب منهما كذلك أن يتجنبا الظهور أمام الناس ، ففى مثل هذه الحال لا أشك فى أن عدد المحبين بين الأزواج سوف يزيد كثيرا عما هو الآن . حاول أن تتخيل كم من المقابلات السرية سوف تتم بين الأزواج والزوجات الذين يحنثون في ذلك القسم . سوف ينكرون ولا شك أن

أحدهما قابل الآخر . تصور أيضا التسلق فوق نوافذ حجرات النوم والاختباء داخل الخادع ! هنا يصبح احتمال انطفاء جذوة الحب بعيدا للغاية » .

— « نعم . ولكن حتى لو اعترفنا بإمكان ذلك أو باحتمال حدوث شيء قريب منه فلن تكونى المرأة الوحيدة فى العالم التى ترى ذلك ، أنت أيتها العزيزة الصغيرة « سو » ، فالناس يتزوجون لمجرد أنهم لا يمكنهم أن يقاوموا الدوافع الغريزية المركبة فيهم وهذا على الرغم من أن الكثيرين منهم يدركون تماما أنهم مقبلون على سعادة قصيرة الأجل لقاء متاعب تدوم مدى الحياة . لا شك أن آباءنا وقفوا على هذه الحقيقة وهذا لو كانوا مثلنا فى الرأى . ومع ذلك فإنهم تزوجوا وذلك لأنهم أحسوا بالدوافع الطبيعية والعواطف الأصيلة . أما أنت يا « سو » فمخلوق أثيرى ليس للكيان العادى تأثير عليك ، ولو سمحت لى أقول ينقصك الدافع الغريزى الحيوانى مما يتيح لك فرصة تغليب المنطق بينما نحن التعساء الذين جبلنا من طينة رخيصة لا نستطيع أن نفكر بطريقتك »

وتنهدت « سو » وهى تقول : « حسن . أعترف الآن أن الأمر قد ينتهى بالشقاء لكلينا وإنى لست بالمرأة الشاذة التى تظنها فالنساء اللاتى يفضلن الزواج أقل بكثير مما تظن ، إلا أنهن يقدمن على الزواج لما يجلبه لهن من كرامة ولما يترتب عليه من مزايا اجتماعية ، أما أنا فإنى على أتم الاستعداد للاستغناء عن هذه الكرامة وذلك الكسب الاجتماعى » . وبمجرد أن انتهت من ذلك عاد « جود » إلى شكواه القديمة وهى أنه ، مهما بلغ عمق صداقتهما ، لم يصدر عنها ولو مرة واحدة اعتراف صريح صادق بأنها تحبه ، أو حتى أنها يمكن أن تفعل ذلك . وقال وقد زادت شكوكه حتى بلغت درجة الغضب: « كم أخشى ألا تتمكنى من أن تهبينى حبا ! إنك على درجة كبيرة من التحفظ والجمود ! إنى أعلم أن كثيرا من النساء يتعلمن من غيرهن كيف أنهن يجب ألا يبحن للرجل بالحقيقة الكاملة . ولكن عاطفة الحب فى أسمى صورها ينبغى أن تقوم على أساس من الإخلاص التام مثل هؤلاء النساء ، لأنهن لسن رجالا ، يجهلن أن الرجل عندما يستعيد ذكرياته عن النساء اللائى سبق أن كان معهن على علاقات عاطفية فإن قلبه

لا ينفك ينبض بالحب إن كانت تتخذ الإخلاص نبراسا لسلوكها وهكذا الحال بالنسبة للرجال . إن روح الانتقام لتتربص بالمرأة التى تكثر من التعاص وتتخذ من الإقبال والإدبار لعبة تكثر من ممارستها والنتيجة المحتمة لكل ذلك فقدانها لعطف من أحبوها وأحسنوا الظن بها . »

أما « سو » التى كانت ترسل ببصرها إلى بعيد فقد اكتسى وجهها مسحة ملؤها الشعور بالجرم وأجابت فجأة فى صوت ينم عن المأساة التى تضطرم فى أعماقها : « لا أظن أننى أعجب بك اليوم كما كنت أعجب بك من قبل يا «جود» ! » .

— « أنت لا تعجبين بى ! ولم ذلك ؟ » .

— « حسن . إنك لست بالمخلوق الطيب إذ يغلب عليك طابع الوعظ ومع ذلك أعتقد أننى سيئة للغاية وتافهة إلى الحد الذى أحتاج عنده إلى من يعظنى فى قوة ! » .

— « لا . أنت لست سيئة . أنت غالية . ولكنك كالسمكة الذلقة كلما حاولت انتزاع اعتراف منك » .

— « إنى حقا سيئة الخلق ، عنيدة ، وبى كثير من العيوب ! لا فائدة ترجى من التظاهر بأنى لست كذلك ! والناس الطيبون لا يحتاجون للتأنيب كما أحتاج أنا إليه . أما وقد أصبحت وليس لى أحد سواك ، وليس ثمة من يدافع عنى ، من أشق الأمور على ألا تترك لى حرية تقرير الطريقة التى سأعيش بها معك ، وما إذا كنت سأتزوج أو لا ! » .

— « سو ، يا رفيقتى وحبيبة قلبى . إنى لا أود إرغامك على الزواج منى أو على أى شىء آخر . تأكدى أننى لا أود أن أفعل شيئا من هذا . لا يليق بك أن تكونى نكدة إلى هذا الحد ! والآن دعينا من الكلام فى هذا الموضوع ولنمض كما كنا من قبل . دعينا فى الفترة الباقية نتكلم عن المراعى والفيضان ومستقبل المزارعين وعما تخبئه لهم الأيام القادمة » .

وعقب هذا لم يشر أحد منهما إلى موضوع الزواج واستمرا كذلك لبضعة أيام وذلك على الرغم من أنهما كانا دائمي التفكير فيه إذ أنهما عاشا طول الوقت متجاورين ولا يفصلهما عن بعضهما سوى دهليز ضيق . وكانت «سو» قد بدأت تعاون « جود » فى عمله معاونة ذات أثر إذ بدأ مؤخرا فى تشييد بعض النصب الحجرية التى تقام عند رءوس الأضرحة . كان يحتفظ بهذه النصب فى الفناء الواقع خلف منزلهما الصغير وكانت « سو » فى أثناء فترات فراغها من الأعمال المنزلية تنقش له الأحرف كى ينحتها على أوجه هذه الشواهد كما كانت تقوم بطلاء هذه الأحرف عقب فراغه من نحتها . لقد كانت حرفة « جود » تعتبر من الأعمال الوضيعة وعمله فيها يقل كثيرا عن عمله السابق كبناء للكنائس . أما زبائنه فكانوا أيتألفون من الفقراء الذين يقطنون حيه ويعرفون أن الرجل الذى يتقاضى أجراً رخيصاً يدعى « جود فاولى ــ بناء الآثار » (وهو اللقب الذى كتبه أمام اسمه على اللافتة الأمامية للمنزل) . كان هؤلاء الفقراء يقصدونه لنحت اللوحات التذكارية الرخيصة التى يقيمونها لموتاهم . ولقد بدا عليه الآن أنه من الوجهة المالية أكثر استقلالا عن ذى قبل وكانت مساعدة « سو » له هى الوسيلة الوحيدة التى تجعلها تعيش معه دون أن تكون عبئا عليه ، وهذه كانت أمنيتها الكبرى .

(٢)

وذات مساء ، قبيل نهاية الشهر ، حدث أن عاد « جود » لتوه بعد سماعه محاضرة فى التاريخ القديم فى القاعة العامة التى لم تكن تبعد كثيرا عن منزله . وعندما دخل إلى البيت كانت « سو » ، التى لم تخرج أثناء غيابه ، قد أعدت له طعام العشاء . وعلى غير عادتها لم تنبس بكلمة وجلس ثم التقط صحيفة يومية مصورة وراح يقرؤها وبعدها رفع بصره إلى وجهها فرآه مضطربا .

قال : « هل أنت منقبضة يا « سو » ؟

وصمتت برهة ثم قالت : « لدى رسالة لك » .

ــ « هل زارنا أحد اليوم ؟ » .

— « نعم زارتنا سيدة . » وهنا اختلج صوتها ثم جلست واضعة يديها فى حجرها و نظرت إلى النيران المشتعلة فى المدفأة وقالت : لا أدرى إذا ما كنت مخطئة أو مصيبة فيما بدر منى من تصرف ! » واستمرت تقول : « اخبرتها أنك لست بالمنزل . وعندما قالت أنها ستنتظرك أخبرتها أنك لن تتمكن من مقابلتها ».

— « ولم فعلت ذلك ياعزيزتى ؟ أغلب الظن أنها كانت فى حاجة إلى كى أصنع لها نصبا . هل كانت ترتدى ملابس الحداد ؟ » .

— « لا . لم تكن تتشح بالسواد ، ولم تكن تريد إقامة نصب . خيل إلى أنك لا تود مقابلتها » . عند ذلك نظرت إليه فى حرج وتوسل .

— « ولكن من تكون هذه السيدة ؟ ألم تخبرك ؟ » .

— « لا . رفضت أن تذكر اسمها ولكننى أعلم من هى ، أو على الأقل أظن أنى أعلم . إنها أرابيلا ! » .

— « ليرحمنا الله ! أى شىء يا ترى يجعل « أرابيلا » تأتى إلى هنا ؟ وماذا دعاك للاعتقاد بأنها هى ؟ » .

— « من الصعب على أن أقرر شيئا . لكننى كنت موقنة أنها هى ، بل إننى أحس أنها هى قطعا وذلك من الضوء الذى كان يشع من عينيها عندما نظرت إلى . كانت امرأة بدينة فظة » .

— « على أى حال لا أستطيع أن أسمى « أرابيـــلا » فظة إلا فى طريقة حديثها ، ومع ذلك فقد تكون كذلك الآن بتأثير عملها فى المشرب . لقد كانت على درجة من الوسامة عندما عرفتها أول مرة » .

— « وسيمة ! - ولكن نعم ! - إنها لكذلك ! » .

— « أظن أنى رأيت رعشة فى فمك الصغير . حسن لندع ذلك جانبا إذ أنها لا تعنى شيئا بالنسبة لى الآن . لقد تزوجت زواجا شريفا من رجل آخر فما الذى يدعوها إذن للحضور إلى هنا فنتوقع بنا الاضطراب ؟ » .

— « أمتأكد أنت أنها تزوجت ؟ ألديك معلومات وثيقة بذلك ؟ » .

— « لا . ليس لدى معلومات وثيقة ولكن زواجها الجديد كان السبب فى أنها طلبت منى أن أطلقها . لقد أرادت هى ، كما أراد ذلك الرجل ، أن يعيش الاثنان معاً بطريقة شريفة وهذا ما فهمته منها » .

— « واحسرتاه يا « جود » إنها هى ! إنها « أرابيلا » بعينها ! » قالت ذلك وهى تصرخ وتغطى عينيها بيدها : « أشعر بتعاسة كبيرة . ومهما يكن السبب الذى جاءت من أجله يبدو كل ذلك كأنه الفأل السيء . أظن أنك لن تراها ولن تقابلها أبداً . أليس كذلك ؟ » .

— « لا أظن أننى سأقابلها ومن المؤلم لى أن أتحدث إليها الآن . إنه لأمر مؤلم بالنسبة لى ولها على السواء . وعلى أى حال فقد ذهبت بلا رجعة . هل قالت إنها ستعود ؟ » .

— « لا . لم تقل ذلك . ولكنها غادرت المكان ولم تكن راغبة فى ذلك » .

ولم تستطع « سو » أن تتناول فى العشاء شيئاً من الطعام إذ كان من طبيعتها أن تنزعج لأتفه الأمور . أما « جود » فتأهب للذهاب إلى حجرة نومه بمجرد انتهائه من تناول العشاء . ولم يكد يصل إلى نهاية السلم بعد أن أحكم غلق الباب وبعد أن حرك النار فى المدفأة إذ به يسمع صوت قرع على الباب . وفى الحال خرجت « سو » من غرفتها التى كانت دخلتها تواً ثم همست فى نبرات تنم عن الفزع الشديد : « إنها هى ثانية ! » .

— « وكيف عرفت ؟ » .

— « لقد طرقت الباب فى المرة الماضية بنفس الطريقة » . واستمع الاثنان إلى الطرق وجاءهما الصوت ثانية . ولم يكن بالبيت أحد من الخدم ، فكان لزاما على أحدهما أن يقوم بفتح الباب .

قال « جود » : « سأفتح أحد النوافذ أولا إذ مهما كان القادم لا يمكن أن نسمح له بالدخول فى مثل هذا الوقت من الليل » .

ثم ذهب إلى حجرته وأزاح غطاء النافذة وكان الطريق خاليا من أى شخص إلا من شبح واحد وكان لسيدة تسير فى الطريق ذهابا وجيئة وفى يدها مصباح وكانت على بضعة أقدام من المنزل .

قال « جود » : « من بالباب ؟ » .

أجاب الصوت النسائى من الخارج وكان صوت « أرابيلا » قطعا : « هل هذا أنت يا سيد « فاولى » ؟ » .

وأجاب « جود » بالإيجاب ، وسألته « سو » وكانت لا تزال تقف بجوار الباب وقد انفرجت شفتاها من الدهشة : « هل هى « أرابيلا » ؟ » .

قال « جود » : نعم « ياعزيزتى إنها هى . »

وقال مخاطبا الشبح : « ماذا تطلبين يا « أرابيلا » ؟ .

قالت فى خضوع ظاهر : « إنى آسفة لإزعاجك غير أننى جئت قبل الآن وأود أن أقابلك الليلة لأمر هام لوكان هذا ممكنا . إننى فى ضائقة ليس لى من يساعدنى . »

— « وهل أنت فى ضائقة حقا » ؟ .

— « نعم » .

وتلت ذلك فترة صمت . ولقد جاش فى صدر « جود » شعور بالمشاركة ، شعور مقلق جعله يحس بالضيق . وأخيرا قال : « لكن ألست الآن متزوجة ؟

ترددت « أرابيلا » قليلا ثم قالت : « لا يا « جود » إننى لست متزوجة . رفض فى النهاية أن يتزوجنى . إنى فى مأزق سيء وآمل أن أحصل قريبا على وظيفة ساقية فى مشرب إلا أن ذلك يحتاج إلى وقت وتجدنى الآن فى حالة من التعاسة الشديدة وذلك للمسئولية المفاجئة التى ألقيت على بعد أن كانت أزيحت عنى منذ كنت فى أستراليا . لولا ذلك ما كنت لأقدم على إزعاجك . صدقنى ما كنت لأقلقك لولا ذلك . إنى أود أن أطلعك على كل شيء » .

وظلت «سو» تحملق فيما يجرى أمامها وتوترت أعصابها بشكل مؤلم إذ كانت تسمع كل كلمة تقال ولكنها لم تتفوه بشيء .

وقال «جود» وفى صوته نغمة عطف : « لا أظن أنك حقا فى حاجة إلى المال يا «أرابيلا» ؟ .

— « لدى ما يكفى لأن أدفع أجرة مبيتى الليلة . صحيح أننى حصلت على شيء من النقود ولكنها لاتكاد تكفى لعودتى . »

— « وأين تقيمين الآن ؟ » .

— « مازلت أقيم فى لندن » . وهمت بإعطائه عنوانها ولكنها استطردت تقول : « أخشى أن يسمعنى أحد ، ولهذا لا أحب أن أتحدث بصوت عال عن أشياء تخصنى . حبذا لو أمكنك أن تنزل وتمشى معى قليلا حتى فندق « الأمير » حيث أمضى الليلة وعند ذلك يمكننى أن أشرح لك كل شيء . أرجوك أن تأتى مراعاة لما كان بيننا فى الماضى ! » .

وقال وقد تملكته الحيرة وسيطر عليه الارتباك : « يالها من مسكينة ! أظن من واجبى أن أستمع إلى ماتود قوله فهذه خدمة بسيطة ولا يمكن أن ينتج عنها أى شيء ولاسيما أنها ستعود إلى لندن غدا . »

ومن ناحية الباب جاء صوت يرجوه فى الحاح ويقول : «تستطيع أن تذهب إليها غدا يا «جود» . أرجوك ألا تذهب الآن ! هذه حيلة منها لتوقعك فى شراكها . إنى لا أشك أبدا فى أن هذه مجرد حيلة تطابق تماما ما أقدمت عليه فى الماضى من حيل . لاتذهب يا عزيزى . إنها امرأة تمتلىء نفسها بحقير الدوافع وإنى أرى ذلك فى هيئتها وأسمعه فى صوتها ! » .

قال «جود» وهو يتجه ناحية السلم : «ولكننى سأذهب ولاتحاولى أن تقفى فى طريقى . يعلم الله أننى لا أحبها الآن ولكن لايمكن أن أقسو عليها . »

وصرخت «سو» وقد انتابها الذهول : «ولكنها ليست زوجتك وأنا...

قال « جود » : « وأنت لست كذلك بعد يا عزيزتى ! » .

— « ولكنك لن تذهب معها . أليس كذلك ؟ لا تذهب . بق معى هنا أرجوك . أرجوك أن تبقى هنا . «جود» لا تذهب معها إذ لا يمكن اعتبارها زوجتك أكثر مما يمكن اعتبارى أنا كذلك ! » .

وقال « جود » وهو يلتقط قبعته فى عزم : «بل يمكن اعتبارها زوجتى أكثر منك . اعترفى الآن بذلك . أردت أن تصبحى زوجتى وصبرت طويلا لتحقيق ذلك ، ولكن ها أنا لم أحصل منك على شىء مقابل انكار ذاتى . لا بد أن أمنحها شيئا من نفسى وأستمع إلى ماتتلهف على الإفضاء به . لا أعتقد أن رجلا يستطيع أن يفعل أكثر مما أفعله الآن » .

وكان فى هيئة «جود» شىء خفى جعلها توقن بألا طائل من وراء معارضته . ولم تفه بشىء ولكنها عادت إلى حجرتها فى استسلام ظاهر كأنها الشهيدة . وكانت تسمع صوت أقدامه وهو يهبط السلم ثم سمعته وهو يفتح الباب ويغلقه خلفه فهبطت هى الأخرى فى سرعة وهى تنتحب فى صوت مسموع وقد تناست كرامتها بعد أن أحست أنها وحيدة فى المنزل وكثيرا مايحدث ذلك للمرأة عندما تكون وحدها . أصاخت السمع وكانت تعلم طول المسافة بين المنزل والحان التى أشارت إليه « أرابيلا » . وكان الطريق إلى الحان يقطع فى دقائق سبع ، لو سار الاثنان بخطى عادية بينما لا بد أن يحتاجا إلى سبع أخرى للعودة . فإذا لم يعد « جود » فى ظرف أربع عشرة دقيقة فمعنى ذلك أنه تلكأ فى الطريق . ونظرت « سو » إلى الساعة وكانت تشير إلى خمس دقائق بعد العاشرة والنصف .

وكان هناك احتمال أن يدخل الاثنان إلى الحان إذ لا بد أن يصلاه قبل موعد الإغلاق فتقنعه « أرابيلا » بشرب شىء معها ولا يعلم إلا الله ما سوف يحل بعد ذلك من مصائب ونكبات .

وظلت « سو » تنتظر فى توتر صامت وكان يبدو كأن دهرا انقضى عندما فتح « جود » الباب ثانية وظهر أمامها .

وأطلقت صرخة فرح تدل على ما فى نفسها من نشوة و بدأت تقول : « كنت على يقين أنك موضع ثقتى ! كم أنت طيب ! » .

— « لا أستطيع أن أجدها فى أى جزء من هذا الطريق و لقد خرجت و ليس فى قدمى سوى الخف . هامت على وجهها ظنا منها أننى من قسوة القلب بحيث رفضت طلبها كلية . يا لها من امرأة مسكينة . عدت لأرتدى حذائى فالسماء بدأت تمطر » .

وقالت « سو » وقد اجتاحتها موجة من خيبة الأمل المشوبة بالغيرة : « ولكن لم تتعب نفسك هكذا من أجل امرأة أساءت إليك كثيرا ؟ » .

— « ولكنها امرأة ضعيفة يا « سو » وكانت فى يوم من الأيام موضع اهتمامى ولا يمكن أن أتحول إلى وحش فى ظرف كهذا » .

قالت وقد استبد بها الانفعال : « ولكنها لم تعد زوجتك ! يجب ألا تخرج للبحث عنها . هذا خطأ كبير إذ لا يمكن أن تلحق بها . إنها الآن غريبة بالنسبة إليك . كيف تنسى شيئا كهذا أيها العزيز الغالى . » .

وقال « جود » وهو مستمر فى ارتداء حذائه : إنها تبدو كما كانت دائما .... نفس المخلوق الموغل فى الخطأ ، المغرق فى الإهمال . إن ما أصدره رجال القانون فى لندن من أحكام لا يمكن أن يؤثر على العلاقة الحقيقية التى تربطنى بها . وهى وإن لم تكن تعتبر زوجتى فى الوقت الذى كانت فيه فى استراليا تعيش مع رجل آخر ، فهى زوجتى الآن » .

— « ولكنها لم تكن ! هذا رأيى بكل دقة وهنا تكمن المأساة ! حسن . ستعود فورا بعد بضع دقائق . أليس كذلك أيها العزيز ؟ إنها من الوضاعة ، والفظاظة بحيث لا يجدر بك أن تتحدث إليها طويلا وكذلك كانت دائما . »

— « لسوء الحظ قد أكون فظا مثلها ! إننى أحمل فى نفسى جرائيم لكل ألوان الضعف الإنسانى ، وإنى أعتقد تماما أن ذلك هو السبب فى أنى وجدت من السخف أن أصبح فى يوم من الأيام قسيسا . لقد شفيت تماما من آفة تعاطى الخمر ، ولكننى لا أدرى أية رذيلة جديدة سوف تثور فى أعماق . إننى أحبك يا « سو » وإن كنت ضحيت فى صحبتك وأضعت الكثير من عواطفى دون مقابل ! إن كل ما هو فاضل ونبيل فى بحبك . إن خلوك من كل ما هو فظ هو الذى سيتسامى بروحى ويمكننى من أن أقوم بأعمال لم أكن أحلم يوما بها ، أو أن يقوم بها أى رجل آخر . ما أحسن أن يعظ المرء الناس فى ضبط النفس وفى نذالة الاستبداد بالمرأة . ليت أولئك الفضلاء الذين أدانونى فى الماضى فيما يختص بأرابيلا وأمور أخرى يقفون الموقف المعذب بالأمل الذى وقفته معك خلال تلك الأسابيع الأخيرة ! أظن أنهم ، لو فعلوا لآمنوا بأننى فى خضوعى المستمر لرغباتك مارست قدرا يسيرا من ضبط النفس على الرغم من بقائى معك هنا فى منزل واحد لا يفصل بيننا مخلوق» .

— « نعم . كنت معى غاية فى الطيبة يا « جـــود » . أعرف ذلك أيها الحامى العزيز » !

— « حسن . لجأت إلى « أرابيلا » طالبة مساعدتى فمن واجبى أن أخرج وأتحدث إليها على الأقل ! » .

قالت وهى تنفجر باكية بكاء يمزق قلبها : « لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلت ! لو كان لابد أن تذهب فلا مناص من ذهابك ! ليس لى أحد سواك يا «جود» وها أنت تهجرنى . لم أكن أعلم أنك كذلك - لا يمكننى أن أحتمل . لا أستطيع . لو كانت تخصك لاختلف الأمر ! » .

— « أو لو كنت أنت تخصيننى . » .

— « حسن جداً إذن . لو كان لابد لى فلا مناص . أما وقد اخترت أنت

ذلك فإننى أوافق . لسوف أصبح زوجتك ، فقط لم أقصد ذلك ! ولم تكن رغبتى أن أتزوج ثانية أيضا ! ولكن نعم . إنى أوافق. إنى أوافق. إننى أحبك. كان ينبغى أن أعرف أنك لابد منتصر فى النهاية بالنظر إلى طريقة حياتنا هذه ! »

وجرت عبر الحجرة وألقت بذراعيها حول عنقه وهى تقول : « أنا لست المخلوق البارد الخالى من الجنس . هل أكونه لأننى أجعلك بعيدا عنى ؟ إنى متأكدة من أنك لا تظن ذلك . انتظر لترى « إننى أخصك أليس كذلك ؟ إنى أذعن » .

— « وسأعد لزواجنا غدا ، أوفى الوقت الذى ترغبين » . .

— « نعم يا « جود » .

قال وهو يعانقها فى رقة : « إذن فسأدعها تذهب . أشعر أنه من الظلم لك أن أراها وقد يكون من الظلم لها . إنها ليست مثلك أيتها العزيزة ولم تكن أبدا . إنه لمن العدالة أن أقول ذلك . لا تبك بعد الآن . هاك ، هاك ، وهاك . » قد قبلها على جانب وعلى الآخر وفى الوسط ثم أغلق الباب الأمامى بالرتاج .

وكان الصباح التالى مطيرا . وعند الإفطار قال فى مرح : « والآن يا عزيزتى . بما أن اليوم هو السبت فإنى أنوى أن أطلب من الكنيسة أن تعلن فى الحال قرار اعتزامنا الزواج حتى ينشر باكر لأول مرة وإلا فسنخسر أسبوعا كاملا . إن قصر الإعلان على الكنيسة يكفى أليس كذلك ؟ لسوف يوفر لنا جنيها أو جنيهين . »

وفى شرود وافقت . ولكن عقلها حينئذ كان مشغولا بشىء آخر . وفارقتها روح الدعابة واستقرت على ملامح وجهها مسحة من الكآبة .

غمغمت تقول : « أشعر أننى كنت غاية فى الأنانية ليلة أمس . كان تصرفى ينم عن قسوة واضحة ، أو ماهو أسوأ من ذلك . كانت قسوة منى أن أعامل « أرابيلا » هذه المعاملة . لم ألق بالا إلى كونها فى ضائقة ولا إلى ما كانت تود أن تحدثك عنه.

قد يكون ما وددت أن تحدثك عنه شيئا له ما يبرره حقا . ذلك على ما أعتقد دليل جديد على سوء خلق ! للحب فتنته العمياء ، وبخاصة عندما تتدخل المنافسة . إن حبي على الأقل له هذه الصفة السيئة حتى لو تجرد منها حب غيرى من الناس . إنى أتساءل عما يكون قد حل بها ؟ أرجو أن تكون تلك المرأة المسكينة قد وصلت الحان سالمة »

قال فى هدوء : « نعم وصلت سالمة . »

ـــ « أرجو ألا تكون قد حيل بينها وبين الدخول أو أنها اضطرت إلى أن تجوب الطرقات تحت وابل المطر . هل يضيرك أن أرتدى معطف المطر وأذهب لأرى إن كانت تمكنت من الدخول أو أنها أضطرت إلى أن تجوب الشوارع فى المطر ؟ أيضيرك أن أذهب لأرى إن كانت تمكنت من الدخول ؟ كنت أفكر فيها طوال الصباح . »

ـــ « حسن . وهل ترين أن ذلك ضرورى ؟ إنك لاتدرين إلى أى حد يمكن لأرابيلا أن تنقذ نفسها من المآزق . ومع ذلك إذا كنت ياعزيزتى مازلت تودين التوجه للسؤال عنها يمكنك أن تفعلى . »

لم يكن هناك حدود لما ينتاب « سو » من شعور بالرغبة فى التكفير عما بدر منها مما كان يبدو عجيبا ولا مبرر له . وعندما يراودها هذا الإحساس كان من عاداتها أن تذهب إلى من تعتقد أنها أساءت إليهم بتصرفاتها ، وكانت فى ذلك تختلف عن جميع الناس . ولما كان « جود » يعرف عنها ذلك لم يدهش عندما أبدت رغبتها فى زيارة « أرابيلا » .

وأضاف قائلا : « عندما تعودين سأذهب إلى الكنيسة لأسجل إعلان زواجنا المرتقب . ألا تأتين معى ؟ »

ووافقت على ذلك وخرجت بعد أن ارتدت معطفها وحملت مظلتها الصغيرة تاركة إياه يقبلها كيفما شاء وكانت تبادله قبلاته بطريقة لم تتعودها من قبل .

لقد تغيرت الأوضاع دون شك وقالت والحزن يبدو في ابتسامتها : « لقد وقع الطائر الصغير فى الفخ أخيرا ! »

غير أن « جود » قال بلهجة التأكيد : « بل وضع فى القفص فحسب . »

وسارت فى الطريق الموحل حتى وصلت إلى الحانة التى ذكرتها « أرابيلا » فى حديثها ولم تكن تلك لتبعد كثيرا عن المنزل . هناك علمت أن « أرابيلا » لم تغادر الحانة بعد ، وعندئذ أرسلت إليها « سو » تقول إن صديقا من شارع الربيع حضر لرؤيتها . وكان هذا هو نفس الشارع الذى يقطنه « جود » وقد دفعتها إلى هذا التصرف حيرتها حيال الطريقة التى تكشف بها عن نفسها لأرابيلا ، تلك التى سبقتها فى الاستحواذ على عواطف « جود » . وطلب منها عامل الحانة أن تصعد السلم وقادها إلى إحدى الحجرات وكانت حجرة نوم « أرابيلا » التى لم تكن استيقظت بعد . عندئذ وقفت على أطراف أصابعها مترددة حتى جاءها صوت « أرابيلا » من الداخل يقول : « ادخلى وأغلقى الباب خلفك . » وفعلت « سو » ما أمرت به .

كانت « أرابيلا » ممددة على السرير مولية وجهها شطر النافذة ولم تدر رأسها فى الحال . أما « سو » فكانت من الخبث بحيث تمنت فى قرارة نفسها — على الرغم من شعورها بالندم — لو أن « جود » يرى منافستها فى ذلك الوضع وضوء الصباح منعكس على وجهها . كان من الممكن لأرابيلا أن تبدو جميلة من زاوية جانبية فى ضوء الصباح ، ولكن مسحة البرود كانت واضحة عليها ذلك الصباح . ووقع بصر « سو » على جمالها الذى عكسته المرآة المقابلة فأبهجها ذلك حتى بدأت تعجب لتلك العاطفة الجنسية الوضيعة التى انتابتها وكرهت نفسها من أجلها . »

وقالت « سو » فى رقة : « جئت لأتأكد من أنك وصلت سالمة ليلة أمس وهذا كل مافى الأمر . خشيت أن يقع لك حادث عقب مغادرتك المنزل ؟ »

قالت « أرابيلا » ، وقد دفعت رأسها إلى الخلف وألقت بها فوق الوسادة فى

حركة تنم عن خيبة الأمل كما اختفى من وجهها كل أثر للهزيمة التى حاولت أن تخلقها فوق وجهها خلقا : « كم يبدو ذلك سخيفا ! ظننت أن القادم هو ـ صديقك ـ أقصد زوجك أيتها السيدة « فاولى » وأعتقد أنك هكذا تسمين نفسك . »

قالت « سو » : « قطعا لا . »

ـــ « أوه . ظننت أنك فعلت ذلك حتى لو لم يكن السيد « فاولى » هو زوجك فى الواقع فالأدب هو الأدب فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار . »

قالت « سو » فى حدة : « لا أدرى ما تعنين . إنه يخصنى لو أتيت إلى ذلك . »

ـــ « لم يكن يخصك بالأمس . »

توردت وجنتا « سو » وقالت : « وكيف عرفت ؟ »

ـــ « من طريقة كلامك معى عند الباب . حسن يا عزيزتى ، لقد أسرعت وأظن أن زيارتى فى الليلة الماضية عاونت على ذلك . ها ... ها ولكننى لا أود أن أبعده عنك . »

وتطلعت « سو » إلى المطر فى الخارج ، كما نظرت إلى أثاث الغرفة القذر ووقع بصرها على خصلات الشعر الصناعية الخاصة بأرابيلا ـــ تلك الخصلات التى تدلت فوق المرآة تماما كما كان الحال عندما كانت زوجة لجود وتمنت « سو » فى قرارة نفسها لو أنها لم تأت أبدا إلى ذلك المكان . وفى فترة الصمت التى تلت ، جاء صوت طرق على الباب ودخلت الخادمة وفى يدها برقية تحمل اسم « السيدة كارتليت »

وفضت « أرابيلا » البرقية دون أن تنهض واختفت من وجهها نظرة القلق . وبعد أن غادرت الخادمة الغرفة قالت « أرابيلا » فى رقة : « إنى شاكرة لك قلقك على ، ولكن ليس هناك داع لإحساسك هذا . يرى رجلى أنه لا يمكنه الاستغناء عنى بعد كل الذى حدث وهو يعلن استعداده للوفاء بوعده بأن يتزوجنى هنا من جديد ، كما وعدنى بذلك . انظرى . لقد أرسل هذه البرقية ردا على واحدة

كنت أرسلتها له . » ورفعت « أرابيلا » البرقية أمام عيني « سو » لتقرأها ولكن هذه لم تعرها التفاتا واستمرت « أرابيلا » تقول : إنه يطلب مني أن أعود إليه فالحان التي يملكها في « لامبيث » لا بد أن تغلق إن لم أعد إليه ، وان يلعب بي لعب الولدان بالأكر كلما تناول شيئا من الخمر وذلك بعد أن يشدنا القانون إلى بعضنا شدا . أما بخصوصك أنت فإني أنصحك بأن تعملي على إغراء « جود » وتدفعيه إلى أن يأخذك أمام الكاهن في الحال وبذلك ينتهي الأمر . هذا ما أفعله لو كنت في مكانك . أقول ذلك بصفتي صديقة أيتها العزيزة » .

قالت « سو » في كبرياء جامد : « إنه في انتظار ذلك في أي يوم » .

— « إذن دعيه بحق السماء . فالحياة مع الرجل بعد الزواج تكون أكثر جدية ، كما أن الأوضاع المادية تتحسن . بعد ذلك لو نشبت بينه وبينك بعض المشاجرات ، أو دفع بك إلى خارج البيت فإنك تلجأين إلى القانون ليحميك ولا يمكنك عمل ذلك إذا لم تكوني مرتبطة معه برباط الزواج ، إلا إذا اعتدى على حياتك أو حطم لك رأسك بقضيب من حديد . وحتى في حالة إعراضه عنك — وأقول لك ذلك كصديقة وكامرأة تتحدث إلى إحدى بنات جنسها ، إذ ليس ثمة ضمان لما يأتيه الرجل من أفعال — فسوف يتبقى لك الأثاث ولن ينظر إليك المجتمع على اعتبار أنك سارقة . سأتزوج ، رجلي من جديد وهو لا يمانع في ذلك الآن فالزواج الأول كان به خطأ بسيط في الإجراءات وأخبرته في برقيتي التي أرسلتها إليه بالأمس والتي جاءت هذه رداً عليها إنني على وشك أن أتصالح مع « جود » وأظن أن ذلك أخافه . ما من شيء كان يمنعني من ذلك لولاك أنت » .

وظلت « أرابيلا » تقول وهي تضحك : « في هذه الحال كم صارت قصة كل منا تختلف تماما منذ اليوم ، لجود يبدو مغفلا رقيقا بمجرد أن يرى أمامه امرأة في ضائقة وبخاصة عندما تتحايل عليه قليلا . تماما كما كان يفعل مع الطيور والحيوانات . ومع ذلك فإن الأمور تسير سيرا حسنا كما ترين طالما أنني تصالحت مع زوجي وإني لذلك أعفو عنك وكما قلت لك ، أنصحك أن تضعي الأمر في

شكله القانونى بأسرع ما يمكن . سوف تصادفك متاعب جمة فى المستقبل إذا لم تفعلى ذلك » .

قالت « سو » وقد زاد شعورها بالكرامة : « قلت لك إنه يطلب منى أن أتزوجه لنجعل زواجنا الطبيعى عملا قانونيا . وكان برغبتى تماما إنه لم يتزوجنى فى اللحظة التى كنت فيها حرة » ،

قالت « أرابيلا » وهى ترمق ضيفتها بنظرة ملؤها النقد الساخر : آه ، إذن سبق لك الزواج مثلى تماما . وهل هربت من الأول كما فعلت أنا ؟ »

قالت « سو » فى سرعة : « أسعدت صباحا ! يجب أن أذهب . »

وأجابت الأخرى وهى تنهض من السرير فجأة بحيث اهتزت الأجزاء الناعمة من جسدها : « وأنا أيضا يجب أن أنهض وأخرج ! »

وقفزت « سو » جانبا فى هلع مما جعل « أرابيلا » تضع يدها فوق كتفها وتقول : « يا إلهى . إننى لست سوى امرأة ولست بشيطان . انتظرى لحظة ياعزيزتى . لقد أردت فى الواقع أن أستشير « جود » بخصوص عمل ما ، كما أخبرتك . لقد جئته من أجل ذلك وليس لأى شيء آخر . هل يمكنه أن يقابلنى فى المحطة لأتحدث إليه ؟ أظن أنك لا توافقين ؟ حسن سأكتب له عن ذلك الأمر . لم أرد أن أكتب له فى هذا ولكن لا يهم « سأكتب » .

(٣)

وعندما وصلت « سو » إلى المنزل كان « جود » فى انتظارها عند الباب كى يصحبها لإتمام الخطوة الأولى فى زواجهما . لقد تشبثت بذراعه وسارا معا فى صمت كما هى عادة الرفقاء الأوفياء . ورأى أنها مشغولة فامتنع عن سؤالها . أخيرا قالت : آه « جود » لقد كنت أتحدث إليها . وددت لو لم أفعل ! ومع ذلك فمن الأفضل أن يذكرنا غيرنا بأمورنا » .

— « أرجو أنها كانت مهذبة » .

— « نعم . إنى — إننى لا أملك إلا أن أعجب بها ، هونا ما . إن طبيعتها لا تخلو من النبل وإنى سعيدة لأن كل متاعبها انتهت فجأة . » وهنا شرحت لجود كيف أن زوج « أرابيلا » أرسل إليها يستدعيها وبذلك ستتمكن من استعادة وضعها السابق » .

وأخذت « سو » تقول : « أشرت فى حديثى معها إلى موضوعنا . وإن ما قالته فى هذا المقام جعلنى أحس أكثر من أى وقت مضى كيف أن الزواج الشرعى ما هو سوى وضع مهين إلى حد لا يرجى معه إصلاح . إنه نوع من الشراك يستهدف اقتناص رجل . إنى لا أطيق التفكير فيه . ليتنى لم أعدك هذا الصباح بالسماح لك ، بإعلان زواجنا ! » .

— « أوه — لا تقلق بسببى فأى وقت يناسبنى . ظننت أنك تفضلين الانتهاء من هذه المهمة على وجه السرعة ، الآن » .

— « فى الواقع لا أشعر برغبة فى ذلك الآن أكثر مما كنت من قبل . ربما كنت أشعر بالقلق مع أى رجل آخر ولكن أظن يا عزيزى من بين الفضائل التى تميز عائلتينا قد يكون العناد ، وعلى ذلك فإننى غير قلقة على فقدانك بالمرة . أشعر الآن أنى حقا لك وأنك حقا لى . فى الواقع أشعر بالطمأنينة أكثر من ذى قبل فضميرى مرتاح من جهة « ريتشارد » الذى له الآن الحق فى الاستمتاع بحريته . شعرت أننا كنا نخدعه من قبل . »

— « إنك عندما تتحدثين هكذا يا « سو » تبدين وكأنك إحدى سيدات الحضارات الكبرى التى قرأت عنها فى ماضى الأيام التى ضيعتها فى قراءة الآداب القديمة . وإنك لتبدين كذلك أكثر مما تبدين مجرد مواطنة بين مواطنات إحدى ممالك عالمنا الراهن . أكاد أتخيلك وأنت تقولين لى إنك ، فى تلك الأيام الخاليات ، كنت لتوك تتحدثين إلى صديق قابلته وأنت تسيرين فى « الطريق المقدس » حيث سمعت منه آخر الأنباء عن « أوكتافيا » و « أوليفيا » أو أن تقولى إنك كنت تستمعين إلى بلاغة « أسبازيا » أو كنت ترقبين « بيراكسيتيليس »

وهو يختلس النظر إلى « فينوس » التي أحبها أخيرا ، بينما راحت « فرين » تشكو من وقفتها في وضع معين » .

وكانا قد بلغا الآن مسكن الكاهن . وهنا تراجعت « سو » بينما تقدم « جود » إلى الباب . كانت يده على وشك أن تقرعه عندما صاحت به تقول : « جود » .

والتفت إليها وهنا قالت : « على رسلك . هل يضايقك ذلك ؟ » . وعاد إلى جوارها .

وقالت في خجل . « دعنا نفكر قليلا . رأيت الليلة في المنام حلما مزعجا للغاية ...... كما أن « أرابيلا » قالت ...... » .

قال « جود » : « وماذا قالت « أرابيلا ؟ » .

— « قالت إن الناس عندما يرتبطون بالزواج يمكن للمرأة أن تلجأ للقانون إذا ضربها زوجها ، كما شرحت لي كيف أن هؤلاء الأزواج عندما يتشاجرون.... هل تعتقد يا « جود » أنك عندما تلجأ إلى القانون لتأخذني ، هل تعتقد أننا سوف نسعد أكثر مما نحن الآن ؟ إن النساء والرجال في عائلتينا يصبحون غاية في كرم الأخلاق عندما تعتمد الأمور على حسن نواياهم ، غير أنهم ينفرون بشدة عندما يرغمون على أمر من الأمور . هلا خشيت الاتجاه الذي يفرضه الإلزام القانوني والذي سوف ينشأ دون أن نشعر به ؟ ألا تظن أن مثل ذلك الإلزام سوف يفسد عاطفة بيننا تستمد أصولها من مجرد شعورنا بحرية التصرف في شأنها ؟ » .

— « الحق أقول لك يا حبيبتي إنك بدأت تخيفينني بكل هذه التوجسات ! حسن . دعينا نعود الآن ونفكر في الأمر مليا » . وطفح وجهها بالبشر وقالت : « نعم . لسوف نفعل ذلك » .

وأدار الاثنان ظهريهما لباب منزل الكاهن واستندت « ســو » إلى ذراع « جود » وكانت تغمغم أثناء عودتهما قائلة :

—« أيمكن المرء أن يمنع النحلة من التجوال أو حلقات رقبة اليمامة من التغير؟ لا . ولا يمكن تقييد الحب .... » .

وأعادا التفكير فى الموضوع أو قل أجلا التفكير فيه . ومن المؤكد أنهما أجلا الزواج وظهرا كأنهما يعيشان فى جنة حالمة .

وبعد أسبوعين أو ثلاثة ظلت الأمور كما هى ولم تعلن الكنيسة أى أنباء عن زواجهما المرتقب كما لم يسمع سكان « الدبركهام » شيئا عن هذا الزواج .

وبينما كانا يؤجلان ويؤجلان جاءت فى صباح يوم من الأيام جريدة ومعها خطاب من « أرابيلا » وكان الوقت قبل الفطور . وعندما رأى « جود » خط « أرابيلا » صعد وأخبر « سو » بالأمر .

وعندما علمت « سو » بذلك ارتدت ملابسها على عجل ونزلت السلم وفتحت الجريدة بينما فتح « جود » الخطاب . وبعد أن ألقت نظرة على الجريدة أشارت بأصبعها إلى فقرة فيها ولكن « جود » كان منشغلا تماماً بقراءة الخطاب فلم يلتفت إلى « سو » لفترة .

قالت : « انظر ! » .

فنظر وقرأ . وكانت الجريدة من الجرائد المحلية التى توزع فى جنوب لندن فقط : وكان الإعلان المشار إليه ليس إلا إعلانا عن زواج تم فى كنيسة القديس يوحنا فى شارع واترلو باسم « كارتليت - دون » ، ولم يكن الزوجان المشار إليهما فى الإعلان سوى « أرابيلا » وصاحب الحان .

وقالت « سو » فى هدوء : « هذا شىء جميل وإن كان بعد حدوثه يصبح من المشين لنا أن نقوم بشىء مثله وإنى لمسرورة ، وعلى أى حال أظن أن « أرابيلا » تجد الآن من يعولها على الرغم من كل الأخطاء التى ارتكبتها . ومن الأوفق أن تكون هذه فكرتنا عنها فهذا أفضل من أن نشعر بالضيق منها . وينبغى لى أنا الأخرى أن أكتب لريتشارد وأسأل عن أموره وكيف تسير » ..

وعلى الرغم من كل ما قالته ، كان «جود» لا يزال منهمكا فى القراءة . وبعد أن ألقى نظرة خاطفة على إعلان الزواج قال فى صوت مضطرب : « استمعى إلى هذا الخطاب وارشديني إلى ما ينبغى أن أقول أو أفعل ؟ » .

حان القرون الثلاثة — « لامبيث » .

عزيزى « جود » (وان أدعى الابتعاد عنك فأدعوك السيد فاولى) . أرسل إليك اليوم جريدة لتقرأ فيها وثيقة مفيدة . وثيقة تثبت أننى تزوجت مرة أخرى من «كارتليت » وذلك يوم الثلاثاء الماضى . ها قد انتهى هذا الموضوع أخيرا وطوى إلى الأبد ولكن الشىء الذى يهمنى أن أخبرك به أكثر من موضوع زواجى هو ذلك الموضوع الشخصى الخاص الذى أردت أن أحدثك عنه عندما جئتك زائرة فى « الدبركهام » . لم يكن فى استطاعتى حينئذ أن أخبر صديقتك به وكنت أفضل كثيرا لو أننى استطعت أن أحدثك عنه مشافهة إذ كان لا بد أن يتيح لى ذلك فرصة الشرح المستفيض أكثر من الكتابة . الواقع يا « جود » على الرغم من أننى لم أذكر لك شيئاً عن هذا من قبل ، هناك طفل جاء ثمرة ازواجنا السابق ولقد حدثت الولادة فى « سيدنى » بعد ثمانية أشهر من افتراقنا وكنت عندئذ أعيش مع أبى وأمى ويمكننى أن أقدم الدليل على كل ذلك فى سهولة ويسر . كنت على علم بأن أمرا كهذا لا بد أن يحدث عقب افتراقنا وكنت أعيش مع والدى فى ذلك الوقت واحتدم النزاع بينى وبينهما لذلك اعتقدت أنه ليس من الأوفق أن أخبرك بمولد الطفل . كنت فى ذلك الوقت أبحث عن عمل مناسب لذا تولى والداى أمر الطفل الذى ظل يعيش معهما منذ ذلك الحين هذا هو سبب امتناعى عن إخبارك بجلية الأمر عندما تقابلنا فى « كرايستمينستر » . كما أننى لم أشر إليه فى الإجراءات القانونية . لقد بلغ الآن سنا تمكنه من إدراك ما يجرى حوله وكتب لى والداى يقولان إنهما يجدان صعوبة كبيرة فى الحصول على الرزق بينما أقيم أنا فى بحبوحة . ويقولان أيضا إنه ليس هناك مبرر لأن يعوق الطفل سبيلهما بينما له والدان على قيد الحياة . إننى على أتم الاستعداد لأن استقدمه إلى هنا فى الحال ولكنه لم يبلغ بعد السن التى تمكنه من أن يؤدى عملا فى المشرب

ولن يصبح كذلك قبل مرور عدة سنوات وقد يعتبره « كارتليت » عائقا فى طريق حياته . على أى حال قام والداى بإرساله إلى فعـــلا وكان ذلك بمعاونة بعض الأصدقاء الذين تصادف مجيئهم من استراليا . أود منك أن تأخذه عند وصوله إذ أننى لا أدرى ما عساى فاعلة به هنا . إنه ولدك شرعا وأقسم لك على ذلك وإذا ادعى أحد انه ليس كذلك فلك أن تعتبره من الكاذبين الآشرين . ومهما يكن ما فعلته من قبل أو ما سوف أفعله من بعد، فقد كنت دائمة أمينة لك منذ تزوجنا حتى غادرت بيتك وسأظل دائماً مخلصة لك » .

« ارابيلا كارتليت »

كانت نظرة « سو » تنم عن الاكتئاب وقالت فى صوت خافت : « وماذا عساك فاعل يا عزيزى ؟ »

ولم يحر « جود » جوابا وظلت « سو » ترقبه فى قلق واضح وهى تزفر زفرات مسموعة .

وقال فى صوت خفيض : « إن ما فى الرسالة صدمة لى ، وقد تكون الحقيقة وإن كنت لا أتبينها . فى الواقع لو كان مولده فى الوقت الذى أشارت إليه فى خطابها فهو فعلا ابنى . ولا أرى سببا لعدم اخبارها إياى بوجود هذا الطفل عندما تقابلنا فى « كرايستمينيستر » وعندما ذهبت معها فى تلك الأمسية إلى هناك . آه . إننى أتذكر الآن أنها قالت إن أمراً يقلقها ويهمها كثيرا أن تخبرنى به ، لو قدر لنا أن نعيش سويا مرة أخرى » .

وقالت « سو » وقد فاضت عيناها بالدموع : « يا للطفل الصغير المسكين . يخيل إلى أنه ما من أحد يرغب فيه » .

كان « جود » استعاد رباط جأشه وهنا قال : « أية فكرة تلك التى لا بد أن يكون هذا الطفل كونها لنفسه، عن الحياة سواء كنت أنا أباه أو لم أكن ! لا بد أن أقرر أنى لو كنت من الناحية المادية أحسن حالا، ما ترددت لحظة فى التفكير فى حقيقية نسبه . كنت فى الحال آخذه وأنشئه دون اعتبار لتلك المشكلة التافهة،

مشكلة نسبه ولمن يكون . ماذا يهم لو أن الطفل ينتسب إليك عن طريق الدم أم لا ؟ إن كل الصغار الذين يعيشون فى زماننا هم فى جملتهم أبناء لكل البالغين الذين يعيشون فى نفس الزمن ولهم الحق علينا فى رعايتهم . أما تلك العناية الزائدة التى يبديها الآباء لأبنائهم وكرههم لأطفال غيرهم فإنها تبدو وكأنها الشعور الطبقى ، أوالقومية ، أو مبدأ إنقاذ نفس إنسان دون غيره من النفوس ، أو غير ذلك من المبادئ التى لها مظهر الفضائل وإن كانت لا تعنى فى حقيقتها سوى الأثرة الحقيرة » .

وقفزت « سو » من مكانها وقبلت « جود » فى حب غامر وقالت : « نعم إنه لكذلك أيها العزيز . لسوف نأتى بالطفل إلى هنا . إذا لم يكن هذا الطفل حقاً طفلك فسيكون ذلك أفضل . كم أتمنى ألا يكون ذلك الطفل ابنك على الرغم من أنه من الواجب على ألا يكون شعورى نحوه هكذا . وإذا كان هذا الطفل ليس من صلبك فكم أتمنى أن نربيه ونرعاه على أنه ابننا بالتبنى » .

— « حسن . يجب أن نفترض ما يسعدك أيتها الرفيقة العزيزة الغريبة الأطوار . على أى حال ، أحس أنى لا أود أن أترك هذا الطفل المسكين فريسة للإهمال وسوء المعاملة . تصورى حياته فى حان من حانات حى « لامبيث » وما يتعرض له فيها من تيارات ومؤثرات شريرة . تصورى أن يقدر له العيش مع أم لا ترغب فى وجوده ولا تراه إلا لماما ، وزوج أم لا يعرفه . وقد يأتى يوم ليس ببعيد عندما يجد الغلام ، ابنى ، نفسه وهو يقول : (اللعنة على النهار الذى ولدت فيه والليلة التى قيل فيها إن طفلا فى الطريق) ! » .

— « أوه ، كلا لا تقل هذا »

— « أعتقد أنه بما أننى المدعى عليه فإنى فى الواقع مستحق لحضانته على ما أعتقد » .

— « سواء نعم أو لا ، يجب أن نأخذه . أرى ذلك . وسأبذل كل ما فى وسعى لأكون له بمثابة الأم ولابد أن تكون هناك وسيلة للصرف عليه . سوف

أبذل جهداً أكبر فى عملى . إنى أتساءل متى يصل » .

— « فى بحر أسابيع قليلة على ما أعتقد » .

— « كم أود — متى تواتينا الشجاعة لنتزوج يا « جود » ؟ »

— « أظن أنها ستواتينى عندما تواتيك أنت أولا فالأمر بيدك أنت كلية . قوليها فقط وسننفذ » .

— « قبل أن يصل الصبى ؟ »

— « بالتأكيد » .

وغمغمت « سو » تقول : « قد يتيح له ذلك جوا طبيعياً أكثر » .

وعلى ذلك كتب « جود » خطاباً راجياً فى صيغة رسمية للغاية إرسال الغلام بمجرد وصوله ولم يشر إلى ما أحدثته هذه الأنباء من دهشة أو يصرح بكلمة واحدة عن رأيه فى نسب الصبى ولم يذكر شيئاً عن أن موقفه حيال « أرابيلا » ما كان ليتغير لو أنه علم بوجود الطفل فى حينه .

وفى القطار العائد إلى « الدبركهام » فى حوالى العاشرة فى الليلة التالية ، أطل من إحدى مركبات الدرجة الثالثة وجه صغير شاحب لطفل . كانت له عينان كبيرتان مذعورتان ويرتدى رباطاً للعنق مصنوعا من صوف أبيض ويعلق فوقه مفتاحا تدلى حول رقبته بقطعة من خيط عادى . كان المفتاح براقا يجذب الانتباه بتأثير تألقه العرضى فى ضوء المصباح . وفى شريط قبعته ثبتت تذكرته النصفية وظلت عيناه مثبتتين معظم الوقت فى ظهر المقعد أمامه ولم تتحولا ناحية النافذة حتى عندما كان القطار يدخل إحدى المحطات ، أو عندما ينادى على أسمائها . وفى المقعد الآخر جلس راكبان أو ثلاثة واحد منهم امرأة عاملة فى حجرها سـلة بداخلها قطيطة مخططة ومن حين لآخر تفتح المرأة غطاء السلة فتخرج القطيطة رأسها وتأتى بحركات مسلية يضحك منها الركاب باستثناء الصبى حامل المفتاح والتذكرة وكان يرقب الهرة بعينيه الواسعتين اللتين بدتا كأنهما تقولان فى صمت:

« يصدر كل الضحك عن سوء فهم . مع النظرة الصائبة لا يوجد شيء تحت الشمس يثير الضحك . »

ومن وقت لآخر عندما يقف القطار كان الكمسارى ينظر داخل المقصورة ويقول للغلام : « حسن جدا يا رجلي . صندوقك فى عربة الحقائب فى أمان . » ويجيبه الصبي : « نعم » ودون أن يبدى انفعالا يحاول أن يبتسم ويفشل .

وكأنه الكبير يمثل دورا فلا يحسن التمثيل وتتكشف الحقيقة من خلال ثغرات : وكأن نتوءا فى الأرض من أعوام قديمة مظلمة لاح الآن وهو يرتفع بالطفل إلى مستوى عمره الصغير الحالى وبخاصة عندما التفت بوجهه خلفه ملقيا ببصره إلى خضم عميق من الرمل ومتظاهراً بأن ما رآه لا يعنيه .

وعندما أغمض الركاب الآخرون أعينهم واحداً بعد الآخر ، وحتى عندما كورت الهرة جسمها داخل السلة بعد أن أتعبها مجهود قيامها بالألعاب المضحكة ، ظل الصبي كما كان تماما . وبدا حينئذ أكثر يقظة وكأنه مقيد ممسوخ لا يفعل شيئا سوى التطلع فى وجوه رفاقه ، كما لو كان يرى حياتهم بأكملها وليست جسومهم فقط .

هذا غلام « أرابيلا » وكانت بإهمالها المعهود قد تأخرت فى الكتابة بشأنه لجود وظلت كذلك حتى الليلة السابقة لوصول السفينة التى أقلته عند ما لم تستطع التأجيل أكثر من ذلك على الرغم من أنها كانت تعلم بوقت وصول الطفل منذ أسابيع ، وعلى الرغم من أنها ، على حد قولها ، قامت بزيارة «ألدبركهام» فى المقام الأول لتكشف عن أمر الصبي وعن موعد عودته . وفى اليوم الذى تلقت فيه رد « جود » كان الطفل وصل فعلا إلى ميناء « لندن » وكانت الأسرة التى جاء فى صحبتها واصلت سفرها بعد أن وضعته فى عربة متجهة إلى « لامبيث » وودعه أفرادها بعد أن أرشدوا السائق إلى عنوان منزل أمه .

وعندما وصل الصبي إلى حان القرون الثلاثة ، أطالت « أرابيلا » النظر إلى

ابنها وعلى وجهها تعبير كاد يقول : « إنك تبدو تماما كما توقعت » . وقدمت له طعاما شهيا وأعطته بعض المال . وعلى الرغم من أن الوقت متأخر أرسلته إلى « جود » فى أول قطار وذلك لأنها لم تكن ترد أن يراه زوجها الذى كان بالخارج وقتذاك .

وبلغ القطار محطة « ألدبركهام » ونزل الصبى على الرصيف ووقف بجوار صندوقه . وأخذ الكمسارى منه تذكرته وبعد أن أدرك تفاهة ما معه من متاع سأله أين يذهب وحده فى ذلك الوقت من الليل ؟

وقال الصغير دون أن يبدو عليه أى تأثر : « إنى ذاهب إلى شارع الربيع . »

— « عجبا ! إنه يبعد كثيرا من هنا ، فى الريف بعيدا وسيكون القوم نياما . »

— « على أن أذهب إلى هناك . »

— « لابد من عربة لصندوقك . »

— « لا . لابد أن أسير . »

— « حسن . ألا تفضل أن تترك صندوقك هنا ثم ترسل فى طلبه . هنالك حافلة تصل إلى نصف الطريق ولكن لا بد أن تمشى بقيته . »

— « لست بخائف . »

— « ولم لم يحضر أصدقاؤك لملاقاتك ؟ »

— « أظن أنهم لم يعلموا بمقدمى . »

— « ومن هم أصدقاؤك ؟ »

— « لاتريد والدتى أن أقول . »

— « كل ما يمكننى أن أفعله الآن هو أن أحتفظ لك بهذه . والآن امش بأسرع ماتستطيع . »

ولم ينبس أحدهما بكلمة بعد ذلك وخرج الصبي إلى الشارع يتلفت حوله ليتأكد من أنه ليس هناك من يتبعه أو يرقبه . وبعد أن سار مسافة قصيرة سأل عن الشارع الذي يقصده فقيل له أن يسير في خط مستقيم حتى يصل إلى خارج المدينـــة .

وراح الطفل في زحف منتظم رتيب فيه صفة الآلية كأنه الموجة أو النسمة أو السحابة . واتبع تعليماته بكل دقة دون التحديق المتسائل في أي شيء ، وكان من الممكن رؤية أن أفكار الغلام عن الحياة مختلفة عن أفكار الغلمان العاديين . فالأطفال يبدأون بالتفاصيل ويتدرجون منها إلى العام . إنهم يبدأون بالقريب وبالتدريج يفهمون العام أما الغلام فيبدو أنه بدأ بعموميات الحياة دون الاهتمام بالخصوصيات . فبالنسبة إليه كانت المنازل والأشجار والحقول الغامضة البعيدة تبدو له ليست مجرد أبنية من الآجر أو أشجار مبتورة الرأس أو مزارع ، بل كأنها الإسكان البشرى في معناه العام والأنبات والعالم الوسيع المظلم .

ووجد الطريق إلى الدرب الصغير وطرق باب منزل « جود » . وكان «جود» قد آوى لتوه إلى الفراش ، و « سو » على وشك أن تدخل حجرتها الملاصقة عندما سمعت الطرق ونزلت .

قال الصبي : « هل هذا حيث يسكن والدى ؟ »

ـــ « ومن هو ؟ »

ـــ « السيد « فاولى » . هذا اسمه . »

وركضت « سو » إلى غرفة « جود » وأخبرته فأسرع بالنزول بأقصى ما استطاع وإن بدا بتأثير قلقها بطيئا .

وسألت حالما جاء « جود » : « ماذا ؟ أهو ـ هكذا سريعا ؟ » وتفحصت تقاطيع الغلام وفجأة ذهبت إلى حجرة الجلوس الصغيرة المجاورة ورفع « جود » الطفل حتى أصبح في مستوى عينيه وظل ينظر إليه في حنان حزين وهو يقول

إنه لو علم أنه قادم بهذه السرعة لذهب لاستقباله ، ثم أجلسه مؤقتا فى مقعد ليستريح بينما ذهب يبحث عن « سو » التى اضطرب إحساسها المرهف ، كما علم ، ووجدها فى الظلام منحنية فوق كرسى كبير . فأحاطها بذراعه وبعد أن وضع وجهه بالقرب من وجهها ، همس قائلا : ما الأمر ؟ »

— « ما تقوله « أرابيلا » حقيق — حقيق ! إنى أراك فيه . »

— « حسن . ذلك شىء واعد فى حياتى كما ينبغى ، على أى حال . »

— « ولكن النصف الثانى منه — هى ! وهذا ما لا أطيقه ! ولكن ينبغى أن أتحمل — سأحاول اعتياد ذلك . نعم ، ينبغى ! »

— إنك غيورة يا « سو » الصغيرة ! إنى أسحب كل الملاحظات عن تجردك من الجنس — ذلك لا يهم . الزمن يصلح الأشياء . . . . . « سو » أيتها العزيزة . لدى فكرة . لسوف نعلمه وندربه بقصد إلحاقه بالجامعة . إن ما عجزت عن تحقيقه فى شخصى قد أتمكن من تنفيذه عن طريقه ، إنهم يجعلون الأمور أسهل على الطلاب الفقراء الآن . ألا تعلمين ؟ » .

قالت : « يالك من حالم » . وبعد أن أمسكت بيده عادت معه إلى الطفل ونظر الغلام إليها كما نظرت هى إليه . وقال متسائلا : « أتكونى أنت أمى الحقيقية أخيرا ؟ » .

— « لماذا ؟ هل أبدو مثل زوجة أبيك ؟ » .

— « حسن . نعم . باستثناء أنه يبدو مغرما بك وأنت به . هل يمكننى أن أدعوك أمى ؟ » .

ثم بدت على الطفل نظرة فيها لهفة وشرع يبكى . عندئذ لم تستطع أن تمنع نفسها من فعل نفس الشىء فى الحال فهى قيثارة تستطيع أقل ريح من انفعال قادم من قلب إنسان آخر أن تجعلها تهتز فى سهولة .

قالت وهى تضع خدها على خده لتخفى دموعها : « تستطيع أن تدعونى أمك لو رغبت ياعزيزى ! » .

قال « جود » فى هدوء مفتعل : « ما هذا الذى حول عنقك ؟ » .

— « مفتاح حقيبتى فى المحطة » .

وأحدثا ضجة كبيرة كى يعدا له بعض العشاء وأقاما له سريرا مؤقتا وضعاه فيه بعد فراغه من تناول الطعام حيث نام لتوه . وذهب كلاهما ونظرا إليه وهو نائم .

وغمغم جود يقول : « لقد دعاك أمه مرتين أو ثلاثا قبل أن راح فى النوم . ألا يبدو غريبا ذلك القول منه ! » .

وقالت « سو » : لا كان لذلك دلالة . لدينا الآن ما نفكر فيه فى هذا القلب الصغير الجائع أكثر مما فى كل نجوم السماء . أعتقد ياعزيزى لا بد لنا من أن نتذرع بالشجاعة ونتغلب على احتفال الزواج . لافائدة من الكفاح ضد التيار وإنى أحس بنفسى وأنا أمتزج مع بنات جنسى . أوه يا « جود » لسوف تحبنى فى إعزاز بعدها . أليس كذلك ؟ إنى أود صادقة أن أكون عطوفة على هذا الطفل وأن أكون له أما وإن إعطاءنا الوضع القانونى لزواجنا قد يجعل ذلك أسهل على » .

(٤)

أما محاولة « جود » و « سو » التالية ، وهى ثانى محاولاتهما للزواج ، فكانت أكثر تصميما إذ بدأت فى الصباح التالى لوصول الطفل العجيب إلى منزلهما .

وجداه معتاداً على الجلوس فى صمت ، ووجهه المتعب الرهيب متجمد ، وعيناه مستقرتين على أشياء لا يرياها فى العالم المادى .

قالت « سو » : « وجهه يشبه قناع « ميلبومين » . ما اسمك يا عزيزى ؟ هلا أخبرتنا ؟ » .

— « يدعونني الغلام أبو الزمان دائما . إنه لقب تهكمي لأنني أبدو غاية في الهرم كما يقولون » .

قالت « سو » في حنان : « وإنك تتكلم هكذا أيضا . من العجيب يا «جود» أن هؤلاء الأطفال الخارقين للطبيعة يأتون دائما من بلاد جديدة ؟ ولكن ما اسمك في العماد ؟ » .

— « لم أعمد قط » .

— « ولم كان ذلك ؟ » .

— « لأنه لو مت في دينونتي فسيوفر ذلك تكاليف الجنازة المسيحية » .

قال أبوه في شيء من خيبة الأمل : « عجبا ! اسمك ليس بجود إذن ؟ »

— وهز الغلام رأسه وقال : « لم أسمع به » .

وقالت « سو » بسرعة : طبعا لا ! طالما أنها كانت تكرهك طول الوقت !»

قال « جود » : « سنجعله يتعمد . » وقال لسو في صوت خفيض : « في اليوم الذي نتزوج فيه . » غير أن مجيء الطفل أربكه . وجعلهما يحسان بالخجل . ولما كان لديهما فكرة عن أن الزواج في مكتب الموثق يكون بعيدا عن أنظار الناس أكثر من ذلك الذي يتم في الكنيسة على يد كاهن ، قررا أن يتحاشيا الكنيسة هذه المرة . وذهب كلاهما سويا إلى مكتب الناحية للتبليغ : لقد أصبحا رفيقين دائمين بحيث لم يأتيا أي أمر هام إلا في صحبة بعضهما البعض .

ووقع « جود فاولي » نموذج التبليغ وكانت « سو » ترقب من فوق كتفه أصابعه وهي تكتب . وبينما كانت تقرأ التعهدات الأربعة الأساسية التي لم ترها أبدا من قبل (ومن تحتها اسمها واسم « جود ») والتي يصبح حب كل منهما للآخر أبديا ، بدا وجهها مهموما بشكل مؤلم .

« اسم ولقب الطرفين » - إنهما طرفان الآن وليسا بعاشقين ، هكذا فكرت ، « الحالة الاجتماعية » - فكرة مفزعة - « المنصب أو الوظيفة » - « السن » -

عنوان السكن » ـ « مدة الإقامة » .. « الكنيسة أو اسم المكان الذى سوف يتم فيه الزواج » ـ « الحى والمقاطعة التى يسكن فيها كل من الطرفين » .

وفى طريق العودة قالت : « هذه تفسد العاطفة ، أليس كذلك ! تبدو أنها تجعل من المسألة أمراً من أمور الحياة اليومية وهذا أسوأ من إمضاء العقد فى الكنيسة . هناك شىء من الشاعرية فى الكنيسة ولكن سنحاول إنهاء هذا أيها العزيز الآن » .

ـ « سوف نفعل . » ما قيمة أن يخطب الرجل زوجة ولا يأخذها ؟ ليذهب ويعود إلى بيته لئلا يموت فى المعركة ويأخذها رجل آخر . هكذا قال المشرع اليهودى » .

ـ « كم أنت عالم بالأسفار المقدسة يا « جود » . كان ينبغى حقاً أن تكون قسيسا ، أما أنا فأستطيع فقط الاستشهاد بأقوال الكتاب العاديين ! » .

وخلال الفترة التى سبقت استخراج الشهادة كانت « سو » أثناء قيامها بمهام البيت تسير فى بعض الأحايين أمام المكتب وتلقى نظرة عابرة . ورأت على الحائط الإعلان الدال على القيد القوى الذى سوف يربطهما . لم تستطع أن تتحمل منظره فبعد تجربتها السابقة فى الزواج بدت كل شاعرية وصالها وقد استنزفت حيويتها بعد أن وضعت قضيتها الراهنة فى نفس الفصيلة . كان من عادتها أن تسحب الصغير أبا الزمان من يده وتخيلت أن الناس يظنون أنه ولدها ، ونظروا إلى إجراءات الزواج المرتقبة على أنها تصحيح لخطأ قديم .

فى غضون ذلك ، صمم « جود » على أن يصل حاضره بماضيه بدرجة بسيطة وذلك بأن يدعو إلى حفل قرانه الشخص الوحيد الذى بقى له على وجه الأرض والذى كانت له علاقة بحياته السابقة فى « ديربيترين » .. الأرملة « ايداين » صديقة قريبته العجوز وممرضتها فى مرضها الأخير . لم يتوقع أنها ستأتى ، ولكنها جاءت وجلبت هدايا غير عادية على شكل تفاح ومربى ومقراض الذبالة وطبق تصديرى قديم ومدفأة وكيس ضخم به ريش أوزة لعمل حشية لمخدة نوم . وأعطيت الحجرة

الزائدة فى منزل « جود » حيث آوت مبكرة ، وحيث استطاعا أن يسمعاها من خلال السقف السفلى وهى تردد فى أمانة الصلاة الربانية فى صوت مرتفع وفقا لتوجيهات « قواعد فروض الصلوات » .

ولما لم تستطع النوم ، ولاكتشافها أن « سو » و « جود » مازالا مستيقظين فلم تكن الساعة تتعدى العاشرة بعد ، أرتدت ملابسها ثانية ونزلت وجلسوا جميعا بجانب النار حتى ساعة متأخرة . وكان أبو الزمان معهم ، وإن لم يحسوا بوجوده لأنه لم يتكلم قط .

قالت الأرملة : « حسن . لست ضد الزواج كما كانت قريبتكم العجوز وأرجو أن يكون زواجا سعيدا لكما من جميع نواحيه هذه المرة . ما من أحد يستطيع أن يتمنى ذلك أكثر منى بالنظر إلى ما أعرفه عن أسرتيكما وأعتقد أنه أكثر مما يعرفه الآن أى إنسان آخر على قيد الحياة . لقد كانوا سيئى الحظ فيما يتعلق بذلك والله يعلم . »

وتنفست « سو » فى صعوبة .

واستمرت ضيفة الزفاف تقول : « كانوا دائما قوما طيبى القلب كذلك ـ ما كانوا ليقتلوا ذبابة لو علموا . ولكن أشياء وقعت تسىء إليهم ولقد عانوا كثيرا ما من شك هذا ما فعله من تدور حوله القصة التى يتداولها الناس ـ لو كان حقا أحد أفراد أسرتيكما . »

قال « جود » : « ماذا كان ذلك ؟ »

ـــ « حسن . تلك القصة ، كما تعلمان ، عن ذلك الذى شنق على حاجب التل بالقرب من البيت الأسمر ـ على بعد قليل من الميلية بين «ميريجرين» و «الفردستون» حيث يتفرع الطريق الآخر . ولكن ، يا إلهى . كان ذلك فى عهد جدى ، وقد لا يكون ذلك الشخص أبدا واحدا من قومكما . »

وغمم « جود » : « أعرف جيدا أين أقيمت المشنقة . ولكننى لم أسمع بهذا أبدا . ماذا ـ هل هذا الرجل ـ سلفى وسلف « سو » قتل زوجته ؟ » .

— « لم يكن ذلك بالضبط . هربت منه إلى أصدقائهما ومعها طفلهما ، وبينما كانت هناك ، مات الطفل . أراد الجثة ليدفنها حيث دفن قومه ، ولكنها ما كانت لتتنازل عنها . وجاء زوجها فى الليل ومعه عربة واقتحم المنزل ليسرق النعش ، ولكنه ضبط . ولما كان عنيدا ، رفض أن يقول لم اقتحم المنزل فحاولوا ذلك على محمل السرقة . هذا هو السبب فى أنه شنق وصلب على تل البيت الأسمر . لقد جنت زوجته بعد موته . ولكن قد لا يكون حقيقيا أنه ينتسب إليكما أكثر منى . »

ومن ظل المصطلى جاء صوت صغير بطىء كأنه خارج من الأرض . « لو كنت أنت يا أمى ، لما تزوجت أبى ! » هذا ما قاله أبو الزمان الصغير فجفلوا لأنهم كانوا نسوه .

وقالت « سو » مهدئة : « أوه ، إنها مجرد قصة » .

وبعد هذا العرض المثير من الأرملة ليلة الاحتفال . وقفا وعادا بعد أن تمنيا لضيفتهما ليلة طيبة .

وفى الصباح التالى وكان توتر أعصابها قد زاد بمرور الساعات . أخذت « سو » « جود » جانبا فى غرفة الجلوس قبل بدء الاحتفال وقالت ملتصقة بصدره وقد تندت رموشها : « « جود » أحب أن تقبلنى فى تجرد . ان تعود هذه اللحظة ثانية . أليس كذلك ؟ وددت لو أننا لم نبدأ العملية . ولكن أظن أننا لا بد أن نستمر . كم كانت تلك القصة التى سمعناها أمس مفزعة ! لقد أفسدت اليوم أفكارى . إنها تجعلنى أشعر كما لو كان مصير مفجع لازم عائلتينا ، كما حدث لبيت « أتريوس » . »

قال اللاهوتى السابق : « أو بيت جيرو بوم » .

— « نعم – إنها تبدو مغامرة طائشة نقوم بها نحن الاثنين بزواجنا ! سأقسم لك بنفس الكلمات التى رددتها أمام زوجى الآخر ، وستقسم لى بنفس الكلمات التى أقسمت بها لزوجتك الأخرى ، دون اعتبار للدرس الرادع الذى علمتنا إياه تلك التجارب ! »

قال : « إذا كنت قلقة فإن ذلك يشقينى . املت فى أنك ستحسين بالفرح أما إذا لم يحدث ليكن ما يكون . لا فائدة من التظاهر . إنها مهمة قبيحة بالنسبة لك وهذا يجعلها كذلك بالنسبة لى ! » .

وغمغمت : « كل شىء يبدو بغيضا كما كان فى ذلك الصباح .. هـذا كل ما فى الأمر . لنذهب الآن » .

وتحركا نحو المكتب المذكور والذراع فى الذراع ولا يصحبهما من الشهود سوى الأرملة « أداين » . وكان اليوم باردا معتما وهب على البلدة ضباب رطب جاءها من نهر « التايمز » وعلى درجات السلم المؤدى إلى المكتب الآثار الموحلة لأقدام الداخلين ، وعند المدخل عدد من المظلات المبللة . وبداخل المكتب تجمع عدة أشخاص ولاحظ بوللانا أن زوارها بين جندى وشابة ما زال دائرا . وفى المؤخرة وقفت « سو » و « جود » والأرملة بينما كان هذا دائرا وأخذت « سو » تقرأ إعلانات الزواج على الحائط . كانت الغرفة مكانا كئيبا لاثنين لها مزاجهما وإن كان المترددين عليها شيئا عاديا تماما . وكتب القانون ذات الأغلفة الجلدية القديمة تغطى إحدى الحوائط وفى أماكن أخرى نسخ من دليل مكتب البريد ومراجع أخرى . كذلك رزمة من الصحف مربوطة بشريط أحمر موضوعة حول المكان وفى فراغ من الحائط ثبتت بعض الخزائن الحديدية فى حين أن الأرضية الخشبية العارية للغرفة ، كعتبة المدخل ، ملطخة بآثار الزائرين السابقين .

كان الجندى متبرما ناقرا ، والعروس خجلة حزينة ، ومن الواضح أنها ستصبح سريعا أما وفوق إحدى عينيها كدمة زرقاء . وعمليتهما الصغيرة سرعان ما انتهت وخرج الزوجان وأصدقاؤهما يتعثران وقال أحد الشهود لجود و « سو » عندما مر بهما بطريق الصدفة كأنه يعرفهما من قبل : « انظر إلى هذين القادمين ! ها ، ها ! لقد خرج هذا الرجل من السجن هذا الصباح ، أما المرأة فقد قابلته عند باب السجن وجاءت به إلى هنا رأسا . ودفعت كل التكاليف » .

وأدارت « سو » رأسها فرأت رجلا رث الهيئة حليق شعر الرأس وبذراعه امرأة لها وجه عريض مغطى بالبثور ولونه أحمر من أثر الشراب والرضاء لأنها كادت تحقق رغبة عزيزة ، وبطريقة ماجنة حييا الزوجان الخارجان وسارا في طريقهما أمام « جود » و « وسو » التي أخذ إحجامها يتزايد . لقد تراجعت والتفتت إلى حبيبها واتخذ فمها شكل فم طفل يوشك على الاستسلام للحزن .

— « جود » — لا أحب البقاء هنا ! ليتنا لم نأت . يصيبني المكان بالرعب. إنه يبدو غير طبيعي للغاية كنذروة حبنا ! ليته يتم في الكنيسة لو كان لا بد له أن يتم . ليس الحال هناك على هذا الابتذال ! »

وقال « جود » : يا فتاتي العزيزة ، كم تبدين مضطربة شاحبة ! » .

— « لا بد أن يتم هنا الآن على ما أعتقد ؟ » .

— « لا — قد لا يكون ضروريا » .

وتكلم مع الكاتب وعاد يقول : « لا ! يمكن ألا نتزوج هنا أو في أي مكان ، يمكن أن نتزوج في كنيسة ، وإذا لم يكن بنفس الشهادة فبأخرى سيعطينا إياها على ما أظن . على أي حال ، دعينا نخرج من هنا يا عزيزتي حتى تهدئي وحتى أهدأ أنا أيضا ، ثم نتحدث » .

وخرجا خلسة كمن ارتكبا ذنبا وأغلقا الباب دون جلبة وأخبرا الأرملة التي كانت قد بقيت عند المدخل أن تعود إلى المنزل وتنتظرهما هناك . وقالا إنهما سيدعوان أية أشخاص من المارة ليكونوا شهود الزواج إذا لزم الأمر . وعندما بلغا الشارع عرجا على طريق جانبي مهجور وظلا يسيران فيه جيئة وذهابا تماما كما فعلا منذ مدة عندما توجها إلى بناء السوق في « ميلشستر » .

— « والآن يا عزيزتي . ماذا عسانا فاعلين ؟ إننا نتورط في الموضوع وهذا ما يدهشني . ومع ذلك أي شيء يسرك يسرني » .

— « ولكن أيها العزيز « جود » . إنني أقلقك ! وددت أن يتم الزواج هناك . أليس كذلك ؟ » .

— « حسن . فى الحقيقة عندما دخلت شعرت أننى لا أهتم كثيرا بإتمام الزواج . لقد أحزننى المكان كما أحزنك ـ فهو قبيح . حينئذ فكرت فيما قلته هذا الصباح عن ضرورة زواجنا » .

وسار الاثنان على غير هدى حتى توقفت وبدأ صوتها الصغير من جديد : « ومن الضعف أيضا أن نتذبذب هكذا . ومع ذلك فهذا أفضل بكثير من أن نتصرف فى تهور مرة أخرى . . . . كم كان ذلك المنظر فظيعا بالنسبة لى ! ذلك التعبير فى الوجه المترهل لتلك المرأة وقد دفعها إلى أن تهب نفسها لطريد السجون هذا ، ليس لساعات قليلة كما ينبغى بل طيلة حياتها ، كما لا بد أن تفعل . أما عن المخلوق المسكين الآخر فلكى تنجو من عار اسمى تنج عن ضعف شخصيتها ، فإنها هبطت بنفسها إلى العار الحقيقى الكامن فى الخضوع لطاغية احتقرها ـ رجل تحاشته مدى حياتها وكان ذلك فرصتها الوحيدة للخلاص ... هذه هى كنيسة أبروشيتنا . أليس كذلك ؟ هنا المكان الذى كان لا بد أى يتم فيه الزواج ، لو قمنا به بالطريقة العادية ؟ يبدو أن قداسا أو شيئا يدور فيها الآن » .

وذهب « جود » وأطل برأسه إلى الباب وقال : « يا للعجب . إنه زفاف هنا أيضا . يبدو أن الجميع يصنعون نفس الشىء اليوم » .

وقالت « سو » إنها تعتقد أن الزيجات تتم بكثرة بمناسبة انتهاء الصوم الكبير إذ فى أثنائه تتم عقود الزواج وأضافت : « دعنا نصغى ثم نرى كيف يكون شعورنا عندما يجرى زواجنا فى الكنيسة » .

وتسلل الاثنان وجلسا فى مقعد خلفى وراقبا ما يجرى عند المذبح . أما العروسان فبدا أنهما ينتميان للطبقة الوسطى الموسرة وكان الزفاف فى مجموعه على درجة عادية من الجمال والأهمية . واستطاعا أن يريا الزهور وهى تهتز فى يد العروس حتى من ذلك البعد ، واستطاعا أن يسمعا ترديدها الآلى للكلمات التى بدا عقلها كأنه لا يفهم لها معنى بسبب توترها النفسى . وظل « جود » و « سو » يصغيان وأخذ كل منهما يرى نفسه على انفراد عندما تعرض لنفس الموقف المنطوى على التضحية بحقوق الذات .

وهمست « سو » تقول : « لا يعنى الزفاف بالنسبة لتلك المسكينة ما يعنيه بالنسبة لى بعد أن اكتسبت فيه خبرة أكبر . وكما ترى أنهما جديدان على التجربة وهما يتقبلان المراسيم كأنها أمر طبيعى . أما وقد أدركنا نحن عن طريق التجربة ما فى هذه المراسيم من رهبة مؤثرة أو كما أدركت أنا على الأقل عن طريق تجربتى الخاصة وما انبثق عنها من شعور عليل . أجد أنه مما لا يتفق والقانون الأخلاقى أن أذهب بنفسى وأفعل نفس الشىء ثانية بعينين مفتوحتين . إن مجيئى إلى هنا ورؤيتى هذا أخافانى من زفاف يتم فى الكنيسة بقدر ما أخافنى زفاف يتم فى مكتب التوثيق . كلانا ضعيف متردد يا « جود » وإن ما يثق فيه الآخرون أحس أنا نحوه بشكوك وما عدت أومن ثانية بجدوى تلك البنود التعسة التى تتضمنها العقود » .

عندئذ حاول الاثنان أن يضحكا وظلا يتناقشان همسا فى موضوعهما . وقال « جود » إنه هو أيضا يعتقد أن كليهما حساس وما كان الواجب أن يولدا إطلاقا ، وما كانا ليرتبطا بأكثر المغامرات مناقضة للعقل بالنسبة لهما ، ألا وهى الزواج .

وارتعشت خطيبته وسألته فى اهتمام إذا ما كان يحس حقا بأنهما يجب ألا يذهبا بغير اكتراث ليوقعا ذلك التعهد ثانية ؟ وقالت : « إنه لشىء مفزع لو تظن أننا وجدنا أنفسنا غير أقوياء بهذا ، ومع إدراكنا لهذه الحقيقة يصبح إقدامنا على الزواج عملا ينطوى على الغش » . وقال « جود » : « هذه هى الحقيقة فاعرفيها لو أردت ولكن تذكرى دائما أننى لن أقدم على الزواج إلا إذا رغبت أنت فى ذلك » .

وبينما استولت الحيرة على « سو » فيما ينبغى أن تقول ، أخذ « جود » يعترف بأنه على الرغم من اعتقاده بضرورة الإقدام على الزواج أحجم عنه لخوفه من الفشل فيه ، تماما كما كان شعورها هى أيضا وقد يكون شذوذ طبيعتهما هو الذى أوحى إليهما بهذا الخوف لأنهما يبدوان مختلفين عن غيرهما من سائر الناس لذا قال : « إننا مرهفا الحس بشكل مريع ، تلك هى فى الواقع مشكلتنا يا « سو » .

— « أظن هناك من هم على شاكلتنا أكثر مما نظن » .

— « حسن . وإنى لأعرف أن فكرة العقد طيبة وسليمة بالنسبة للكثيرين دون شك ، ولكن في حالتنا قد يقصر العقد عن تحقيق غرضه لما في تكويننا الطبيعى من غرابة . فنحن ممن تزهق لديهم الروابط العائلية المفروضة بالقوة كل أثر للود والإخلاص » .

وأصرت « سو » على أنه ليس فى طبيعتهما ما يمكن أن يعتبر شاذا وأن جميع الناس هكذا .

— « أصبح كل إنسان يشعر بنفس شعورنا . إننا سابقان قليلا . هذا كل مافى الأمر . بعد خمسين أو مائة عام ستتصرف سلالة هذين الزوجين وتحس أسوأ منا . سيرى هؤلاء الأحفاد أجيال الإنسانية المتصارعة أوضح مما نراها نحن الآن باعتبارها نماذج تشبهنا وقد تكاثرت فى قبح وسيتملكهم الخوف فلا ينتجونها » .

— « يبدو هذا كأنه سطر من الشعر المرعب .... على الرغم من أنى أحسست هذا بنفسى فى إخوتى فى الإنسانية فى فترات الضيق » .

وهكذا تسارا إلى أن قالت « سو » فى جلاء أكثر :

— « طيب — والمشكلة العامة ليست من شأننا فلم نعذب نفسينا بها ؟ ومهما اختلفت الأسباب فإننا نصل إلى نفس النتيجة وهى أنه من المخاطرة لكلينا بالذات أن نقسم قسما يظل مفعوله ساريا مدى الحياة ، وعلى هذا يا « جود » دعنا نعود إلى المنزل دون أن نقضى على حلمنا ! نعم . كم أنت كريم يا صديق . إنك تذعن لكل نزواتى ! » .

— « إنها لتتفق كثيرا مع نزواتى » .

وخلف عامود قبلها قبلة صغيرة بينما جذب موكب العرس وهو يدخل منتدى الأبروشية انتباه كل واحد من الموجودين . وعندئذ ذهبا خارج البناء وبجوار

الباب انتظرا حتى عادت عربتان أو ثلاث ، وكانت قد ذهبت للحظة ، وبعدها خرج إلى ضوء النهار الزوج والزوجة الجديدان وهنا تنهدت « سو » وقالت :

— « إن الزهور فى يد العروس توحى بالحزن كالأكاليل التى أحاطت بعجول الضحية فى قديم الزمان ! » .

— « ومع ذلك يا « سو » إن موقف المرأة ليس أسوأ من موقف الرجل . هذا ما تعجز عن إدراكه بعض النساء . وبدلا من أن يعترضن على الأحوال ، يعترضن على الرجل ، الضحية الأخرى ، تماما كما تحمل سيدة فى الزحام على رجل لأنه احتك بهـــا بينما هو فى الواقع مجرد أداة عاجزة لأنه تعرض للضغط الذى سلط عليه » .

— « نعم — بعضهن هكذا بدلا من الاتحاد مع الرجل ضد العدو المشترك وهو الإجبار » . وهنا كان العروسان قد استقلا العربة فتحرك « جود » و « سو » مع بقية المتسكعين — واستمرت « سو » تقول : « لا ، لا تدعنا نفعل ذلك — على الأقل الآن » .

وبلغا البيت . وبينما كانا يمران أمام النافذة وقد تأبط الواحد ذراع الآخر ، أبصرا الأرملة وهى تنظر إليهما . وعندما دخلا البيت صرخت ضيفتهما : « حسن . عندما رأيتكما تقتربان من الباب وفى وجهيكما حب ظاهر قلت لنفسى ها هما قد صمما أخيرا على التنفيذ » . وباختصار أشارا إلى أنهما لم يفعلا شيئا .

— « ماذا . وهل لم تتزوجا حقا ؟ يا للدهشة . عشت أخيرا لأرى اثنين مثلكما يفسدان مثلا قديما يقول : « تزوج فى عجلة واندم بعدها على مهل . » آن لى أن أعود ثانية إلى « ميريجرين » . واحسرتاه لو كانت هذه هى نتيجة الأفكار الجديدة ! فى أيامنا لم يتوقع أحد أن يخاف من الزواج ولا من أى شىء آخر إلا من فوهة مدفع أو من خزانة خالية ! عندما تزوجت المرحوم زوجى لم نفكر فى الأمر أكثر مما لو كنا نلعب لعبة شائقة » .

وهمست « سو » تقول فى لهجة عصبية :

« لا تخبرى الصبى عندما يدخل . سيظن أن كل شىء سار على ما يرام ومن الأوفق ألا نفاجئه بالخبر حتى لا يدهش ويتحير . طبعا تأجل الزواج فقط لغرض التدبر . إذا كنا سعيدين كما نحن الآن فماذا يهم الآخرين ؟ » .

(٥)

إن مسجل الأفعال والتغيرات المزاجية لا يجد نفسه مضطرا إلى الإفصاح عن آرائه الشخصية بصدد النقاش الخطير السابق . أما أن الاثنين كانا سعيدين ـ بين فترات الأحزان ـ فقد كان هذا مما لا يقبل الشك . وعندما برهن الظهور غير المتوقع لطفل « جود » فى المنزل على أنه ليس بالحادث المقلق كما بدا أولا ، بل إنه كان شيئاً جلب إلى حياتهما معنى جديداً رقيقاً يتميز بطبيعة سامية مشرقة ، فإن ذلك دعم سعادتهما أكثر مما أساء إليها .

وبكل تأكيد ، مع مخلوقين لطيفين متحمسين مثلهما ، جلب مجىء الطفل معه أيضا تفكيرا كثيرا للمستقبل وخاصة لأن الطفل كان يبدو حينئذ محروما من كل فرص الطفولة المألوفة . لكن الاثنين حاولا أن يصرفا من ذهنيهما ـ ولو مؤقتا على الأقل ـ أية آراء متطرفة فى الموضوع .

توجد فى «وسكس» العليا مدينة قديمة بها تسعة أو عشرة آلاف نفس ، وهذه تدعى « ستوك بيرهيلز » . إنها تنهض بكنيستها الهزيلة الجامدة القديمة وضاحيتها الجديدة ذات الآجر الأحمر وسط مثلث خيالى تقع عند رءوســـه الثلاثة مدن « الدبركهام » و « ونتنستر » و « كورترشوت » المحطة العسكرية الهامة . وخلال المدينة يمر الطريق الغربى العظيم الآتى من لندن بالقرب من نقطة يتفرع عندها إلى شعبتين ، ثم يتصل ثانية فى مكان يبعد عشرين ميلا ناحية الغرب . من هذا التفرع والاتصال اعتادت أن تنشأ ، قبل ربط هذا المكان بالسكة الحديد ، مشكلة الاختيار بين هذين الطريقين . لكن المشكلة الآن اختفت كما اختفى مالك العقار الذى يدفع الضريبة النسبية ، وسائق عربة البضائع ، وسائق عربة البريد ، أولئك

الذين عانوا منها ومن الجائز أنه لم يعد الآن أى فرد من سكان «ستوك بير هيلز» يعرف أن الطريقين اللذين ينفصلان عند هذه المدينة يلتقيان مرة أخرى ، إذ لم يعد أحد الآن يطرق الطريق الغربى الكبير يوميا .

والشىء المألوف الآن كثيرا فى « ستوك بير هيلز » هو مدافنها وتقوم وسط بعض المناظر الأثرية الجميلة القائمة بجوار السكة الحديد ، فى حين أن الكنائس والمقابر الحديثة البناء ، والشجيرات الجديدة تبدو كلها نابية المظهر وسط الخرائب المتداعية والأبنية القديمة المغطاة بالنباتات المتسلقة .

وفى يوم معين ، مع ذلك ، فى نفس العام الذى وصلنا إليه فى هذه القصة ـ والشهر فى مطلع يونيو ـ وملامح البلدة تثير اهتماما قليلا على الرغم من أن زوارا كثيرين يصلون بالقطارات ، أخذت بعض القطارات المتجهة جنوبا تفرغ ركابها بشكل خاص هنا . إنه أسبوع معرض « وسكس » الزراعى الكبير الذى تمتد مساحته كثيرا وتغطى المداخل الواسعة للمدينة مثل خيام جيش محاصر . صفوف من الخيام والأكواخ والأكشاك والسرادقات والأروقة المسقوفة والمداخل ذوات الأعمدة ـ كل أنواع الإنشاءات المؤقتة ـ تغطى الحقل الأخضر لمسافة نصف ميل مربع . أما جماعات الزوار فتسير خلال المدينة فى كتلة واحدة وتتجه رأساً لأرض المعرض . والطريق إلى هناك تحف به نوافذ عرض وأكشاك وبائعون جوالون ، وهؤلاء يحولون الطريق إلى المعرض إلى ساحة للبيع والشراء ويقودون بعض غير المتبصرين إلى التخفيف من محتويات جيوبهم بشكل واضح قبل وصولهم إلى أبواب المعرض الذى جاءوا أصلا للتفرج عليه .

إنه اليوم الشعبى ، يوم الشلن ، ومن قطارات الرحلات السريعة يدخل قطاران آتيان من اتجاهين مختلفين ويقفان فى المحطتين المتلاصقتين فى نفس اللحظة تقريبا . أحدهما ، كعديد القطارات التى سبقته ، يجىء من لندن ، والآخر يجىء من « الدبركهام » . ومن قطار لندن يهبط اثنان أحدهما رجل قصير منتفخ الأوداج

له كرش مستدير وقدمان صغيرتان ، وهو بذلك يشبه النحلة الدوارة وتصحبه امرأة لها قوام معتدل ووجه متورد ترتدى ثيابا صنعت من نسيج أسود مغطى كله بحبات من الخرز جعلتها تلتمع كأنما التحفت بدرع :

وأخذا يتلفتان حولها . أما الرجل فكان على وشك أن يكرى عربة كما فعل الآخرون عندما قالت المرأة : « لا تكن متعجلا يا « كارتليت » فالمسافة إلى ساحة المعرض ليست كبيرة . دعنا نذهب إلى هناك سيرا على الأقدام فقد تتاح لى فرصة شراء قطع من الأثاث أو الصينى . لقد مضت أعوام منذ جئت إلى هنا - ولم آت قط منذ عشت كفتاة فى « ألدبركهام » واعتدت أن آتى فى صحبة صديق الشاب فى رحلة سريعة » .

وفى صوت أجش قال زوجها صاحب خان القرون الثلاثة فى « لاميث » : « إنك لا تستطيعين أن تحملى معك فى قطار الرحلات أثاثا منزليا » .

وكان الاثنان قدما توا من الحانة التى تقع - كما ذكرت « أرابيلا » فى خطابها لجود « فى ذلك الحى الغنى الآهل بالسكان الذى يهـــوى أهله شرب الخمور الراقية » . وأقام الاثنان فى ذلك الحى منذ أن اجتذبتهما إليه تلك الكلمات التى قرآها فى أحد الإعلانات . أما هيئة صاحب الحان فدلت بوضوح على أنه هو أيضا ، كنز بائنه العديدين ، منتشيا بالخمر التى يبيعها لهم كأسا بعد كأس .

قالت الزوجة : « سأطلب إذن من البائع أن يرسلها لو كان من بينها ما يستحق الاقتناء » .

وأخذ الاثنان يتجولان وما كادا يدخلان البلدة حتى جذب انتباه الزوجة رجل وامرأة وبصحبتهما طفل ، وقدم الثلاثة من الرصيف المقابل حيث وقف القطار القادم من « ألدبركهام » .

قالت « أرابيلا » : « يا للعجب ! » .

وقال « كارتليب » : « وما ذلك ؟ »

— « من تظن هذين الشخصين ؟ ألا تعرف الرجل ؟ » .

— « لا . »

— « ولا حتى من الصور التى أريتك إياها ؟ » .

— « هل هو فاولى ؟ » .

— « إنه هو بعينه »

— « حسن . ربما رغب فى التجوال داخل المعرض مثلنا . » وكان اهتمام « كارتليت » بجود فاترا بشكل واضح رغم ما أظهره نحوه من اهتمام قبل أن يصبح سحر أرابيلا ونزواتها وضفائرها المستعارة وهرماتها التى تظهر على وجهها ثم تختفى وفقا لرغباتها ، مجرد قصة تروى .

ونظمت « أرابيلا » خطواتها وخطوات زوجها بحيث أصبح الاثنان يسيران مباشرة خلف « جود » و « سو » والطفل ، وساعدها على تحقيق ذلك دون أن ينكشف أمرها تيار المشاة المتدفق . لقد كانت إجاباتها على ملاحظات « كارتليت » غامضة وقصيرة إذ كان الفريق الثلاثى الذى يتقدمها يستحوذ على انتباهها أكثر من أى شيء آخر . قال « كارتليت » : « يبدو لى أن كلا من الاثنين مغرم بالآخر وهما مغرمان بطفلهما أيضا » .

— « طفلهما ! ليس هذا بطفلهما » .

قالت أرابيلا ذلك فى نوبة من الانفعال الغريب المفاجىء واستمرت تقول : « لم يمض على زواجهما من الوقت ما يكفى لأن يكون ابنهما » .

ولكن على الرغم من أن غريزة الأمومة المتأججة فى صدرها كانت من القوة بحيث دفعتها إلى القضاء بعنف على ملاحظة زوجها عن الطفل ، إلا أنها قررت بعد تفكير قصير ألا تكون صريحة فى هذا الموضوع أكثر مما يجب إذ لم تكن معلومات السيد « كارتليت » عن ذلك الطفل ، طفل زوجته ، تزيد على أنه يعيش وراء البحار مع جده وجدته .

« لا أعتقد ذلك . إنها تبدو صغيرة السن للغاية » .

ــ « إنهما مجرد حبيبين ، أو أنهما تزوجا حديثا ومكلفان برعاية الطفل كما هو واضح لكل إنسان » .

وسار الجميع قدما . أما « سو » الذاهلة و « وجود » ، وهما المعنيان هنا ، فقد صمما على أن يجعلا من هذا المعرض الزراعى الذى يقع على بعد عشرين ميلا من مدينتهما رحلة يوم تجمع ما بين الرياضة والمتعة بالإضافة إلى الثقافة وذلك نظير تكاليف ضئيلة ، ولما لم يحصرا تفكيرهما فى نفسيهما فقط فقد جلبا معهما أبا الزمان الصغير كى يحاولا إثارة فضوله وحمله على الكلام والحركة كما يفعل غيره من الغلمان وذلك على الرغم من أنه كان ـ إلى حد ما ـ يحد من حريتهما فى الكلام وفى تبادل الملاحظات الحرة الشائقة أثناء رحلاتهما التى استمتعا بها إلى درجة كبيرة . غير أنهما سرعان ما نسيا وجوده وظلا يتبادلان الحركات والإيماءات العاطفية الرقيقة التى ما كان لأكثر الناس شعورا بالخجل أن يوفقوا إلى إخفائها ، والتى يمكن لهذين الشخصين ـ وهما فى وسط غريب عليهما ـ أن يخفياها بمجهود أقل مما لا بد أن يبذلاه لو كانا فى بلدتهما . وكانت « سو » وهى فى ملابسها الصيفية تبدو خفيفة الحركة رشيقة كطائر بينما أصابعها الدقيقة الممسكة بالمظلة البيضاء تبدو وكأنما لا تلمسها ، بل أن تقبض عليها ، وكأنما أية هبة من هبات الريح كانت قادرة على أن تطيح بالمظلة وتلقى بها فى الحقل المجاور . أما « جود » فكان يرتدى حلته الرمادية الفاتحة المخصصة للأجازات والأعياد وكان بجوار « سو » يبدو فخورا جدا . ولم يكن ذلك لمظهرها الجذاب فحسب ، بل لأسلوبها الرقيق فى الحديث وطريقتها الودودة فى التصرف ، وذلك التفاهم الكامل الذى يبدو واضحا فى كل حركة وسكنة من حركاتهما وسكناتهما ويقوم بينهما مقام الكلام وجعلهما يبدوان وكأنهما شطران من كل لا يتجزأ .

ووصل الاثنان ومعهما الطفل إلى حيث يدفعون رسوم الزيارة ودلف الجميع من الحاجز وخلفهما « أرابيلا » وزوجها . وعندما أصبح الجميع داخل

المعرض ظهر واضحا لعيني « أرابيلا » أن « جود » و « سو » يجدان مشقة فى إثارة الطفل وتحريك اهتمامه بما حوله فكلما أشارا إلى ما حولهما شارحين له كل شيء ، كانت سحابة من الحزن تستقر على وجهيهما لعجزهما عن القضاء على شعوره بعدم الاكتراث .

قالت « أرابيلا » : « انظر كيف تلتصق به ! أعتقد أنهما لم يتزوجا بعد وإلا لما التصقا هكذا . عجبى ! » .

— « ولكننى أظن أنك قلت أنه تزوجها فعلا ؟ » .

— « سمعت أنه كان على وشك أن يفعل ذلك . هذا كل ما فى الأمر . سيقوم بمحاولة أخرى بعد أن أجل الزواج مرة أو مرتين . إنهما يتخيلان وهما يسيران سويا أنه ما من أحد غيرهما فى هذا المكان . لو كنت فى مكانه لخجلت من مجرد الشعور بأننى أجعل من نفسى أمام الناس أضحوكة سخيفة » .

— « إنى لا أرى فى سلوكهما ما يلفت النظر وما كنت لألحظ أن كلا منهما يحب الآخر لو لم تخبرينى أنت بذلك » .

وأضافت « أرابيلا » تقول : « إنك لاتلحظ شيئا بالمرة » . والحقيقة أن نظرة « كارتليت » للحبيبين أو الزوجين لم تكن لتختلف عن نظرة بقية الزوار لها ، أولئك الذين لم يكشفوا ببصرهم العادى ما كانت « أرابيلا » تميزه بعينيها الحادتين .

وأضافت « أرابيلا » تقول : « لقد سحرته تلك المرأة . لكأنها جنية من جنيات الأساطير . انظر كيف يسترق النظر إليها ويركز بصره عليها . إنى أميل إلى الاعتقاد بأنها لاتهتم به بقدر اهتمامه بها . إنها فى رأيى لاتبدو من ذوات القلوب الدافئة وإن كانت تحبه بقدر ما تسمح به عواطفها وبيده أن يجعل قلبها يخفق له أكثر وأكثر لو أنه بذل معها شيئا من الجهد وإن كان هو من البساطة بحيث يعجز عن القيام بشيء من هذا القبيل . انظر إنهما الآن متجهان نحو حظيرة خيول العربات . هيا إلى هناك . »

— « لاأود أن أرى خيول العربات . ليس من شأننا أن نقتفي خطوات هذين الاثنين . إن كنا جئنا إلى هنا لمشاهدة المعرض دعينا نشاهده بالطريقة التي نختارها كما أنهما يشاهدانه بطريقتهما الخاصة . »

— « حسن . ما رأيك في أن نتفق على مكان نلتقي عنده بعد ساعة . لنتقابل عند تلك الخيمة التي تبيع المرطبات والتي تقع هناك وبذلك يسير كل منا في طريقه مستقلا عن الآخر ؟ وفي هذه الحال تتفرج أنت على ما يروقك وأفعل أنا نفس الشيء . »

ولم يتردد « كارتليت » في قبول هذا الاقتراح وعلى ذلك افترقا فاتجه هو إلى حيث يشرب شيئاً من البيرة . أما « أرابيلا » فسارت في نفس الاتجاه الذي سار فيه « جود » و « سو » وقبل أن تدركهما ، وجدت نفسها أمام وجه باسم ولم يكن سوى وجه « آني » رفيقة صباها .

وانفجرت « آني » في نوبة من الضحك الصادر من القلب بمجرد إدراكها أن الصدفة وحدها هي المسئولة عن هذه المقابلة . وحالما استعادت « آني » هدوءها قالت :

« لا أزال أسكن بالقرب من هذا المكان وسأتزوج قريبا ولكن خطيبي لم يتمكن من الحضور إلى هنا اليوم إذ جاء عدد كبير منا اليوم بقطار الرحلات وإن كنت فقدت الآن الاتصال بهم . »

— « هل قابلت « جود » ومعه صديقته الصغيرة أو زوجته أو مهما كانت قرابتها له ؟ كنت الآن بالقرب منهما . »

— « لا . لم أر أحدا منهما منذ سنين ! »

— « حسن . إنهما الآن في مكان لا يبعد كثيرا من هنا . نعم ها هما الآن ، إنهما بالقرب من ذلك الحصان الرمادي ! »

— « أوه . وهل هذه هي صديقته الحالية ؟ هل قلت زوجته ؟ وهل تزوج ثانية ؟ »

— « لا أدرى ! »

— « إنها جميلة . أليس كذلك ! »

— « نعم . ليس بها ما يثير الشكوى أو يدعو إلى الغضب وإن كانت عاطلة من الحسن إذ أنها نحيلة ضعيفة ولا تستقر على حال . »

— « وإنه حسن الطلعة هو الآخر . كان ينبغى ألا تفرطى فيه يا «أرا بيلا» . »

غمغمت هذه تقول : « لا أدرى شيئا . »

وضحكت « آنى » وقالت : « هكذا أنت يا « أرا بيلا » ! دائما تودين رجلا غير رجلك . »

— « حسن . وهل من امرأة لا تود ذلك ؟ »

أما عن هذه المخلوقة التى تسير معه الآن فهى لا تعلم شيئا عن حقيقة الحب — على الأقل ما أسميه حبا ! أستطيع أن أرى من وجهها أنها لا تعرف . »

— « ومن الجائز أيتها العزيزة أنك لا تعرفين شيئا عما تسميه هى حبا . »

— « أنا على ثقة من أننى لا أرغب فى ذلك ! آه . إنهما يتجهان صوب مبنى الفنون . إننى أود أن أشاهد بعض الصور . ما رأيك فى أن نذهب إلى هناك ؟ يا الله . يخيل إلى أن جميع سكان « وسكس » تجمعوا فى هذه البقعة . هاك الدكتور « فيلبرت » . إنى لم أره منذ سنين ويبدو أنه لا يتقدم أبدا فى السن . كيف حالك أيها الطبيب « فيلبرت » ؟ كنت أقول إنك لم تكبر عما كنت عندما عرفتك وأنا صغيرة . »

— « هذا بكل بساطة لأننى أتعاطى الدواء فى موعده . إن العلبة منه لا تكلفنى أكثر من شلنين وثلاثة بنسات وكل علبة ممهورة بخاتم الحكومة ضمانا لها من التقليد . والآن دعينى أسدى لك هذه النصيحة ألا وهى أن تفعلى مثلى وتشترى ذلك الدواء الذى سوف يمنحك نفس الوقاية من آثار الزمن ؟ فقط شلنان ونصف . »

ومن جيب صدرته أخرج الطبيب علبة صغيرة ووجدت «أرابيلا» نفسها مدفوعة إلى شرائها .

وبعد أن دفعت الثمن أضاف الطبيب يقول : «فى الوقت ذاته تأكدى أنك الرابحة أيتها السيدة ـ طبعا لست السيدة «فاولى» بل أنت الآنسة «دون» التى كانت يوما من سكان «ميريجرين ؟ »

ـ «نعم . ولكن اسمى الآن السيدة «كارتليت . »

ـ «آه . إذن لقد أضعته ؟ كان شابا لامعا ! وكان تلميذى كما تعلمين . وعلمته اللغات القديمة . وصدقينى لقد عرف فى فترة وجيزة قدر ما أعرف تقريبا . »

قالت «أرابيلا» فى اقتضاب : «فقدته ، ولكن ليس بالطريقة التى تظنها . لقد حررنا المحامون . انظر إنه هناك وما زال مليئا بالحيوية والنشاط وها هو ذا يسير فى صحبة هذه الشابة وأصبحا على أبواب معرض الفن » .

ـ «آه ـ ويحى ! إنه مغرم بها على ما يظهر » .

ـ «يقولان إنهما أقرباء » .

ـ «القرابة فى هذه الحال لا بد أن تصبح ستاراً مناسبا لعواطفهما » .

ـ «نعم هذا ما دار فى خلد زوجها دون شك عندما طلقها .... هل نلقى نظرة على الصور أيضا ؟ » .

وسار هذا الثلاثى عبر الساحة الشعبية ودخلوا مبنى الفنون . أما «جود» و«سو» ومعهما الغلام فكانوا قد وصلوا إلى نموذج موضوع عند طرف المبنى ووقفوا أمامه دون أن يدركوا ما أثاروه من اهتمام بهم ، وظلوا يرمقونه باهتمام عظيم لفترة طويلة قبل أن يغادروه . وبعدهم مباشرة وصلت «أرابيلا» ومعها رفيقاها . وكان النموذج يحمل لافتة كتب عليها : «هـــذا النموذج يمثل كلية الكاردينال فى «كرايستمينيستر» ، قام بنحته «ج . فاولى» و «س . ف . برايدهيد» .

وقالت «أرابيلا» : «لقد كانا يعبران عن إعجابهما بما صنعا . ذلك خلق

« فاولى » تماما فهو دائم التفكير فى الجامعة وفى « كرايستسميتسيتر » بدلا من الاهتمام بمعله ! » .

وظلت « أرابيلا » ورفيقاها يتطلعون بشغف إلى الصور ثم ساروا حتى وصلوا إلى حيث تعزف الفرقة الموسيقية . وبينما الجميع ينصتون إلى الموسيقى التى كان بعض العسكريين يعزفونها ، جاء « جود » و « سو » والطفل ووقفوا فى الناحية المقابلة . لم تهتم « أرابيلا » إذا كانوا قد تعرفوها ، ولكنهم كانوا بحياتهم فى شغل شاغل عنها فلم يلحظوها وهى مختفية وراء حجابها المرصع بالخرز . ومشت خارج دائرة المستمعين ومرت خلف المحبين اللذين سحرتها بشكل غير متوقع حركاتهما فى ذلك اليوم . وعندما تفحصتهما من الخلف بكل دقة لاحظت أن يد « جود » تقبض على يد « سو » والاثنان يقفان متلاصقين كى يخفيا - كما تصورا - هذا التعبير الصامت عن استجابتهما المتبادلة .

— « يا لهما من أحمقين كطفلين » . بتلك الكلمات همست «أرابيلا» ثم راحت تلحق برفيقيها وسارت فى صحبتهما فى صمت بحيث بدا أنها مشغولة بأمر هام . وفى تلك الأثناء كانت « آنى » أبدت للطبيب على سبيل الدعابة ملاحظة تتعلق بتشوق « أرابيلا » لزوجها السابق .

قال الطبيب لأرابيلا وهو يسر فى أذنها : « هل تودين شيئاً كهذا أيتها السيدة «كارتليت» ؟ إنه ليس مركبا وفقاً لدستور الأدوية العادى ، ولكن فى بعض الأحايين يطلب منى شيئاً كهذا » . ثم أخرج من جيبه قنينة بها سائل شفاف وقال : « هذه تحتوى على أكسير الحب وهو كذلك الذى كان القدماء يتعاطونه فيحصلون منه على أفضل النتائج . لقد توصلت إلى سر تركيبه بعد أن قرأت كثيرا من المخطوطات القديمة ودرستها جيداً ولم يخب تأثيره مرة واحدة » .

وقالت « أرابيلا » فى فضول واضح : « ومم يتركب ؟ » .

— « حسن . إنه يصنع من خلاصة مركزة مأخوذة من قلوب اليمام وفى حالة عدم وجود عدد كاف من هذه تستخدم قلوب الحمام ، وتلك الخلاصة ما هى

إلا إحدى المواد الداخلة فى تركيب هذا الدواء . لقد احتجت إلى مائة قلب تقريباً لأحصل منها على ما يملأ هذه الزجاجة الصغيرة ! »

— « وكيف تحصل على ما يكفيك من الحمام ؟ »

— « سأطلعك على السر . إننى أجىء بقطعة من الصخر الملحى الذى يحبه الحمام كثيراً وأضعها فى برج فوق سطح منزلى فسرعان ما يجتمع حولها عدد كبير من الحمام القادم من كل الاتجاهات ، من الشرق والغرب والشمال والجنوب . بهذه الطريقة أحصل على العدد الذى أريد . أما طريقة استعمال هـذا الدواء فهى أن تجعلى الرجل الذى تحاولين الفوز بحبه يشرب عشر قطرات منه بعد أن تضعيها له فى شرابه . لا تنسى أنى لم أكن لأخبرك بكل هذا لو لم أشعر أنك تنوين الشراء حقا ! ما رأيك ؟ هل تجعليننى موضع ثقتك وتشترين ؟ » .

— « حسن الغاية . لا مانع عندى من أن أشترى زجاجة من هذا الدواء لأعطيها لصديقة كى تجربها مع من تحب » . وأخرجت « أرابيلا » قطعة من ذات الشلنات الخمسة وهو الثمن المطلوب ، ثم تناولت القنينة وخبأتها فى صدرها الكبير . وبعد أن قالت إنها على موعد مع زوجها وقد حان وقت اللحاق به ، سارت فى اتجاه المشرب الذى يبيع المرطبات بينما كان « جود » ورفيقته والغلام ذهبوا جميعا إلى القسم الخاص بالزهور وهناك تزودت منهم « أرابيـلا » بنظرة خاطفة وكانوا يقفون أمام مجموعة من الورود المتفتحة .

وظلت « أرابيـلا » ترقبهم لبضع دقائق ثم واصلت السير لتلحق بزوجها وكانت فى تلك اللحظة لا تحمل له أى ود . هنـاك وجدته يجلس على مقعد من مقاعد المشرب ويتحدث إلى إحدى الساقيات وكانت ترتدى ملابس زاهية وتقدم له المشروبات الـكحولية .

وقالت « أرابيلا » فى حنق : « ألا يكفيك ما تقضيه كل يوم من وقت يضيع فى مثل هـذا العمل ! إنك ما قطعت خمسين ميلا تاركا مشربك لتأتى إلى مشرب آخر . تعـــال . سر معى لترينى المعرض كما يفعل الأزواج مع زوجاتهم !

خسئت ! يظن المرء أنك ما زلت صغيراً لم تتزوج بعد وليس لديك سوى نفسك ترعاها ! » .

— « ولكننا اتفقنا على أن نتقابل هنا ولم يكن أمامى سوى أن أنتظرك ! »

وعادت « أرابيلا » تقول وهى تكاد تتشاجر مع أى شىء ، مع الشمس ذاتها لأنها تشرق عليها : « حسن . والآن تقابلنا فهيا بنا » . وغادر الاثنان الخيمة : ذلك الرجل ذو الكرش المستدير وتلك المرأة ذات الوجنتين المتوردتين وكان الرجل والمرأة يبدوان وقد تعكر مزاجهما واضطربا من المشاكسة والتناحر اللذين أحاقا بهما كما يحيقان بأي زوج وزوجة .

وفى تلك الأثناء كان المحبان الغريبان ومعهما الغلام ما زالا يتسكعان فى قسم الزهور وكان بالنسبة لذوقهما الرفيع المدرك للجمال والمقدر له ، يبدو قصراً خيالياً مسحوراً . وكانت وجنتا « سو » الشاحبتان تعكسان اللون القرنفلى الذى أضفته الورود الحمراء عليها من كثرة النظر إليها أما المناظر البهيجة والهواء العليل والموسيقى الشجية وما يبعثه الخروج فى صحبة « جود » وقضاء يوم معه من سعادة تأخذ بمجامع القلوب ، كل هذه جعلت الدم يجرى حاراً فى عروقها وأفاض على عينيها بريق الحياة . لقد هوت الورود . وشهدت « أرابيلا » « سو » وهى تحاول أن تستبقى « جود » فى معرض الزهور أطول وقت ممكن بينما راحت تحفظ أسماء الورود اسماً اسماً كما راحت تقرب وجهها من أزهارها المتفتحة كي تستنشق عبيرها الفواح .

وكانت تقول : « كم أود أن أدفن قلبي فى قلب هذه الزهور العزيزة . لكننى أعتقد أن لمسها مخالف للتعليمات . أليس كذلك يا جود ؟ » .

وقال « جود » : « هذا صحيح ياصغيرتى العزيزة . ثم أخذ يدفعها بيده مداعبا حتى كاد أنفها يلمس كئوس الأزهار » .

— « سيقبض علينا رجل الشرطة وحينئذ سأقول له إن الذنب ذنب زوجي ! » .

ثم نظرت « سو » إلى « جود » وابتسمت بطريقة أدركت بها « أرابيلا » الشيء الكثير عما يعتلج بينهما من حب . وغمغم « جود » يقول : « أسعيدة أنت ؟ » .

وأومأت برأسها .

— « ولمَ ؟ هل لأنك جئت إلى معرض «وسكس» الزراعى الكبير أم لأننا جئنا سوياً ؟ » .

— « إنك تحاول دائماً أن تجعلنى أعترف بكل أنواع السخافات . إننى سعيدة طبعا لأننى أرتفع بمستواى العقلى عند ما أشاهد هذه المحاريث البخارية وتلك الآلات الحديثة التى تقطع وتبذر وتحصد من تلقاء نفسها وكل هذه الأبقار والخنازير والماشية ذات السلالات الممتازة » .

كان « جود » راضيا تماما عن هذه المحاورة بينه وبين رفيقته المراوغة إلا أنه عند ما بدا لها أنه نسى السؤال ولم يعد ينتظر منها جوابا استمرت تقول : « أشعر وكأننا عدنا إلى مرح الإغريق القدماء وأغلقنا عيوننا فما عدنا نرى الأحزان والأمراض ونسينا ما علمته للبشرية خمسة وعشرون قرنا . الواقع أنه ، كما يقول أحد علماء « كرايستمينيستر » اللامعين الأفذاذ : « ليس للإنسان إلا ظل واحد فقط » . ونظرت « سو » إلى الطفل العجوز الذى عجزت هى و« جود » عن إثارته على الرغم من اصطحابهما إياه ليرى كل ما يمكن أن يثير طفلا فى مثل سنه .

لقد عرف ما كان يتحدثان عنه ويفكران فيه . قال : إننى آسف غاية الأسف يا أبى وأنت يا أمى ولكننى أرجو ألا تتهما بى فليس لى فى هذا حيلة . كان لا بد أن أحب هذه الزهور كثيراً جدا لو لم أظل طوال الوقت أفكر فى أنها تذوى بعد أيام قليلة .

(٦)

ومنذ اليوم الذى تأجل فيه زواج « جود » من « سو » أخذ النسيان الذى كانا يعيشان فى غماره يتبدد وأزيحت الأستار التى تخفى حياتهما عن أنظار الناس ، وأصبحت تلك الحياة موضوعا للحديث والنقاش يخوض فيه أناس غير « أرابيلا » . لقد كان سكان شارع الربيع وما يجاوره من أحياء لا يفهمون ولا يحاولون أن يفهموا ما يدور برأس « جود » و « سو » من أفكار وعواطف ومواقف ومخاوف . ولم تكن الحقائق الغريبة التى دل عليها ظهور الطفل فى حياتهما ظهورا مفاجئا ، ومناداته لهما على اعتبار أنهما والداه وفشلهما فى زواج كانا ينويان عقده فى مكتب العقود حتى لا يدرى به أحد ، وما صحب ذلك من إشاعات عن قضايا مقامة فى المحاكم كل هذا لم يكن له سوى معنى واحد بالنسبة لأوساط الناس .

كان أبو الزمان - وظل هذا اسمه الذى عرف به على الرغم من أنه اكتسب رسميا اسم « جود » - يعود من مدرسته فى مساء كل يوم فيردد ما يسمعه من زملائه الصغار من أسئلة وملاحظات مما أدخل الحزن والأسى على قلبى « جود » و « سو » .

والنتيجة أن « جود » و « سو » ، بعد المحاولة التى قاما بها فى مكتب التوثيق بوقت قصير ، سافرا - إلى لندن كما اعتقد الناس - لبضعة أيام واستأجرا شخصا ما للعناية بالصبى . وعندما عادا أعلنا بطريقة غير مباشرة تخلو من التعمد وبذل الجهد أنهما أخيرا تزوجا زواجا شرعيا . أما « سو » وكانت تدعى سابقا بالسيدة « برايدهيد » ، فاطلقت على نفسها الآن اسم السيدة « فاولى » . ولقد أيد ذلك كل التأييد مسحة الاستسلام التى اتسم بها سلوكها لبضعة أيام .

غير أن الخطأ الذى ارتكباه (وفقا لرأى الناس) بذهابهما سرا إلى لندن كى ينجزا مهمتهما ، ساعد على أن تحتفظ حياتهما بالغموض الذى اتسمت به من قبل ، ووجدا أن علاقتهما بجيرانهما لم تتحسن كما كان متوقعا بعد عودتهما من

لندن ، بل أصبح الغموض الذى يعيشان فيه لا يقل إثارة لاهتمام الناس عن فضيحة عفا عليها الزمن .

وكان صبى الخباز وصبى الجزار يرفعان لسو قبعتيهما احتراما كلما جاءا إلى بيتها فى مهمة . أما الآن فلم يعودا يهتمان بإظهار ذلك الاحترام ، كما أن زوجات العمال كلما قابلنها فى الطريق ظللن يتطلعن أمامهن حتى لا تلتقى عيونهن بعينيها .

لم يحاول أحد أن يسىء إليهما وهذا حق إلا أن جواً كئيباً بدأ يزحف على نفسيهما وخاصة عقب رحلتهما التى قاما بها إلى المعرض وكأن هذه الزيارة قد جلبت عليهما شراً مستطيرا . كانت طبيعتهما من النوع الذى يتأثر بمثل هذا الجو السائد حولها ووجدا فى نفسيهما ميلا للعمل على التخفيف منه وذلك بأن يدليا بأقوال صريحة قوية . غير أن محاولتهما لإصلاح الأمور جاءت متأخرة بحيث لم تجد شيئاً .

ولقد كف الناس الآن عن أن يطلبوا منهما إقامة نصب أو وضع مرثيات شعرية وبعد مرور شهر أو شهرين — وكان الخريف قد حل — أدرك « جود » أن عليه أن يعود مرة ثانية إلى مزاولة الأعمال التى تتطلب منه التجوال وهى لون من الأعمال التى لا ينجح فيها كثيراً وخاصة فى ذلك الوقت بالذات لأنها لا تفى بالديون التى تراكمت عليه بسبب تكاليف القضايا التى رفعها فى العام السابق .

وذات مساء ، جلس يشارك « سو » والصبى الطعام كالمعتاد . قال : « أفكر فى ألا أبقى هنا أكثر من ذلك . الحياة هنا تناسبنا ولا شك ولكننا لو ذهبنا إلى حيث لا يعرفنا أحد فسنشعر بالراحة وتتاح لنا فرص أفضل . على هذا لا بد من أن تنتهى إقامتنا هنا ، على ما فى ذلك من إزعاج لك أيتها العزيزة المسكينة ! » . وكانت تتأثر دائماً كلما تخيلت نفسها موضع إشفاق من الآخرين وحزنت .

لم تلبث أن قالت : « حسن . لست آسفة . تحزننى كثيراً الطريقة التى ينظر إلى الناس بها هنا . إنى تكلفت الكثير من جراء كراء هذا البيت وتأثيثه من أجلى

ومن أجل الصبي ! وإنك لا تريده لنفسك وعلى ذلك فالنفقات لا لزوم لها .
ولكن أيها العزيز «جود» مهما نفعل وأينما نذهب فلن أدعك تنتزع الطفل مني .
فإني الآن عاجزة عن تركه ! والسحابة التي تكسو ذهنه الصغير تجعله لدرجة كبيرة
مثارا لعطفي ، وأرجو أن أزيلها يوما . إنه يحبني كثيراً فلن تأخذه مني ،
أليس كذلك ؟ » .

— « بكل تأكيد لن أفعل يا فتاتي الصغيرة العزيزة . سوف نحصل على سكن
جميل أينما ذهبنا . من الجائز أن ننتقل كثيراً وأعمل في مكان ثم أتركه إلى
مكان آخر » .

— « سأقوم أنا الأخرى بعمل شيء ، دون شك وذلك حتى — حتى —
حسن . الآن لا يمكنني أن أكون نافعة في النقش على الشواهد وواجبي أن أحاول
عملا آخر » . قال في حزن : « لا تتعجلي في البحث عن عمل فأنا لا أريدك أن تفعلي
ذلك . ليتك لا تفعلي يا « سو » يكفيك أن تهتمي بالصبي وبنفسك » . وجاء
طرق على الباب وقام « جود » ليرى من الطارق واستطاعت « سو » أن تسمع
الحديث التالي : هل السيد « فاولي » في البيت ؟ إن المقاولين المعماريين
« بايلز وويلز » يودان أن يعرفا ما إذا كان يمكنه أن يعيد كتابة الوصايا العشر
في كنيسة صغيرة يتوليان تجديدها وتقع في الريف المجاور .

فكر « جود » ثم قال إنه يمكنه القيام بهذا العمل . واستمر الرسول يقول :
« ليست هذه بالمهمة الفنية على أية حال فقسيس الكنيسة رجل محافظ وهو يرفض
إدخال أي تجديد على الكنيسة خلاف التنظيف والترميم » .

تمتمت « سو » ، وكانت ممن يعارضون بشدة ما يجلبه التجديد الكامل الشامل
من أضرار : « يا له من عجوز رائع ! » .

واستمر الرسول يقول : « لقد أصلحت الوصايا العشر من طرفها الشرقي أما
بقية الحائط فلم يمس إذ أنه لا يسمح للمقاول بالاقتراب منها والحفر فيها بالطريقة
المتبعة » .

واتفق الاثنان على شروط العمل وبعدها عاد « جود » إلى الداخل وقال فى مرح: « هاك انظرى ـ لدينا عمل جديد ، وإنه لعمل على أى حال وفى استطاعتك أن تعاونى فيه ـ أخيرا فى استطاعتك أن تجربى . ستكون الكنيسة لنا وحدنا حيث أن بقية الأعمال أنجزت » .

وفى اليوم التالى خرج « جود » إلى الكنيسة ولم تكن تبعد أكثر من ميلين . فوجد أن ما قاله رسول المقاول صحيح فألواح القانون اليهودى تعلو فى سمو ووقار وهامة قدس الأقداس تشكل الحلية الأساسية لطرف المذبح وتندمج فيه بالأسلوب الدقيق الذى ساد فن البناء فى القرن الماضى . ولما كان إطار هذه الألواح صنع من مصيص قصد به الزخرف أصبح من غير الميسور إنزالها لترميمها . انهار جزء من هذه الألواح من الرطوبة فاحتاج إلى التجديد.وعندما فرغ « جود » من ذلك وانتهى من تنظيف اللوح كله بدأ يجدد الحروف المتآكلة. وفى الصباح التالى جاءت « سو » لترى ما يمكنها أن تقدمه على سبيل المساعدة ، وأيضا لأنهما أحبا أن يكونا سويا .

لقد أعطاها سكون المبنى وفراغه الثقة فشرعت تلون حروف اللوحة الأولى بعد أن اعتلت منصة ثابتة واطئة كان « جود » قد أقامها . ورغم ثباتها صعدت « سو » إليها فى وجل ـــ أما هو فشرع يرمم جزءاً من اللوحة الثانية . وكانت راضية جداً عن قدرتها ، تلك التى اكتسبتها أيام كانت تكتب الآيات وتلونها لمحل العاديات الكنسية فى « كرايستمينيستر » . لم يكن هناك احتمال فى أن شخصا ما يمكن أن يقتحم وحدتهما ، واختلط حديثهما بزقزقة الطيور وحفيف أغصان أكتوبر من خلال نافذة مفتوحة .

ومع ذلك ، لم يترك الاثنان هكذا آمنين مطمئنين لفترة طويلة . فحوالى الساعة الثانية عشرة والنصف سمعا وقع أقدام على الحصى الخارجى . بعده دخل الكاهن العجوز وأمين الكنيسة ، وعندما تقدما ليريا ما أنجز بانت عليهما الدهشة لاكتشافهما أن ثمة شابة تعاون فى العمل . لقد سارا حتى انتهيا إلى جناح

من أجنحة الكنيسة ، وفى تلك اللحظة فتح الباب ثانية ودخل آخر — وكان ضئيلا هذه المرة وكان أبو الزمان يبكى .

كانت « سو » قد أخبرته أين يستطيع أن يجدها أثناء ساعات اليوم المدرسى. وهنا نزلت من مكانها العالى وقالت : « ماذا جرى يا عزيزى ؟ » .

— « لم أستطع أن أبقى لأتناول غدائى فى المدرسة لأنهم قالوا ... » ووصف كيف أن بعض الأولاد كانوا يعيرونه بالحديث عن أمه المزعومة فحزنت « سو » وراحت إلى « جود » ساخطة . خرج الصبى إلى فناء الكنيسة وعادت « سو » إلى عملها . فى نفس الوقت فتح الباب ثانية ودخلت السيدة ذات المريلة البيضاء والتى تتولى تنظيف الكنيسة وعلى وجهها أمارات الجد . لقد تعرفت فيها «سو» واحدة لها أصدقاء فى شارع الربيع وتزوره . ونظرت منظفة الكنيسة إلى « سو » وفغرت فاها ورفعت يديها ، فمن الواضح أنها تعرفت على رفيقة « جود » كما تعرفت عليها هذه الأخيرة . بعد ذلك جاءت سيدتان وبعد أن تحدثتا إلى الخادمة سارتا هما أيضا وراقبتا يد « سو » وهى تمر بفرشاتها فوق الحروف واستمرتا تراقبانها فى تحد وهما متكئتان على الحائط الأبيض حتى اضطربت وارتعشت بشكل واضح.

وذهبتا إلى المؤخرة حيث وقف الآخرون يتحدثون فى نبرات خفيضة وقالت إحداهن ولم تتبين « سو » أيهما ـ « إنها زوجته على ما أظن ؟ »

وجاء الجواب من الخادمة : « يقول البعض نعم ، والبعض لا ... »

— « تقولين لا ؟ ولكن ينبغى أن تكون ، أو تكون زوجة شخص ما ذلك يبدو واضحاً ! »

— « هذا أو ذاك ، لم يمض على زواجهما إلا أسابيع قليلة للغاية . »

— « زوج من الناس عجيب ذلك الذى يلون اللوحتين ! ما أعجب أن يفكر « بايلز وويلين » فى شىء كـكراء هذين الشخصين ! »

وافترض الوكيل أن « بايلز وويلز » لم يعلما بأن ثمة شيئا يسيء . وبعدها فسرت إحدى السيدتين ما قصدته عندما قالت عنهما إنهما يتسمان بالغرابة .

أما الاتجاه المحتمل للحديث المكتوم الذى جاء بعـــد ذلك فاتضحت معالمه عندما شرع الوكيل يتحدث عن واقعة خاصة وكان حديثه فى نبرة استطاع كل الموجودين فى الكنيسة أن يسمعوها ، وإن كان من الواضح أن القصة أوحى بها الموقف :

« حسن . والآن . إنه لشيء عجيب ، ولكن سبق أن قص على جدى قصة غريبة عن واقعة تنافى الأخلاق حدثت عندما كانت الوصايا العشر ، تطلى بالألوان فى كنيسة خارج هذه البلدة بالقرب من « جايميد » التى يمكن الوصول إليها من هنا سيرا على الأقدام . كانت الوصايا العشر فى تلك الأيام تطلى بحروف موشاة بالذهب فوق أرضية سوداء . وتلك كانت الطريقة قبل أن أعيد إصـــلاح تلك الكنيسة التى أتحدث عنها . لا بد أن ذلك حدث منذ أعوام بلغت المائة إذ أن الوصايا احتاجت إلى الإصلاح ، كما هو الحال فى كنيستنا هذه ، وكان عليهم حينذاك أن يستخدموا بعض الرجال من «ألدبركهام» ليقوموا بهذه المهمة . وأراد المقاولان فى ذلك الحين أن يتما العملية قبل يوم أحد معين فاستمر الرجال يعملون حتى ساعة متأخرة من مساء السبت السابق على الأحد . ولم تكن تلك رغبتهم إذ أنهم ما كانوا يتقاضون أجرا عن ساعات العمل الإضافية كما هو الحال الآن . وفى ذلك الوقت لم يكن الناس يعرفون الدين بمعناه الصحيح ، لا البناءون منهم ولا الكتبة ولا غيرهم من سائر الشعب ، وكان على القسيس ، لكى يحث الرجال على الاستمرار فى العمل ، أن يمنحهم شرابا كثيراً أثناء فترة ما بعد الظهيرة فإذا حل المساء أخذ الرجال يرسلون فى شراء كميات أخرى من الشراب ويفضلون الأنواع ذات التأثير القوى . كان الوقت يمضى بهم والليل يتقدم وهم يفرطون فى الشراب حتى بلغ بهم الأمر أن وضعوا الزجاجات والأقداح فوق مائدة التقدمة داخل الهيكل وجلس الجميع فى حلقة يمرحون وظلوا يملأون أقداحهم ويشربون . وتقول القصة إنهم ما كادوا يتبادلون الأنخاب حتى سقطوا جميعا

فاقدى الوعى . لم يدر أحد منهم كم ظلوا على تلك الحال و لكنهم عندما أفاقوا كانت هناك عاصفة عاتية تهب ورأوا فى ظلام الليل شبحا قاتما له ساقان رفيعتان ، ومشعوذا يقف على السلم الخشبى وينجز لهم ما تبقى من أعمالهم . وعندما أدركهم النهار استطاعوا أن يروا أن العمل تم بالفعل وما كانوا ليمتنعوا أبدا عن إنجازه. عندئذ عادوا إلى بيوتهم وما سمعوه بعد ذلك مباشرة كان عن فضيحة كبيرة وقعت فى الكنيسة فى صباح ذلك الأحد ، إذ عندما جاء الناس وبدأت الصلاة شاهد الجميع الوصايا العشر وقد حذفت من كل وصية منها « لا » الناهية . أما القوم الطيبون فامتنعوا عن حضور القداس هناك لفترة طويلة وكان لا بد من إحضار الأسقف ليعيد تدشين الكنيسة . تلك هى القصة كما اعتقدت أن أسمعها عندما كنت طفلا . لابد أن تمنحوها ما تستحق من أهمية ولكن هذه القضية اليوم ذكرتنى بها كما قلت . »

وألقى الزوار نظرة أخيرة كما لو كانوا يتأكدون إذا ما كان « جود » و« سو » هما الآخران قد حذفا « لا » وبعدها خرج الجميع من الكنيسة متفرقين . حتى المرأة العجوز خرجت آخر الجميع . أما « جود » و « سو » اللذان لم يتوقفا عن العمل فأعادا الطفل إلى مدرسته وظلا بلا كلام حتى اكتشف « جود » عندما نظر إلى رفيقته فى إمعان أنها تبكى فى صمت .

قال : « لا عليك أيتها الزميلة إنى أعرف كنه ذلك . »

ــ « لا أحتمل أن يظن هؤلاء وغيرهم أن الناس يصبحون أشراراً لمجرد أنهم يفضلون العيش بطريقتهم . هذه الآراء فى الواقع هى التى تحول أفضل الناس طوية إلى مستهترين ويصبحون فى واقع الأمر لا خلاق لهم » .

ــ « إياك وفقدان الشجاعة ! لم تكن هذه سوى قصة فكاهية » .

ــ « آه . ولكننا أوحينا له بها ! أخشى أن أكون أسأت إليك بمجيئى إلى هنا بدلا من أن أساعدك ! » .

لم تكن فكرة كونهما مصدر الإيحاء فى تلك القصة من الأمور المقبولة فى

موقف كموقفهما . ومع ذلك ، لم يمض وقت طويل حتى رأت أن موقفهما ذلك الصباح كانت له ناحيته الساخرة فمسحت دموعها وراحت تضحك .

قالت « سو » : «ومع ذلك ، فن المضحك حقا أن نقوم نحن الاثنان من دون الناس جميعاً بطلاء الوصايا العشر . أنت المرتد عن الكنيسة وأنا ، ما أنا عليه من وضع ماذا أقول عنه .... يا الله » .

ثم وضعت كفها على عينيها ثانية وأخذت تضحك ضحكا صامتا متقطعا حتى أصبحت واهنة تماما .

قال « جود » فى خفة : « هذا أفضل . ها قد عدنا إلى صوابنا ثانية . أليس كذلك يا صغيرتى ؟ » .

وتنهدت « سو » بينما مدت يدها لتتناول الفرشاة واعتدلت فى جلستها وهى تقول : « أوه ، ولكن الموقف خطير . على أى حال . ولكن ألا ترى كيف أنهم يعتقدون أننا غير متزوجين ؟ إنهم يرفضون أن يصدقوا ذلك . إنه أمر غير عادى » .

قال « جود » : « لا يهمنى سواء اعتقدوا ذلك أم لا . لن أبذل جهداً أكبر » .

وجلسا للغداء ، وكانا قد أحضرا طعامهما حتى لا يضيعان وقتا . وبعد أن فرغا منه وأوشكا على استئناف العمل من جديد ، جاء إلى الكنيسة فى تلك اللحظة رجل عرفه « جود » فلم يكن سوى المقاول « ويلبز » الذى أومأ برأسه لجود وانتحى معه جانبا ليتحدث إليه . لقد بدأ المقاول الحديث وكان يشعر بالحرج لدرجة جعلته يتنفس فى صعوبة وقال : والآن لقد وصلتنى شكوى بشأنكما . لا أود أن أتعمق فى المسألة إذ أننى دون شك لم أكن أدرى بما هناك ولكننى سأطلب منكما لسوء الحظ أن تتركا العمل إذ أننى سأكلف غيركما بإنجازه . من الأفضل أن يتجنب المرء كل ما من شأنه أن يجلب عليه المضايقات ومع ذلك فسأدفع لكما أجر أسبوع » .

وكان « جود » من الثبات بحيث لم يثر أية ضجة ، ولقد نقده المقاول أجرد ورحل وبعدها جمع « جود » أدواته ومسحت « سو » فرشاتها وأخيرا تقابلت عيونهما .

قالت وقد عادت إليها نغمتها الحزينة : « كم كنا من السذاجة بحيث اعتقدنا أنه باستطاعتنا أن نقوم بهذا العمل ! طبعا ما كان يجدر بنا - كان ينبغى ألا - آتى ! »

قال « جود » : « لم يدر بخلدى أن أحدا يأتى هنا ويرانا معا ! لم يكن هناك مفر لما حدث أيتها العزيزة ولا أود بالطبع أن أسىء إلى المقاول بإصرارى على البقاء . » وجلس الاثنان بلا كلام لبضع دقائق وبعدها خرجا من الكنيسة . وعندما بلغا الصبى ، استأنف ثلاثتهم سيرهم الصامت إلى « ألدبركهام » .

وكان «فاولى» مازال على شيء من التحمس للدعاية لحق الناس فى التعليم . وبالنظر إلى سابق خبرته فى ذلك الميدان، بذل جهودا كبيرة للدعوة إلى مبدأ «تكافؤ الفرص» ولجأ إلى أية طريقة ميسرة له مهما كانت بسيطة . كان قد ألتحق عضوا بجمعية تستهدف تحسين أحوال العمال . وأنشئت حوالى الوقت الذى وصل فيه إلى البلدة ولما كان أعضاؤها شبانا من كافة المذاهب والنحل فنهم أتباع الكنائس التقليدية، وأنصار المبدأ القائل بتكامل الكنيسة مع شعبها ، والمعمدانيون ، والقائلون باندماج الأقانيم الثلاثة ، وأتباع الفلسفة اليقينية ، وغيرهم - ولم تكن طائفة الشكوكيين قد سمع عنها فى هذا الوقت - ورغبتهم الوحيدة المشتركة تطوير عقولهم بتكوين رابطة قوية تلم شملهم . لقد كان الاشتراك المالى زهيداً والمكان مريحاً ، كما كان نشاط « جود » وصفاته الممتازة ، وخاصة ما عرف عنه من القدرة على اختيار الكتب والإفادة منها ، وقد أوجدتها لديه الأعوام التى عاشها فى نضال مع سوء الطالع - عاملا أرتقى به إلى صفوف الهيئة المشرفة على الرابطة .

وعقب طرده من أعمال الترميم فى الكنيسة بأمسيات قليلة ، وقبل حصوله على أى عمل آخر ، توجه لحضور اجتماع الهيئة سابقة الذكر وكان الوقت متأخرا

والجميع هناك . وبينما يسير أمامهم رمقوه بنظرة فيها ارتياب، ولم يحيوا مقدمه بكلمة فأدرك أن شيئا له صلة به كان إما موضع بحث أو موضع نقاش . واتجه حديث المجتمعين إلى بعض الأمور العادية وأعلن أن عدد المشتركين نقص فجأة . ونهض أحد الأعضاء ـ وكان حسن النية حقا ومستقيم الطوية ـ وبدأ يسرد ألغازا عن أسباب ذلك كما ذكر أنه يجدر بهم أن يتمعنوا فى دستورهم لأنه إذا لم تكن الهيئة محترمة وإذا لم يكن الأعضاء فى خلافاتهم على الأقل ، على مستوى أخلاقى معين فلا بد أن يهبطوا بالجماعة كلها إلى الحضيض . لم يقل أحد فى حضور «جود» أكثر من ذلك ، ولكنه أدرك المقصود من هذا فاتجه نحو المائدة وكتب فى الحال استقالته . هكذا أصبح الشخصان المغرقان فى الحساسية مرغمين شيئا فشيئا على الرحيل . ثم بدأت الديون تتراكم وأخذا يتساءلان عما يمكن لجود أن يفعله بأثاث خالته القديم الثقيل لو قدر له أن يترك البلدة إلى مكان آخر بعيد ؟ لقد دفعه ذلك، كما دفعته حاجته للمال ، إلى إقامة مزاد وإن كان يفضل كثيرا ألا يفرط فى الأثاث العزيز على نفسه .

وجاء يوم البيع ولآخر مرة أعدت « سو » الفطور لنفسها ولجود وللطفل فى مطبخ المنزل الذى كان « جـــود » أسسه بماله . وتصادف أن كان اليوم مطيرا والأكثر من ذلك أن أحست « سو » بوعكة .

ولما كانت غير راغبة فى ترك « جود » المسكين فى مثل تلك الظروف المحزنة إذ كان مضطرا إلى البقاء قليلا ، لذا نفذت اقتراحا تقدم به وسيط البيع وهو أن تأوى إلى حجرة بالدور العلوى أخليت من أثاثها وبذلك منع المزايدون من دخولها . هنا عثر عليها « جود » ومعها الطفل وحقائبهم القليلة وسلالهم وحزمهم ومقعدان ومنضدة ولم تكن هذه لتعرض فى المزاد ، وجلس الاثنان يتحدثان ويتفكران .

وبدأ وقع الأقدام يسمع على السلم العادى صعودا وهبوطا وكان القادمون يفحصون قطع الأثاث التى كان بعضها قديما أثريا فاكتسب قيمة فنية مؤقتة .

وحاول المشترون مرة أو مرتين أن يفتحوا باب الحجرة . ولكى يحمى « جود » نفسه من الفضوليين كتب كلمة « خاص » على رقعة من الورق وثبتها على الباب .

ولم يلبث الاثنان حتى وجدا أن زبائن المزاد جاءوا بحثا وراء تاريخهما الشخصى وأسلوب حياتهما القديم بدلا من شراء الأثاث ، وبدأوا يخوضون فى تلك الموضوعات إلى حد غير متوقع ولايحتمل . وحتى تلك اللحظة لم يكن «جود» و « سو » اكتشفا حقيقة الفردوس الذى عاشا فيه أخيرا دون وعى منهما ! وفى صمت تناولت « سو » يد رفيقها ونظر كل منهما إلى الآخر بينما طرقت أسماعهما بعض الملاحظات العابرة وكانت شخصية أبى الزمان بما فيها من غرابة وغموض مادة خصبة للتلميح والتعريض من جانب المشترين . وأخيرا بدأ البيع فى الحجرة السفلية واستطاع الاثنان أن يسمعا الدلال وهو يبيع كل قطعة معروفة لديهما . ولقد كانت القطع الممتازة فى بعض الأحايين تباع بأثمان بخسة فى حين بيعت العادية بثمن غير متوقع .

وتنهد فى ثقل وقال : « الناس لايفهموننا وإنى سعيد إذ قررنا الرحيل . »

— « السؤال إلى أين ؟ »

— « إلى لندن . هناك يمكن للمرء أن يعيش كما يهوى . »

— « لا ... ليس لندن ياعزيزى . إنى أعرفها جيدا . سنكون غير سعيدين هناك . »

— « ولماذا ؟ »

— « ألا يمكنك أن تتنبأ ؟ »

— « هل لأن « أرابيلا » هناك ؟ »

— « ذلك هو السبب الأساسى . »

— « ولكن فى الريف سأكون دائماً قلقاً لئلا يصادفنا ما صادفناه أخيرا . وإنى لا أنوى أن أقلل من وقع التجربة بالشرح لشئ واحد يتلخص فى قصة الغلام . فلكى أعزله عن ماضيه صممت أن ألزم الصمت . وإنى الآن برمت بترميم الكنائس ولا أود أن أقبل هذا العمل لو عرض على . »

— « ليتك تعلمت الكلاسيكى أو القوطى فن همجى على أى حال . كان « بيوجين » مخطئا و « رين » محقا . تذكر الشكل الداخلى لكاتدرائيـــة « كرايستمنيستر » ، المكان الأول تقريبا الذى فيه نظر كل منا فى وجه الآخر . إن تحت الجمال الكامن فى تلك التفاصيل النورماندية يستطيع المرء أن يرى تفاهة أولئك المتوحشين غلاظ الأكباد ، وهم يحاولون تقليد النماذج الرومانية المندثرة معتمدين فقط على قدر ضئيل من التقاليد الغامضة » .

— « نعم . كدت تحولينني إلى ذلك الرأى بما قلتيه من قبل . ولكن فى وسع المرء أن يعمل ، وفى وسعه أن يحتقر ما يعمله الآخرون . لابد أن أعمل شيئا قوطيا كان أو كلاسيكيا » .

قالت وهى تبتسم فى قلق : « ليتنا نستطيع نحن الاثنين أن نجد وظيفة ليس للسلوك الشخصى دخل فيها — إنى لست مؤهلة للتدريس كما أنك لست مؤهلا للمعمار الكنسى — عليك إذن أن تتخصص فى بناء محطات السكك الحديدية والجسور والمسارح وقاعات الرقص والغناء والفنادق وكل شىء لا يمت للدين بصلة » .

— « إنى لست بارعا فى ذلك . . . . ليتنى أعود خبازا ! لقد نشأت فى رحاب هـذه المهنة مع خالتى كما تعلمين . غير أنه ، حتى الخباز لا بد أن يكون تقليديا حتى يصبح له زبائن » .

— « لا بد أن تكون له مقصورة للكعك وخبز الجنزبيل يستخدمها فى الأسواق والمعارض حيث يمكن التساهل فى أى شىء إلا صنف البضاعة » .

وتحول مجرى أفكارهما عندما سمعا الدلال يقول : « والآن انظروا إلى هذا

المقعد الأثرى المصنوع من خشب البلوط . إنه نموذج لا مثيل له للأثاث الانجليزى القديم وهو جدير باهتمام جميع الباحثين عن التحف النادرة » .

قال « جود » : « كان هذا يخص جدى الأكبر . ليتنا استطعنا أن نحتفظ بهذا الشيء العتيق ! » .

وواحدة بعد أخرى بيعت القطع وانتهى اليوم . أما « جود » والاثنان الآخران فقد شعروا بالتعب والجوع ، ولكن بعد الحديث الذى سمعوه ، خجلوا من الخروج بينما المشترون يتهيأون لترك البيت . وعلى الرغم من ذلك ، ظل الدلال منشغلا ببيع القطع الأخيرة وأصبح من الضرورى أن يسرع الثلاثة بالخروج رغم المطر لينقلوا متاع « سو » إلى سكنهم المؤقت .

— « والآن إلى الصفحة التالية : « زوجان من الحمام ، كلها حيوية وسمنة — تصلح فطيرة لذيذة لغذاء الأحد القادم » .

كانت فترة الترقب التى صاحبت بيع هذه الطيور من أشق الفترات التى مرت بسو إذ كانت شديدة التعلق بها وعندما أدركت أنها لن تتمكن من الاحتفاظ بهذه الحمامات حزنت لفراقها أكثر مما حزنت لبيع الأثاث كله . وحاولت أن تمنع دموعها من السقوط عندما سمعت الثمن التافه الذى قدره المشترون للحمامات العزيزات ، وعندما رأت كيف يرتفع الثمن قليلا قليلا قليلا ثم يرسو الشراء على أحد المزايدين . كان الشارى تاجر طيور بمحل قريب فكان مما لا يقبل الشك أن تلك الحمامات قدر عليها الموت قبل حلول يوم السوق التالى .

وعندما لاحظ « جود » حزن « سو » الشديد على الحمامات ، قبلها وقال إنه لا بد أن يتوجه إلى السكن الجديد ليرى ما إذا كان معدا لاستقبالها . كان يمكن أن يذهب مع الغلام ثم يرسل فى استدعائها حالا . وعندما تركت بمفردها انتظرت صابرة ولكن « جود » لم يعد . أخيرا خرجت وكان الطريق خاليا ، وعندما مرت ببائع الطيور الذى لم يكن يبعد كثيرا عن منزلها القديم ، شاهدت حماماتها

فى سلة لها غطاء بقرب باب المتجر . فدفعتها عاطفتها حينئذ إلى أن تتصرف وفقا لما أوصت به طبيعتها ، وساعدها على ذلك حلول الظلام إذ أن المساء جاء فتلفتت حولها بسرعة ونزعت الوتد الذى يربط الغطاء ثم سارت . وعندما رفع الغطاء طارت الحمامات بعد أن أحدثت جلبة قدم بائع الطيور على أثرها وأخذ يسب ويلعن .

وصلت « سو » إلى المكان الجديد وهى ترتعش فوجدت « جود » والصبى يعدانه حتى يصير مريحا فقالت وقد تلاحقت أنفاسها : « هل يدفع الشارون الثمن قبل تسلم البضاعة ؟ » .

— « نعم . أعتقد ذلك ولكن لم تسألين ؟ » .

— « لأننى ... لأننى أتيت عملا شائنا » .

وراحت تشرح له ما حدث وهى تشعر بالندم على ما فعلت .

قال « جود » : « لا بد أن أدفع الثمن للبائع إذا لم يتمكن من الإمساك بها ولكن لا تقلقى يا عزيزتى » .

— « كان من الحماقة أن أفعل ذلك . أوه ، ولكن لم يكون القتل والذبح هو القانون السائد فى الطبيعة ؟ » .

وأجاب الصبى فى اهتمام بالغ : « وهل الأمر كذلك يا أمى ؟ » .

وأجابته « سو » فى حماسة وقوة : « نعم ! » .

وقال «جود» : « على الحمامات أن تنال فرصتها الآن وحالما نسوى حساباتنا بعد البيع وندفع ديوننا سنرحل من هنا » .

قال أبو الزمان فى قلق واضح : « وإلى أين ؟ » .

— « لا بد أن نخفى وجهتنا عن الناس فنكون كالسفينة التى تبحر ولا يسمح لربانها بقراءة تعليمات الإبحار إلا فى عرض البحر ! غير أنه يجب أن نتجنب

الذهاب إلى « الفردستون » أو «ميلشستر» أو «شاستون» أو « كرايستمينيستر» . أما فيما عدا ذلك فلنا أن نذهب حيثما نريد » .

— « ولم لا نذهب إلى هذه الأماكن يا أبى ؟ » .

— « بسبب سحابة تجمعت واستقرت فوق رءوسنا على الرغم من أننا « لم نرتكب خطأ » فى حق إنسان ، ولم نسيء إلى إنسان ، ولم نغش إنسانا ! » هذا وإن كنا قد « فعلنا ما اعتقدنا أنه الحق » .

(٧)

من ذلك الأسبوع لم يتجول « جود فاولى » و « سو » فى بلدة « الدبركهام » .

لم يعلم أحد بالمكان الذى ذهبا إليه ويعود ذلك فى المقام الأول إلى أن أحداً لم يهتم بذلك . لقد كان من السهل على أى فرد لديه شيء من حب الاستطلاع أن يقتفى أثر هذين الشخصين الغامضين ويكتشف دون كبير مشقة أنهما استخدما المهارة اليدوية الممتازة التى يتمتع بها « جود » كى يعيشا حياة متغيرة تعتمد على الأسفار والتنقل . ولم تكن مثل هذه الحياة لتخلو من المتعة لفترة من الزمن .

وكلما سمع « جود » عن مكان يحتاج أهله إلى نحات يستطيع النحت على الحجر الجيرى أو الرملى ذهب إليه رأساً ، وهو فى ذلك يفضل الأماكن التى تبعد كثيرا عن تلك التى كمنت فيها عوامل الإزعاج له ولسو . وكان من عادته أن يجد ويجتهد فى كل عمل يسند إليه ، سواء طال وقته أو قصر ، ويظل هكذا إلى أن يتممه وبعدها يرحل .

هكذا مر عامان ونصف على التمام . فى بعض الأحايين كان يرى وهو يقيم دعامات النوافذ ذات التقسيمات الرأسية فى قصر من قصور الريف ، أو يبنى حاجزاً صخريا أمام قاعة إحدى البلديات ، أو يكسو بالأحجار واجهة أحد الفنادق فى « ساندبورن » ، أو يقيم متحفا فى « كاستربريدج » . وفى أحايين أخرى كان يرى

وقد ذهب بعيدا إلى « أوكسينبريدرج » أو حتى إلى « ستوك بيرهيلز » . وفى الأوقات التى تلت ذلك ذهب إلى « كينيتبردج » وهى مدينة مزدهرة بالأعمال لا تبعد أكثر من اثنى عشر ميلا إلى الجنوب من « ميريجرين » حيث عرفه أهلها جيدا وهذا أقصى ما ذهب إليه أثناء اقترابه من قريته : إذ لحساسيته الشديدة تحاشى العمل فى الأماكن حيث من المحتمل أن توجه إليه أسئلة عن حياته ومستقبله من قبل أناس عرفهم فى شبابه الذى كان ممتلئا حماسة وطموحا ، وأيام حياته الزوجية القصيرة التعسة .

فى بعض هذه الأماكن كان لا بد أن يبقى شهورا ، وفى بعضها الآخر أسابيع قليلة فقط . وإن كراهيته العجيبة المفاجئة لأعمال المعمار الكنسى — مهما كان مذهب الكنيسة التى تجرى هذه فيها — تلك التى نشأت من شعوره بأن الناس لا يفهمونه فقد لازمته بكل قوة ، ولم يكن مبعثها خوفه من تأنيب الناس له بقدر إفراط فى الحساسية أقعده عن طلب الرزق لدى قوم يستهجنون طرائقه : وكذلك شعوره بالتناقض الواضح بين معتقداته السابقة وسلوكه الحالى . وما من ظل للمعتقدات التى حملها معه عندما ذهب إلى « كرايستمينيستر » لأول مرة بقى معه الآن . كانت حالته العقلية تقترب من تلك التى كانت عليها « سو » عندما قابلها لأول مرة .

وفى أمسية سبت من مايو ، بعد رؤية « أرابيلا » لها فى المعرض الزراعى بما يقرب من ثلاث سنوات ، تقابل مرة أخرى مع بعض الذين كانوا هناك .

وفى « كينيتبردج » كان معرض الربيع ، ومع أن تلك السوق القديمة تضاءلت مساحتها كثيرا عما كانت فى الأزمان السابقة ، إلا أن الشارع الطويل المستقيم للبلدة بدا عند الظهيرة منظرا جذابا . فى تلك الساعة جاءت إلى المدينة مخترقة طريقها الشمالى — من بين غيرها من العربات — عربة صغيرة ولم تلبث أن توقفت أمام باب فندق خاص . ومن العربة نزلت سيدتان الأولى ، وهى السائقة ، كانت عادية من أهل الريف ، والثانية معتدلة القوام تتشح بالسواد الكامل الدال على أنها

أرملة . كان رداؤها الأسود أنيقا فى حبكته فبدت بذلك غريبة المظهر قليلا وسط ما أحاط بها من هرج ومرج مألوفين فى معرض ريفى .

قالت الأرملة لرفيقتها عند ما تقدم منها رجل ليتولى أمر العربة والخيول : «إنى ذاهبة لأرى أين يكون يا «أنى» . بعد ذلك سأعود لأقابلك هنا ثم ندخل معا إلى حيث نتناول بعض الطعام والشراب . أحس بقواى تخور » .

وقالت الأخرى : « بكل سرور وإن كنت أفضل أن ننزل بأحد الفنادق العادية إذ ان نحصل على شيء كثير بإقامتنا فى هذه المنازل المفروشة » .

قالت المتشحة بالسواد مؤنبة : « والآن يا صغيرتى لا تستسلمى للشهوات الجامحة . هذا هو المكان المناسب لنا ... حسن جدا . سنلتقى بعد نصف ساعة إلا إذا أتيت معى لنعرف الأرض التى ستقام عليها الكنيسة الجديدة » .

— « لا يهمنى ذلك . إ فى استطاعتك أن تخبرينى » .

وسارت المرأتان بعدئذ كل فى طريقها ، فذات الرداء الأسود راحت تسير فى اهتمام وكأنها معزولة تماما عما كان يجرى حولها من أمور .

وبعد استفسارات جاءت إلى دريئة تخفى حفائر وأســـاس لبناء يقام . وفوق الألواح الخارجية للدريئة علقت لافتتان كبيرتان تعلنان أن الحجر الأساسى للكنيسة المزمع بناؤها سوف يوضع فى الساعة الثالثة من أصيل ذلك اليوم ، وسوف يتولى ذلك واعظ من لندن يتمتع بين قومه بشهرة واسعة .

وبعـــد أن ظفرت السيدة المتحفة بالسواد بهذا القدر من المعلومات عادت أدراجها ثم سمحت لنفسها بالتفرج على نشاط المعرض . وبعد فترة جذب انتباهها كشك صغير يبيع الكعك وخبز الجنزبيل وكان مقاما بين غيره من المنشآت التى تفوقه فى الأهمية وحسن المظهر . كان مغطى بقماش ناصع البياض وتديره سيدة شابة يلوح عليها أنها جديدة على هذا النوع من العمل يعاونها غلام له وجه مثمن الأضلاع .

غمغمت الأرملة تقول : «يا للعجب . هذه زوجته « سو » — إنها هى حقا ا» واقتربت من الكشك وقالت دون تردد :

« كيف حالك أيتها السيدة « فاولى » ؟ ».

وتغير لون « سو » عند ما تعرفت على « أرابيلا » من خلال القناع الأسود الشفاف الذى يغطى وجهها .

وردت فى جفاء : كيف حالك أنت أيتها السيدة « كارتليت » ؟ .

وعندما لاحظت ما فيه « أرابيلا » من حداد بدأ صوتها حنونا على الرغم منها وأضافت : « ماذا ؟ هل فقدت ... » .

— « زوجى المسكين . نعم . مات فجأة منذ ستة أسابيع ولم يترك لى مالا يذكر على الرغم من أنه كان زوجا عطوفا . ومهما بلغت أرباح أصحاب الحانات فإن الأرباح تعود عادة إلى الذين يقطرون الخمور وليس لمن يبيعونها بالتجزئة . وأنت يا عجوزى الصغير . أتوقع أنك لاتعرفنى ؟ » .

قال أبو الزمان وكان قد تعلم الآن الكلام بلغة أهل « وسكس » :

« نعم أعرفك . أنت المرأة التى ظننتها أمى لفترة حتى اكتشفت أنك لست كذلك » .

— « حسن . لا يهم ذلك . إنى صديقة » .

وقالت « سو » فجأة : « إذهب يا « جوى » بهذه الصينية إلى المحطة . هناك قطار آخر على وشك الوصول على ما أظن ؟ » .

وعند ما اختفى استمرت « أرابيلا » تقول : « لن يكون على شىء من الجمال أبدا . يا للمسكين . هل يدرى أنى حقا أمه ؟ » .

— « لا . إنه يظن أن هناك سرا يكتنف نسبه وهـذا كل ما فى الأمر . سيخبره « جود » بكل شىء عند ما يكبر قليلا » .

— « ولكن كيف حدث أنك تقومين بمثل هذا العمل ؟ يا للعجب ! » .

— « هـــذا شيء مؤقت — مجرد فكرة نلجأ إليها عادة عند ما نكون في ضائقة » .

— « إذن ما زلت تعيشين معه ؟ » .

— « نعم » .

— « تزوجتما ؟ » .

— « بالطبع » .

— « وأنجبتما ؟ » .

— « اثنين » .

— « وآخر في الطريق كما أرى ! » .

وتلوت « سو » تحت وطأة الأسئلة الثقيلة المباشرة وبدأ فمها الصغير الرقيق يرتعش .

— « يا إلهي . يا إله السموات والأرض . ما الذي يجعلك تبكين ؟ ليس في هذا ما يشين » .

— « أنا لا أبكي لأنني أحس بالخجل . لا ليس الأمر كما تظنين ! ولكن يبدو من الأمور المفجعة حقا أن ننجب أطفالا وإنه لعمل يتطلب من الطموح ما يجعلني ، في بعض الأحايين ، أشك في أحقيتي لهذا العمل » .

— « هوني عليك أيتها العزيزة . ولكنك لم تخبريني لمَ تقومين بمثل هذا العمل ؟ كان « جود » دائماً من النوع المتكبر المتعالي على أي نوع من العمل فضلا عن البيع على قارعة السوق » .

— « قد يكون زوجي تغير منذ ذلك الحين قليلا . إني متأكدة من أنه لم يعد متكبراً الآن ! » . وارتعشت شفتا « سو » للمرة الثانية ثم قالت : « إني أعمل هذا لأن برداً أصابه في مطلع هذا العام وهو يقوم ببعض أعمال البناء في قاعة

للموسيقى فى بلدة « كوارترشوت » وكان يتحتم عليه أن يعمل فى المطر إذ أن العمل لا بد أن ينجز قبل حلول يوم معين . لقد تحسن كثيراً الآن إلا أننا أمضينا وقتاً طويلا مشحونا بالمتاعب . وعاشت معنا أرملة عجوز عاونتنا كثيراً ولكنها على وشك الرحيل الآن » .

— « حسن . وأنا أيضاً أتمتع باحترام الناس وأشكر الله ومنذ وفاة زوجى أشغل نفسى بأمور هامة . لم اخترت أن تبيعى خبز الجنزبيل ؟ » .

— « تلك مجرد صدفة . كانت نشأته الأولى فى مخبز فألم بكل ما يتعلق بالخبز وصناعته وخطر له أن يجرب صنعها حيث لا يتطلب عملها مغادرة المنزل . إننا نسميها فطائر « كرايستمينيستر » . وهى تلاقى نجاحا كبيراً ».

— « لم أر مثلها . يا للعجب ! إنها نوافذ وأبراج ومشربيات ! والله إنها لذيذة للغاية . » وقالت ذلك بعد أن تناولت إحداها والتهمتها دون كلفة .

— « نعم . إنها تذكر بكليات « كرايستمينيستر » . نوافذ مشرعة وعماش . انظرى أكانت نزوة من نزواته أن يصنعها من الكعك والفطائر ؟ »

ضحكت « أرابيلا » وقالت : « ألا يزال يضرب على وتر « كرايستمينيستر » حتى فى كعكه ؟ هذا هو « جود » .... عاطفة طاغية .... يا له من مخلوق عجيب وسيظل كذلك دائماً ! » .

وتنهدت « سو » وبدت مكتئبة بمجرد أن سمعت ما يوجه إليه من نقد .

— « ألا توافقينى على ذلك ؟ كونى صريحة . هذا هو رأيك على الرغم من أنك مغرمة به كثيراً ! » .

— « طبعاً « كرايستمينيستر » نوع من الرؤيا الدائمة بالنسبة له وأعتقد أنه لن يشفى من الإيمان بها . إنه ما زال يظن أنها مركز للفكر الرفيع الأبى على الرغم من أنها وكر لمعلمى المدارس التافهين الذين من سماتهم الخضوع فى جبن للتقاليد البالية » .

كانت « أرابيلا » تسأل « سو » واهتمامها موجه لطريقة تفكيرها أكثر من كلامها وقالت :

« ما أعجب أن تبيع امرأة الكعك وتتكلم هكذا ! لم لا تعودين للتدريس فى المدارس ؟ » .

وهزت « سو » رأسها وقالت : « إنهم لن يقبلونى » .

— « بسبب الطلاق ، أظن ؟ » .

— « ذلك وأشياء أخرى . ولا يوجد داع لذلك . لقد تنازلنا عن كل طموح ولم يكن هناك من هو أسعد منا حتى داهمه المرض » .

— « أين تسكنان ؟ » .

— « لن أجيب » .

— « هنا فى « كينيتبريدج » ؟ » .

وأوضحت حالة « سو » أن تنبؤها العشوائى كان صائبا .

واستمرت « أرابيلا » تقول : « ها هو الصبى يعود ثانية ، إنه طفلى وطفل « جود » » .

وتطايرت شرارة من عينى « سو » وصرخت تقول : « يجدر بك ألا تلقى بذلك فى وجهى » .

— « حسن جداً . وإن كنت أكاد أشعر أننى أود أن أحتفظ به لنفسى . ولكن يا الله . إنى لا أود أن أنتزعه منك . لا . لن أذنب مرة أخرى بمثل هذا الحديث الدنس وإن كنت أعتقد أن لديك من أطفالك ما يكفيك ! إنى واثقة من أنه يجد معك خير رعاية ولست بالمرأة التى تنتقد ما أراده الله . لقد بلغت حالة عقلية أكثر استقراراً » .

— « حقاً ! ليتنى أستطيع أن أفعل ذلك » .

قالت الأرملة وكانت تتكلم من أعماق نفس جادة مستقرة تتسم ليس فقط بالامتياز الروحى بل الاجتماعى كذلك : « عليك أن تحاولى . إننى لا أتفاخر بعودتى لحظيرة العقل ولكننى لم أعد إلى ما كنت عليه قبل وفاة «كارتليت» . كنت أسير أمام الكنيسة فى الشارع المجاور ودخلتها لأحتمى فيها من المطر . شعرت بحاجتى إلى ما يعيننى على خسارتى وترددت على الكنيسة بانتظام واكتشفت فى ذلك عزاء عظيما . ولكننى تركت لندن الآن كما تعلمين وأعيش فى « ألفردستون » فى الوقت الحاضر مع صديقتى « آنى » حتى أكون قريبة من بلدتى القديمة . لم أجىء اليوم لأشاهد السوق . سيضعون هذا المساء حجر الأساس لكنيسة جديدة وسيتولى هذا واعظ مشهور من لندن . لهذا جئت مع « آنى » ويجب أن أعود الآن لأقابلها » .

وهنا ودعت « أرابيلا » « سو » وانصرفت .

(٨)

وفى الأصيل استطاعت « سو » والقوم الآخرون الذين كانوا يصخبون حول سوق « كينيتبريدج » أن يسمعوا ترتيلا صادراً من داخل الدريئة المنصوبة فى نهاية الشارع . والذين استرقوا النظر من فتحات الدريئة استطاعوا أن يروا جمعاً من الناس فى ملابس فضفاضة ممسكين بكتب التراتيل حول الحفائر المخصصة لحوائط الهيكل . ووسط هؤلاء وقفت « أرابيلا » كارتليت فى ثيابها السوداء وكان لها صوت صاف قوى وكان من الميسور تمييزه من بين الأصوات الأخرى وهو يعلو وينخفض حسب أنغام الترتيل وصدرها المكتنز يفعل نفس الشىء .

كان بعد ذلك بساعتين فى نفس اليوم ، وبعد أن احتست المرأتان الشاى فى الفندق الذى نزلتا فيه ، بدأت « آنى » والسيدة « كارتليت » رحلة العودة عبر المنطقة المرتفعة المفتوحة التى تمتد بين « كينيتبريدج » و « الفردستون » وكانت « أرابيلا » فى حالة تفكير إلا أن أفكارها لم تكن تدور حول الكنيسة الجديدة كما حسبت « آنى » أول الأمر .

أخيراً قالت « أرابيلا » فى ضجر : « لا . إنه شىء آخر . جئت إلى هنا اليوم وليس فى تفكيرى سوى « كارتليت » المسكين ونشر تعاليم الإنجيل عن طريق ذلك الاجتماع الجديد الذى بدأ هذا المساء . غير أن شيئاً آخر وقع فغير مجرى تفكيرى تماما . « آنى » ، لقد سمعت عنه ثانية ، كما أنى رأيته » .

— « عمن تتحدثين ؟ » .

— « سمعت عن « جود » ورأيت زوجته ومنذ حدث ذلك وجدت أننى ، على الرغم منى ومع أننى كنت أرتل الترانيم بكل قوتى ، لم أستطع أن أكف عن التفكير فيه على الرغم من أنه ليس من حقى أن أعمل ذلك ، بما أننى من عضوات الكنيسة » .

— « ألا تستطيعين أن تركزى اهتمامك فيما ذكره واعظ لندن اليوم وتحاولى بذلك أن تتخلصى من خيالاتك وأوهامك ؟ » .

— « ركزت فكرى فعلا فى ذلك الذى تقولين ولكن قلبى الشرير كان يشرد على الرغم منى ! » .

— « حسن . إننى أفهم تماما كيف يكون الذهن شاردا تائها فذلك يحدث لى أحيانا . آه لو تعلمين ما أراه فى أحلامى أحيانا فى هذه الليالى على الرغم منى ، عندئذ كنت تعرفين مدى الصراع الذى يعتمل فى نفسى ! » .

وكانت « آنى » هى الأخرى بدأت تتعلق بحبيبها بعد أن خدعها وهجرها .

وقالت « أرابيلا » فى لهجة تنم عن الألم : « وكيف أعالج هذه الحالة ؟ » .

— « بوسعك أن تأخذى خصلة من شعر زوجك الراحل وتثبتيها فى دبوس أسود ثم تنظرى إليها كل ساعة من ساعات النهار » .

— « ليست لدى أية قدرة ! — وحتى لو كان ، لما كان ذلك مجديا . . . بعد كل الذى قيل عن نعم هذا الدين ، أتمنى أن أسترجع « جود » ثانية ! » .

— « لا بد أن تحاربى بشجاعة هذا الشعور طالما أنه يخص أخرى . شىء

آخر يفيد فى هذه الحالة فعندما تصيب الأرامل هذه الشهوانيات فإنهن يذهبن إلى قبور أزواجهن بعد غروب الشمس ويقفن هناك فترة وهن مطأطئات الرءوس » .

— « أف لك . إنى أعلم بقدر ما تعلمين ما يجب أن أفعله . فقط لا أقوم به » .

وساقت المرأتان العربة فى صمت على طول الطريق المستقيم حتى أشرفتا على بلدة «ميريجرين » التى كانت لا تبعد كثيرا على يسار طريقهما .

وأخيرا بلغت المرأتان نقطة التقاء الطريق العام بالطريق الفرعى المؤدى إلى تلك القرية التى أشرف برج كنيستها على المنحدر المجاور . وعندما سارتا أبعد فأبعد ، ومرتا أمام المنزل المنعزل الذى سكنته « أرابيلا » و « جود » فى الشهور الأولى لزواجهما والذى فيه ذبحا الخنزير ، عجزت « أرابيلا » عن ضبط نفسها أكثر مما فعلت وانفجرت تقول : « إنه بالنسبة لى أكثر مما هو بالنسبة لها . أى حق لها فيه ؟ أود أن أعلم ! ليتنى أستطيع أن آخذه منها لو كان ذلك فى وسعى » .

— « تبا لك . هكذا تفكرين ولم يمض على وفاة زوجك أكثر من ستة أسابيع . صلى لتتغلبى ! » .

— « ليكن فى ذلك حتفى . الشعور هو الشعور . ان أنافق أكثر من ذلك وهاك المنشورات ! » .

وسحبت من جيبها حزمة من المنشورات التى كانت أحضرتها بقصد توزيعها فى السوق والتى وزعت منها بالفعل عددا . وفى أثناء حديثهما ألقت جميع ما تبقى من الحزمة داخل الدغل .

— « حاولت هذه الطريقة ولكننى فشلت . لا بد أن أبقى كما ولدت ! » .

— « كفى . أنت مهتاجة يا عزيزتى . والآن تعالى إلى البيت فى هدوء واشربى قدحا من الشاى ولنمتنع عن الحديث عنه وان نمشى فى هذا الطريق ثانية إذ أنه يؤدى بنا إلى حيث نلتقى به وذلك يثيرك . لسوف تتحسنين سريعا .

وشيئاً فشيئاً هدأت «أرابيلا» وعبرتا الطريق وعندما بدأتا في نزول التل شاهدتا أمامهما رجلا كبير السن يمشي الهوينا وجسمه على شيء من الضخامة ويبدو مغرقا في التفكير . كان يحمل في يده سلة وملابسه تتسم ببعض الإهمال وفي مظهره شيء لا يمكن تحديده يوحي بأنه يتولى بنفسه إدارة بيته وشراء لوازمه ويبدو كأنه لا يثق في أحد ولا يصادق أحدا . كان الواضح أنه لا يستطيع إلا أن يفعل ذلك فلم يكن لديه من يتولى عنه هذه الأمور . لم يبق من الرحلة سوى نزول التل، وعندما توقعت المرأتان أن الرجل يتجه نحو « الفردستون » دعتاه للركوب فقبل.

وظلت « أرابيلا » ترمقه وأخيرا قالت : « لو كنت غير مخطئة فإنني أتحدث إلى السيد « فيلوتسون » . »

وأدار الرجل وجهه ونظر إليها وقال : « نعم . أسمي « فيلوتسون » ولكنني لا أستطيع أن أتعرفك ياسيدتي . »

— « إني أذكرك جيدا عندما كنت معلما في مدرسة « ميريجرين » وكنت إحدى تلميذاتك . كنت أمشي يوميا إلى المدرسة قادمة من « كريسكومب » فلم يكن في بلدتنا سوى معلمة واحدة وطريقتك في التدريس تفضل طريقتها .

ولكنك لن تتذكرني كما ينبغي أن أتذكرك . اسمي « أرابيلا دون » .

وهز الرجل رأسه في أدب وقال : « لا . لا أذكر الاسم ويصعب التعرف في هيئتك النامية الحالية، على الطفلة النحيلة التي لاشك كنتيها أيام الدراسة . »

— « حسن . كان الشحم واللحم يغطيان عظامي دائما . على أي حال إني أعيش الآن مع بعض الأصدقاء في مكان قريب من هنا . أظنك تعرف من تزوجت ؟ أليس كذلك ؟ »

— « لا . لا أعرف . »

— « تزوجت « جود فاولي » وكان أيضا أحد تلاميذك ، أو على الأقل .

أحد تلاميذك فى الفصول الليلية . ولكن لفترة على ما أظن . لقد عرفته أكثر بعد ذلك إذا كنت غير مخطئة » .

قال « فيلوتسون » وقد انتفض فى مكانه : « يا إلهى . يا إلهى . أنت زوجة « فاولى » ؟ حقا - كانت له زوجة ! وإنه .... لقد فهمت .... » .

— « طلقها - كما فعلت أنت بزوجتك - وقد يكون طلقها لأسباب أخرى أهم من أسبابك » .

— « حقا ؟ » .

— « حسن . من الجائز أنه كان على صواب عندما طلقنى فذلك كان أفضل لكلينا ولقد تزوجت بعد ذلك بفترة قصيرة وسار كل شىء على ما يرام حتى توفى زوجى منذ مدة . أما أنت فلا أشك أنك كنت على خطأ ! » .

قال « فيلوتسون » وقد راوده شعور مفاجىء بالمرارة : « لا . أفضل ألا أتحدث عن ذلك الآن . ولكننى مقتنع بأن ما فعلته هو الصواب وهو العدل ويتفق مع الأخلاق . عانيت كثيرا بسبب تصرفى هذا وبسبب آرائى ومع ذلك ما زلت أومن بما فعلت وما زلت مصرا على رأيى على الرغم من أن فقدانى لها تسبب فى فقدانى لأمور كثيرة هامة » .

— « فقدت بسببها مدرستك ومرتبك المحترم . أليس كذلك ؟ » .

— « لا أهتم بالحديث عن ذلك . عدت أخيرا إلى هنا - إلى « ميريجرين » أقصد » .

— « وهل تدير المدرسة الآن ثانية كما كنت ؟ » .

كانت وطأة الحزن أقوى من أن تجعله ينجح فى إخفاء شعوره فقال : « إنى هناك ولكن ليس كما كنت . عدت إلى المدرسة بعد أن عانيت الكثير . لم أعد إلا لأن رجوعى كان هو المخرج الوحيد الباقى لى . إنها شىء صغير ولكننى عدت إليها بعد أن رحلت إلى الشمال وراودنى الأمل طويلا ولكن كل آمالى خابت

وعدت إلى درجة الصفر بكل ما فى ذلك من هوان . هذا المكان هو الملجأ الوحيد أمامى وإننى أحب فيه الهدوء . وكان القسيس يعرفنى قبل أن صدر عنى ذلك التصرف الشاذ تجاه زوجتى وقبل أن دمر ذلك المسلك مستقبلى كمعلم . لقد قبل أن يستخدمنى بعد أن أغلقت كافة المدارس أبوابها فى وجهى . ومع ذلك وعلى الرغم من أننى أتقاضى خمسين جنيها فى السنة وفوق ذلك مائتين من الجنيهات من مصادر أخرى إلا أننى أفضل هذه الحياة على أن أغامر فأتعرض لأن يقف ماضىّ فى سبيلى . ولسوف يحدث ذلك لو أننى غيرت مكان إقامتى .

— « أنت على حق فالقناعة كنز لايفنى ولقد فعلت هى نفس الشئ . »

— « هل تقصدين أنها ليست على ما يرام من الناحية المالية ؟ »

— « قابلتها بالصدفة فى « كينيتبريدرج » اليوم ولا أستطيع أن أقول إنها على مايرام . إن زوجها مريض وهى قلقة على صحته . لقد ارتكبت خطأ شنيعا حيالها وإنى أصر على رأيى هذا وإنك لتستحق مانالك من انهيار لبيتك وضياع لكيانك بسبب تصرفك واعذرنى لو استبحت لنفسى قول ذلك . »

— « وكيف ؟ »

— « كانت بريئة . »

— « هذا هراء . إنهما لم يحاولا حتى أن يعترضا على القضية . »

— « ذلك لأنهما لم يهتما . كانت حينئذ بريئة تماما مما أكسبك حريتك . ورأيتها بعد صدور الحكم مباشرة واقتنعت بذلك الرأى بعد أن تحدثت إليها . »

وأمسك « فيلوتسون » بحافة العربة المفتوحة وبدا حزينا مهموما بسبب ما سمع وقال : « ومع ذلك رغبت فى الرحيل . »

— « هذا صحيح ولكن كان الواجب يحتم عليك ألا تسمح لها بذلك وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها وضع حد لنزوات مثل أولئك النساء صاحبات النزوات الشاذة سواء كن بريئات أم مذنبات — وكان لابد لها أن تعود يوما .

إننا جميعا نفعل ذلك . بل إنها العادة . وكل شيء يستوى فى النهاية . ومع ذلك، أعتقد أنها مازالت مغرمة برجلها — مهما كان منه . لقد تسرعت فى تصرفك حيالها . ما كنت لأسمح لها بالرحيل . كنت أقيدها وعندئذ لا تلبث روح العناد عندها أن تنهار . نحن النساء لا يجدى فى ترويضنا شيء كالظلم والقسوة . والأكثر من ذلك أن القوانين كلها فى جانبك . عرف موسى ذلك . ألا تذكر قوله ؟ »

— « ليس الآن ياسيدتى — يؤسفنى أن أقول ذلك »

— « وتسمى نفسك معلما ! اعتدت على التفكير فى ذلك عندما قرأوها فى الكنيسة وكنت أقول : « ان يكون الرجل مذنبا . أما المرأة فتعيش فى ظل الإجحاف . » ما أشد قسوة الشرائع علينا نحن النساء . ولكننا يجب أن نبتسم ونصبر . على أى حال إنها تضرس الآن بتأثير ما أكلت من حصرم . »

قال « فيلوتسون » فى حزن مرير : « نعم إن القسوة هى القانون المهيمن على الطبيعة والمجتمع ولا مهرب لنا من ذلك . »

— « حسن . لا تنس أن تجرب الطريقة التى اقترحتها عليك فى المرة القادمة أيها الرجل العجوز . »

— « لا يمكننى أن أجيبك الآن يا سيدتى فما عرفت الكثير عن طبيعة النساء . »

وكانت العربة قد وصلت إلى المشارف المنخفضة المحيطة بالفردستون ومرت بإحدى الطواحين عندما اخترقت الحدود الخارجية للبلدة وقال « فيلوتسون » إن الطاحونة ترشده إلى المكان الذى يرغب فى الذهاب إليه فتوقفت العربة ونزل منها وحياها تحية المساء وسار فى طريقه مفكرا مهموما .

وفى تلك الأثناء ، على الرغم من أن « سو » كانت موفقة بشكل واضح فى بيع الكعك فى سوق « كينتبربدرج » الا أنها فقدت روح المرح التى كانت بدأت تحس به وحل محله شعور بالحزن مرجعه ذلك النجاح الذى أحرزته .

وعندما فرغت من بيع كل فطائر « كرايستمينيستر » ، حملت السلة الفارغة والقماش الذى كانت تغطى به بضاعتها وغادرت المكان ومعها الصبى بعد أن عهدت إليه بحمل بقية الأشياء : وسلك الاثنان طريقا ضيقا وسارا فيه مسافة نصف ميل وقابلا سيدة عجوز تحمل طفلا يرتدى ملابس قصيرة ، وكانت تجر بيدها الأخرى طفلا آخر .

وقبلت « سو » الطفلين وقالت : « كيف حاله الآن ؟ »

أجابت السيدة « أيدلين » فى بساطة : « أحسن . لا تقلقى عليه . قبل أن تصعدى السلم سيكون زوجك فى أحسن حال . »

وسار الجميع فى منعطف ووصلوا إلى بعض الأكواخ التى غطيت بمربعات من البلاط وكانت تحيط بها بعض الحدائق وأشجار الفاكهة ودخلوا إحداها وسرعان ماوجدوا أنفسهم فى حديقة صغيرة وهناك ألقوا التحية على « جود » وهو يجلس فى مقعد كبير وكان من الواضح أنه يمر بمرض خطير وذلك من ملامحه التى زادت رقة ومن نظرة التوقع التى بدت على وجهه والتى جعلته كالطفل وهو ينتظر عودتهم .

وقال وفى عينيه نظرة اهتمام أضاءت وجهه :

— « ماذا ؟ وهل بعتها كلها عن آخرها ؟ »

— « نعم بعت البواكى والجمالونات والنوافذ وكل شىء . »

ثم أطلعته على النتائج المالية للبيع وترددت قليلا وأخيرا أخبرته عندما أصبحا منفردين ، بأمر مقابلتها لأرابيلا ، تلك المقابلة التى لم تتوقعها كما أخبرته بترملها .

وشعر « جود » بانحلال فى جسمه وقال : « ماذا . وهل تعيش هنا ؟ »

وقالت « سو » : « لا ، بل إنها تعيش فى « ألفردستون » . »

وظل وجه « جود » على حزنه فأضافت « سو » تقول وهى تقبله فى حرارة :
« ظننت أنه من الأوفق أن أخبرك بما حدث . »

— « نعم . يا إلهى ! « أرابيلا » ليست فى أعماق لندن بل هنا ! إنها لاتبعد أكثر من اثنىعشرميلا من هذا المكان . وماذا تفعل فى «الفردستون» ؟»

وأخبرته « سو » بكل ماتعلم وأضافت تقول : « إنها تزور الكنائس وتتحدث عنها . »

وقال « جود » : « حسن . ربما كان من مصلحتنا أننا انتوينا الرحيل . إنى أشعر بتحسن كبير اليوم وسأكون مستعدا للرحيل فى مدى أسبوع أو اثنين . فى هذه الحال يمكن للسيدة « إيدلين » أن تعود إلى بيتها ، يالها من عجوز مخلصة عزيزة . إنها الصديقة الوحيدة لنا فى هذه الدنيا ! »

وقالت « سو » وفى صوتها قلق : « وأين تظن عسانا نذهب ؟ »

وعند ذلك اعترف « جود » بما كان يجول فى خاطره وقال إنهاستكون مفاجأة لها أن تعلم ، بعد ما كان قد انتواه من تجنب الأماكن القديمة ، إن شيئا جعله يفكر طويلا فى « كرايستمينيستر » فطلب منها أن يعودا إلى هناك ، إن كان ذلك لايضايقها . وماذا يهم حتى لو تعرف الناس عليهما ؟ كانت حساسيتهما الزائدة هى التى جعلتهما يهتمان بما يقوله الناس . أما الآن فيمكنهما ، على الأقل ، أن يظلا يبيعان هناك كعكا لو عجز عن العمل . لم يكن لديه شعور بالخجل من الفقر ، ومن يدرى فقد يستجمع قواه فى مدى وجيز فيستطيع أن يفتح هناك ورشة لنحت الأحجار يديرها بنفسه .

وقالت « سو » وهى تفكر : « ولكن لم الاهتمام « بكرايستمينيستر » ؟ إن « كرايستمينيستر » لا تهتم بك فى شىء أيها العزيز المسكين ! »

— « إنى أهتم بها اهتماما كبيرا ولا يسعنى الا أن أفعل ذلك فأنا أحب ذلك المكان على الرغم من أنى أعلم أن تلك البلدة تكره الرجال الذين هم على شاكلتى —

أولئك الذين يدعون بالعصاميين ، كم تحتقر تلك البلدة ما اكتسبته من مهارة فى صناعات يدوية عديدة فى حين كان الواجب أن تكون هى أول من يحترمهم . إنها تسخر من أخطائنا فى النطق وفى التقدير فى حين كان الواجب عليها أن تقول « أرى أنك فى حاجة إلى المساعدة أيها الصديق ! » ولكن ، على الرغم من كل ذلك ، إنها قلب العالم كله بالنسبة لى وذلك بسبب أحلام شبابى ولا أستطيع تغيير ذلك الشعور . من يدرى فقد تكون « كرايستمينيستر » استيقظ ضميرها وبذلك تظهر لى شيئا من كرم الأخلاق . إن هذا ما أرجوه ! كم أتشوق للعودة إلى هناك — ربما لأموت هناك ! يمكننى ذلك فى أسبوعين أو ثلاثة على ما أظن . سيكون شهر يونيو قد حل وأود أن أكون هناك فى يوم معين بالذات . »

وكان حلمه هذا الذى عاد إليه من القوة بحيث لم يمض أسبوعان أو ثلاثة حتى كان « جود » و « سو » والطفل قدجاءوا إلى المدينة ذات الذكريات العديدة ، وحتى كانوا يطأون أرضها فعلا ويستقبلون شمسها الساطعة التى تنعكس على جدرانها القديمة المتداعية .

الباب السادس

في «كرايستمينيستر» ثانية

« ... وزللت بالصـــوم جسدها .
وجميع المواضع التى كانت تفرح فيهـا
من قبل ملأتها من نتاف شعر
رأسها . »

استير « الأسفار المحزوفة »

« اثنان يذويان
المرأة وأنا
كلانا يموت فى استسلام
بعد أن آوينا هنا فى الظلام . »

« روبرت براونج »

فى « كرايستمينيستر » ثانية

(١)

وعند وصولهم ، كانت المحطة تعج بشباب يضعون على رءوسهم قبعات من القش ويرحبون بفتيات يشبهن مستقبليهن شبها كبيرا ويرتدين أجمل الملابس وأخفها .

قالت « سو » : يبدو المكان مرحا حقا ! — ولكن اليوم عيد الشكر ! ما أخبثك ياجود فقد جئت إلى هنا اليوم عامدا ! »

وفى هدوء أخذ يد الطفل الصغير وأخبر غلام « أرابيلا » بألا يبتعد كثيرا فى حين عنيت « سو » بأكبر أطفالها .

قال « جود » : « نعم قلت لنفسى فى استطاعتنا أن نأتى إلى هنا اليوم كما نستطيع فى أى يوم آخر . »

قالت جازعة وهى تنظر إليه من أعلاه إلى أسفله : « ولكن أخاف أن يحزنك ذلك ! » .

— « أوه . ينبغى ألا أجعل هذا يؤثر فى عملنا . لدينا الكثير مما لابد أن ننجزه قبل أن نستقر فى هذا المكان . السكن أول شىء . »

ولما كانا قد تركا المتاع فى المحطة ، وكذلك أدوات « جود » ، مشى الجميع فى الطريق المألوف وكان مزدحما بالمحتفلين بالعيد الذين تدافعوا فى نفس الاتجاه . وعندما وصلوا إلى الميدان الكبير وأوشكوا على أن يتجهوا إلى حيث يجدون سكنا ، تطلع « جود » إلى ساعة الميدان وإلى الزحام المسرع وقال :

— « لنذهب ونرى الموكب ولايهم السكن الآن ! فى وسعنا أن نحصل عليه بعد ذلك . »

وسألت : « ألا يجدر بنا أن نزيح عن كاهلنا أولا موضوع السكن ؟ »

لكن روحه كانت وكأنها وراء العيد فساروا معاً فى شارع «تشيف» يحمل هو بين زراعيه أصغر أطفاله ، بينما تقود «سو» طفلتهما الصغيرة وبجوارهم يسير غلام «أرابيلا» مفكراً صامتاً. كانت هناك جماعات من الشقيقات الجميلات فى ملابس رقيقة ومعهن آباؤهن الأجلاف المهيضو الجناح الذين ما عرفوا الطريق إلى كلية فى شبابهم ، هؤلاء وبناتهم ساروا فى حمى الأبناء والأشقاء الذين يحملون كتابات واضحة تعلن بأنه ليس بين البشر من هو جدير بالعيش فى هذه الأرض حتى يجىء هنا ليزود نفسه بالعلم الآن .

قال « جود » : « كل فرد من أولئك الشبان يذكرنى بفشلى . إن اليوم درس فى عاقبة الادعاء ! فهو يوم المذلة بالنسبة لى ! ولولم تسرعى لنجدتى ، أيتها العزيزة الغالية ، لذهبت إلى الكلاب بلا رجعة من اليأس » .

فلما رأت من وجهه أنه على وشك أن يصاب بإحدى انفعالاته العاصفة المتجهة نحو تأنيب الذات قالت « لو أننا اتجهنا مباشرة إلى الاهتمام بشئوننا لكان ذلك أفضل أيها العزيز . إنى واثقة من أن هذا المنظر سوف يثير فيك الأحزان القديمة وان يكون فيه نفع ! » .

— « حسناً حيث إننا قريبون « سنتفرج عليه الآن » .

وداروا إلى اليسار بجوار الكنيسة ذات المدخل الإيطالى والأعمدة الحلزونية المغطاة بقدر كبير من النباتات المتسلقة . وسار الجميع فى الزقاق حتى ظهر أمام عينى « جود » المسرح الدائرى وفوقه ذلك المصباح المعروف لجميع الناس والذى برز فى عقله كالرمز الحزين لآماله المضيعة ، إذ من تلك البقعة بالذات سبق أن وقف متأملا مدينة الكليات فى ذلك الأصيل الذى خصصه لتأملاته العظيمة التى أقنعته بعدها بعدم جدوى محاولته ليصبح ابنا للجامعة . واليوم ، فى الفضاء الممتد بين هذا البناء وأقرب كلية ، تجمعت جمهرة من الناس فى حالة توقع وانتظار . وفى قلب الزحام كان هناك ممر خال يحده حاجزان من الخشب ، ويمتد من باب الكلية حتى باب البناء الكبير الواقع بينها وبين المسرح .

وصاح « جود » فى انفعال مفاجىء : «هنا المكان الذى سرعان ما يمرون فيه ! » ثم زحم الجمع متقدما إلى الأمام واتخذ لنفسه مكانا قريبا من الحاجز وهو ما زال يحتضن أصغر أطفاله ، بينما حرصت « سو » ومعها بقية الأطفال على أن تكون خلفه مباشرة . وكانت الحشود تزحف خلفهم وتسد جميع المسالك وانشغل أفرادها بالكلام وتبادل النكات والضحك بينما توقفت العربات الواحدة بعد الأخرى أمام الباب الجانبي للكلية وبدأ ينزل منها عدد من الشخصيات الوقورة المتدثرة بالعباءات الكبيرة الحمراء ، وكانت السماء بدأت تتلبد وتقتم وأخذ الرعد يدوى فى جنباتها من لحظة إلى أخرى .

ارتعش أبو الزمان وقال هامسا : « كأننا حقاً فى يوم الحشر ! » .

وقالت « سو » : « ما هؤلاء سوى رجال الثقافة والعلم ! » .

وحينما كانوا ينتظرون سقطت فوق رءوسهم وأكتافهم قطرات كبيرة من المطر وبدأ التأخير يترك أثره فى نفوسهم . فعادت « سو » إلى إعلان رغبتها فى عدم البقاء .

قال « جود » دون أن يلتفت إليها : « لن يطول بنا الانتظار الآن » .

ولكن الموكب لم تظهر بوادره . وبقصد التسلى وقضاء الوقت ، تطلع أحد الواقفين فى الصفوف المتراصة إلى واجهة أقرب الكليات إليه وسأل عن معنى الكتابات اللاتينية فى وسط الواجهة ففسرها « جود » وكان يقف بالقرب من السائل . ولما وجد أن الأفراد القريبين منه يصغون فى اهتمام إلى ما يقول ، راح يصف زخارف الطُّرَف (وكان قد درسها قبل ذلك بسنوات) وينتقد بعض التفصيلات المعمارية فى واجهات كليات أخرى فى المدينة .

وأخذت الجموع . ومن بينهما رجلا الشرطة عند الأبواب ، يحملقون فى « جود » كما حملق أهل « لايكا » فى القديس بولس إذكان جود معرضا للإغراق فى التحمس لأى موضوع يثار . وبدأت الدهشة تتضح على وجوههم لأن غريبا

مثله يستطيع أن يعرف عن أبنية مدينتهم أكثر منهم ، وأخيرا قال أحدهم : عجبا ! أعرف ذلك الرجل . كان يعمل هنا منذ سنوات إنه يدعى « جود فاولى » ! ألا تذكرون يا قوم أننا كنا ندعوه سخرية معلم الأزقة لا تجاهه الواضح فى هذا السبيل ؟ إنه متزوج على ما أظن . ذلك طفله إذن . لا بد أن « تايلور » يعرفه فهو يعرف كل إنسان » .

كان المتكلم يدعى « جاك ستاج » وكان « جود » قد عمل معه فى إصلاح أعمدة الكلية . أما « تايلور » فكان يُرى واقفا عن قرب . وبمجرد أن سمع اسمه يتردد ، صاح على « جـــود » عبر الحاجزين قائلا : « شرفتنا بعودتك ثانية . أيها الصديق » .

فرد جود بإيماءة من رأسه التحية .

— « يبدو أنك لم تقم بأية أعمال عظيمة برحيلك ؟ » .

ووافق جود على هذا أيضا . وقال شخص آخر :ـ

— « لم يفعل غير خلق عدد آخر من الأفواه عليه أن يملأها بالطعام ! »

أما الصوت فكان جديدا ،يسمع لأول مرة وعرف « جود » صاحبه وكان العم « جو » من عمال البناء الذين سبق أن عرفهم .

وقال جود فى لهجة مرحة إنه لا يستطيع أن ينكر هذا القول . ومن ملاحظة إلى أخرى نشأ بينه وبين أفراد الجمع الواقف ما يشبه الحديث العام وفى أثنائه سأله السمكرى « تايلور » هل ما زال يتذكر « قانون الإيمان » باللاتينية وليلة التحدى فى الحان ؟

قال «جود » : « ولكن الأقدار لم تكن فى صفك ؟ ولم تكن مواهبك بالتى تكفيك لكى تنتصر فى المضمار » .

وقالت « سو » وهى تتوسل إليه : « إياك والرد أكثر من ذلك ! » .

وغمغم أبو الزمان يقول فى حزن وهو يقف فى الزحام مغمورا لا يظهر منه شىء : « لا أعتقد أننى أحب « كرايستمينيستر » ! » .

ولكن عندما وجد « جود » نفسه مركز فضول الجمع وهدف أسئلتهم وتعليقاتهم لم يشعر برغبة فى الامتناع عن الدخول فى أحاديث مفتوحة ليس فى الدخول فيها ما يشين . وبعد لحظة أثاره الموقف وقال فى صوت عال مخاطبا الحشد المصغى : « أيها الإخوان . إنها مشكلة صعبة على أى شاب . تلك المشكلة التى كان على أن أصارعها ، والتى يوليها الألوف اهتمامهم فى اللحظة الراهنة من هذا العهد المضطرب فيتساءلون هل يسلكون دون تدبر الطريق الذى يجدون أنفسهم فيه دون اعتبار لاستعدادهم لمثل هذا العمل ، أم يتدبرون حقيقة واقعهم ومقدرتهم ثم يعملون على إعادة تشكيل سلوكهم تبعا لذلك ؟ لقد حاولت أن أفعل الأمر الثانى وفشلت ولكننى لا أسلم بأن فشلى دليل على خطأ رأيى ، أو أن نجاحى يثبت صحته . وإن كنا هكذا نقيس اليوم مثل هذه المحاولات ـ أقصد ليس بصحتها الأصيلة ولكن بنتائجها المتغيرة . ولو كنت انتهيت بأن أكون كواحد من أولئك السادة المتشحين بالعباءات الحمراء والسوداء الذين نراهم الآن يدلفون إلى هذا المكان لقال كل منكم : « انظروا ! ما أحكم هـــذا الشاب الذى يسير بوحى من طبيعته ! أما وقد انتهيت نهاية لا تفضل أبداً بدايتى فإنكم تقولون : « انظروا ما أتفه عقل ذلك الشاب الذى تسيره نزواته الطائشة .

ومهما يكن من الأمر ، فإنه فقرى وليست أرادتى التى قبلت الهزيمة . لابد من جيلين أو ثلاثة حتى ينجزوا ماحاولت أن أقوم به فى جيل واحد . وأما دوافعى واهتماماتى ، وقد تسمى بالأحرى عيوبى ورذائلى ، فكانت من القوة بحيث أعاقت تقدمى أنا المجرد من حميد الصفات ، أنا الذى كنت ميتا كسمكة ، أنانيا كخنزير فأضعت الفرصة التى كان لابد أن تقودنى إلى أن أصبح أحد البارزين فى المجتمع . وقد تسخرون منى ـــ وإنى راغب تماما فى أن تفعلوا ذلك ـــ فأنا ولاشك مادة مناسبة لهذا . ولكننى أظن أنكم لو علمتم ما تعرضت له من آلام طيلة هذه السنوات القليلة المنصرمة ، لأخذتكم الشفقة بى ، ولو أدرك هؤلاء السادة

(وأومأ برأسه ناحية الكلية التي بدأ الأساتذة وأعضاء الهيئات الجامعية يصلون إليها فرادى) هذا ، فمن الجائز أنهم كانوا يفعلون نفس الشيء . »

قالت امرأة : « يبدو قطعا أنه مريض ومنهار . هذا صحيح ! » وبدا وجه « سو » أكثر انفعالا ، ولكن على الرغم من أنها كانت في وقفتها تلاصق جود فإنها لم تكن ظاهرة تماما .

— « قد أعمل صالحا قبل موتي — أن أصبح أمثولة حية مخيفة لما ينبغي على المرء ألا يفعله وبهذا أجعل من حياتي عبرة . ومن الجائز أنني كنت ضحية رخيصة لروح القلق العقلي والاجتماعي الذي يجعل الكثيرين في أيامنا هـــذه تعساء ! »

وقالت « سو » في صوت هامس والدموع تملأ عينيها عندما لاحظت حالة « جود » العقلية . « لا تقل لهم ذلك ! لم تكن أنت ذلك . لقد كافحت في نبل لتكسب المعرفة ولن يلومك سوى أحقر الناس نفسا ! »

— « ماذا ترون في رجل فقير مريض؟ ليس هذا أسوأ ما بي . إني أعيش في فوضى المبادئ — وأضرب في الظلام على غير هدى — وأتصرف بوحي من فطرتي إذ ما من مثال أحتذيه . ومن ثمانية أو تسعة أعوام ، عندما جئت إلى هنا لأول مرة ، كانت لدي مجموعة كاملة من الآراء المحددة ولكنها تهاوت تدريجيا . وكلما تعمقت تزعزعت ثقتي . ليس لدي ما أفعله الآن سوى أن أتبع الميول التي تسيء لي وحدي وتسعد في الواقع أعز الناس إلي . والآن أيها السادة هذا ردي على ما أردتم أن تعلموه عن أحوالي . ليته ينفعكم ! ليس في وسعي الآن أن أشرح لكم أكثر من ذلك : ألاحظ أن هناك خطأ في تفكيرنا الاجتماعي وهذا لا يمكن أن يكتشفه إلا رجال ونساء يتمتعون ببصيرة أعمق من بصيرتي — لو قدر لهم حقا أن يكتشفوا هذا الخطأ — على الأقل في زماننا » من ذا يستطيع أن يعرف ما هو خير للإنسان في هذه الدنيا ؟ ومن ذا يستطيع أن يتنبأ بمصير أي فرد يعيش تحت الشمس ؟ ، وهتف النظارة : « مرحى ، مرحى ! » قال « تايلور »

السمكرى : « أجدت الوعظ ! » والتفت إلى الواقفين بجواره وقال : « عجبا ! أى واعظ جوال من المنتشرين فى هذه النواحى ، هذا الذى يحل محل أحد الآباء أثناء إجازته ، لن يقبل أن يلقى مثل هذه الموعظة قبل أن ينقد عليها جنيها كاملا ! أليس كذلك ؟ أقسم ما من واحد من هؤلاء يرضى بأقل من ذلك ! وحتى حينذاك لا بد أن تأتيه الموعظة مكتوبة . أما هذا الذى أمامكم فلا يعدو أن يكون واحدا من الطبقة العاملة ! »

وكنوع من التعليق الموضعى على ملاحظات « جود » ، جاء فى تلك اللحظة أحد الأساتذة متشحا بزيه الرسمى وكان متخلفا عن بقية أقرانه . كان يلهث إذ أن الحصان الذى كان يجر عربته رفض الوقوف بها فى المكان المخصص لها فاضطر الأستاذ ، وكان مستأجرا للعربة ، إلى القفز منها والسير على قدميه وعندئذ نزل السائق وأخذ يركل الحيوان فى بطنه .

قال « جود » : « لو أمكن حدوث ذلك عند مداخل الكليات فى أكثر مدن العالم ثقافة ودينا ، فما الذى سنقوله عن المدى الذى وصلنا إليه فى مجال الرقى ! »

قال أحد رجال الشرطة وكان منهمكا مع زميل له فى فتح الأبواب الكبيرة المواجهة للكلية : « النظام ! صن لسانك أيها الرجل حتى يمر الموكب ؟ »

وهطل المطر غزيرا وزاد هطوله أكثر من ذى قبل ففتح كل من كان يحمل مظلة مظلته ، ولم يكن «جود» واحدا من هؤلاء . أما «سو» فتحمل مظلة صغيرة لا تحجب من الشمس أو المطر إلا القليل . وشحب وجهها وإن كان « جود » لم يلحظ ذلك حينئذ . وهمست تقول وهى تحاول أن تحميه بمظلتها من المطر : « دعنا أيها العزيز نواصل السير . إننا لم نعثر على مسكن بعد وتذكر أن كل أشيائنا مازالت فى المحطة وأنك لم تسترد حتى الآن صحتك تماما . أخشى أن يضر بك هذا البلل ! » قال « جود » : « إنهم قادمون الآن . دقيقة واحدة وسأرحل بعدها ! »

ودقت الأجراس ست دقات وبدأ النظارة يحتشدون فى النوافذ المحيطة

واخذت صفوف عمداء الكليات والأساتذة الجدد فى ملابسهم الحمراء والسوداء تمر عبر خياله كما تمر الكواكب البعيدة عبر منظار مكبر .

وأثناء سير هؤلاء ردد بعض العارفين أسماءهم . وعندما بلغوا مسرح «رين» القديم المستدير ، ارتفعت الهتافات إلى السماء .

صاح « جود » : « لنذهب إلى هناك ! » وعلى الرغم من أن السماء بدأت الآن تمطر بشدة لم يبد عليه أنه يشعر بذلك . وسار الجميع إلى بناء المسرح . هنا وقفوا فوق القش الذى فرشت به الأرض للتخفيف من صوت ارتطام العجلات بأحجار الطريق وكان وقوفهم بجوار التماثيل الصخرية المتآكلة بفعل الصقيع والتى أحاطت بالبناء من كل نواحيه تطل فى تجهم شاحب على مايجرى حولها وتطل بصفة خاصة على أولئك المتهالكين « جود » و « سو » وأطفالها وكأنما تطل على مخلوقات هزلية لم يكن لوجودها هناك من داع . قال فى لهفة : « ليتنى أستطيع الدخول ! اسمعى . قد أتمكن بوقوفى هنا من أن أتصيد بضع كلمات من الخطبة اللاتينية فالنوافذ مفتوحة . »

وفيما عدا دقات الأرغن ، وهتافات الجماهير وصياحهم بين كل فقرة وأخرى من فقرات الخطاب البليغ ، لم تجلب وقفة « جود » فى المطر إلى فهمه من اللاتينية المكتوب بها الخطاب أكثر من كلمة رنانة قرعت سمعه من حين لآخر بنهايتها المألوفة .

وتنهد بعـــد لحظة وقال : « حسن . إنى دخيل حتى نهاية أيامى ! والآن سأذهب يا عزيزتى الصابرة . كم كان لطيفاً منك أن تقضى فى المطر كل هذا الوقت لتهيئى لى فرصة إشباع ولهى ! ان أهتم بعد الآن بهذه البقعة الملعونة وأقسم بروحى على ذلك ! ولكن . ما الذى جعلك ترتعشين هكذا عندما كنا عند الحاجز ؟ وكم أنت شاحبة يا « سو ! » .

— « رأيت « ريتشارد » بين الجمع فى الناحية الأخرى » .

— « آه - حقا ؟ » .

— « من الواضح أنه جاء لمشاهدة الاحتفال مثلنا وعلى ذلك فمن المحتمل أنه يسكن مكانا لا يبعد عن هنا كثيراً . لقد كان دائماً يحس نحو الجامعة بنفس الحنين الذى تحس به أنت ولكن بصورة أخف . لا أظن أنه رآنى وإن كان لا بد سمعك وأنت تتحدث إلى الناس . ولكن لم يبد عليه أنه رآنى » .

— « حسناً . لنفترض أنه رآك . هل يخلو عقلك الآن من كل ما يتعلق به يا عزيزتى ؟ » .

— « نعم . أظن ذلك . ولكننى ضعيفة . وعلى الرغم من إدراكى أننا على صواب فى كل تصرفاتنا أحسست نحوه بنزع غريب ، برهبة أو برعب من تقاليد لا أومن بها . ينتابنى هذا الشعور من حين إلى آخر وكأنه نوع من الشلل يزحف إلى رويداً رويداً ويجعلنى حزينة للغاية ! » .

— « بدأت تتعبين يا « سو » . أوه ، نسيت أيتها العزيزة . هيا ! لا بد أن نرحل من هنا فى الحال لنفتش عن مكان ننزل فيه » .

وأخذا يفتشان عن مكان يقضيان فيه ليلتهما وأخيراً وجدا مكاناً بدا مناسباً لهما فى « ميلاو بولين » وهى بقعة لم يقو « جود » على مقاومة سحرها - وإن لم تكن كذلك بالنسبة لسو . والبقعة زقاق ضيق ملاصق لمؤخرة كلية جامعية ، ولكن ليس لها بها أى اتصال . أما المساكن الصغيرة فكانت معتمة كئيبة بتأثير الأبنية الجامعية العالية التى لا تمت الحياة بداخلها بأية صلة لحياة سكان الزقاق الضيق وكأن الحياتين ليستا فى كوكب واحد وإن لم يكن يفصلهما سوى سمك الحائط . وكانت كلمة « للإيجار » مكتوبة على منزلين أو ثلاثة فطرق القادمون باب أحدها ففتحت لهم سيدة وبدلا من أن يوجه « جود » حديثه إليها قال فجأة : « آه ! اسمعوا ! » .

— « ماذا ؟ » .

ـــ « ألا تسمعون الأجراس ! أية كنيسة هذه ؟ النغمات مألوفة ! » ،

وبدأت موجة أخرى من دقات الأجراس تقبل من مكان بعيد . وقالت صاحبة البيت فى حدة : « لا أدرى ! وهل طرقت لتسأل عن ذلك ؟ » .

قال « جود » وهو يعود إلى نفسه : « لا . إننا نسأل عن غرفة » .

وتفحصت السيدة شكل « سو » ثم قالت : « ليس لدينا ما نؤجره » . وأغلقت الباب . وبدا « جود » مغلوبا على أمره ، والطفل محزونا وقالت « ســـو » : « دعنى الآن يا « جود » أحاول . أنت تجهل الطريقة . ووجدوا مكاناً ثانياً لا يبعد عن الأول كثيرا ، ولكن هنا نظرت صاحبته لسو وللغلام وللطفلين الصغيرين وقالت فى أدب : « آسفة إننا لا نؤجر لمن لديهم أطفال » . وأغلقت الباب هى الأخرى .

وزمت الطفلة الصغيرة شفتيها وبكت فى صمت من شعور خفى بأن ثمة متاعب فى الأفق وتنهد الغلام وقال : « لا أحب «كرايستمينيستر» ! هل الأبنية العظيمة العتيقة سجون ؟ » .

وقال « جود » : « لا . بل كليات جامعية ومن الجائز أن تتعلم فيها فى يوم من الأيام » .

وأجاب الغلام : « أفضل ألا أفعل ! » .

قالت « سو » : « والآن سنحاول مرة أخرى . سأشد معطفى حول جسدى أكثر . إن مجيئنا من « كينيتبريدج » إلى هنا هو كالمستجير من الرمضاء بالنار ! كيف أبدو الآن يا عزيزى ؟ » .

قال جود : « لن يلاحظ أحد الآن ما بك » ،

وكان هناك منزل آخر فقاموا فيه بمحاولتهم الثالثة . كانت المرأة هنا أكثر لطفا ولكن لم يكن لديها مكان تستغنى عنه ووافقت فقط على إيواء « ســـو » والأطفال على أن يذهب « جود » إلى مكان آخر . لقد قبل هذا الوضع كأمر

لا مندوحة عنه خشية أن يمتد بهم البحث إلى ساعة متأخرة . واتفقوا معها على أجر الإقامة وعلى الرغم من أنه كان كبيرا بالنسبة لقدرتهم على الدفع ، لم يكن بوسعهم الاعتراض لئلا يتحرج الموقف قبل أن يتمكن « جود » من الحصول على مكان أكثر دواما . وفى هذا المنزل احتلت « سو » حجرة خلفية بالطابق الثانى وبداخلها مقصورة صغيرة الأطفال . وجلس « جود » وتناول قدحا من الشاى وأسعده أن يجد النافذة تطل على مؤخرة كلية أخرى . وبعد أن قبل الأربعة ، رحل ليأتى ببعض الضروريات وليبحث عن مكان لنفسه .

وعقب انصرافه صعدت صاحبة البيت للتحدث مع « سو » والتعرف شيئا عن ظروف الأسرة . ولم يكن لدى « سو » شىء من فن المراوغة فبعد أن روت عدة وقائع عما صادفهم أخيرا من متاعب وتشريد جفلت اسماعها صاحبة البيت تقول لها فجأة : « أحقاً أنت متزوجة ؟ » .

وترددت « سو » ثم قالت فى اندفاع إن كلا منهما كان تعسا فى الزواج الأول . ولرعبها من فكرة الامتزاج من جديد فى وحدة لا يمكن فصمها ، وخشية أن تطفىء شروط العقد حبهما ، ومع رغبتهما فى العيش سويا ، عجزا فعلا عن أن يجدا الشجاعة لتكرار الزواج على الرغم من أنهما حاولا ذلك مرتين أو ثلاثا . وعلى ذلك ، فعلى الرغم من أنها ، بالمعنى الذى فهمته ، اعتبرت نفسها امرأة متزوجة إلا أنها فى نظر صاحبة البيت لم تكن كذلك .

وبدا الحرج على صاحبة البيت فنزلت إلى الطابق السفلى ، أما « سو » فجلست بجوار النافذة ذاهلة ترقب المطر وقطع صمتها صوت شخص يدخل البيت وبعدها سمعت صوت رجل وامرأة يتحدثان فى الممر تحتها . وكان زوج صاحبة البيت قد وصل وهذه تشرح له ظروف مجىء المؤجرين أثناء غيابه .

وارتفع صوت الرجل فى غضب مفاجىء يقول : « والآن ، من يريد مثل هذه المرأة هنا ؟ قد تلد ! وفوق ذلك ألم أقل إنى لا أريد أطفالا ؟ القاعة والسلم غطيا حديثا بالطلاء ولا يجوز تعريضهما لعبثهم ! كان عليك أن تدركى أنهم فى

مأزق لمجيئهم على هذه الصورة . إنك قبلت أسرة بينما أوصيت بألا تقبلى سوى رجل بمفرده .»

واستطردت الزوجة فى دفاعها عن وجهة نظرها ولكن كما ظهر . أصر الزوج على رأيه إذ سرعان ما سمع الطرق على باب « سو » وظهرت المرأة .

قالت : « يؤسفنى أن أقول لك يا سيدتى إنى لا أستطيع أن أعطيك الحجرة الأسبوع كله . إن زوجى يعارض وعلى ذلك لا بد أن أطلب منك أن ترحلى . لا مانع فى بقائك الليلة فالوقت أصبح متأخرا ولكن يسرنى أن تستطيعى الرحيل فى الصباح الباكر . »وعلى الرغم من أنها عرفت أن من حقها البقاء أسبوعا ، لم ترد « سو » أن تثير نزاعا بين الزوجة والزوج فقالت إنها سترحل كما طلب منها . وعندما خرجت صاحبة المنزل أطلت « سو » مره أخرى . وحالما وجدت أن المطر قد توقف اقترحت على الصبى ، بعد وضع الطفلين فى الفراش ، أن يخرجا للبحث عن مكان آخر وحجزه للصباح التالى حتى لا يطاردوا بقسوة كما حدث لهم فى ذلك اليوم .

وعلى ذلك ، فبدلا من أن تفتح حقائبها التى كان « جود » أرسلها لتوه من المحطة ، تسللت مع الصبى إلى الطرقات الرطبة وإن لم تكن سيئة . كانت « سو » قد صممت ألا تزعج زوجها بنبأ مغادرتها المنزل الجديد فى حين يكون هو نفسه فى موقف حرج فيما يتعلق بمشوره على مكان يبيت فيه . وفى صحبة الصبى تجولت فى هذا الشارع وذاك . وعلى الرغم من أنها حاولت استئجار غرفة فى اثنى عشر منزلا إلا أنها صادفت من الصعاب ما فاق تلك التى قابلتها عندما كانت فى صحبة «جود» ولم تجد من يعدها بأن يؤجر لها حجرة فى اليوم التالى . وكانت كل صاحبة منزل تنظر نظرة فيها شك لامرأة وصبى يستفسران فى الظلام عن مأوى . وقال الغلام وقد أحاطت به المخاوف : «كان من الواجب ألا أولد . أليس كذلك ؟ » .

وأخيرا عادت « سو » وقد أنهكها التعب تماما ، إلى المكان الذى لا تجد فيه ترحيبا وإن كان على الأقل المكان الوحيد الذي تأوى إليه مؤقتا . وأثناء غيابها

ترك « جود » لها عنوانه ، ولكن لإدراكها مدى ما به من ضعف ، ظلت ثابتة على عزمها ألا تزعجه حتى اليوم التالى .

(٢)

جلست « سو » فى الغرفة تنظر إلى أرضها العارية ـ وكان المنزل أكبر قليلا من كوخ قديم داخل الحرم الجامعى ـ وانتقلت ببصرها إلى المنظر خارج النافذة العارية . وأمام «سو» بمسافة ، عكست الحوائط الخارجية لكلية «ساركوفاجوس» كل ما انطوت عليه قرونها الأربعة من كآبة وتزمت وقدموا ألقت به داخل الغرفة الصغيرة التى احتلتها وبذلك حالت دون دخول نور القمر بالليل وضوء الشمس بالنهار .

وإلى الوراء من تلك الكلية ، أمكن لسو أن تميز السمات العامة أيضا لكلية أخرى ثالثة . وفكرت فى التصرف العجيب الذى أوحت به العاطفة المتأججة فى قلب رجل بسيط العقل ـ تلك التى دفعت « جود » المتفانى فى حبها وحب الأطفال إلى أن يقودهم إلى هذه البقعة المقبضة لمجرد أنه ما زال واقعا تحت تأثير حلمه . وحتى الآن ، لم يكن سمع فى وضوح الرفض الجارح لرغبته التى سبق أن رددتها تلك الحوائط الجامعية .

وترك فشلهما فى الحصول على حجرة ، وعدم وجود مكان فى هذا المنزل ، أثراً عميقا فى نفس الغلام . بدا كأن رعبا مستترا سيطر عليه . وقطع الصمت المخيم عندما قال : « أماه . ماذا نفعل غدا ؟ » .

قالت سو فى يأس : « لا أدرى ! أخشى أن يسبب هذا ضيقا لأبيك » .

— « ليت أبى كان على ما يرام وله مكان بيننا !

— « ان الأمر لا يهم ! » .

— « هل أستطيع أن أفعل شيئا ؟ »

— « لا ! ليس أمامنا سوى المتاعب والشدائد والألم ! »

— « رحل أبى ليعطينا نحن الأطفال مكانه . أليس كذلك ؟ »

— « هذا جزء من الحقيقة . »

— « أن يكون المرء خارج الحياة أفضل من أن يكون داخلها . أليس كذلك ؟ »

— « نعم ، ياعزيزى . »

— « وبسببنا أيضا نحن الأطفال لاتستطيعين أن تجدى سكنا لائقا ؟ »

— « يعترض الناس على الأطفال فى بعض الأحايين . »

— « إذن لو كان الأطفال يسببون كل هذه المتاعب لمَ ينجبهم الناس ؟ »

— « أوه ، لأن هذا هو قانون الطبيعة . »

— « ولكننا لانطالب أن نولد ؟ »

— « لا . على التحقيق ! »

— « ومما يزيد الأمر تعقيداً بالنسبة لى أنك لست أمى الحقيقية وكان فى استطاعتك أن ترفضينى لولا أنك أردت ذلك . ما كان ينبغى أن آتى إلى هنا — تلك هى الحقيقة ! لقد سببت لهم المتاعب فى أستراليا وهأنذا أسبب لكم المتاعب هنا . ليتنى لم أولد ! »

— « لم يكن لك دخل فى ذلك ، أيها العزيز . »

— « أعتقد أنه عند ولادة الأطفال غير المرغوب فيهم لا بد من قتلهم فى الحال قبل أن تدب فيهم الروح ولا يسمح لهم أن يكبروا ويسعوا فى الأرض ! »

— ولم تجب « سو » كانت تفكر حائرة كيف تعامل هذا الطفل المغرق فى التأمل .

أخيرا قررت ، بقدر ما سمحت به الظروف ، أن تكون أمينة صريحة مع من شاركها متاعبها كأنه الصديق العجوز .

قالت فى تردد : « سيكون فى أسرتنا قريباً جداً شخص آخر » .

— « وكيف ؟ » .

— « سيكون لنا قريبا طفل آخر » .

وقفز الصبى فى فزع هائل وهو يقول : « ماذا ؟ » يا إلهى ! أماه ! ترغبين فى آخر بينما لديك كل هذه المتاعب بسبب ما عندك منهم ! » .

وترقرقت الدموع فى عينيها وغمغمت تقول : « نعم . أريده . ويؤسفنى هـــذا » .

وانفجر الصبى باكيا وهو يقول : « أنت لا تهتمين ، لا تهتمين ! » وأضاف مؤنبا : « كيف يمكن يا أماه أن تكونى هكذا شريرة قاسية فى حين أنك ما كان ينبغى أن تفعلى ذلك حتى تتحسن أحوالنا المالية ويستعيد أبى صحته ! هأنت ذى تلقين بنا كلنا إلى متاعب أخرى ! ها نحن أولاء هنا بلا مكان نأوى إليه ووالدنا مضطر للانفصال عنا ، وسنطرد غدا . ومع ذلك تنوين زيادة عددنا طفلا آخر حالا ! إنك تفعلين ذلك عامدة ! إنك ... إنك ... ! » وظل يسير فى الغرفة ذهابا وجيئة وهو ينتحب .

قالت تدافع عن نفسها وصدرها يعلو ويهبط فى انفعال يشبه انفعاله : « لابد أن تسامحنى . إنى عاجزة عن التفسير ولسوف أفعل عندما تكبر . يبدو كما لو كنت فعلت ذلك عامدة فى الوقت الذى تحاصرنا فيه المتاعب ! لا أستطيع التفسير أيها العزيز ! لم يحدث ذلك عن عمد — لم تكن لى حيلة فيه ! »

— « نعم . تعمدت ذلك ولا يمكن أن يكون غير ذلك ! ليس لأحد أن يتدخل فى حياتنا هكذا إلا بموافقتك . لن أسامحك ، أبدا ، أبدا ! لن أصدق أبدا أنك تهتمين بى أو بأبى أو بأى منا ! »

ونهض ثم اختفى فى المقصورة وكان بها فراش على الأرض وسمعته وهو يقول :

« لو ذهبنا نحن الأطفال من هنا فإن تكون هناك مشكلات بالمرة ! » وصاحت دون وعى منها : « لا تقل ذلك ياعزيزى ولكن اذهب ونم . »

وفى الصباح التالى استيقظت عقب السادسة بقليل وقررت النهوض قبل الإفطار لتسرع بالذهاب إلى الفندق الذى نزل فيه « جود » لتخبره بما جرى . ونهضت فى هدوء كى تتحاشى إزعاج الأطفال الذين كانوا قطعا يحسون بالتعب من أثر الإنهاك الذى أصابهم فى الليلة السابقة .

ووجدت « جود » يفطر فى المنزل الصغير الذى اختار السكنى فيه ليوفر أجر غرفتها المرتفع ، وهناك شرحت له حالة التشرد التى لابد أن تواجهها عقب طردها فقال إنه كان قلقا عليها طول الليل . ولما كان الوقت صباحا ، لم يبد طلب مغادرتها لمسكنها من الأمور المؤسفة كما بدا هكذا فى الليلة السابقة ، ولم يحزنها أنها فشلت فى الحصول على مسكن آخر كما حدث لها أولا . وكان « جود » متفقا معها على أن الأمر لا يستحق منها إصرارها على حقها فى البقاء أسبوعا ووجد أنه من الأوفق لها أن تتخذ الإجراءات العاجلة لمغادرة المكان .

قال « جود » : « لابد أن تجيئوا إلى هنا ليوم أو يومين . هذا المكان غير مريح ولا يناسب الأطفال ولكن سيكون أمامنا وقت أطول للبحث . وتوجد أماكن عديدة فى الضواحى — فى الحى القديم فى « بيرشيبا » . افطرى معى الآن بما أنك هنا ، ياعصفورى . هل أنت واثقة من أنك بخير ؟ سيكون لديك متسع من الوقت للعودة والإعداد لطعام الأطفال قبل استيقاظهم بل الواقع إننى سأذهب معك . »

وانضمت إليه فى وجبة سريعة ، وبعد ربع ساعة خرجا معاً لنقل أمتعتها بأسرع ما يمكن من البيت الذى رفض أهله إيواءها . وعندما وصلا إلى المكان وصعدت هى إلى الطابق العلوى ، وجدت أن كل شىء فى حجرة الأطفال هادىء تماما فأخذت تنادى على صاحبة البيت طالبة منها فى صوت مرتعش أن تتفضل بإحضار غلاية الشاى وشىء من الطعام لفطور الأطفال . وعندما أجابتها صاحبة

البيت إلى ماطلبت فى تراخ واضح ، أخرجت « سو » من جيبها بيضتين كانت قد أحضرتهما معها ووضعتهما فى الغلاية ، ثم نادت على « جود » ليقف بجوار النار حتى يتم نضج البيضتين فيقدمانهما الأطفال عند استيقاظهم فى حين راحت هى تناديهم وكانت الساعة قد أشرفت على الثامنة والنصف .

ووقف « جود » وقد انحنى فوق الغلاية وأمسك الساعة فى يده ليضبط بها الزمن الذى تنضج فيه البيضتان وكان بذلك يولى ظهره للحجرة الداخلية حيث يرقد الأطفال وهنا صدرت عن « سو » صرخة مفاجئة جعلته يستدير فى فزع . لقد رأى أن باب الحجرة ، وبالأحرى المقصورة الداخلية ، ـ وبدا كأنه تحرك بقوة على مفصله عندما دفعته إلى الداخل ــ قد فتح وأن « سو » انهارت على الأرض أمامه . وعندما أسرع ليساعدها على النهوض ، أدار عينيه جهة الفراش الصغير المنصوب على قوائم خشبية وهنا لم ير أثرا للأطفال . وفى حيرة أدار بصره فى الغرفة وفى ظهر الباب رأى خطافين لتعليق الملابس وقد تدلت منهما جثتا طفليهما الصغيرين بحبل ملتف حول عنق كل منهما بينما بالقرب منهما علق جسد « جود » الصغير من مسمار فى الحائط بنفس الطريقة . وبالقرب من الصبى رأى « جود » مقعدا مقلوبا ، كما رأى عينى الصبى الجاحظتين ومازالتا تشخصان فى اتجاه الحجرة ، بينما كانت عيون الطفل والطفلة مغلقتين .

وبتأثير الفزع الغريب القاتل الذى أصابه بالشلل ترك « ســـو » ممددة على الأرض وقطع الحبل بمطواة صغيرة وأتى بالأطفال الثلاثة على الفراش ، غير أن لمس أجسادهم فى لحظة الإمساك بهم دل على أنهم فارقوا الحياة . بعد ذلك أمسك « بسو » التى كان الإغماء ينتابها فى نوبات متتابعة ووضعها فى سرير فى الحجرة المجاورة بعد أن نادى فى أنفاس لاهثة على صاحبة البيت ثم جرى يبحث عن طبيب .

وعندما عاد ، كانت « سو » قد أفاقت من إغمائها ووجد المرأتين العاجزتين منحنيتين على الأطفال فى جهد يائس لإفاقتهم ، وكونت الأجساد الثلاثة الصغيرة منظرا أطاح بما لديه من ضبط النفس .

ودخل عليهما أقرب طبيب للبيت ولكن ، كما استنتج « جود » ، كان حضوره لاداعى له . كان الأطفال قد تعدوا مرحلة الإنقاذ إذ على الرغم من أن الأجساد الصغيرة لم تكن باردة تماما ، إلا أن الطبيب عرف أنها علقت فترة تزيد على الساعة . والاحتمال الذى رجحه الوالدان فيما بعد عقب أن أصبحا قادرين على التفكير الهادئ أن الصبى عندما استيقظ من نومه أخذ يتطلع بنظرة إلى نافذة الحجرة وهو يفتش عن « سو » . وعندما لم يجدها انتابته نوبة من اليأس العميق جعلت أحداث اليوم السابق تصيبه بمزاج معتل . وفوق ذلك ، عثروا فوق الأرض على ورقة مكتوب عليها بخط الصبى ، وكانت الكتابة بالقلم الرصاص الذى يحمله معه دائما : « عملتها لأننا أكثر مما ينبغى . »

وعندما رأت « سو » هذه الورقة انهارت أعصابها تماما وغمرها شعور فظيع بأن حديثها مع الطفل كان التسبب المباشر فى المأساة ودفعها ذلك إلى أن تقع فريسة لنوبات من الألم النفسى المرير الذى لا يمكن تهدئته . وعلى الرغم من معارضتها نقلوها إلى حجرة فى الدور السفلى من المنزل وهناك ظلت راقدة وجسدها النحيل يهتز بتأثير ما صدر عنها من زفرات متصلة وعيناها فى السقف محلقة وصاحبة البيت تبذل جهودا يائسة لتهدئتها .

من هذه الغرفة استطاعوا أن يسمعوا الناس وهم يسيرون فى الطابق العلوى فطلبت « سو » أن تعود إلى هناك ولم يقنعها بالبقاء فى مكانها إلا تأكيد السيدة لها بأنه لو كان هناك أمل ولو ضعيف فى إنقاذ الأطفال فإن وجودها لن يكون بذى نفع فى هذا المجال ، كما ذكرتها بواجبها فى المحافظة على نفسها لئلا تعرض حياة الجنين للخطر . وكان استفسارها لا ينقطع ، أخيرا نزل « جود » وأخبرها بأنه لا أمل يرجى فى إنقاذ أحد من الأطفال . وبمجرد أن أصبحت قادرة على الكلام ، أخبرته بما قالته للصبى وكيف أنها تعتقد أنها السبب فى ما حدث .

قال « جود » : « لا . لقد كان فى طبيعته أن يفعل هذا . يقول الطبيب هناك غلمان كجود الصغير يشبون وسطنا ولهم طبيعة لم نعهدها فى غلمان الجيل السابق .

هؤلاء هم نتاج فلسفة جديدة فى الحياة وهم يبدون كأنهم قادرون على إدراك أهوال الحياة قبل أن يبلغوا من السن ما يكسبهم القدرة على مقاومة هذه الأهوال. إنه يقول هذه بداية عهد جديد سوف يشمل العالم كله وفيه يعزف الناس عن الحياة .. هذا الطبيب شخص له تفكير متقدم ولكنه عاجز تماما عن تقديم أية تعزية لنا » .

كان « جود » قد كبت حزنه فى قلبه مراعاة لها ، ولكنه انهار الآن ودفع هذا « سو » إلى بذل الجهود لمواساته مما كان له بعض الأثر فى تخفيف ما أحست به هى من تأنيب شديد . وعندما انصرف الجميع سمح لها برؤية الأطفال .

كان وجه الصبى يعبر عن القصة الكاملة للمواقف التى مروا بها . وعلى جسده الصغير ارتسمت كل علامات سوء الطالع والظلال التى خيمت على زواج «جود» الأول وما دار حول زواجه الأخير من حوادث وما تخلله من أخطاء ومخاوف وذنوب كان المحور ، والبؤرة ، والتعبير الموجز . وبسبب تهور هذين الوالدين توجع ، ولعدم توافق امزجتهما اهتز . ومن عثراتهما قضى نحبه .

وعندما خيم السكون على المنزل ، ولم يكن بوسعهما أن يفعلا شيئا سوى الانتظار لما يتكشف عنه التحقيق القضائى . انتشر فى الغرفة صوت مكتوم ضخم خفيض من خلف الحوائط السميكة الواقعة وراء المنزل .

قالت « سو » وقد توقف تنفسها المرتبك : ما هذا ؟ » .

ـ « إنه صوت الأرغن فى كنيسة الكلية وأعتقد أن عازف الأرغن يقوم بالتدريب على هذا النشيد من المزمور الثالث بعد السبعين ويقول : « أحقا أحب الرب اسرائيل ؟ » .

وأخذت « سو » تبكى فى صوت مسموع مرة أخرى وقالت : « أطفالى ! أطفالى ! ما يحزننى هو أنهم لم يسيئوا لمخلوق قط ! فلم يؤخذون منى بينما أظل أنا على قيد الحياة ! » .

وخيم السكون مرة أخرى وفى النهاية قطعه شخصان يتحدثان فى الخارج .

وقالت « سو » فى صوت إلى الأنين أقرب :

إنهم ولا شك يتحدثون عنا لقد أصبحنا أمثولة أمام العالم وأمام الملائكة وأمام الناس . وأصاخ « جود » السمع ثم قال : « لا . إنهم لا يتحدثون عنا . إنهما اثنان من رجال الدين . مختلفان فى الرأى ويتناقشان فى «الموقف فى الشرق». يا إلهى ـ إنهما يتناقشان فى « الموقف فى الشرق » بينما الخليقة كلها تئن ! » .

وحل السكون ثانية ثم أصابت « سو » نوبة جديدة من الحزن لا يمكن السيطرة عليها فشرعت تقول : « ثمة شيء خارج عن إرادتنا يقول لنا دائماً لا ! ففى أول الأمر قال هذا الشيء : « لن تنالوا ما تبتغونه من علم ! » ثم قال : « لن تكونوا قادرين على العمل » . والآن ها هو ذا يقول : « لن تحبوا بعضكم بعضاً ! » .

وحاول أن يهدئ من ثورتها فقال : « هذا صدى ما فى نفسك من مرارة أيتها العزيزة » .

ـــ « ولكن هذه هى الحقيقة ! » .

على هذا الحال انتظرا وذهبت « سو » مرة أخرى إلى حجرتها وأصرت على أن تترك ثوب الطفل وحذاءه وجوربه كما هم وكانت كلها موضوعة على مقعد عندما فارق الحياة ، وذلك على الرغم من أن « جود » حاول جاهداً أن يخفى هذه الأشياء عن نظرها . وكلما هم بالاقتراب من هذه الأشياء كى يزيحها عن مكانها رجته فى حرارة أن يتركها فى مكانها ، بل إنها ثارت فى وجه صاحبة البيت عندما حاولت هى الأخرى أن تخفى عنها هذه الأشياء .

كان « جود » يخاف فترات الصمت التى مرت بها أكثر من نوبات الانفعال التى أصابتها من حين لآخر . وعقب نوبة من تلك صرخت تقول : « لم لا تتحدث إلى يا « جود » ؟ لا تهرب منى ! إنى لا أحتمل الوحدة التى تصيبنى عندما تحول نظرك عنى ! » .

— « جاء ذلك فى كورس مسرحية « أجاممنون » . لقد استقرت تلك العبارة فى ذهنى دائما منذ الحادث الذى وقع لنا أخيرا » .

— « جود » أيها المسكين إنك فقدت كل شئ ! لقد فقدت أكثر مما فقدت أنا إذ يكفينى أننى قد حصلت عليك ! ما أغرب أن تكون على هذه الدرجة من العلم والثقافة نتيجة لجهودك ، وعلى الرغم من ذلك يصبح الفقر والخيبـــة من نصيبك ! » ،

وعقب هذه الأحاديث كان حزنها يرتد إليها بكل عنف .

وأخيرا جاءت هيئـة التحقيق وألقت نظرة على الجثث ثم بدأت البحث والتحرى وبعدها جاء ذلك الصباح الحزين الذى حدد للجنازة . وعلى أثر ما نشرته الصحف من أوصاف للحادث جاء إلى المكان متسكعون فضوليون من كافة الأنواع وقفوا وكأنهم لا عمل لهم سوى أن يحصوا عدد النوافذ وأحجار الحوائط وزاد من فضول هذا الجمع ما أحاط بالعلاقة بين الأبوين من غموض . وعلى الرغم من أن «سو» حرصت على السير خلف جثث الأطفال حتى القبر ، إلا أن أعصابها انهارت فى اللحظة الأخيرة وخرجت النعوش من المنزل فى هدوء بينما نامت هى فى سريرها . واستقل « جود » العربة وحالما بدأت فى التحرك زال كثير من القلق الذى جثم على صدر صاحب البيت إذ لم يبق أمامه الآن سوى «سو» ومتاعها وكان يأمل فى التخلص من ذلك كله فى اليوم ذاته وبذلك يقضى قضاء تاما على ما أصاب بيته من سوء السمعة والضرر المدمر من جراء ما قامت به زوجته من السماح لأولئك الأغراب بالإقامة فيه . وفى أصيل نفس اليوم تشاور صاحب البيت مع مالك العقار واتفق الاثنان على أنه لو نشأت لدى الناس أية شكوك حول المنزل ولياقته بتأثير الفاجعة التى وقعت فيه ، فإنهما لا بد أن يحاولا تغيير رقمـــه .

وعندما تأكد « جود » من أن النعشين (وفى الأول جثة « جود » الصغير وفى الثانى جثتا الطفلين الصغيرين) قد ووريا التراب ، رجع مسرعا إلى « سو » ،

ولما وجدها نائمة فى حجرتها لم يشأ أن يزعجها . وبالنظر إلى قلقه عليها ، عاد ثانية ليطمئن عليها حوالى الساعة الرابعة وكانت صاحبة البيت تظن انها ما زالت ترقد فى حجرتها غير أن المرأة عادت إليه تقول إن « سو » ليست موجودة فى حجرة النوم وليس ثمة أثر لقبعتها أو معطفها مما دل على أنها تركت البيت . وأسرع إلى الخان الذى كان يبيع فيه ولكنه لم يجدها هناك . وحاول أن يفكر فى احتمالات أخرى فذهب إلى المقابر وهناك توجه رأسا إلى المكان الذى تمت فيه مراسيم الدفن وكان المتسكعون الذين اجتذبتهم المأساة إلى هناك تفرقوا الآن ولم يبق منهم أحد . كان هناك رجل بيده جاروف يحاول أن يهيل التراب على الأطفال الثلاثة وهناك أيضا امرأة مضطربة النفس تنذره وتحذره وتمسك بذراعه وهى تقف وسط الحفرة التى لم يتم ردمها بعد . ولم تكن المرأة سوى « سو » ترتدى ملابسها الملونة التى ما فكرت فى استبدالها بملابس الحداد التى أشتراها « جود » لها . فكانت تلك الملابس الملونة توحى بحزن أعمق كثيرا من ذلك الذى تثيره فى النفس الملابس السوداء التقليدية التى يلبسها الناس عندما يفقدون عزيزا لديهم . وعندما وقع نظرها على « جود » خرجت من الحفرة فى جنون وقالت : « إن هذا الرجل يهيل التراب على صغارى ولكننى ان أدعه دون أن أراهم مرة أخرى ! أود أن أراهم ! لم أكن أدرى أنك ستأخذهم منى هكذا بينما كنت نائمة ! لقد وعدتنى بأن تدعنى أراهم مرة أخرى قبل دفنهم ولكنك لم تف بوعدك بل انتزعتهم منى ! واحسرتاه يا « جود » إنك أنت أيضا تقسو على ! » .

قال عامل المقبرة : « تريد منى أن أفتح لها المقبرة مرة أخرى حتى ترى الجثث . من واجبك أن تأخذها إلى البيت إذ من الواضح أن هذه المسكينة لا تعى شيئاً . لا يمكننى أن أفتح المقبرة ثانية الآن يا سيدتى فعودى مع زوجك إلى المنزل واهدئى واشكرى الله على أنك سوف ترزقين قريباً بطفل يخفف من شدة حزنك عليهم » .

ولكنها ظلت تقول له فى استعطاف : « ألا يمكننى أن أراهم مرة أخرى — مرة واحدة فقط ! أريد أن أراهم دقيقة واحدة يا « جود » . ان يستغرق ذلك منى

وقتاً طويلا وأسوف يرعى ذلك كثيراً يا «جود» . سأطيعك دائماً ولن أخالف لك أمراً بعد اليوم . هلا سمحت لى بذلك يا «جود» ؟ سأعود فى هدوء إلى المنزل بعد ذلك ولن أطلب رؤيتهم بعد اليوم ! هلا أجبتنى إلى طلبى ؟ لم تمنعوننى من رؤيتهم؟ » .

وظلت على هذه الحال مما دعا « جود » إلى أن يحزن عليها حزناً شديداً جعله يفكر فى محاولة إقناع الرجل كى يفتح المقبرة ، ولكنه أدرك أن ذلك لا يجدى شيئاً بل قد يزيد من حدة حزنها واعتقد أنه لا مناص من أن يعود بها إلى المنزل فى الحال . وأخذ يتحايل عليها ويهمس لها فى رقة وهو يلف ذراعه حول وسطها ليسندها حتى رضخت واقتنعت بترك المقبرة .

لقد رغب فى أن يحصل على عربة ليعود بها إلى البيت ، ولكن لما كانت ظروفهما الاقتصادية دقيقة ، لامته على هذا التصرف وسارا سويا فى بطء وكان « جود » يرتدى ملابس سوداء بينما هى فى ملابس حمراء وعلى وجهها نقاب أسمر . وكانت خطتهما أن ينتقلا فى ذلك المساء إلى بيت جديد ، إلا أن « جود » لم يجد ذلك أمرا عمليا . وفى النهاية دخل البيت الذى أصبح الآن بغيضا إليهما . وآوت « سو » إلى فراشها دون إبطاء واستدعى الطبيب .

وانتظر « جود » طول الليل فى الطابق السفلى وفى ساعة متأخرة للغاية جاءه النبأ بأن طفلا ولد له قبل موعده وأن ذلك الطفل جاء كغيره جثة هامدة .

(٣)

وعلى الرغم من أن «سو» كانت تتمنى الموت من صميم فؤادها فقد أخذت تتماثل للشفاء كما حصل « جود » مرة أخرى على وظيفة فى صنعته القديمة وانتقل إلى مسكن جديد فى اتجاه « بيرشيبا » ولا يبعد كثيرا من كنيسة « الطقوس » المسماة بكنيسة « القديس سيلاس » .

وجلس الاثنان صامتين تروعهما نذر العداء المباشر الذى كانا يشعران به فى كل ما أحاط بهما أكثر مما روعهما جمودهما المعطل . كانت الخيالات الغامضة

والصور الغريبة تطارد « سو » فى الأيام التى أضاء فيها عقلها كنجم فرأت الحياة وكأنها مقطع شعرى أو أغنية عاطفية دبجت فى حلم . لقد بدت الدنيا شيئا رائعا حقا عندما تخضع لتفكير يتأرجح . أما فى اليقظة الكاملة فهى شىء سخيف لا يرجى له صلاح .

قالت فى حزن : « لا بد من الخضوع ! إن كل الغضب القديم للقوة العليا قد سلط علينا نحن مخلوقاتها الضعيفة ولا بد لنا من الاستسلام وما من فرصة للاختيار لا مناص من ذلك ! » .

قال : « إنها فقط حرب ضد الإنسان والظروف التى لا ذنب لها » وغمغمت تقول : « هذا حق ! ويحى فيم كنت أفكر ! أصبحت ممن يؤمنون بالخرافات كالمتوحشين من سكان الغابات ! ولكن مهما كان عدونا وكيفما كانت طبيعته فقد خضعت واستسلمت . لم تعد لى قوة أحارب بها وقد وهنت منى العزيمة وهزمت . لقد هزمت تماما ! ... » لقد أصبحنا مرثاة أمام العالم ، وأمام الناس ! إنى أردد ذلك الآن دائما » .

— « وأنا أحس بنفس الشعور ! » .

— « وماذا نفعل الآن ! إنك تجد الآن عملا ولكن تذكر أنك ستظل فيه طالما أن قصة حياتنا لا يعرفها إنسان . وبمجرد أن يشاع أن زواجنا لم يتم رسميا فسيطردونك من وظيفتك كما فعلوا فى « الدبركهام ! » .

— « لا أدرى على التحقيق ومن الجائز أنهم لن يفعلوا . ومع ذلك ، أعتقد أن الوقت قد حان لنجعل زواجنا رسميا وذلك بمجرد أن تصبحى قادرة على الخروج » .

— « تظن ينبغى ذلك ؟ » .

— « بالتأكيد » .

وأطرق مفكرا ثم قال : « بدوت أخيرا فى نظر نفسى وكأننى واحد من تلك الجماعة الكبيرة التى يتحاشاها الفضلاء من الناس ، تلك المسماة بجماعة المضللين

تدهشنى هذه الحقيقة كلما فكرت فيها ! لم أكن مدركا لها من قبل ، كما لم أدرك أننى أسأت إليك فى شىء إذ أننى أحبك أكثر من نفسى ، ومع ذلك لا أشك فى أننى أحد هؤلاء الرجال ! أحيانا أسائل نفسى هل من بين هؤلاء المضللين من هو ساذج قصير النظر مثلى ؟ أجل يا « سو » هذه هى حقيقتى . لقد خدعتك ! كنت دائما نموذجا ممتازا ، مخلوقة مهذبة أرادت لها الطبيعة ألا تمسسها يد . ولكننى لم أستطع أن أتركك وشأنك ! » .

قالت « سو » فى سرعة : « لا . لا يا « جود » ! لا تتهم نفسك بما ليس فيك . لو كان من يلام فأنا هى » .

« لقد أيدتك فى تصميمك على ترك « فيلوتسون » ولولاى من الجائز أنك ما كنت لتحثيه على السماح لك بالرحيل » .

— « كان لا بد أن أفعل هذا . أما عنا فإن عدم ارتباطنا بعقد قانونى هو الظاهرة المنقذة لوحدتنا . بهذه الطريقة تحاشينا تعريض الزواج الأول لكل منا للمهانة . ونظر إليها فى شىء من الدهشة إذ بدأ يدرك أنها ليست « سو » التى عرفها فى عهدهما الأول وقال : « أتقولين مهانة ؟ » .

قالت والكلمات ترتعش على شفتيها : « نعم إذ انتابتنى أخيرا مخاوف رهيبة ، شعور فظيع بالذنب لشناعة ما أقدمت عليه من تصرفات . تراودنى الآن فكرة أننى ما زلت زوجته ! » .

— « زوجة من ؟ » .

— « ريتشارد » .

— « يا إله السماوات والأرض . ولم هذا أيتها العزيزة ؟ » .

— « أوه . لا يمكننى التفسير الآن ! الفكرة فقط تراودنى » .

— « إنه ضعفك ـ خيال سقيم يخلو من التعقل أو المعنى ! لا تجعليه يزعجك » . وتنهدت « سو » فى قلق .

وبما خفف عليهما وقع هـــذه المناقشات، وما تثيره فى نفسيهما من ألم أن أوضاعهما المالية أصابها شىء من تحسن لو حدث لها فى مطلع حياتهما لأدخل عليهما البهجة إذ حصل « جود » فجأة على عمل دائم وثيق الصلة بمهنته القديمة وحدث ذلك بمجرد وصوله إلى « كرايستمينيستر » . وعاونه جو الصيف على استعادة صحته ومرت الأيام فى تشابه ممل وكان ذلك شىء يشكر الله عليه كثيراً بعد كل ما عاناه من تقلبات الأيام وما حملت له هذه من مفاجآت ، وبدا وكأن الناس نسوا تماما أنه كانت له فى يوم من الأيام انحرافات سيئة .

كان يصعد يوميا إلى مشربيات الكليات وعقودها العليا ولم يكن يسمح له بدخولها من قبل . وظل يقوم بتجديد الصخور المتداعية داخل النوافذ الصغيرة ذات العوارض الرأسية ، وطالما تمنى أن تسنح له فرصة الوقوف أمامها والتطلع منها ، وكان يقوم بعمله كما لو أنه الشىء الوحيد الباقى له فى الحياة .

هذا كل ما طرأ عليه من تغيير . وانشغل بعمله إلى حد أنه ما عاد يتردد على الكنائس ـ شىء واحد فقط أقلق باله أكثر من أى شىء آخر . ففيما يتعلق به وبسو ، ذهب كل منهما فى تفكيره فى اتجاه مضاد وبدأ ذلك منذ أن وقعت المأساة إذ بينما علمته الأحداث أن تكون نظرته إلى الحياة والقوانين والعادات والعقائد واسعة ، لم يكن لهذه نفس التأثير على « سو » وطريقة تفكيرها فى الحياة فلم تعد نفس المرأة أيام أن كانت حرة يجرى تفكيرها كالبرق الخاطف فى مجالات التقاليد والأوضاع الثابتة فى المجتمع ، تلك التى احترمها « جود » فى الماضى وأصبح الآن لا يؤمن بها .

وفى مساء معين من أمسيات الآحاد عاد « جود » متأخراً قليلا فلم يجد «سو» بالبيت ولم يطل غيابها إذ عادت لتوها وكانت تبدو صامتة مفكرة .

قال وعلى وجهه مسحة من الفضول : « فيما تفكرين أيتها المرأة الصغيرة ؟» .

ـــ « لا أستطيع أن أوضح فى دقة ! أعتقد أننا كنا طوال هذا الوقت على قدر كبير من الأنانية والتقصير . بل إننى أعتقد أننا من الملحدين المفرطين .

كانت حياتنا محاولة فاشلة لإرضاء نزواتنا ، غير أن إنكار الذات هو الطريق الأسمى . ينبغى أن نذل الجسد ـ ذلك المرعب ـ لعنة آدم ! » .

وغمغم يقول : « سو ! ماذا دهاك ؟ » .

ـــ « ينبغى أن نضحى بأنفسنا دائماً على مذبح الواجب ! لم أحاول فى الماضى إلا القيام بما يدخل السرور على نفسى . لقد استحققت ما أصابنى من كوارث ! ليتنى أستطيع أن أنزع من نفسى كل عوامل الشر وأن أقضى على كل ذنوبى وكل أساليب حياتى الخاطئة ! » .

ـــ « كم أنت تتعذبين أيتها العزيزة ! إنك لست بالمرأة الشريرة فغرائزك الطبيعية سليمة تماما ومن الجائز أنها ليست من النوع الملتهب كما كنت أتمنى ، ولكنها طيبة وغالية ونقية . وكما قلت دائما ، أنت أكثر النساء اللائى عرفتهن تجرداً من روح المادة وأقلهن شعورا بالجنس . لمَ تتحدثين بهذه الطريقة المختلفة؟ لم نكن أنانيين إلا عندما كانت فى أنانيتنا فائدة ، لإنسان . كنت عادة تقولين إن الطبيعة البشرية نبيلة وصابرة على الأسى وليست شريرة أو فاسدة . وأخيرا ظننت أنك تقولين الحق . أما الآن فتغيرت نظرتك وانعكست تماما . »

ـــ « أريد قلبا متواضعا وعقلا مطهرا ولم أحصل عليهما بعد ! »

ـــ « كنت شجاعة فى تفكيرك كما كنت كذلك فى إحساساتك واستحققت من الإعجاب أكثر مما أعطيتك . كانت نفسى مترعة بالعقائد الجامدة فعجزت حينئذ عن إدراك الحقيقة . »

ـــ « لا تقل ذلك يا « جود » ! ليتنى أستطيع أن أقتلع من حياتى كل كلمة شجاعة قلتها وكل فكرة جريئة خطرت لى ، بل إن إنكار الذات هو الآن كل شىء أفكر فيه ! ليتنى أستطيع أن أحتقر نفسى إلى أقصى حد . ليتنى أنخس جسدى بالإبر حتى يدمى فيزول ما بى من شر ! »

قال « جود » وهو يضم وجهها الصغير إلى صدره وكأنه يضم رضيعاً : « كفى !

إنه الحزن هو الذى صيرك هكذا ! مثل هذا التأنيب ليس لك ولا تستحقينه أيتها الزهرة الرقيقة بل إنه للحشرات الحقيرة التى تدب على الأرض وإنها لن تحس بذلك الذى تحسينه ! »

وبعد أن ظلت فى مكانها لحظة قالت : « ينبغى ألا أبقى هكذا ! »

— « ولِمَ لا ! »

— « أسمى ذلك انغماسا فى الملذات . »

— « مازلت على نفس النهج ! ولكن هل على الأرض ماهو أفضل من أن يحب أحدنا الآخر ؟ »

— « نعم يتوقف ذلك عن نوع الحب . إن حبك ـ حبنا ـ هو الخطأ . »

— « لن أسمح بأن تتفوهى بمثل هذا الكلام ياسو ! تعالى . متى ترغبين فى أن نذهب إلى إحدى الأبروشيات لنسجل فيها زواجنا ؟ »

وصمتت برهة ثم رفعت عينيها فى ضيق وهمست تقول : «كلا ! مطلقا . » ولما لم يدرك تماما معنى قولها قابل معارضتها فى تجهم وسكت . ومرت بضع دقائق اعتقد خلالها أنها نامت ولكنه تكلم فى لطف واكتشف أنها طول الوقت متيقظة أخيرا اعتدلت فى جلستها وتنهدت .

قال . « ثمة عطر عجيب يفوح منك الليلة ، بل ثمة جو لا يمكن وصفه يحيط بك يا « سو » . لا أقصد هذا العطر وذلك الجو اللذين يخلقهما التفكير والتعقل فقط بل العطر والجو اللذين تخلقهما الملابس . إنه نوع من الرائحة تشبه رائحة الخضروات أعرفها جيدا ولكننى لا أستطيع أن أذكرها . »

— « إنها بخور . »

— : « بخـــور ؟ »

— : « حضرت القداس فى كنيسة «القديس سيلاس» وتشبعت بالبخور . »

— : « أوه - « القديس سيلاس »

— : « نعم وإنى أذهب إلى هناك أحيانا . »

— : « حقا . وهل تذهبين إلى هناك ! »

— « كما ترى يا « جود » إنى أحس بالوحدة هنا فى أثناء النهار عندما تكون فى عملك وإنى أبقى هنا أفكر فى — أفكر فى — » . وتوقفت عن الكلام حتى يزول ما فى حنجرتها من حشرجة مفاجئة ثم استمرت تقول : « تعودت الذهاب إلى هذه الكنيسة فهى قريبة من هنا » .

— « أوه . حسن . بالطبع لا أعارض فى ذلك . كل ما هنالك أن هذا التصرف يبدو غريبا . أظن أنهم يدركون عند ما تكونين هناك أى نوع من الناس يصلى بينهم ! » .

— « ماذا تقصد يا جود » .

— « إنك ملحدة لو اردت الصراحة » .

— « لِمَ تؤلمنى هكذا أيها العزيز وأنا فى محنتى ! ومع ذلك أعلم أنك لا تقصد إيلامى ولكن ينبغى ألا تقول ذلك » .

— « لن أفعل . ولكننى أشعر بدهشة شديدة ! » .

— « حسن . أود أن أخبرك بشىء آخر يا « جود » . لن تغضب منى أليس كذلك ؟ فكرت طويلا فى الأمر بعد وفاة أطفالى . لا أظن أنه ينبغى أن أكون زوجتك أو أن أعيش معك على هذا الاعتبار بعد الآن » .

— « ماذا تقولين ؟ ولكنك زوجتى بالفعل ! » .

— « هكذا من وجهة نظرك أنت ولكن » .

— « طبعا كنا نخشى الطقوس الدينية ونفس الشىء كان يمكن أن يحدث لغيرنا ممن لهم نفس الظروف إذا كانت لديهم نفس الدواعى القوية للخوف إلا أن التجربة

أثبتت أننا أسأنا الحكم على أنفسنا وبالغنا فى تقدير مظاهر العجز فينا . إذا كنت قد بدأت تحترمين الشعائر الدينية وتقدسين الطقوس الكنسية كما يبدو هذا واضحا فإنى أعجب لأنك لا تطالبين بالتنفيذ فى الحال ؛ أنت زوجتى دون جدال يا « سو » ؛ زوجتى من جميع النواحى إلا من ناحية القانون . ماذا قصدت بالكلام الذى تفوهت به الآن ؟ » .

— « لا أعتقد أننى زوجتك ! » .

— « لا تعتقدين ذلك ؛ ولكن لنفترض أننا قمنا بمراسيم الزواج هل كنت فى هذه الحال تشعرين أنك زوجتى ؟ » .

— « لا . وحتى فى هذه الحال ما كنت لأشعر أننى زوجتك ، بل إن شعورى يكون أسوأ مما هو الآن » .

— « لِمَ كل هذا الالتواء والتناقض أيتها العزيزة ؟ » .

— « لأننى أخص « ريتشارد » .

— « آه ـ لقد نوهت لى من قبل عن هذا الوهم السخيف ! » .

— « كان ذلك مجرد شعور غامض فى نفسى ولكننى كلما تقدم بى الوقت أشعر أننى أكثر اقتناعا بأننى أخصه هو ولا أخص أحداً غيره » .

— « يا إلهى ! كم تغيرت ! » .

— « نعم . قد يكون الأمر كذلك ! » .

وبعد مرور عدة أيام ، وفى غسق أحدى الأمسيات ، كانا يجلسان فى نفس الغرفة الصغيرة فى الطابق السفلى عندما سمعا طرقا على الباب الأمامى لمنزل النجار حيث كانا يقيمان ، وبعد فترة قصيرة سمعا طرقا على باب حجرتهما نفسها وقبل أن يفتحا الباب تولى القادم هذا العمل بنفسه وظهرت أمامها امرأة تقول : « هل السيد » فولى « موجود ؟ »

وانتفضت « سو » و « جود » بينما أجاب الأخير بطريقة آلية يقول إنه موجود ولم يكن القادم سوى « أرابيلا » .

دعاها فى فتور إلى الداخل فدخلت وجلست على المقعد المجاور للنافذة وحينئذ استطاعا أن يريا هيئتها من خلال الضوء ولكنهما عجزا عن أن يريا فى وضوح ما يمكنهما من إدراك حقيقة هيئتها ومظهرها العام . غير أنه كان ثمة مايدل على أنها كانت تمر بظروف عسيرة إذ لم تكن مرتبة الهندام كما كانت فى حياة « كارتليت » .

وظل ثلاثتهم يحاولون الدخول فى حديث ثقيل على النفس يدور حول الفاجعة التى أحس « جود » أن من واجبه أن يحيطها علما بها فى أسرع وقت ممكن فكتب لها بذلك ولم ترد على خطابه . قالت : « لم أستطع أجىء لحضور الجنازة ، ومع ذلك إنى شاكرة لك دعوتى لحضورها . قد قرأت القصة كاملة فى الصحف وشعرت أن وجودى غير مرغوب فيه . لا . لم يكن باستطاعتى أن أحضر تشييع الجنازة . » وكررت ذلك وكان يبدو عليها العجز المطلق عن الوصول فى حديثها إلى قمة الفاجعة ، لذلك تعثرت الكلمات على شفتيها وخرجت كلمات متشابهة وأخذت تقول : « ولكننى سعيدة بعثورى على القبر . وبما أن هذه هى حرفتك يا « جود » فستتمكن من أن تقيم للأطفال المساكين لوحة أنيقة تكون شاهدا على قبرهم » .

وقال فى انقباض : « سأقيم لهم نصبا » .

ــ « كان الغلام ابنى ومن الطبيعى أن أشعر بالحزن لفقده » .

ــ « هذا ما أرجوه . أما نحن فقد شعرنا من ناحيتنا بذلك » .

ــ « أما الطفلان الآخران فلم أحزن كثيرا على موتهما لأنهما ليسا طفلاى وهذا أمر طبيعى » .

ــ « طبعا » .

وجاءت زفرة حارة من الركن الذى قبعت فيه « سو » واستمرت السيدة « كارتليت » تقول : « تمنيت دائما أن يظل طفلى معى وفى هذه الحال ما كان ليحدث ماحدث ! ولكننى لم أشأ طبعا أن انتزعه من زوجتك » .

وجاء صوت « سو » يقول : « إننى لست زوجته » .

ونزلت هذه الكلمات المفاجئة نزول الصاعقة على سمع « جود » .

وقالت « أرابيلا » : « أرجو المعذرة . تأكدى أننى لم أكن أعلم أنك لست زوجته ! » .

وأحس من صوت «سو» ونبرته الغريبة أن آراءها الجديدة تكمن وراء كلماتها ولكن هذه كانت بالنسبة لأرابيلا تتضمن من المعانى ما يفوق معناها الظاهر . وبعد أن أظهرت « أرابيلا » دهشتها لتصريح « سو » استجمعت قواها وظلت تتحدث فى بلادة متعمدة عن طفلها هى وحرصت على أن تظهر من أجله حزناً متكلفاً تستهدف من ورائه إراحة ضميرها المعذب لأنها لم تهتم به فى أثناء حياته أقل اهتمام . وأشارت إلى الماضى وعادت تستشهد بسو إلا أنها لم تتلق منها أى جواب إذ كانت هذه غادرت الغرفة دون أن يحس بها أحد . واستمرت « أرابيلا » تقول فى نغمة جديدة : « قالت إنها ليست زوجتك ! ما الذى يدعوها إلى مثل هذا القول ؟ » .

قال فى اقتضاب : « لا أستطيع أن أقول شيئاً » .

— « إنها زوجتك . أليس كذلك ؟ أخبرتنى ذات مرة أنها كذلك » .

— « إننى لا أعترض على ما قالته » .

— « آه . هذا حق ! على أى حال حان وقت رحيلى . سأقضى الليلة فى هذه الناحية وهذا ما جعلنى أرى من واجبى أن أحضر إليك لأراك بعد كارثتنا المشتركة . إنى أقيم فى نفس المشرب الذى عملت به كساقية وسأعود غداً إلى « الفردستون » . لقد عاد أبى أخيراً وأعيش معه الآن » .

قال دون أن يظهر شيئاً من الاهتمام : « وهل عاد من استراليا ؟ » .

— « نعم لم تسر الأمور سيراً مرضياً . لقد أمضى هناك أوقاتاً شديدة إذ ماتت أمى على أثر إصابتها بالدوسنطاريا — ماذا تسمون أنتم هذا المرض هنا ؟ —

وعاد والدى منذ مدة قصيرة ومعه اثنان من إخوتى الصغار واستأجر كوخا صغيرا بالقرب من منزلنا القديم وأنا الآن أعاونه فى إدارته » .

لقد كانت زوجة « جود » السابقة تتبع طريقة واحدة لا تتغير تبدو فيها وكأنها حسنة التربية حتى عندما غادرت « سو » المكان . لهذا لم تستمر الزيارة أكثر من بضع دقائق ظلت تتصرف خلالها فى احتشام . وعندما خرجت أحس بارتياح كبير فذهب إلى السلم ونادى على « سو » إذ كان قلقا عليها .

لم يسمع رداً على ندائه وقال النجار صاحب البيت إنه لم يرها . لقد شعر « جود » بالحيرة واستولى عليه الفزع لغيابها إذ كان الوقت متأخراً . ونادى النجار زوجته التى توقعت أن « سو » توجهت إلى كنيسة القديس سيلاس كعادتها فى الفترة الأخيرة .

قال « جود » . « هذا مستحيل . فالكنيسة مغلقة فى هذه الساعة من الليل » .

— « إنها تعرف الشخص الذى يحمل المفتاح وهى تحصل عليه كلما أرادت ذلك » .

— « كم من الزمن مر عليها وهى تتردد هكذا على الكنيسة ؟ » .

— « أظن بضعة أسابيع » .

وسار على غير هدى فى اتجاه الكنيسة التى لم يزرها منذ كان يسكن فى تلك الناحية قبل ذلك بسنوات عدة عندما كانت آراؤه أكثر تصوفا مما هى الآن . كانت البقعة مهجورة ولكن الباب كان مفتوحا فرفع المزلاج فى هدوء ودفع الباب خلفه ووقف فى الداخل ساكنا تماما . كان السكون المخيم يبدو وكأن صوتا ضعيفا يتخلله ويمكن تفسيره على اعتبار أنه تنفس أو نحيب وكان الصوت آتيا من الطرف الآخر للكنيسة . وعندما تحرك « جود » فى ذلك الاتجاه وسط الظلام الذى خفف من حدته ضوء الليل الضعيف المتسلل من الخارج تلاشى صوت أقدامه فى البساط السميك الذى فرشت به أرض الكنيسة .

استطاع جود أن يرى فى أعلى المنبر صليبا ضخما لاتينيا . كان فى حجمه يقرب من الصليب الحقيقى الذى فرض أن يكون هذا تذكارا له . كان الصليب معلقا فى الهواء بأسلاك رفيعة لا تراها العين ومرصعا بأحجار كريمة كبيرة الحجم تبرق فى خفوت لتعكس شعاعا من النور يتسلل من خارج الكنيسة إلى داخلها إذ كان الصليب يهتز يمينا ويسارا فى حركة لا تكاد تحس . وفوق الأرض هناك كومة من الملابس السوداء وهذه مصدر النحيب الذى سمعه . كان جسد «سو» هو الذى أمامه إذ كانت قد انبطحت بكل جسدها على الأرض .

وهمس يقول : «سو» ! .

وكشفت له عن وجهها فتلألأ فى الظلام شىء أبيض .

قالت فى حدة : « ماذا تريد منى هنا يا « جود » ؟ كان يجب عليك الا تحضر . أردت أن أكون وحدى ! لم تطفلت بالدخول إلى هنا ؟ » .

وأجابها معاتبا إذ أصيب فى صميم قلبه من لهجتها وقال : « كيف استطعت ان تسأليني هذا السؤال ؟ أنا الذى أحبك أكثر من نفسى — أكثر . أوه ، بل أكثر كثيرا من حبك لى ! ماذا دفعك إلى أن تتركينى وتأتى إلى هنا بمفردك ؟»

— « لا تؤنبنى يا « جود » فإنى لا أحتمل منك كل هـذا النقد . لطالما أخبرتك بذلك قبلا لا بد أن تقبلنى كما أنا . إنى شقية حطمنى ضلالى وشرودى ! لم أحتمل أن أرى « أرابيلا » فى بيتك فشعرت بالتعاسة المطلقة ورأيت ألا مفر من مجيئى إلى هنا . إنها تبدو وكأنها ما زالت زوجتك ويبدو « ريتشارد » وكأنه زوجى ! » .

— « ولكن لا أهمية لها بالنسبة لكلينا ! » .

— « نعم أيها الصديق ، إنهما كل شىء بالنسبة لنا . إنى أنظر إلى الزواج الآن نظرة مختلفة . لقد انتزع أطفالى منى ليعلمونى هذا ! إن قتل ابن « أرابيلا » لأولادى كان حكما صارما فالشرعى يقضى على غير الشرعى . ماذا أفعل ! إننى امرأة شريرة وإنى أحقر من أن أختلط بالآدميين العاديين » .

قال وقد أوشك على البكاء : « يا للهول ! من الظلم البالغ لك ومما لا يتفق وطبيعة الأمور أن تعانى من تأنيب الضمير على هذه الصورة الشاذة فى حين أنك لم ترتكبى خطأ ما ! » .

— آه ـ أنت لا تدرى ما أنا عليه من سوء ! » .

ورد عليها فى قوة وحماسة قائلا : « بل أعرف هـــذا جيدا ! أعرفه بكل جزئياته وتفصيلاته . لقد جعلتنى أكره المسيحية كنظام كهنوتى ، والمسيحية كأسلوب من أساليب التصوف وغير ذلك من الأسماء والصور إن كان ذلك هو مصدر النكسة التى حلت بك . ما أعجب أن تنزل امرأة بنفسها إلى هذا الحضيض ـ امرأة لها من شاعرية النفس وعمق البصيرة وصفاء الجوهر ما يجعلها أمنية كل قلب وأنشودة كل إنسان بحيث تشعر نفوس عقلاء الدنيا بالفخر لمعرفتها ! يسعدنى كثيرا أننى أصبحت بعيدا كل البعد عن أمور الدين فيا لفرحة نفسى لو كان الدين يفسدك على هذه الصورة ! ! » .

— « أنت حانق على يا « جود » وتعاملنى بقسوة ولا ترى الأمور على حقيقتها » .

— « إذن تعالى إلى البيت معى أيتها العزيزة وحينئذ ربما أغير رأيى . لقد ثقل على الحمل وما أنت ذى أيضا أصابك التفكك . » ولف ذراعه حول خصرها ثم أنهضها من فوق الأرض ولكنها فضلت أن تسير دون مساعدته . وقالت فى صوت رقيق حلو فيه رجاء : « إننى لا أكرهك يا « جود » بل أحبك كما كنت دائما . كل ما هنالك أننى يجب ألا أحبك بعد الآن . نعم . يجب ألا أحبك بعد الآن ! » .

— « لا أستطيع أن أصدق ذلك » .

— « ولكننى انتهيت إلى قرار وهو أننى لست زوجتك ! إننى أخصه هو . لقد ارتبطت به ارتباطا مقدسا مدى الحياة ولا يمكن أن يحل شىء هذا الرباط » .

— « ولكننا بالتأكيد زوج وزوجة لو كان ثمة وضع كهذا فى العالم . إنه زواج يمت للطبيعة ذاتها بأقوى الأسباب ويتفق كل الاتفاق مع قوانينها » .

— « ولكنه ليس زواج السماء . لقد عقد لى هناك زواج آخر سجل تسجيلا أبديا فى كنيسة « ميلشيستر » . »

— « سو . سو . إن عذاب الحزن هو الذى أوصلك إلى هذه الحالة التى لا تخضعين فيها للمنطق أوالعقل فبعد أن أقنعتنى برأيك فى أمور كثيرة أجدك الآن أصبحت لجأة وقد داخلتك الشكوك فى صحة أوضاعنا دون سبب واضح وهأنت ذى تعزين إلى كل ما قلته وآمنت به من قبل لمجرد العاطفة الطارئة ! . إنك بذلك تقضين على كل ما تبقى فى نفسى من حب للكنيسة أو احترام لتعاليمها بصفتى تابع قديم من أتباعها المؤمنين . إن مالا أستطيع أن أفهمه فيك هو تنكرك العجيب لمبادئك الأصيلة التى درجت عليها والطريقة تفكيرك القديمة . هل جميع النساء هكذا أم أن هذا عيب فيك خاصة ؟ هل المرأة وحدة مستقلة فعلا أم أنها مجرد كم ضئيل لاقيمة له بمفرده ؟ كم ناديت بأن الزواج ماهو إلاعقد قبيح ـ وإنه لكذلك فى رأيى ـ وكم عارضت فيه بكل قواك وأظهرت ما ينطوى عليه من عيوب ! كنا فى الماضى سعداء تماما ولا أرى سببا يحول دون ذلك الآن . إننى فى ظلام ولا أفهم شيئا مما يحيط بى ! » .

— « آه أيها العزيز « جود » . مرجع ذلك هو أنك كالأصم الذى يرقب الناس وهم يستمعون للموسيقى فيقول فى نفسه : « ماذا يرقبون ؟ ليس ثمة ما يرقبونه ، بيد أن الواقع هو أن ثمة شيئا يرقبونه » .

— « فى قولك هذا قسوة وهو لا ينطبق على حالتى . لقد حررت نفسك من الأفكار القديمة والعادات البالية كما علمتنى كيف أفعل ذلك . والآن هأنت ذى تعودين إلى الوراء وتعارضين نفسك . أعترف بأننى كنت مخطئا خطأ جسيما فى تقدير مزاياك » ،

— « يا صديقى العزيز ويا صديقى الوحيد لا تكن قاسيا فى حكمك على !

ليس فى يدى أن أهرب من طبيعتى . إنى مقتنعة بأننى على حق . بل إننى على ثقة بأنى أرى النور أخيرا ، ولكن ويحى ! كيف أستطيع أن أفيد من هذا النور ! » .

وسارا سويا حتى أصبحا خارج البناء . وعندما عادت لتعيد إليه المفتاح قال وقد خالجه قدر ضئيل من الأمل وخاصة عندما وجد نفسه فى الطريق العام المفتوح أمامه : « أيمكن أن تكون هذه هى الصبية ، نفس الصبية التى جلبت صور عهود الوثنية وتماثيلها إلى هذه المدينة المتعمقة فى المسيحية ؟ أيمكن أن تكون هى نفس الصبية التى سخرت من الآنسة « فنتوفر » عندما داست بكعب حذائها هذه التماثيل ؟ أيمكن أن تكون هى التى قرأت للمؤرخ «جيبون» وحفظت أشعار « شيللى » ودرست فلسفة « جون ستيوارت ميل » ؟ أين أنت أيها العزيز « أبولو » وأنت أيتها العزيزة « فينوس » الآن ! » .

قالت وهى تنتحب : « لا ، لا — لا تكن شديدا على هكذا سيما وأننى أشعر الآن بالتعاسة . إننى لا احتمل ذلك ! كنت خاطئة فلا أستطيع الآن أن أقارعك الحجة ولقد أخطأت عندما تعاليت فى غرور ! لقد وضعت عودة « أرابيلا » نهاية لكل شىء . لا تلومنى فلومك يحز فى نفسى كالسكين ! » وألقى « جود » بذراعيه حول جسدها واحتواها بكلتا يديه وظل يقبلها فى قوة وحرارة قبل أن تتمكن من منعه . وظلا يسيران حتى وصلا إلى نزل صغير فقالت وهى تكبت فى عينيها الدموع : « هل تمانع فى أن تحصل لى على سكن هنا ؟ » .

— « سأفعل لو كانت هذه حقا رغبتك . ولكن هل هذه رغبتك حقا ؟ دعينا نسير حتى باب البيت وهناك سأحاول أن أفهمك أكثر » .

وعاد الاثنان إلى حيث يقطنان . وقالت إنها لا ترغب فى تناول العشاء وصعدت فى الظلام إلى الدور العلوى وأضاءت النور وعندما استدارت وجدت أنه لحق بها وكان يقف عند باب الغرفة فاتجهت إليه ووضعت يدها فى يده وقالت : « أسعدت مساء » .

— « ولكن يا « سو » . ألا نعيش سويا هنا ؟ » .

— وعدت أن تفعل ما أطلبه منك ! » .

— « والآن قد أكون أخطأت عندما ناقشتك دون مراعاة للذوق السليم . قد يكون من الأوفق لنا أن نفترق طالما أننا لم نتمكن من عقد زواجنا بأمانة فى أول الأمر بالطريقة التقليدية القديمة . قد لا يكون العالم على درجة من التنور تكفى لتفهم تجربة كتجربتنا ! ومن نكون نحن حتى يخيل إلينا أننا نستطيع أن نكون الطليعة فى هذا الميدان ! » .

— « يسعدنى على كل حال أن تدرك كل هذا الآن . لم آت ما أتيته قط عامدة . لقد أنزلقت وسقطت بدافع من الغيرة والانفعالات العنيفة » .

— « ولكننى لا أشك أن الحب كان من بين الدوافع . ألم تحبينى ؟ » .

— « نعم أحببتك ولكننى وددت أن يقف الأمر عند هذا الحد وأردت أن نبقى مجرد اثنين تعاهدا على الحب » .

— « ولكن المحبين لا يمكن أن يظلوا هكذا مدى الحياة » .

— « النساء يمكنهن ذلك أما الرجال ، فلا ، لأنهم لا يريدون أن يظلوا هكذا . إن المرأة العادية لتسمو على الرجل العادى فى هذا المقام إذ أنها لا تلبى نداء الغريزة بل تتجاوب مع العاطفة فحسب . كان ينبغى علينا أن نعيش فى وحدة ذهنية ولا نعدو ذلك قط » .

— « كنت أنا السبب فى هذا التغيير المشئوم كما قلت ذلك قبلا : حسن لك ما تشائين ! ولكن الطبيعة البشرية لا يمكن إلا أن تكون هى الطبيعة البشرية » .

— « نعم هذا بالضبط ما ينبغى أن نتعلمه ـ والذى يجب أن نتعلمه هو ضبط النفس » .

— « أكرر هنا لو كان أحدنا هو الملام لكنت أنا وليس أنت » .

— « لا . بل أنا الملامة . كل ذنبك أنك خضعت للطبيعة . وليس ذلك إلا تعبيرا عن رغبة الرجل فى امتلاك المرأة وهذا تعبير طبيعى للغاية . أما خطيئتى فلم يكن أساسها الرغبة المتبادلة حتى دفعنى الحسد إلى التفوق على « أرابيلا » . قلت لنفسى ينبغى من باب الإحسان أن أدعك تقترب منى وأعتقدت أن من الأنانية اللعينة أن أعذبك كما عذبت من قبل صديقى الأول . غير أننى ما كنت لأستسلم لك لو لم تقض على مقاومتى بتهديدى بالعودة إليها . لنكف عن الكلام فى هـــذا الموضوع الآن ! هلا تركتنى لحظة بمفردى ؟ » .

وانفجر « جود » يقول : « نعم . ولكن يا « سو » ، يا زوجتى — وأنت كذلك أمامى وأمام الله ! لقد كان تعذيبى لك من قبل فى مكانه ! أنت لم تحبينى قط بالقدر الذى به أحببتك . أبدا ، أبدا . ليس قلبك عامرا بالحب بل إن قلبك لا يحترق بعاطفة الحب ! أكاد أقول إنك تنتسبين لعالم الجن وليس لعالم الإنسان ! » .

— « إننى لم أحس نحوك بالحب فى بادئ الأمر يا « جود » . إننى أعترف لك بذلك . عندما عرفتك لأول مرة أردت منك فقط أن تحبنى . لم أقدم على التقرب منك وإثارة عاطفتك نحوى ولكن الحنين الغريزى الذى يهـــدم خلق بعض النساء — وليست العواطف الجامحة — الحنين لجذب الانتباه ثم الاستئثار بالشخص كله دون اعتبار للضرر الذى قد يصيبه : هو الذى سيطر على تصرفاتى . وعندما وجدت أننى أوقعتك فى حبائلى شعرت بالخوف بعد ذلك ، ولا أدرى كيف حدث ذلك ، لم أطق أن أتركك ترحل عنى إذ ربما ذهبت إلى « أرابيلا » مرة أخرى وعلى ذلك دُفعت إلى حبك دفعا . ولكن ها أنت ذا ترى أنه مهما انتهى الأمر بنا إلى الحب الصادق إلا أن حب الذات والقسوة والرغبة فى أن أجعل قلبك يتعذب من أجلى دون أن يتعذب قلبى من أجلك كانت هذه كلها هى البداية » .

— « والآن ها أنت ذى تزيدين من قسوتك بهجرك إياى » .

— « آه . نعم ! كلما تعثرت فى تصرفاتى زاد الضرر الذى أوقعه بالآخرين » .

— « وا أسفاه يا « سو » . قال « جود » ذلك وقد تملكه شعور بالخطر

المفاجىء فاستمر يقول : « لا تفعلى شـــيئا ينافى المبادىء الأخلاقية لأغراض أخلاقية . لقد وجدت فيك خلاصى الاجتماعى فابقى معى بحق الإنسانية ! أنت تدركين أى شخص ضعيف أكون . إنك تعرفين العدوين اللدودين اللذين أعانى منهما كثيرا وهما ضعفى حيال النساء وانغماسى فى الشراب . لا تتركينى وحيداً لا لشىء إلا لتنقذى نفسك فألجأ إلى هذين العدوين يا « سو » لقد ابتعدت عن هذين العدوين طالما كنت، أنت ملاكى الحارس ! منذ أن كنت لى تمكنت من اجتياز هذه التجارب دون خطر الوقوع فريسة لها . ألا تساوى سلامتى تضحيتك ببعض هذه المبادىء الجامدة ؟ إننى فى رعب الآن — لو هجرتنى — تتكرر معى مأساة الخنزير الذى عاد يتمرغ فى الوحل بعد أن اغتسل ! » . وانفجرت « سو » فى البكاء وقالت : « ولكن يجب ألا تفعل ذلك يا « جود » ! إنك لن تفعل ذلك ! صلّ من أجلى صباحا ومساء ! » .

وقال فى نغمة رقيقة : « لا تشغلى بالك من ناحيتى ولا تحزنى . لقد قاسيت ويشهد الله على ذلك . قاسيت بسببك فى الماضى وها أنذا أعانى من جديد . لكن قد يكون ما أقاســيه الآن أقل مما تقاسينه فالمرأة هى التى يصيبها الضرر الأكبر فى النهاية » .

— « هذا صحيح » .

— « إلا إذا كانت المرأة لا قيمة لها على الإطلاق وتستحق الاحتقار . فى هذه المرة ليس الأمر كذلك على كل حال ! » .

وتنفست « سو » فى ارتباك مرة أو مرتين ثم قالت : « أخشى أن يكون الحال كذلك هذه المرة أيضا ! والآن يا « جود » أسعدت مساء ، أرجوك ! » .

— « هل يجب ألا أبقى ؟ حتى ولا مرة واحدة فقط ؟ مرة كالمرات العديدة السابقة ؟ واحسرتاه يا « سو » يا زوجتى ! لم لا تسمحين لى بذلك ؟ » .

— « لا . لا . إننى لست بزوجتك ! إننى بين يديك الآن فلا تحاول إغرائى بالبقاء بعد أن سرت كل هذه المرحلة ! » .

— « هذا حسن للغاية . إننى طوع أمرك وإنى مدين لك بهذه الطاعة أيتها العزيزة وذلك مقابل تقصيرى فى طاعتك فى مبدأ الأمر . يا إلهى كم كنت أنانياً ! ربما — ربما — أفسدت حالة من أسمى حالات الحب وأنقاه . والآن لننفصل كما أردت وليذهب كل فى طريقه ابتداء من هذه اللحظة » .

وذهب « جود » إلى السرير وأمسك بإحدى الوسادتين اللتين كانتا فوقه وألقى بها على الأرض .

ونظرت « سو » إليه وانحنت فوق حافة السرير وبكت وهى تغمغم فى نبرات متقطعة : « إنك لا ترى أنها مسألة ضمير بالنسبة لى وليست نتيجة كره لك وإنى أقول ذلك مرة أخرى ، غير أنى لا أستطيع أن أزيد على ذلك حرفا . إن قلبى لينفطر حزنا وأخشى أن يقضى ذلك على كل ما بدأته » .

قال وهو يستدير ليترك الغرفة : « أسعدت مساء » .

فقالت وهى تنتفض فى مكانها : « ولكن أرجوك أن تقبلنى ! إننى لا أقوى على احتمال — ! » .

واحتضنها وقبل وجهها الباكى كما لم يفعل من قبل وظلا صامتين حتى قالت : « إلى اللقاء ! إلى اللقاء ! » ودفعته عنها فى رفق لتحرر نفسها من قبضته وحاولت أن تخفف من وطأة حزنهما فقالت : « سنظل دائما أصدقاء أعزاء على الرغم من كل شىء . أليس كذلك ؟ سيرى كل منا الآخر من حين إلى حين . نعم وسننسى كل هذا ، وسنحاول أن نعود إلى ما كنا عليه قبلا » .

ولم يسمح لنفسه بالكلام ولكنه استدار وهبط السلم .

(٤)

فى « ميريجرين » عاش الرجل الذى شرعت « سو » الآن تنظر إليه فى صميم نفسها على اعتبار أنه الزوج الذى ليس لرابطته معها انفصام . وفى اليوم السابق على فاجعة الأطفال ، رآنا « فيلوتسون » وهى تقف مع « جود » تحت وابل

المطر فى « كرايستمينيستر » وهما يشاهدان الموكب الجامعى . غير أنه حينئذ لم يذكر شيئا لرفيقه « جيلنجهام » الذى ، لكونه صديقا حميما له ، أقام معه فى القرية سابقة الذكر وهو الذى اقترح الرحلة إلى « كرايستمينيستر » .

قال « جيلنجهام » : « فيم تفكر ؟ فى الدرجة الجامعية التى لم تتمكن من الحصول عليها ؟ » .

قال « فيلوتسون » فى غلظة : « لا . بل أفكر فى شخص معين رأيته اليوم » . وبعد لحظة صمت قال : « أفكر فى « سوزانا » .

— « رأيتها أنا أيضا » .

— « لم تقل شيئا » .

— « لم أشأ أن أوجه انتباهك إليها . ولكن بما أنك رأيتها فعلا كان الواجب يقضى بأن تقول : « كيف حالك يا من كنت يوما عزيزة ؟ » .

— « كان هذا واجبا . ولكن ما رأيك فى أننى كنت متأكدا من أنها بريئة عندما طلقتها وأننى كنت مخطئا تماما . نعم بكل تأكيد ! هذا قبيح أليس كذلك ؟ » .

— « حرصت منذ ذلك الحين على أن تعوضك . ظاهريا على أى حال » .

— « هذه سخرية رخيصة . كان الواجب أن أنتظرها بكل تأكيد » .

وفى نهاية الأسبوع عندما عاد « جيلنجهام » إلى مدرسته بالقرب من « شاستون » ذهب « فيلوتسون » إلى سوق « الفردستون » كما هى عادته وهو يفكر ويعيد التفكير فيما أنبأته به « أرابيلا » فى أثناء هبوطه التل الذى عرفه جيدا قبل « جود » وإن كانت قصته هو تركت فى هذا التل أثرا يفوق ذلك الذى تركه « جود » فيه . وحالما وصل « فيلوتسون » إلى البلدة اشترى كعادته الصحيفة اليومية . وعندما جلس فى حان صغير ليشرب ما ينعشه بعد أن سار على قدميه خمسة أميال أخرج الجريدة من جيبه وبدأ يقرأ وهنا وقعت عيناه على : « انتحار

عجيب لأطفال بناه » . ولكونه بطيء التأثر آلمه الحادث وحيره لدرجة ليست بالقليلة لأنه لم يستطع أن يدرك السن التى ذكرتها الجريدة على أنها سن الغلام الأكبر . ومع ذلك لم يكن هناك شك فى أن كلام الجريدة كان حقيقيا بطريقة أو بأخرى .

قال وهو يفكر فى « سو » وفيما ربحته من تركها إياه : « أمتلأ الآن كأس احزانهما ! » .

ولما كانت « أرابيلا » استقرت فى « ألفردستون » ، وبسبب ذهاب المعلم إلى السوق كل سبت ، لم يكن عجيبا أن يتقابلا مرة أخرى بعد أسابيع قليلة عقب عودتها مباشرة من « كرايستمينيستر » حيث مكثت أطول مما انتوت وذلك لترقب « جود » بعين والهة على الرغم من أنه لم يرها فى تلك الأثناء . كان « فيلوتسون » فى طريق عودته عندما قابل « أرابيلا » وهى تقترب من البلدة

قال : « إنك تحبين السير فى هذا الطريق أيتها السيدة « كارتليت » أليس كذلك ؟ » .

قالت : « بدأت ذلك الآن مرة أخرى . إنه المكان الذى عشت فيه فتاة وزوجة وكل ماضى حياتى يحلوه امتزج بهذا الطريق . هذا الماضى تحرك فى نفسى أخيرا إذ زرت « كرايستمينيستر » . نعم رأيت « جود » . »

— « آه ! وكيف يتحملان مصابهما الأليم ؟ » .

— « بطريقة غاية فى العجب ـ غاية فى العجب حقا ! إنها لا تعيش معه الآن . علمت ذلك كحقيقة واقعة قبل عودتى من هناك مباشرة وأدركت هذا التحول من ملاحظة سلوكهما عندما زرتهما » .

— « لا تعيش مع زوجها ؟ عجبا ! أعتقدت أن الكارثة لا بد أن تقوى ما بينهما » .

— « إنه ليس بزوجها على أى حال . إنها لم تتزوجه بالفعل على الرغم من

أن الناس يظنون أنهما زوجان منذ فترة طويلة ، وبدلا من أن تجمعهما هذه المأساة فيسرعان بالزواج وينتهيان منه بالطريقة الشرعية المألوفة انتابتها موجة من التدين العجيب ، كما فعلت أنا عندما فقدت « كارتليت » . غير أن تعلقها بالدين هو من نوع أكثر جنونا . تقول ـ حسبما سمعت ـ إنها ما زالت زوجتك أمام السماء وفى نظر الكنيسة ـ زوجتك وحدك ولا يمكن أن تكون زوجة لأى رجل آخر » .

ـــ « حقا ؟ انفصلا ! » .

ـــ « كان الولد الأكبر كما تعلم ولدى ـ » .

ـــ « عجبا ! ولدك ؟ » .

ـــ « نعم ذلك المسكين الصغير . جاء نتيجة لزواج شرعى تماما وأحمد الله على ذلك . أظن أنها تحس ـ قبل أى شىء آخر ـ أننى أنا التى كنت أستحق أن أكون فى مكانها » لكننى غير متأكدة من ذلك . أما عنى فاننى سأرحل قريبا من هنا فلى أب يجب أن أرعاه ولا يمكننا أن نعيش فى مكان صاخب كهذا . آمل قريبا أن أجـــد عملا كساقية فى إحدى حانات « كرايستمينيستر » أو فى بلدة كبيرة أخرى » .

وافترق الاثنان وبعد أن سار « فيلوتسون » بضع خطوات توقف ثم عاد وناداها .

ـــ « ماذا كان ، أقصد ، ما هو عنوانهما الآن ؟ » .

وأخبرته « أرابيلا » بالعنوان .

ـــ « أشكرك . أسعدت مساء » .

وابتسمت « أرابيلا » ابتسامة رهيبة فى حين استمرت فى سيرها وأخذت تتسلى باستعراض خطواتها طول الطريق ابتداء من الأشجار الضخمة حتى بيوت الصدقة الواقعة عند أول شارع فى البلدة .

وفى تلك الأثناء كان « فيلوتسون » يسير صعدا فى اتجاه « ميريجرين » . ولأول

مرة خلال فترة طويلة عاش وعينه على الغد . وعندما كان يمر تحت الأشجار الكبيرة وسط البقعة الخضراء المؤدية إلى المنزل المتواضع الملحق بالمدرسة ، توقف هنيهة وتخيل « سو » وهى تخرج من البيت لملاقاته . ما من رجل ، مسيحيا كان أو وثنيا ، تعذب بسبب حبه للخير أكثر من « فيلوتسون » عندما سمح لسو أن تتركه وتذهب . لقد جاءته اللطمات من حراس الفضيلة وانهالت عليه من كل ناحية بدرجة فاقت قدرة البشر على التحمل كما عاش فى فقر مدقع إذ لم يتبق له من مال سوى دخله الضئيل من مدرسة القرية (حيث عانى قسيسها من عداء الناس لمصادقته إياه) . وكثيرا ما فكر « فيلوتسون » فيما قالته « أرابيلا » من أنه كان ينبغى أن يكون أكثر شدة فى معاملته لسو ، وكيف أن روحها العنيدة كانت لابد أن تهزم فى النهاية . إلا أن عدم اكتراثه برأى الآخرين ، هذا الذى كان يقوم على غير أساس من المنطق السليم ، بل الذى قام على العناد وإهمال المبادىء التى نشأ عليها ، كل ذلك بالإضافة إلى اعتقاده الراسخ بصواب تصرفه حيال زوجته هو الذى حال بينه وبين تغيير أسلوب معاملته لها .

إن المبادىء التى يمكن للشعور أن يوجهها فى اتجاه معين ، يمكن أن تتعرض لمثل هذه الكارثة فى اتجاه آخر . فالدوافع التى دعته إلى أن يمنح « سو » حريتها ، هى نفسها التى جعلته يحمل عليها فى قرارة نفسه لحياتها مع « جود » . لقد كان « فيلوتسون » لا يزال بطريقته العجيبة يتمناها ، وإن لم يرق هذا التمنى إلى درجة الحب وسرعان ما أحس أنه يرضيه كثيرا أن تعود إليه طالما يمكن أن تتم هذه العودة دون ضغط أو إكراه .

غير أن الحيلة هنا كانت واجبة وهذا ما اكتشفه « فيلوتسون » ليقتلع بها السخط الجارف النابع من احتقار الناس له . أما عناصر الحيلة فكانت جاهزة أمامه فلو أعاد « سو » إليه وتزوجها مرة ثانية باعتبار أنه كان مخطئا فى موقفه حيالها مما قاده إلى الحصول على الطلاق بطريقة خاطئة ، فإنه بذلك يحس ببعض الراحة ويستطيع أن يستأنف حياته القديمة وقد يعود إلى مكانه فى مدرسة « شاستون » أو حتى يلتحق بالكنيسة كواعظ مؤهل .

وفكر فى أن يكتب « لجيلنجهام » ليعرف وجهة نظره ويجعله يبدى رأيه فيما انتواه من إرسال خطاب لها . وأجاب « جيلنجهام » أنه ، بطبيعة الحال ، ما دامت رحلت فمن الأوفق أن تظل كما هى . قال : لو كان لا بد لسو أن تكون زوجة لرجل فلا شك أن زوجها هو الذى أنجبت منه أطفالا ثلاثة واحتملت بسببه مثل هذه المغامرات الفاجعة . ولتعلق هذا الرجل بها تعلقا يكاد يفوق ما هو مألوف فى مثل هذا الموقف ، قد يعطى الاثنان زواجهما الصبغة القانونية فى أقرب وقت وبذلك يسير كل شىء بشكل طبيعى مقبول وبطريقة منظمة .

قال « فيلوتسون » ، وهو يحادث نفسه متعجبا : « ولكن لن ترضى « سو » بذلك ـ لن ترضى ـ إن « جيلنجهام » شخص واقعى أما « سو » فمتأثرة بعواطف سكان « كرايستمينيستر » وتعاليمهم . أستطيع أن أدرك جيداً حقيقة آرائها فيما يختص بعدم انفصام الزواج وأعرف من أين جاءت بها . هذه ليست آرائى ولكننى سأفيد منها كثيرا .

وكتب إلى « جيلنجهام » يقول : « أعرف أننى مخطىء تماما ولكننى لا أوافقك على رأيك . أما كونها عاشت معه وأنجبت منه أطفالا فشعورى (على الرغم من أننى لا أستطيع أن أسوق إدفاعا منطقيا أو خلقيا بالطريقة التقليدية المألوفة) أن هذا لا يعدو أن يكون درسا استكملت به تعليمها . سأكتب لها لأعرف منها إذا ماكان ذلك الذى أخبرتنى به « أرابيلا » صحيحا أم لا » .

وبما أنه صمم على الكتابة حتى قبل أن يستشير صديقه ، رأى ألا يطلع هذا الأخير عما انتواه . وعلى كل حال ، تلك كانت طريقة « فيلوتسون » فى التصرف دائما .

ووجه « فيلوتسون » إلى « سو » خطابا كتبه فى عناية وذلك لمعرفته بطبيعتها ومزاجها العاطفى . ثم دس فى ثنايا السطور شيئا من الصرامة التى تشبه صرامة قضاة « رادمانثوس » ، كما أخفى فى عناية شعور المرطقة حتى لا يدخل الخوف إلى قلبها . لقد ذكر فى خطابه أنه نمى إلى علمه أن آراءها فى الحياة تغيرت إلى حد

كبير فرأى من واجبه أن يعبر هو أيضا عن رأيه الذى تعدل كثيرا إثر الأحداث التى تلت فراقهما . قال إنه لن يخفى عليها أن عاطفة الحب لم يكن لها دخل فى محاولة اتصاله بها وإنما نشأ الاتصال نتيجة لرغبته فى ألا يجعل من حياتهما - فشلا مفجعا - كما انتهت إليه فى الماضى بتأثير تصرفه الذى حسب أنه قام فى حينه على مبادئ العدل والخير والتعقل .

قال «فيلوتسون» أيضا إنه اكتشف أن الاندفاع فى تيار الانفعالات الفطرية التى لا ضابط لها ولا سند من الحق والعدل ما كان ينقذه من القصاص فى عصر سارت فيه مدنية عريقة فمن الضرورى فى هذه الحال أن يتصرف المرء على أساس من شعور ناضج نابع من الإيمان بالعدالة والحق . هذا لو أراد الإنسان أن يتمتع بقدر من الراحة مع الشرف بعيداً عن عاطفة نظرية بدائية كحب الشفقة .

وفى خطابه أيضا اقترح على « سو » أن تأتى إليه فى « ميريجرين » .

وبعد أن فكر ملياً للمرة الثانية حذف الفقرة التى تلى الأخيرة . وبعد أن أعاد كتابة الخطاب أرسله فى الحال وأخذ ينتظر الرد فى قلق بالغ .

وبعد بضعة أيام ظهر خيال يتحرك فى الضباب المحيط بضاحيـة « بيرشيبا » فى « كرايستمينيستر » تجاه الحى الذى اتخذه « جود فاولى » مكانا لإقامته منذ أن انفصل عن « سو » . على باب مسكن « جود » جاءت دقة خفيفة مترددة . كان الوقت مساء لذا كان « جود » فى البيت . وبإلهام فطرى خفى قفز فى اتجاه الباب وفتحه .

— « هلا خرجت إلى هنا ؟ أفضل ألا أدخل . أود أن ... أن أتحدث إليك - وأذهب معك إلى المقابر » .

هذه الكلمات المرتعشة خرجت من فم « سو » ، فارتدى « جود » قبعته وقال: « إن وقوفك فى الخارج يعرضك للبرد . أما إذا كانت هذه رغبتك فلن أقول شيئاً » .

— « هذه رغبتى . وان تبقى معى طويلا » .

كان « جود » على درجة كبيرة من التأثر بحيث عجز عن التحدث فى أول الأمر وكانت هى أيضا إذ بدت وكأنها حزمة من الأعصاب خلت من كل قوة دافعة . وسار الاثنان خلال الضباب وكأنهما شبحان قادمان من عالم سفلى وظلا كذلك لفترة طويلة دون صوت أو حركة .

قالت بعد فترة وكان صوتها يسرع حينا ويبطىء حينا : « أود أن أخبرك حتى لا تسمع بالنبأ عن طريق الصدفة . سأعود إلى « ريتشارد » . لقد وافق بكل نبل على الصفح عنى » .

— « تعودين ؟ وكيف تستطيعين — » .

— « سيتزوجنى من جديد . ذلك من أجل المحافظة على المظهر ولكى يقنع العالم الذى لا يرى الأمور على حقيقتها . لكننى طبعا زوجته . ما من شىء غير ذلك » .

وانقلب عليها فى فزع وحشى وقال : « ولكنك زوجتى ! نعم إنك كذلك ، أنت تعلمين ذلك . لقد ندمت دائما على الخطيئة التى ارتكبناها عندما هربنا وعدنا ندعى ، محافظة منا على المظاهر ، أننا تزوجنا زواجا شرعيا . أحببتك كما أحببتنى وعشنا سويا وهذا لب الزواج . ما زال كل منا يحب الآخر وإنى لأدرك ذلك يا « سو » على ذلك فزواجنا لا يعد لاغيا » .

قالت وقد بدت يائسة من أن تستطيع كبح جماح نفسها : « نعم أعلم كيف تنظر إلى هذه المسألة ولكننى ، على حد قولك ، سأتزوجه ثانية . دعنى أصارحك بأنك أنت أيضا — ولا تغضب من قولى هذا يا « جود » — يجب أن تعود إلى « أرابيلا » .

— « يجب أن أعود إلى « أرابيلا » ؟ يا إلهى ! وماذا بعد ذلك ؟ ماذا يكون الحال لو تزوجنا زواجا شرعيا كما كنا على وشك أن نفعل ؟ » .

— «كنت أحس بنفس الشيء . كنت أشعر بأن زواجنا ليس سليما. كنت أعود إلى « ريتشارد » دون إجراء جديد ، لو طلب هو منى ذلك . ولكن « الحياة وطرقها لها قيمة معينة » . وعلى ذلك من رأيى تكرار مراسيم الزواج . أرجوك ألا تقضى بسخريتك ومناقشاتك على ما بى من حياة وأرجوك ألا تفعل! كنت قوية فى وقت من الأوقات ، أعرف ذلك ، وقد أكون عاملتك بقسوة ولكن أرجوك يا « جود » أن تقابل السيئة بالحسنة ! إنى أضعف منك الآن . لا تحاول الاقتصاص منى ، ولكن كن شفيقا . كن شفيقا بى — أنا المرأة — المسكينة الشريرة التى تحاول أن تصلح ما فسد ! » .

هز رأسه فى يأس وقد اغرورقت عيناه بالدموع. كانت كارثة فقدانها للأطفال تبدو وكأنها حطمت قدرتها على التفكير السليم وأن بصيرتها التى كانت حادة فى وقت من الأوقات أصابتها الآن غشاوة وقال فى صوت مبحوح : «كل ماتقولينه خطأ فى خطأ . أنت تهزلين . أنت تنحرفين . يا إلهى أكاد أجن . هل يهمك أمره ؟ هل تحبينه ؟ أنت تعلمين أنك لا تحبينه . ستكون حياتك معه نوعا من الدعارة المغلفة بالتعصب الدينى . ليسامحنى الله إذ قلت ذلك . نعم هذا ماستكون عليه حياتك معه » .

— « إننى لا أحبه ولا بد لى من أن أعترف بذلك والندم العميق المرير يملأ نفسى ! ولكننى سأحاول أن أتعلم كيف أحبه وذلك بأن أطيعه » .

وظل يجادلها مرة بالعقل وأخرى بالتوسل . غير أن عقيدتها كانت من كل ذلك فى حصن حصين . بدا وكأن عقيدتها هذه هى الشيء الوحيد فى الدنيا الذى قر قرارها على احترامه وكأن تصميمها على ذلك يجعلها لا تقيم وزنا لأية فكرة أو رغبة أخرى .

قالت فى نبرات حاسمة : «كنت عادلة فى موقفى منك فعملت على أن تعرف الحقيقة كاملة وأن أقوم أنا نفسى بإطلاعك عليها لكى لا تحس بالمهانة إن جاءك خبرها عن طريق آخر . لقد اعترفت لك أيضا بالحقيقة الخطيرة ألا وهى أننى

لا أحبه . لم أكن أدرى أنك ستكون خشنا معى هكذا . كنت على وشك أن أطلب منك ... » .

— « تطلبين منى أن أدعك تذهبين ؟ » .

— « لا . بل أن ترسل حاجياتى لو سمحت . ولكننى أظن أنك لن تسمح » .

— « ولم لا أسمح ؟ سأرسلها لك بالطبع . ماذا ؟ ألا يحضر هو لاصطحابك ؟ ألا يأتى إلى هنا ليتزوجك ؟ لعله لا يتنازل ! » .

— « لا ، لن أدعه . سأذهب إليه برغبتى كما رحلت عنه . سنتزوج فى كنيسة صغيرة فى « ميريجرين » » .

كانت حاوة حلاوة حزينة عندما تحدثت عن عنادها الخاطىء فلم يستطع إلا أن يغالب دموعه تأثراً وشفقة وقال : « لم أعرف فى حياتى امرأة تدفع ثمن الندم عن طيب خاطر كما تفعلين يا « سو » ! لا يكاد المرء يتوقع منك أن تسيرى فى طريق ما على أنه الطريق السوى المعقول حتى تنحرفين وحتى تغيرى خط سيرك ! »

— « دعك من ذلك الآن ! يجب أن أودعك يا « جود » ولكن ليتك تذهب معى إلى المقابر ليكون وداعنا هناك بجانب قبور أولئك الذين ماتوا ليرشدونى إلى خطأ آرائى ! » .

واستدار الاثنان ناحية القبور حيث فتحت لهم الأبواب بناء على طلبهما . كانت « سو » قد ترددت كثيرا على المكان لذا عرفت الطريق إليه حتى فى الظلام فبلغاه ووقفا صامتين .

— قالت : « أود أن أفترق عنك هنا فى هذا المكان » .

— « ليكن » .

— « لا تظن بى القسوة لأننى تصرفت عن عقيدة . إن تعلقك بى وتفانيك

فى حبى لا نظير لها يا « جود » ! إن فشلك فى هذا العالم ـ لو كنت حقا فشلت ـ هو فى صالحك ولا يلومك عليه إنسان . تذكر أن أفضل الناس فى البشرية كلها وأعلاهم مقاما هم أولئك الذين لا يحرزون نجاحا أرضيا فكل شخص ناجح هو فى واقع الأمر مخلوق أنانى وكما جاء فى سفر كورينثوس : «المحبة لا تطلب مالنفسها».

ــ « لنقف سويا عند هذا الإصحاح أيتها العزيزة المحبوبة دائما وعند هـذا المعنى من معانيه نفترق أصدقاء . ستبقى آيات هذا الإصحاح بينما يذهب كل ماعداها مما نطلق عليه كلمة دين » ،

ــ « حسن . لا تجادل فى هذا الوداع يا جود ، يا رفيقى فى الخطيئة وأعز صديق ! » .

ــ « الوداع يا زوجتى المخطئة ـ الوداع ! » .

(٥)

وفى الأصيل التالى ، كان ضباب « كرايستمينيستر » المألوف ما زال يـكسو كل شىء وهيئة « سو » النحيلة لا تتميزها العين إلا بصعوبة وهى تسير فى اتجاه المحطة .

أما « جود » فإنه فى ذلك اليوم لم يطاوعه قلبه للتوجه إلى عمله . وعجز عن التوجه إلى أى مكان يقع فى الاتجاه الذى يحتمل أن تمر فيـــه « سو » بل اتخذ اتجاها مضادا وسار فى طريق مظلم كئيب تبدو مناظره لعينيه عاطلة عن الجمال وتظهر أشجاره متهاوية وحيث يكمن السل ويشتد السعال ولم يسبق له الذهاب فيه قط .

وغمغم يقول فى تعاسة : ذهبت « سو » عنى ـ ضاعت منى ! » .

أما هى فكانت فى تلك الأثناء قد استقلت القطار ووصلت إلى طريق «الفردستون» حيث صعدت إلى الترام الذى نقلها إلى البلدة وكانت قد طلبت إلى «فيلوتسون» ألا يحضر للقائها . فرغبتها ، كما ذكرت فى خطابها ، أن تحضر إليه وإلى قلب بيته بإرادتها .

كان الوقت مساء الجمعة واختار المعلم تلك الأمسية لأنه يحصل عادة على إجازة فى الرابعة من ذلك اليوم تستمر حتى صباح الاثنين التالى . واستقلت العربة الصغيرة التى استأجرتها لتأخذها إلى « ميريجرين » ووقفت بها كما رغبت فى زاوية الشارع الضيق الذى يبعد نصف ميل عن القرية . بعد ذلك استأنفت العربة سيرها بما تحمل من متاع قليل أتت به «سو» . وبينما العربة تعود فارغة بعد أن أوصلت المتاع إلى بيت « فيلوتسون » . التقت بها « سو » وسألت السائق عما إذا كان قد وجد باب بيت المعلم مفتوحا فأجابها السائق بالإيجاب ، كما أخبرها أن حاجياتها حملها المعلم بنفسه إلى داخل البيت .

كانت « سو » تستطيع الآن أن تدخل « ماريجرين » دون أن تثير فضولا كبيرا . فإنها عبرت الطريق من ناحية البئر وسارت تحت الأشجار حتى المدرسة الجديدة الجميلة فى الجهة المقابلة ورفعت مزلاج الباب دون أن تقرعه وفى منتصف الغرفة وقف « فيلوتسون » ينتظرها تحقيقا لرغبتها .

قالت وقد بدت شاحبة مرتعشة وهى ترتمى على مقعد قريب : « إنى عدت يا « ريتشارد » لا أكاد أن أصدق أنك تسامح زوجتك ! » .

قال : « غفرت لك كل شىء أيتها العزيزة « سوزانا » . »

ودهشت الكلمات الجاملة وإن قد صدرت منه بطريقة تقليدية جامدة . واستجمعت قواها وقالت : «إن أطفالى ماتوا ومن الخير أن يحدث لهم ذلك ! إنى على الأغلب فرحة . كانوا ثمرة للخطيئة وقدموا قربانا حتى أتعلم كيف أعيش ! فموتهم الخطوة الأولى لتطهير نفسى . ذلك هو السبب فى أنهم لم يموتوا عبثا ! هل تقبلنى ؟ » .

وتأثر « فيلوتسون » من كلماتها التى تدعو إلى الشفقة ومن لهجتها حتى أنه فعل أكثر مما انتوى وانحنى يقبل خدها . وتراجعت قليلا وارتعش جسدها لملمس شفتيه فغاص قلبه إذ كانت رغبته فيها ما زالت حية فى جسده وقال : «هل ما زلت تنفرين منى ؟ » .

— « يا عزيزى حضرت إليك وسط المطر وكنت أشعر برعشة تسرى فى جسدى . » قالت ذلك وهى تصطنع ابتسامة تدل على أنها تحسن الفهم وقالت : «متى يتم زواجنا ؟ قريبا ؟ » .

— « فى رأيى باكر صباحا وهذا إذا كنت حقا توافقين . سأرسل للقسيس لأبلغه بوصولك . وأطلعته على كل شىء وهو موافق تماما . يقول إن زواجنا سيفتح لنا الطريق إلى نهاية منتصرة مرضية . هل أنت متأكدة من نفسك ؟ لم يفت الأوان بعد لو أردت أن ترفضى الزواج أو لو دار فى خلدك أنك لا تستطيعين تنفيذ ما عزمت عليه » .

— « نعم . نعم أستطيع . إننى أود أن يتم سريعا . أخبره أخبره حالا ! إن قوتى تمتحن بما نحن مقدمون عليه . لا يمكننى الانتظار أكثر من ذلك » .

— « إذن تناولى بعض الطعام والشراب ثم اذهبى إلى حجرتك فى منزل السيدة « إيدلين » سأخبر القسيس بأن الزواج سيكون فى الثامنة والنصف صباحا وهذا إذا لم يكن الوقت مبكرا ، بالنسبة لك . إن صديقى « جيلنجهام » هنا وسيساعدنا فى إتمام المراسم . كان لطيفا منه أن يحضر من « شاستون » على الرغم من بعدها وما فى مجيئه من مشقة » .

وعلى عكس طبيعة المرأة التى تلحظ عيناها الأشياء فى سرعة ، بدت « سو » وكأنها لم تلمح شيئاً مما حولها ، أو لم ترشيئا مما فى الغرفة التى جلسا فيها . غير أنها عندما قامت لتعبر القاعة كى تخلع عنها الفرو الذى يدفئ يديها ، صدرت عنها زفرة وأصبح وجهها أكثر شحوبا . لقد كانت نظرتها تشبه نظرة متهم محكوم عليه بالإعدام عندما يقع بصره على كفنه .

قال « فيلوتسون » : « ماذا ؟ » .

كان غطاء المكتب مفتوحا وعندما وقعت قطعتى الفرو فوقه وقعت عيناها على وثيقة أمامها فقالت « ليفيلوتسون » : « أوه . لا ! إنها مجرد مفاجأة مضحكة ! » وحاولت وهي تعود إلى مكانها من المائدة أن تحول صرختها إلى

ضحكة . قال « فيلوتسون » : « آه . نعم . وثيقة الزواج . وصلت لتوها » .

ولحق بهما « جيلنجهام » وحاولت « سو » أن تصطنع معه الرقة فتحدثت فى كل الموضوعات التى اعتقدت أنها تهمه ما عدا الحديث عن نفسها على الرغم من أن هذا الموضوع كان يهمه أكثر من غيره . وتناولت فى خضوع بعض الطعام وتأهبت للبيت فى المكان الذى أعد لها والذى لم يكن يبعد كثيرا عن المنزل . وعبر « فيلوتسون » معها الساحة الخارجية الخضراء ، وعندما وصلا إلى منزل السيدة « ايدلين » أقرأها السلام وعاد .

وسارت العجوز مع « سو » إلى حجرتها المؤقتة وساعدتها على فك أمتعتها . ومن بين الملابس التى أخرجتها « سو » قميص للنوم حلى بتطريز جميل فقالت فى سرعة : « أوه . لم أدر أن ذلك وضع هنا ! لم أكن أقصد أن يوضع هنا . هاهو آخر مختلف » . وأخرجت قميصا جديدأ ولكنه عبارة عن ثوب عادى تماما خال من أى تطريز وكان مصنوعا من قماش رخيص خشن الملمس .

وقالت السيدة « ايدلين » : « ولكن هذا أجمل الاثنين . أما ذاك فلا يعدو أن يكون كالأثواب الخشنة التى يتحدث عنها الكتاب المقدس » .

— « نعم . قصدت أن يكون كذلك . أعطنى القميص الأول » . وتناولت القميص الجميل وأخذت تمزقه بكل قوتها حتى دوى صوت تمزيقه فى البيت وكأنه نعيق البوم .

— « ولكن يا عزيزتى ! مهما ... » .

— « هذا قميص عليه مسحة من الإثم . إنه يدل على شىء لا أحس به . اشتريته منذ وقت طويل . اقتنيته إرضاء لجود . يجب أن أمزقه ! » .

ورفعت السيدة « ايدلين » يديها فى دهشة بينما ظلت « سو » تمزق القميص فى عصبية واضحة وتقطعه إلى قطع صغيرة ألقت بها إلى النار .

وقالت الأرملة : « كان يمكن أن تمنحينى إياه . إن قلبى يتحطم وأنا أرى

هذا التطريز الجميل وهو يلقى فى النار . ماكان يجوز لمثل هذا القميص أن يحترق هكذا ، ولكن لا يمكن لمثل هذا القميص أن يكون نافعا لعجوز مثلى . هذا القميص راحت أيامه وانقضت بالنسبة لى منذ زمن بعيد » .

— « إنه لشىء لعين . إنه يذكرنى بما أريد أن أنساه ! » . وعادت تقول: « إنه لا يستحق إلا أن يلقى به فى النار » .

— « يا إلهى . كم أنت شديدة ! لم تستعملين مثل هذه الكلمات ولم تتوقعين النار وعذاب جهنم لصغارك الأبرياء الذين فقدتهم ؟ إننى لا أسمى ذلك منك تدينا وأقسم على ذلك » .

وارتمت « سو » على السرير وهى تبكى وتقول : « لا تقولى ذلك . لا تقولى ذلك ! يكاد ذلك يقتلنى ! » . وظلت كذلك وقد هزها الحزن وانزلقت على ركبتيها .

وقالت الأرملة « ايدلين » وقد بدت على وجهها علامات الاستياء : «سأسدى لك نصيحة . يجب ألا تتزوجى هذا الرجل مرة ثانية ! إنك ما زلت تحبين الآخر » .

— « بل لا بد أن أعود إليه - إنى زوجته ! » .

— « هراء ! إنك زوجة الآخر . أما عن رفضكما القسم ثانية أمام الهيكل كما فعلتما فى المرة الأولى ، فما ذلك سوى تكريم لضميركما ، لو اعتبرنا ظروفكما ، وكان من الممكن أن تظلا هكذا حتى تنصلح الأمور فى النهاية . على أى حال لم يكن هذا من شأن أى إنسان بل هو من شأنكما وحدكما » .

— « يقول « ريتشارد » إنه سيعيدنى إليه ويتحتم على أن أعود إليه ! أما لو رفض ذلك فعندئذ فقط لايتحتم علىّ أن أترك «جود» ولكن - » . وعادت إلى صمتها وقد أخفت وجهها فى أغطية السرير بينما غادرت الأرملة الحجرة .

وكان « فيلوتسون » فى تلك الأثناء قد توجه إلى صديقه « جيلنجهام » فرآه

جالسا إلى مائدة العشـــاء . ونهض الاثنان وخرجا إلى الساحة الخضراء ليدخنا قليلا . وكان النور يضيء حجرة « سو » وخلف الستائر ظل يتحرك من حين إلى آخر » .

من الواضح أن سحر « سو » الذى لا حد له أثر على « جيلنجهام » إذ بعد لحظة قال : « ها قد نلتها فى النهاية ولا يمكن أن تعود إليه بعد الآن ! سقطت الثمرة بين يديك » .

— « نعم . أظن أنى كنت على صواب عندما صدقتها . أعترف أن ذلك منى أنانية . وبصرف النظر عن أنها ، بما هى عليه من جمال ، تعتبر أكثر مما يستحق رجل عتيق جامد التفكير مثلى إلا أنها سوف ترد لى اعتبارى فى نظر رجال الدين وفى نظر المحافظين الحريصين على التقاليد الذين لم يغفروا لى عندما سمحت لها بالرحيل ، وعلى ذلك أسترجع إلى حد ما مكانتى الأولى » .

— « حسن . لو رأيت أن تتزوجها للمرة الثانية فبحق السماء لا ترجىء ! كنت دائما أعارض فى أن تفتح باب القفص وأن تدع الطائر يذهب بمثل هذه الطريقة الانتحارية . وكان من الجائز أن تصبح الآن مفتشا ، أو من رجال الأكليروس ، وذلك لو لم تضعف أمامها فى مبدأ الأمر » .

— « أعترف أنى ألحقت بنفسى ضرراً لا يمكن إصلاحه » .

— « ما دمت أعدتها إليك فتمسك بها » .

وفى هذه الليلة كان « فيلوتسون » أكثر ميلا للتماص . لم يهتم بالاعتراف فى جلاء بأن إعادة « سو » إليه لا تدل فى حقيقتها على شىء من الندم على أنه سمح لها بالرحيل فى المرة الأولى بل كانت ، فى المقام الأول ، دافعا غريزيا يتحدى التقاليد والمهنة .

قال : « نعم سأفعل ذلك . إننى الآن أكثر معرفة بالمرأة ، ومهما تضمن إطلاق سراحها من عدالة فلقد كان فى هذا الحادث قليـــل من المنطق بالنسبة لشخص يعتنق آرائى » .

ونظر « جيلنجهام » إلى « فيلوتسون » وتساءل فى عجب عما إذا كان من الممكن للروح الرجعية التى أوجدتها فى نفسه ضحكات الساخرين ورغباته الجسدية أن تجعله قاسياً عليها قسوة صريحة تحل محل عطفه الشكلى المنحرف .

واستمر « فيلوتسون » يقول : « أدرك أن لا جدوى من الخضوع للنزوات » . وكان بقوله هذا يحاول التصرف بما يناسب الموقف . « لقد ثرت فى وجه تعاليم الكنيسة إلا أننى فعلت ذلك بحسن نية . ما أعجب النساء فى نفوذهن بحيث يدفعن الرجل لإظهار العطف فى غير موضعه ! وعلى كل إنى أعرف نفسى الآن خيرا عن ذى قبل . « قليل من الاستعداد العادل قو . . . » .

— « نعم . ولكن ينبغى فقط أن تقبض على الزمام شيئا فشيئا . لا تكن عنيفاً فى بادئ الأمر . لا بد أن تقبل فى الوقت المناسب شروطك مهما تكن » .

ولم يكن تحذير « جيلنجهام » لفيلوتسون بالأمر الضرورى وإن كان الأخير لم يصرح بذلك بل قال : « أذكر ما قاله راعى كنيسة « شاستون » بعد الضجة التى أثرتها عندما منحتها موافقتى على الرحيل فى صحبة عشيقها . قال القسيس حينئذ : « إن الشيء الوحيد الذى يمكن أن تفعله لتصلح من موقفك وموقفها هو أن تعترف بزلتك . إنك لم تحاول أن تكبح جماحها بقوة وحكمة . فعليك أن تعيدها إذا أمكن ، وبعد ذلك تصبح حازماً معها » . ولكننى كنت عنيداً فى ذلك الوقت فلم أهتم . بل إننى ، بعد الطلاق لم أحلم أنها يمكن أن تفكر فى هذا العمل . »

وفرقعت بوابة كوخ السيدة « ايداين » وبدا شخص يعبر الطريق فى اتجاه المدرسة . قال « فيلوتسون » : « مساء الخير » .

وقالت السيدة « ايداين » : « أهذا أنت يا سيد « فيلوتسون » ؟ كنت على وشك أن أذهب لأراك . كنت معها فى الطابق العلوى أساعدها على فك أمتعتها وأقول لك الحق يا سيدى هذا الزواج يجب ألا يتم ! » .

— « ماذا ؟ أتقصدين الزفاف ؟ » .

— « نعم . إنها ترغم نفسها عليه تلك الصغيرة المسكينة ! ليس لديك أدنى فكرة عن مدى ما تعانيه . لم أكن يوما من المؤيدين للدين المتحمسين لأموره ، كما لم أكن من معارضيه ولكن ليس من الصواب فى شىء أن ندعها تفعل ذلك ، سيقول الجميع بالطبع كان كرما وتسامحا منك أن تقبلها زوجة لك مرة ثانية أما أنا فلا أعتقد ذلك » .

قال « فيلوتسون » فى تحفظ رزين وقد جعلته المعارضة متشدداً بشكل غير منطقى : « هذه رغبتها ، وأنا راض . إن خطأ كبيرا سوف يصلح » .

— « لا أصدق ذلك . إنها زوجته إذا كان لا بد لها من أن تكون زوجة لأى رجل . لقد أنجبت منه ثلاثة أطفال وهو يحبها حبا شديدا ومن الخجل حقا ، بل من الجبن والخسة أن تدفع إلى السير فى هذا الطريق . يا لها من مخلوق ضئيل صغير ينتفض رعباً ! ليس لها من يساندها وهى لا تدع الرجل الوحيد الذى يمكن أن يكون صديقا لها يقترب منها . عجبى ! ما الذى جعلها تفكر بهذه الطريقة ! » .

قال « فيلوتسون » فى لهجة خشنة : « لا أدرى ولكن من المؤكد أننى لست بالشخص الذى دفعها إلى ذلك وإن تصرفاتها كلها لتتم بمحض إرادتها وحدها . هذا كل ما لدى الآن . لقد تغيرت آراؤك كثيرا أيتها السيدة « ايدلين » لم يكن ذلك من طبعك ! » .

— « حسن . كنت أعلم أنك ستفاجأ بما أقول ولكن لا يهمنى فالحقيقة هى الحقيقة » .

— « إننى لم أفاجأ أيتها السيدة « ايدلين » فأنت خير من جيرانى ولكن يجب أن يسمح لى بأن أتصرف حسب ما أراه مناسبا لى ولسوزانا وعلى ذلك أظن أنك لن تأتى معنا إلى الكنيسة . أليس كذلك » .

— « لا . ليتنى أشنق لو استطعت الذهاب . لا أدرى ما سوف تتمخض عنه

الأيام . لقد تحول الزواج إلى هذا الأمر الخطير الذى تراه اليوم، إلى حد أن المرء يخشى لئلا يكون له بهدخل . فى زماننا لم نهتم بأمور الزواج كل هذا الاهتمام وعندما دخلت أنا والمرحوم زوجى فى زمرة المتزوجين ظللنا نمرح طوال الأسبوع وشربنا جميع خمر الأبروشية . واضطررنا إلى اقتراض مبلغ صغير لنبدأ به الحياة فى بيتنا » .

وعندما عادت السيدة « ايداين » إلى كوخها قال « فيلوتسون » « لجلينجهام » وكانت نفسه منقبضة : « لا أدرى هل ينبغى لى أن أتزوجها ، على الأقل بهذه السرعة ؟ » .

— « ولِمَ ؟ » .

— « لو أنها ترغم نفسها على الزواج منى وتخالف غريزتها لا لشىء إلا لهذا الشعور الجديد بالواجب أو الدين ـ فربما من الواجب أن أتركها تنتظر قليلا » .

— « الآن وقد سرت فى الموضوع إلى هذا الحد لا ينبغى أن تتراجع . ذلك رأيى » .

— « لا أستطيع أن أؤجله الآن ، هذا حق . ولكننى شعرت بالشك عندما صدرت منها تلك الزفرة الصغيرة عند رؤية وثيقة الزواج » .

— « والآن أيها العجوز لا تدع مجالا للشكوك . سأقوم غدا بمصاحبتها إلى الهيكل وتسليمها لك تقسلها منى على اعتبار أنها زوجتك . لقد عذبنى ضميرى دائما لأنى لم أفلح فى اقناعك عندما عارضتنى أول مرة والآن وقد بلغنا هـــذه المرحلة ان أرضى عن نفسى إذا لم أساعدك على إصلاح الأمر » .

وأومأ « فيلوتسون » برأسه . وعندما أدرك مدى ما كان عليه صديقه من صلابة أصبح أكثر صراحة معه وقال : لا شك أن الناس عندما يعلمون بما فعلته سيقرر الكثيرون منهم أننى كنت مغفلا . ولكنهم لا يعرفون «سو» كما أعرفها . وعلى الرغم من أنها خداعة جدا فإن طبيعتها أمينة فى جوهرها بحيث لا أظن أنها

أتت يوما عملا يخالف ضميرها . أما كونها عاشت مع « فاولى » ، فذلك لا يعنى شيئا . وعندما تركتنى وذهبت إليه ، كانت تظن أنها تصرفت فى حدود حقها . أما الآن فإنها تفكر بطريقة أخرى » .

وحل الصباح التالى وواجه هذان الصديقان ، كل من وجهة نظره ، تضحية تلك المرأة بوقوفها عند المذبح تحقيقا لما أسمته انتصار المبادئ . وذهب « فيلوتسون » ليحضر « سو » من بيت السيدة « إيداين » عقب الثامنة ببضع دقائق وكان ضباب اليوم السابق أو اليومين السابقين ، قد زحف من ناحية الأراضى المنخفضة وانتقل الآن فى ذلك المكان وامتلأت الأشجار الخضراء من رطوبته وحولتها إلى غيث كبير القطرات . أما العروس فكانت تنتظر متأهبة بالقبعة وكل شىء . لم يسبق لها فى حياتها أن بدت كالزنبقة التى دل عليها اسمها كما بدت فى الضوء الباهت لذلك الصباح وكان توتر أعصابها قد أثر على لحمها وعظامها من كثرة ما أصابها من تطهر وما حملته من هموم ، ومن شعورها بالندم بحيث بدت أصغر حجما وذلك على الرغم من أنها لم تكن بادنة فى أيام الصحة المزدهرة .

قال المعلم وهو يتناول يدها فى تواضع نبيل : « هل أنت مستعدة ؟ » ولكنه كبح الدافع إلى تقبيلها عندما تذكر بالأمس جفولها الذى لازم عقله بصورة تعسة .

ولحق بهما « جيلنجهام » ، وترك الجميع بيت الأرملة « ايداين » ، التى أصرت على عدم الاشتراك فى مراسيم الزواج .

قالت « سو » : « أين الكنيسة ؟ » ، إذ كانت لم تعش فى تلك البلدة بعد هدم الكنيسة القديمة ، وبتأثير مشاغلها نسيت الجديدة .

قال فيلوتسون : « إنها هناك » . وسرعان ما أطل عليهم البرج وسط الضباب ضخما وقورا . كان الكاهن قد عبر الطريق إلى البناء الأصلى للكنيسة وعندما دخلوا جميعا قال بطريقة لطيفة . « يكاد المكان يكون خلوا من الشموع » .

وهمست « سو » وهى تلهث : « هل تريدنى حقا ؟ هل تود يا « ريتشارد » أن أكون زوجتك ؟ » .

— « بكل تأكيد أيتها العزيزة . أريدك قبل كل شيء فى العالم » .

ولم تزد « سو » حرفا ، وللمرة الثانية أو الثالثة أحس « فيلوتسون » أنه لا يتبع فى مسلكه معها نزعته الإنسانية الأولى التى جعلته يتركها ترحل من قبل .

ووقف الخمسة معا وهم الكاهن والكاتب والزوجان وجيلنجهام ثم بدأت مراسم الزواج وسارت بالطريقة التقليدية وعند المدخل وقف قرويان أو ثلاثة ، وعندما جاء الكاهن إلى عبارة « ما يجمعه الله » ارتفع صوت سيدة تقول فى نبرة مسموعة : « أحقا جمعهما الله ؟ » .

لقد كانت مراسم الزواج تسير وكأنها تربط شبحيهما اللذين وقفا ذلك الموقف من سنوات عدة فى « ميلشيستر » . وعندما وقعا فى السجل . تقدم الكاهن وهنأ الزوج والزوجة لأنهما أتيا عملا نبيلا صالحا يدل على تسامح الطرفين وقال وهو يبتسم : « (كل ما له نهاية حسنة فهو حسن) لقد أسعدكما الله فى زواجكما بعد أن أنقذ حياتكما وكأن نارا طهرتها » .

وغادر الزوجان البناء وكان خاليا تقريبا . وعبرا الطريق إلى المنزل الملحق بالمدرسة وهنا تركهما « جيلنجهام » إذ كان عليه أن يعود إلى بيته فى ذلك المساء . وقبل أن يرحل تقدم لتهنئة العروسين وقال وهو يودع « فيلوتسون » الذى سار معه بضع خطوات : والآن سأقص هذه المرة على أهل بلدتك قصة جميلة وسوف يقول الجميع قطعا : « لقد أحسن صنعا » .

وعندما عاد المعلم كانت سو تتظاهر بالقيام ببعض الأعمال المنزلية كما لو كانت تعيش هناك ولكن الخوف ظهر عليها عندما اقترب منها فارتسمت على محياه علامات تأنيب الضمير ،

قال «فيلوتسون» فى حزن : « طبعا يا عزيزتى إنى لا أنوى التطفل على خلوتك

الشخصية أكثر مما فعلت من قبل ، ومن مصلحتنا اجتماعيا أن أفعل ذلك وهذا هو التبرير إذا لم نرد أن نأخذ بالمنطق » .

وانفرجت أسارير « سو » قليلا .

(٦)

المكان ، باب مسكن « جود » على مشارف « كرايستمينيستر » ـ بعيدا عن تخوم كنيسة القديس سيلاس ـ حيث عاش من قبل ، وهذا ما أحزنه إلى حد المرض . وكان المطر ينهمر فى حين وقفت عند المدخل امرأة تتشح بالسواد وتتحدث إلى « جود » وهو ممسك بيده الباب .

ــ « إننى وحيدة ، فقيرة ، شريدة ، هذا هو ما آل إليه حالى ! طردنى أبى من البيت بعد أن اقترض منى كل ما معى من مال ليستعين به فى عمله ، وبعد ذلك اتهمنى بالكسل فى حين كنت فى الواقع أبحث عن عمل . فأنت ذا ترانى وحيدة فى العالم فإن لم تأخذنى إليك وتعاوننى على الحياة فلا مناص من أن ألجأ إلى إحدى دور العجزة ، أو إلى ما هو أسوأ . الآن فقط بينما كنت أسير فى طريقى احتك بى طالبان من طلاب الجامعة وأخذا يغازلاننى . ويصعب على المرأة أن تحافظ على عفتها حيث يوجد كل هذا العدد من الشبان صغيرى السن .

كانت السيدة التى تقف وسط المطر وتتكلم هكذا هى « أرابيلا » فى مساء اليوم نفسه الذى زفت فيه « سو » إلى « فيلوتسون » .

قال « جود » فى برود : « إنى آسف لحالك ولكننى أقيم هنا بالأجر » .

ــ « إذن أنت تطردنى ؟ » .

ــ « سأعطيك ما يكفى لتشترى طعاما ولتستأجرى مكانا تأوين إليه بضعة أيام » .

ــ « ولكن ، ألا تستطيع أن تعطف على وتقبلنى عندك ؟ لا أستطيع أن

أتحمل الذهاب إلى نزل عام لأقيم فيه . ثم إننى وحيدة تماما . أرجوك يا « جود » وأستحلفك بسالف أيامنا ! »

قال مندفعا : « لا . لا . لا أود أن أعود بذاكرتى إلى تلك الأمور ولو تحدثت عنها فلن أعاونك . »

قالت « أرابيلا » : « على ذلك أعتقد أننى لابد راحلة من هنا . »

ومالت برأسها على الحائط وأخذت تبكى وتنتحب . قال « جود » : « يضم البيت كثيرين غيرى وليس عندى سوى مقصورة صغيرة ملحقة بحجرتى احتفظ فيها بأدوات العمل والقليل من الكتب التى تبقت ! »

— « ذلك سوف يكون قصرا بالنسبة لى ! »

— « ما من فراش فيها . »

— « يمكن وضع مايشبه الفراش على الأرض . ذلك يرضينى . »

ولم يستطع « جود » أن يكون فظا معها وشعر بالحيرة فيما عساه أن يفعل فاستدعى الرجل الذى أجر له الحجرة وأخبره أن السيدة من معارفه وأنها فى حاجة شديدة إلى مكان تأوى إليه .

قالت « أرابيلا » : « إنك قد تتذكرنى كساقية فى حان « الخروف والراية » سابقا . وأهاننى أبى اليوم فتركته ورحلت ولا نقود معى ! »

وأجاب المالك بأنه لايتذكر ملامح وجهها ثم قال : « ومع ذلك لو كنت صديقة للسيد « فاولى » فسنبذل كل مافى وسعنا لنأويك يوما أو يومين ، وهذا لو جعل السيد نفسه مسئولا عنك . »

قال « جود » : « نعم . نعم . فى الواقع إنها فاجأتنى تماما ، ولكننى أود أن أساعدها على الخروج من هذه الشدة » .

أخيرا اتخذت بعض الترتيبات وأعد سرير المقصورة الملحقة بحجرة « جود »

حتى تصبح مريحة « لأرابيلا » وبذلك تخرج من المأزق الذى لم يكن لها يد فيه على حد قولها وحتى تعود إلى بيت أبيها ثانية .

وبينما كانا فى انتظار الانتهاء من هذه الترتيبات قالت « أرابيلا » : « أظن أنك تعرف الأخبار ؟ » .

— « أستطيع أن أحزر ما ترمين إليه ولكننى لا أعلم شيئا » .

— « وصلتنى رسالة اليوم من « آنى » التى تسكن فى « الفردستون » . سمعت لتوها أن الزفاف تم أمس » .

— « لا أود الحديث فى هذا الموضوع » .

— « لا لا . بالطبع أنت لا تريد ذلك وكل ما هناك أن ذلك يدل على أى نوع من النساء هى ! » .

— « قلت لك لا تتحدثى عنها ! إنها حمقاء ولكنها ملاك أيضا . يا للغالية الصغيرة ! » .

— « لو أن الزواج تم فعلا فسيتيح له ذلك فرصة العودة إلى وظيفته القديمة وهذا ما يقوله الجميع وتقوله « آنى » أيضا . سيفرح لذلك كل محبيه بما فيهم المطران نفسه » .

— « إرحمينى يا « أرابيلا » ! وفى الوقت المناسب استقرت « أرابيلا » فى المقصورة الصغيرة . وفى أول الأمر لم تقترب من « جود » بل راحت تسعى وراء شئونها التى كانت ، كما أخبرته عندما تقابلا على السلم ، عبارة عن محاولة للحصول على وظيفة فى المهنة التى تفهمها جيدا . وعندما اقترح « جود » عليها أن تذهب إلى « لندن » على اعتبار أنها مركز تجارة الخمور هزت رأسها وقالت : « لا ! إنها مليئة بالمغريات ويكفينى حان متواضع فى الريف قبل هذا » .

وفى صباح الأحد التالى ، عندما كان يتناول فطوره فى وقت متأخر طلبت

منه فى رقة أن يسمح لها بالاشتراك معه فى شرب الشاى فقد كسر برادها ولا تستطيع أن تشترى غيره إذ كانت المتاجر عندئذ مغلقة » .

قال « جود » فى عدم اكتراث : « نعم . لو أردت ذلك » .

وبينما الاثنان يجلسان فى صمت قالت « أرابيلا » فجأة : « يبدو أيها العجوز أنك دائم التفكير . لهفى عليك ! » .

— « نعم . إننى كذلك » .

— « أعرف أن تفكيرك مركز فيها . لا شأن لى بذلك ولكنى عرفت كافة أنباء الزفاف . لقد تم بالفعل وهذا لو أردت أن تعلم » .

— « وكيف استطعت ؟ » .

— « ذهبت إلى « الفردستون » لأحضر بعض الأشياء التى كنت تركتها هناك واستطعت أن أقابل « آنى » وهى على علم بكل شىء إذ لها أصدقاء فى « ميريجرين » .

ولم يرد أن يوافق على هذا العرض ولكن شوقه للحقيقة جعله يتصرف على عكس رغبته . وأخيرا ربح حب الاستطلاع المعركة ضد الحكمة والرزانة وقال : « تستطيعين أن تسألى عن ذلك لو أردت . لم أسمع شيئا من هناك . لا بد أن الزفاف تم فى نطاق ضيق للغاية ـ وهذا لو كانا قد تزوجا » .

— « ليس لدى المال لأذهب ثم أعود ومعى الحقيقة ، ولولا ذلك لذهبت وسأنتظر حتى أحصل على بعض المال » .

قال وقد نفد صبره : « يمكننى أن أدفع لك تكاليف الرحلة » . وهكذا دفعته لهفته للاطمئنان على « سو » ومعرفة ما تم فى أمر زواجها إلى إرسال آخر رسول يمكن أن يفكر فى اختياره لمثل هذه المهمة .

وذهبت « أرابيلا » بعد أن طلب منها أن تعود فى القطار الذى يصل فى

السابعة مساء . وبعد أن رحلت قال : « لِمَ طلبت منها أن تعود فى موعد معين ! إن « سو » أصبحت لا تعنى شيئا بالنسبة لى ، ولا حتى بالنسبة للشخص الآخر ! »

وبعد أن فرغ من عمله لم يقاوم رغبته فى التوجه للمحطة لمقابلة « أرابيلا » مدفوعا إلى استطلاع الأنباء حلوها ومرها فى سرعة محمومة لا يعرف مصدرها . وطوال الرحلة كانت « أرابيلا » تحرك هزماتها وهى تحس بالنصر . وعندما خطت إلى الأمام لتنزل من القطار كان وجهها يبتسم ولم يزد « جود » عن أن قال : « حسن ؟ » قال ذلك بوجه عابس يخلو من أى أثر للابتسام .

— « لقد تزوجا » .

وعاد يقول : « نعم . حدث هذا دون شك ! » .

ولكن « أرابيلا » لاحظت الجهد الشديد الذى بدا على شفتيه وهو يتكلم وقالت : « تقول « آنى » - إنها سمعت من قريبتها « بيلندا » التى تعيش فى « ميريجرين » أن كل شىء تم فى جو غريب ملىء بالأحزان ! » .

— « ماذا تقصدين ؟ ألم تكن تلك رغبتها فى أن تتزوجه ثانية ؟ وهو ! ألم تكن هذه رغبته ؟ » .

— « نعم . هذا صحيح . أرادت أن تتزوجه لغرض معين ولم ترد الزواج بالمعنى الآخر . لقد ضايق ذلك الزواج السيدة « ايدلين » فصرحت بكل ما فى صدرها لفيلوتسون ، ولكن « سو » كانت فى كرب من هذا الزواج حتى أنها أحرقت أجمل قمصانها تطريزا ، ذلك الذى اعتادت أن تلبسه عندما كانت تعيش معك . لقد فعلت ذلك حتى تمحيك من ذاكرتها تماما . ولو كان هذا هو شعورها فيجب أن تتزوجه . إننى معجبة بتصرفها هذا وإن لم يوافقنى البعض على ذلك . وتنهدت « أرابيلا » ثم قالت : « إنها تشعر أنه زوجها الوحيد وأنها لا يمكن أن تنتمى إلى أى رجل آخر ما دام هو على قيد الحياة . ربما كان هذا هو نفس شعور امرأة أخرى تعرفها أنت أيضاً » وتنهدت « أرابيلا » للمرة الثانية .

وصاح « جود » يقول : « لا أريد منك أى تمثيل » .

قالت « أرابيلا » : « إنى لا أسمى هـــذا تمثيلا فإننى أشعر حقا نفس شعورها ! » .

وختم « جود » ذلك الحديث عندما قال فى لهجة قاطعة : « حسن . الآن علمت كل ما أردت . شكرا لما زودتنى به من معلومات . ان أعود الآن إلى مسكنى» وتركها وانصرف .

وأخذ « جود » فى تعاسته وانقباضه يتجول فى كل جزء من المدينة سبق أن ارتاده فى صحبة « سو » . وظل كذلك حتى أصبح لا يدرى إلى أين يذهب . أخيراً . فكر فى أن يعود ليتعشى فى بيته ، ولكن لما كان لكل الفضائل رذائل ، ولما كان لجود أيضا قدر من الرذائل فإنه عرج على حان للشراب ، وكان ذلك للمرة الأولى منذ أشهر عدة . وهى من بين النتائج العديدة المترتبة على زواجها ، لم تفكر « سو » فى هذه النتيجة ولم تعرها أى اهتمام .

فى هذه الأثناء عادت « أرابيلا » إلى البيت ولكن المساء انصرم دون أن يعود « جود » فخرجت بنفسها فى التاسعة والنصف واتجهت فى أول الأمر إلى حى يقع فى أطراف البلدة بالقرب من النهر حيث يسكن والدها وحيث افتتح أخيرا متجرا صغيرا لبيع لحوم الخنازير . وقالت « أرابيلا » لوالدها : «حسن. على الرغم من أنك طردتنى فى ذلك المساء جئت لزيارتك ! لدى ما أقول ، أظن أننى سأتزوج وسأستقر مرة أخرى ولكن عليك أن تساعدنى وأظن أنك لن تمتنع عن أداء هذه الخدمة بعد الذى قدمته لك من خدمات » .

— « سأقدم على أى شىء الخلاص منك » .

— « حسن للغاية . سأذهب الآن لأبحث عن رجلى وأخشى أن يكون خرج هائما على وجهه ويجب أن أعود به إلى البيت . كل ما أطلبه منك ألا تغلق الباب الليلة فقد أضطر إلى المبيت هنا لو حدث وتأخرت » .

— «كنت أظن أنك ستملين ادعاء الأهمية لنفسك وتبتعدين عنى ! » .

— « كل ما أطلبه منك الآن هو ألا تغلق الباب » .

عادت « أرابيلا » مرة أخرى إلى حيث يسكن « جود » . و بعد أن تأكدت أنه لم يعد إلى بيته بدأت تفتش عنه . وراحت تفكر فى الطريق التى لابد أن يسلكها وقادها تفكيرها إلى الذهاب مباشرة إلى الحان التى اعتاد فى الماضى التردد عليها وحيث عملت فى مشربها فترة قصيرة . ولم تكد تفتح الباب الذى كتب عليه « مشرب خاص » حتى وقعت عيناها عليه وكان يجلس فى الضوء الخافت داخل إحدى مقصورات الشراب وقد تركزت عيناه على الأرض فى نظرة تخلو من كل تعبير وعندما دخلت وجدته يشرب البيرة . ولما لم يلحظها تقدمت وجلست بجانبه .

رفع « جود » رأسه وقال دون أن تبدو عليه الدهشة : « هل جئت لتشربى شيئا يا « أرابيلا » ؟ إنى أحاول نسيانها . هـــذا كل ما فى الأمر ! لكننى لا أستطيع وإنى عائد إلى البيت » . رأت أنه وإن كان قد بدأ فى تعاطى الشراب إلا أنه كان حتى تلك اللحظة قد تعاطى منه قدرا قليلا .

— « حضرت فقط للبحث عنك أيها العزيز . أنت متوعك . لابد أن تتعاطى شرابا أفضل من هذا » .

ونادت على الساقية وقالت : « اشرب « ليكيير » فذلك يناسب رجلا متعلما أكثر من البيرة . اشرب « المراشينو » أو « الكوراشوا » الصرفة أو المحلاة أو « براندى » الفراولة . لسوف أعالجك أيها الفتى المسكين ! » .

— « كل هذه الأنواع عندى سواء ولا أهتم بنوع معين . لكن براندى الفراولة . أساءت إلىّ « ســـو » . أساءت إلى إساءة بالغة لم أكن أتوقعها . أخلصت لها وكان الواجب أن تخلص لى لكى تنقذ روحى . داست على روحى بالأقدام ! لكن الخطأ ليس خطأها . يا لها من فتاة صغيرة مسكينة . إنى واثق من ذلك » .

لم يظهر كيف حصلت « أرابيلا » على المال ولكنهـــا طلبت خمراً لها وله

ودفعت الثمن. وعند ما فرغا من شرب الكأسين طلبت غيرهما وارتاح « جود » إلى أن التى تقوده فى تعاطى هذه المسكرات شخص يعرف دخائل هذا الأمر جيداً. وظلت « أرابيلا » متخلفة كثيراً بالنسبة لجود فى مجال الشراب ولكنها على الرغم من أنها كانت ترتشف الخمر فى حين أنه كان يجرعها ، فإنها تناولت منه فقط القدر الذى لا يجعلها تفقد وعيها — ولم يكن ما شربته بالقليل بدليل اللون القرمزى الذى كسا وجهها .

كانت نغمة حديثها معه فى تلك الليلة مهدئة ومواسية وكلما قال « لا يهمنى ما يحدث لى » — وكان يكرر هذه العبارة بين الحين والحين — ردت « ولكن ذلك يهمنى كثيراً ! » وحانت ساعة الإغلاق فاضطرا إلى الخروج وعندئذ لفت « أرابيلا » ذراعها حول وسطه وقادت خطواته المترنحة .

وعند ما بلغا الطريق العام قالت : « لا أدرى ما سيقوله صاحب الدار عندما يرانى أعود بك على هذه الصورة . أتوقع أن تكون الأبواب أغلقت وسيضطر إلى النزول ليفتح لنا » .

— « لا أدرى . لا أدرى » .

— « هذا أسوأ ما يصادفه الإنسان عند ما لا يكون له بيت خاص . أقول لك يا جود ما يجدر بنا أن نفعله . تعال إلى بيت أبى — أصلحت ما بينى وبينه قليلا اليوم . أستطيع أن أجعلك تدخل دون أن يراك إنسان ، وفى صباح الغد ستكون على ما يرام » .

قال « جود » : « أى شىء — أى مكان فماذا يهمنى الآن ؟ » وسارا معاً كأى محبين وكان ذراعها ما زال يطوق وسطه . أخيراً لف ذراعه حول وسطها وإن لم يكن يقصد من ذلك إظهار الحب ولكنه فعل ذلك لمجرد شعوره بالتعب وعدم التوازن ولحاجته إلى من يستند إليه .

قال متلعثما : « هذا — هذا هو المكان الذى أحرق فيه الشهداء » . قال

ذلك عند ما عبرا طريقا واسعا . « إنى أتذكر ما قاله « فولر » فى كتابه الذى أسماه « الدولة المقدسة » ويذكرنى مرورنا من هنا بما قاله « فولر » ذلك العجوز . يقول «فولر» فى كتابه « الدولة المقدسة » إنه عندما أحرق «ريدلى» قام الدكتور «سميث» بإلقاء موعظة تقوم على الآية الثالثة عشرة من سفر « كورنيثوس » وتقول : « إن سلمت جسدى حتى أحترق ولكن ليس لى محبة فلا أنتفع شيئاً » إننى أتذكر هذه الآية كلما مررت من هنا . إن « ريدلى » كان . . . » .

— « نعم بالضبط . جميل منك ذلك ياعزيزى حتى لو لم توجد علاقة بين هذا وموضوعنا الحالى » .

— « عجباً ! أجل توجد ! إننى أعطى جسدى ليحرق ! ولكن آه أنت لا تفهمين ! لا بد من « سو » لتفهم مثل هذه الأمور ! وأنا الذى أغريتها — تلك الصغيرة المسكينة ! والآن رحلت ولا يهمنى أمر نفسى ! افعلى بى ما تشائين ! ومع ذلك إنها صنعت ما صنعته لترضى ضميرها . مسكينة هذه الصغيرة « سو » ! .

— « فلتشنق ! أقصد أظن أنها كانت على حق » .

وأصاب « أرابيلا » الفواق وهى تقول : « إن لى عواطفى أيضا مثلها تماما وأشعر أننى أنتمى إليك فى نظر السماء وليس لأى شخص آخر أن يفرقنا حتى الموت . إنه — هئ — إن الأوان لا يفوت أبداً — هئ — على الإصلاح ! » .

هنا كانا قد وصلا إلى بيت والدها ففتحت الباب بخفة وتلمست طريقها فى الظلام من أجل النور .

ولم تكن الظروف تختلف كثيرا عن ظروفهم عند ما دخلا الكوخ فى « كريسكومب » وكان ذلك منذ زمن طويل كما لم تكن دوافع « أرابيلا » الآن تختلف عنها فى ذلك الوقت . ولكن « جود » لم يفكر فى ذلك وإن فعلت هى .

قالت بعد أن أحكمت غلق الباب : « لا يمكننى العثور على الثقاب ياعزيزى . لكن ، هذا لا يهم . تعال من هنا وسر بمنتهى الهدوء » .

قال : « إن المكان مظلم وكأنه قطعة من قار » .

ـــ « هات يدك لأقودك . هاك . اجلس لأخلع لك حذاءك فإننى لا أريد أن أوقظه » .

ـــ « من ؟ » .

ـــ « أبى قد يثير ضجة » .

وخلعت له حذاءه ثم همست : « والآن إمسك بى . لا يهم ثقلك . اصعد ـــ واحد ، اثنين ، ثلاثة ... » .

قال وقد فارقه وعيه : « ولكن هل نحن الآن فى بيتنا القديم بالقرب من « ميربجرين » ؟ إننى لم أدخله منذ سنوات ! هىء ! وأين كتبى ؟ هـــذا ما أود معرفته ! » .

ـــ « إننا فى منزلى أيها العزيز حيث لا يتجسس عليك أحد فيعرف كم أنت مريض . والآن ـــ هيا لنصعد ... ثلاثة ، أربعة ـــ هذا هو . والآن سنواصل الصعود » .

(٧)

كانت « أرابيلا » تعد الفطور فى الحجرة الخلفية من الطابق السفلى لهذا الكوخ الصغير الذى استأجره أبوها . مدت رأسها داخل المتجر الصغير الذى افتتحه أمام المنزل لبيع لحم الخنزير وأخبرته بأن الفطور أعد . أما « دون » ، فى محاولته الظهور بمظهر الجزار المتخصص فى لحم الخنزير ـــ إذ ارتدى قميصا متسخا بالدهن وتمنطق بحزام تدلت منه قطعة من الصلب ـــ فقد أقبل عليها سريعا .

قال فى تراخ : « يجب أن تلزمى المتجر هـــذا الصباح على أن أتوجه إلى « لمبسدون » لأبتاع بعض الأخشاب ونصف خنزير ، كما على أن أذهب إلى أماكن أخرى . إذا كنت تعيشين هنا فلا بد أن تمدى يد المعونة ، فى الفترة الأولى على الأقل حتى تسير الأمور ! » .

ونظرت فى وجهه نظرة مجردة من العاطفة وقالت : « حسن . عن اليوم لا أستطيع القبول . لدى مفاجأة فى الطابق العلوى » .

— « وماذا تكون هذه ؟ » .

— « لدى زوج ! » .

— « لا ! » .

— « نعم . إنه « جود » . عاد إلى » .

— « زوجك القديم الأصلى ؟ حسن . على اللعنة ! » .

— « أحببته دائما وهذا ما لا بد أن أصرح به » .

وقال « دون » فى انفعال مفاجىء وهو يومىء إلى أعلى ويقول : « ولكن كيف حدث أن وصل إلى فوق ؟ » .

— « لا تسألنى أسئلة محرجة يا أبى . ما ينبغى أن تفعله الآن هو أن نحتفظ به هنا حتى أعود أنا وهو إلى ما كنا عليه » .

— « وكيف ؟ » .

— « نتزوج » .

— « آه . حسن . هذا أغرب ما سمعت فى حياتى . الزواج ثانية من الزوج القديم بينما فى العالم كل هذا العدد من الشباب الصاعد ! فى رأيى أنه لا يعتبر ربحا . لو كنت فى مكانك لبحثت عن زوج جديد » .

— « هل من العجيب أن ترغب الزوجة فى استعادة زوجها القديم لأسباب متعلقة باحترام الناس لها ولو أنه من جهة الرجل ، عندما يرغب فى استعادة الزوجة التى هجرها ، ماذا أقول ، لا بد أن يثير عمل كهذا ضحك الناس ! » .

وهنا أخذت « أرابيلا » نوبة من الضحك الصاخب وشاركها فى ذلك والدها وإن لم يكن صوته مرتفعا كصوتها .

وبعد أن استرجعت وقارها القديم قالت : «كن مهذباً معه يا أبت وسأتولى أنا الباقي . أخبرني هذا الصباح أنه يحس بصداع يكاد يجعل رأسه ينفجر ويكاد لا يعرف أين هو ولا عجب في ذلك لو فكرنا في أنواع الخمور التي شربها ليلة الأمس. لا بد أن نجعله يشعر هنا بالمرح والرضا ولا نتركه يعود إلى الغرف المقبضة التي يقيم فيها . ومهما اقترضت منك من مال فسأرده لك . والآن يجب أن أصعد لأرى كيف هو الآن . يا للعزيز المسكين » !

وصعدت السلم وفتحت باب حجرة النوم في رفق زائد واختلست النظر . وعندما وجدت أن شمشونها حليق الشعر نائم ، دلفت إلى السرير ووقفت تتأمله . لقد بدا وهج الحمى على وجهه من أثر عربدة الليلة السابقة وقلل من مسحة الإعياء التي اتسم بها مظهره العادي ، كما أن رموشه الطويلة وحاجبيه الداكنين وشعره الأسود المموج وذقنه ، بدت كلها فوق الوسادة البيضاء وكأنها أكمل السمات الجسمية للرجل الذي ما زالت «أرابيلا» تدرك بغرائزها الدنيا أنه شيء خليق بها أن تستولى عليه . كان من ألزم الأمور لها أن تستعيد «جود» وذلك لأنها فقيرة في الرزق والسمعة . بدت وكأن نظراتها الوالهة نفذت إلى أعماقه إذ توقف تنفسه السريع وفتح عينيه ، وعندئذ قالت : «كيف حالك الآن يا عزيزي ؟ إنه أنا ـ «أرابيلا» .

— «آه . أين أنا . نعم إني أتذكر ! لقد آويتيني . أنا شرير ، ضائع ، مريض ، يائس ، سيء إلى أقصى حد ! هذه حقيقتي ! » .

— «إذن ابق هنا . ليس بالبيت سواي أنا وأبي ويمكنك أن تستريح حتى تستعيد صحتك تماما . سأقول لهم ، أهل مكان عملك ، إنك مريض» .

— «إني لأعجب ماذا يقولون عنا في البيت الذي نسكنه ! » .

— «لسوف أذهب إليهم وأفسر لهم كل شيء . قد يكون من الأوفق أن تتركني أدفع ما علينا من نقود هناك لئلا يظنون أننا هربنا » .

— «نعم . ستجدين في جيبي نقودا كافية » .

ودون أن يكترث بشيء أغلق عينيه لأنه لم يحتمل ضـــوء النهار فى مقلتيه المحمومتين ، وبدا كأنه راح فى إغفاءة من جديد . وبعد أن أخذت « أرابيلا » كيس نقوده وغادرت الغرفة فى هدوء ، ارتدت ملابس الخروج وتوجهت إلى المسكن الذى غادراه فى الليلة السابقة .

ولم تكد تمر نصف ساعة حتى ظهرت « أرابيلا » من جديد عند المنعطف تسير إلى جوار صبى يجر عربة عليها كل حاجيات « جود » ، وكذلك حاجياتها التى كانت أخذتها معها إلى ذلك المسكن . كان « جود » يعانى من آلام جسمية بسبب ما أصابه من انهيار فى الليلة السابقة ، كما يعانى آلاماً نفسية بسبب فقدانه « سو » وخضوعه « لأرابيلا » بطريقة لاشعورية إلى حد أنه عندما رأى حاجياته القليلة تفتح وتوضع أمام عينيه فى هذه الغرفة الغريبة واختلطت حاجياته بملابس امرأة ، لم يذكر مطلقا كيف جاءت تلك الحاجيات إلى ذلك المكان أو ما الذى دل عليه مجيئوها .

قالت لأبيها فى الطابق السفلى : « والآن لا بد أن نحتفظ فى المنزل فى هـذه الأيام القليلة القادمة بكثير من الخمر الجيد . إننى على علم بطبيعته ولو أصابته حالة الحزن العميق الذى ينتابه أحيانا فلن يعيدنى إليه ولن يجعل منى مخلوقا محترما وبذلك ستضيع منى فرصتى الوحيدة الباقية لى فى الحياة وسأترك للهموم والشدائد. لا بد أن يظل منشرح الصدر . لديه قليل من المال فى صندوق التوفير . لقـــد أعطانى حافظة نقوده لأدفع ثمن أى شيء . حسن . تلك هى وثيقة الزواج ولا بد أن أحتفظ بها جاهزة للاستعمال حتى أقتنصه بمجرد أن يصفو مزاجه . يجب عليك أن تدفع ثمن الخمر فإن قليلا من الأصدقاء وحفلا صاخبا هما ما نريد ، ولو كان فى مقدورنا القيام بأى شيء فسوف ينطوى هذا على دعاية للمتجر ، كما سأجد فيه عونا لى .

— « ذلك ميسور لأى إنسان يحصل على طعام وشراب . نعم . هـــذا ينطوى على دعاية للمتجر . هذا حق » .

وبعد ثلاثة أيام ، شفي « جود » قليلا من النبض الخفيف في مقلتيه ورأسه ، ولكنه ظل على حيرته العقلية البالغة بسبب ما زودته به « أرابيلا » في فترة مرضه - حتى تصون على حد قولها ، روح البهجة لديه - وعلى الأخص ذلك الحفل الهادئ الطروب الذي اقترحته ونفذته لتشحنه حتى نقطة الانفجار .

كان « دون » قد افتتح لتوه دكانه الصغير الفقير لبيع لحم الخنزير والسجق ولم يكن لديه أحد من الزبائن . وأيا كان الأمر فإن الحفل أعلن عن الدكان جيدا واكتسبت أسرة « دون » شهرة وإن كانت سيئة بين طبقة معينة من سكان « كرايستمينيستر » لم تعرف الطريق إلى الكليات الجامعية ولا اختصاصات هذه الكليات وأساليبها . وسئل «جود» إذا ما كان يود أن يقترح أي ضيف بالإضافة إلى أولئك الذين اقترحتهم « أرابيلا » وأبوها وفي مزاج مكتئب ينطوي على استهتار مطلق ، ذكر العم « جو » و « ستاج » ووسيط البيع ذلك الفاسد ، وآخرين ممن تذكر أنهم كانوا من المترددين الدائمين على الحان المشهورة في فترة إدمانه على الشراب قبل سنوات . كذلك اقترح اسمي «فريكلز» و« باور أوبليس» ووافقته « أرابيلا » فيما يختص بالرجال ، ولكنها عارضت في دعوة النساء .

رجل آخر عرفاه كان السمكري « تايلور » وهو على الرغم من أنه يقيم في نفس الشارع ، لم يدع للحفل ولكنه بينما كان عائدا إلى بيته في ساعة متأخرة من ليلة الحفل ، مر بالمتجر ليبتاع بعض الأكارع . لم يكن في المتجر شيء منها ولكنه وعد ببعضها في الصباح التالي . وعندما جاء يطلب أكارعه ، ألقى نظرة إلى الغرفة الخلفية فرأى المدعوين وقد جلسوا في دائرة يلعبون الورق ويحتسون الخمر ويمرحون ويمتعون أنفسهم بطرق شتى على حساب الجزار « دون » .

وعاد « تايلور » إلى بيته لينام ، وفي أثناء مغادرته للبيت في الصباح التالي سأل نفسه في دهشة كيف انتهى الحفل . لقد قرر أن الأمر لا يستحق منه أن يتوجه إلى المتجر في تلك الساعة المبكرة من الصباح كي يحصل على ما قد طلبه من أكارع إذ توقع أن يكون الجزار وابنته ما زالا نائمين لإفراطهما في الشراب والمجون حتى ساعة متأخرة من الليل . وعلى الرغم من ذلك ، عندما مر بباب بيت

« دون » ، وجد بابه مفتوحا واستطاع أن يسمع أصواتا فى الداخل على الرغم من أن ردادات ثلاجة اللحم لم تمكن أسدلت فسار ودق على باب غرفة الجلوس وفتح .

قال فى دهشة : « حسن . بكل تأكيد ! »

كان الضيوف والمضيفون يلعبون الورق ويدخنون ويتحدثون بالضبط كما تركهم قبل إحدى عشرة ساعة وكان المصباح مضاء والستائر مسدلة مع أنه كان قد مضت ساعتان على بزوغ النور فى الخارج .

صاحت « أرابيلا » وهى تضحك : « نعم . هانحن كما رأيتنا تماما . ينبغى أن نخجل من أنفسنا . أليس كذلك ؟ ولكن هذا نوع من الاحتفال بالبيت الجديد وأصدقاؤنا ليسوا فى عجلة . ادخل ياسيد « تايلور » واجلس . »

لم يكن السمكرى ، أو بالأحرى تاجر الخردة ، بالذى يرفض مثل هذه الدعوة ، فدخل وجلس ثم قال : « سأفقد شلنا ولكن لايهم . حسن . حقا كدت لا أصدق عينى عندما نظرت إلى الداخل ! خيل إلى أننى عدت ثانية إلى الليلة الماضية وفجأة . »

— « فعلا . صب للسيد « تايلور » . »

ولاحظ الآن أنها تجلس بجوار « جود » وذراعها حول وسطه . أما « جود » فارتسمت على وجهه كبقية الجماعة مادل على مدى إقباله على الشراب . واستمرت « أرابيلا » تقول فى حياء جاعلة لونها الأحمر الناشىء عن الخمر يبدو بقدر الإمكان وكأنه حمرة الخجل التى تكسو وجه عذراء صغيرة : « حسن . فى الواقع كنا متلهفين على العودة إلى وضعنا الشرعى . قررت أنا و « جود » إصلاح ما بيننا بعقد العقدة ثانية إذ اكتشفنا أن الواحد منا لا يستطيع أن يستغنى عن الآخر . اتفقنا ، كفكرة نيرة ، أن نسهر حتى يطلع النهار وعندئذ نذهب ونتمه لفورنا . »

وبدا « جود » كأنه لايهتم كثيرا بما أعلنته « أرابيلا » أو بأى شئ آخر

وأوجد دخول « تايلور » بين أفراد المجموعة أثراً منعشا وظل أفرادها جالسين إلى أن همست « أرابيلا » في أذن أبيها تقول : « والآن نستطيع أن نذهب »

— « ولكن القسيس لا يعلم . »

— « نعم . أخبرته بالأمس أننا نأتي فيما بين الثامنة والتاسعة فثمة أسباب تتعلق بالكرامة تدعونا إلى إتمامه في وقت مبكر دون جلبة بقدر المستطاع وذلك لأن هذا هو زواجنا الثاني مما قد يثير فضول الناس لو علموا به . لقد وافق « جود » على ذلك كل الموافقة .

— « حسن للغاية . إنني على استعداد . »

قال أبوها ذلك ونهض يهز جسده .

قالت لجود : « والآن أيها العجوز العزيز . هلم بنا كما وعدت . »

— « ومتى وعدت أي شيء ؟ » قالها — هو الذي جعلته « أرابيلا » مخمورا بفضل خبرتها السابقة في عالم الخمور . بل كادت الآن أن تعيده ثانية إلى صوابه - أو جعلته يبدو كذلك في أعين الغرباء . وقالت « أرابيلا » متظاهرة بالخيبة : « وعدتني عدة مرات أن تتزوجني بينما كنا نجلس هنا الليلة . سمعوك هؤلاء السادة» قال « جود » في عناد : « لا أذكر ذلك . هناك امرأة واحدة فقط ولكنني لن أذكر اسمها في هذا المكان المدنس ! » .

والتفتت « أرابيلا » إلى أبيها الذي قال : « والآن ياسيد «فاولى» كن شريفا ، عشت مع ابنتي هنا ثلاثة أو أربعة أيام على اعتبار أنك سوف تتزوجها . ما كنت بالطبع لأقبل مثل هذه الأوضاع في بيتي لو لم أعرف ذلك . ويستدعي الشرف منك أن تتزوجها الآن » .

قال « جود » في حماسة وهو يهب واقفا : « لا تقل شيئا يمس شرفي ! أفضل الزواج من عاهرة بابيلون على أن آتي ماينافي الشرف ! إنني لا أقصدك ياعزيزتي ولكنه مجرد تشبيه بليغ وهو ما يسمى في كتب اللغة بصيغة المبالغة » .

قال « دون » : « احتفظ بتشبيهاتك لنفسك وادفع ديونك لأصدقائك الذين يأوونك » .

— « لو كان الشرف يقتضينى أن أتزوجها — وهو ما أظن أنه الواقع الآن على الرغم من أننى لا أعلم كيف جئت إلى هنا إذ أن علمى فى ذلك لا يزيد على علم رجل ميت — فإننى سأتزوجها وليساعدنى الله على ذلك وإننى لم أتصرف بما ينافى الشرف مع أية امرأة أو مع أى حى . لست بالرجل الذى يريد أن ينقذ نفسه على حساب الضعفاء » .

قالت « أرابيلا » وقربت خدها من خده : « هيا . لا تلق بالا إليه ياعزيزى . اصعد الى الدور العلوى واغسل وجهك ورتب هندامك وبعدها نذهب فى الحال لنصلح ذات البين مع أبى » .

وتصافح الاثنان وصعد « جود » فى صحبة « أرابيلا » الى الدور العلوى ثم نزل وبدا مرتب الهندام هادئا ، كما بدت هى الأخرى كذلك وجاءت يصاحبها أبوها واتجه الجميع إلى خارج البيت .

قالت للضيوف وهى فى طريقها الى الخارج : « لا تنصرفوا فقد أمرت الخادمة بأن تعد الفطور ونحن فى الخارج وعندما نعود سنتناوله سويا فإن قدحا من الشاى الساخن لابد أن يعيد الوعى إلى كل منكم قبل أن يعود إلى بيته » . وعندما اختفت « أرابيلا » ومعها « جود » والجزار ، تثاءب الضيوف وبدأوا يفيقون تدريجيا من تأثير الخمر وحاولوا أن يناقشوا الموقف فى اهتمام بالغ وكان « تايلور » أكثرهم يقظة فناقش الأمور بطريقة متزنة للغاية .

قال : « لا أود أن أتكلم بالسوء فى حق أصدقاءنا ولكن يبدو عجيبا أن نرى زوجا وزوجة يتزوجان من جديد . لو كان هذان الزوجان عجزا عن الاتفاق فى المرة الأولى عندما كان عقلاهما لينين فإنى أعتقد أنهما لن يتفقا فى المرة الثانية » .

— « ألا تظن أنه سيتزوجها ؟ » .

— « لقد أحرجته المرأة بالالتجاء إلى شرفه ، وعلى ذلك سيتزوجها » .

— « لا أظن أن الزواج سيتم بهذه السرعة إذ أنه لم يعد وثيقة لمثل هذا الزواج ولم يفعل أى شىء آخر » .

— يرحمك الله ! أعدتها هى . ألم تسمعها وهى تخبر والدها بذلك ؟

قال « تايلور » وهو يشعل غليونه ثانية من المصباح الغازى : « على أى حال إذا أردت أن تحكم عليها جزءا ، جزءا ، فهى ليست بالشىء القبيح وخاصة لو نظرت إليها فى ضوء الشموع . لا تنس أن العملة التى تداولتها الأيدى لا يمكن أن تبدو جديدة كغيرها التى خرجت لتوها من دار السك . ولكن بالنسبة لامرأة جابت الآفاق وذهبت إلى أركان الدنيا الأربعة فهى تعد مقبولة نوعا ما . قد تكون سميكة نوعا وفيها غلاظة ضلوع الخنزير ولكننى أحب المرأة التى لا تسقطها نفحة الريح » .

وتتبعت الأعين حركات الخادمة وهى تعد للفطور بوضع المفرش على المائدة التى كانوا يستخدمونها فى الشراب . فعلت الفتاة ذلك دون أن تنظف المائدة من آثار الخمر . وكانت الستائر قد أزيحت عن النافذة وبدا جو البيت وكأن الصباح تقدم ومع ذلك غلب النعاس بعض الضيوف وهم فى مقاعدهم بينما ذهب بعضهم إلى الباب وأخذوا يطيلون النظر فى الطريق أمامهم وعلى رأس هؤلاء « تايلور » الذى عاد بعد فترة وهو يغمز بعينيه ويقول : « بحق السماء إنهم عائدون وأغلب الظن أن المؤامرة نجحت ! » .

وقال العم « جو » وهو يتبعه إلى الداخل : « لا بل أعتقد أنه أصبح حرونا فى اللحظة الأخيرة . إنى أراهم يسيرون بطريقة غريبة وهذا دليل على مدى قولى» .

وظل الجميع ينظرون فى صمت تام حتى سمعوا الجلبة الناشئة عن جماعة الزفاف وهى تدخل البيت وكانت « أرابيلا » أول الداخلين ونم وجهها فى وضوح عن أن خطتها كللت بالنجاح .

قال « تايلور » وهو ينحني لها بما يشبه الاحترام : « أرجح أنك أصبحت الآن السيدة « فاولى » ؟ » .

وقالت « أرابيلا » في رقة متصنعة وهي تخلع قفازها وترفع يدها اليسرى في وجهه : « بكل تأكيد أصبحت السيدة «فاولى» من جديد . ها هو القفل والمفتاح انظر ! على أي حال كان في منتهى اللطف معي وكان حقا رجلا نبيلا وشهما . أقصد القسيس ! لقد حدثني بعد انتهاء المراسم وكان في حديثه رقيقا كغلام ساذج . قال : (أهنئك من كل قلبي أيتها السيدة « فاولى » إذ أنني بعد أن سمعت قصتك وقصة زوجك أصبحت الآن أعتقد أنكما فعلتما ما هو صواب . أما عن ذنوبك في الماضي كزوجة وذنوبه كزوج فأغلب ظني أن العالم لا بد أن يغفر لكما إذ غفر كل منكما للآخر) . نعم . كان لطيفا للغاية وكان نبيلا وكان شهما . لقد عاد يقول (إن الكنيسة لا تعترف في عقيدتها بالطلاق وهذا لو أردتم الدقة ولا تنسيا ما قلته لكما أثناء الاحتفال بالزواج ، بل يجب ألا يغيب ذلك عن ذاكرتكما في خروجكما ودخولكما ، إن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان) . نعم كان رجلا لطيفا وكان شهما نبيلا . ولكنك يا « جود » كنت تتصرف بطريقة أثارت ضحك الناس جميعا وجعلتك موضع الهزؤ والسخرية ، كنت تمشي في استقامة وتشد قامتك بحيث من ينظر إليك يظن أنك تدرب نفسك على أن تصبح من رجال القضاء على الرغم من أنني كنت واثقة من أنك كنت ترى الشيء شيئين طول الوقت وذلك من الطريقة المرتبكة التي فقشت بها عن أصبعي » .

وقال « جود » متلعثما : « قلت إنني على استعداد لأن أفعل أي شيء كي أنقذ شرف امرأة ونفذت ذلك فعلا » .

— « حسن . هنا يا عزيزي نتناول بعض الطعام » .

وقال في تبلد ظاهر : « أود بعض الويسكي » .

— « هراء يا عزيزي . ليس الآن ! لم يبق لدينا منه شيء . سيزيل الشاي الغشاوة عن رءوسنا وسرعان ما ننتعش كالبلابل » .

— « حسن . ها قد تزوجتك . قالت إننى يجب أن أعود إليك وأن أتزوجك من جديد وها قد فعلت دون إبطاء هذا هو الدين الحق . ها . ها . ها ! »

(٨)

وحل عيد القديس ميخائيل وانقضى وكان « جود » وزوجته ، وقد عاشا فترة قصيرة فى منزل والد « أرابيلا » عقب زواجهما الثانى ، قد اكتريا مسكناً فى الدور العلوى من منزل أكثر قرباً من منزل المدينة .

وفى الشهور القليلة التى تلت زواجه الثانى ، لم يعمل « جود » سوى بضعة أيام فلم تكن صحته على ما يرام بل إنها أصبحت الآن منهارة وهو يجلس فى مقعد كبير أمام المصطلى ويسعل كثيراً .

كانت « أرابيلا » تقول له : « اشتريت المتاعب بأبخس الأثمان وذلك بعودتى إليك مرة ثانية ! علىّ أن آويك كلية — وتلك هى النتيجة ! سأضطر إلى عمل السجق والمرق الأسود والتجوال بهما فى الطرقات ، كل ذلك كى أعول زوجا عاجزاً لم يكن هناك مايدعو إلى الارتباط به إطلاقا . لِمَ لم تحافظ على صحتك بدلا من أن تخدع الناس هكذا ؟ كانت صحتك على ما يرام . وتمت الزفاف ! » .

وقال وهو يضحك فى مرارة : « آه نعم أفكر الآن فى الشعور الأحمق الذى أحسست به عند ما ذبحنا الخنزير أثناء زواجنا الأول وأحس الآن أن أكبر قسط من الرحمة يمكن أن ينزل على هو أن يصيبنى ما أصاب ذلك الحيوان وقتذاك ! » .

ذلك هو نوع الحديث الذى أصبح الآن يدور بينهما كل يوم . أما مالك البيت فإنه سمع أن الاثنين غريبا الأطوار فشك فى أمر زواجهما وخاصة عند ما رأى « أرابيلا » تقبل « جود » ذات مساء وقد أحست نحوه بحنين مفاجىء . لقد كان المالك على وشك أن يطلب منهما الرحيل عن البيت إلى أن وصل إلى سمعه عن طريق الصدفة فى ليلة من الليالى صوتها بينما كانت تعنف « جود » فى كلمات مدوية

ورآها وهى ترميه بحذاء فى رأسه فأدرك أن الحركة تعبر عن زواج حقيقى واستنتج أنهما محترمان فتوقف عن الكلام .

ولم تتحسن صحة « جود » وطلب يوما من « أرابيلا » بعد تردد طويل أن تؤدى له خدمة خاصة . وعند ما استفسرت منه فى إهمال عن كنه تلك المهمة قال : « أطلب منك أن تكتبى لسو » .

— « ولِمَ تريد منى بحق السماء أن أكتب لها ؟ » .

— « لتستفسرى منها عن حالها ولتعلمى إذا كانت ستحضر لرؤيتى لأننى مريض وأود أن أراها — مرة أخرى » .

— « ليس بالغريب عليك أن تهين زوجة شرعية بأن تطلب منها هذا ! » .

— « إننى أطلب ذلك منك حتى لا أوجه لك أية إهانة . إنك تعرفين تماما أننى أحب « سو » ولا أود أن أقلل من أهمية الموضوع بالنسبة لى « فالحقيقة ماثلة أمامنا وهى أننى أحبها حقا . وبوسعى أن أجد ألف طريقة كى أرسل لها الخطاب دون علمك ، ولكننى أود أن أكون صريحا أمينا معك ومع زوجها . إن رسالة تكتبينها أنت وتطلبين فيها أن تحضر ، هى على أقل تقدير رسالة خالية من الفضيحة أو الدس الحقير فلو كانت « سو » ما زالت تحتفظ بشىء من طبيعتها القديمة فإنها ستحضر » .

— « إنك لا تحترم الزواج فى قليل أو كثير ولا تدرك حقوقه وواجباته . »

— « وماذا يهمك من آرائى . إننى فقير بائس ! هل يهم أحد فى العالم أن يحضر إنسان ليرانى وليبقى معى نصف ساعة بعد أن صرت على حافة القبر ! . هيا . أرجوك يا « أرابيلا » أن تكتبى لها ! » واستمر يتوسل إليها ويقول : « قابلى سلامة طويتى بقليل من كرم الأخلاق ! »

— « لا أظن أننى سأفعل ذلك ! » وأحس « جود » كأن ضعفه الجسدى ذهب بكل ما تبقى له من كرامة وهو يقول : « ولا حتى مرة واحدة ؟ أرجوك ! »

— « ولِمَ تود أن تطلعها على حقيقة ما وصل إليه حالك ؟ إنها لا تريد أن تراك . إنها الفأرة التي غادرت السفينة الغارقة ! »

— « لا ... لا ! »

— « أما أنا فبقيت معك حتى النهاية . يا لحماقتي ! كيف أحضر هذه الفاسقة إلى هنا ! »

وبمجرد أن خرجت الكلمات من فمها هب « جود » من المقعد . وقبل أن عرفت « أرابيلا » أين كانت ، ألقى بها على ظهرها فوق أريكة هناك وركع فوقها .

وقال في صوت خفيض : « كلمة أخرى من هذا وسأقتلك هنا في الحال !

سأكون أنا الرابح على طول الخط لو فعلت ذلك ، أما موتي فلن يكون آخر شيء أربحه من وراء ذلك لذا لا تظنى أنني أمزح بهذا القول ! »

وقالت وهي تلهث : « وماذا تريد مني أن أفعل ؟ »

— « عديني بألا تتحدثي عنها أبدا . »

— « حسن للغاية . أعدك . »

قال في احتقار وهو يتركها تفلت من قبضته : « سأصدقك . أما عن قيمة وعدك فلا أستطيع أن أقول . »

— « لم تستطع أن تذبح الخنزير ولكنك تستطيع أن تقتلني ! »

— « آه . ها أنت ذا تغلبت علي . لا أستطيع أن أقتلك ــ حتى في سورة غضبي . اسخرى مني أذن ! »

وبعد ذلك أخذ يسعل كثيرا جدا وقدرت المدى الذى سوف يمتد إليه عمره وهي تنظر إليه في إشفاق وهو ممدد ووجهه ممتقع وغمغمت « أرابيلا » تقول : « اسوف أرسل في طلبها لو وافقت على أن أظل معك في الغرفة طول وقت بقائها هنـــا . »

لقد جعله الجانب الأرق من طبيعته ورغبته فى أن يرى « سو » عاجزا عن رفض ما عرضت حتى فى هذه اللحظة وهو فى ذروة اهتياجه فأجابها لاهثا : « نعم . أوافق . فقط أبعثى فى طلبها . »

وفى المساء استفسر منها عما إذا كانت كتبت لها فقالت: « نعم . كتبت رسالة أخبرها أنك مريض وطلبت منها أن تحضر غداً أو بعد غد . لم أرسلها بعد . »

وفى اليوم التالى تساءل « جود » عما إذا كانت أرسلت الخطاب حقا . ولكنه لم يشأ أن يسألها ودعاه الأمل الأحمق الذى يقتات على أتفه الأمور إلى الانتظار فى قلق وتوقع . وكان يعلم مواعيد القطارات التى يحتمل أن تستقلها ويرهف السمع كلما سمع صوتا يظن أنه صوتها .

لم تحضر ، ولكن « جود » رفض أن يخاطب « أرابيلا » فى الموضوع ثانية . أخذ يأمل ويتوقع طيلة اليوم التالى ولكنها لم تظهر كما أنه لم يتلق منها أية رسالة. هنا قرر فى أعماق نفسه أن « أرابيلا » لم ترسل الخطاب قط على الرغم من أنها كتبته فعلا . كان فى تصرفاتها ما أوحى بذلك وكان ضعفه الجسدى بلغ درجة جعلته ليأسه يجهش بالبكاء فى الأوقات التى لم تكن موجودة معه حتى لا تراه . وكانت شكوكه فى الواقع على أساس قوى . أما « أرابيلا » فظنت ، كغيرها من الممرضات ، أن واجبها حيال مريضها هو أن تعمل على تهدئته بطريقة ما غير إرضاء نزواته .

لم يعد يذكر لها شيئاً عن رغبته أو عن شكوكه غير أن تصميما صامتاً خفياً نما فى داخل نفسه ومنحه القوة كما منحه الاتزان والهدوء . وفى أحد الأيام ، وكان الوقت ظهراً ، عادت بعد غياب ساعتين فى الخارج ودخلت حجرته فإذا بها تجد مقعده خاليا .

وارتمت بكل جسدها على السرير ثم جلست وفكرت فى عمق وقالت: « والآن إلى أية مصيبة ذهب زوجي! » .

وكانت الأمطار المنهمرة القادمة من الجهة الشمالية الشرقية تهطل دون انقطاع طوال الصباح . وعندما نظرت من النافذة إلى السيول المنهمرة من السماء شعرت أنه من المستحيل أن تصدق أن مريضا يستطيع المغامرة بالخروج إلى حيث يلاقى حتفه المؤكد ومع ذلك ، تملكها اعتقاد راسخ أنه خرج وأصبح ذلك الاعتقاد حقيقة واقعة عندما فتشت البيت وقالت : « لو كان مجنونا هكذا ، ليحدث له ما يحدث ! لا يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك » .

فى تلك اللحظة كان « جود » فى محطة السكة الحديد القريبة من « ألفردستون » يلف نفسه بطريقة غريبة وعلى وجهه بدا الشحوب واضحا وكان كأنه تمثال أثرى مصنوع من المرمر وكان المسافرون يحملقون فيه كثيرا . وبعد ساعة ، وجسمه النحيل يكمن داخل المعطف الكبير الطويل وقد لف حول جسده ملاءة ، غير أنه بلا مظلة ، وعلى هذه الحال رآه الناس وهو يقطع الطريق الموصل إلى « ميريجرين » وطوله خمسة أميال . على وجهه ارتسمت علامات التصميم الذى هو وحده دعامته – وإن أمده ضعفه الجسدى بأساس واه . وعندما جاء إلى المنطقة المصعدة فى التل ، شعر بمقاومة الريح لحركته ولكنه أسرع السير . وفى الثالثة والنصف وقف بجوار البئر المعروف فى « ميريجرين » والمطر قد احتجز الجميع داخل منازلهم فعبر منطقة الحشائش إلى الكنيسة دون أن يلحظه أحد ووجدها مفتوحة . هنا وقف يتطلع طويلا إلى المدرسة حيث استطاع أن يسمع النبرات الموسيقية للأصوات الشابة التى لم تتعلم أنين الخليقة .

انتظر حتى خرج من المدرسة غلام صغير – ويظهر أنه سمح له بالخروج قبل الميعاد لسبب أو آخر ورفع « جود » يده وجاء الغلام .

– « اذهب من فضلك إلى البيت الملحق بالمدرسة واطلب من السيدة « فيلوتسون » أن تتفضل بالحضور إلى الكنيسة لبضع دقائق » .

وراح الصبى وسمعه « جود » يطرق باب المسكن . أما هو فسار إلى داخل الكنيسة . كان كل شىء جديدا ما عدا بقايا صخرية قديمة من قطع تبقت بعد

تجديد البناء وثبتت فى الحوائط الجديدة فوقف بجوار هذه القطع التى بدت شبيهة بمن ماتوا من أهل ذلك المكان وكانوا أجداده وأجداد « سو » .

وعند المدخل سمع صوت أقدام خفيفة لم يزد على أن يكون صوت سقوط قطرة مضافة إلى الغيث المنهمر وتلاشت حوله .

— « أوه ـ لم أكن أظن أنه أنتَ . لم أكن أظن ـ أوه يا « جود » . »
وانتاب نفسها نوبة هستيرية أعقبتها نوبات أخرى وتقدم نحوها ولكنها أفاقت لنفسها بسرعة وقفلت راجعة .

أخذ يقول لها متوسلا : « لا تذهبى ـ لا تذهبى ! هذه مرتى الأخيرة ! ظننت أن انتظارى هنا يكون أقل تطفلا من دخولى إلى بيتك وان أجىء بعد الآن فلا تكونى إذن عديمة الرحمة . سو ، سو ! نحن نتصرف تصرفا حرفيا « والحرف يقتل ! » .

قالت وقد ارتعش فمها وانهمرت الدموع من عينيها بينما سمحت له بالاقتراب منها : « سأبقى . ان أكون قاسية ! ولكن ، لم حضرت وأتيت هـــذا العمل الخاطىء . بعد ذلك العمل الصائب الذى قمت به ؟ » .

— « أى عمل صائب ؟ » .

— « زواجك ثانية من « أرابيلا » . جاء ذلك فى جريدة « ألفردستون » . لم تكن قط زوجة لإنسان غيرك يا « جود » ـ بالمعنى الصحيح للكلمة . على ذلك أحسنت صنعا ـ أوه ، أحسنت صنعا باعترافك بهذا ـ وبإعادتها إليك ثانية » .

— « يا إله السموات ! وهل هذا كل ما أتيت لأسمعه ؟ إن كان فى حياتى ما يحط من قدر الإنسان ويبعده عن الفضيلة ، شىء أكثر شذوذا فهو هذا العقد الدنس الذى عقدته مع « أرابيلا » والذى تسمينه بالتصرف السليم ! وأنت أيضا ـ أنت تسمين نفسك زوجة « فيلوتسون » ! زوجته ! أنت زوجتى » .

— « لا تجعلنى أهرب منك ـ لم أعد أحتمل ! ولكن على هـــذا إنى مصممة » .

— « لا أستطيع أن أفهم كيف فعلتها ـ كيف عقلتها ـ لا أستطيع ! » .

— « دعك من ذلك : إنه زوج رفيق بى ـ وإنى ـ إنى ـ تصارعت وناضلت وصمت وصليت . تقريبا أخضعت جسدى تماما . ويجب ألا ـ أرجوك ـ توقظ ـ»

— « واها لك أيتها الحمقاء الصغيرة . العزيزة . أين عقلك ؟ يبدو أنك تعانين من فقدان ملكاتك ! من الممكن أن أتجادل وإياك لو لم أعلم أن امرأة فى مثل حالتك الوجدانية لا يجدى معها مخاطبة عقلها . أو هل الحقيقة هى أنك تخدعين نفسك ، كما هى الحال مع كثير من النساء ، عندما يقفن هذا الموقف فلا يعتقدن فى صحة ما يتظاهرن به ولا يهمهن سوى الاستمتاع بترف عاطفة خلقها اعتقاد مزيف ؟ » .

— « ترف ! كيف يمكن أن تكون بهذه القسوة ؟ » .

— « أنت أيتها العزيزة ، الحزينة ، الرقيقة . أنت الحطام المقبض لعقلية كانت ناهضة متفتحة وكان من حظى أن أمتع بها ناظراى ! أين ذهب احتقارك للتقاليد ؟ لو كنت فى مكانك لحاربت حتى الموت فى شجاعة ! »

استدارت فى سرعة وقالت : « إنك تسحقنى وتكاد تهيننى يا جود ! أغرب عنى ! » .

— « سأفعل . لن آتى لرؤيتك ثانية ، حتى لو كان لدى القوة التى لن تواتينى مرة أخرى ، « سو » « سو » ... أنت لا تستحقين الحب ! » .

وبدأ صدرها يعلو وينخفض وهى تقول : « لا يمكننى أن أتحملك وأنت تقول ذلك ! » واستقرت عيناها عليه لحظة ثم استدارت سريعا وقالت فى اندفاع : « لا تحتقرنى لا تحتقرنى ! قبلنى أجل ، قبلنى مرات عديدة وقل إننى لست جبانة ولا خداعة حقيرة — لا أحتمل ذلك ! » .

ثم اندفعت نحوه واستمرت تقول وهى تضع فمها فوق فمه : « يجب أن أقول لك — أجل يجب — ياحبى العزيز ! إن ما حدث لا يزيد عن مجرد إجراءات كنسية — زواج ظاهرى أقصد ! لقد اقترحه هو فى مبدأ الأمر ! » .

— « وكيف ؟ » .

— « أقصد أنه مجرد زواج صورى لم يزد على ذلك أبداً منذ أن عدت إليه ! »
وضمها إليه فى قوة واعتصرها بين ذراعيه وغمر وجهها بالقبلات وهو يقول :
« سو ، لو أمكن للبؤس أن يذوق طعم السعادة فهذه لحظة سعادتى ! استحلفك
بكل مقدساتك أن تقولى الحق ولا تكذبى . أما زلت تحبيننى ؟ » .

— « نعم . أنت تعلم تمام العلم ! ولكن يجب ألا أفعل هـذا ! — يجب
ألا أبادلك القبلات كما أفعل الآن ! » .

— « ولكن افعلى ! » .

— « ومع ذلك فأنت عزيز علىّ للغاية ! — وكم تبدو مريضاً — » .

— « وهكذا أنت أيضاً ! شىء آخر ، لذكرى أطفالنا الصغار المتوفين —
أطفالك وأطفالى ! »

وأصابتها الكلمات كضربة فأحنت رأسها وقالت لاهثة : « لا ... لا أستطيع
أن أستمر فى هذا ! ولكن هاك أيها العزيز وهاك . إنى أرد لك قبلاتك — نعم ،
نعم ! والآن لابد أن أكره نفسى لهذه الخطيئة مدى الحياة . »

— « لا ... دعينى أتقدم برجائى الأخير . أنصتى إلى هذا ! عدت لزوجتى
الأولى وعدت لزوجك الأول ولم نكن فى تمام قوانا . أُسكرتُ لأفعلها . وكنت
فى نفس الحال . كنت نشوان بخمر « الجن » وكنت نشوانة بخمر العقيدة . أى
من النشوتين لابد أن تقضى على التهيؤات النبيلة . . دعينا إذن ننفض عنا
أخطاءنا ونهرب معاً ! »

— « لا . ثانية لا ! ... لمَ تغرينى إلى هذا الحد يا « جود » ؟ هذا منتهى
القسوة ... ولكننى تغلبت على نفسى الآن ! لا تتبعنى — لا تنظر إلىّ .

اتركنى شفقة بى ! » وركعت داخل الكنيسة إلى الجهة الشرقية منها وفعل
« جود » كما طلبت . لم يدر رأسه ، ولكنه حمل ملاءته ولم تكن « سو » قد

رأتها ، وخرج مسرعا . وعندما مر بطرف الكنيسة سمعت نوبات سعاله فاختلطت بصوت المطر المتساقط على النوافذ . وبدافع أخير من الحب الإنسانى الطليق من كل قيد قفزت وكأنها تهرع لنجدته ، ولكنها جثت على ركبتيها ثانية وغطت أذنيها بكفيها حتى اختفى آخر صوت له .

فى تلك اللحظة كان قد وصل إلى رأس الساحة الخضراء التى يخرج منها الطريق المتجه إلى المزارع حيث اعتاد فى صباه أن يخيف الغربان . هنا استدار ونظر خلفه مرة إلى البناء الذى ضم « سو » ثم واصل السير وهو يعلم أن عينيه ان تقعا على ذلك المنظر مرة أخرى .

فى فصلى الخريف والشتاء تنتشر فى إقليم « وسكس » دوائر باردة ولكن أكثرها يأتى فى أثناء هبوب رياح من الشرق ، أو أخرى من الشمال وتتركز حول المنخفض القريب من البيت الأسمر حيث يلتقى الطريق المؤدى إلى « الفردستون » بالطريق القديم المسمى بطريق « ريدجواى » . فى هذا المكان تسقط أول ثلوج الشتاء وتبقى هناك أمطار ذات القطرات التى توشك على التجمد . فى هذا المكان أيضا يتأخر ذوبان الصقيع فى حين يبدأ فصل الربيع وتتوالى أيامه . وهنا فى قبضة الرياح الشمالية الشرقية وتحت وابل الأمطار المنهمرة تلمس «جود» طريقه وهو غارق فى البلل وكانت حركته البطيئة الناتجة عن فقدانه لسابق قوته لا تكفى لكى يظل على شىء من الدفء . جاء إلى صخرة الطريق وافترش الملاءة وجلس يستريح فى ذلك الجو المطير .

وقبل أن يستأنف سيره ، اتجه نحو الصخرة وتحسس ظهرها بحثا عن كتاباته . وكانت الكتابة ما زالت هناك وإن أزالت الطحالب معظمها . وسار تاركا وراءه البقعة التى نصبت فيها المشنقة لأحد أسلافه وأسلاف « سو » ثم نزل التل .

وعندما جاء إلى « الفردستون » كان الظلام قد حل فتناول قدحا من الشاى إذ أن الرعشة القاتلة التى بدأت تزحف عليه وتغزو عظامه جعلته لا يتحمل الصوم . ولكى يصل إلى بيته ، كان عليه أن يستقل الترام وبعدها يركب القطار على مرحلتين

مع انتظار طويل عند أحد التقاطعات . وحتى العاشرة لم يكن قد وصل إلى « كرايستمينيستر » .

(٩)

وعلى الرصيف وقفت « أرابيلا » تنظر إلى « جود » من أعلاه إلى أسفله .

قالت : « هل ذهبت لرؤيتها ؟ » .

أجاب وهو يرتعش من أثر البرد والرطوبة : « نعم فعلت » .

— « حسن . يحسن بك أن تسير الآن إلى البيت » .

وكان الماء يتساقط منه وهو يمشي واضطر إلى أن يتكىء على الحائط ليسند نفسه وهو يسعل .

— « قضيت على نفسك بفعلتك هذه أيها الرجل . لا أدرى إذا ما كنت تدرك ذلك ! » .

— « نعم أدركه . . تعمدت ذلك » .

— « ماذا ! أكنت تقصد أن تنتحر ؟ » .

— « بالتأكيد » .

— « حسن . ليرحمنى الله ! أتقتل نفسك من أجل امرأة ؟ » .

« استمعى إلى يا « أرابيلا » تظنين أنك أقوى منى وهذه حقيقة واقعة إذا اعتبرنا القوة البدنية إذ فى مقدورك أن توقعينى على الأرض كما توقعين لعبة خشبية صغيرة . إنك لم ترسلى الخطاب فى ذلك اليوم ولم أستطع حينئذ أن ألومك على مسلكك ولكننى لست من الضعف فى نواح أخرى كما تظنين . لقد انتهيت بينى وبين نفسى ، وأنا حبيس حجرتى بسبب ما أصاب رئتى من التهاب ، إلا أنه لم يبق لى فى الحياة سوى رغبتين ، أولهما أن أرى امرأة معينة ، وثانيهما أن أموت . كان فى استطاعتى أن أحقق هاتين الرغبتين فى ضربة واحدة لو أننى قمت بهذه

الرحلة وسط الأمطار وهذا ما فعلته بالضبط . لقد رأيتها لآخر مرة وبعدها قضيت على نفسي ووضعت حدا لحياة محمومة كان يجب ألا تبدأ أبدا ! » .

— « يا إلهي . إنك حقا تتحدث حديثا فيه تسامٍ بالنفس ! ألا تشرب شيئا ساخنا يدفئك ؟ » .

— « لا . أشكرك . دعينا نصل إلى البيت » .

وسارا معا بجوار الكلمات الصامتة وهو يتوقف بين الحين والحين .

— « إلام تنظر ؟ » .

— « تهيؤات سخيفة . أرى بطريقة ما أشباح أولئك الموتى ثانية وهي التي رأيتها عندما سرت في هذا الطريق في المرة الأولى ! .

— « يالك من مخلوق عجيب ! » .

— « يبدو أنني أراهم وأكاد أسمع حفيف أثوابهم . لكنني لا أتبينهم كلهم كما كان الحال في المرة الأولى . إنني لا أومن إلا بعدد قليل منهم . إن علماء الدين وشراحه والمدافعين عنه ومن هم على شاكلتهم ممن يؤمنون بالميتافيزيقا والطغاة وغيرهم أصبحوا الآن لا يثيرون اهتمامي إذ أن كل ذلك فقد سحره في عيني من وطأة الحقائق الرهيبة في الحياة وقوة طحنها لنا » .

وفي ضوء المصباح دل التعبير الذي بدا على وجهه الذي كان يشبه وجه جثة ميتة ، على أنه فعلا يرى بعين خياله أناسا يتحركون أمامه . ومرت لحظات كان يقف فيها ساكنا عند أحد العقود كأنما يرقب شبحا يخرج من بينها . بعد ذلك يتطلع إلى إحدى النوافذ كمن يحاول أن يتعرف خلفها وجها مألوفا . وبدا كأنه يسمع أصواتا لذا أخذ يكرر ألفاظا كما لو كان يحاول تفهم معانيها .

— « يبدو أنهم يسخرون مني ! » .

— « من ؟ » .

— « أوه . كنت أحادث نفسى ! أقصد الأشباح التى تمـــلأ المكان هنا وتندس بين عقود الكليات ونوافذها . فى الأيام الماضية كانت هذه الأشباح تنظر إلىّ فى ود وخاصة أشباح رجال مثل «أديسون» و «جيبون» و «جونسون» والدكتور « براون » والأسقف « كين » .

— « هيا أسرع أى أشباح تلك التى تتحدث عنها ؟ ما من أشباح هنا . ما من أحياء هنا ولا أموات ماعدا رجلا واحداً من رجال البوليس ولم يسبق أن رأيت الطرقات خالية مثلما أراها الآن » .

— « تصورى ! شاعر الحرية اعتاد أن يمشى هنا ! وهناك أيضا سار شاعر الأحزان وطبيبها العظيم ! » .

— « لا أود أن أسمع عنهم شيئا إننى أضيق بذكرهم » .

— « إن « والتر رالى » يحيينى من ذلك المنعطف . كذلك يتطلع إلى « ويكليف » و « هارفى » و « هوكر » و « أرنولد » و «جمع غفير من أشباح العلماء كتاب المحاورات » .

— « قلت لك إننى لا أود أن أسمع أسماءهم . ماذا يهمنى من أناس ماتوا وانقضى أمرهم ؟ أقسم بذات نفسى أنك تتمالك نفسك عندما تقع تحت تأثير الخمر وتبدو حينئذ أكثر يقظة مما أنت الآن ! » .

قال : « يجب أن أستريح لحظة » .

وبينما وقف ليستريح أمسك بالقضبان وراح يقيس بعينيه ارتفاع واجهة الكلية وهو يقول : « هذا فن « روبريك » القديم وذلك فن المقابر ، وفى أعلى ذلك الطريق الضيق أرى « كروتيزر » و « ثيودور » ، وفى المنخفض هناك أرى كلية الكاردينال بواجهتها الطويلة ونوافذها ذات الحواجب السامقة التى تبدو وكأنها تعبير عن الدهشة المؤدبة الرقيقة للجامعة وهى تتطلع إلىّ وإلى ماقمت به من جهود وما قدمته للبرية من خدمات ! » .

— « تعال معى وسأعالجك ! » .

— « حسن للغاية . ساعدينى يا « أرابيلا » كى أعود إلى البيت إذ أننى أشعر بالضباب البارد المنبعث من المراعى المحيطة بكلية الكاردينال وكأنه مخالب الموت تأخذ بتلابيبى وتجذبنى إليها شيئا فشيئا ، وكما قالت « أنتيجون » ابنة « أوديب » الملك إننى لا أحسب فى عداد الأحياء ولا فى عداد الأشباح ولكن عندما أموت يا « أرابيلا » سوف ترين روحى وهى تهيم هنا وهناك بين هـــذه الكليات الجامعية ! » .

— « أف لك ! قد لا تموت على كل حال . إنك أيها العجوز مازلت قويا » .

كان الوقت ليلا فى « ميريجرين » وكان المطر الذى بدأ ينهمر وقت الأصيل لم يبد عليه أية علامة تدل على أن حدته أوشكت أن تخف . وفى اللحظة عينها التى عندها كان « جود » و « أرابيلا » يسيران فى شوارع « كرايستمينيستر » ويتجهان إلى بيتهما ، كانت الأرملة « إيدلين » تعبر الأرض الخضراء وتفتح الباب الخلفى لبيت المعلم وقد تعودت أن تفعل ذلك قبل أن تأوى إلى مخدعها وذلك كى تساعد « سو » فى أعمال البيت .

كانت « سو » ممن يرتبكن فى أعمال المطبخ وهى عاجزة عن القيام على شئونه إذ لم تكن سيدة منزل ماهرة على الرغم من أنها حاولت أن تصبح كذلك . وكانت تفقد صبرها كلما واجهت دقائق الأعمال المنزلية .

— « ليسامحك الله . لم تقومين بنفسك بهذه الأعمال بينما جئت أنا خصيصا لأقوم بها ؟ كنت تعلمين أننى سأحضر » .

— « أوه ، لا أعلم ، نسيت ! لا . لم أنس . ولكننى كنت أقوم بذلك العمل لأروض نفسى . وقمت بغسل السلم بالفرشاة منذ الثامنة . يجب أن أدرب نفسى على الواجبات المنزلية إذ أننى أهملتها قبل الآن وما كنت لأحس بأى خجل لذلك » .

— « ولم تدربين نفسك على مزاولة تلك الأعمال ؟ قد يعمل زوجك فى

مدرسة أفضل من هذه ويصبح قسيسا عندما يحين الحين وفى هذه الحالة ستحتفظين فى بيتك بخادمين إذ من المؤسف حقا أن تفسدى جمال يديك البديعتين » .

— « لا تتحدثى عن يدى الجميلتين أيتها السيدة « إيدلين » فإن جسدى الجميل هذا كان هو السبب فى أن أخسر نفسى خسرانا مبينا ! » .

— «أف لك ! أليس لديك من تتسلين معه بالحديث ؟ إنك تجعليننى أفكر فى الروح وأمورها ولكن يبدو أن خطأ ما وقع الليلة أيتها العزيزة . هل زوجك غاضب عليك ؟ » .

— « لا . إنه لا يغضب أبدا . لقد آوى إلى فراشه لينام فى ساعة مبكرة » .

— « إذن فماذا هناك ؟ » .

— « لا يمكننى أن أقول شيئا . ارتكبت خطـــأ اليوم وأود أن أزيل آثاره . حسن ، سأطلعك على الأمر . كان «جود» هنا وقت الأصيل واكتشفت أننى ما زلت أحبه ! إنى أحبه بطريقة أخجل من ذكرها ! لا يمكن أن أقول لك أكثر من ذلك ! » .

قالت الأرملة : « آه . قلت لك أن ذلك سيحدث » .

— « ولكن يجب ألا يحدث شىء كهذا ! لم أخبر زوجى بمجىء « جود » إذ لا داعى لإقلاقه بشأن هذا الأمر إذ أننى أنوى ألا أرى « جود » مرة أخرى . لكننى سأريح ضميرى من ناحية « ريتشار » وذلك بأن أكفر عن فعلتى وهذا أقصى ما أستطيع أن أفعله ولا بد أن أفعله ! » .

— « ما كنت لأفعل ذلك طالما أنه يرضى بأن تسير الأمور كما هى الآن وقد استمر الحال هكذا ثلاثة أشهر وكل شىء على ما يرام » .

— « نعم . إنه يوافق على أن أعيش بالطريقة التى أختارها ولكننى أحس أن فى هذا تضحية من جانبه يجب ألا أقبلها منه . ومن الواجب ألا أقبل منه مثل هذه التضحية . لا يجوز أن أرغمه على التسليم بها وإن كان هذا الوضع يخفف

كثيرا من الضيق الذى أحس به . غير أننى لا بد أن أكون أكثر عدلا فى معاملته ... ويحى ! إنى ألوم نفسى الآن كثيرا على ضعفى وقصورى ! » .

قالت السيدة « إيدلين » فى كثير من الفضول : « ما الذى لا تحبينه فيه ؟ » .

— « لا يمكننى أن أخبرك بشىء . هذا أمر لا يمكننى أن أفصح عنه والشىء المحزن حقا أنه ما من أحد يوافقنى على ما أراه أنه السبب فى شعورى هذا وعلى ذلك فلا عذر لى » .

— « وهل أخبرت « جود » يوما بذلك ؟ » .

— « أبداً » .

قالت الأرملة فى صوت خفيض : « فى أيام شبابى سمعت قصصاً غريبة عن الأزواج . قيل إنه عند ما كانت الأرض مسكونة بالقديسين والقديسات اتخذت الشياطين بالليل شكل الأزواج وبذلك كانوا يوقعون النساء المساكين فى حبائلهم ويسببون لهم متاعب كثيرة . لكننى لا أدرى لِمَ أفكر فى ذلك الآن فهى لا تزيد عن مجرد قصة . ما أكثر المطر وأشد الريح هذه الليلة ! على أية حال ، لا تتعجلى تغيير الأوضاع ياعزيزتى ولكن فكرى فى الأمر مليا » .

— « لا . لا ! سخرت كل جهودى كى أكون رفيقة به ولا بد أن أروض نفسى الضعيفة على النجاح فى ذلك وبأسرع ما يمكن قبل أن تنهار قواى » .

— « لا أظن أن من واجبك أن تغالى طبيعتك وما من امرأة يتوقع منها المرء ذلك » .

— « هذا واجبى ولسوف أتجرع كأسى حتى الثمالة » .

وبعد نصف ساعة ، وعند ما ارتدت السيدة « إيدلين » شالها وقبعتها لتغادر البيت ، بدت « سو » وكأن رعبا غامضا تملكها . وجحظت عيناها وقالت فى توسل وهى تنظر نظرات زائغة مضطربة : « لا لا . لا ترحلى أيتهـــا السيدة « إيدلين » . » .

— « ولكن حان وقت النوم ياطفلتى » .

— « نعم ولكن ثمة حجرة خالية وكانت من قبل حجرتى . إنها معدة تماما فأتوسل إليك أن تبقى فيها أيتها السيدة « إيداين » ! سأحتاج إليك غداً صباحا » .

— « أوه . حسن . أنا لا أعارض لو كانت هذه رغبتك إذ لن يحدث شيء لكوخى الصغير القديم ذى الحوائط الأربع سواء قضيت الليلة هنا أم لا » .

وبعد ذلك أحكمت « سو » غلق الباب ثم هبطت المرأتان السلم معا .

وقالت « سو » : « انتظرى هنا أيتها السيدة « إيداين » . سأذهب إلى حجرتى القديمة لحظة » .

واستدارت بعد أن تركت الأرملة على عتبة الباب وتوجهت إلى حجرتها التى كانت مخصصة لها وحدها ولم يدخلها أحد منذ أن وصلت إلى « ميريجرين » . وبعد أن دفعت باب الحجرة جثت بجوار السرير دقيقة أو دقيقتين ثم نهضت وأخذت قميص نومها وخلعت ملابس النهار وخرجت إلى السيدة « إيداين » وكان ثمة صوت رجل يغط فى الحجرة المقابلة . وألقت تحية المساء على السيدة « إيداين » بعد أن أوت هذه إلى الحجرة التى أخلتها « سو » لتوها .

وفتحت « سو » مزلاج باب الحجرة المقابلة وانهارت بكل جسدها كأنما انتابها شعور بالإغماء ثم نهضت ثانية وفتحت باب الغرفة قليلا ثم صاحت : « ريتشارد ! » وعند ما خرجت الكلمة من فمها اهتز جسدها بشكل ملحوظ .

وانقطع الغطيط لحظة ولكن لم يجبها أحد فأحتمت بالارتياح وقفلت راجعة إلى حجرة السيدة « إيداين » وقالت : « هل نمت أيتها السيدة « إيداين ؟ » قالت الأرملة وهى تفتح الباب : « كلا أيتها العزيزة فإننى عجوز بطيئة الحركة ويتطلب خلع ملابسى وقتاً طويلا . إننى لم أفرغ بعد من حل أربطة ملابسى الداخلية » .

— « إنى — إنى لا أسمعه ! من المحتمل — من المحتمل — ! » .

— « ماذا تقصدين ياطفلتى ؟ » .

وقالت وهى تلهث : « قد يكون مات ! فى هـذه الحال أصبح طليقة وحينئذ أستطيع أو أعود إلى « جود » ! آه — لا — بل هناك « أرابيلا » لقد نسيتها كما نسيت الله ! » .

— « دعينا نعود ونصيخ السمع . إنه يغط من جديد ولـكن المطر والريح من الشدة بحيث لا يمكنك أن تسمعى شيئا إلا بين الحين والحين » .

وتراجعت « سو » وهى تجر ساقيهـــا جراً وقالت : « أسعدت مساء مرة أخرى أيتها السيدة « إيدلين » ! إنى آسفة لازعاجك » . وعادت الأرملة أدراجها مرة ثانية .

وعنـد ما أمست « سو » بمفردها عادت إلى وجهها مسحة التوتر والحيطة وهمست تقول : « يجب أن أفعل ذلك . يجب أن أذهب إليه . يجب أن أذهب إليه ! يجب أن أتجرع كأسى حتى النهاية ! » ثم نادت عليه مرة ثانية وقالت : « ريتشارد » ! » .

— « ماذا ؟ أهذا أنت يا « سوزانا » ؟ »

— « نعم » .

— « ماذا تريدين ؟ ماذا هنالك ؟ انتظرى لحظة » . وجذب بعض أجزاء ملابسه وجاء إلى الباب وقال : « نعم ؟ » .

— « عندما كنا فى « شاستون » رأيت أن أقفز من النافذة وفضلت ذلك على أن أدعك تقترب منى ولم أعمل من جهتى على تعديل هذا المسلك حتى الآن . جئت الآن أطلب منك أن تعفو عنى وأرجوك أن تسمح لى بالدخول » .

— « قد تكونى قد جئت نتيجة لشعورك بأن ذلك واجب عليك ! ولـكننى لا أود أن تأتى إلىّ على عكس رغبتك الطبيعية كما قلت لك من قبل » .

انتظرت لحظة ثم قالت مرة أخـــرى : « ولـكننى أرجوك أن تسمح لى بالدخول . أرجوك أن تفعل ذلك ! أخطأت حيالك فى الماضى ومازلت كذلك حتى اليوم . ونلت من الحقوق أكثر مما أستحق . لم أكن أقصد أن أحدثك عن ذلك ولـكن قد يكون من الأوفق أن أفعل ذلك الآن إذ فى أصيل يومنا هذا ارتكبت خطيئة فى حقك . »

— « وكيف ؟ »

— « قابلت « جود » ! لم أكن أدرى أنه جاء و . . . »

— « حسن ؟ »

— « قبلته وسمحت له بأن يقبلنى . »

— « أوه . . . القصة القديمة ! »

— « « ريتشارد » . لم أكن أدرى أننا سنتبادل القبلات حتى وجدت أننا نفعل ذلك فعلا ! »

— « وكم مرة حدث ذلك ؟ »

— « تبادلناها مرات عدة . إننى أشعر بالذعر كلما تذكرت ذلك وأقل ما يمكننى أن أفعله الآن لأكفر عن خطيئتى هو أن آتى إليك هـكذا . »

— « تعالى . هذا العمل منك ينطوى على شر كثير بعد كل الذى فعلته لك ! هل لديك شيء آخر تودين أن تعترفى لى به ؟ »

كانت تنوى فى قرارة نفسها أن تقول : « ولـكننى ناديته وقلت له يا حبيبى ! » إلا أنها ، باعتبارها فى موقف التوبة ، أخفت جزءا من الحقيقة وظل هذا مجهولا لايعلم به « فيلوتسون » . واستمرت تقول : « لن أراه بعد اليوم . لقد ذكرنى بالماضى فضعفت أمامه . وتحدث عن ـ الأطفال ـ ولـكن ، كما قلت لك إنى سعيدة . إنى سعيدة لأنهم ماتوا يا « ريتشارد » ولأن ذلك يخفى معالم حياتى الماضية ! »

— « حسن . فيما يتعلق بقولك إنك لن تربنه بعد اليوم – تعالى – هل تقصدين ذلك حقا ؟ »

كان فى صوت « فيلوتسون » مايدل على أن الأشهر الثلاثة التى انقضت منذ إعادة زواجه من « سو » لم تكن مرضية كما توقع أن تكون رغم صبره وكرم أخلاقه وسماحة نفسه .

— « نعم . نعم ! »

— « هل تقسمين بالإنجيل على ذلك ؟ »

— « أقسم . »

وذهب إلى الحجرة ثم عاد ومعه أنجيل صغير أسمر اللون وقال : « والآن ليكن الله فى عونك » .

وأقسمت .

— « حسن للغاية ! » .

— « والآن أتوسل إليك يا « ريتشارد » يا من أنتمى إليه وحده ويا من أرغب فى إكرامه وطاعته تنفيــذاً للقسم الذى أقسمته ، أتوسل إليك أن تدعنى أدخل » .

— « فكرى فى الأمر مليا . إنك تعلمين معنى ما أنت مقدمة عليه . لقد كانت عودتك إلى البيت شيئا ، أما هـذا فشىء آخر مختلف تماما لذا فكرى مرة أخرى » .

— « فكرت وأنا التى أود هذا ! » .

— « هـذا دليل على روحك السمحة ومن المحتمل أن تكونى على صواب فى حالة كهذه عنـد ما يكون ثمة حبيب على قيد الحياة يصبح من ألزم الأمور على المرء أن يكمل الزواج الناقص خشية هـذا الحبيب . لكننى أذكرك للمرة الثالثة والأخيرة » .

ـــ « إنها رغبتى أنا ! أوه يا إلهى ! » .

ـــ « ولم تقولين أوه يا إلهى ؟ » .

ـــ « لا أدرى ! » .

ـــ « أجل بل أنت تدرين ولكن ... » .

ثم أخذ يمعن النظر فى جسدها النحيل الضعيف وهى قابعة أمامه فى ملابس النوم وسرعان ما قال : « على أية حال كنت أظن أن الأمر لا بد أن ينتهى هكذا فلست مدينا لك بشىء بعد هذه العلامات ولكننى سآخذك بقولك وسأعفو عنك » .

ولف ذراعه حول خصرها وهم بحملها ولكنها جفلت منه .

وقال وفى صوته نبرة حازمة لأول مرة . « ماذا دهاك ؟ إنك تجفلين منى ثانية ؟ إنك تفعلين كما فعلت فى المرة الأولى ! »

ـــ « لا يا « ريتشارد » . أنا ـــ أنا ـــ كنت أفكر ـــ » .

ـــ « هل ترغبين فى المجىء إلى هذه الغرفة أم لا ؟ » .

ـــ « نعم » .

ـــ « وهل تدركين معنى ذلك ؟ » .

ـــ « نعم فمن واجبى أن أفعل ذلك ! » .

ووضع « فيلوتسون » الشمعة على الصوان القريب وقاد « سو » إلى الداخل ورفعها بين يديه وقبلها وسرعان ما كست وجهها نظرة تدل على الاشمئزاز والنفور ولكنها أخذت تصر على أسنانها حتى لا تفلت من بينها صرخة .

كانت السيدة « إيدلين » فى ذلك الوقت قد خلعت ملابسها وأوشكت أن تأوى إلى فراشها لولا أن قالت فى نفسها : « آه ـــ يحسن أن أذهب وأرى إن كانت الصغيرة بخير . ما أشد الريح وما أكثر المطر الليلة ! » .

وخرجت الأرملة ووقفت على عتبة البيت فرأت أن « سو » اختفت فقالت « آه . يا لها من مسكينة ! إننى أصدق الآن أن الأفراح هذه الأيام كالجنازات . خمسة وخمسون عاما انقضت منذ تزوجت زوجى ! تبدلت الأمور منذ ذلك الحين ! » .

(١٠)

تحامل « جود » على نفسه واسترجع قواه قليلا وعمل فى مهنته لبضعة أسابيع . وعقب عيد الميلاد ، مع ذلك ، انهارت صحته مرة أخرى .

وبالمال الذى كسبه من عمله فى الفترة الأخيرة استطاع أن ينتقل إلى مسكن أقرب إلى قلب المدينة من مسكنه الأول . على أن « أرابيلا » رأت أنه قد لا يقوى على القيام بعمل يذكر لمدة طويلة فاستبد بها الغضب لما حدث من تغيير منذ أن عاد كل منهما إلى الآخر . كانت دائما تقول : « لأشنقن لو لم تكن أنت الرابح فى هذه الصفقة التى تمت بيننا أخيرا وحصلت فى آخر الأمر على ممرضة بالمجان وذلك بعودتك إلى ! » .

لم يكن « جود » ليكترث بما كانت تقوله « أرابيلا » بل نظر إلى ما صدر عنها من سوء المعاملة نظرة ساخرة لا تخلو من روح الدعابة . لكن شعوره فى بعض الأحايين كان جادا فكم من مرة فكر وهو طريح الفراش فى مدى الهزيمة التى منيت بها أحلام شبابه وكثيرا ما قال : « لكل رجل قدرة ولو بسيطة فى ناحية من الحياة ولكننى لم أبرع أبدا فى حرفة نحت الأحجار ، وبصفة خاصة فى ناحية الصقل والتثبيت فإن تحريك القطع الكبيرة من الصخور ينهك دائما قواى ، وكثيرا ما كنت أتعرض فى العمارات الكبيرة لتيارات الهواء الشديدة وذلك قبل إرساء النوافذ فى مواضعها . فتصيبنى نزلات البرد وأغلب ظنى أن هـذا هو مصدر ما بى الآن من مرض . لكننى كنت أحس دائما بقدرتى على شىء واحد ، وذلك لو أتيحت لى الفرصة . كنت قادرا على تجميع الأفكار ونقلها إلى الآخرين . إنى لأتساءل هل كان للمبدعين من كبار المفكرين والمنشئين من القدرة مالى؟ إننى قليل النفع فى الحياة ولكن عندى هذه الخبرة الخاصة . لقد شاع أن الفرصة

ستتاح قريبا لطلاب العلم الفقراء مثلى كى ينالوا حظهم من العلم وهناك خطط تستهدف جعل الجامعة غير مقصورة على الفئة القليلة التى ترتادها الآن كما تستهدف توسيع دائرة نشاطها . ليس لدى علم كبير بذلك إذ مضى العهد ـ مضى العهد وراح بالنسبة لى ! ومضى أيضا بالنسبة لأناس أفضل منى كثيرا ! »

وقالت « أرابيلا » : « كيف تستطيع أن تهمس بهذا الكلام وتظل تتمتم به على هذه الصورة ؟ كنت أظن أنك تغلبت الآن على هيامك بالكتب وجنونك بها وفى استطاعتك أن تفعل ذلك لو كانت لديك الرغبة الشرع فى ذلك . ولكنك الآن اسوأ مما كنت عندما عقدنا زواجنا الأول . »

وفى مرة من هذه المرات وهو يحادث نفسه ناداها دون وعى منه بقوله : « سو » . قالت « أرابيلا » فى غضب شديد : « أرجو أن تتنبه جيدا للشخص الذى تتحدث إليه . إنك تسمى سيدة محترمة باسم هذه ... ثم تذكرت ماحدث لها فى المرة الأولى فماتت الكلمات على شفتيها ولم تصل إلى سمعه .

وبمرور الزمن ، وعندما رأت كيف تسير الأمور وكيف أنها لم تعد تخشى منافسة « سو » قالت فى نوبة من الكرم المفاجىء : « أظن أنك تتوق لرؤية صديقتك ـ « سو » ؟ حسن . إنى لا أعارض فى أن تأتى إلى هنا . يمكنك أن تستدعيها لو أردت . »

ـــ « لا أود أن أراها ثانية » .

ـــ « أوه يا لهذا من تغيير كبير ! » .

ـــ « لا تخبريها بأى شىء عنى سواء عن مرضى أو أى شىء آخر . لقد اختارت طريقها فدعيها تسير فيه ! » .

وذات يوم تلقى « جود » مفاجأة إذ جاءت السيدة « إيدلين » من تلقاء نفسها لزيارته . ولما كانت «أرابيلا» أصبحت الآن لا تكترث به أو بأموره العاطفية ، غادرت الغرفة وتركته بمفرده مع السيدة « إيدلين » . ودون تفكير سأل «جود»

عن «سو» وقال فى جفاء وهو يتذكر ما سبق أن أخبرته به : « أظن أنهما مازالا يعيشان كزوجين ولكن بالاسم فقط ! » .

وترددت السيدة « إيداين » فى الإجابة وأخيرا قالت : «لا لقد تغير الحال الآن. وبدأت فى تغيير الوضع منذ مدة قصيرة ـ بدأت هذا التغيير بدافع من رغبتها المطلقة » .

قال فى لهفة : « ومتى بدأ هذا التغيير ؟ » .

ـ « بدأته فى نفس الليلة التى زرتها فيها ، ولكن تصرفها كان على سبيل القصاص من نفسها . لم يكن هو راغباً فى ذلك ولكنها أصرت عليه » .

ـ « سو » ـ يا عزيزتى « سو » ـ يا قرة عينى . أيتها البلهاء الغالية ! هذا يفوق قدرتى على الاحتمال ! لا تجزعى أيتها السيدة « ايداين » من كلامى . إننى اضطر إلى الحديث مع نفسى لأننى أنام هنا بمفردى وأظل هكذا ساعات طويلة . كان تفكيرها بالنسبة لتفكيرى كالنجم بالنسبة لمصباح غازى صغير . كانت ترى خرافاتى وكأنها بيوت العنكبوت سرعان ما تمحوها بكلمة منها . ولكن النكبة المريرة حلت بنا ففقد تفكيرها استقامته وبريقه وارتدت هى إلى عالم الظلام . ما أعجب هذا الفرق بين الرجال والنساء ، فبينما المواقف والظروف تعمل على تطوير آراء الرجال فإنها فى الوقت ذاته تعمل على تضييق آفاق النساء بلا استثناء . والآن حلت الطامة الكبرى ! ما أعجب أن تسلم نفسها هكذا إلى من تبغضه وذلك فى سبيل خضوعها لشكليات لا قيمة لها ! . تلك المخلوقة الرقيقة المرهفة الحس التى تخاف من ظلها والتى يكاد النسيم يدمى بنانها كيف تجرؤ على فعل ذلك ! أما عن «سو» وعنى فمنذ زمن طويل عندما كنا نمضى أسعد أيامنا وعندما كانت عقولنا صافية وحبنا صادقا بلا خوف ، لم نكن حينئذ نعيش فى عهدنا ! كانت أفكارنا تسبقنا سبقا كبيرا مما جعلها عديمة الجدوى بالنسبة لنا لذا كانت المقاومة التى قوبلت بها هذه الأفكار قد حولتها إلى مخلوقة رجعية التفكير كما أصابتنى بالتفكك والدمار . إيه أيتها السيدة « ايداين » ! هذا ما أفعله دائما وهكذا أعود إلى نفسى

أحاسبها على ما فعلت وأنا راقد فى هذا المكان . لاشك أن حديثى يضجرك ضجرا شـــديدا » .

— « لا . مطلقا يا ولدى العزيز . يمكننى أن أصغى إليك طول اليوم » .

وعندما فكر « جود » مليا فيما جاءت به السيدة « ايدلين » من أخبار زاد قلقه وشرع من جراء آلامه النفسية يتكلم كلاما قاسيا يدور حول التقاليد والمعتقدات الاجتماعية مما سبب له نوبة شديدة من نوبات السعال . ثم سمع الاثنان طرقا على الباب الخارجى . وعندما لم يفتح أحد للطارق اضطرت السيدة «ايدلين» إلى أن تتوجه إلى الباب لتفتحه بنفسها .

قال القادم فى لهجة مؤدبة : « إننى الطبيب » .

وكان الشخص النحيل الضامر الذى طرق الباب هو الطبيب «فيلبيرت» وكانت « أرابيلا » أرسلت فى استدعائه .

قال الطبيب : « وكيف حال مريضى اليوم ؟ » .

— « أوه حاله سىء — سىء للغاية ! يا للمسكين ! فمنذ أن أطلعته على بعض الأخبار أثاره ما سمع وشرع يهذى بكلام شديد ويتحدث بأشياء لاتليق ، والذنب فى ذلك ذنبى وعلى أية حال يجب أن نلتمس له الأعذار وأسأل الله أن يغفر له » .

— « آه ، سأصعد لرؤيته . وهل السيدة « فاولى » فى البيت ؟ » .

— « إنها ليست هنا الآن ولكنها ستعود حالا » .

وصعد «فيلبرت» . وعلى الرغم من أن «جود» كان يتعاطى الأدوية التى وصفها له ذلك الطبيب الماهر وظل يتجرعها فى استسلام كلما صبتها له « أرابيلا » فى فمه ، إلا أن مزاجه الذى اضطرب بتأثير ما سمع من حديث السيدة « ايدلين » جعله ينفجر فى وجه الطبيب معلنا رأيه فيه فى صراحة خارقة وكلمات لاذعة مما جعل يـكر راجعا وينزل السلم مهرولا . وعنـــد الباب قابل « أرابيلا » فوقفا يتحدثان وكانت السيدة « ايدلين » غادرت البيت . استفسرت « أرابيلا » عن

حالة زوجها ولكنها عندما شاهدت الطبيب غاضبا صاخبا دعته إلى تناول شيء من الشراب فوافق على الفور .

قالت : « سأحضر لك الشراب هنا فليس بالمنزل اليوم أحد سواى » .

وأحضرت له « أرابيلا » زجاجة خمر وكوبا فبـــدأ يجرع الخمر وبدأت « أرابيلا » تكركر بالضحك المكبوت وقال الطبيب وهو يضم شفتيه : « ماهذا يا عزيزتى ؟ » .

ضحكت « أرابيلا » مرة أخرى وقالت : « إنها قطرة من نبيذ وفيها شيء تعرفه . لقد وضعت فى النبيذ قطرة من إكسير الحب الذى صنعته لى فى الماضى وابتعته منك فى المعرض الزراعى . ألا تذكر ؟ » .

— « بل أذكره . نعم أذكره جيداً . يا لك من خبيثة ماهرة ! ولكن عليك أن تهيئى نفسك للنتائج ! » .

وهمست فى أذنه وهى تتضاحك وتقول : « لا . لاتحاول فسيسمعنا زوجى »

وقادته إلى خارج البيت ثم عادت وهى تقول لنفسها : « حسن ! إن النساء الضعيفات لا بد أن يتأهبن لأيام الشدة . وإذا مات زوجى المسكين الذى يرقد الآن فى الطابق العاوى ، وهذا ما أظن أنه سوف يقع سريعا ، فلا بد لى من أن أجعل المجال أمامى مفتوحا ولم يعد لى الآن حق الاختيار كما كان الحال عندما كنت أكثر شبابا . على ذلك لا بد أن أستجيب للكهل إذا عجزت عن الحصول على الشاب ! » .

(١١)

إن الصفحات الأخيرة التى يخطها يراع مؤرخ هذه الأحداث عن حياة هذه الشخصيات تتناول بالوصف المنظر داخل مخدع « جود » وخارجه ، عندما دارت الأيام وعاد الصيف المورق مرة أخرى .

أصبح وجهه الآن نحيلا لدرجة أن أصدقاءه القدامى ما كانوا ليعرفوه . وكان الوقت أصيلا وكانت « أرابيلا » أمام المرآة تطوى جدائل شعرها وتلفها حول يد المظلة بعد تسخينها فى لهب الشمعة وتمرير الجزء المحمى منها فوق الخصلات السائبة . وعندما انتهت من ذلك اصطنعت غمازة . وبعد أن ارتدت ملابسها ألقت نظرة عابرة على « جود » . كان يبدو أنه نائم على الرغم من أنه فى وضع بين الجلوس والرقاد إذ كان مرضه يمنعه من التمدد الكامل .

وجلست « أرابيلا » مرتدية قبعتها وقفازها وانتظرت كما لو كانت تتوقع من يأتى ليحل مكانها بجوار « جود » . ومن الخارج جاءت أصوات دالة على أن البلدة فى احتفال ، وإن كان القليل منه يمكن رؤيته من الغرفة . وبدأت الأجراس تقرع وتسللت النغمات إلى الداخل من خلال النافذة المفتوحة وأخذ الرنين يلف حول رأس « جود » ويدور كالطنين .

كانت هذه النغمات تقلق بال « أرابيلا » التى قالت فى نفسها أخيراً : « لمَ لم يحضر أبى؟ » .

وألقت ببصرها ثانية إلى « جود » وهى تتفحص حياته الذاوية كما فعلت مرات ومرات أثناء الشهور المنصرمة . وبعد أن نظرت إلى ساعته ، وكانت معلقة على الحائط ، نهضت فى تململ . أما هو فظل نائما . وبعد أن وصلت إلى قرار ، تسللت من الغرفة وأغلقت الباب فى هدوء ثم هبطت السلم .

كان البيت خاليا ، إذ كان من الواضح أن المغريات التى دفعت « أرابيلا » إلى الخروج كانت هى التى دعت السكان الآخرين إلى فعل نفس الشىء قبل ذلك بوقت طويل .

كان اليوم دافئاً ، رائقاً ، مثيراً ، فأغلقت الباب الأمامى وأسرعت إلى شارع « تشيف » . وعندما اقتربت من المسرح أمكنها أن تسمع نغمات الأرغن إذ كان الاستعداد لحفل موسيقى قادم قائما على ساق وقدم . ودلفت تحت أحد

العقود المؤدية إلى كلية « ألدجيت » حيث كان الرجال ينصبون خيمة كبيرة حول الفناء المربوع استعداداً لحفل راقص يقام فى ذلك المساء داخل القاعة . أما الناس الذين قدموا من الريف لقضاء اليوم فكانوا يتنزهون فوق العشب . وسارت « أرابيلا » فى الممرات المغطاة بالحصباء ودخلت تحت أشجار الزيزفون الضخمة ولكنها وجدت أن المكان يميل إلى الكآبة فعادت إلى الطرقات الرئيسية وأخذت ترقب العربات التى تنقل القادمين لحضور الحفل الموسيقى - أعداداً كبيرة من رجال الجامعة مع زوجاتهم ، وطلابا يتزاحمون على الأبواب ومعهم رفيقات مرحات . وعندما أغلقت الأبواب وبدأ الحفل الموسيقى ، سارت فى طريقها .

واخترقت النغمات القوية الصادرة عن الحفل الموسيقى الستائر الصفراء التى غطت النوافذ المفتوحة الكائنة فوق أسطح المنازل وسبحت فى الهواء الساكن الذى هب فى الشوارع الضيقة . سارت « أرابيلا » مسافات بعيدة وتساءلت إلى الحجرة التى رقد فيها « جود » وكان ذلك فى نفس الوقت الذى انتابته فيه نوبة من السعال أيقظته . وعندما أصبح قادرا على الكلام ، غمغم يقول وعيناه مازالتا مغمضتين : « قليل من ماء من فضلك » .

ولم يتلق رجاؤه سوى الغرفة المهجورة . وسعل ثانية حتى تمزق صدره - وهو يقول فى نغمة أكثر ضعفا : « ماء - قليل من ماء - « سو » - « أرابيلا ! » .

وظل السكون مخيما على الحجرة . ثم قال وهو يلهث ثانية : « حلقى . ماء - « سو » - عزيزتى - قطرة ماء . أرجوك - أرجوك ! » .

ولم يأت الماء وبدأت نغمات الأرغن ضعيفة كطنين نحلة ثم اندفعت فى قوة لا يوقفها شىء .

وبينما ينتظر وملامح وجهه تتغير وتتبدل معبرة عما يحس به من ألم ، جاءت الصيحات والهتافات تترى وكانت تصدر من مكان عبر النهر . وغمغم يقول :

« آه . نعم! ما أعجب ألاعيب القدر ! ها أنا ذا طريح الفراش بينما « سو » فى مأزق خانق » .

وتكررت الهتافات وعلت حتى طغت على نغمات الأرغن وزادت التغيرات التى طرأت على وجه « جود » وهمس فى ضعف وشفتاه المتيبستان الجافتان تتحركان فى صعوبة بالغة :

« ليت اليوم الذى ولدت فيه لم يطلع ولم يأت الليل الذى حملت فيه الأم صبياً جنيناً » .

(هتافات)

« لينقلب ذلك اليوم ظلاما لا يعتمده الله من فوق ولا يشرق عليه نهار . ليكن ليلا قاتما لا يسمع فيه هتاف » .

(هتافات)

« لم لم أمت فى الرحم ؟ وعندما خرجت من البطن لم لم أسلم الروح ؟ . . . . فكنت الآن مضطجعا ساكنا . ونمت مستريحا ! » .

(هتافات)

« هنالك الأسرى يطمئنون جميعا لا يسمعون صوت المسخر . . . والصغير كالكبير هناك والعبد حر من سيده . . . لِمَ يعطى للشقى نور وحياة فى مرارة النفس ؟ » .

فى تلك الاثناء كانت « أرابيلا » تجوب الطرقات لتكشف الستار عما يجرى ثم اختصرت الطريق بأن سارت فى شارع ضيق ثم ولجت زقاقا مظلما وسارت فيه حتى وصلت إلى ساحة الكاردينال . كانت الضجة يتردد صداها فى كافة جوانبها كما كانت الأزهار تجملها ويزيد من بهاء هذه الساحة انعكاس ضوء الشمس البهيج . لقد كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق فى إقامة حفل راقص . وأومأ لها نجار كان من قبل زميلا لجود ، والعمال يقومون بتمهيد طريق يصل بين المدخل

وسلم القاعة ويغطيه بساط أحمر زاهى اللون . وجاءت إلى المكان عربات محملة بالأزهار المتفتحة ذات الألوان البهيجة لكى تصف على الجانبين والسلم الرئيسى مغطى بقماش أحمر . وهبطت « أرابيلا » السلم وهى تلقى بتحياتها لهذا العامل وذاك وتعتمد فى ذلك على معرفتها لهم وسمحوا لها بالتجوال بينما كانوا يقومون بتغيير بلاط الأرضية وتزيينها استعدادا للحفل الراقص وكانت ساعة الكاتدرائية الضخمة تدق الخامسة معلنة بدء الصلاة .

قالت « أرابيلا » لأحد الرجال : « لا مانع عندى من أن أقوم بجولة هناك مع صديق يلف ذراعه حول خصرى ويراقصنى ولكن يا إلهى ، يجب أن أعود سريعا إلى البيت فلدى كثير من الأعمال والرقص ليس لى ! » .

وعندما بلغت المنزل قابلها « ستاج » عند الباب وفى صحبته بناءان أو ثلاثة من زملاء « جود » وقال الأول : « كنا نعتزم الذهاب إلى النهر لنشاهد سباق القوارب ولكننا توقفنا نسأل عن صحة زوجك » . وقالت « أرابيلا » : « إنه ينام فى هدوء . أشكركم » .

— « هذا عظيم للغاية . هلا أرحت نفسك فترة أيتها السيدة «فاولى» وجئت معنا ؟ لسوف يفيدك ذلك كثيرا » .

قالت : « نعم . أرغب فى الذهاب فإنى لم أر سباقا للقوارب من قبل ، وسمعت إنه شىء مثير » .

— « تعالى معنا ! » .

وتطلعت « أرابيلا » فى لهفة إلى الشارع الممتد أمامها ثم قالت : « كم أتوق لمصاحبتكم ! انتظروا إذن لحظة حتى أصعد بسرعة وأطمئن عليه . أعتقد أن أبى يجلس معه الآن لذا أظن أننى سأعود إليكم سريعا » .

وانتظر الرجال بينما دخلت « أرابيلا » إلى البيت ولم يكن أحد من سكانه موجودا فى الطابق السفلى إذ كانوا جميعا قد ذهبوا إلى النهر لمشاهدة السباق .

وعندما وصلت إلى حجرة النوم اكتشفت أن والدها لم يعد بعد .

قالت فى ضيق : « لِمَ لم يأت؟ إنه يود أن يشاهد السباق وهذا هو السبب ! » .

وعلى الرغم من ذلك ، عندما استدارت ناحية السرير ، أشرق وجهها إذ رأت أن « جود » يبدو نائما ممددا وليس فى وضع رأسى كما تعود أن يفعل ليتحاشى نوبات السعال . كان قد انزلق من مكانه فتمدد جسده على السرير . وعندما نظرت إليه ثانية ، جفلت ثم عادت إلى السرير . كان وجهه فى بياض الشمع وازدادت ملامحه بالتدريج جمودا . لمست أصابعه وكانت باردة على الرغم من أن جسده ما زال دافئاً ، ثم وضعت أذنها على صدره فوجدت أن كل شىء بداخله أصبح ساكنا . لقد توقفت الضربات التى ظلت مايقرب من ثلاثين عاما .

وفى الفترة التى تلت شعورها المفزع بما حدث ، طرقت أذنيها النغمات الواهنة لفرقة عسكرية أو غيرها قادمة من النهر وفى نبرة غضب قالت : « ما أعجب أن يموت فى هذه اللحظة ! ولِمَ يموت الآن بالذات ! » .

وبعد أن سرحت بفكرها لحظة توجهت إلى الباب وأغلقته فى هدوء وهبطت السلم ثانية .

قال أحد العمال : « هاهى ذى تنزل ! كدنا نعتقد أنك لن تعودى . هيا بنا ، يجب أن نسرع لنحصل على مكان مناسب . كيف حاله ؟ ألا يزال ينام فى هدوء ؟ بالطبع لا نود أن نجبرك على المجىء لو أنه ... » .

وقالت فى سرعة : « أوه نعم — إنه ينام نوما عميقا ولن يستيقظ الآن » .

وساروا مع الحشود المتجهة إلى شارع الكاردينال وسرعان ما بلغوا الجسر وبدأوا يمتعون أبصارهم بالقوارب الرشيقة وهى تنطلق على صفحة الماء أمامهم ثم ساروا فى زقاق موصل للطريق المحاذى للنهر ، وكان اليوم حارا كثير الغبار والمكان شديد الزحام ولم يكد يمضى على وصولهم وقت طويل حتى بدأ العرض الكبير للقوارب . وأخذت المجاديف تضرب سطح النهر بقوة محدثة أصواتا شبيهة

بالقبلات العالية ، وبخاصة كلما نزلت عمودية على سطح الماء . وقالت «أرابيلا» : « أوه يا للعجب . ما أعجب هذا المنظر ! إنى سعيدة بمجيئى . فوق ذلك - لا يمكن أن يسبب غيابى عن البيت أى ضرر لزوجى ! » .

وفى الناحية الأخرى من النهر . وفى داخل السفن المكتظة بالناس كانت هناك جماعات كبيرة من النسوة ذوات الجمال الآخذ بمجامع القلوب ارتدين ملابس أنيقة متعددة الألوان . والعلم الأزرق ، وهو علم المنتدى الذى تولى تنظيم حفل القوارب ، هو مركز الاهتمام للجموع المحتشدة حيث تجمعت تحته فرق الموسيقيين ذات الملابس الحمراء الذين عزفوا الأنغام التى تطرقت إلى سمع «أرابيلا» عندما كانت تقف فى حجرة الموت . كان هناك طلاب مختلفو النحل يستقلون قوارب فى صحبة الصديقات والخلان وكلهم يرقبون فى حماسة بالغة القارب الذى تراهنوا عليه وهو يخترق الماء ذهابا وجيئة . وبينما كانت «أرابيلا» ترقب المنظر المثير أمامها شعرت بأن أحدا يلكزها فى صدرها . وعندما استدارت وجدت نفسها أمام الطبيب « فيلبرت » .

قال الطبيب وهو يغمز لها بإحدى عينيه : « دواء الحب هذا كان له تأثير شديد علىّ . لم تحطمين قلب إنسان مسكين مثلى هكذا ! » .

— « لن أتكلم عن الحب اليوم » .

— « ولم لا ؟ اليوم عطلة عامة » .

ولم تجبه « أرابيلا » . والف فيلبرت ذراعه خلسة حول خصرها وفى غمار الزحام مرت هذه الحركة دون أن يلحظها إنسان . وعندما شعرت بذراعه حول خصرها ظهر على وجهها تعبير معقد غريب ، ولكنها ظلت تطيل النظر إلى النهر دون أن تحول عينيها عنه وكأنها لا تشعر باحتضانه لها .

وتدفق الزحام كالموج المتلاطم ودفع « أرابيلا » وأصدقاءها أمامه حتى أوشكوا جميعا على السقوط فى النهر وكان من الجائز أن تضحك من أعماق نفسها

للصخب الممتع الذى تلا ذلك لولا تلك النظرة التى انطبعت فى مخيلتها والتى شخصت إليها من وجه يشبه التمثال بياضا وحرمتها من الانتشاء .

ووصل السباق المائى إلى ذروته فى المرح والحبور عندما بدأ الناس يغوصون متصايحين بين الكسب والخسارة بينما غادرت النســـوة ذوات الملابس الحمراء والصفراء والزرقاء أماكنهن على ظهور القوارب وبدأت الجموع كلها تتحرك مغادرة المكان .

وصاحت « أرابيلا » : « حسن — كل شىء طيب للغاية . ولكننى يجب أن أعود فورا إلى زوجى المسكين ، على ما أعتقد . أبى هناك ، أظن ذلك ، ولكن ينبغى أن أعود . »

— « وفيم العجلة ؟ »

— « حسن . لابد أن أذهب — يا للمصيبة ! »

وعند المدخل الضيق حيث صعد الناس قادمين من الطريق المحازى لشاطىء النهر إلى الجسر ، تجمع هؤلاء فى كتلة واحدة متفجرة — وكانت « أرابيلا » و « فيلبرت » يكونان جزءا من هذه الكتلة مما جعلهما يظلان لحظة بلا حراك. وتأففت « أرابيلا » من ضغط الزحام وبدأت تفقد حلمها إذ فى تلك اللحظة خطر ببالها خاطر وهو أنه لو اكتشف أحد أن « جود » مات فى الغرفة وحده فإن تحقيقا قد يصبح شيئا لا مفر منه .

قال الطبيب وقد قربته منها الجماهير المتدافعه فلم يكن فى حاجة للالتصاق بها من تلقاء نفسه « يا لِك من مخلوق قلق يا حبى ، أصبرى . لا يمكنك الخروج الآن ! »

ومضى مايقرب من عشر دقائق قبل أن يفك الحصار حولها واستطاع المرور. وبمجرد أن وصلت إلى الشارع ، أسرعت السير بعـــد أن منعت الطبيب من مصاحبتها .

لم تتوجه رأسا إلى بيتها بل ذهبت إلى مسكن امرأة تتولى تجهيز الموتى الفقراء للدفن وطرقت الباب وقالت : « قضى زوجى المسكين نحبه الآن . أيمكنك أن تأتى وتعديه للدفن ؟ »

وانتظرت « أرابيلا » فترة سارت بعدها المرأتان وهما يدلفان فى صعوبة خلال الجمع المتأنى المتدفق من المراعى المحيطة بكلية الكاردينال بينما العربات التى تزحم الطريق توشك أن تلقيهما أرضا . قالت « أرابيلا » : « يجب أن أمر على «القندلفت» بشأن الجرس أيضا . إنه يسكن بالقرب من هذا المكان ، أليس كذلك ، سأقابلك عند باب بيتى . »

وعندما كانت الساعة العاشرة مساء كان « جود » يرقد مسجى فى مسكنه وقد غطى جسده بملاءة وكان مشدودا كسهم . ومن خلال النافذة الموارية تسللت أنغام مرحة قادمة من قاعة للرقص فى شارع الكاردينال .

وبعد مرور يومين على موت « جود » كانت السماء كما هى خالية من السحب والجو ساكن . وهناك شخصان يقفان بجانب التابوت المفتوح الموضوع فى نفس حجرة النوم الصغيرة إذ كانت « أرابيلا » تقف فى ناحية والسيدة « ايدلين » فى الناحية الأخرى ، وكل منهما يتطلع إلى وجه « جود » ، وكانت جفون السيدة « ايدلين » أصبحت حمراء من أثر التعب والإنهاك . وأخيرا قالت : « كم يبدو جميل الطلعة ! »

قالت « أرابيلا » : « نعم ولكنه الآن مجرد جثة وسيمة . »

كانت النافذة كما هى مفتوحة لتهوية الحجرة ، والوقت ظهرا وظل الهواء النقى فى الخارج ساكنا هادئا . ومن بعيد جاءت أصوات ، كما جاء صوت واضح لأشخاص يدقون الأرض بأرجلهم .

وغمغمت السيدة العجوز : « ما هذا الصوت ؟ »

— « أوه . هذه أصوات أساتذة الجامعة وهم وقوف على المسرح يمنحون

الدرجات الشرفية لدوق « هامتو نشاير » ولكثيرين غيره من الطبقة الممتازة . إنه أسبوع التذكر كما تعلمين . أما الهتافات فصادرة عن طلاب العلم من الشباب الجامعى .

— « أجل . الشباب من ذوى الصدور القوية والرئات السليمة . وليسوا كولدنا المسكين هنا . »

ومن وقت إلى آخر طرق سمع المرأتين كلمات متناثرة من خطاب يلقى وكانت الكلمات تتسلل من نوافذ المسرح المفتوحة وتدخل إلى هذا الركن الساكن حيث بدت على ملامح « جود » المرمرية ما يشبه الابتسامة ، فى حين بدت كتبه القديمة زرية الهيئة ، كالحة اللون بجوار هذه الأصوات المرحة القادمة من خارج الغرفة . كانت الكتب نسخا قديمة راح أوانها وكانت من مؤلفات كتاب عظام «كفبرجيل» و « هوراس » ، ومن بين الكتب نسخة يونانية للعهد الجديد وقد تمزقت صفحاتها وانكمشت جوانبها من كثرة الاستعمال .

كانت هذه الكتب مرصوصة على رف بالقرب من السرير ومن بينها كثير من المؤلفات التى لم تفارق « جود » وكلها ملوثة بغبار الصخور وآثارها إذ كان من عادته أن يتناول بعضها لبضع دقائق أثناء فترات الراحة التى تتخلل ساعات العمل . ودقت الأجراس فى حبور وانتشرت نغماتها فى جو المخدع .

وانتقلت عينا « أرابيلا » من « جود » إلى السيدة « ايدلين » وقالت : « أتظنين أنها ستأتى ؟ »

— « لا أستطيع القول . أقسمت على ألا تراه ثانية . »

— « كيف تبدو ؟ »

— « منهوكة تعسة ، يا للمسكينة ! أكبر بأعوام وأعوام مما شاهدتها آخر مرة . امرأة هامدة خائرة . إنه هو — وهى لا تقوى على هضمه ، حتى فى هذه الظروف ! »

مطبعة العـــــلوم
١٨١ شارع بور سعيد بالسيدة زينب

محتويات الكتاب


منتدى سور الأزبكية